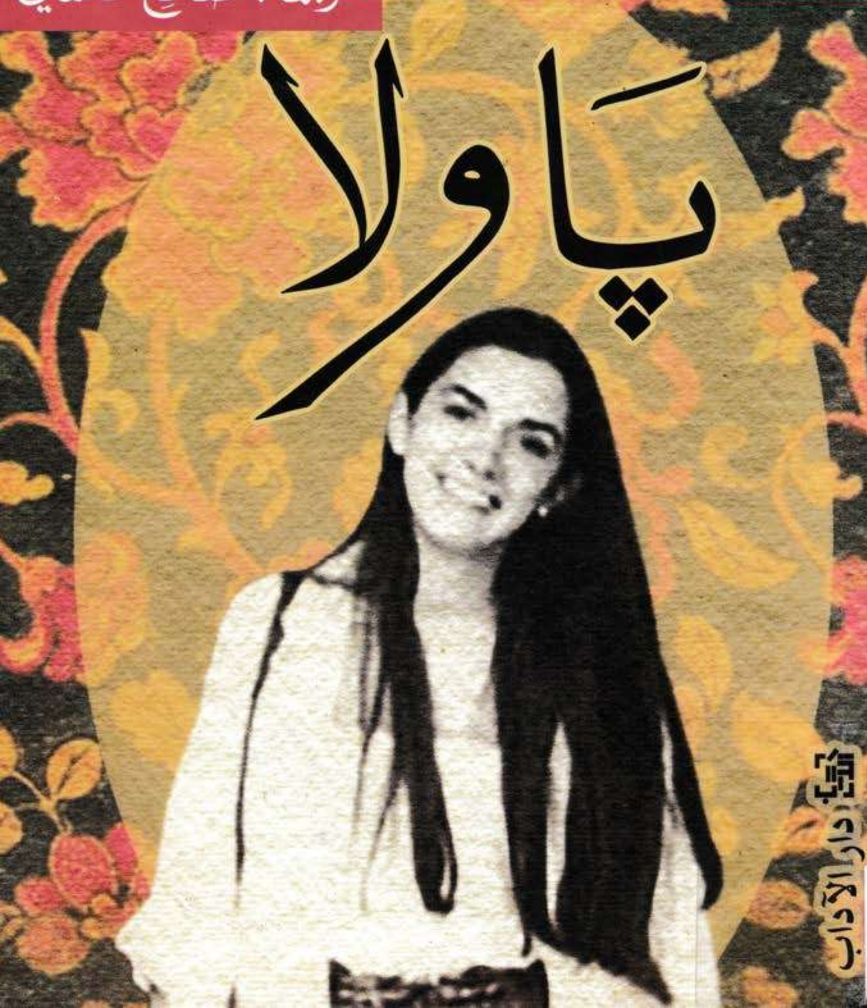
إيزابيل أليندي

رِوايَة

ترجَمة: صَالِح علمَاني

پاولا




mohamed khatab

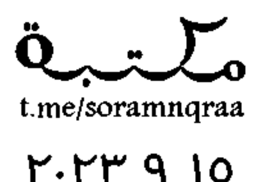
باولا

إيزابيل ألليندي

الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2018

PAULA

ISBN 978-9953-595-6



 دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

إيزابيل ألليندي

باولا

ترجمة: صالح علماني

رواية

دار الآداب ـ بيروت

أُصيبت ابنتي باولا بمرض خطير، في شهر كانون الأوَّل ١٩٩١، ثم دخلتْ بعد فترة وجيزة في غيبوبة. وقد كتبتُ هذه الصفحات خلال ساعات، لا حصر لها، أمضيتها في ممرّات المستشفى في مدريد، حيث أقمتُ بغرفة في فندقٍ عدَّةَ شهور، ومكثت إلى جانب سريرها في بيتنا في كاليفورنيا أيضًا، في صيف العام ١٩٩٢ وخريفه.

القسم الأوَّل

كانون الثاني ١٩٩١ ــ أيَّار ١٩٩٢

اسمعي، يا باولا، سأقصُّ عليك قصَّةً، كيلا تكوني ضائعة تمامًا عندما تستيقظين.

أسطورة الأُسرة تبدأ في أوائل القرن الماضي، حين نزل بحّار باسكيّ قويّ على شواطئ تشيلي، وكان رأسه يتيه في مشاريع العظمة، وتحميه تعويذة من أمّه معلَّقةٌ حول عنقه. ولكنْ، لماذا العودة كثيرًا إلى الوراء. يكفي أن أقول إنَّ ذرِّيَّته كانت سلالة من النساء المندفعات، والرجال ذوي الأيدي الثابتة في العمل والقلوب العاطفيَّة. بعضهم كان نَزِق الطباع، فمات وهو يُطلق الزبد من فمه، وربَّما لم يكن داءُ الكَلَب السببَ، كما لَمَّحَتْ بعض ألسنة السوء، وإنَّما وباءٌ محلِّيٌّ. لقد اشتروا أراضي خصبة بالقرب من العاصمة، فارتفعت قيمتها بمرور الزمن، فتحضَّروا، وشيَّدوا بيوتًا فخمة تُحيط بها حدائق وغابات، وزوَّجوا بناتهم وجهاء محلِّيِّين أثرياء، وعلَّموا أبناءهم في مدارس دينيَّة صارمة. وهكذا، انضمُّوا، بمرور السنوات، إلى أرستقراطيَّة إقطاعيَّة متعجرفة

سادت أكثرَ من قرن من الزمان، إلى أن استبدلتها رياح الحداثة بسلطة التكنوقراطيين والتجّار. ولقد كان جدّي واحدًا من هؤلاء. وُلد في مهد فاخر، ولكنّ والده مات مبكرًا بطلقات بارودة صيد، ولم تُعرَف قطّ تفاصيلُ ما حدث في تلك الليلة المشؤومة. ربّما كانت مبارزة، أو عمليّةَ ثأر، أو ربّما حادثة غراميّة، لكنَّ أسرته ظلّت، في أيّ حال، بلا موارد. ولأنَّ جدّي كان أكبر إخوته، فقد اضطر إلى ترك المدرسة والبحث عن عمل للقيام بِأَوَدِ أمّه وتربية إخوته الصغار. وبعد وقت طويل من ذلك، عندما تحوّل إلى سيّد ثريّ يرفع الآخرون قبّعاتهم أمامه، اعترف لي بأنَّ أسوأ أشكال الفقر هو فقر صاحب الباقة وربطة العنق، لأنّه لا بدَّ من التستُّر عليه. كان يظهر على أكمل وجه، بملابس أبيه المقيّفة على مقاسه، وبالباقات الصلبة والبدلات المكويّة جيّدًا لإخفاء اهتراء نسيجها. وقد غيّرت مرحلة العوز تلك طباعَه، فكان يرى أنَّ الحياة هي من أجل بذل الجهد والعمل فقط، وأنّه لا يمكن لإنسان محترم أن يعيش في هذه الدنيا من دون أن يمدّ يد المساعدة إلى الآخرين. ومنذ ذلك الحين، كان يتمتع بمَلَكة التعبير الدقيق والذكاء اللذين ميّزاه، وكان مصوغًا من المادّة الصخريّة نفسها التي صيغ منها أسلافه. وكانت قدماه، مثل أقدام كثيرين منهم، راسختين في الأرض اليابسة، ولكن جزءًا من روحه كان يهرب إلى هوّة الأحلام. ولهذا السبب، أحبّ جدّتي، الابنةَ الصغرى في عائلة مؤلّفة من اثني عشر أخًا، جميعهم مجانين وغريبو الأطوار ومُفرِحون، مثل تيريسا التي بدأ يظهر لها في أواخر حياتها جناحا قدّيسة، وعندما ماتتْ، ذَوَتْ في ليلة واحدة جميعُ ورود الحديقة اليابانيّة؛ أو مثل أمبريوسو المتباهي والزاني العظيم، والذي كان يتعرّى في الشارع في

نوبات كرمه، كي يُهدي الفقراء ملابسَه. لقد ترعرعتُ وأنا أسمع التعليقات عن موهبة جدَّتي في تكهُّن المستقبل، وقراءةِ أفكار الآخرين، والتحاورِ مع الحيوانات، وتحريكِ الأشياء بقوَّة نظراتها. وكانوا يروون عنها أنَّها حرَّكت في إحدى المرَّات طاولةَ بيلياردو في الصالون. ولكنَّ الشيء الوحيد الذي رأيته يتحرَّك، في حضورها، هو سكَّريَّة تافهة؛ ففي ساعة تناول الشاي، كان وعاء السكَّر ذاك ينتقل على غير هدًى فوق المنضدة. وكانت هذه القدرات توقظ شيئًا من الشكوك. فعلى الرَّغم من جمال الفتاة، فإنَّ المتقدِّمين للزواج كانوا يتخاذلون ويُحجمون في حضورها. أمَّا جدِّي، فلم يكن يرى في التخاطر إلَّا تسليةً بريئة لا تشكِّل عائقًا جدِّيًا للزواج. والشيء الوحيد الذي كان يُثير قلقه هو فارق السنّ بينهما، فقد كانت أصغر منه بكثير، وعندما عرفها كانت لا تزال تلعب بالدمى وتمضي حاملة وسادة متّسخة جدًّا. ولكثرة ما نظر إليها على أنَّها طفلة، لم ينتبه لعاطفته تجاهها إلى أن ظهرت أمامه في أحد الأيَّام في فستان طويل وشعرها معقود، وانكشف عندئذ له حبٌّ يتفاعل في داخله منذ سنوات، فأوقعه ذلك في أزمة خَجَلٍ جعلته يتوقَّف عن زيارتها. وقد أدركت هي حالته المعنويَّة قبل أن يتمكَّن هو نفسه من حلّ لفافة خيوط مشاعره المتشابكة، وأرسلت إليه رسالة، هي الأولى من رسائل كثيرة كتبتها إليه في اللحظات الحاسمة من حياتيهما. لم تكن رسالة معطَّرة تتلمَّس الطريق بحذر، وإنَّما ملاحظة قصيرة مكتوبة بقلم رصاص على ورقة دفتر مدرسيّ، تسأله فيها، من دون مقدّمات، عمّا إذا كان راغبًا في أن يكون زوجها. وإذا كان الردّ بالإيجاب، فمتى سيفعل ذلك؟ عُقد قرانهما، بعد بضعة شهور من ذلك، وظهرت العروس أمام المذبح

كأنَّها قادمة من أزمنة أخرى، مزيَّنة بدانتيلًا عاجيَّة اللون، وبفوضى أزهار برتقال من الشمع معلَّقة بغَديرة شعرها المرفوعة. وقرَّر، حين رآها، أنَّه سيحبّها بعناد حتى نهاية حياته.

كان هذان الزوجان، بالنسبة إليّ، هما «تاتا» و«ميمي» إلى الأبد. ومن بين جميع أبنائهما لا أهمّيَّة في هذه القصَّة إلَّا لأمّي، لأنَّني إذا بدأت الحديث عن بقيَّة أفراد القبيلة فلن ننتهي أبدًا، أضف إلى ذلك أنَّ الأحياء منهم أصبحوا بعيدين جدًّا. هكذا هو المنفى، يقذف الناس مع الرياح الأربع، ويصبح من الصعب بعد ذلك لمُّ شمل المتفرّقين. لقد وُلدت أمّي بين حربين عالميَّتين في يوم ربيعيّ من سنوات العشرينيَّات. وكانت طفلة حسَّاسة، عاجزةً عن مرافقة إخوتها في غاراتهم، في سقيفة البيت، لاصطياد الفئران من أجل حفظها في قوارير مملوءة بالفورمول. وترعرعتْ محميَّة بين جدران منزلها ومدرستها، مستغرقةً في القراءات الرومانسيَّة وأعمال الإحسان، واشتهرت بأنَّها أجمل من وقع عليها النظرُ في أسرة النساء الملغَّزات تلك. ومنذ بلوغها سنّ الرشد، كان المعجَبون يُحيطون بها مثل الذباب، فكان أبوها يُبقيهم بعيدين عنها، وأمّها تدرس حقيقتهم في ورق اللعب، إلى أن انتهت المداعبات البريئة بدخول رجل موهوب وخاطئ إلى قَدَرها، فأزاح الخصوم الآخرين من طريقه من دون مشقَّة، وملأ روحها بالقلق. كان ذلك الرجل، يا ابنتي، جدَّك توماس الذي تلاشى في الضباب، ولست أذكره الآن إلَّا لأنَّك تحملين في عروقك شيئًا من دمه، يا باولا، وليس لأيّ سبب آخر. هذا الرجل سريع البديهة وصارم اللسان. كان يبدو مفرط الذكاء والاتّزان في ذلك المجتمع الريفيّ. كان مثل طائر نادر وغريب في سنتياغو في تلك

الأزمنة. لقد نُسب إليه ماضٍ غامضٌ، ودارت إشاعات عن انتسابه إلى الماسونيَّة، وعن أنَّه، بالتالي، عدوٌّ للكنيسة، وأنَّه يُخفي ابنًا له أنجبه بالحرام، ولكن أيًّا من هذه الأمور لم يكن ينفع كحجَّة يُقنع بها «تاتا»، ابنته، بالعدول عن ذلك الزواج، لأنَّ جدِّي لم يكن بالشخص القادر على تشويه سمعة الآخرين من دون أساس. لقد كانت تشيلي آنذاك قالبَ حلوى من ألف طبقة رقيقة ـ وهي ما زالت كذلك بطريقة ما ـ. فقد كانت فيها سلالات أكثر ممَّا في الهند، وكان هناك نعت تشهيريّ لوضع كلّ شخص في مقامه: فهذا مكسور، وذاك متكلِّف، والآخر وصوليّ أو مُتصنِّع، وغير ذلك كثيرٌ، حتى الوصول إلى المستوى المريح للناس أمثالنا. وكان الميلاد هو الذي يحدِّد الأشخاص، فكان من السهل الانحدار في سلّم المراتب الاجتماعيَّة، ولكنَّ المال والسمعة والموهبة لم تكن تكفي كلّها للصعود، لأنَّ ذلك يتطلَّب جهود أجيال عديدة. وكان سببُ ترجيح كفَّة توماس تحدُّرَه من نَسَب عريق، بالرَّغم من أنَّ عينَي «تاتا» كانتا تلمحان وجود سوابق سياسيَّة مريبة. ففي ذلك الحين بالذات، بدأ بالظهور اسم شخص يُدعى سلفادور أللِيندي، مؤسِّس الحزب الاشتراكي الذي كان يمظ ضدّ الملكيَّة الخاصَّة والأخلاق المحافظة وسلطة الملاَّكين. وكان توماس ابن عمّ هذا البرلمانيّ الشابّ.

انظري، يا باولا، لديّ هنا صورة «تاتا». هذا الرجل ذو الملامح الصارمة، وصاحبُ الحدقتين الصافيتين، والنظَّارةِ ذات الإطار السلكيّ والقبَّعةِ السوداء، إنَّه جدّ أمّك. وهو يبدو في الصورة جالسًا يمسك عكّازه، وإلى جانبه، هناك، طفلةٌ في الثالثة من عمرها ترتدي ثياب العيد، مستندةٌ إلى ركبته اليمنى، لطيفةٌ مثل دمية راقصة مصغَّرة، تنظر

إلى آلة التصوير بعينين باهتتين. هذه الطفلة هي أنت، ووراءكما أقف أنا وأمّي. إنَّ الكرسيّ يُخفي انتفاخ بطني، فقد كنت آنذاك حبلى بأخيك نيكولاس. ويَظهر جدِّي العجوز في الصورة مواجهةً، وتبدو عليه ملامحُ الكبرياء. وهذا الوقارُ الخالي من التأثر يشعر به من كوّن نفسه بنفسه، ومن اجتاز طريقه باستقامة ولم يعد ينتظر المزيد من الحياة. إنَّني أتذكَّره دائمًا شيخًا مسنًّا، ولكن من دون تجاعيد، باستثناء أخدودين عميقين عند طرفي الفم، وبلمَّةِ شعر بيضاء مثل لبدة الأسد، وضحكةٍ خشنة تكشف عن أسنان صفراء. لقد كانت الحركة تُجهده في سنواته الأخيرة، ولكنَّه كان ينهض واقفًا بمشقَّة ليحيّي النساء ويودّعهنَّ، وكان يستند إلى عكَّازه ليرافق الزائرين حتى بوَّابة الحديقة. كنت معجبة بيديه اللتين كانتا مثل غصنَيْ شجرة حَوْر، ملتويتين وقويَّتين وممتلئتين بالعقد، ويروق لي منديلُه الحريريُّ الذي يُحيط بعنقه على الدوام، ورائحةُ صابون الغسل والتعقيم الإنكليزيّ التي تفوح منه. لقد سعى، بمزاج رائق، لتلقين ذرّيّته فلسفتَه الرواقيَّة؛ فقد كان يرى في المشقَّة صحَّةً، وفي التدفئة مضرَّةً، وكان يطلب طعامًا بسيطًا ـ من دون أيِّ نوع من الصلصات أو الخلطات ـ ويرى في المرح ابتذالًا. وفي صباح كلِّ يوم، كان يتحمَّل حمَّامًا باردًا، وهو عادة لم يقلِّدها أحد في الأسرة. وفي أواخر حياته، حين صار يبدو خنفسًا عجوزًا، واصل عادته بثبات وهو يجلس على كرسيٍّ تحت تدفق صنبور الماء المثلَّج. كان يُورد في أحاديثه أمثالًا حاسمة، ويردّ على أيِّ سؤال بسؤال آخر. ولهذا، لست أعرف الكثير عن أيديولوجيَّته، ولكنَّني تعرَّفت بعمق إلى طبعه. انظري إلى أمّي. إنَّ عمرها في هذه الصورة، أكثرُ من أربعين عامًا، وكانت آنذاك في أوجّ رونقها، ترتدي زيّ تلك الأيَّام مع تنُّورة

قصيرة، وشعرُها مثل قفير نحل. إنَّها تضحك وتبدو عيناها الواسعتان والخضراوان، مثلَ خطَّين يحُدّهما قوسُ الحاجبين الأسودين الدقيقُ. لقد كانت تلك أسعدَ مراحل حياتها، عندما انتهت من تربية أبنائها، وعشقتْ، وكان عالمها لا يزال يبدو مأمونًا.

كنت أرغب في أن أُريك صورة لأبي، ولكنَّهم أحرقوا كلّ صوره منذ أكثر من أربعين سنة.

أين تمضين، يا باولا؟ كيف ستكونين عندما تستيقظين؟ هل ستكونين المرأةَ نفسها، أم أنَّه سيتوجَّب علينا أن نبدأ بالتعارف كغريبتين؟ هل ستكون لديك ذاكرة، أم أنَّه سيكون عليّ أن أروي لك، بصبر، تفاصيلَ سنوات حياتك الثماني والعشرين، وتفاصيلَ سنوات حياتي التسع والأربعين؟

«ليحفظِ الربّ طفلتك!» هكذا يهمس لي بصعوبة دون مانويل، المريضُ الذي يشغل السرير المجاور لسريرك. إنَّه فلّاح عجوز، أُجريت له عدَّةُ عمليّات جراحيَّة في المعدة، وهو ما زال يصارع المرضَ والموت. «ليحفظِ الربّ طفلتك»، قالتها لي أيضًا، يوم أمس، امرأةٌ شابَّةٌ تحمل طفلًا بين ذراعيها، وقد علمتْ بحالتك فهرعتْ إلى المستشفى لتبثَّ الأمل في نفسي. لقد تعرَّضتْ لنوبة سبات قبل سنتين ودخلت في غيبوبة استمرَّت أكثر من شهر، واحتاجت إلى نحو سنة كي تعود إلى حالتها الطبيعيَّة، ويجب عليها أن تبقى حذرة طوال ما تبقَّى من حياتها، ولكنَّها أصبحت تعمل، وقد تزوَّجت وأنجبت ابنًا. وأكَّدت لي أنَّ حالة السبات هي مثل النوم من دون أحلام؛ إنَّها معترضة

سحريَّة. قالت لي: لا تبكي يا سيِّدتي، ابنتك لا تشعر بأيِّ شيء، وستخرج من هنا ماشية على قدميها، ولن تتذكَّر بعد ذلك ما حدث لها. وكنت، في صباح كلِّ يوم، أجوب ممرَّات الطابق السادس بحثًا عن الطبيب المختصّ لأستفسر عن بعض التفاصيل. إنَّ حياتك بين يدي هذا الرجل وأنا لا أثق به، إنَّه يمرُّ مثل هواء عاصف، ساهيًا ومستعجلًا، ويقدِّم إليَّ شروحًا متعِبة عن إنزيمات، ونسخًا من مقالات عن مرضك، فأحاول قراءتها، ولكنَّني لا أفهم شيئًا. يبدو لي أنَّه مهتمٌّ بجداول حاسوبه وصيغ مخبره أكثر من اهتمامه بجسدك المصلوب فوق هذا السرير. هكذا هو المرض، البعض يُشفى منه خلال وقت قصير، وآخرون يمضون أسابيع في قاعة العناية المشدَّدة. فيما مضى، كان المرضى يموتون ببساطة، أمَّا الآن، فيمكننا الإبقاء عليهم أحياء إلى أن يعود ميتابوليزم أجسادهم إلى العمل من جديد. هذا ما يقوله لي من دون أن ينظر إلى عينيّ. حسنًا، إذا كان الأمر كذلك فقط، فلا بدَّ من الانتظار، وإذا أنتِ صمدت يا باولا، فسأصمد أنا أيضًا.

عندما تستيقظين، ستكون لدينا شهور، وربَّما سنوات، لنُعيد تركيب الأجزاء المفتَّتة من ماضيك، أو ربَّما سيكون من الأفضل أن نُعيد اختراع ذكرياتك على مقياس تخيُّلاتك. أمَّا الآن، فسأحدِّثك عن نفسي وعن آخرين من أفراد الأسرة التي ننتمي كلتانا إليها، ولكن لا تطلبي منِّي الدقَّة، لأنَّ الأخطاء تتسرَّب إليَّ، ولأنَّ أشياء كثيرة طالها النسيان أو التحريف، فأنا لا أتذكَّر الأماكن، ولا التواريخ، ولا الأسماء، ولكنَّني، في المقابل، لا أترك حكاية جيِّدة واحدة تفلت منِّي. إنَّني أجلس إلى جانبك، متابِعةً على الشاشة الخطوطَ المضيئة التي تُشير إلى خفقات قلبك، وأحاول التواصل معك بأساليب جدَّتي

السحريَّة. لو أنَّها كانت هنا لاستطاعتْ حمل رسائلي إليك وساعدتني على تثبيتك في هذه الدنيا. إنَّك تمضين في رحلة فريدة عبر كثبان اللاوعي. فلماذا كلّ هذا الكلام إذا كنت لا تستطيعين سماعي؟ ولماذا هذه الصفحاتُ التي قد لا تستطيعين قراءتها أبدًا؟ إنَّ حياتي تتجسَّد حين أرويها، وذاكرتي تتثبَّت بالكتابة. وإنَّ ما لا أصوغه في كلمات وأدوِّنه على الورق، سيمحوه الزمن.

اليوم هو الثامن من كانون الثاني ١٩٩٢. بدأتُ في كاراكاس، في مثل هذا اليوم، قبل إحدى عشرة سنة، كتابةَ رسالة وداع لجدّي الذي كان يحتضر حاملًا على كاهله قرنًا كاملًا من الكفاح. كانت عظامه القويَّة لا تزال تقاوم، بالرَّغم من أنَّه كان يستعدّ منذ وقت طويل للحاق بجدَّتي ميمي التي كانت تومئ إليه من عند عتبة الباب. لم أكن أستطيع العودة إلى تشيلي، ولم تكن الحالة تحتمل إزعاجه بالهاتف الذي يثير نفوره الشديد، كي أقول له إنَّه يستطيع الذهاب مطمئنًّا، لأنَّ شيئًا لن يضيع من كنز الحكايات التي رواها لي على امتداد سنوات صداقتنا، لأنِّي لم أنسَ شيئًا منها. توفِّي جدّي العجوز، بعد قليل من ذلك، ولكنَّ الحكاية كانت قد استحوذت عليّ ولم أعد أستطيع التوقُّف عن الكتابة. كانت هناك أصوات أخرى تتحدَّث من خلالي، ورحت أكتب بعناد، وبإحساس مَن يفكّ خيوط كبّة من الصوف، وبالعجلة نفسها التي أكتب بها الآن. واجتمعت لديَّ، في نهاية تلك السنة، خمسمئةُ صفحة في كيس من قماش سميك، وأدركت أنَّ ما كتبته لم يعد مجرَّد رسالة. أعلنت، عندئذ، أمام الأُسرة، بخجل، أنَّني ألَّفت كتابًا. فسألتني أمّي: وما عنوانه؟ وضعنا قائمة من العناوين، ولكنَّنا لم نتوصَّل إلى اتِّفاق، وأخيرًا قَذِفْتِ أنت، يا باولا، قطعةَ عملة في الهواء لحسم

الأمر. وهكذا، تمَّت ولادة روايتي الأولى *«بيت الأرواح»*، وتعميدُها، وأُصبتُ أنا بإدمان رواية القصص الذي لا شفاء منه. لقد أنقذ ذلك الكتابُ حياتي، فالكتابة هي تفحُّص طويل لأعماق النفس، ورحلةٌ إلى أشدِّ كهوف الوعي عتمةً، وتأمُّلٌ بطيء. إنَّني أكتب متلمِّسةً الصمتَ، وأكتشفُ، في أثناء الطريق، أجزاء من الحقيقة، ونتفًا صغيرة من الزجاج تتَّسع لها راحة اليد، وتبرِّر مروري في هذه الدنيا. وفي ثامن آخر، من كانون ثانٍ آخر أيضًا، بدأت روايتي الثانيَّة، ولم أعد أجرؤ بعد ذلك على تغيير هذا الموعد حسن الطالع، لاعتقادي بالخرافة من جهة، لكنْ من أجل الانضباط أيضًا، فصرت أبدأ جميع كتبي في اليوم الثامن من كانون الثاني.

أنهيت روايتي الأخيرة، *«الخطَّة اللانهائيَّة»*، منذ بضعة شهور. ومنذ ذلك الحين، وأنا أستعدّ لهذا اليوم. كان كلّ شيء جاهزًا لديَّ: الموضوع، والعنوان، والجملة الأولى. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّني لن أكتب هذه الرواية، لأنَّ قواي لم تعد تكفي إلَّا لمرافقتك منذ مرضك، يا باولا. إنَّك نائمة منذ شهر، ولست أدري كيف أصل إليك، أناديك وأناديك، ولكن اسمك يضيع في شعاب هذا المستشفى. إنَّ روحي مخنوقة بالرمل، والحزن صحراء قاحلة. لا أعرف كيف أصلِّي، ولا أتمكَّن من نسج فكرتين معًا، فما بالك بالغرق في إبداع كتاب آخر. إنَّني أتقلَّب في هذه الصفحات في محاولة لاعقلانيَّة للتغلُّب على رعبي. ويخطر لي أنَّني إذا ما أعطيت شكلًا لهذا الخراب فسوف أتمكَّن من مساعدتك ومساعدة نفسي، وأنَّ ممارسة الكتابة التفصيليَّة يمكن لها أن تكون خلاصَنا. لقد كتبت، قبل إحدى عشرة سنة، رسالةً إلى جدِّي أودِّعه فيها وهو يموت، وفي هذا

الثامن من كانون الثاني ١٩٩٢، أكتب إليك، يا باولا، كي أُعيدك إلى الحياة.

كانت أمِّي فتاة متألِّقة في الثامنة عشرة من عمرها عندما أخذ «تاتا» الأسرة إلى أوروبا في رحلة شاقَّة كانت تتحقَّق مرَّة واحدة في العمر آنذاك، لأنَّ تشيلي تقع عند قدمَي الدنيا. وكان جدِّي ينوي ترك ابنته في مدرسة إنكليزيَّة كي تكتسب الثقافة، وتنسى في أثناء ذلك غراميَّتها مع توماس، ولكن هتلر أحبط مخطَّطاته وأشعل الحرب العالميَّة الثانية بدويّ كارثة مزلزلة، فاجأتهم وهم في الشاطئ اللازورديّ. وبعد مشقَّات لا يمكن تصوُّرها، ساروا خلالها بعكس التيَّار في دروب مضطربة، بأُناس يهربون جريًا على الأقدام أو على صهوات الخيل أو بأيّ وسيلة نقل متوفِّرة، استطاعوا الوصول إلى ميناء إمبيريس البلجيكيّ، والصعودَ إلى آخر سفينة تشيليَّة غادرت الميناء. كان سطح السفينة وزوارق النجاة فيها، تغصّ بعشرات أفراد الأُسَر اليهوديَّة التي تخلَّت عن ممتلكاتها ـ وعن ثرواتها في بعض الحالات ـ لقناصل بلا ضمير باعوهم تأشيرات دخول بسعر الذهب. وبسبب نقص القمرات، كان أفراد هذه الأُسَر يسافرون مثل المواشي، وينامون في العراء، ويعانون الجوع لأنَّ الطعام كان مقنَّنًا. وفي أثناء رحلة الآلام تلك، كانت ميمي تواسي النساء الباكيات على بيوتهنَّ الضائعة ومستقبلهنَّ الغامض، بينما كان تاتا يفاوض على الطعام في المطبخ، وعلى البطَّانيَّات مع البحَّارة ليوزِّعها على اللاجئين. وكان أحد أولئك اللاجئين فَرَّاءً، فأهدى ميمي فروَ استراخان رماديًّا فاخرًا، عربونَ امتنانه. لقد أبحروا طوال أسابيع في مياه تجوبها الغوَّاصات المعادية،

بأضواء مطفأة ليلًا وصلوات متواصلة في النهار، إلى أن خلّفوا وراءهم المحيط الأطلسيّ، ووصلوا سالمين إلى تشيلي. وحين رست السفينة في ميناء بالبارايسو، كان أوّل من لمحوه هو توماس نفسه ببدلته الكتّانيّة البيضاء وقبّعته النميّة، عندئذ أدرك جدّي عبثيّة معارضة الخفايا التي يعدّها القدر، وأعطى موافقته على الزواج على مضض. أُقيم حفل الزفاف في بيته بمشاركة القاصد الرسوليّ وبعض الشخصيّات الرسميّة البارزة. وكانت العروس ترتدي فستانًا متواضعًا من الأطلس، وتبدو عليها ملامحُ التحدّي، ولكنّي لا أعرف كيف ظهر العريس، لأنّ الصورة مقصوصة ولم يبقَ لنا فيها سوى ذراعه. وعندما قاد تاتا ابنته إلى الصالون، حيث أُقيم مذبح مزيّن بشلّالات من الأزهار، توقّف عند نهاية الدرج، وقال لها:

ـ ما زال أمامك متّسع للتراجع. لا تتزوّجي يا ابنتي، أرجوك أن تفكّري جيّدًا. إشارة واحدة منك وسأتولّى تفريق هذا الحشد من الناس، وإرسالَ المأدبة إلى ملجأ الأيتام.

فردّت عليه بنظرة جليديّة.

لقد تحقّق التحذير الذي تلقّته جدّتي في جلسة روحانيّة، فكان زواج أَبَوَيّ كارثة منذ فجره. أبحرت أمّي من جديد، ولكن في اتّجاه البيرو في هذه المرّة، حيث جرى تعيين توماس سكرتيرًا في سفارة تشيلي. كانت تحمل معها مجموعة صناديق ثقيلة تضمّ جهاز عرسها وحمولة من الهدايا، بينها الكثير من الأشياء الخزفيّة والزجاجيّة والفضّيّة، والتي ما زلنا نتعثّر بها بعد مرور نصف قرن من الزمان، في أركان لا تخطر في بال. إنّ خمسين سنة من المهمّات الدبلوماسيّة في

امتدادات مترامية، ومن الطلاق والمنافي الطويلة، لم تستطع تخليص الأسرة من هذه الأثقال. وأخشى كثيرًا، يا باولا، أن تَرِثِي، من بين الأشياء الفظيعة الأخرى، مصباحًا مزيَّنًا بحوريَّات متشابكات وملائكة شاروبيم مربوعين ما زالت أمِّي تحتفظ به. إنَّ لبيتِك بساطةَ الرهبنة، وفي خزانتك الصغيرة تتدلَّى أربع بلوزات وبنطلونان اثنان فقط، وأتساءل ما الذي تفعلينه بما أقدِّمه إليك، فأنت مثل ميمي التي لم تكد تنزل من السفينة وتطأ اليابسة، حتى خلعت معطف فرو استراخان لتتدثَّر به متسوِّلةٌ. لقد أمضت أمِّي أوَّل يومين من شهر عسلها وهي تعاني دُوارًا شديدًا بسبب طفرات المحيط الهادئ، حتى إنَّها لم تستطع مغادرة قمرتها. وما إن أحسَّت ببعض التحسُّن وخرجت لتتنفَّس بملء رئتيها، حتى سقط زوجها منهَكًا من ألم في أضراسه. وبينما كانت تتمشَّى على سطح السفينة غير عابئة بنظرات الضبَّاط والبحَّارة الجشعة، كان زوجها يئنّ في سريره. لقد كان غروب الشمس يصبغ الأفق بلون برتقاليّ فسيح، وكانت النجوم الفاضحة في الليل تدعو إلى ممارسة الحبِّ، ولكنَّ الألم كان أقوى من الرومانسيَّة. وكان لا بدَّ من انقضاء ثلاثة أيَّام قبل أن يسمح المريض لطبيب السفينة بالتدخُّل بكمَّاشة لتخليصه من العذاب، وعندئذ فقط تراجع الورم واستطاع العروسان بدء حياتيهما كزوجين. وحضرا معًا في الليلة التالية إلى صالة الطعام، مدعوَّين إلى مائدة القبطان. وبعد تبادل أنخاب رسميّ بصحَّة العروسين، ظهر طبق المقبِّلات الأوَّل، وكان عبارة عن فريدس في كؤوس محفورة في الجليد. وبحركة دلال حميمة، مدَّت أمِّي شوكتها وأخرجت قطعة صغيرة من طبق زوجها، فشاء سوء الحظّ أن تسقط قطرة صغيرة جدًّا من الصلصة الأميركيَّة على ربطة عنقه، فأمسك

توماس سكّينًا صغيرة ليكشط الإهانة، ولكنَّ البقعة اتَّسعت. عندئذ وأمام دهشة المدعوِّين وعذاب زوجته، غمس الدبلوماسيّ أصابعه في الطبق، وأمسك القشريَّات وفرك بها صدره ملوِّثًا قميصه والبدلةَ وبقيَّةَ ربطة العنق، ثم مرَّر أصابعه على الفور في شعره، ونهض واقفًا، وحيّا الجمع بانحناءة خفيفة ومضى إلى قمرته، واعتصم فيها طوال ما تبقّى من الرحلة غارقًا في صمت ماكر. ولكن، على الرَّغم من تلك الحوادث الخطيرة، فإنَّ ما جرى غرس بذرتي في عرض البحر.

لم تكن أمّي مهيَّأة للأمومة، فهذه القضايا كانت تُناقَش آنذاك همسًا أمام الفتيات العازبات. ولم يخطر لميمي أن تلفت انتباهها إلى الاندفاعات غير المحتشمة لدى النحل والأزهار، لأنَّ روحها كانت تطفو في مستويات أخرى، فكانت تهتمّ بالطبيعة الشفَّافة للأطياف أكثر من اهتمامها بوقائع هذا العالم الفظَّة، ولكنَّها ما إن أحسَّت بحَبَلها حتى عرفت أنَّها ستضع مولودة أنثى، فأطلقت عليها اسم إيزابيل، وأقامت معها حوارًا متواصلًا لم يتوقَّف حتى اليوم. لقد تشبَّثت بالمخلوقة التي كانت تنمو في أحشائها، محاوِلة بذلك التعويضَ عن وحدتها كامرأة عاثرة الحظّ في الزواج، فكانت تحدِّثني بصوت عالٍ، باعثةً الفزعَ في نفوس مَن كانوا يرونها تتصرَّف كمن بها مسٌّ. وأعتقد أنَّني كنت أسمعها وأردّ عليها، ولكنَّني لا أتذكَّر شيئًا من تلك المرحلة داخل الرحم.

كان والدي رجلَ نزوات وأهواء رائعة. ففي تشيلي، حيث تُعتبر القناعة إحدى علامات التهذيب، كانت تسود على الدوام نظرةُ الازدراء إلى مظاهر المباهاة والتفاخر. أمَّا في ليما، مدينة وُلاة الملك الاستعماريِّين، فقد كانت للبذخ في المقابل سمعةٌ حسنة. وقد أقام والدي في منزل فاخر لا يتناسب مع منصبه كسكرتير ثانٍ في السفارة،

وأحاط نفسه بخدمٍ من الهنود، وأوصى على سيَّارة فخمة من ديترويت، وأنفق بإسراف على الحفلات والكازينوهات والنزهات في اليخوت من دون أن يجد أحد تفسيرًا لكيفيَّة تمويله كلَّ تلك التصرُّفات الغريبة. وخلال وقت قصير، تمكَّن من إقامة علاقات بكبار شخصيَّات الوسطين السياسيّ والاجتماعيّ، واكتشف نقاط ضعف كلّ واحد منهم، وتوصَّل من خلال علاقاته إلى الاطِّلاع على بعض الأسرار المتداولة، وحتى على بعض أسرار الدولة. وأصبح الضيف الدائم على حفلات ليما، فقد كان قادرًا، في أوج الحرب، على الحصول على أفضل أنواع الويسكي، وأنقى أصناف الكوكايين، وأكثر المومسات ملاطفةً. وكانت كلّ الأبواب تُفتَح أمامه. وبينما كان يصعد سلّم وظيفته، كانت زوجته تشعر بأنَّها سجينة وضع لا مخرج منه، فهي مرتبطة، منذ كانت في العشرين من عمرها، برجل زئبقيّ تعتمد عليه في كلِّ شيء. فكانت تنطفئ في حرِّ الصيف الرطب وهي تكتب صفحات لا تنتهي إلى أمِّها، تقطع البحر وتضيع في أكياس البريد مثل حوار الطرشان. تلك الرسائل الكئيبة، التي كانت تتكدَّس فوق طاولة ميمي، أقنعتها بخيبة أمل ابنتها، فأوقفت جلساتها الروحانيَّة مع صديقاتها الغامضات الثلاث، من الأخويَّة البيضاء، ووضعت أوراق التنجيم في حقيبة صغيرة وانطلقت إلى ليما في طائرة هشَّة ذات محرّكين، من تلك الطائرات القليلة التي كانت تنقل المسافرين، لأنَّ الطائرات كانت محجوزة للأغراض العسكريَّة في تلك المرحلة من الحرب. وقد وصلت إلى ليما في موعد مولدي بالضبط. ولأنَّها كانت قد أخرجت جميع أبنائها إلى النور في بيتها، بمساعدة زوجها وقابلة، فقد فقدت صوابها بسبب أساليب أطبَّاء المستشفى وممرِّضيه الحديثة. لقد غيَّبوا النفساء عن

الوعي بوخزة واحدة من دون أن يُتيحوا لها الفرصة للمشاركة في الأحداث. وما كاد الوليد يخرج إلى الدنيا، حتى نقلوه إلى حاضنة معقَّمة. وبعد وقت طويل، عندما انقشعت غمامة التخدير، أخبروا الأمّ بأنَّها أنجبت طفلة أُنثى. ولكنَّها، بحسب الأنظمة، لا تستطيع الاحتفاظ بها معها إلَّا في أوقات الرضاعة.

ـ لا بدَّ من أنَّها مسخ أعجوبة، ولا يريدونني أن أراها!

«بل هي طفلة رائعة»، ردَّت جدَّتي، محاولة بذلك أن تُضفي على صوتها رنّةً مقنعة، مع أنَّه لم تُتَح لها الفرصة، في الواقع، لرؤيتها. فقد عرضوا عليها، من خلال الزجاج، حزمةً ملفوفة بشرشف لم يكن لها في عينيها مظهرٌ بشريٌّ كامل.

وبينما كنت أنا أصرخ من الجوع في طابق آخر، كانت أمّي تجادل بغضب، مستعدَّة لاستعادة ابنتها بالعنف إذا تطلَّب الأمر. فهرع إليها طبيب، وشخَّص الحالة على أنَّها نوبة هستيريَّة، فحقنها بحقنة أخرى أبقتها نائمة اثنتي عشرة ساعةً أخرى. في أثناء ذلك، توصَّلت جدَّتي إلى القناعة بأنَّها موجودة عند بوَّابة الجحيم، وما إن أفاقت ابنتها قليلًا من المخدِّر حتى ساعدتها على غسل وجهها بماء بارد، وارتداءِ ملابسها:

ـ يجب أن نهرب من هنا. ارتدي ملابسك ولنتأبَّطْ كلٌّ منَّا ذراع الأخرى، ونخرجْ مثل أيِّ سيِّدتين جاءتا لعيادة مريض.

ـ ولكن، بالله عليك يا أمّاه، لا يمكننا الذهاب من دون الطفلة!

ـ «طبعًا»، ردَّت جدَّتي التي، ربَّما، لم تكن قد فكَّرت في هذا التفصيل التافه.

دخلتا، بخطوات حاسمة، القاعةَ التي يوجد فيها الأطفال المخطوفون، وأخذتا واحدًا بسرعة من دون أن تُثيرا الشبهات. وقد تمكَّنتا من تحديد جنس الوليد من شريط ورديّ اللون في معصمه، وإنَّما لم يكن لديهما متَّسع من الوقت للتأكُّد من أنَّه طفلتهما، كما أنَّ هذه المسألة لم تكن ذات أهمِّيَّة حيويَّة، فجميع الأطفال يتشابهون تقريبًا في هذه السنّ. ربَّما أخطأتا بي في تسرُّعهما، وربَّما هناك الآن في مكان آخر امرأةٌ متبصِّرة لها عينان بلون السبانخ تشغل مكاني. وفي البيت، جرَّدوني من ثيابي ليروا إذا كنت مكتملة، واكتشفوا وجود شمس عند قاعدة ظهري. فأكَّدت ميمي: هذه اللطخة علامة خير، يجب ألَّا نقلق بشأنها لأنَّها ستترعرع سليمة ومحظوظة. لقد وُلدتُ في شهر آب، تحت برج الأسد، الجنس أنثى. وإذا كانوا لم يستبدلوني في المستشفى، فإنَّ الدماء التي تجري في عروقي هي دماء قشتاليَّة ـ باسكيَّة، وربع فرنسيَّة، مع جرعة من الدم الأراوكاني أو المابوتشي، مثل جميع أبناء بلدي.

وعلى الرَّغم من مجيئي إلى الدنيا في ليما، فإنَّني تشيليَّة؛ أتحدَّر من «بتلة زهرة متطاولة من بحر ونبيذ وثلج»، مثلما وصف بابلو نيرودا بلادي، ومن هناك تنحدرين أنت أيضًا، يا باولا، على الرَّغم من بصمة كاركاس الثابتة عليك، حيث ترعرعت. قد يصعب عليك بعض الشيء تفهُّم عقليَّتنا الجنوبيَّة. ففي تشيلي، يحدّد قدرَنا الحضورُ الأبديُّ للجبال التي تفصلنا عن بقيَّة القارَّة، والإحساسُ بعدم الاستقرار، وهو إحساس لا يمكن تفاديه في منطقة كوارث جيولوجيَّة وسياسيَّة. كلّ شيء يهتزّ تحت أقدامنا؛ لا نعرف الأمان. وإذا سألنا أحد عن حالنا، فيكون الجواب: «لا جديد»، أو «بين بين». إنَّنا نتنقَّل من تردُّد إلى

آخر. ليس هناك ما هو مؤكَّد ومحدَّد، ولسنا نحبّ المواجهات، بل نفضِّل التفاوض بدلًا منها. وعندما تدفعنا الظروف حتى النهايات، تستيقظ فينا أسوأ غرائزنا ويقوم التاريخ بانقلاب مأساويّ، لأنَّ الرجال الذين يبدون وديعين في الحياة اليوميَّة، يتحوَّلون إلى وحوش دمويَّة حين تتوفَّر لهم الذريعة المناسبة وفرصةُ الإفلات من العقاب. ولكنَّ التشيليين، في الأوقات العاديَّة، هم أُناس قنوعون، رصينون، رسميُّون، ويخشون لفت الأنظار لأنَّه يعني بالنسبة إليهم الوقوعَ في موقف مضحك. ولهذا السبب بالذات، كنت أنا نفسي مصدرَ إحراج للأسرة.

أين كان توماس حين كانت زوجته تضع مولودها، وحماتُه تنفِّذ عمليَّة اختطاف حفيدتها السرِّيَّة من المستشفى؟ لست أدري. فقد كان أبي غيَّابًا عظيمًا في حياتي، حتى إنَّني لا أحتفظ بذكريات عنه. لقد تعايشت أمِّي معه أربعَ سنوات تخلَّلتها فترتا انفصال طويلتان، وكان هناك، مع ذلك، متَّسعٌ لإنجاب ثلاثة أبناء. فقد كانت شديدةَ الخصوبة، حتى إنَّه يكفي هزّ سروال رجل داخليّ في دائرة قطرها نصف كيلومتر كي تحبل، وهو ما ورثتُه عنها أيضًا، ولكنَّ الحظّ حالفني بالوصول في الوقت المناسب إلى عصر حبوب منع الحمل. لقد كان زوجها يختفي عند كلّ ولادة، تمامًا مثلما كان يفعل حيال أيّ مشكلة ذات مغزى، ثم يرجع مَرِحًا، ومعه هديَّةٌ غريبة لزوجته بعد اجتياز الوضع الطارئ.

وكانت هي ترى تكاثر اللوحات على الجدران والخزف الصينيّ على الرفوف من دون أن تُدرك مصدر كلّ هذا التبذير. كان من المستحيل تفسيرُ ذلك الترف براتب لا يكاد يكفي لمعيشة موظَّفين

آخرين، لكنَّها حين كانت تحاول الاستفسار كان يردّ عليها بإجابات متملِّصة، مثلما كان يفعل حين تغضب من غياباته الليليَّة، ورحلاتِه الغامضة، وصداقاتِه المشوَّشة. كانت قد أنجبت طفلين وأوشكت على إنجاب الثالث حين انهارت قلعة براءتها المشيَّدةُ من أوراق اللعب. ففي صباح أحد الأيَّام، استيقظت مدينة ليما تهزّها إشاعة فضيحة تسرّبت إلى جميع الصالونات من دون أن تُنشَر في الصحف. وكانت القضيَّة تتعلَّق بمليونير عجوز اعتاد على أن يُعير شقَّته لأصدقائه الشباب من أجل لقاءات غراميَّة سرِّيَّة. وفي حجرة النوم، بين الأثاث القديم والسجَّاد الفارسيّ، كان يعلِّق مرآة مزيَّفة ذاتَ إطار باروكيّ لم تكن في الحقيقة إلَّا نافذة. وكان مالك البيت يجلس في الجهة الأخرى لتلك النافذة مع مجموعة مختارة من ضيوفه، ومعهم المشروبات والمخدّرات، وهم مستعدُّون للتلذُّذ بمراقبة لعبة العاشقين المناوبين الذين لا يرتابون في شيء في الغالب. وفي تلك الليلة، كان بين النظارة سياسيٌّ يحتلّ منصبًا رفيعًا في الحكومة. ولدى فتح الستارة للتلصُّص على العاشقين الغافلين، كانت المفاجأة الأولى أنَّ العاشقين، كليهما، من الذكور. أمّا المفاجأة الثانية، فتمثَّلت في كون أحدهما، وكان يضع مشدّ كورسيه ورباط أجربة مطرَّزًا، هو الابن الأكبر لذلك السياسيّ نفسه، وكان محاميًا شابًّا ينتظره مستقبل باهر. أفقدت الإهانة الأبَ سيطرته على نفسه، فحطَّم المرآة بقدمه، وألقى بنفسه فوق ابنه لينزع عنه تلك الزينة النسائيَّة، وربَّما كان سيقتله لو لم يكبحوه. وبعد ساعات من ذلك، كانت حلقات النمَّامين في ليما تعلِّق على ما حدث، مضيفة إليه تفاصيل أكثر إساءة في كلِّ مرَّة. ثارت الشكوك في أنَّ الحادثة لم تكن صدفة، وأنَّ هناك من رتَّب المشهد لهدف خبيث.

فخاف توماس على نفسه واختفى من دون أن يقدِّم أيَّ توضيح. لم تعلم أمِّي بالفضيحة إلَّا بعد مرور عدَّة أيَّام، فقد كانت تعيش في عزلة بسبب حبلها المتواصل، وكذلك لتفادي الدائنين الذين يطالبون بديون غير مدفوعة. وبدأ خدم البيت يهربون بعد أن يئسوا من انتظار أجورهم، ولم يبق منهم إلَّا مارغارا، وهي تشيليَّة ذاتُ وجه كتوم وقلب حجريّ كانت تخدم الأسرة منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة. وفي ظلِّ هذه الظروف، بدأت بوادر المخاض، فضغطت أمِّي أسنانها وتهيّأت لوضع مولودها بأكثر الطرائق بدائيَّةً. كان عمري آنذاك نحو ثلاث سنوات، وكان أخي بانتشو لا يكاد يقوى على المشي بعدُ. تكوَّرنا في تلك الليلة في أحد الممرَّات ونحن نسمع تأوُّهات أمِّي، ونشهد تنقُّلات مارغارا حاملةً أباريقَ الماء الساخن والمناشفَ. خرج خوان إلى الدنيا في منتصف الليل، وكان ضئيلًا، مثلَ فأر صغير من دون وبر، ولا يكاد يستطيع التنفُّس. وسرعان ما تبيَّن أنَّه غير قادر على البلع أيضًا، فقد كانت هناك عقدة في حلقه، ولم يكن في إمكان الغذاء أن يمرّ. لقد كان ينتظره مصير الموت جوعًا، بينما ثديا أمّه يوشكان على الانفجار من كثرة الحليب. لكنَّ عناد مارغارا أنقذه من الموت، فقد انهمكت في إبقائه حيًّا باستخدامها أوَّلًا قطعَ قطن مبلَّلة بالحليب تعصرها في فمه قطرة قطرة، وبعد ذلك بوجبات من الحليب والدقيق تدسّها في جوفه بالقوَّة بواسطة ملعقة خشبيَّة.

شغلتُ ذهني لسنوات في البحث عن أسباب وبيلة تبرِّر اختفاء أبي، وقد تعبتُ من سؤال الناس، فكان هناك صمتٌ تآمريّ بشأنه. فالذين ما زالوا في قيد الحياة ممَّن عرفوه، يصفونه لي بأنَّه رجل ذكيّ جدًّا، ولا يضيفون شيئًا آخر. لقد تصوَّرته في طفولتي مجرمًا، وفيما

بعد، عندما عرفت حالات الشذوذ الجنسيّ، كنت أنسبها جميعها إليه. ولكن، لم يكن هناك، على ما يبدو، أيُّ شيء روائيّ يزيّن ماضيه، بل كان مجرَّد روح نذلة، ووجد نفسه في أحد الأيّام محاصَرًا بأكاذيبه، ففقد السيطرة على الموقف ومضى هاربًا، فترك القنصليّة ولم يعد لرؤية أمّه وأسرته وأصدقائه. لقد تحوَّل إلى دُخان بالمعنى الحرفيّ للكلمة. إنّني أرى طيفه ـ بشيء من الضبابيَّة بالطبع ـ هاربًا نحو ماتشو بيتشو، وهو يتنكَّر في زيّ هنديَّة بيروانيَّة، وبجدائل شعر اصطناعيَّة، وعدَّة تنانير متنوّعة الألوان. وعندما ذكرت هذا الاحتمال أمام أمّي، زجرتني قائلة: لا تكرِّري هذا الكلام أبدًا! من أين تأتين بكلّ هذه الترَّهات؟ ومهما يكن من أمر، فقد مضى من دون أن يترك أثرًا، ولكنَّه لم يذهب إلى مرتفعات الأنديز الشفَّافة كي يذوب في ضبعة هنود الأيامارا مثلما كنت أفترض، بل انحدر ببساطة درجةً على السلّم الاجتماعيّ التشيليّ الصارم، وصار غير مرئيّ. لقد رجع إلى سنتياغو، وواصل الطواف في الشوارع المركزيَّة، ولكن بما أنَّه لم يعد يتردَّد على الوسط الاجتماعيّ نفسه، فقد اعتُبر كأنَّه ميّت. لم أعد أرى جدَّتي لأبي ولا أيّ شخص آخر من أسرته، باستثناء سلڤادور ألليندي الذي بقي قريبًا منَّا، بإحساس دائم بالوفاء. لم أرَ أبي قطّ منذ غادرنا، ولم أسمع أحدًا يذكر اسمه، ولست أعرف شيئًا عن مظهره الجسديّ، ولهذا بدا لي مضحكًا استدعائي في أحد الأيّام للتعرُّف إلى جثّته في المشرحة، ولكن هذا الأمر حدث بعد سنوات طويلة جدًّا. إنّني أشعر بالأسف، يا باولا، لاختفاء هذا الشخص عند هذا الحدّ، لأنَّ الأوغاد يشكّلون ألذَّ جزء في الحكايات.

أمّا أمّي، التي ترعرعت في جوّ من الحظوة، إذ تنعدم مشاركة

النساء في الشؤون الاقتصاديَّة، فقد تخندقت في بيتها المقفل، فمسحت دموع الخذلان وأجرت حساباتها لتصل إلى قناعة بأنَّها لن تموت جوعًا، لبعض الوقت على الأقلّ، لأنَّ لديها كنزَ الصواني الفضّيَّة التي يمكنها تصفيتها، واحدةً بعد أخرى، لتدفع الحسابات. لقد وجدت نفسها وحيدة مع ثلاثة أبناء في بلد أجنبيّ، مُحاطةً بترف لا يمكن تفسيره ومن دون سنتافو واحد في حقيبتها، ولكنَّها كانت معتدّة بنفسها إلى حدٍّ لا يمكنها معه طلبُ المساعدة. لكنَّ السفارة كانت متأهّبة مع ذلك، وقد عرفت على الفور أنَّ توماس قد اختفى تاركًا أسرتَه في حالة إفلاس. لقد كانت كرامة البلاد في مهبِّ الريح، ولا يمكن السماح بأن يتمرَّغ اسم موظَّف حكوميّ تشيليّ في الوحل، ولا أن يُلقي الدائنون بزوجته وأبنائه إلى الشارع. حضر القنصل لزيارة الأسرة وهو مزوَّد بتعليمات لإعادتها إلى تشيلي بأقصى قدر ممكن من التكتُّم. لقد حزرت يا باولا، فقد كان ذلك الزائر العمَّ رامون، جدَّك الأمير والمتحدِّر مباشرة من يسوع المسيح.

كان هو نفسه يؤكِّد أنَّه واحد من أقبح رجال جيله، ولكنَّني أظنُّه يبالغ. لست أدَّعي أنَّه جميل، ولكنّ ما ينقصه من الجمال في المظهر يفيض لديه ذكاءً ولطفًا في الجوهر، إضافة إلى أنَّ السنوات قد أضفت عليه مسحة كبيرة من الوقار. في الوقت الذي أُرسل فيه لمساعدتنا، كان رجلًا هزيلًا، لونُه يميل إلى الخضرة، وله شارب عجل بحر وحاجبان ميفيستوفيليسيَّان. أب لأربعة أبناء وكاثوليكيّ متديّن، ليس فيه ولو مجرَّد ظلّ من الشخصيَّة الأسطوريَّة التي صار إليها فيما بعد، حين استبدل جلدَه مثل الحيّات. فتحت مارغارا الباب للزائر وقادته إلى حجرة السيِّدة التي استقبلته في سريرها محاطةً بأبنائها، وكانت لا تزال

مضعضَعة من أثر الولادة، ولكنَّها كانت تبدو في كامل تألُّقها المأساويّ وصلابةِ شبابها الفوّار. السيِّد القنصل، الذي كاد لا يعرف زوجة زميله ـ فقد كان يراها حبلى على الدوام، وفي مزاج ناء لا يشجِّع على الاقتراب منها ـ بقي واقفًا قرب الباب، غارقًا في متاهة من الانفعالات. وبينما كان يسألها عن أدقّ تفاصيل وضعها ويشرح لها خطَّة إعادتها إلى الوطن، كان يعذِّبه جنون ثيران هائجة في صدره. قدَّر أنَّه لا وجود لامرأة أشدَّ منها فتنةً، ولم يفهم كيف أمكن لزوجها أن يهجرها، لأنَّه كان مستعدًّا لتقديم حياته من أجلها. وزفر محزونًا لفداحة الظلم في التعرُّف إليها متأخِّرًا. ونظرت هي إليه مطوَّلًا، ثم وافقت على خطَّته أخيرًا:

ـ حسنًا، سأعود إلى بيت أبي.

فدمدم:

ـ بعد أيَّام ستخرج من كايو سفينةٌ متوجِّهة إلى بالبارايسو، وسأسعى للحصول على بطاقات السفر.

ـ سأسافر مع أبنائي الثلاثة ومارغارا والكلبة. ولست أدري إذا كان هذا الطفل الذي وُلد عليلًا سيتحمَّل الرحلة.

ومع أنَّ عينيها كانتا تلمعان بالدموع، إلَّا أنَّها لم تسمح لنفسها بالبكاء.

وفي لحظة واحدة، مرَّت في ذهن رامون، صورُ زوجته وأبنائه، وصورةُ أبيه وهو يُشير نحوه بإبهامه متَّهِمًا، وصورةُ عمِّه المطران يحمل صليبًا في يده ويطلق صواعق الإدانة. رأى نفسه يخرج مطرودًا من رحمة الكنيسة ومن دون تشريف من القنصليَّة، ولكنَّه لم يستطع

النخلُّص من وجه تلك المرأة التامّ، وأحسَّ بأنَّ إعصارًا يرفعه عن الأرض. تقدَّم خطوتين في اتِّجاه السرير. وفي هاتين الخطوتين، حسم أمر مستقبله:

ـ من الآن فصاعدًا سأتحمَّل مسؤوليَّتك ومسؤوليَّة أبنائك إلى الأبد.

إلى الأبد... ما هذا، يا باولا؟ لقد فقدت حساب الزمن في هذا المبنى الأبيض الذي يسود فيه الصدى، ولا ليل فيه على الإطلاق. لقد تلاشت حدود الواقع. الحياة هي متاهة مرايا متقابلة وصور مشوَّهة. في مثل هذه الساعة قبل شهر بالضبط، كنتُ امرأة أخرى. هنالك صورة لي يومذاك، كنت فيها في حفلة تقديم روايتي الجديدة في إسبانيا، بثوب مفتوح حول العنق، باذنجانيِّ اللون، وبعقد وأساور من فضَّة، وأظفار طويلة وابتسامة واثقة. بدوتُ أكثرَ شبابًا بقرن ممَّا أنا عليه الآن. لست أتعرَّف إلى هذه المرأة، فالألم بدَّلني تمامًا في أربعة أسابيع. وبينما كنت أوضِّح خلف ميكروفون، الظروفَ التي دفعتني إلى كتابة رواية الخطَّة اللانهائيَّة، شقَّتْ وكيلة أعمالي طريقها بين الحشد لتهمس في أذني بأنَّكِ قد نُقلتِ إلى المستشفى. فراودني هاجس قاسٍ بأنَّ كارثة كبرى قد حرفت مسار حياتنا. لقد كنتِ تشعرين بتوعُّك شديد لدى وصولي إلى مدريد قبل يومين، واستغربت عدم وجودك لاستقبالي في المطار مثلما كنت تفعلين دائمًا. تركت حقائبي في الفندق وأنا منهَكة من الرحلة المتواصلة من كاليفورنيا، وأسرعت إلى بيتك حيث وجدتك تتقيَّئين وتتوقَّدين

بالحمّى. وكنت قد رجعتِ لتوّك من خلوة روحانيَّة مع راهبات المدرسة التي تعملين فيها أربعين ساعة أسبوعيًّا كمتطوّعة لمساعدة الأطفال الذين لا موارد لديهم، وقد قلت لي إنَّها كانت تجربة مثيرة وحزينة. كانت الشكوك تُثقل عليك، لأنَّ إيمانكَ ضعيف.

ـ إنَّني أبحث عن الربّ وهو يهرب منّي يا أمّاه...

ـ الربّ ينتظر دائمًا. أمّا الآن، فأنت في حاجة إلى طبيب جيّد. ما الذي أصابك يا ابنتي؟

فأجبتِ من دون تردُّد:

ـ إنَّه الفرفيرين[1].

بدأت تعتنين بنفسك كثيرًا، منذ سنوات عديدة، حين علمت بأنَّك قد ورثت هذا الداء، وبتِّ تتحكَّمين فيه بمساعدة أحد الأطبَّاء القليلين المتخصّصين في إسبانيا. وعندما رأى زوجك أنَّك تفقدين قواك، حملك إلى مركز الإسعاف، فشخَّصوا الحالة على أنَّها إصابة بالإنفلونزا، وأعادوك إلى البيت. أخبرني إرنستو، في تلك الليلة، بأنَّك كنت متوتِّرة ومرهقة منذ أسابيع، بل منذ شهور. وبينما كنَّا نتحدَّث عن كآبة مزعومة، كنت أنت تتألَّمين وراء باب حجرتك الموصَد؛ فقد كان الداء يسمّمك بسرعة، ولم يكن أيٌّ منَّا يملك نظرة ثاقبة لينتبه لذلك. لست أدري كيف أنجزت عملي، فقد كنتُ مغيَّبة الإرادة، وبين كلّ مقابلة صحافيَّة وأخرى، كنت أهرع إلى الهاتف للاتِّصال بك. وما إن أخبروني بأنَّ حالتك تسوء، حتى ألغيت ما تبقَّى

(١) داء الفرفيرين (PORFIRIA): اضطراب استقلابيّ ولاديّ في الدم، مصحوب باضطرابات نفسيَّة.

من جولتي ورجعت لرؤيتك في المستشفى. صعدت الطوابق الستَّة راكضةً، واتَّجهتُ نحو غرفتك في هذا المبنى الفظيع. وجدتك متّكئة على السرير، شاحبةً، وبملامح ضياع. وكانت نظرة واحدة كافية لأُدرك مدى خطورة حالتك.

«لماذا تبكين؟» سألتني بصوت أجهله.

ـ لأنِّي خائفة. إنَّني أحبّك يا باولا.

ـ وأنا أيضًا أحبّك يا ماما...

كان هذا هو آخر ما نطقتِ به يا ابنتي. وكنت بعد لحظات تهذين مردِّدةً أرقامًا، وعيناك مصوَّبتان بثبات إلى السقف. بقيت أنا وإرنستو إلى جنبك طوال الليل مفجوعَين، نتناوب في الجلوس على الكرسيّ الوحيد، بينما كانت هناك عجوز تحتضر في سرير آخر في القاعة، وامرأةٌ مخبولة تصرخ، وأخرى غجريَّةٌ سيِّئة التغذية على قسمات وجهها كدماتُ ضربات، تحاول أن تنام. وعند الفجر، أقنعت زوجك بأن يذهب ليستريح، فقد أمضى عدَّة ليال من دون نوم، وكان مستنفَدًا. ودَّعك بقبلة على الفم. وبعد ساعة من ذلك، توالى مسلسل الرعب: في البدء تَقَيُّؤٌ دامٍ مثيرٌ للقشعريرة تلته اختلاجاتٌ. كان جسدك المتيبِّس والمقوَّس إلى الوراء يهتزّ في تشنُّجات عنيفة ترفعك عن السرير، وكانت ذراعاك تهتزَّان، بينما يداك مشدودتان كأنَّهما تحاولان التشبُّث بشيء ما، وكانت عيناك مذعورتين ووجهُك محتقنًا وملطَّخًا باللعاب. ألقيت بنفسي فوقك لتثبيتك، وصرختُ عدَّة صرخات طالبةً مساعدة. غصَّت القاعة بأُناس يرتدون ملابس بيضاء سحبوني إلى الخارج بالقوَّة. أتذكَّر أنَّني وجدت نفسي جاثيةً على الأرض، ثم أحسست بصفعة قويَّة

على وجهي. «اهدئي يا سيِّدتي، اصمتي وإلَّا فعليك الذهاب من هنا! ابنتك أحسن حالًا، يمكنك الدخول والبقاءُ معها»، هزَّني الممرِّض بقوَّة وهو يقول لي ذلك. حاولت النهوض، لكن ساقيَّ تداعتا. ساعدوني على الوصول إلى سريرك ثم انصرفوا، وبقيت وحدي معك ومع المريضات في الأسرَّة الأخرى، واللواتي كنّ يراقبن المشهد بصمت، كلٌّ واحدة منهنَّ مستغرقة في أمراضها. كان لك لون الأشباح الرماديّ، وكانت عيناك تنقلبان إلى أعلى، وكان هناك خيطٌ دم جافّ إلى جوار فمك، وكنتِ باردة. انتظرت وأنا أناديك بالأسماء التي ناديتك بها منذ طفولتك، ولكنَّك كنت تبتعدين إلى عالم آخر. أردت أن أعطيك ماءً لتشربي. هززتك، فثبتٌّ حدقتيك المتَّسعتين والزجاجيَّتين فيَّ، وكنت تنظرين من خلالي نحو أفق آخر، وفجأة أصابك الشلل. تجمَّد الدم في عروقي، وتوقَّف تنفُّسي. استطعت أن أصرخ منادية، ثم حاولت فورًا أن أعطيك الأنفاس فمًا لفم، ولكنَّ الخوف كان قد شلَّني، وفعلت كلّ شيء بصورة سيِّئة: نفخت الهواء في فمك كيفما اتَّفق، من دون إيقاع أو توافق، خمسَ مرّات أو ستَّ مرَّات، وعندئذ لاحظت أنَّ قلبك لا ينبض أيضًا، فرحت أضرب صدرك بقبضتي. وجاءت المساعدة بعد لحظات، والشيءُ الوحيد الذي رأيته عندئذ هو سرير يبتعد بسرعة عبر الممرِّ في اتِّجاه المصعد. منذ هذه اللحظة، توقَّفت الحياة بالنسبة إليك، وبالنسبة إليّ أيضًا. فقد اجتزنا، كلتانا، عتبة غامضة ودخلنا المنطقة الأشدّ ظلمة.

«حالتها حرجة»، هكذا اعترف لي الطبيب المناوب في وحدة العناية المشدَّدة.

ـ هل يتوجَّب عليّ أن أُخبر أباها في تشيلي؟ إنَّه يحتاج إلى عشرين ساعة للوصول إلى هنا.

ـ أجل.

ما إن دبَّ الصوت حتى بدأ يتوافد أقرباء إرنستو، والأصدقاءُ والراهبات من مدرستك؛ واتَّصل أحدهم بالأسرة المشتَّتة في تشيلي وفنزويلا والولايات المتَّحدة. وظهر زوجك، بعد هنيهة، هادئًا ورقيقًا، وكان قَلِقًا على مشاعر الآخرين أكثرَ من قلقه على مشاعره. كان يبدو عليه الإرهاقُ الشديد. سمحوا له برؤيتك لبضع دقائق، وأخبرنا لدى خروجه بأنَّهم وضعوا لك جهاز تنفُّس، وأنَّهم ينقلون إليك الدم. إنَّها ليست في حالة سيِّئة جدًّا، كما يقولون. إنَّني أشعر بقلب باولا ينبض بقوَّة إلى جانب قلبي. هذه الجملة التي قالها، بدت لي بلا معنى في تلك اللحظة، ولكنَّني أستطيع أن أفهمها بصورة أفضل الآن بعد أن تعرَّفت إليه جيِّدًا. لقد أمضينا، كلانا، ذلك النهارَ والليلةَ التي تلته في قاعة الانتظار، وكنت أغفو منهَكة في بعض اللحظات، ولكنَّني حين أفتح عيني أراه ثابتًا في مكانه، ينتظر.

عند الفجر قلت معترفة:

ـ إنَّني خائفة يا إرنستو.

ـ لا يمكننا عمل شيء. باولا الآن بين يدَي الربّ.

ـ لا بدَّ من أنَّ تقبُّل الأمر أسهلُ بالنسبة إليك لأنَّكَ تستند إلى إيمانك الدينيّ على الأقلّ.

فردَّ، وهو يعانقني:

ـ إنّني أتألّم مثلك، ولكنّني أقلّ خوفًا من الموت، وأكثرُ أملًا بالحياة.

أغرقت وجهي في صدريّته وأنا أشمّ رائحة رجولته الفتيّة يهزّني جَزَع ورائيّ.

وصلت أمّي وميشيل، بعد ساعات، قادمَين من تشيلي، ووصل كذلك ويللي قادمًا من كاليفورنيا. لقد أتى أبوك شاحبًا، فقد صعد إلى الطائرة في سنتياغو وهو مقتنع بأنّه سيجدك ميّتة، ولا بدّ من أنّ الرحلة كانت أبديّة بالنسبة إليه. عانقتُ أمّي بقنوط، وتبيّن لي أنّها، على الرّغم من تضاؤل حجمها مع تقدُّمها في السنّ، لا تزال ذاتَ حضور حامٍ عظيم.

كان ويللي يبدو ماردًا إلى جانبها، ولكنّني حين بحثت عن صدر أسند إليه رأسي، بدا لي صدرها أكثر رحابة وأمانًا من صدر زوجي. دخلنا قاعة العناية المشدَّدة، وتمكّنّا من رؤيتك صاحيةً وفي حالة أفضل قليلًا من اليوم السابق. كان الأطبّاء قد بدأوا يُعيدون إليك الصوديوم الذي كنت تفقدينه بكثرة، وكان الدم الطازج قد أعاد إليك الحماسة، ولكنّ الوهم لم يستمرّ مع ذلك إلّا ساعاتٍ قليلةً؛ فقد داهمتك بعد ذلك نوبة جزع، فأعطوك جرعة مسكّن مكثّفة أوقعتك في سبات عميق لم تستيقظي منه حتى الآن.

«مسكينة طفلتك، إنّها لا تستحقّ هذا المصير. لماذا لا أموت، أنا الشيخ المسنّ، بدلًا منها؟» هذا ما كان يقوله لي أحيانًا دون مانويل، المريضُ في السرير المجاور، بصوته المحتضر والمجتهد.

من الصعب كتابة هذه الصفحات يا باولا؛ من الصعب ذرع

مراحل الرحلة المؤلمة مجدَّدًا، وتحديدُ التفاصيل، وتخيُّلُ ما كنت ستؤولين إليه لو أنَّك وقعت في أيدٍ أفضل، ولو أنَّهم لم يغيِّبوك عن الوعي بالمخدِّر، ولو... كيف أُبعد الذنب عن نفسي؟ حين ذكرتِ داء الفرفيرين، ظننتك تبالغين. وبدلًا من أن أبحث عن مساعدة أفضل، وثقت بهؤلاء الناس ذوي الأردية البيضاء، وسلَّمتهم ابنتي من دون تحفُّظ. من المستحيل الرجوع في الزمن، يجب ألَّا ننظر إلى الوراء، ولكنَّني لا أستطيع التخلِّي عن النظر إلى الوراء مع ذلك. إنَّها فكرة متسلِّطة على عقلي. الشيء الوحيد الموجود بالنسبة إليَّ هو هذا المستشفى المدريديّ الذي لا يُسامَح، وما سوى ذلك من حياتي توارى في سحابة كثيفة.

ويللي، الذي كان عليه أن يرجع بعد بضعة أيَّام إلى عمله في كاليفورنيا، يتَّصل بي كلّ صباح ومساء ليمنحني القوَّة، وليذكِّرني بأنَّنا متحابّان، ولدينا حياةً سعيدة في الجانب الآخر من المحيط. يأتيني صوته من بعيد جدًّا، ويُخيّل إليّ أنّي أحلم، وأنَّه لا يوجد في الواقع بيتٌ خشبيّ معلَّق على خليج سان فرانسيسكو، وأنَّه ليس عاشقًا متيَّمًا، تحوَّل الآن إلى زوج بعيد. ويبدو لي كذلك أنِّي حلمت بابني نيكولاس وبكنَّتي سيليا، وبابنهما الصغير أليخاندرو ورموشه التي تشبه رموش الزرافة. تأتي أحيانًا وكيلة أعمالي كارمن بالثيلاس لتنقل إليّ مشاعر أسف ناشري كُتبي أو أخبارَ مؤلَّفاتي، ولا أعرف عمّا تحدِّثني. فأنت وحدك الموجودةُ يا ابنتي، والمكان بلا زمان الذي استقررنا فيه، كلتانا.

تداهمني الذكريات، في ساعات الصمت الطويلة، وأشعر بأنَّ كلّ شيء قد جرى لي في اللحظة نفسها، كما لو أنَّ حياتي كلّها هي صورةٌ

واحدة مبهمة. فالطفلة والفتاة اللتان كنتُهما، والمرأة التي صرتُها، والعجوزُ التي سأصبحها، كلُّ المراحل هي ماء يندفع من الينبوع المتدفّق نفسه. إنَّ ذاكرتي أشبه بجداريَّة مكسيكيَّة، بحيث يحدث كلّ شيء في وقت واحد: وصولُ سفن الفاتحين في أحد الأركان، بينما محاكمُ التفتيش تعذِّب السكَّان الأصليين في ركن آخر، وأبطالُ التحرير ينطلقون على جيادهم رافعين رايات دامية، والأفعى المجنَّحةُ قبالة مسيح يتألَّم بين المداخن السامقة في عصر التصنيع. هكذا هي حياتي، رسومٌ على حائط متعدِّدةٌ ومتنوِّعةٌ، لا يمكن لأحد سواي حلُّ ألغازها لأنَّها تنتمي إليَّ مثل سرٍّ خاصّ. إنَّ الذهن ينتقي، يبالغ، يخون، والأحداثَ تتلاشى، والأشخاصَ تنساهم الذاكرة، ولا يبقى أخيرًا سوى مسار الروح. ليس مهمًّا ما جرى لي، وإنَّما آثار الجروح التي تميِّزني. إنَّ مغزى ماضيَّ ضئيل جدًّا، فأنا لا أرى فيه نظامًا ولا وضوحًا أو أهدافًا أو دروبًا، وإنَّما مجرَّد رحلة عشوائيَّة، تقودها الغريزة والأحداث المنفلتة التي حرفت مسار قدري. لم تكن هناك حساباتٌ، وإنَّما مجرَّد نيّات طيِّبة والريبة الغامضة بوجود تخطيط أعلى يحدِّد خطواتي. حتى الآن، لم أشاطر أحدًا ماضيّ، إنَّه حديقتي الأخيرة التي لم يطلّ عليها حتى أكثرُ العاشقين تدخُّلًا. خذيه يا باولا، فربَّما أفادك في شيء، لأنِّي أظنّ أنَّ ماضيك لم يعد موجودًا. لقد ضاع منك في هذا السبات الطويل، ولا يمكن للإنسان أن يحيا من دون ذكريات.

رجعتْ أمّي إلى بيت أبويها في سنتياغو. كان إخفاق الزواج آنذاك يُعتبر أسوأ مصير تتعرَّض له امرأة. أمّا أمّي، فلم تكن تعرف ذلك، وكانت تمضي بجبهة مرفوعة. قادها رامون، القنصلُ المفتون،

إلى السفينة مع أبنائها ومارغارا المخيفة والكلبة وصناديقِ الصواني الفضِّيَّة وعُلَبِها، وعندما ودَّعها، أمسك يديها وكرَّر الوعد بالعناية بها إلى الأبد، ولكنَّها كانت منهمكة في ترتيب وضعه في القُمرة الضيِّقة، فلم تكد تكافئه إلَّا بمجرَّد ابتسامة غامضة. لقد كانت معتادة على تلقِّي الملاطفات، ولم تكن لديها أسباب تدفعها إلى الاعتقاد أنَّ هذا الموظَّف ذا المظهر المزعزع سيؤدِّي دوًرا أساسيًا في مستقبلها، كما أنَّها لم تنسَ أنَّ لهذا الرجل زوجةً وأربعة أبناء، أضف إلى ذلك أنَّ أمورًا أكثر إلحاحًا كانت تُثقل عليها: فالوليد الجديد يتنفَّس بصعوبة مثل سمكة ملقاة على أرض جافَّة، والطفلان الآخران يبكيان مذعورَين، ومارغارا دخلت في واحدة من نوبات صمتها المتجهِّمة المستنكرة. وعندما سمعت ضجَّة محرِّكات السفينة وصفيرها الأجشّ معلنًا خروجها من الميناء، أحسَّت بأوَّل وميض من الإعصار الذي قلب حياتها. كان في إمكانها الوثوقُ بمن استضافتها في بيت والديها، ولكنَّها لم تعد تلك الفتاة العزباء، وعليها أن تتحمَّل مسؤوليَّة أولادها مثلَ أرملة. بدأت تتساءل كيف ستتدبَّر أمورها عندما ذكَّرتها حركة الأمواج بحادثة الفريدس في شهر عسلها. عندئذ ابتسمت بارتياح لأنَّها أصبحت بعيدة على الأقلِّ عن زوجها الغريب. كانت قد أتمَّت لتوِّها أربعًا وعشرين سنة من عمرها، ولم يكن لديها شكٌّ في الكيفيَّة التي ستكسب بها حياتها. ولكن، لم يكن عبثًا أن تسري في عروقها دماءُ المغامرة التي ورثتها من ذلك البحَّار الباسكيّ القديم.

وهكذا، كان عليّ أن أكبر في بيت جدِّي. حسنًا، ليست هذه هي الكلمة الدقيقة، فالحقيقة أنَّني لم أكبر كثيرًا، فبعد جهود مضنية استطعت الوصول إلى قامة طولها متر ونصف متر، وهي القامة التي

حافظت عليها إلى ما قبل شهر، حيث لاحظت أنَّ المرآة في الحمَّام آخذة بالصعود. ولكنّ أمّي قالت مؤكِّدة: ترّهات، أنت لا تتقلَّصين، كلّ ما هنالك أنَّك تفقدين من وزنك وتمضين بحذاء من دون كعب. ولكنَّني انتبهت إلى أنَّها تراقبني بطرف عينها بقلق. وعندما أقول إنَّني نَمُوْتُ بمشقَّة، فلست أتحدَّث مجازًا، فقد تمَّ تجريب كلّ ما هو ممكن لمطّ قامتي، باستثناء اللجوء إلى الهرمونات التي كانت لا تزال آنذاك في طَوْر التجارب، ولم يوافق على استخدامها بنجامين بييل، طبيب الأسرة وعاشق أمّي الأفلاطونيّ الأبديّ، لأنَّه خشي أن يظهر لي شارب. ما كان ذلك ليسبِّب أيّ خطر، فالشارب يمكن حلقه. لقد واظبت طوال سنوات على الذهاب إلى قاعة للجمباز، حيث كانوا يستخدمون جهازًا مؤلَّفًا من حبال وبَكَرات ليعلِّقوني مدلَّاة من السقف كي تمطَّ قوَّةُ الجاذبيَّة هيكلي العظميّ. وما زلت أرى نفسي في الكوابيس معلَّقةً من رسغي ورأسي يتدلَّى إلى أسفل، ولكن أمّي تؤكِّد أنَّ هذا كلّه غير صحيح، وأنَّني لم أتعرَّض قطّ لشيء بهذه القسوة، وأنَّهم كانوا يعلِّقونني من عنقي بواسطة جهاز يحول دون حدوث الوفاة الفوريَّة اختناقًا. ولكن هذه الوسيلة الأخيرة لم تكن مُجدية، فقد أطالت عنقي فقط. أمَّا مدرستي الأولى فكانت مدرسةَ راهبات ألمانيَّات، ولكنَّني لم أستمرَّ طويلًا هناك، ففي السادسة من عمري طردوني لأنِّي مشاكسة: فقد نظَّمت مسابقة لعرض السراويل الداخليَّة، ولكنَّ السبب الحقيقيَّ ربَّما كان أمّي التي كانت تُثير استنكار مجتمع سنتياغو المفرطِ في الحياء لأنَّها تعيش من دون زوج. فانتقلت من هناك إلى مدرسة إنكليزيَّة أكثر تفهُّمًا، حيث لا تؤدِّي عروض السراويل الداخليَّة إلى نتائج خطرة ما دام يُجرى بتكتُّم. إنَّني واثقة بأنَّ طفولتي

كانت ستتغيَّر لو أنَّ ميمي عاشت لوقت أطول. فقد كانت جدَّتي تربِّيني لأكون «ملهمة»، وكانت الكلمات الأولى التي علَّمتني إيَّاها بالإسبرانتو، وهي لغة ممسوخة لا يمكن النطق بها، وكانت جدَّتي تعتبرها لغة المستقبل الكونيَّة، وكنت لا أزال في الأقمطة عندما بدأت أجلس إلى مائدة الروحانيين. ولكنّ جميع هذه الاحتمالات انتهت مع موتها. إنَّ بيت الأُسرة الكبير الذي كان، في أثناء ترؤُّسها له، ساحرًا بجلسات المثقَّفين والبوهيميِّين والممسوسين ومسامراتهم، تحوّل بعد موتها إلى فراغ كئيب تخترقه تيَّارات الهواء. ولا تزال روائح ذلك الحين ثابتة في ذاكرتي: مدافئ البارافين في الشتاء، والسكّر المحروق في الصيف، إذ كانوا يشعلون موقدًا في الفناء لصنع مربّى التوت في قِدْر نحاسيَّة هائلة الحجم. وبموت جدَّتي، خوت أقفاص الطيور، وصمتت سوناتات البيانو، وجفَّت النباتات والأزهار في الأصص، وهربت القطط إلى الأسطح، حيث تحوَّلت إلى حيوانات بريَّة شرسة، ونفقت الحيوانات الداجنة الأخرى شيئًا فشيئًا، وانتهى المطاف بالدجاجات والأرانب إلى قدور الطبيخ على يد الطاهية، وخرجت العنزة يومًا إلى الشارع فسحقتها عربة بائع الحليب. ولم يبق سوى الكلبة بيلفينا لوبيث ـ بون تغفو إلى جانب السيَّارة التي تقسم صالة الطعام. وكنت أطوف منادية جدَّتي بين الأثاث الإسبانيّ الثقيل وتماثيلِ الرخام واللوحاتِ الرعويَّة وأكوامِ الكتب المكدَّسة في الأركان، والتي كانت تتناسل في الليل، مثل حيوانات من ورق مطبوع لا ضابط لها. كانت هناك حدود غير معلنة ما بين الجزء الذي تشغله الأسرَّة والمطبخ، وما بين الأفنية وغرف الخادمات، إذ كنت أمضي الشطر الأكبر من حياتي. لقد كان ذلك القسم عالَمًا سفليًا من غرف سيِّئة

التهوية وقاتمة، في كلٍّ منها فرشة صغيرة وكرسيٌّ وخزانة مشقَّقة، هي قطع الأثاث الوحيدة. وكانت الغرف مزيَّنة بتقويم سنويّ وصور قدِّيسين. وقد كان ذلك المكان الملجأَ الوحيد لأولئك النسوة اللواتي يعملن من شروق الشمس حتى مغيبها، فهنَّ أوَّل من يستيقظ في الفجر وآخر من ينام بعد تقديم العشاء إلى الأُسرة وتنظيفِ المطبخ. كنَّ يخرجن من البيت في يوم الأحد مرَّةً كلَّ أسبوعين، ولست أذكر أنَّهنّ كنَّ يتمتَّعن بإجازات أو بتكوين أُسرة، بل كنَّ يهرمن وهنَّ يخدمن ويمتن في البيوت. وكان يظهر في كلِّ شهر رجلٌ نصف مخبول ليشمّع الأرضيَّة. كان يثبِّت قطعًا من الفولاذ بقدميه، ويرقص رقصة مؤثِّرة وهو يلوي ساقيه ليكشط الأرضيَّة الخشبيَّة، ثم يركع بعد ذلك مستخدمًا خرقَّة يطلي بها الأرضيَّة بالشمع، ويقوم أخيرًا بالتلميع بيديه مستخدمًا فرشاة ثقيلة. وفي كلِّ أسبوع، كانت تأتي الغسَّالة، وهي امرأة ضئيلة لا يكسو عظامَها شيءٌ، ويأتي معها دومًا طفلان أو ثلاثة يتعلَّقون بأذيالها، وكانت تحمل جبلًا من الثياب المتَّسخة متوازنًا على رأسها. وعند تسليمها الملابس، كان يتمّ عدّها حتى لا ينقص منها شيء حين تُعيدها نظيفة ومكويَّة. وكلَّما كنت أشهد إهانة عدّ القمصان وفوط المائدة وشراشف الأسرَّة، كنت أذهب بعدها لأختبئ بين طيَّات قطيفة الصالون لأعانق جدَّتي. لم أكن أعرف سبب بكائي آنذاك. أمّا الآن، فأعرفه: لقد كنت أبكي خجلًا. كانت روح جدَّتي ميمي تخيِّم على الستارة، وأعتقد أنَّ هذا هو السبب الذي كان يُبقي الكلبة ثابتة في ذلك المكان. أمّا الخادمات، فكنَّ يعتقدن، في المقابل، أنَّ روح جدَّتي تهيم في القبو، حيث كانت تصدر من هناك أصوات وأنوار باهتة. ولهذا، كنَّ يتفادين المرور في تلك الناحية. لقد كنت أعرف جيِّدًا

سبب تلك الظواهر، ولكن لم تكن لي مصلحة في كشفها. كنت أبحث عن وجه جدَّتي الشفَّاف بين ستائر الصالون المسرحيَّة، وأكتب إليها رسائل على قصاصات ورقيَّة أطويها بعناية، وأعلِّقها بدبابيس على القماش السميك كي تجدها وتعرف أنَّني لم أنسها.

لقد ودَّعت جدَّتي الحياةَ ببساطة، فلم ينتبه أحد لإعدادها للرحلة إلى عالم الغيب إلَّا في اللحظة الأخيرة، حين أصبح الوقت متأخِّرًا للتدخُّل. ولأنَّها كانت تعي أنَّ إقلاعها من الأرض يتطلّب خفَّة كبيرة، فقد ألقت بكلِّ شيء من المركب، وتخلَّصت من أملاكها الدنيويَّة، فاستبعدت العواطفَ والرغباتِ الباطلةَ، واستبقَتْ ما هو جوهريّ فقط، وكتبت بضع رسائل، ثم استلقت أخيرًا في سريرها كي لا تنهض أبدًا. احتضرت مدَّة أسبوع بمساعدة زوجها الذي استخدم كلّ العقاقير التي في متناول يده ليخفِّف آلامها، بينما كانت الحياة تفلت منها، وطبلٌ أصمُّ يدوّي في صدرها. لم يكن هناك متَّسع من الوقت لإخبار أحد، ولكن صديقاتها في الأخويَّة البيضاء علمن بالأمر بواسطة التخاطر، وحضرن في اللحظة الأخيرة ليسلِّمنها رسائل موجَّهة إلى الأرواح الرقيقة التي كنَّ يستحضرنها في جلسات أيَّام الخميس حول المائدة ذات القوائم الثلاثة. لم تخلِّف هذه المرأة العجيبة أثرًا ماديًّا لمرورها في هذا العالم، باستثناء مرآة فضِّيَّة وكتابِ صلوات غلافُه من الصَّدَف، وحفنةِ أزهار من الشمع، هي ما تبقَّى من زينتها يوم زفافها. وهي لم تترك لي ذكريات كثيرة كذلك، ولا بدَّ من أنَّ ذكرياتي عنها قد حرفتها رؤيتي الطفوليَّة آنذاك ومرورُ الزمن، ولكن لا أهمِّيَّة لذلك، لأنَّ حضورها رافقني على الدوام. عندما كان الربو أو القلق يقطع أنفاسها، كانت تضمّني إليها لتخفِّف عن نفسها بحرارتي، وهذه هي أكثر الصور

التي أحتفظ بها دقّةً: بشرتُها التي مثل ورق الأرزّ، وأصابعُها الناعمة، والهواءُ الذي يصفر في حنجرتها، والعناقُ القويّ، ورائحةُ الكولونيا، وأحيانًا نفحةُ زيت اللوز الذي كانت تطلي به يديها. لقد استمعت إلى أحاديث عنها، وما زلت أحتفظ في علبة من صفيح بأشيائها التي بقيت، وما سوى ذلك اخترعته بنفسي، لأنَّنا جميعنا في حاجة إلى جدَّة. وهي لم تؤدّ دورها كجدَّة على أكمل وجه فحسب، على الرَّغم من موتها غير الملائم، بل إنَّها ألهمتني الشخصيَّة التي أحبّها أكثر من كلّ ما عداها في كتبي: شخصيَّة كلارا، الواضحة والمتبصِّرة في رواية «بيت الأرواح».

لم يستطع جدّي تقبُّل فقدان زوجته. أظنّ أنَّهما كانا يعيشان في عالمين لا مجال للمصالحة بينهما، وقد مارسا الحبّ في لقاءات خاطفة، في رقّة مؤلمة وعاطفة مكتومة. لقد كانت لتاتا حيويَّةُ الرجل العمليّ السليم والرياضيّ المبادر. أمّا جدَّتي، فكانت غريبة في هذه الأرض. كان لها حضور أبديّ لا سبيل إلى الوصول إليه. وكان على زوجها أن يقنع بالعيش تحت السقف نفسه، ولكن في أبعاد أخرى، ومن دون أن يمتلكها مطلقًا. فهو لم يشعر بوجودها فعلًا إلّا في بعض المناسبات الجليلة، مثل ولادة الأبناء الذين كان يتلقّاهم بين يديه، أو عندما حملها بين ذراعيه يوم موتها. لقد حاول ألفَ مرَّة أن يفهم هذه الروح الخفيفة التي تمرّ أمام عينيه مثلَ شِهاب يخلّف وراءه مذنَّبًا من غبار كونيّ، ولكنَّه كان يشعر دائمًا بأنَّها تفلت منه. في أواخر أيَّامه، عندما كان ينقصه القليل ليكمل قرنًا في الحياة، ولم يبقَ منه كبطريرك نشط سوى أطلال متآكلة من الوحدة وحتّ السنين، تخلّى عن فكرة كونه سيّدها المطلق التي ألحَّ عليها في شبابه، وعندئذ فقط تمكّن من

احتضانها بمساواة. واكتسب ظلّ ميمي أبعادًا محدودة، وتحوّلت إلى مخلوقة ملموسة رافقته في إعادة جمع فتات الذكريات في توعُّكات الشيخوخة. في بداية ترمُّله، أحسّ بأنّه وقع ضحيَّة الخيانة، فاتّهمها بأنَّها تخلَّت عنه في منتصف الطريق، فارتدى ملابس حداد سوداءَ بالكامل بدا معها كأنَّه غُراب، وطلى أثاثه كذلك باللون الأسود. وكي لا يتألَّم مرّة ثانية، حاول تصفية عواطفَ أخرى من حياته، ولكنَّه لم يتمكَّن من تحقيق ذلك كلّيًا على الإطلاق، فقد كان رجلًا مهزومًا بسبب شهامة قلبه. لقد كان يشغل غرفة كبيرة في الطابق الأوَّل من البيت، حيث كانت تدوّي كلَّ ساعة دقَّاتُ ساعة برج جنائزيَّة. كان باب الغرفة يبقى موصدًا، ونادرًا ما تجرَّأتُ على طرقه، ولكنَّني كنت أمرّ عليه في الصباح لأحيّيه قبل أن أذهب إلى المدرسة، وكان يسمح لي أحيانًا بتفتيش الغرفة بحثًا عن قطعة شوكولاتة أخفاها لي. لم أسمعه يتذمَّر على الإطلاق، فقد كان يتمتَّع بقدرة تحمُّل بطوليَّة، ولكنَّ عينيه كثيرًا ما كانتا تتعكَّران. وحين يظنّ نفسه وحيدًا، كان يتحدَّث مع ذكرى زوجته. ومع مرور السنوات وتكاثر الأحزان، لم يعد قادرًا على كبح بكائه، فكان يمسح عينيه بضربات من يديه، ويزمجر غاضبًا من ضعفه: إنَّني أشيخ، اللعنة. وألغى من حياته، بعد ترمُّله، الأزهارَ والحلوى والموسيقى وكلَّ ما يبعث على السعادة والمرح، فتغلغل الصمت إلى البيت، وإلى روحه.

كان وضع والدَيّ مبهَمًا، لأنَّ الطلاق غير موجود في تشيلي، ولكن لم يكن من الصعب إقناع توماس بإبطال الزواج. وهكذا، تحوّلتُ أنا وأخوايَ إلى أبناء أمٍّ عزباء. ولم يكن أبي، على ما يبدو،

مهتمًّا بالتورُّط في دفع النفقة، فتخلَّى كذلك عن الوصاية على أبنائه، ثم اختفى بعد ذلك من دون ضجَّة، بينما كانت الدائرة الاجتماعيَّة حول أمِّي تضيق منغلقةً بشدَّة لتجنُّب الفضيحة. والطلب الوحيد الذي تقدَّم به، لدى توقيع إبطال الزواج، هو استعادةُ شعار أسرته الذي نقش عليه رسم ثلاثة كلاب جائعة في حقل أزرق، وقد حصل عليه فورًا لأنَّ أمِّي وبقيَّة أفراد الأسرة كانوا يضحكون مقهقهين من الشعارات. وبفقدان ذلك الشعار المسخرة، تلاشت إمكانيَّة مطالبتنا بأيِّ نَسَب في المستقبل، فقد أصبحنا بجرَّة قلم من دون نَسَب. لقد ذابت صورة توماس في عالم النسيان. ولم يشأ جدِّي أن يسمع أيّ شيء عن صهره القديم، كما أنَّه لم يتقبَّل سماع شكاوٍ بحضوره. فلأمر ما، حذَّر ابنته من الزواج. وقد حصلت هي على وظيفة متواضعة في أحد المصارف، وكان الإغراء الرئيسيّ في تلك الوظيفة هو أنَّها تتيح لها التقاعد براتب كامل بعد خمسة وثلاثين عامًا من العمل المتفاني. أمّا أكبر إزعاج فيها، فكان ملاحقةَ المدير الغراميَّة، والذي اعتاد على مضايقتها. وكان يعيش في البيت الكبير أيضًا خالان عازبان تكفّلا بملء طفولتي بالمفاجآت. كان خالي المفضَّل هو بابلو، وهو شابٌّ متوحِّدٌ وعازبٌ، أسمرُ اللون، وله عينان حالمتان، وأسنانٌ ناصعة، وشعرٌ أسود، وتسريحةٌ متيبِّسة إلى الوراء بمثبِّت للشعر، فكان يشبه رودلفو فالينتينو كثيرًا. وكان يرتدي على الدوام معطفًا له جيوب كبيرة يخبِّئ فيها الكتب التي يسرقها من المكتبات العامَّة ومن بيوت أصدقائه. وقد توسَّلتُ إليه مرَّات كثيرة أن يتزوَّج أمِّي، ولكنَّه أقنعني بأنَّ العلاقة بين المحارم تؤدِّي إلى إنجاب توائم سياميَّة ملتصقة. عندئذ، بدَّلت الاتِّجاه وتقدَّمت بالتوسُّل نفسه إلى بينجامين بيبال، الذي كنت أكنّ له تقديرًا

غير مشروط. لقد كان الخال بابلو حليفًا عظيمًا لأخته، فكان يدسّ الأوراق النقديَّة في محفظتها، ويساعدها على تأمين متطلّبات أبنائها، ويحميها من الأقاويل ومن اعتداءات أخرى. وكان يُظهر العداء للعاطفيَّة، ولا يسمح لأحد بلمسه أو التنفُّس قريبًا منه، ويعتبر الهاتف والبريد غزوًا لخصوصيَّاته. وكان يجلس إلى المائدة وهو يفتح كتابًا إلى جوار طبقه ليكبح أيّ مسعى للحوار، ويحاول إخافة الآخرين بأساليب وحشيَّة، ولكنَّنا جميعنا كنَّا نعرف أنَّه روح حنون وأنَّه يعمل سرًّا، حتى لا يطّلع أحد على عيبه، في مساعدة جيش حقيقيّ من المحتاجين. لقد كان الذراع اليمنى لتاتا، وصديقَه المفضَّل وشريكَه في مشروع تربية الأغنام وتصدير الصوف إلى اسكتلندا. وكانت العاملات في المنزل يعبدنه، وكان لديه عددٌ فائض من الأصدقاء على الرَّغم من صمته المتجهِّم ونزواته ومزاحه الثقيل. هذا الرجل غريبُ الأطوار والمعذَّبُ بسُوسة القراءة، وقع بعد سنوات طويلة في غرام ابنة عمٍّ فاتنة ترعرعت في الريف، وكانت تفهم الحياة ضمن حدَّي العمل والدِّين. كان أفراد ذلك الفرع من الأسرة أُناسًا رسميِّين ومحافظين جدًّا، فكان عليهم أن يتحمَّلوا شذوذ خطيب ابنتهم بصبر. ففي أحد الأيَّام، اشترى خالي رأس بقرة من السوق، وأمضى يومين في كشطه وتنظيفه من الداخل أمام اشمئزازنا نحن الذين لم نرَ عن قرب شيئًا بمثل تلك النتانة والفظاعة. وبعد أن أنهى عمله، دخل بيت خطيبته يوم الأحد التالي وهو يرتدي بذلة رسميَّة ويضع الرأس الكبير كقناع. تفضَّل يا دون بابلو، هكذا حيَّته على الفور، ومن دون تأثُّر، الخادمةُ التي فتحت له الباب. كانت في غرفة خالي رفوفُ كتب من الأرض حتى السقف، وفي وسطها سريرُ ناسك، حيث كان يمضي معظم الليل في القراءة.

وقد أقنعني بأنَّ شخصيَّات الكتب تغادر الصفحات في الظلام وتجوب أنحاء البيت. فكنت أخفي رأسي تحت الشراشف خوفًا من الشيطان في المرآة، ومن حشود تلك الشخصيَّات التي تطوف في غرف البيت لتعيش من جديد مغامراتِها وغراميَّاتها: قراصنة، مومسات، لصوص، ساحرات، عذراوات. وكان عليَّ أن أُطفئ النور وأنام في الساعة الثامنة والنصف، ولكن خالي بابلو أهداني مصباحًا يدويًا كي أقرأ تحت الغطاء. ومنذ ذلك الحين، تملَّكني الميل المشاكس إلى القراءات السرِّيَّة.

كان من المستحيل المللُ في ذلك البيت المملوء بالكتب والأقرباء غريبي الأطوار، والذي فيه قبوٌ محظور، وأفواجٌ متتالية من القطط حديثة الولادة ـ كانت مارغارا تُغرقها في سطل ماء ـ ومذياعُ المطبخ المفتوح من وراء ظهر جدّي، والذي تصدح منه الأغاني الدارجةُ وأخبارُ الجرائم المريعةُ ورواياتُ الحزن المتسلسلةُ. لقد ابتدع أخوالي في ذلك البيت «الألعابَ الخشنة»، وهي تسليات فظّة تتلخَّص أساسًا في تعذيب الأطفال حتى دفعهم إلى البكاء. وكانت الأساليب المتَّبَعة تتجدَّد على الدوام: ومن هذه الأساليب أن يلصقوا ورقة نقديَّة بالسقف، من فئة عشرة بيزوات، كانت تُقدَّم إلينا كمصروف شهريّ، بحيث نستطيع رؤيتها، ولكنَّنا لا نتمكَّن من الوصول إليها. أو أنَّهم كانوا يقدِّمون لنا السكاكر المحشوَّة بعد إفراغها من الشوكولاتة وحشوها بصلصة حارَّة أو كانوا يضعوننا داخل صندوق ويقذفون بنا من أعلى الدرج، أو يعلِّقوننا فوق فتحة المرحاض ورؤوسنا مدلَّاة إلى أسفل، ويهدِّدوننا بإفلات الحبل، أو يملأون المغسلة بالكحول ويشعلون فيها النار ويعرضون علينا مكافأة إذا أدخلنا أيدينا فيها، أو

يضعون إطارات قديمة لسيَّارة جدِّي، بعضها فوق بعض، ويُدخلوننا في وسطها، حيث كنَّا نصرخ خوفًا من العتمة ونحن نكاد نختنق من رائحة المطَّاط المتعفِّن. وكانت أمِّي تدافع عنَّا بحميَّة لبؤة، ولكنَّها لم تكن موجودة دائمًا لحمايتنا، بينما كانت لدى تاتا في المقابل، فكرةٌ تقول إنَّ «الألعاب الخشنة» تصلِّب الطباع، وقد كانت تلك الألعاب طريقة في التربية. أمَّا النظريَّة القائلة بأنَّ الطفولة يجب أن تكون مرحلة براءة آمنة، فلم تكن معروفة آنذاك، لأنَّها بدعة متأخِّرة اخترعها الأميركيُّون. فقد كان الناس يتوقَّعون، فيما مضى، أن تكون الحياة قاسية، فكانت أساليب التربية ترتكز على التدريب على الصمود والتحمُّل: فكلَّما اجتاز الطفل مزيدًا من التجارب القاسية، يكون أكثر استعدادًا للتصدِّي للمخاطر التي ستواجهه في الكِبَر. وأعترف بأنَّ تلك التربية قد أثمرت نتائج طيِّبة في حالتي، ولو أنِّي كنت وفيَّة لهذا التقليد لكنت عذَّبت أبنائي، وأحفادي حاليًّا، ولكنَّني لم أفعل ذلك لأنِّي رقيقة القلب.

كنَّا نذهب، في بعض أيَّام الآحاد الصيفيَّة، مع الأُسرة إلى سان كريستوبال، وهي رابية في وسط العاصمة، كانت غابةً بريَّة فيما مضى، وتحوَّلت اليوم إلى حديقة. وكان يرافقنا في بعض الأحيان سلفادور وتانتشا ألليندي مع بناتهما الثلاث وكلابهما. وكان ألليندي قد أصبح آنذاك سياسيًّا مشهورًا، وأكثر برلمانيِّي اليسار نضالًا، ومحطَّ العداء اليمينيّ. ولكنَّه، بالنسبة إلينا، كان مجرَّد عمّ آخر. كنَّا نصعد بمشقَّة عبر دروب غير واضحة المعالم ما بين السراخس والأعشاب، حاملين معنا سلالَ الطعام وشالاتِ الصوف. ثم نبحث في الأعلى عن مكان مكشوف يُطلّ على المدينة المستلقية في الأسفل، تمامًا مثلما سأفعل بعد عشرين سنة من ذلك، في أثناء الانقلاب العسكريّ، ولكن

لأسباب مختلفة تمامًا. وكنَّا نراقب طوال الوقت غداءنا، فنحمي أجزاء الفرُّوج المقليّ والبيض المسلوق والشطائر من الكلاب ومن زحف النمل الذي لا يمكن وقفه. وعندما يتمدَّد الكبار للاستراحة، كنَّا نحن، أبناء العمومة، نختفي بين الشجيرات لنلعب لعبة الدكتور. وبين الحين والآخر، كنَّا نسمع زئير أسد يأتينا من الجهة الأخرى للرابية، حيث كانت تقوم حديقة الحيوان. لقد كانوا يقدِّمون إلى الضواري، مرَّةً كلّ أسبوع، حيواناتٍ حيَّةً كي يبقيها التحفُّز للصيد وإفرازُ الأدرينالين سليمةً، فكانت الوحوش الضخمة من فصيلة الهررة تفترس حمارًا هرمًا، وأفاعي البوا تبتلعُ جرذانًا، والضباعُ تلتهم الأرانب، ويُقال إنَّ الكلاب والقطط المتشرِّدة، التي كان يجمعها مطاردو الكلاب، كان ينتهي بها المطاف إلى هناك، وإنَّه كانت توجد دومًا قوائمُ انتظار بأسماء الناس الذين يرغبون في تلقِّي دعوة إلى رؤية هذا المشهد الرهيب. أمّا أنا، فكنت أحلم بتلك الحيوانات المسكينة المحاصَرة في أقفاص الضواري الكبيرة، فأتلوّى من الكرب، مفكِّرة في المسيحيين الأوائل في الحلبات الرومانيَّة. وقد كنت واثقة، حتى أعماق روحي، بأنَّني إذا ما خُيِّرت بين التخلِّي عن الإيمان والتحوُّلِ إلى غذاء لنمر بنغاليّ، فإنَّني لن أتردَّد في اختيار الخيار الأوَّل. بعد الانتهاء من تناول طعامنا على الرابية، كنَّا ننزل راكضين، متدافعين، متدحرجين على أشدّ منحدرات الرابية وعورةً: سلفادور ألليندي في المقدِّمة مع كلابه، وأنا مع ابنته كارمن باث في المؤخّرة دائمًا. وكنّا نصل إلى أسفل وقد غطَّت الخدوش وخثارات الدم ركبَنا وأيدينا، بعد أن يكون الآخرون قد تعبوا من انتظارنا. وباستثناء أيَّام الآحاد تلك وعطلة الصيف، كانت حياتنا حياةَ جهد وتضحية. لقد كانت تلك السنوات قاسيةً جدًّا بالنسبة

إلى أمّي، فقد كانت تواجه العَوَز والأقاويلَ والصدَّ ممَّن كانوا أصدقاءها فيما مضى، وكان راتبها لا يكاد يكفيها ثمن مشابك، فكانت تضاعفه بخياطة القبَّعات. ويُخيَّل إليَّ أنِّي أراها أمام طاولة صالة الطعام ـ وهي طاولة خشب البلُّوط نفسُها التي أستخدمها اليوم كمكتب في كاليفورنيا ـ وهي تجرِّب تثبيت المخمل والشرائط والأزهار الحريريَّة. وكانت ترسل تلك القبّعات بالسفينة، في علب مستديرة، إلى ليما، لتصل إلى أرقى سيِّدات المجتمع هناك. وعلى الرَّغم من هذا كلّه، فإنَّها لم تكن تستطيع تغطية نفقاتها إلَّا بمساعدة تاتا والخال بابلو. لقد قدَّمت إليَّ المدرسة منحةً مشروطة بنتائجي الدراسيَّة، ولست أدري كيف توصَّلت أمّي إلى الحصول عليها، ولكنَّني أتصوَّر أنَّ ذلك كلَّفها أكثر من مذلَّة. كانت تمضي ساعات طويلة وهي تقف بالدور في المستشفيات مع أخي الأصغر خوان، الذي تعلَّم بَلْعَ الطعام بطرف ملعقة خشبيَّة، ولكنَّه بقي يعاني أسوأ التقلُّبات المعويَّة، وتحوَّل لدى الأطبَّاء إلى حالة للتجارب، إلى أن اكتشفت مارغارا أنَّه يلتهم معجون الأسنان بشراهة، فعالجته بالضرب بالحزام لتخليصه من تلك الرذيلة. وقد تحوَّلت أمّي إلى امرأة مثقلة بالمسؤوليَّة، تعاني آلامَ رأس لا تُحتمل، تطرحها منهَكة في الفراش يومين أو ثلاثة أيَّام. كانت تعمل كثيرًا، ورقابتها قليلة على حياتها وحياة أولادها. أمّا مارغارا، التي راحت تزداد قسوة مع الزمن، إلى أن أصبحت طاغية حقيقيَّة، فكانت تحاول بكلِّ السبل إبعادها عنَّا؛ فحين كانت أمّي ترجع من المصرف في المساء، تكون مارغارا قد انتهت من تحميمنا وإطعامنا وإرقادنا في الفراش. فتقول لأمّي مزمجرة: لا توقظي الأولاد الآن. وتأمرنا قائلة: لا تزعجوا أمّكم، فهي مصابة بصداع. وكانت أمّي تتشبَّث بأبنائها

بقوّة، محاولةً التعويض عن ساعات تغيُّبها، وعن شحّ الحياة بالتفافات شاعريَّة. كنَّا، نحن الثلاثة، ننام معها في الغرفة نفسها. وفي الليل، وهو الوقت الوحيد الذي نمضيه معًا، كانت تروي لنا طرائفَ عن أجدادنا، وحكاياتٍ خياليَّةً مطعَّمةً بفكاهة سوداء. تحدِّثنا عن عالم وهميّ نعيش فيه جميعنا سعداء ولا تسوده الشرور الإنسانيَّة ولا قوانينُ الطبيعة القاسية. تلك الأحاديث الخافتة التي كانت تدور في الحجرة نفسها، وكلّ واحد منَّا في فراشه، ولكنَّنا متقاربون بحيث يمكن لكلّ واحد منَّا ملامسة الآخرين، كانت أفضلَ ما في تلك الفترة. فهناك وُلد حبِّي للحكايات، ومن تلك الذكريات أغترف كلَّما جلست أكتب.

أخي بانتشو، أكثرُنا نحن الثلاثة صمودًا في «ألعاب الخشونة» المرهوبة، كان صبيًّا أشقر، قويًّا وهادئًا، يفقد صبره أحيانًا ويتحوّل إلى وحش مفترس يمكنه أن يعضّ سواه منتزعًا قطعًا من اللحم. وكانت مارغارا مولعة به، حتى إنَّها أطلقت عليه اسم «الملك»، ولهذا السبب وجد نفسه ضائعًا عندما غادرت هذه المرأة البيت. في مراهقته، استمالته طائفة غريبة، فهجر البيت لعيش حياة جماعيَّة في وسط الصحراء الشماليَّة. وكنَّا نسمع إشاعات تقول إنَّ أفراد تلك الطائفة يطيرون إلى عوالم أخرى في نباتات فطر خرافيَّة، وإنَّهم يفقدون رشدهم في حفلات قصف حمراء فظيعة، ويغسلون أدمغة الفتيان لتحويلهم إلى عبيد لزعمائهم. لم أعرف الحقيقة قطّ، فكلّ من عاشوا تلك التجربة كانوا لا يتحدَّثون عنها، ولكنَّهم بقوا موسومين. تخلَّى أخي عن الأُسرة، وتحلَّل من الروابط العاطفيَّة، واختبأ وراء درع لم توفِّر له الحماية، مع ذلك، من العوز والقلق. وقد تزوَّج بعد ذلك، وطلَّق زوجته، ثم عاد إلى الزواج والطلاق من جديد، وأنجب أبناء،

وعاش على الدوام تقريبًا خارج تشيلي، وأشكّ في أنّه قد يعود إليها. لا يمكنني أن أقول الكثير عنه، لأنّي لا أعرفه. إنّه سرّ مغلق بالنسبة إليّ، مثل والدي. أمّا خوان، فقد وُلد هو يتمتّع بموهبة الظُّرف النادرة، وما زال كذلك حتى الآن، وقد أصبح أستاذًا وقورًا في نضوجه، يدفع الآخرين إلى محبّته من دون أن يخطّط لذلك. كان يبدو، في طفولته، مثل ملاك شاروبيم، له غمّازتان في خدّيه، وملامح خذلان يمكن لها أن تؤثّر في أعتى القساة. كان حَذِرًا، مكّارًا، ضئيلًا، وقد أخّرت أمراضه الكثيرة نموّه، وحكمت عليه بأن يكون في حالة صحّيّة واهنة. كنّا نعتبره مثقّفَ الأُسرة، والحكيمَ الحقيقيَّ. فمنذ الخامسة من عمره، كان يحفظ قصائد مطوّلة ويُلقيها، ويستطيع في لحظة حساب ما سيعيده إليه البائع إذا دفع له بيزو واحدًا ليشتري ثلاث قطع سكاكر، كلٌّ منها بثمانية سنتافو. وقد حصل على شهادتي ماجستير وشهادة دكتوراه من جامعات الولايات المتّحدة، وهو يدرس حاليًّا للحصول على شهادة في اللاهوت. كان أستاذًا للعلوم السياسيّة، لاأدريًّا وماركسيًّا، ولكنّه بعد تعرُّضه لأزمة روحيّة، قرّر البحث عن إجابات لمشاكل الإنسانيّة في الذات الإلٰهيّة، فهجر مهنته وبدأ دراسة اللاهوت. إنّه متزوّج، وغيرُ قادر بالتالي على التحوُّل إلى راهب كاثوليكيّ، كما يتعيّن عليه، بحسب التقاليد، فاختار الانتماء إلى الطائفة النظاميّة البروتستانتيّة على الرّغم من حيرة أمّي التي لا تعرف الكثير عن هذه الكنيسة، وتصوُّرِها أنَّ عبقريَّ الأسرة سيتحوَّل إلى مجرَّد مُنشد للتراتيل على أنغام الغيتار في ساحة عامَّة. إنَّ مثل هذه التقلُّبات المفاجئة ليست غريبة لدى أنسباء أمّي، فلديَّ كثير من الأقرباء المتصوِّفين. لا يمكنني أن أتصوَّر أخي يعظ على منبر لأنَّ أحدًا لن

يفهم مواعظه المتضلِّعة في الحكمة، وخصوصًا باللغة الإنكليزيَّة، ولكنَّه سيكون أستاذ لاهوت لامعًا. عندما علم بأنَّك مريضة، ترك كلّ شيء، وركب أوَّل طائرة وجاء إلى مدريد ليقف إلى جانبي. «يجب علينا التمسُّك بالأمل في شفاء باولا»، هذا ما يكرِّره عليّ حتى التعب.

هل ستشفين، يا ابنتي؟ أراك على هذا السرير موصولة بنصف دزِّينة من الأنابيب والمجسّات، عاجزةً حتى عن التنفُّس من دون مساعدة. لا أكاد أتعرَّف إليك، فجسدك تبدَّل، وعقلك غارق في الظلام. ماذا أصاب ذهنك؟ حدِّثيني عن وحدتك وخوفك؛ عن الرؤى المشوَّهة؛ عن آلام عظامك الثقيلة كالحجارة؛ عن الظلال المتوعِّدة التي تنحني على سريرك، وعن الأصوات، والهمسات، والأضواء... لا مغزى لأيِّ شيء بالنسبة إليك. أعرف أنَّك تسمعين لأنَّك ترتعشين لدى صدور صوت من أداة معدنيَّة، ولكنَّني لست أدري إذا كنت تدركين. هل تريدين الحياة، يا باولا؟ عيشي حياتك في محاولة اللقاء مع الله. هل تريدين الموت؟ ربَّما بدأتِ بالموت. ما معنى أيَّامك الآن؟ لقد رجعتِ إلى موقع البراءة التامَّة؛ رجعتِ إلى ماء بطني، مثل السمكة التي كنتِها قبل أن تولدي. أعدّ الأيَّام، وقد أصبحت كثيرة. استيقظي، يا ابنتي، أرجوك أن تستيقظي.

أضع يدي على قلبي، وأُغمض عينَيَّ، وأركِّز تفكيري. هنالك شيء قاتم في الداخل. إنَّه يبدو، في البدء، مثلَ الهواء في الليل؛ مثلَ ظلمات شفَّافة، ولكنَّه لا يلبث أن يتحوَّل إلى رصاص كتيم. أحاول تهدئة نفسي وتقبُّلَ ذلك السواد الذي يحتلّني بالكامل. وتداهمني في

أثناء ذلك صورٌ من الماضي. أرى نفسي قبالة مرآة كبيرة، أتراجع خطوة إلى الوراء، ثم خطوةً أخرى، وفي كلِّ خطوة تمّحي عقود من السنين، وأتضاءل حتى يعكس لي زجاجُ المرآة صورةَ طفلة عمرها نحو ستّ سنوات: أنا نفسي.

لقد هطل المطر طوال عدَّة أيَّام، وأنا أمضي متقافزة فوق بِرَك الماء، متدثِّرةً بمعطف أزرق كبير جدًّا، وحقيبةٌ جلديَّة على ظهري، وقبَّعةُ لبّاد غاطسة حتى أذني، وحذاءٌ مبلَّل في قدمي. البوَّابة الخشبيَّة منتفخة من الماء ومغلقةٌ. لقد احتجت إلى ثقل جسدي كلّه لأحرّكها. هنالك في حديقة بيت جدّي شجرةُ حور عملاقة جذورها مكشوفة للهواء. إنَّها حارس متطاول يحرس العقار الذي يبدو مهجورًا، وأباجوراتِ النوافذ المخلوعة من مفصّلاتها، والجدرانَ المقشَّرة. لم تنتشر العتمة في الخارج بعدُ، لكنَّ البيت من الداخل يغرق في ليل عميق، فجميع الأنوار مطفأة باستثناء نور المطبخ. أتوجَّه إلى هناك عبر المرأب، وهو حجرة كبيرة جدرانها ملطَّخة بالشحم، وتتدلّى فيه القدور والمغارف المسودَّة والمعلَّقة بخطّافات. هناك مصباحان ملطّخان بالذباب يضيئان المشهد، وقِدْر تغلي وإبريق يصفر. الحجرة تعبق برائحة البصل، بينما الثلّاجة الكبيرة تخرخر من دون توقُّف. وماراغارا، المرأةُ الضخمة ذات الملامح الهنديَّة الثابتة والجديلةِ الرفيعة المعقودة فوق رأسها، تستمع إلى التمثيليَّة المسلسلة من المذياع. وإخوتي يجلسون حول المائدة وأمامهم فناجين كوكوا ساخنة وخبزهم المطلي بالزبدة. المرأة لا ترفع عينيها، وتدمدم: اذهبي لرؤية أمّك، إنَّها راقدة في الفراش مرَّة أخرى. أخلع قبَّعتي ومعطفي. فتأمرني، وهي ترفع صوت المذياع: لا تتركي أشياءك ملقاة هناك،

لست خادمتك، وليس من واجبي ترتيبُها. أخرج من المطبخ وأواجه عتمة بقيَّة البيت. أتلمَّس الجدار بحثًا عن مفتاح النور، وأشعل نورًا باهتًا لا يكاد يُضيء ردهة واسعة فيها عدَّة أبواب. هنالك طاولة لها ثلاث أرجل تُشبه قوائم أسد، تحمل تمثالًا من المرمر لفتاة ساهية، وتوجد مرآة ذات إطار خشبيّ سميك، ولكنَّني لا أنظر إليها، لأنَّ صورة الشيطان قد تظهر لي معكوسة على الزجاج. أصعد الدرج مرتعشة من البرد. ثمَّة تيَّار هواء يتسرَّب من فجوة غير مفهومة في هذه الهندسة المعماريَّة الغريبة. أصل إلى الطابق الثاني وأنا متشبِّثة بحاجز الدرج، ويُخيَّل إليّ أنَّ الصعود لا ينتهي. أُحيط نفسي بالصمت والظلال، وأقترب من الباب المغلق في صدر المكان وأدخل، في رفق، من دون أن أطرقه، على رؤوس أصابعي. الضوء الوحيد يأتي من المدفأة، والسقف مغطّى بهَباب كئيب راكمته سنون من البارافين المحترق. هناك سريران كبيران وسرير صغير وكنبة وكراسيّ وطاولات. من الصعب التحرُّك بين هذا الأثاث كلِّه. الكلبة بيلفينا لوبيث ـ بون تنام عند قدمي السرير، وأمِّي ترقد تحت جبل من الأغطية، يظهر نصف وجهها على الوسادة: حاجبان مرسومان بدقَّة يحدّان عينين مغمضتين. الأنف مستقيم، والوجنتان عاليتان، والبشرة شاحبة جدًّا.

«أهذه أنت؟» وتُخرجُ يدًا صغيرة وباردة لتبحث عن يدي.

ـ هل تتألَّمينَ كثيرًا يا ماما؟ سأحضر لك كأس حليب ساخنٍ، وأطلب من أَخَوَيَّ ألَّا يُحدثا ضجَّة.

ـ لا تذهبي، ابقي معي. ضعي يدك على جبهتي فهذا يريحني.

أجلس على السرير وأفعل ما طلبته منّي وأنا أرتعش إشفاقًا من

دون أن أعرف كيف يمكنني أن أخلّصها من هذا الألم اللعين. يا قدّيسة مريم، يا والدة الإله، صلّي من أجلنا نحن الخطأة، الآن وفي ساعة موتنا، آمين. إذا ما ماتت أمّي فسوف نضيع أنا وإخوتي، سيرسلوننا إلى أبي. كانت هذه الفكرة تؤرّقني. كثيرًا ما تقول لي مارغارا إنّني إذا أسأت التصرُّف فسوف أضطرّ إلى الذهاب للعيش معه. أيكون ما تقوله صحيحًا؟ يجب عليّ أن أتأكّد من ذلك، ولكنّي لم أتجرّأ على سؤال أمّي، لأنَّ ذلك سيفاقم صداعها. يجب ألّا أزيد في قلقها لأنَّ الألم سيزداد حتى يفجّر رأسها، ولا يمكنني أن أفتح هذا الموضوع كذلك مع تاتا. يجب عدم ذكر اسم أبي في حضوره... «بابا» كلمة ممنوعة، ومن ينطقْ بها يُطلقْ جميع الشياطين. أشعر بالجوع، وأرغب في الذهاب إلى المطبخ لتناول فنجاني من الكوكوا. حذائي مبلّل وقدماي متجمّدتان. أداعب جبهة المريضة وأركّز تفكيري. كلّ شيء رهن بي الآن. فإذا تجلّدت وصلّيت من دون شرود، فسأتمكّن من هزيمة الألم.

عمري تسع وأربعون سنة. أضع يدي على قلبي وأقول بصوت طفلة: لا أريد أن أكون مثل أمّي، بل سأكون مثل جدّي، قويّةً ومستقلّةً وسليمة وقادرة. لن أقبل بأن يأمرني أحد، ولا أن أكون مَدينة لأحد. أريد أن أكون مثل جدّي وأن أحميَ أمّي.

أظنّ أنَّ جدّي كان يتحسَّر كثيرًا لأنّي لست رجلًا، فقد كان سيعلّمني، في تلك الحالة، لعبَ الكرة الباسكيَّة، واستخدامَ أدواته، وصيدَ السمك، ولكنت تحوَّلت إلى رفيقته في الرحلات التي يقوم بها

كلّ عام إلى باتاغونيا في موسم جزّ صوف الأغنام. في ذلك الحين، كان الذهاب إلى الجنوب يتمّ في القطار أو في السيّارة في دروب ملتوية وترابيّة، تتحوّل عادة إلى برك موحلة تنغرز فيها العجلات، ويتطلّب الأمر عندئذ إحضارَ ثورين لسحب السيّارة. وكان لا بدَّ من اجتياز بحيرات في زوارق تُسحَب بالحبال، وعبورِ سلسلة الجبال على متن البغال. لقد كانت رحلاتٍ شاقّةً. وكان جدّي ينام تحت النجوم متدثّرًا ببطّانيَّة قشتاليَّة سميكة، ويستحمّ في مياه الأنهار الهادرة التي تتغذّى من ذوبان الثلوج على القمم، ويأكل الحمّص والسردين المعلَّب، إلى أن يصل إلى الجانب الأرجنتينيّ، حيث تنتظره زمرة من الرجال مع شاحنة وخروف يشوونه على نار هادئة. كانوا يلتفُّون حول الموقد بصمت، لأنَّهم رجال لا يميلون إلى التواصل، يعيشون وسط طبيعة فسيحة ومهجورة، الرياح فيها تذرو الكلمات ولا تترك لها أثرًا. وكانوا يقطعون بسكاكينهم الغاوتشيَّة قطعًا كبيرة من اللحم المشويّ ويلتهمونها ونظراتهم مثبَّتة على الجمر، من دون أن ينظر أيّ منهم إلى الآخرين. وقد يعزف أحدهم أحيانًا ألحانًا حزينة على الغيتار، بينما هم يتداولون كؤوس المتَّة، فنقيع الأعشاب الخضراء والمُرَّة هذا يتناولونه هناك مثلَ الشاي. إنّني أحتفظ بصور لا يمكن محوُها من الرحلة الوحيدة التي قمت بها مع جدّي إلى الجنوب، على الرَّغم من أنَّ الدُّوار في السيَّارة كاد يقتلني، ومن أنَّ البغلة ألقت بي إلى الأرض مرَّتين. وبعد ذلك، حين رأيت الطريقة التي يجزُّون بها صوف الأغنام، فقدت القدرة على الكلام ولم أعد أستطيع النطق بكلمة واحدة إلى أن رجعت إلى الحضارة. كان الجزَّازون الذين يتقاضون أجورهم بحسب عدد الحيوانات التي يجزُّونها، قادرين على حلق

صوف النعجة في أقلّ من دقيقة واحدة، ولكنَّهم، على الرَّغم من مهارتهم، كانوا يقطعون أجزاء من الجلد، وقد رأيت أكثر من خروف بائس ينفتح بطنه، فيقومون بدسّ أحشائه كيفما اتَّفق داخل بطنه، ويخيطونه بإبرة منجِّد ويفلتونه مع القطيع، فربَّما تُكتب له الحياة ويواصل إنتاج الصوف.

ما بقي لي من تلك الرحلة هو حبِّي للمرتفعات وعلاقتي بالأشجار. لقد رجعت عدَّة مرَّات إلى جنوب تشيلي، وكنت أشعر، في كلِّ مرَّة، بالتأثُّر نفسه الذي لا يمكن وصفه أمام المنظر الطبيعيّ. إنَّ اجتياز سلسلة جبال الأنديز ما زال محفورًا في روحي كواحدة من لحظات الإلهام في حياتي. والآن ـ وفي أوقات يأس أخرى ـ عندما أحاول أن أتذكَّر صلوات، لا تحضرني كلمة أو شعيرة واحدة. تكون رؤيا العزاء الوحيدةَ التي يمكنني اللجوء إليها هي هذه الدروب الشفَّافة في الغابة الباردة، ما بين السرخس العملاقة والجذوع المنتصبة نحو السماء، والممرَّاتِ الجبليَّة الوعرة وحوافّ البراكين الثلجيَّة السيَّالة المنعكسة في مياه البحيرات الزمرّديَّة اللون. لا بدَّ من أنَّ اندماج المرء بالربّ هو مثلُ اندماجه بهذه الطبيعة الاستثنائيَّة. لقد تلاشى جدِّي والدليلُ والبغالُ من ذاكرتي، وأصبحت أسير وحدي في الصمت المهيب لذلك المعبد الصخري والنباتيّ. أستنشق الهواء النظيف والبارد والرطب بالمطر، وتنغرز قدماي في سجَّادة من الوحل وورق الشجر المتعفِّن، وتخترقني رائحة الأرض حتى العظم مثل سيف. أحسّ بأنَّني أمشي وأمشي بخطوات خفيفة على حوافَّ ضبابيَّة، ولكنَّني أبقى دائمًا واقفةً في هذا المكان المجهول، محاطةً بأشجار دهريَّة وجذوع ملقاة وقطع لحاء عطرة وجذور تطلّ من تحت الأرض مثل أيدٍ نباتيَّة مبتورة.

تمسح وجهيَ شباكُ عنكبوت ثابتة، وشراشف مخرَّمة من الخضرة تقطع الدرب من جهة إلى أخرى وهي تتلألأ بحبَّات من الندى وبحشرات فوسفوريَّة الأجنحة. وينبثق هنا وهناك بريقٌ أحمرُ وأبيض من أزهار الكوبيهوي وغيرها من أنواع الزهر التي تنمو في الأعالي ملتفَّةً على الأشجار مثل الخرز المضيء. تسمع أنفاس الآلهة حضورًا نابضًا ومطلقًا في هذا الجوّ الرائع من جروف الصخر الأسود وجدرانه الشامخة التي شذّبها الثلج بدقَّة المرمر المنحوت. مياه ومزيد من المياه تتسلَّل مثل أفاعٍ بلُّوريَّة نحيلة من بين شقوق الأحجار وبطون الجبال العميقة، تتجمَّع في جداول صغيرة وشلَّالات هادرة. وفجأة، تباغتني صرخة طائر قريب أو صوت حجر يتدحرج من علٍ، ولكنَّ السلام التامّ لا يلبث أن يخيّم من جديد على هذه الاتّساعات، وانتبه إلى أنَّني أبكي من السعادة. تلك الرحلة المترَعة بالمصاعب، وبالمخاطر الخفيَّة، وبالعزلة المنشودة، وبجَمال لا يمكن وصفه، هي أشبهُ برحلة حياتي. إنَّ هذه الذكرى مقدَّسة بالنسبة إليّ، إنَّها وطني، وهذا هو ما أعنيه عندما أقول تشيلي. لقد بحثت، على امتداد حياتي، مرَّةً بعد أخرى، عن الانفعال الذي تثيره الغابة في نفسي؛ إنَّه انفعال أشدّ زخمًا واحتدامًا من أعمق التهيُّجات الجنسيَّة ومن أطول تصفيق.

في كلّ سنة، ومع بدء موسم المصارعة الحرَّة، كان جدّي يأخذني معه إلى مسرح كاوبوليكان. كانوا يُلبسونني ثياب يوم الأحد مع حذاء أسود لمّاع وقفَّازين أبيضين، فتتناقض مع مظهر الجمهور الخشن. وبهذه الزينة، وممسوكةً جيِّدًا بيد جدّي العجوز القويَّة، كنت أشقّ طريقي بين جموع المتفرِّجين المزمجرة. كنَّا نجلس دائمًا في

الصف الأوَّل «كي نرى الدماء»، كما كان يقول الناتا متحمِّسًا بقسوة مسبقة. وفي إحدى المرَّات، سقط علينا أحد المصارعين. كان كتلة من اللحم المتعرِّق سحقتنا كأنَّنا صراصير. وكان جدِّي قد تهيَّأ طويلًا من أجل تلك اللحظة، لكنَّه حين جاءت أخيرًا، لم يعرف كيف يتصرَّف. وبدلًا من أن يكسر المصارع بعكَّازه مثلما أعلن مرارًا أنَّه سيفعل، حيّاه بمصافحة ودِّيَّة، ردّ عليها الرجل المذهول مثله بابتسامة خجولة. لقد كانت تلك أحد أكبرَ هموم طفولتي، فقد نزل الجدّ من أولمب البربريَّة حيث كان يشغل العرش الوحيد حتى ذلك الحين، وتقلَّص إلى بُعْده الإنساني. وأظنّ أنّ تمرُّداتي قد بدأت منذ تلك اللحظة. كان مصارعه المفضّل هو الملاك، وهو فحلٌ رشيق له شعر أشقر، يرتدي عباءة زرقاء مزيَّنة بنجوم فضِّيَّة، وحذاءً أبيضَ، وسروالًا مضحكًا لا يكاد يستر عورته. وفي كلّ سبت، كان يراهن بشعره الأشقر الرائع ضدّ كوراموتو الرهيب، وهو هندي مابوتشي يتظاهر بأنَّه يابانيّ فيرتدي كيمونو وقبقابًا خشبيًّا. لقد كانا يخوضان صراعًا صاخبًا، فيتبادلان العضَّ وليَّ العنق وركلَ الأعضاء التناسليَّة ودسَّ الأصابع في العيون، بينما كان جدِّي يمسك قبَّعته بإحدى يديه ويُشهر عكّازه باليد الأخرى صارخًا: اقتله، اقتله! من دون تمييز بين مصارع وآخر، لأنَّه لم يكن يهتمّ بمن سيقتل مَن. وفي كلّ جولتين من ثلاث جولات مصارعة، كان كوراموتو يفوز على الملاك، ويرفع عندئذ الحكم مقصًّا لامعًا ويعرضه بصمت على الجمهور الوقور، ثم يبدأ المحارب اليابانيّ المزيَّف بقصّ خصل شعر خصمه. لكنَّ المعجزة كانت تتمثَّل في أنَّ الملاك كان يظهر بعد أسبوع من ذلك وشعره الأشقر يتلألأ حتى كتفيه، وكان ذلك دليلًا لا يُدحَض على منشئه

الإلٰهي. أمَّا أفضل ما في تلك الاستعراضات، فكان «المومياء» الذي ملأ لياليَّ بالرعب لسنوات.

كانت أنوار المسرح تخفت، ونسمع موسيقى جنائزيَّة من أسطوانة مشروخة، ويظهر مصريَّان فرعونيَّان يمشيان جنبًا إلى جنب، وهما يحملان شعلتين مضاءتين، يتبعهما أربعة آخرون يرفعون على حمَّالة نعشًا مطليًا بألوان غير متناسقة. يضع أفراد الموكب الصندوق فوق الحلبة ويتراجعون خطوتين، وهم يرتِّلون شيئًا بإحدى اللغات المنقرضة. وكانت قلوبنا تتجمَّد ونحن نرى غطاء التابوت يرتفع ويبرز منه آدميّ ملفوف بأربطة، ولكنَّه في حالة صحّيَّة سليمة تمامًا بالنظر إلى زمجراته وضرباته على صدره. لم تكن له رشاقة المصارعين الآخرين، وكان يكتفي بتوجيه ركلات فظيعة وضربات قاتلة من ذراعيه المتيبِّستين، ملقيًا بخصومه إلى الحبال وساحقًا الحَكَم. وفي إحدى المرَّات، وجَّه «المومياء» ضربة بقبضته إلى رأس طرزان، فاستطاع جدِّي أخيرًا أن يعرض في البيت بضعَ لطخات حمراء على قميصه، ولكن مارغارا زمجرت، وهي تنقع القميص بالكلور: «هذا ليس دمًا ولا يشبه الدم، إنَّه صلصة البندورة». لقد خلَّفت تلك الشخصيَّات تأثيرًا ضئيلًا في ذاكرتي، وبعد أربعين سنة من ذلك، حاولتُ بعثهم في قصَّة قصيرة، ولكنَّ الوحيد الذي ترك في نفسي تأثيرًا دائمًا هو الأرمل. كان رجلًا في الأربعين من عمره المنكد. إنَّه نموذج اللابطل الكامل، كان يصعد إلى الحلبة مرتديًا سروال سباحة قديمًا من تلك التي كان يستخدمها الرجال في بدايات القرن، مصنوعًا من نسيج أسود يصل حتى الركبتين، وله صدر وحمّالتان. وكان يعتمر كذلك قبَّعة سباحة تُضفي عليه لمسة مؤثِّرة حتمًا. وكان الجمهور يستقبله بعاصفة

من الصفير والشتائم والتوعُّدات والقذائف، ولكنَّ الحَكَم كان يتمكَّن أخيرًا من إسكات الوحوش بضرب الصنج وإطلاق صفّارته. فكان الأرمل يرفع صوته الرفيع كصوت مُوثّق العقود ليوضح أنَّ هذه المباراة ستكون مصارعته الأخيرة؛ لأنّه مُصاب بمرض في ظهره ويشعر بالكآبة منذ وفاة زوجته الطاهرة، لتستريح روحها بسلام. فقد غادرت زوجته إلى السماء وتركته وحده يتولّى مسؤوليّة ابنين صغيرين. وعندما تبلغ السخرية منه مستوى المعركة الميدانيَّة، يصعد إلى الحلبة طفلان تثير ملامحهما الشفقةَ ويدخلان من بين الحبال ويتعلَّقان بركبتي الأرمل متوسِّلين إليه بالتخلِّي عن المصارعة، لأنَّ خصومه سيقتلونه. فيخيِّم صمت مفاجئ على الحشود، بينما أهمس أنا بقصيدتي المفضَّلة: «طفلان طريّا العود يمضيان إلى الضريح/ يمشيان يدًّا بيد وبالألم نفسه/ يجثوان معًا على قبر الأب/ ويتوجَّهان بصلاتهما إلى الربّ». فيوكزني جدّي بمرفقه قائلًا: اصمتي. ويوضح الأرمل، وهو يحبس النحيب في حنجرته، أنَّه مضطرٌّ إلى كسب لقمة العيش، ولهذا عليه مواجهة قاتل تكساس. عندئذ يصبح في الإمكان سماع دبيب القملة في المسرح الفسيح. وفي لحظة واحدة، يتحوَّل تعطُّش تلك الجماهير البهيميَّة إلى التعذيب والدماء، إلى دموع مشفقة ووابل رحمة يهطل قِطَعًا وأوراقًا نقديَّة على الحلبة، فيجمع اليتيمان الغنيمة بسرعة ويغادران راكضَين، بينما ينفتح الطريق لقاتل تكساس الأكرَش، ولست أدري لماذا كان يرتدي زيّ مجذف رومانيّ ويسوط الهواء بكرباج. وكان الأرمل يتلقَّى في كلِّ مرَّة، بالطبع، «علقة» غير عاديَّة، ولكنَّ المنتصر يضطر إلى مغادرة المكان بحماية رجال الدرك حتى لا «يفرمه» الجمهور، بينما يخرج الأرمل المغطَّى بالرضوض وابناه على حمَّالات مرفوعة على

أكفّ المحسنين الذين كانوا يقدِّمون إليهم فوق ذلك الحلوى والنقود والبركات.

وكان جدّي يعلّق بتأثُّر حقيقيّ:

ـ يا له من شيطان بائس، فالترمُّل أمر سيّئ فعلًا.

في أواخر السِّتينيَّات، حين كنت أعمل صحافيَّة، تعيَّن عليّ أن أُجري تحقيقًا صحافيًّا عن «الكاتشاسكان»، كما كان يسمّي جدّي هذه الرياضة الغريبة. وقد كنت أؤمن، حتى بلوغي الثامنة والعشرين من عمري، بموضوعيَّة الصحافة، فلم أجد بدًّا من التحدُّث عن بؤس حياة أولئك المصارعين المساكين، وفضحِ دماء البندورة، وعيونِ الزجاج التي تظهر على أصابع كوراموتو الخطافيَّة بينما يخرج الخاسر «الأعمى» مولولًا ومصطدمًا بكلِّ شيء وهو يغطّي وجهه بيديه الملطَّختين بالأحمر، وباروكة الملاك الذي أصبح عجوزًا هرمًا وأفاد، بالتأكيد، نموذجًا لشخصيَّة أفضل قصَّة قصيرة لغارسيا ماركيز «سيِّد عجوز جدًّا له أجنحة ضخمة». وقد قرأ جدّي تحقيقي الصحافيّ، وهو يصرّ أسنانه، وأمضى أسبوعًا من دون أن يكلِّمني من الغيظ.

كنت أمضي فصول الصيف في طفولتي على الشاطئ، حيث كانت الأسرة تملك بيتًا كبيرًا غير متناسق قبالة البحر. كنَّا نذهب إلى هناك في شهر كانون الأوَّل، قبل أعياد الميلاد، ونرجع في أواخر شهر شباط، مسودّين من الشمس ومتخَمين بالفواكه والسمك. إنَّ الرحلة التي يمكن القيام بها حاليًّا في ساعة واحدة على طريق الأوتوستراد، كانت في ذلك الحين أوديسة تستغرق يومًا كاملًا. كانت الاستعدادات

تبدأ قبل أسبوع، فتُملأ صناديقُ بالطعام والشراشف والمناشف، وأكياسٌ بالملابس، وقفص الببغاء، ذلك الطائر السليط القادر على أن ينتزع بنقرة واحدة إصبعَ من يجرؤ على لمسه، وكذلك الكلبة بيلفينا لوبيث ـ بون بالطبع. ولا يبقى في البيت سوى الطاهية والقطط، وهي حيوانات متوحّشة تتغذّى على الفئران والحمائم. كان جدّي يملك سيّارة إنكليزيّة سوداء وثقيلة مثل دبّابة، على سقفها مِنْصَبٌ يُربَط عليه جبل حزم الأمتعة. وكانت بيلفينا تسافر في حقيبة السيّارة المفتوحة مع سلال الغداء من دون أن تهاجمها، لأنّها ما إن ترى الحقائب حتى تُصاب بكآبة كلبيّة عميقة. كانت مارغارا تحمل معها أوانيَ وفوطًا ونشادر وزجاجة من مغليّ البابونج، وليكورًا حلوًا تافهًا من صنع بيتيٍّ كانت تنسب إليه بغموض فضيلةَ قبض المعدة، ولكن أيًّا من هذه الاحتياطات لم يكن قادرًا على منع الدُّوار. فأمّي وأبناؤها الثلاثة والكلبة كنّا نخمد قبل أن نخرج من سنتياغو، ونبدأ نئنّ احتضارًا عند دخولنا الطريق العام، وحين نصل إلى منطقة الكهوف في الجبال كنّا نسقط في حالة غسقيّة. وكان على التاتا أن يوقف السيّارة بكثرة كي ننزل ونحن شبه مغمًى علينا لنتنفّس هواء نقيًّا ونحرّك أرجلنا، ثم يواصل قيادة تلك العربة ذات المحرّك وهو يلعن فكرة أخذنا إلى المصيف. وكان يتوقّف كذلك في حقول المزارعين على امتداد الطريق ليشتري جبن الماعز والشمّام ومرطبانات العسل. وفي إحدى المرّات، اشترى ديكًا روميًّا حيًّا لتسمينه، باعته إيّاه فلّاحة ذات بطن ضخم على وشك الولادة، وقد تطوّع جدّي، بشهامته المعهودة، للإمساك بالطير. وعلى الرَّغم من الغثيان، فإنّنا استمتعنا لبعض الوقت برؤية ذلك الشيخ الأعرج وهو يركض وراء الديك الرومي في مطاردة صاخبة. وتمكّن

أخيرًا من إمساك عنق الطائر بقبضة عكّازه، وانقضّ عليه وسط زوبعة غبار وريش لا يمكن وصفها. رأيناه يرجع إلى السيّارة ملوَّثًا بذرق الطيور وهو يحمل غنيمته تحت إبطه وقد قيَّد قائمتيها جيِّدًا. ولم يخطر في بال أحد منّا أنَّ الكلبة ستتمكَّن من التخلُّص من كآبتها للحظات تكون كافية لانتزاع رأس الديك الروميّ بعضة واحدة قبل أن نصل إلى هدفنا. ولم تكن ثمَّة طريقة لإزالة بقع الدم التي بقيت مطبوعة في السيّارة كذكرى أبديّة لتلك الرحلات المشؤومة.

لقد كان ذلك المنتجع في الصيف عالمًا للنساء والأطفال. وقد بقي شاطئ بلايا غراندي فردوسًا إلى أن أُقيمت فيه مصفاة البترول فقوَّضت إلى الأبد صفاءَ الماء، وروَّعت حوريّات البحر فلم تعد أصواتها تُسمَع على تلك الشواطئ. منذ العاشرة صباحًا، كان يبدأ وصول الخادمات مع الأطفال. فيجلسنَ لحياكة الصوف وهنَّ يراقبن الصغار بأطراف عيونهنَّ في الأماكن نفسها دائمًا. ففي وسط الشاطئ، وتحت خيام ومظلّات واقية من الشمس، كانت تستقرّ أقدم العائلات، أصحابُ البيوت الكبيرة؛ وإلى الجهة اليسرى يستقرّ الأثرياء المحدثون والسيّاح والطبقةُ الوسطى الذين يستأجرون البيوت القائمة على الروابي. أمّا الجهة اليمنى، فكانت للزائرين المتواضعين الذين يأتون من العاصمة في ميكروباصات مخلّعة. لقد كان الجميع يبدون متشابهين تقريبًا وهم في البحر بملابس الاستحمام، ولكن كلّ واحد منهم كان يعرف مع ذلك مكانه الصحيح على الفور. فللطبقة الراقية في التشيلي عمومًا مظهرٌ أوروبيّ، ولكنّها حين تنحدر على السلَّمين الاجتماعيّ والاقتصاديّ تبرز لديها الملامحُ الهنديّة المحلّيّة. كما أنَّ الوعي الطبقي قويٌّ جدًّا لدى الجميع، حتى إنّني لم أرَ أحدًا يجتاز حدود موقعه.

وعند الظهيرة تأتي الأمَّهات وهنّ يضعن قبّعات كبيرة من القشّ ويحملن قوارير من عصير الجزر الذي كان يُستخدم آنذاك لإكساب البشرة لونًا برونزيًّا بسرعة. وعند نحو الساعة الثانية، حين تكون الشمس في أوجها، يذهب الجميع لتناول الغداء ونوم القيلولة، وبعد ذلك بقليل يظهر الشبَّان في مزاج ضجر: فتياتٌ متفتّحات وفتيان رابطو الجأش يستلقون على الرمال، يدخِّنون ويحتكّ بعضهم ببعض إلى أن يدفعهم التهيّج إلى البحث عن الراحة في البحر. وعند الغروب من أيَّام الجمعة، كان أزواج أولئك النسوة يأتون من العاصمة فيتبدل مظهر الشاطئ يومَي السبت والأحد. فترسل الأمَّهات أبناءهنَّ للنزهة مع المربّيات ويجلسن في جماعات وهنّ يرتدين أفضل ملابس البحر والقبّعات، متنافسات في اجتذاب اهتمام أزواج الأُخريات، ولكن جهودهنَّ كانت تمضي أدراج الرياح، فأولئك الرجال لا يكادون ينظرون إليهنَّ لأنَّهم كانوا أكثر اهتمامًا بالتعليق على الشؤون السياسيَّة ـ موضوع الحديث الوحيد في تشيلي ـ، وبحساب الوقت المتبقِّي للعودة إلى بيوتهم ليأكلوا ويشربوا بشراهة مثل القوزاق. وكانت أمِّي تجلس مثل إمبراطورة في منتصف الجزء الأوسط من الشاطئ، تستمتع بأشعَّة الشمس في الصباح، وتذهب للعب في الكازينو في المساء. وكانت قد اكتشفت حيلة تُتيح لها أن تكسب كلّ مساء ما يكفي لنفقاتها. وكي تحول مارغارا دون موتنا منساقين مع أمواج ذلك البحر الغادر، كانت تربطنا بحبل تلفّه على خصرها بينما هي تحوك كنزات لا تنتهي للشتاء. وعندما تشعر بشَدَّة في الحبل، ترفع عينيها في نظرة قصيرة لترى من هو الذي أحاق به الخطر وتجذب الحبل لتُعيده جرًّا إلى الأرض اليابسة. لقد كنَّا نعاني يوميًّا ذلك الإذلال، ولكنَّنا ما إن

نغطس في الماء حتى ننسى سخريات الصِبْية الآخرين. كنَّا نستحمّ حتى يصبح لوننا أزرقَ من البرد، وكنَّا نجمع الأصداف والقواقع، ونأكل خبزًا من البيض والدقيق وبوظة ليمون شبه ذائبة يبيعها أصمٌّ أبكمُ في عربة مملوءة بثلج مع الملح. وفي الأمسيات كنت أخرج ممسكة بيد أمِّي لرؤية غروب الشمس من فوق الصخور. وكنَّا ننتظر متيقِّظتين لنطلب أمنية عند انبثاق آخر شعاع أخضر مثل شعلة في اللحظة التي تغيب فيها الشمس عن الأفق. وكنت أطلب دائمًا ألَّا تجد أمِّي زوجًا، وأعتقد أنَّها كانت تطلب عكس ذلك بالضبط. لقد كانت تحدِّثني عن رامون الذي كنت أتصوَّره، بحسب وصفها، أميرًا ساحرًا، فضيلته الوحيدة هي وجوده بعيدًا جدًّا. كان التاتا يتركنا في المنتجع في بداية الصيف، ويرجع من فوره تقريبًا إلى سنتياغو، وكانت تلك الفترة هي الفترة الوحيدة التي يستمتع فيها بشيء من السلام، فقد كان يحبّ لعب الغولف والورق في نادي الاتِّحاد. وإذا جاء إلى الشاطئ في إحدى نهايات الأسبوع، فإنَّه لا يفعل ذلك للمشاركة في مرح الإجازة، بل كي يجرِّب قواه بالسباحة لساعات في ذلك البحر المثلج ذي الأمواج العاتية، وللخروج إلى صيد السمك أو لإصلاح العيوب التي لا حصر لها في ذلك البيت المتداعي من الرطوبة. وقد اعتاد أن يأخذنا إلى حظيرة قريبة لتناول الحليب الطازج مباشرة من بقرة قاتمة ونتنة يقوم عامل له أظفار قذرة بحلبها في فناجين من صفيح. وجدِّي، الذي لم يكن يؤمن بالنظافة، كان من دعاة توسيخ الأطفال بتعريضهم مباشرة لمصادر الالتهابات، وكان يطلق قهقهات احتفاليَّة مجلجلة حين يرانا نبتلع ذبابة حيَّة.

كان أهالي القرية ينظرون إلى غزو المصطافين بمزيج من الحقد

والحماسة. لقد كانوا أناسًا متواضعين، جميعهم تقريبًا من الصيَّادين أو صغار التجّار أو مُلَّاك أراضٍ مساحاتُها صغيرة على ضفَّة النهر، يزرعون فيها بعض البندورة والخسّ. وكانوا يفاخرون بأنَّه لا يحدث هناك أيُّ شيء، وأنَّها ضيعة هادئة جدًّا، ومع ذلك فقد وجدوا في صباح يوم شتائيّ جثَّةَ فنَّان معروف معلَّقةً على صواري سفينة شراعيَّة. لقد سمعتُ التعليقات مهموسةً، فالخبر لم يكن مناسبًا للأطفال، ولكنَّني استقصيت عن بعض التفاصيل بعد بضع سنوات من حدوث الفاجعة. لقد تولَّت القرية، بأسرها، مسؤوليَّةَ محو الآثار وطمسِ البراهين ودفنِ الأدلَّة، ولم تتوقَّف الشرطة مطوَّلًا لكشف الجريمة الغامضة، لأنَّ الجميع كانوا يعرفون من الذي علَّق الجسد على العمود الخشبيّ. كان الفنَّان يعيش طوال السنة في بيت على الشاطئ متفرِّغًا للرسم، يستمع إلى مجموعته من أسطوانات الموسيقى الكلاسيكيَّة، ويقوم بنزهات طويلة مع كلبه، وهو كلب أفغانيّ من سلالة نقيَّة، شديد الضمور، حتى إنَّ الناس كان يظنُّونه سليلَ كلب وفرخَ عقاب. وكان أكثر الصيَّادين وجاهة يجلسون أمام الفنَّان ليكونوا موديلات للوحاته، ثم لا يلبثون أن يتحوَّلوا إلى رفاقه في اللهو والعربدة. وكانت أصداء الموسيقى تصل في الليل إلى تخوم القرية، والصيَّادون الشباب لا يرجعون إلى بيوتهم وعملهم لعدَّة أيَّام أحيانًا. حاولت الأمَّهات والزوجات الجديدات استعادة رجالهنَّ من دون طائل، إلى أن فقدن الصبر أخيرًا، وبدأن التآمر خفيةً. إنَّني أتخيَّلهنَّ يتهامسن وهنَّ يُصلحن شِبَاك الصيد، ويتبادلن الغمزات في السوق، وكلماتِ السرّ كما في اجتماع للساحرات. وفي تلك الليلة، تسلَّلن مثل الظلال على الشاطئ، واقتربن من البيت الكبير، ودخلن بصمت من دون أن يزعجن

رجالهنَّ الذين كانوا ينامون سكارى، ونفَّذن ما ذهبن لعمله من دون أن ترتعش المطارق في أيديهنَّ. ويُقال إنَّ الكلب الأفغانيَّ الأهيف قد لقي المصيرَ نفسه. لقد كان عليّ في بعض الأحيان أن أزور أكواخ الصيَّادين البائسة التي تعبق برائحة جمر الفحم وأكياس السمك، فكنت أشعر مجدَّدًا بالغمِّ نفسه الذي كان يداهمني في غرف الخادمات. في بيت جدِّي الطويل مثل قطار، كانت جدران الكرتون ـ الحجر رقيقة جدًّا، إلى درجة أنَّ الأحلام كانت تختلط ليلًا، وكانت الأنابيب والأشياء المعدنيَّة الأخرى تصدأ بسرعة، وكان الهواء المالح يسفع كلّ شيء مثل جُذام وبيل، فكان لا بدَّ من طلاء الأشياء كلّها بالدهان مرَّة في السنة وشقّ الفراش لغسل الصوف ونشره في الشمس قبل أن يتعفَّن من الرطوبة. لقد كان البيت مشيَّدًا إلى جانب ربوة قطعها جدِّي كأنَّها قالب حلوًى، من دون أن يفكِّر في عوامل التعرية، إذ كانت تنزّ دفقات دائمة من ماء يغذِّي نبتات أورطنسيا ورديَّة وزرقاء عملاقة ودائمة التفتُّح. وعلى قمَّة الرابية التي يتمّ الوصول إليها عبر درج طويل، كانت تعيش أسرة صيَّادين. أحد أبنائها، وهو شابّ يداه خشنتان من قسوة مهنته في جرف الأصداف عن الصخور، أخذني يومًا إلى الغابة. كان عمري آنذاك ثمانية أعوام. وكان اليوم هو يوم عيد الميلاد.

لنرجعْ إلى رامون؛ العاشق الوحيد الذي يهمّنا من بين عشَّاق أمّي، لأنَّها هي نفسها لم تهتمّ بالآخرين قطّ، فمرُّوا من دون أن يخلِّفوا أثرًا. كان رامون قد انفصل عن زوجته التي رجعت إلى سنتياغو مع أبنائها، وكان يعمل في السفارة في بوليفيا مدّخرًا كلّ سنتافو كي يتمكَّن من فسخ زواجه، وهي طريقة عاديَّة في تشيلي، حيث يدفع عدم

وجود قانون يبيح الطلاق إلى اللجوء إلى أساليب الخداع والكذب والشهود المزيَّفين وشهادات الزور. وقد أفادته سنواتُ الحبّ المتأخِّر في تبديل شخصيَّته، فتخلَّص من الإحساس بالذنب الذي لقَّنه إيّاه أب مستبدّ وابتعد عن الدين الذي كان يضغط عليه مثل سترة التقييد. واستطاع، بواسطة رسائل عاطفيَّة وبضع مكالمات هاتفيَّة، أن يهزم خصومًا أقوياء، منهم طبيب أسنان، وحاوٍ يمكنه في ساعات فراغه أن يُخرج أرنبًا حيًّا من قِدْر فيها زيت يغلي، وملكُ طناجر الضغط الذي أدخل هذه الأداة إلى البلاد وقلب وقارَ المطبخ المحلِّيّ رأسًا على عقب، وعددٌ آخر من الوجهاء الذين كان يمكن لأيٍّ واحد منهم أن يصبح زوجَ أمّنا، بمن فيهم شخصيَّتي المفضَّلة بينجامين بييل، الطويلُ والمستقيم مثل رمح، وصاحبُ الابتسامة المعدية، والزائرُ المواظب في بيت جدِّي آنذاك. إنَّ أمِّي تؤكِّد أنَّ حبّ حياتها الوحيد هو رامون، وحيث إنَّهما، كليهما، لا يزالان في قيد الحياة، فإنَّني لا أفكِّر في تكذيبها. كان قد مضى نحو سنتين على خروجنا من ليما حين دبَّرا عمليَّة هروب إلى شماليّ تشيلي. لقد كانت المجازفة في ذلك اللقاء السرِّيّ كبيرةً جدًّا بالنسبة إلى أمِّي، فهي تعني خطوة حاسمة في اتِّجاه محظور والتخلِّي عن حياتها الرصينة كموظَّفة مصرف، وعن عفاف الأرملة المتفانية في بيت أبيها، ولكنَّ دوافع الرغبة المتراكمة وقوَّة الشباب تغلَّبت على وساوسها الأخرى. لقد تطلَّب الإعداد لتلك المغامرة عدَّة شهور، وكان المتواطئ الوحيد مع أمِّي هو خالي بابلو الذي لم يشأ معرفة هويَّة العاشق ولا الاطِّلاعَ على التفاصيل، ولكنَّه اشترى لأخته أفضل بدلة للسفر، ودسَّ في حقيبتها حزمة أوراق نقديَّة ـ لأنَّها قد تندم في منتصف الطريق وتقرِّر العودة، كما قال هو نفسه ـ

ثم رافقها بصمت إلى المطار. سافرت بمرح من دون أن تقدّم أيّ توضيح إلى جدّي، لأنّها قدّرت أنّه لن يتفهّم أبدًا مبرّراتِ الحبّ القاهرةَ. ورجعت بعد أسبوع من ذلك، وقد تبدّلت تمامًا بتأثير تجربة الحبّ الزخمة، ونزلت من الطائرة لتجد التاتا ببدلة سوداء وجدّيّة قاتلة، وقد خرج لاستقبالها بذراعين مفتوحتين وضمّها إلى صدره، غافرًا لها بصمت. وأظنّ أنّ رامون قد وفى بوعوده المحتدمة التي ضمّنها رسائله في تلك الأيّام العابرة، وهذا يفسّر إصرار أمّي على انتظاره سنوات، آملة أن يتمكّن من التخلّص من قيود زواجه. ولكن آثار ذلك اللقاء ونتائجه راحت تختفي بمرور الأسابيع. لم يكن جدّي ممّن يؤمنون بالحبّ عن بُعد، فلم يتحدّث في الموضوع قطّ. ولأنّها لم تأتِ هي نفسها على ذكره أيضًا، فقد ظنّ جدّي سير الزمن الذي لا يتوقّف قد أخمد تلك العاطفة، ولهذا كانت مفاجأته فظيعة حين علم بقدوم العشيق المباغت إلى سنتياغو. أمّا أنا، فما إن تأكّدت من أنّ الأمير المسحور ليس مجرّد حكاية، وإنّما هو شخص واقعيّ، حتى أحسست بالرعب. فقد كان الخوف يقضّ مضجعي لفكرة أنّ أمّي ستستعيد حماستها معه وتهجرنا. كان رامون قد علم بوجود عريس غامض يلوح في الأفق لينافسه ـ أريد أن أعتقد أنّه بينجامين بيبل، ولكنّني أفتقر إلى أدلّة ـ فغادر وظيفته في لاباز من دون مزيد من التردّد، وتعلّق بأوّل طائرة متوجّهة إلى تشيلي. لم يكن انفصاله عن زوجته لافتًا للنظر في أثناء وجوده في الخارج، ولكنّ الوضع انفجر حين وصل إلى سنتياغو ولم يستقرّ تحت سقف بيت الزوجيّة؛ فقد تحرّك الأقرباء والأصدقاء والمعارف في حملة عنيدة لإعادته إلى منزله الشرعيّ. وفي أحد تلك الأيّام، كنت أمضي في الشارع مع إخوتي

ممسكين بيد مارغارا، عندما صرخت بنا سيِّدة ثريَّة بأعلى صوتها: يا أبناء القحبة. وحيال تمادي ذلك الزوج العنيد، جاء عمّه الأسقف إلى جدِّي ليطلب تدخُّله. كان يتّقد بالغضب المسيحيّ ويعبق برائحة القداسة ـ لم يكن قد استحمَّ منذ خمس عشرة سنة ـ وهو يعرض على جدِّي خطايا ابنته، وأنَّها «بثشبع» أرسلها الشيطان لإغواء البشر. لم يكن جدِّي بالرجل الذي يتقبَّل تلك الخطابيَّة الدينيَّة بشأن أحد أفراد أسرته، أو ممَّن يمكن لكاهن، مهما اتَّسعت شهرة قداسته، أن يفحمهم، لكنَّه أدرك مع ذلك أنَّه لا بدَّ له من التصدِّي للفضيحة قبل فوات الأوان. فاتَّفق على موعد مع رامون في مكتبه لحلِّ المشكلة من جذورها، ولكنَّه وجد نفسه أمام إرادة لا تقلّ صلابة عن إرادته.

«إنَّنا متحابّان»، هكذا بدأ رامون يشرح له الوضع بكلِّ احترام، ولكن بصوت حازم، وعلى الرَّغم من أنَّ الرسائل الأخيرة كانت تحمل بذور الشكّ في مبادلة الطرف الآخر لهذا الحبّ.

ـ اسمح لي بأن أثبت لك أنَّني رجل شريف ويمكنني إسعاد ابنتك.

لم يرفع جدِّي نظره عنه محاولًا التحقُّق من أكثر بناته خفية، ولا بدَّ من أنَّ ما رآه قد نال رضاه، لأنَّه حزم أمره أخيرًا، وقال:

ـ حسنًا. إذا كانت الأمور على هذه الحال، فعليك المجيء لتعيش في بيتي، لأنِّي لا أريد لابنتي أن تمضي على هواها في مجاهل لا أعرفها. وأنا أحذِّرك، في الوقت نفسه، من أنَّه لا بدَّ لك من أن تعتني بها جيِّدًا. فعند أوَّل مشكلة، سيكون عليك أن تواجهني أنا شخصيًّا. اتَّفقنا؟

«تمامًا»، هكذا ردّ العريس المرتجل، وهو يرتعش قليلًا، ولكن من دون أن يخفض بصره.

كانت تلك بداية صداقة غير مشروطة استمرَّت أكثر من ثلاثين سنة ما بين حمي غير محتمل وصهر غير شرعيّ. وبعد قليل من ذلك، جاءت شاحنة إلى بيتنا وأنزلت في الفناء صندوقًا ضخمًا أخرجت منه أشياء لا حصر لها. حين رأيت العمّ رامون لأوّل مرّة، فكَّرت في أنَّ الأمر كلّه مجرَّد مزحة من أمّي. أهذا هو الأمير المسحور الذي لطالما تنهَّدت من أجله؟ لم أكن قد رأيت شخصًا أشدّ قبحًا منه. وقد كنت، أنا وأخواي، ننام حتى ذلك الحين في الحجرة نفسها مع أمّي، ولكنَّهم نقلوا سريري في تلك الليلة إلى حجرة كوي الملابس المحاطة بخزائن ذات مرايا شيطانيَّة، أمَّا بانتشو وخوان فقد نُقلا إلى حجرة أخرى مع مارغارا. لم أنتبه إلى أنَّ شيئًا أساسيًّا قد تبدَّل في نظام الأسرة على الرَّغم من أنَّ رامون كان يُخرج طائرًا من النافذة كلَّما أتت الخالة كارميليتا لزيارتنا. ولكنَّ الحقيقة تكشَّفت لي فيما بعد. ففي أحد الأيَّام، رجعت من المدرسة قبل الموعد المعتاد، ودخلت حجرة أمّي من دون أن أطرق الباب، مثلما كنت أفعل دائمًا، فوجدتها تنام القيلولة مع ذلك الشخص المجهول الذي صار علينا أن ندعوه العمّ رامون. ولم أتخلَّص من عضَّة الحسد تجاهه إلَّا بعد عشر سنوات من ذلك، حين استطعت تقبُّله أخيرًا. لقد تولّى مسؤوليَّتنا مثلما تعهَّد في ذلك اليوم التاريخيّ في ليما، وقد ربَّانا بيد حازمة ومزاج طيِّب، وقدَّم إلينا الحدود والنصائح بوضوح، ومن دون مظاهر عاطفيَّة، ولم يتزلَّف إلينا على الإطلاق، وتحمَّل أهوائي من دون أن يحاول شراء تقديري أو التراجع قيد أنملة عن مواقفه، إلى أن تمكَّن أخيرًا من اجتذابي

بالكامل إلى جانبه. إنَّه الأب الوحيد الذي كان لي، وهو يبدو لي الآن، بصراحة، رجلًا طيِّبًا.

حياة أمِّي رواية منعتني هي نفسها من كتابتها، إذ لا يمكنني أن أكشف النقاب عن أسرارها وخفاياها إلَّا بعد مرور خمسين سنة على وفاتها، ولكنَّني سأكون قد تحوَّلت حينئذ إلى غذاء للأسماك إذا ما نفَّذ أبنائي التعليماتِ بإلقاء رمادي إلى البحر. وعلى الرَّغم من أنَّنا نادرًا ما نتوصَّل إلى الاتِّفاق فيما بيننا، فإنَّها أطول حبّ في حياتي، بدأ يوم حبلت بي وما زال مستمرًّا طوال نصف قرن. وهو كذلك الحبُّ الوحيد غير المشروط، فليس في إمكان الأبناء ولا أشدّ العشَّاق هيامًا أن يحبّوا هكذا. إنَّها معي الآن في مدريد، لها شعر فضِّيّ وتجاعيدُ سبعين سنة، ولكن عينيها الخضراوين ما زالتا تحتفظان ببريق العاطفة القديم على الرَّغم من مرارة هذه الشهور الأخيرة التي جعلت كلّ شيء قاتمًا وكئيبًا. إنَّني أتقاسم وإيَّاها غرفتين في فندق على مقربة من المستشفى، ولدينا هناك موقد صغير وثلَّاجة. ونحن نتغذَّى على فناجين من الشوكولاتة الكثيفة والمعجَّنات المقليَّة التي نشتريها لدى مرورنا في الشارع، ونتناول أحيانًا شوربة عدس وسجق نعدّها في مطبخنا الصغير، ويمكن لها أن تبعث ألعازر حيًّا. نستيقظ فجرًا، ويكون الظلام لا يزال مخيِّمًا، وبينما أمِّي تتمطّى، أرتدي ملابسي بسرعة وأعدّ القهوة. أخرج قبلها، وأسير في شوارع مرقَّعة ببقع ثلج قذرة وصقيع، وبعد نحو ساعتين تلحق بي إلى المستشفى. ونمضي نهارنا في ممرّ الخطى الضائعة إلى جوار باب وحدة العناية المشدَّدة، وحيدتين حتى الغروب، حين يأتي أرنستو عائدًا من عمله ويبدأ وصول

الزائرين من الأصدقاء والراهبات. لا يمكننا، بمقتضى الأنظمة، أن نجتاز هذا الباب إلّا مرَّتين في اليوم، بعد أن يُلبسونا أروابًا خضراء ويضعوا أقدامنا في أخفاف بلاستيكيَّة، ونسير إحدى وعشرين خطوة واسعة وقلوبنا على أكفّنا حتى نصل إلى صالتك، يا باولا. سريرك هو الأوَّل إلى اليسار، وهناك اثنا عشر سريرًا في هذه الحجرة، بعضها فارغ وبعضها مشغول: مرضى قلب، أشخاصٌ أُجريت لهم عمليَّات جراحيَّة، ضحايا حوادث، مدمنو مخدّرات أو منتحرون، يمضون هناك بضعة أيَّام ثم يختفون. بعضهم يعود إلى الحياة، وآخرون يغطُّونهم بشراشف ويُخرجونهم من هناك. إلى جوارك يرقد دون مانويل محتضرًا ببطء. إنَّه يرفع نفسه قليلًا في بعض الأحيان لينظر إليك بعينين ضبابيَّتين من الألم، ويقول لي: كم هي جميلة طفلتك. لقد اعتاد أن يسألني عمَّا أصابك، ولكنَّه غارق في بؤس مرضه. وما أكاد أنتهي من شرح الأمر له حتى ينساه. لقد رويت له حكاية بالأمس، وقد استمع إليّ للمرَّة الأولى باهتمام: كان يا ما كان، كانت هناك أميرة أغرقتها حوريَّاتها العرَّابات بالهدايا والهبات في يوم تعميدها، ولكن ساحرًا شرِّيرًا وضع قنبلة زمنيَّة في جسدها قبل أن تتمكَّن أمّها من منعه. وفي الوقت الذي أكملت فيه الصبيَّة ثمانية وعشرين عامًا من السعادة، كان الجميع قد نسوا الرقية المشؤومة، ولكنَّ الساعة الزمنيَّة كانت تعدّ الدقائق من دون توقُّف. وفي يوم نحس انفجرت القنبلة من دون دويّ، فأضاعت الأنزيمات اتّجاهها في متاهة الأوردة، وغرقت الصبيَّة في سبات عميق أشبه بالموت. فتنهَّد دون مانويل: ليحفظ الربّ أميرتك.

ولكنَّني أروي لك قصَّة أخرى يا ابنتي.

لقد كانت طفولتي مرحلة رعب صامت: خوف من مارغارا التي

كانت تكرهني؛ خوف من أن يظهر أبي ليطالب بنا، ومن أن تموت أمّي أو تتزوَّج، ومن الشيطان، ومن «الألعاب الخشنة»، ومن الأمور التي يمكن للرجال الأشرار أن يمارسوها مع الطفلات الصغيرات. لا تفكِّري في الصعود إلى سيَّارة رجل غريب. لا تكلِّمي أحدًا في الشارع. لا تَدَعي أحدًا يلمس جسدك. لا تقتربي من الغجر. كنت أشعر على الدوام بأنّي مختلفة، ومنذ وعيت على الدنيا كنت مهمَّشة؛ فلم أكن أنتمي فعلًا إلى أسرتي، وإلى وسطي الاجتماعي، وإلى جماعتي. وأظنّ أنَّ هذا الشعور بالعزلة هو الذي يولِّد الأسئلة التي تدفع إلى الكتابة. ومن خلال البحث عن الإجابات تولد الكتب. لقد كان عزائي في لحظات الرعب هو روح جدَّتي ميمي اللجوجة، والتي كانت تخرج من طيَّات الستارة لترافقني. وكان القبو بطنَ البيت القاتم؛ المكانَ المختوم والمحظور الذي أتسلَّل إليه من كوّة التهوية. وكنت أشعر بأنّي على ما يرام في ذلك الكهف العابق بالرطوبة، حيث ألعب محطِّمة حجبَ الظلمة بضوء شمعة أو بالمصباح اليدويّ نفسه الذي أستخدمه للقراءة ليلًا تحت الشراشف. كنت أمضي في القبو ساعات أكرِّسها لألعاب صامتة، وقراءات سرِّيّة، ولتلك الطقوس المعقَّدة التي يبتدعها الأطفال المتوحِّدون. كنت قد خزَّنت مؤونة لا بأس بها من الشموع المسروقة من المطبخ، وكان لديّ صندوق مملوء بقطع الخبز والبسكوت لإطعام الجرذان. ولم يكن هناك من يخامره الشكّ في رحلاتي إلى باطن الأرض. فالخادمات ينسبن الأصوات والأضواء إلى شبح جدَّتي، ولا يقتربن أبدًا من ذلك المكان. كان القبو مؤلَّفًا من حجرتين فسيحتين لهما سقف واطئ وأرضيَّة ترابيَّة ممهَّدة، حيث تظهر للعيان عظامُ البيت، وأحشاؤه من الأنابيب، وباروكتُه من الأسلاك

الكهربائيَّة. وكان يتراكم هناك أثاثٌ مكسَّر، وفراشٌ ممزَّق الأحشاء، وحقائبُ قديمة للسفر في السفن لم يعد هناك من يتذكَّرها. وفي صندوق معدنيّ يحمل الحروف الأولى من اسم أبي، وجدت مجموعة من الكتب، كانت ميراثًا خرافيًّا أضاء سنوات طفولتي تلك: كنز الشباب، سالغاري، شو، فيرن، توين، وايلد، ليندون، وغيرهم. وقد افترضت أنَّها أشياء محرَّمة لأنَّها تنتمي إلى ذلك الـ «ت. أ.» الذي لا يمكن النطق باسمه، فلم أجرؤ على إخراجها إلى النور، وكنت ألتهمها على ضوء المصباح بالنهم الذي توقظه المحرَّمات في النفس، تمامًا مثلما قرأت خفية بعد سنوات قصص «ألف ليلة وليلة». وعلى الرَّغم من أنَّه لم تكن في ذلك البيت في الواقع كتبٌ ممنوعة، فإنَّ أحدًا لم يكن لديه الوقت لمراقبة الأطفال، فما بالك بقراءاتهم. في التاسعة من عمري، غرقت في الأعمال الكاملة لشكسبير. كانت تلك هديَّةَ العم رامون الأولى. طبعة جميلة أعدت قراءتها مرَّات ومرَّات لمجرَّد الاستمتاع بالقيل والقال والمأساة، من دون التمعُّن في نوعيَّتها الأدبيَّة، وهو السبب نفسه الذي كان يدفعني إلى سماع المسلسلات الإذاعيَّة من قبل، وإلى كتابة الروايات الآن. لقد كنت أعيش كلّ حكاية كأنَّها حياتي الخاصَّة، وكنت أجد نفسي في جميع الشخصيَّات، وخصوصًا الدنيئةَ منها، فهي شخصيَّات أكثر جاذبيَّة من الأبطال الفاضلين. كانت المخيّلة تقذف بي إلى القساوة حتمًا. فإذا قرأت أنَّ الهنود ذوي الجلود الحمر يسلخون فروات رؤوس أعدائهم، أفترض أنَّ الضحايا يبقون أحياء ويواصلون القتال وهم يضعون على رؤوسهم طاقيات مشدَّدة من جلد ثيران البيسون لتثبيت مخاخهم التي تتسرَّب من شقوق الجماجم المسلوخة، وينطلق بي الخيال من هناك إلى تصوُّر أنَّ الأفكار تفلت

منهم أيضًا. وكنت أرسم شخوص الروايات على ورق مقوًى، ثم أقصّ الرسوم وأثبّتها على عيدان، وكانت تلك هي بداية أُولى محاولاتي المسرحيَّة. وكنت أروي حكايات لأخوَيّ المذهولين؛ حكاياتٍ مرعبةً تملأ نهاراتهما بالخوف ولياليَهما بالكوابيس، وهو ما صرت أفعله فيما بعد مع ابني ومع بعض الرجال في حميميَّة الفراش، حيث يمكن لقصَّة خرافيَّة تُروى جيِّدًا أن تأتي بتأثير جنسيّ عظيم.

كان للعمّ رامون تأثير أساسيٌّ في كثير من مظاهر طبائعي، مع أنَّني احتجت في بعض الأحيان إلى أربعين سنة كي أربط بين تعاليمه وردود أفعالي. كانت لديه سيَّارة فورد مهترئة يشاركه في ملكيَّتها أحدُ أصدقائه، فكان العمّ رامون يستخدمها أيَّام الاثنين والأربعاء والجمعة ويوم الأحد مناصفة، بينما يستخدمها الآخر بقيَّة أيَّام الأسبوع. وفي أحد أيَّام الآحاد تلك، أخذني مع أخوَيّ وأمِّي إلى أوبن دور، وهو مكان خارج سنتياغو يحتجزون فيه المجانين الوديعين. لقد كان يعرف هذه المناطق جيِّدًا لأنَّه كان يمضي هناك الإجازات الصيفيَّة في شبابه بدعوة من بعض أقربائه الذين كانوا يشرفون على الأجزاء الزراعيَّة من المصحّ. كنَّا ندخل بالسيَّارة مهتزّين ومتمايلين في درب ترابيٍّ تحفّ به شجيرات موز شرقيَّة كبيرة تشكِّل قبَّة خضراء فوق رؤوسنا. كانت مرابع المواشي تمتدّ على أحد جانبي الدرب، بينما تقوم في الجانب الآخر مباني المصحّ المحاطة ببستان أشجار مثمرة، حيث كان يطوف عدد من المجانين المسالمين بقمصان طويلة باهتة الألوان، وقد هرعوا لاستقبالنا راكضين حول السيَّارة وهم يمدُّون رؤوسهم وأيديهم من النوافذ ويطلقون صرخات الترحيب. وقد انكمشنا على أنفسنا في المقعد، بينما كان العمّ رامون يحيّيهم بأسمائهم، فبعضهم موجود هناك

منذ سنوات طويلة، وقد كان يلعب معهم في إجازات شبابه الصيفيَّة. فاوض العمّ رامون الحارس على سعر مناسب كي يسمح لنا بدخول البستان، ثم أمرنا قائلًا:

ـ انزلوا يا أولاد، المجانين هنا أُناس طيّبون. يمكنكم أن تتسلَّقوا الأشجار وتأكلوا كلّ ما تشاؤون وتملأوا هذا الكيس أيضًا. إنَّنا واسعو الثراء.

لست أدري كيف تمكَّن من جعل نزلاء المصحّ العقليّ يساعدوننا. وسرعان ما تخلَّصنا من خوفنا منهم، وانتهى بنا الأمر جميعًا إلى تسلُّق الأشجار والتهام المشمش الدمشقيّ، بينما الرحيق يقطر منَّا، وإلى قطفِ حبَّات المشمش عن الأغصان بملء أيدينا وإلقائها في الكيس. كنَّا نقضم الحبَّة، فإذا بدت لنا قليلة الحلاوة بصقناها جانبًا وقطفنا غيرها، ثم نتراشق بحبَّات المشمش الدمشقيّ الناضجة جدًّا لتتفزّر على ملابسنا في حفلة صاخبة حقيقيَّة من الفاكهة والضحك. أكلنا حتى التخمة، وبعد أن ودَّعنا المجانين بالقبلات انطلقنا في رحلة العودة بالفورد القديمة، ومعنا الكيسُ الكبير المملوء بالمشمش الذي واصلنا التهامه إلى أن هزمتنا تشنُّجات بطوننا. في ذلك اليوم، أدركت لأوَّل مرَّة أنَّه يمكن للحياة أن تكون سخيَّة. لم أعرف تجربة مثل هذه على الإطلاق مع جدّي، أو مع أحد أفراد أسرتنا الذين كانوا يرون في الندرة بركةً، وفي الشحّ فضيلةً. فبين الحين والآخر، كان جدّي يأتي بصينيَّة من قطع الحلوى، تكون محسوبة تمامًا على الدوام، قطعة لكلّ واحد منَّا، لا تنقص واحدة ولا تزيد واحدة. فقد كانت النقود مقدَّسة، وكانوا يعلِّموننا، نحن الأطفالَ، مدى الصعوبة في كسبها. كان جدّي يملك ثروة كبيرة، ولكنَّني لم أقتنع بذلك إلَّا بعد وقت طويل جدًّا.

وكان العمّ رامون فقيرًا، مثل جرذ الكنيسة، ولكنّني لم أعرف ذلك أيضًا آنذاك، لأنَّه كان يتدبَّر أموره كي يعلِّمنا الاستمتاع بالقليل الذي لديه. في أقسى لحظات حياتي، حين يُخيَّل إليّ أنَّ جميع الأبواب مسدودة، كان طعم ذلك المشمش الدمشقيّ يُبادر إلى فمي ليواسيني بفكرة أنَّ الوفرة في متناول اليد إذا أحسن المرء العثور عليها.

ذكريات طفولتي دراماتيكيَّة، مثلما هي الحال مع الناس جميعًا، على ما أعتقد، لأنَّ تفاهات الحياة تضيع في عالم النسيان، أو ربَّما كان السبب في ذلك أيضًا هو ميلي إلى المأساة. هناك من يقولون إنَّ المحيط الجغرافيّ يحدِّد شخصيَّة الإنسان. وأنا أنحدر من بلد جميل جدًّا، ولكن الأرزاء تسوطه على الدوام: جفافٌ في الصيف وطوفاناتٌ في الشتاء، حين تغطِّي المياه المجارير وتقضي النزلات الرئويَّة على الفقراء؛ فيضاناتُ الأنهار عندما تذوب الثلوج على الجبال وأمواجٌ عاتية يمكن لواحدة منها فقط أن تحمل السفن إلى اليابسة وتضعها في وسط الساحات؛ حرائقُ وبراكين ثائرة؛ جائحاتُ ذباب أزرق وحلزونات ونمل؛ زلازلُ كارثيَّة وسبحة لا تنتهي من الهزَّات الأرضيَّة الصغرى التي لا يوليها أحد أيَّ اهتمام؛ فإذا أضفنا العزلة إلى فقر نصف السكَّان، فسيكون لدينا مادَّة أكثر من كافية للميلودراما.

الكلبة بيلقينا لوبيث ـ بون التي وضعوها في مَهدي منذ يومي الأوَّل في الحياة وهم يفكِّرون في إكسابي المناعة ضدَّ الأوبئة والتحسُّس، كانت حيوانًا شبقًا تحبل كلّ ستَّة شهور من أيّ كلب متشرِّد على الرَّغم من الوسائل الحاذقة التي كانت أمِّي تبتدعها، مثل إلباس

الكلبة سروالًا من المطّاط. لقد كانت بيلڤينا، عندما يأتيها الشبق، وتلصق مؤخّرتها بقضبان سور الحديقة، بينما يكون في الشارع قطيع من الكلاب الجزعة تنتظر دورها لممارسة الجنس معها من خلال القضبان الحديديَّة. وحين كنت أرجع من المدرسة في بعض الأحيان، كنت أجد كلبًا ملتصقًا عبر السياج ببيلڤينا التي تعوي بجزع بينما أخوالي يكادون يموتون من الضحك وهم يحاولون فصل أحد الكلبين عن الآخر بخراطيم الماء البارد. وكانت مارغارا تقوم بعد ذلك بخنق جميع الجراء حديثة الولادة في الماء، تمامًا مثلما كانت تفعل بالقطط. وفي صيف إحدى السنوات، كنّا مستعدّين للسفر إلى المصيف، ولكنّنا اضطررنا إلى تأجيل الرحلة لأنَّ الكلبة كانت تمرّ في فترة الشبق، وكان من المستحيل أخذها معنا في تلك الحالة، لأنّه ليست هناك طريقة لحبسها على شاطئ البحر، وخصوصًا بعد أن ثبت عدم جدوى سراويل المطّاط في كبح اندفاع هياجها الحقيقيّ. ولكثرة إلحاح جدّي، قرّرت أمّي أن تنشر إعلانات في الجريدة لبيع الكلبة: «كلبة بولدوغ راقية مجلوبة من خارج البلاد، طيّبة الطباع، تبحث عن أصحاب ودودين قادرين على تقديرها». وشرحت لنا مبرّرات إقدامها على هذا التصرُّف، ولكنَّ الأمر بدا لنا مُشينًا، واستنتجنا أنّها إذا كانت قادرة على التخلُّص من بيلڤينا، فإنّها لن تتورّع عن الإقدام على عمل ذلك مع أيّ واحد من أبنائها. وذهبت كلّ توسُّلاتنا أدراجَ الرياح. وفي يوم السبت، ظهر زوجان شابّان يرغبان في تبنّي الكلبة. ومن مخبئنا تحت الدرج رأينا ابتسامة مارغارا الآملة وهي تقود الزوجين إلى الصالة. لقد كانت هذه المرأة تكره الكلبة بقدر كراهيّتها لي. وبعد قليل، خرجت أمّي لتبحث عن بيلڤينا وتقدّمها إلى المشترين المقتدرين. طافت أرجاء

البيت من أعلاه إلى أسفله قبل أن تجدها أخيرًا في الحمَّام، حيث كنَّا، نحن الصغار، قد حبسناها بعد أن جززنا فروها وطلينا أجزاء من ظهرها بالميكركوركروم. وحين تمكَّنت أمِّي بالقوَّة والتهديد من فتح الباب، خرجت الكلبة مندفعة بسرعة وركضت نازلة على الدرج، ثم استقرَّت بقفزة واحدة على الكنبة التي يجلس عليها الزبونان، فما إن رأيا القروح على ظهرها حتى أطلقا صيحات الذعر، واندفعا متصادمين للوصول إلى الباب قبل أن تنتقل العدوى إليهما. وبعد ثلاثة شهور من ذلك، كان على مارغارا أن تقضي على ستَّة جراء نغلة بينما كنَّا نحن نتوقَّد بحمَّى الشعور بالذنب. وبعد وقت قصير، ماتت بيلڤينا نفسها بطريقة مريبة، وما زال يخامرني الشكّ في أنَّه كانت لمارغارا علاقة بموتها.

في تلك السنة بالذات، عرفت في المدرسة أنَّ الأطفال الذين يُولَدون لا تأتي بهم طيور اللقلق، وإنَّما ينمون مثل الشمَّام في بطون الأمَّهات، وأنَّه لا وجود على الإطلاق لبابا نويل، وأنَّ الآباء هم الذين يشترون لأولادهم هدايا عيد الميلاد. لم يسبِّب لي الاكتشاف الأوَّل أيَّ صدمة لأنِّي لم أكن قد فكَّرت في إنجاب الأولاد حتى ذلك الحين، ولكنَّ الاكتشاف الثاني كان ساحقًا، فعقدت العزم على قضاء ليلة عيد الميلاد ساهرة لأكتشف الحقيقة، ولكنَّ النعاس ما لبث أن غلبني على الرَّغم ممَّا بذلته من جهد. ولأنَّ الشكوك كانت تعذِّبني، فقد كتبت رسالة ـ فخًّا طلبت فيها المستحيل: كلبًا آخر، وحشدًا كبيرًا من الأصدقاء، وعدَّة لُعَب. وعندما استيقظت في الصباح، وجدت علبة زجاجات ألوان وفراشي رسم وملاحظةً ماكرة من بابا نويل البائس، مكتوبةً بخطٍّ يشبه خطّ أمِّي إلى حدٍّ مثير للشبهة، يوضح لي

فيها أنَّه لم يُحضر لي ما طلبته حتى أكون أقلّ طمعًا، ولكنَّه يقدِّم إليَّ، في المقابل، جدران غرفتي لأرسم عليها الكلب والأصدقاء واللُّعَب التي أرغب فيها. تطلَّعت حولي، فرأيت أنَّهم قد نزعوا عن الجدران الصور القديمة الصارمة وقلبَ يسوع المقدَّس الذي يُثير الأسى، ورأيت على الجدار العاري المقابل لسريري صورةَ لوحة ملوَّنة مقصوصةً من كتاب عن الفنّ. أوقعتني خيبة الأمر في حيرة استمرَّت بضع دقائق، ولكنَّني استعدت السيطرة على نفسي أخيرًا لتفحُّص تلك الصورة، وكانت لوحة لمارك شاغال. بدت لي أوَّلَ الأمر مجرَّدَ لطخات فوضويَّة متداخلة، ولكنَّني سرعان ما اكتشفت في قصاصة الورق الصغيرة عالمًا مذهلًا من العرائس الزرقاء، يطرن وسيقانهنَّ إلى أعلى، وموسيقيًّا شاحبًا يطفو بين تشعُّبات شمعدان ذي سبع أذرع، وعنزةً حمراء، وعددًا آخر من الشخصيَّات المتقلِّبة الأطوار. كان هناك الكثير من الألوان والأشكال المتنوِّعة اقتضت منِّي وقتًا لا بأس به قبل أن أستطيع التنقُّل في فوضى التآلف الرائع تلك. لقد كان في اللوحة موسيقًى: تكتكةُ ساعة، وأنينُ كمانات، وثغاءُ ماعز، وحفيفُ أجنحة، وهمسُ كلمات لا ينتهي. وكانت فيها روائحُ أيضًا: عبقُ شموع مشتعلة، وأريجُ أزهار بريَّة، ورائحةُ حيوان شبق، ومرهمٌ نسويٌّ. وكلّ ذلك يبدو مُحاطًا بغلالة حلم سعيد، فالجوُّ حارٌّ كأنَّه ظهيرة قيلولة، في جهة، ويبعث، في جهة أخرى، إحساسًا ببرودة ليلة خريفيَّة. لقد كنت صغيرة آنذاك على تحليل أعمال الرسم، ولكنِّي ما زلت أتذكَّر ذهولي وفضولي. كانت تلك اللوحة دعوة إلى اللَّعب. وتساءلت مشدوهة كيف يمكن الرسمُ هكذا من دون أيّ احترام لقواعد التآلف والمنظور، التي تسعى معلِّمة الفنّ إلى تلقيني إيَّاها في المدرسة. فإذا كان شاغال

هذا قادرًا على عمل ما يحلو له، فإنَّه في إمكاني أنا أيضًا أن أفعل الشيء نفسه. كان هذا ما انتهيت إليه وأنا أفتح إحدى زجاجات الألوان. ولقد رسمت بحرِّيَّة ومتعة طوال سنوات لوحةً جداريَّة معقَّدة سجَّلتُ فيها رغبات الطفولة ومخاوفَها وغضباتِها وأسئلتَها، وألمَ النموّ. وفي مكانة الشرف، وسط نباتات مستحيلة وحيوانات مختلطة، رسمت شبح فتًى مُوليًا ظهره وكأنَّه ينظر إلى الجداريَّة. كانت تلك صورة شاغال الذي أحببته مثلما يحبّ الأطفال وحدهم. في ذلك الوقت الذي كنت أرسم فيه باحتدام على جدران بيتنا في سنتياغو، كان فتى غراميَّاتي المشهور في العالم بأسره يكبرني بستِّين سنة، وكان قد وضع آنذاك حدًّا لترمُّله بالزواج للمرَّة الثانية، وكان يعيش في قلب باريس، ولكنَّ البعد والزمن كانا مصطلحين هشَّين بالنسبة إليَّ، وكنت أؤمن بأنَّه طفل في مثل عمري. وبعد سنوات طويلة من ذلك، في نيسان ١٩٨٥، عندما توفِّي شاغال عن ثلاث وتسعين سنة من الشباب الخالد، تأكَّدت فعلًا ممَّا كنت أؤمن به. فقد كان على الدوام ذلك الصبيّ الذي تصوَّرته. وعندما غادرنا البيت وودَّعت جداريَّتي، قدَّمت إليّ أمِّي دفترًا لأدوِّن فيه ما كنت أرسمه من قبل: دفتر لتسجيل أحداث الحياة. وقالت لي: خذي، فرِّجي عن نفسك بالكتابة. وكان هذا ما فعلته آنذاك، وما أفعله الآن في هذه الصفحات. وما الذي يمكنني عمله سوى ذلك؟ لديّ فائض من الوقت. فالمستقبل كلّه فائض عن حاجتي. وأريد أن أقدِّمه إليك، يا ابنتي، لأنَّك فقدت مستقبلك.

الجميع هنا يدعونك الطفلة، ولا بدَّ من أنَّ السبب هو وجهك الذي يشبه وجه تلميذة، وهذا الشعر الطويل الذي تجدِّله الممرِّضات.

لقد طلبن من إرنستو أن يأذن لهنَّ بقصّ شعرك، فمن المتعب الحفاظ عليه نظيفًا ومسترسلًا، ولكنَّهنَّ لم يُقْدِمْن على قصّه بعد، فهنَّ يشعرن بالأسف لذلك، ويعتبرنه أفضل مظاهر جمالك لأنَّهنَّ لم يرين عينيك مفتوحتين. أظنّ أنَّهنَّ قد وقعن قليلًا في غرام زوجك، فحبُّه الكبير لك يحرِّك قلوبهنّ. إنَّهنّ يرينه منحنيًا على سريرك يحدِّثك همسًا كما لو أنَّك تستطيعين سماعه، ويرغبن في أن يكنَّ محبوبات هكذا. إرنستو يخلع سترته ويمرّ بها على يديك المتيبِّستين قائلاً: المسي يا باولا. هذا أنا، وهذه هي السترة التي تفضّلينها، هل تعرَّفت إليها؟ لقد سجَّل رسائل سرِّيَّة يتركها في سمّاعات على أذنيك كي تسمعي صوته وأنت وحيدة. وهو يأتي بقطعة قطن مضمَّخة بعطره ويضعها تحت وسادتك كي تبقى رائحته معك. إنَّ الحبَّ يصل إلى نساء أُسرتنا في هبّة عاصفة، فهذا ما جرى لأمّي مع العمّ رامون، وما جرى لك مع إرنستو، وما جرى لي أيضًا مع ويللي، وأظنّ أنّه ما سيحدث لحفيداتنا وحفيدات حفيداتنا اللواتي سيأتين. في يوم رأس السنة، حين كنت أعيش مع ويللي في كاليفورنيا، اتّصلت بك هاتفيًا لأعانقك عبر الأثير، وكي نعلّق على السنة الفائتة، وأسألك عن رغبتك لسنة ١٩٨٨ التي بدأت للتوّ. فكان ردّك الفوري: «أرغب في رفيق لحياتي. أريد حبًّا مثل حبّك الآن». ولم تكن قد انقضت ثمان وأربعون ساعة عندما عدت أنت نفسك للاتّصال بي والقول متهلّلة:

ـ لقد وجدته يا ماما! لقد تعرَّفت في حفلة هذه الليلة إلى الرجل الذي أودّ الزواج منه!

وأجبتِ عن أسئلتي متلعثمة، بأنَّ الأمر كان أشبه بشعلة منذ اللحظة الأولى. تبادلتما النظرات، ونعارفتما، وأيقنتما أنَّ كلًّا منكما

قد وُجد من أجل الآخر.

ـ لا تَكوني متصنّعة يا باولا. كيف يمكنك أن تكوني واثقة إلى هذا الحدّ؟

ـ لأنّي شعرت بالغثيان، واضطررتُ إلى الانصراف. ومن حسن الحظّ أنّه خرج ولحق بي.

إنَّ أمًّا عاديَّة كانت ستحذِّرك من مثل هذه العواطف. أمَّا أنا، فلست أملك سلطة أخلاقيَّة لأقدِّم إليك نصائح في العفَّة، ولهذا السبب واصلنا واحدة من محادثاتنا التقليديَّة:

ـ رائع يا باولا. وهل ستعيشين معه؟



ـ يجب عليّ أن أُنهي دراستي أوَّلًا.

ـ هل تفكِّرين في مواصلة الدراسة؟

ـ لا بمكنني التخلّي عن كلّ شيء!

ـ حسنًا، ولكن إذا كان الأمر يتعلَّق برجل حياتك؟

ـ اهدئي يا عجوزي، لقد تعرَّفت إليه للتوّ فحسب.

ـ وأنا تعرَّفت إلى ويللي للتوّ، وها أنت ترين أين أصبحت. الحياة قصيرة يا ابنتي.

ـ إنَّها أقصر في مثل سنّك ممَّا هي في سنّي. لا بأس، لن أُنهي الدكتوراه، ولكنَّني سأُنهي الماجستير على الأقلّ.

وكان هذا ما جرى. أنهيتِ دراستك بدرجة الشرف، ثم ذهبت لتعيشي مع إرنستو في مدريد، حيث وجدتما، كلاكما، عملًا: هو

كمهندس إلكترونيّ وأنت كطبيبة نفسانيَّة منطوِّعة في مدرسة، ثم تزوَّجتما بعد وقت قصير. وحين حلَّت الذكرى الأولى لزفافكما، كنت تغرقين في حالة السبات، وجاءك زوجك بهديَّة هي قصَّة حبٍّ رواها لك هامسًا وهو راكع إلى جوارك بينما الممرِّضات يراقبن المشهد متأثِّرات، ودون مانويل يبكي في السرير المجاور.

آه، الحبّ الجسديّ! المرَّة الأولى التي عانيتُ فيها نوبةً صاعقة منه كنتُ في الحادية عشرة من عمري. كان العمّ رامون قد نُقل للعمل في بوليفيا ثانية، ولكنَّه أخذ معه هذه المرَّة أمِّي وأبناءها الثلاثة ليتمكَّن من الزواج منها رسميًّا، ولهذا السبب لم تكن الحكومة تدفع إليه نفقات هذه الأُسرة غير الشرعيَّة، ولكنَّ العمّ رامون وأمِّي صمَّا آذانهما عن التقوُّلات الخبيثة، وسعيا جاهدين لإخراج هذه العلاقة الصعبة إلى العلن على الرَّغم من العقبات الكبيرة التي كان عليهما تذليلها. وقد حقَّقا، في هذا الشأن، نجاحًا كاملًا، وأصبحا اليوم، بعد مرور أربعين سنة، زوجين قديمين. إنَّ لاباز مدينة مذهلة، فهي قريبة جدًّا من السماء، وهواؤها رقيق إلى حدٍّ يمكن معه رؤية الملائكة عند الفجر، والقلب يكون فيها دائمًا على وشك التشظِّي، ويتيه البصر في نقاء مناظرها الخانقة: سلاسلَ من الجبال والروابي البنفسجيَّة، صخورٍ وبقع أرض لها لون الزعفران، تحيط كلّها بالمنخفض الذي تستقرُّ فيه مدينة المتناقضات هذه. أتذكَّر شوارع شيِّقة تصعد وتهبط مثل الأفاعي، وأسواقًا بائسة وحافلاتٍ مخلَّعةً، وهنودًا في ملابس صوفيَّة متعدِّدة الألوان يمضغون منذ الأزل بأسنانهم الخضراء كراتٍ من أوراق الكوكا. مئات الكنائس بأبراج أجراسها وأفنائها التي تفترش الأرض

فيها هنديَّاتٌ يبعن اليكة المجفَّفةَ والذرةَ البنفسجيَّةَ، إلى جانب أجنّة حيوانات لاما محنَّطة من أجل لبخات للصحَّة الجيِّدة، وهنَّ يهششن الذباب ويُرضعن أطفالهنّ. لقد تثبَّتت روائح لاباز وألوانها في ذاكرتي كجزء من تيقُّظ مراهقتي البطيء والمؤلم، فقد انتهى غموض الطفولة في اللحظة التي غادرنا فيها بيت جدِّي بالضبط. في الليلة التي سبقت سفرنا، نهضتُ بصمت، ونزلت الأدراج بحذر كي لا تطقطق الدرجاتُ، واجتزت الطابق الأرضيَّ في العتمة حتى وصلت إلى ستارة الصالة، حيث كانت تنتظرني ميمي لتقول لي أن أتخلَّى عن التحسُّر لأنَّها مستعدَّة للسفر معي، وإنَّه ليس لديها ما تفعله في هذا البيت، وأن أحمل مرآتها الفضِّيَّة عن طاولة التاتا وآخذَها معي. وأضافت قائلة: «سأكون من الآن فصاعدًا معك في هذه المرآة». ولأوَّل مرَّة، تجرَّأت على فتح باب غرفة جدِّي المغلق. كان ضوء الشارع يتسرَّب من خلال شقوق أباجور النافذة، وكانت عيناي قد اعتادتا على الظلمة، فرأيت شبحه الثابت ووجهَه الصارم. كان يدير لي ظهره بين الشراشف، متيبِّسًا وثابتًا مثلَ جثَّة في تلك الحجرة ذات الأثاث الجنائزيّ، وكانت ساعة البرج تُشير إلى الثالثة فجرًا. في هذا الوضع بالضبط، سأراه بعد ثلاثين سنة من ذلك، حين ظهر لي في حلم ليكشف لي كيف أُنهي روايتي الأولى. اجتزت المسافة إلى طاولة مكتبه بصمت، ومررت قريبًا جدًّا من سريره، إذ كان في مقدوري الإحساس بوحدته كأرمل، وفتحت أحد الصناديق وأنا أرتعد خوفًا من استيقاظه وضبطي وأنا أسرق. وجدت المرآة ذات المقبض المزخرف إلى جانب علبة من الصفيح لم أجرؤ على لمسها، فحملت المرآة بكلتا يديَّ وخرجت القهقرى على رؤوس أصابعي. وعندما أصبحت في سريري في منجًى

من الخطر، تأمَّلت الزجاج البرّاق الذي لطالما قيل لي إنَّ الشياطين تظهر فيه ليلًا، وأظنّه عكس لحظتئذٍ صورةَ وجهي ذي السنوات العشر، والمستديرِ والشاحب، ولكنَّني رأيت في تخيُّلاتي وجه ميمي العذبَ تتمنَّى لي ليلة سعيدة. وفي الصباح الباكر رسمت، للمرَّة الأخيرة على جداريَّتي، يدًا تكتب كلمة «الوداع». كان ذلك اليوم مفعَمًا بالفوضى والأوامر المتناقضة والوداعات المتعجِّلة والجهود الجبَّارة لصفّ الحقائب على سطح السيَّارات التي ستنقلنا إلى الميناء لنُبحر من هناك إلى الشمال. أمَّا بقيَّة الرحلة، فستكون في قطار ضيِّق السكَّة يصعد ببطءٍ حلزون معمّر في اتِّجاه المرتفعات البوليفيَّة. لقد ودَّع جدِّي طفولتي وهو يقف إلى جوار باب البيت الذي ترعرعت فيه، مرتديًا ملابسَ الحداد، ومستندًا إلى عكّازه، ومعتمرًا قبَّعته الباسكيَّة.

الأمسيات في لاباز أشبهُ بحرائق كوكبيَّة. وفي الليالي غير المقمرة، يمكن رؤية جميع النجوم، بما فيها تلك التي ماتت منذ ملايين السنين والتي ستولد في الغد. كنت أستلقي أحيانًا على ظهري في الحديقة، وأتطلَّع إلى تلك السماوات المَهيبة، وأشعر بدُوار الموت، فأهوي وأهوي إلى أعماق هوَّة سحيقة بلا قرار.

كنَّا نعيش في عقار يضمّ ثلاثة منازل منفصلة، لها حديقة واحدة مشتركة، وكان يُقيم بالمنزل المقابل طبيبُ عيون مشهور. وفي العمق، كان يوجد منزلُ دبلوماسي من أوروغواي يُقال عنه همسًا إنَّه شاذّ جنسيًّا. وكنّا، نحن الأطفال، نتصوَّر أنَّ ذلك يعني إصابته بمرض عضال، فكنَّا نحيّيه بإشفاق، وقد نتجرَّأ مرَّة على سؤاله إذا كان مرض الشذوذ الجنسيّ يؤلمه كثيرًا. لدى عودتي من المدرسة، كنت أبحث عن الوحدة والصمت في دروب تلك الحديقة الكبيرة، حيث كنت أجد

مخبأً للدفتر الذي أسجِّل فيه أحداث حياتي، وأماكنَ منزويةً للقراءة بعيدًا عن الصخب. كنَّا نذهب إلى مدرسة مختلطة، وكان اتِّصالي الوحيد بالصبيان حتى ذلك الحين يقتصر على أخوَيَّ، ولكن هذين الأخوين لم يكن لهما أيُّ حساب، وما زلت حتى اليوم أفكِّر في أنَّ بانتشو وخوان لا ينتميان إلى أيِّ جنس، وأنَّهما مثل البكتيريا. في حصَّة التاريخ الأولى، حدَّثتنا المعلِّمة عن حروب تشيلي ضدّ البيرو وبوليفيا في القرن التاسع عشر. كنت قد تعلَّمت في بلادي أنَّ التشيليِّين انتصروا في المعارك بفضل شجاعتهم المرهوبة ووطنيَّة قادتهم، ولكنَّ المعلِّمة كشفت لنا، في ذلك الدرس، عن الفظائع التي اقترفها مواطنيَّ ضدَّ السكَّان المدنيِّين. فالجنود التشيليُّون المخدَّرون بمزيج من الخمر والبارود، كانوا يدخلون المدن المحتلَّة مثل قطعان مجنونة وهم يشهرون حِراب بنادقهم وسكاكين الجزارة، فيطعنون الأطفال ويبقرون بطون النساء ويقطعون أعضاء الرجال التناسليَّة. رفعت يدي وأنا مستعدَّة للدفاع عن شرف قوَّاتنا المسلَّحة، من دون أن تخطر في بالي آنذاك الفظائعُ التي يمكن لهذه القوَّات اقترافُها، فانهال عليَّ وابل من القذائف. طردتني المعلِّمة من القاعة وخرجتُ وسط موجة قاسية من الصفير لأنفِّذ العقوبة بالوقوف في ركن الممرّ ووجهي إلى الجدار. كبحتُ دموعي حتى لا يرى أحد مذلَّتي وأنا أجترُّ غضبي طوال ثلاثة أرباع الساعة. في تلك الدقائق الحاسمة انفجرت هرموناتي، التي كانت أجهلها حتى ذلك الحين، بقوَّة كارثة بركانيَّة، ولست أبالغ أبدًا في هذا القول؛ ففي ذلك اليوم بالذات، جاءني الحيض لأوَّل مرَّة. فقد كان يقف قبالة الجدار في الجهة الأخرى من الممرِّ، منفِّذًا عقوبةً مماثلة، صبيٌّ طويل ونحيل مثلُ مكنسة، رقبته طويلة وشعره أسود

وأذناه ضخمتان بارزتان تجعلانه يبدو من الخلف مثل جرَّة أفريقيَّة (أنفورا). لم أرَ بعد ذلك أذنين حسِّيَّتين مثل هاتيك الأذنين. ووقعت في الحبِّ على الفور. فقد أحببت أذنيه قبل أن أرى وجهه، وكان حبًّا جارفًا إلى درجة أنَّ شهيَّتي انهارت تمامًا خلال الشهور التالية، وأُصبت بفقر الدم من كثرة الصيام والتأوُّه. كانت نوبة الاحتدام الغراميّ تلك خاليةً تمامًا من الأفكار الجنسيَّة؛ ولم أربط بين ما حدث لي في طفولتي في غابة صنوبر قرب البحر مع صيَّاد سمك ساخن اليدين، وبين هذه المشاعر الأوَّليَّة التي أوحت بها إليّ هاتان الزائدتان الاستثنائيَّتان. عانيت غرامًا عفيفًا، وهو بالتالي أشدُّ هولًا بكثير، استمرَّ نحو سنتين. ما زلت أتذكَّر تلك المرحلة في لاباز كسلسلة لانهائيَّة من الأوهام في حديقة البيت الظليلة؛ كصفحات ملتهبة مكتوبة في دفاتري وأحلام مفتعلة ينقذني فيها الفتى ذو الأذنين الكبيرتين من بين شدقَيْ تنِّين. والأدهى من ذلك كله، هو أنَّ المدرسة بأسرها علمت بالأمر، فكان هذا الغرام، إضافة إلى عدم إخفاء هويَّتي كتشيليَّة، سببًا في جعلي ضحيَّةَ أشدِّ السخريات مضايقةً. كانت أنشودة حبٍّ مآلها الإخفاق، ففتاي كان يعاملني دائمًا في منتهى الفتور وعدم المبالاة، على نحو جعلني أفكِّر في أنِّي أصبح غير مرئيَّة في حضوره. وقبل وقت قصير من مغادرتنا بوليفيا بصورة نهائيَّة، نشب شجار في باحة المدرسة، ولست أدري كيف وجدت نفسي أعانق فتاي المحبوبَ وأتدحرج على التراب وسط عاصفة من الصفعات والركلات وشدّ الشعر. كان أكبر منِّي بكثير. وعلى الرَّغم من أنِّي استعنت بكلّ ما تعلَّمته مع جدِّي في أمسيات المصارعة الحرَّة في مسرح كاوبوليكان، إلَّا أنَّه لم يتركني إلَّا وأنا مغطَّاة بالكدمات والرضوض، والدمُ يسيل

من أنفي، ولكنّني، في لحظة غضب أعمّي، وجدت إحدى أذنيه في متناول أسناني، واستطعت أن أعضّه عضّة عاطفيّة. لقد حلّقت في السحاب لأسابيع. وكان ذلك هو اللقاء الأكثر شهوانيّة في حياتي الطويلة. إنّه مزيج من اللذّة المكثّفة التي أثارها العناق، والألم الذي لا يقلّ حدّةً بسبب ما تلقّيته من ضربات. بمثل هذه اليقظة المازوشيّة على الشبق، كان يمكن لامرأة أخرى أقلّ حظًّا أن تكون اليوم ضحيّة تستمتع بجَلد أحد الساديّين لها، ولكن ما آلت إليه أموري فيما بعد لم يُتح لي الفرصة لعناق آخر، مثل ذلك على الإطلاق.

ودّعنا بوليڤيا بعد وقت قصير من ذلك، ولم أعد إلى رؤية هاتيك الأذنين.

سافر العمّ رامون بالطائرة مباشرة إلى باريس ومنها إلى بيروت، أمّا أمّي وأنا وأخوايَ، فقد سافرنا بالقطار إلى ميناء في شماليّ تشيلي، حيث أبحرنا في باخرة إيطاليّة متوجّهة إلى جنوا، ثم سافرنا بالقطار إلى روما، ومن هناك ذهبنا بالطائرة إلى بيروت. لقد دامت تلك الرحلة نحو شهرين، وأظنّ أنّ أمّي بقيت في قيد الحياة بمعجزة. ركبنا العربة الأخيرة في القطار برفقة هنديّ غامض لا ينطق كلمة واحدة، ويجلس طوال الوقت القرفصاءَ على الأرض إلى جانب مدفأة وهو يمضغ أوراق الكوكا ويحكّ مواقع القمل، وكان مسلّحًا ببندقيّة قديمة. كانت عيناه الضيّقتان المنحرفتان ترصداننا ليلَ نهار بنظرات نفّاذة، ولم نرَه نائمًا أبدًا. وكانت أمّي تخشى إقدامه على قتلنا إذا ما سهونا لحظة، على الرّغم من تأكيدهم لها أنّه تمّ التعاقد معه لحمايتنا. كان القطار يتقدّم ببطء شديد في الصحراء، وسط الكثبان ومناجم الملح، حتى إنّ أخوَيَّ كانا ينزلان منه ويركضان إلى جانبه. وكي يزعجا أمّي، كانا يتخلّفان

أحيانًا متظاهرَين بالإنهاك، ويصرخان طالبَين النجدة لأنَّ القطار قد سبقهما. أمّا في السفينة، فكثيرًا ما كانت أصابع بانتشو تنعصر في الأبواب الحديديَّة الثقيلة، حتى إنَّ صرخاته لم تعد تؤثِّر في أحد، في آخر الأمر. وفي أحد الأيّام، ضاع خوان لعدَّة ساعات. فبينما كان يلعب لعبة الاختباء غلبه النعاس ونام في قمَّرة غير مشغولة، ولم يجده أحد إلى أن أيقظته صافرة الباخرة حين كان القبطان على وشك إيقافها في عرض البحر وإنزال زوارق إلى الماء للبحث عنه، بينما كان ملّاحان قويّان يمسكان أمّي لمنعها من إلقاء نفسها في المحيط. لقد أحببت جميع بحّارة السفينة بعاطفة عنيفة جدًّا كتلك التي ألهمني إيّاها الفتى البوليفيُّ، ولكنّني أعتقد أنّهم كانوا جميعهم مفتونين بأمّي. لقد شوَّش أولئك الشبّان الإيطاليُّون النحيلون مخيّلتي، ولكنّهم لم يستطيعوا التخفيف من عادة اللعب بالدمى التي كنت أمارسها خفية. فقد كنت أحبس نفسي في القمّرة لأؤرجح الدمى وأحمّمها، وأقدّمَ إليها زجاجات الحليب، وأغنّي لها بصوت خافت حتى لا يفاجئني أحد. وكان أخواي الخبيثان، في أثناء ذلك، يهدّدانني بكشف سرّي على سطح السفينة. ولكنّنا، عندما وصلنا أخيرًا إلى جنوا، نزل بانتشو وخوان ـ اللذان أثبتت التجارب وفاءهما ـ من السفينة وكلّ منهما يحمل تحت إبطه حزمة مريبة فيها دمية ملفوفة بمنشفة، بينما كنت أنا أودّع بحّارة غراميّاتي مطلقةً التنهدات.

عشنا في لبنان ثلاث سنوات سورياليَّة، تعلّمت خلالها شيئًا من اللغة الفرنسيَّة، وتعرَّفت إلى عدد لا بأس به من البلدان المجاورة، بما في ذلك الأراضي المقدَّسة وإسرائيل التي كانت تعيش في

الخمسينيَّات، مثلما هي الآن، في حالة حرب مستمرَّة ضدَّ العرب. أقمنا بشقَّة حديثة، واسعة وقبيحة. وكنَّا نستطيع أن نرى من الشرفة سوقًا مكشوفةً ومركزًا لعناصر الدرك، الذين كان لهم دور حاسم حين اندلع العنف فيما بعد. خصَّص العمّ رامون إحدى غرف البيت للقنصليَّة، وعلَّق على المبنى شعار تشيلي وعلمَها. ولم تكن أيّ واحدة من رفيقاتي الجديدات قد سمعت باسم بلادي على الإطلاق، فكنَّ يفكِّرن في أنِّي آتية من تشاينا (الصين). فالفتيات، عمومًا، في تلك المنطقة من العالم وفي ذلك الزمن، كنَّ سجينات بيوتهنَّ ومدارسهنَّ حتى يوم زفافهنَّ، إذا شاء سوء طالعهنَّ أن يتزوَّجن، فينتقلن عندئذ من السجن الأبَوَيّ إلى سجن الزوج. وكنت آنذاك خجولة، أعيش حياة عزلة شديدة، وكان ألفيس بريسلي قد أصبح بدينًا حين رأيت أوَّل فيلم له. كما طرأت تعقيدات على حياتنا الأسريَّة، لأنَّ أمّي لم تستطع التآلف مع الثقافة العربيَّة، ولا مع الجوّ الحارّ، ولا مع طبيعة العمّ رامون المتسلِّطة، فكانت تعاني الصداع والحساسيَّةَ ونوباتٍ عصبيَّةً مفاجئة ترافقها هذياناتٌ، بل إنَّنا أعددنا حقائبنا في إحدى المرَّات للعودة إلى بيت جدِّي في سنتياغو لأنَّها أقسمت بأنَّها رأت خوريًّا أرثوذكسيًّا بكامل ملابسه الرسميَّة يتلصَّص عليها من كوّة الحمَّام. وكان زوج أمّي يشتاق إلى أبنائه، ويجد صعوبة في الاتِّصال بهم لأنَّ الاتِّصالات بتشيلي كانت تتأخَّر شهورًا، على نحو فاقم الإحساس بأنَّنا نعيش في نهاية العالم. وكنَّا نعاني كذلك ضائقة اقتصاديَّة شديدة، فكانت النقود توزَّع في نفقات أُسبوعيَّة دقيقة، وإذا زاد لدينا القليل منها ذهبنا إلى السينما أو للتزلُّج في ميدان جليد اصطناعيّ، وكان هذا هو الترف الوحيد الذي نسمح لأنفسنا به. لقد كنَّا نعيش حياة لائقة،

ولكنّها دون مستوى بقيّة أفراد السلك الدبلوماسيّ والأوساط التي نتردّد عليها، ممّن كانت النوادي الخاصّة والرياضاتُ الشتويّة والمسرحُ وقضاء الإجازات في سويسرا، بالنسبة إليهم، قاعدةً لا يمكن خرقها. لقد صنعت أمّي فستانًا طويلًا من الحرير كانت تستخدمه لحفلات الاستقبال الرسميَّة، وتُجري عليه، في كلّ مرَّة، تعديلات تشبه المعجزات، فتضيف إليه ذيلًا من البروكار حينًا، أو كمّين من الدانتيلّا، أو حزامًا من المخمل حول الخصر في أحيان أخرى، ولكنّني أعتقد أنَّ أحدًا لم يكن يهتمّ بزينتها، وإنَّما كان اهتمام الجميع ينصبّ على وجهها فقط. لقد تحوّلت أمّي إلى خبيرة بفنّ الحفاظ على المظاهر من دون نقود، فكانت تعدّ أطباقًا رخيصة من الطعام، وتُداري ذلك باستخدام صلصات معقّدة تخترعها هي نفسها وتقدّمها إلى ضيوفها في صوانيها الفضّيَّة الشهيرة؛ ورتّبت الأمور بحيث تظهر الصالة وغرفة الطعام في مظهر أنيق، مستفيدةً من اللوحات التي جاءت بها من بيت جدّي، وزيّنت الجدران بسجاجيد كانت تشتريها بالتقسيط من أرصفة بيروت. أمّا بقيّة غرف البيت، فكانت شديدة التواضع.

كان العمّ رامون يحتفظ بكامل تفاؤله الذي لا يُقهَر. كانت لديه مع أمّي مشاكلُ كثيرة، وكثيرًا ما سألت نفسي عن الدوافع التي أبقتهما معًا في ذلك الوقت، وكان الجواب الوحيد الذي خطر في بالي هو عناد حبّهما الذي وُلد عن بُعد، وتغذّى على رسائل رومنسيَّة، وتصلّب في جبل حقيقيّ من الشدائد. لقد كانا شخصين شديدي الاختلاف، ولم يكن مستغربًا أن يخوضا مجادلات حتى الإنهاك، وكانت بعض مشاجراتهما من الضخامة بحيث استحقّت تسميات خاصّة بها، وبقيت محفوظة في سجلّ النوادر الأُسريّة. أعترف بأنّي لم أفعل في ذلك

الوقت شيئًا لتسهيل التعايش؛ فعندما أدركت أنَّ زوج أمِّي هذا قد دخل حياتنا ليبقى فيها، أعلنت عليه حربًا مفتوحة. وليس من السهل عليّ الآن أن أتذكَّر الأزمنة التي كنت أصنع فيها خططًا فظيعة لقتله. والواقع أنَّ الدَّور الذي كان عليه أن يؤدِّيه لم يكن سهلًا، ولست أدري كيف استطاع المضيّ قُدُمًا مع أبناء ألليندي الثلاثة هؤلاء، الذين حلُّوا في حياته. لم ندعوه بلقب «بابا» قطّ، لأنَّ هذه الكلمة تجلب لنا ذكرياتٍ كريهةً، ولكنَّه كسب عن جدارة لقب «العمّ رامون»، كرمز للتقدير والثقة. واليوم، بعد أن بلغ الخامسة والسبعين، هناك مئات الأشخاص الموزَّعين في خمس قارَّات، وبينهم موظَّفون في الحكومة والأكاديميَّة الدبلوماسيَّة في تشيلي، يدعونه «العمّ رامون» بالمشاعر نفسها التي ندعوه نحن بها.

جرى إرسالي إلى مدرسة إنكليزيَّة للأطفال، كانت تهدف إلى تصليب طباع التلميذات عبر اختبارات في الصرامة والانضباط، وذلك من أجل إضفاء نوع من الاستمراريَّة على تعليمي. ولم يكن لتلك الاختبارات تأثيرٌ كبير فيَّ، لأنَّ اجتيازي «ألعابَ الخشونة» لم يكن عبثًا. وكان الهدف التعليميّ الأقصى جعلَ التلميذات يحفظن الكتاب المقدَّس عن ظهر قلب، فقد كانت مس ساينت جون تأمرنا: سِفْر التثنية، الإصحاح الخامس، الآية الثالثة. ويكون علينا عندئذ أن نرتِّل المطلوب فورًا ومن دون تَردُّد. وهكذا، تعلَّمت شيئًا من اللغة الإنكليزيَّة، وصقلت إلى حدّ السخرية المعنى الرواقيّ للحياة الذي كان جدِّي قد غرس فيَّ بذرتَه في بيت التيَّارات الهوائيَّة. لقد كان لتعلمي اللغة الإنكليزيَّة والصمود أمام الشدائد فائدةٌ كبيرة. أمَّا معظم المهارات الأخرى التي امتلكتها، فقد علَّمني إيَّاها العمّ رامون بجعل نفسه قدوة،

وبأساليب تعليميَّة يعتبرها علم النفس الحديث وحشيَّة. لقد كان قنصلًا عامًّا لتشيلي لدى عدد من البلدان العربيَّة، مقرّه بيروت، المدينة الرائعة، والتي كانت تُعتبر آنذاك باريسَ الشرق الأوسط، حيث الجمال وسيَّارات الشيوخ الكاديلاك ذات واقيات الصدمات الذهبيَّة تعرقل حركة المرور، وحيث النساءُ المسلمات المتسربلات بالسواد مع خمار على مستوى العينين يبتعن مشترياتهنَّ جنبًا إلى جنب مع الأجنبيَّات السافرات. وفي أيَّام السبت، كانت بعض ربّات البيوت من الجالية الأميركيَّة يغسلن سيَّاراتهنَّ وهنَّ يرتدين سراويل قصيرة ويكشفن جزءًا من بطونهنَّ. فكان الرجال، الذين نادرًا ما يرون امرأة من دون حجاب، يقومون برحلات شاقَّة من قراهم على الحمير لرؤية استعراض الأجنبيَّات شبه العاريات. وكان هناك مَن يؤجّرون الكراسيّ ويبيعون حلوى القطر للمشاهدين الجالسين صفوفًا في الجهة الأخرى من الشارع.

كنَّا نتحمَّل، في فصل الصيف، جوًّا حارًّا ورطبًا مثل حمَّام تركيّ، ولكن مدرستي كانت محكومة بأنظمة صارمة فرضتها الملكة فكتوريا في إنكلترا في أواخر القرن الماضي. فالزيّ المدرسي يتألَّف من تنُّورة من القرون الوسطى مصنوعةٍ من نسيج سميك تُثبَّت بحمَّالات لأنَّ استخدام الأزرار يُعتبَر بدعة طائشة، ومن حذاء غليظ له مظهر الأحذية الخاصَّة بتقويم التشوُّهات، وقبَّعةٍ كشَّافة تغطس في الرأس حتى الحاجبين ويمكن لها أن تُذلَّ أشدّ المتعجرفين. وكانت وجبات الطعام تشكِّل مادَّة تربويَّة لترويض الطباع؛ ففي كلِّ يوم يقدِّمون إلينا أرزًّا أبيض من دون ملح، ويقدِّمونه إلينا محروقًا مرَّتين كلّ أسبوع، ومع اللبن يوم الثلاثاء، ومع كبد مسلوق أيَّام الخميس. وقد تطلّب

الأمر منّي عدَّةَ شهور كي أتجاوز حالات الغثيان وتقلُّبات المعدة التي تسبِّبها لي قطع اللحم الرماديَّة تلك وهي تطفو في الماء الساخن، ولكنَّني صرت أجدها لذيذة الطعم في نهاية المطاف، وأنتظر غداء يوم الخميس بفارغ الصبر. ومنذ ذلك الحين، صار في إمكاني هضمُ أيِّ نوع من الطعام، بما في ذلك المأكولاتُ الإنكليزيَّة. كانت طالبات المدرسة ينحدرن من مناطق مختلفة، وجميعهنَّ تقريبًا كنَّ في القسم الداخليّ. وكانت شيرلي هي أجمل فتيات المدرسة، بل كانت تبدو بصورة حسنة حتى وهي تضع قبَّعة الزيّ المدرسيّ. إنَّها فتاة من الهند، لها شعر أسود مائل إلى الزرقة، وكانت تكحّل عينيها بكحل صَدَفِيّ اللون، وتمشي بخطوات غزالة متحدِّية قانون الجاذبيَّة. وقد علَّمتني في الحمَّام المغلق رقصةَ هزّ البطن التي لم تفدني في شيء حتى الآن، لأنّي لم أمتلك يومًا الجرأة على إغواء رجل بحركات الدمى تلك. وفي أحد الأيَّام، وكانت قد أكملت لتوِّها خمسةَ عشر عامًا من عمرها، جرى إخراجها من المدرسة وأُخذت إلى بلادها لتزويجها من تاجر خمسينيّ اختاره لها أبواها من دون أن تكون قد رأته قطّ. فقد تعرَّفت إليه من خلال صورة فوتوغرافيَّة ملوَّنة يدويًّا. أمّا إليزابيث، أفضلُ صديقاتي، فكانت شخصيَّة روائيَّة: فهي يتيمة، ترعرعت كخادمة لدى أخواتها اللواتي استولين على حصَّتها من الميراث الأَبَوِيّ، وكانت تغنِّي بصوت ملائكيّ وتضع خططًا للهرب إلى أميركا. وقد التقيتُها بعد خمس وثلاثين سنة من ذلك الحين في كندا. لقد حقَّقت أحلامها بالاستقلال، وهي تدير الآن مؤسَّسة خاصَّة بها، وتملك بيتًا فخمًا وسيَّارةً مزوَّدة بهاتف وأربعةَ معاطف فراء وكلبين مترفين، ولكنَّها ما زالت تبكي كلَّما تذكَّرت صباها في بيروت. بينما كانت إليزابيث

توفِّر القروش لتهرب إلى العالم الجديد، وشيرلي الجميلة تؤدِّي واجبها كعروس موصى عليها، كنَّا نحن الباقيات ندرس الكتاب المقدَّس ونتبادل التعليقات همسًا عن المدعوّ ألفيس بريسلي الذي لم تكن أيٌّ واحدة منَّا قد رأته أو سمعته يغنِّي، ولكنَّنا كنَّا نسمع ما يُقال عن أنَّه يسبِّب الخراب بغيتاره الكهربائيّ وحركات حوضه. لقد كنت أذهب إلى المدرسة في الحافلة، وكنت أوَّل من تستقلُّها في الصباح وآخر من تنزل منها في المساء، وهذا يتيح لي ساعات من التجوُّل في المدينة، وهو حلٌّ مناسب لأنِّي لم أكن أشعر برغبة كبيرة في الذهاب إلى البيت. ولكنِّي كنت مضطرَّة إلى العودة إليه عاجلًا أو آجلًا، في أيِّ حال. وكثيرًا ما كنت أجد العمّ رامون بقميصه الداخليّ جالسًا تحت المروحة وهو يهوِّي بصحيفة، ويستمع إلى موسيقى البوليرو. فكان يستقبلني بالقول:

ـ ما الذي علَّمتك إيّاه الراهبات اليوم؟

فأردّ عليه وأنا أتعرّق، ولكن برباطة جأش ووقار يفرضهما زيُّ المدرسة المريع:

ـ لسن راهبات. إنَّهنّ آنسات بروتستانتيَّات. وقد تحدَّثنا اليوم عن أيُّوب.

ـ أيُّوب؟ أهو ذلك الأبله الذي امتحنه الربّ بإنزال كلّ المصائب عليه؟

ـ لم يكن أبلهَ على الإطلاق، أيُّها العمّ رامون، بل كان قدِّيسًا صلبًا لم ينكر الربّ على الرَّغم من كلّ ما عاناه.

ـ وهل ترين الأمر عادلًا؟ الربّ يراهن الشيطان، فيعاقب هذا

الرجلَ المسكين من دون رحمة، ثم يطلب منه فوق ذلك أن يعبده. إنَّه إلٰه قاسٍ وجائر وطائش. إنَّ سيِّدًا يعامل عبيده بمثل هذه الطريقة لا يستحقّ أيّ قدر من الولاء أو الاحترام، ناهيك عن العبادة.

وكان العمّ رامون، الذي تربَّى على أيدي الآباء الجزويت، يستخدم أسلوبًا خطابيًا مفخَّمًا يزعزع القناعات، ومنطقًا متماسكًا لا تشوبه شائبة ـ وهو الأسلوب نفسه الذي كان يستخدمه في مشادّاته مع أمّي ـ كي يثبت حماقة البطل التوراتيّ، ويبيِّن أنَّ تصرُّفه لم يكن نموذجًا يستحقّ الإطراء، وإنَّما هو نابع من مشكلة في شخصيَّته. وبعد أقلّ من عشر دقائق من الخطابة، يمرّغ في التراب كلَّ التعاليم الفاضلة التي لقَّنتني إيَّاها مسّ ساينت جون.

ـ هل أنت مقتنعة الآن بأنَّ أيُّوبًا كان رجلًا أخرق؟

ـ أجل، أيُّها العمّ رامون.

ـ وهل يمكنك تأكيد ذلك خطِّيًا؟

ـ أجل.

عندئذ يجتاز السيِّد القنصل مسافة المترين اللذين يفصلاننا عن مكتبه، ويحرِّر على ورقة رسميَّة وثيقةً من ثلاث نسخ يقول فيها إنَّني أنا إيزابيل ألليندي يونا، في الرابعة عشرة من عمري، من التبعيَّة التشيليَّة، أؤكِّد أنَّ أيُّوبًا الوارد ذكره في العهد القديم، كان شخصًا أخرق. ثم يطلب منِّي أن أوقِّع على الوثيقة بعد أن أقرأها بتأنٍّ لأنَّه يجب عدم التسرُّع أبدًا في التوقيع على أيّ شيء، ثم يطوي الورقة ويحفظها في صندوق خزنة القنصليَّة المعدنيّ. ويرجع بعد ذلك للجلوس تحت المروحة، ويقول لي وهو يُطلق زفرة انزعاج عميقة:

ـ حسنًا، يا ابنتي، سأُثبت لك الآن أنَّكِ كنت على حقّ، وأنَّ أيُّوبًا كان رجلًا من رجال الربّ الصالحين. سأقدِّم إليك الحجج التي كان عليك استخدامها لو أنَّك أحسنت التفكير. واعلمي بأنَّني لا أفعل هذا إلَّا من أجل تدريبك على المجادلة، فهذا يفيدك دائمًا في الحياة.

ويمضي في تفنيد حججه السابقة نفسها ليُقنعني بالرأي الذي كنت أؤمن به إيمانًا راسخًا في البدء. ويتمكَّن، بعد وقت قصير، من هزيمتي مرَّة أخرى، ولكنَّني أكون على وشك الانفجار في البكاء هذه المرَّة.

ـ هل توافقين على أنَّ أيُّوبًا قد أحسن التصرُّف حين حافظ على إخلاصه لربِّه على الرَّغم من كلِّ المصائب التي حلّت به؟

ـ أجل، أيُّها العمّ رامون.

ـ وهل أنت واثقة بذلك ثقةً مطلقة؟

ـ أجل.

ـ وهل أنت مستعدَّة للتوقيع على وثيقة بذلك؟

ثم يحرِّر ورقة إذلال أخرى يؤكِّد فيها أنَّني أنا إيزابيل ألليندي يونا، في الرابعة عشرة من عمري، ومن التبعيَّة التشيليَّة، أتبرَّأ من إقراري السابق، وأؤكِّد، في المقابل، أنَّ أيُّوبًا كان رجلًا عادلًا. ثم يقدِّم إليّ قلمه، وحين أكون على وشك وضع اسمي في أسفل الصفحة، يوقفني صارخًا:

ـ لا! كم مرَّةً قلت لك إنَّه يجب عليك عدم السماح لأحد بأن يلوي ذراعك؟ فمن أجل الكسب في المجادلة، لا بدَّ لك أوَّلًا من

الثبات وعدم التردُّد، حتى لو كنت في ريب من أمرك، أو حتى لو كنت على خطأ.

هكذا تعلَّمت الدفاع عن نفسي. وبعد سنوات من ذلك، تنافست في مناظرة مدرسيَّة في تشيلي ضدَّ مدرسة سان إغنائيو، وكان يمثِّلها خمسة فتيان ظهروا في مظهر المحامين المتفقِّهين، وكان معهم راهبان من الجزويت يهمسان إليهم بالتعليمات. وقد حضر فريق الذكور محمَّلًا بشحنة من المراجع ليعزِّز حججه ويُرعب منافساته. وكانت الدعامة الوحيدة التي استندت إليها يومذاك هي ذكرى تلك الأمسيات مع أيُّوب والعمّ رامون في لبنان. لقد خسرت في المسابقة بالطبع، ولكن رفيقاتي حملنني على الأكفّ، بينما انسحب خصومنا الذكور شامخين مع عربة مراجعهم. لست أدري كم وقَّعت في مراهقتي من الوثائق المكتوبة في ثلاث نسخ بشأن موضوعات شديدة التنوُّع، ابتداءً من مسألة قضم أظفاري وحتى مشكلة الحيتان التي توشك على الانقراض. وأعتقد أنَّ العمّ رامون قد احتفظ لسنوات ببعض تلك الشهادات، ومنها واحدةٌ أُقسم فيها بأنَّني لن أتعرَّف إلى رجال وسأبقى عزباء طوال حياتي بسببه. حدث ذلك في بوليفيا، حين أُصبت، وأنا في الحادية عشرة من عمري، بنوبة عصبيَّة لأنَّه منعني من الذهاب إلى حفلة كنت أفكِّر في رؤية محبوبي ذي الأذنين فيها. وبعد ثلاث سنوات من ذلك، دُعيت إلى حفلة أخرى، في بيروت هذه المرَّة، في منزل سفير الولايات المتَّحدة، ولم أشأ الذهاب بدافع الحيطة والحذر، فقد كنَّا نحن الفتيات الصغيرات نؤدِّي إذ ذاك دورَ القطيع المسالم، وكنت واثقة بأنَّه لن يكون هناك فتًى في كامل وعيه، يدعوني إلى الرقص معه، وكان من الصعب تصوُّر مذلَّة أقسى من مذلَّة التعرُّض للإهمال في حفلة. لكن

زوج أمّي أجبرني في ذلك اليوم على الذهاب، لأنّني إذا لم أتغلّب على عُقدَي، كما قال، فلن أحقّق النجاح في حياتي أبدًا. لقد أغلق القنصليَّة في اليوم السابق للحفلة، وتفرَّغ لتعليمي الرقص. أجبرني، بإلحاح، على تحريك عظامي على إيقاع الموسيقى وأنا أستند إلى مسند كرسيّ في أوَّل الأمر، ثم مع مكنسة بعد ذلك، ومعه هو نفسه أخيرًا. وقد تعلَّمت الرقص في تلك الساعات، ابتداءً من رقصة التشارلستون وحتى السامبا، ثم مسح دموعي بعد ذلك وأخذني لشراء فستان للحفلة. وحين أوصلني إلى المكان الذي تُقام فيه الحفلة، قدَّم إليّ قبل أن يفارقني، نصيحةً لا تُنسى، واظبت على تطبيقها في كلّ اللحظات الحاسمة في حياتي: «فكّري دائمًا في أنَّ الآخرين يكونون خائفين أكثر منك». وأضاف أنَّه يتوجَّب عليّ عدمُ الجلوس أبدًا في أثناء الحفلة، وإنَّما البقاءُ واقفةً قرب جهاز الموسيقى، وعدمُ أكل أيّ شيء على الإطلاق، لأنَّ الشبَّان سيحتاجون إلى شجاعة كبيرة كي يجتازوا الصالة ويقتربوا من فتاة تجلس مثل فرقاطة راسيةٍ وهي تحمل طبق حلوى في يدها. أضف إلى ذلك أنَّ الشبَّان القليلين الذين يُحسنون الرقص هم الذين يبدِّلون عادة أسطوانات الموسيقى، ولهذا فإنَّ من المناسب البقاءَ قربها.

عند مدخل السفارة، وهي حصن من الإسمنت مشيَّدٌ على أسوأ طراز في الخمسينيَّات، كان هناك قفص فيه طيورٌ سوداء تتكلَّم الإنكليزيَّة بلهجة جامايكا. وقد استقبلتني زوجة السفير، وهي ترتدي زيّ أميرال وتعلّق صفَّارة في عنقها لتوجّه من خلالها التعليمات إلى الضيوف، وقادتنا إلى صالون فخم يغصّ بحشد من المراهقين طِوال القامة ونحيفين، وجوهُهم مغطَّاة بالبثور، يمضغون اللبّان ويأكلون

البطاطا المقليّة ويشربون الكوكا كولا. الفتيان بينهم كانوا يرتدون سترات كاروهات وربطات عنق على شكل فراشات، بينما ترتدي الفتيات تنانير لها شكل الأطباق وستراتٍ صوفيَّةً ذات أوبار تملأ الجوّ بالوبر وتكشف عن تكوُّرات في الصدور تُثير الحسد. أمَّا أنا، فلم يكن لديّ شيء أخفيه في حمَّالة سوتيان. وكانوا جميعهم بالجوارب من دون أحذية. لقد وجدت نفسي غريبة تمامًا، ففستاني مجرَّد قباحة من التفتا والمخمل، وليس لي معارف بين الحضور. الرعب الذي أحسست به جعلني أُمضي الوقت في تقديم فتات من الحلوى إلى الطيور السوداء إلى أن تذكَّرت تعليمات العمّ رامون، فخلعت حذائي وأنا أرتعد خوفًا واقتربت من جهاز الحاكي. وسرعان ما رأيت يدًا ذكريَّة تمتدّ في اتِّجاهي، فلم أكد أصدِّق حدوث مثل هذا الحظّ الحسن، وخرجت للرقص على أنغام موسيقًى هادئة مع فتى يضع جهازًا لتقويم الأسنان وله قدمان مسطَّحتان، ولم يكن يتمتَّع ولو بنصف ظرافة زوج أمّي في الرقص. كان يريد أن يرقص ملصقًا خدّه بخدّي ـ وأظنّ أنَّهم كانوا يدعون هذه الطريقة في الرقص «cheek - to - cheek» ـ ولكنَّ ذلك كان مستحيلًا بالنسبة إليّ، لأنَّ وجهي يصل عادة إلى مستوى صدر أيّ رجل عادي، أمَّا في تلك الحفلة، حين كنت في الرابعة عشرة من عمري، وكنت حافية بلا حذاء، فإنَّ وجهي كان يصل إلى مستوى سرَّة رفيقي في الرقص. تلا تلك الأغنية أسطوانةٌ كاملة من الروك آند رول، وهي موسيقًى لم يكن العمّ رامون قد سمع بها، ولكن مراقبتي للآخرين بضع دقائق كانت كافية لأضع في الممارسة العمليَّة ما تعلَّمته في مساء اليوم السابق. وقد أفادني في تلك المناسبة قِصَر قامتي وليونة مفاصلي، فراح رفاقي في الرقص يقذفون

بي نحو السقف من دون مشقَّة، ويحرّكونني حركاتٍ أكروباتيَّةً في الهواء، ثم يلتقطونني قريبًا من الأرض، عندما أكون على وشك أن أدقّ عنقي بالضبط.

وجدت نفسي أقوم بقفزات بديعة بين أيدي عدد من الشبّان الذين خلعوا ستراتهم وحلّوا ربطات أعناقهم وراحوا يقذفونني ويجرُّونني ويتلقُّونني ويهزُّونني برشاقة. لم يكن في إمكاني أن أتذمَّر، ففي تلك الليلة لم أتعرَّض للإهمال الذي كنت أخشاه كثيرًا، بل رقصت إلى أن تورَّمت قدماي، وهكذا توصَّلت إلى القناعة بأنَّ التعرُّف إلى الرجال ليس بالأمر الصعب في نهاية المطاف، وتأكَّدت من أنَّني لن أظلّ عانسًا، ولكنَّني لم أعد أوقِّع على أيِّ وثيقة أخرى بهذا الشأن. فقد تعلَّمت ألَّا أسمح لأحد بأن يلوي ذراعي.

كان لدى العمّ رامون خزانةُ ملابس ذاتُ ثلاثة أبواب اعتاد على أن يقفلها بالمفتاح على ملابسه وكنوزه: مجموعةِ مجلَّات إباحيَّة، وصناديقِ سجائرَ وشوكولاتة ومشروبات روحيَّة. وقد اكتشف أخي خوان طريقة لفتح الخزانة بسلك معقوف، فتحوَّلنا هكذا إلى نشَّالين خبراء. ولو أنَّنا كنَّا نكتفي بأخذ قدر قليل من الشوكولاتة أو السجائر، لكان العمّ رامون انتبه لذلك، ولكنَّنا كنَّا نأخذ طبقة كاملة من قطع الحلوى ونعيد إغلاق العلبة بدقَّة تبدو معها جديدة لم تمسّها يد، وكنَّا نأخذ من السجائر «كروزات» كاملة، وليس بضع سجائر أو عُلَب. وقد راودت الشكوك العمّ رامون منذ كنَّا في لاباز، فاستدعانا منفصلين، كلٌّ على حِدَة، وحاول الحصول على اعتراف منَّا أو على وشاية

بالمذنب، ولكنَّ كلماته العذبة وتهديداته بالعقاب لم تُفده في شيء، فالاعتراف بالجرم كان يبدو لنا حماقة، والخيانة بين الأخوة كانت جريمة لا تُغتفر في عُرفنا الأخلاقي. وحين عدنا من المدرسة في أحد أيَّام الخميس، وجدنا العمّ رامون ومعه رجل مجهول في انتظارنا في الصالة:

ـ لقد تعبتُ من انعدام النزاهة الذي يسود هذه الأُسرة. إنَّ أقلّ ما يمكنني المطالبة به هو عدم سرقة أشيائي من بيتي. هذا السيّد هو تحرٍّ في الشرطة. سيأخذ بصمات أصابعكم أنتم الثلاثة ويقارنها مع الآثار الموجودة على خزانتي، وسنعرف هكذا من هو اللصّ. هذه هي فرصتكم الأخيرة للاعتراف بالحقيقة.

شحبت وجوهنا نحن الأخوة الثلاثة، وخفضنا أبصارنا ونحن نصرّ على أسناننا. فأضاف العمّ رامون قائلًا:

ـ أتعرفون ما الذي يحدث للجانحين؟ إنَّهم يتعفّنون في السجن.

أخرج التحرّي علبة صفيحيَّة من جيبه. وحين فتحها، رأينا فيها وسادة رقيقة مضمَّخة بحبر أسود. ثم قام ببطء واحتفاليَّة كبيرة بتلويث أصابعنا، واحدًا بعد الآخر، وأخذ بصماتنا على قطعة ورق مقوًّى. وبعدها قال الرجل مودّعًا:

ـ لا تقلق، يا سيّدي القنصل، يوم الاثنين ستصلك نتائجُ تحرّياتي.

أمضينا يومي السبت والأحد معذَّبي الضمير، فكنَّا نختبئ في الحمَّام، أو في أكثر أركان الحديقة بُعْدًا عن الأنظار لنتداول همسًا في شأن مستقبلنا الأسود. لم يكن أيّ واحد منَّا في منجًى من الذنب،

وكنَّا سننتهي جميعنا إلى زنزانة نقتات فيها الماء الملوَّث والخبز اليابس مثل الكونت دي مونت كريستو. وفي يوم الاثنين التالي، استدعانا العمّ رامون الرهيب إلى مكتبه، وأعلن، وهو يرقِّص حاجبيه الشيطانيَّين الكبيرين:

ـ لقد عرفت بالضبط من هو اللصّ. ومع ذلك، واحترامًا لأمّكم التي تدخَّلت لمصلحتكم، لن أرسل المجرم إلى السجن هذه المرَّة. إنَّه يعرف أنِّي أعرفه، ولكنَّ الأمر سيبقى سرًّا بيننا. وأحذِّركم من أنَّني لن أتسامح في المرَّة القادمة، مفهوم؟

خرجنا متعثِّرين وشاكرين وغيرَ قادرين على تصوُّر كلِّ هذا القدر من التسامح. ولم نعد إلى السرقة لوقت طويل. ولكن، بعد نحو سنتين من ذلك، عندما كنَّا في بيروت، فكَّرت في المسألة بتمعُّن أكبر. وراودني الشكّ في أنَّ التحرِّي المزعوم لم يكن إلَّا سائقًا في السفارة، وأنَّ العمّ رامون كان قادرًا تمامًا على الإقدام على مثل تلك الدعابة. عندئذ، استخدمت سلكًا آخر معقوفًا وفتحت الخزانة من جديد، ووجدت فيها هذه المرَّة، فضلًا عن الكنوز المنتظَرة، أربعةَ مجلَّدات ذات أغلفة جلديَّة حمراء: «ألف ليلة وليلة». واستنتجت أنَّه لا بدَّ من سبب قويّ لإخفاء هذه الكتب وراء باب مقفل، ولهذا كان اهتمامي بها أشدَّ من اهتمامي بالشوكولاتة أو السجائر أو بالنساء ذوات رباطات الجوارب في المجلَّات الإباحيَّة. وخلال السنوات الثلاث التالية، قرأت بشغف تلك الكتبَ داخل الخزانة مستعينةً بمصباحي اليدويّ القديم، ومستغلَّةً الساعات التي يذهب فيها العمّ رامون وأمِّي إلى حفلات الكوكتيل أو العشاء. ومع أنَّ الدبلوماسيّين يعانون حياة اجتماعيَّة حافلة، إلَّا أنَّ الوقت لم يكن يسمح لي بإنهاء

تلك القصص الهائلة. فكنت، أضطرّ حين أسمعهما عائدَين، إلى إغلاق الخزانة بأقصى سرعة والعودة إلى فراشي والتظاهر بالنوم. وكان من المستحيل ترك أيّ علامة بين الصفحات تذكر الموضوع الذي وصلت إليه. وإذ إنّني كنت أقفز عن مقاطع كاملة بحثًا عن الفقرات البذيئة، قد اختلطت عليّ الشخصيّات وامتزجت المغامرات، ورحت أُبدع روايات لا حصر لها لكلّ واحدة من الحكايات في دوّامة مثيرة من الكلمات والحبّ والوهم. إنّ التناقض بين بيوريتانيّة المدرسة التي تحضّ على العمل وتنكِر احتياجات الجسد الأساسيّة وومضات المخيّلة، وبين الكسل الإبداعيّ والحسّيّة الجارفة في تلك الكتب، ترك أثره فيّ إلى الأبد. فقد تذبذبت لعقود من السنين بين هذين الاتّجاهين ممزّقةً من الداخل وتائهةً في بحر من الرغبات والخطايا المشوّشة، إلى أن استطعت أخيرًا، في فنزويلا، حين كنت أقترب من الأربعين من عمري، أن أتحرّر نهائيًّا من وصايا مس ساينت جون المتزمّتة. ومثلما التهمت أفضل كتب طفولتي وأنا مختبئة في قبو بيت التاتا، قرأت «ألف ليلة وليلة» خلسةً وأنا في أوجّ مراهقتي، حين كان جسدي وذهني يتفتّحان على أسرار الجنس. لقد تهت داخل الخزانة في حكايات سحريّة عن أمراء يتنقّلون على بساط الريح، وجنّيّين محبوسين في مصابيح زيت، ولصوصٍ ظرفاء يتسلّلون إلى أجنحة حريم السلطان متنكّرين في زيّ عجائز ليداعبوا نساء محظورات ذوات شعور مثل سواد الليل وأردافٍ كبيرة ونهودٍ تفّاحيّة، معطّراتٍ بالمسك، ناعماتٍ ومتأهّباتٍ للذّة على الدوام. لقد كان للحياة والموت طابعٌ لعوبٌ في صفحات الحبّ تلك، وكانت أوصاف الأطعمة، والمناظرِ، والقصورِ، والأسواقِ، والروائحِ، والطعومِ،

والأنسجةِ، من الغنى والتنوُّع إلى درجة أنَّ عالمي لم يعد نفسَه على الإطلاق.

حلمتُ بأنَّك في الثانية عشرة من عمرك، يا باولا، وكنت ترتدين معطفًا من قماش مزيَّن بمربَّعات، وشعرُك مثل ذيل مربوط من منتصفه بشريط أبيض وبقيَّتُه مفلتة على كتفيك. وكنت تقفين في وسط برج مجوَّف مثل صومعة حفظ الحبوب، حيث تطير مئات الحمائم. وكان صوت ميمي يقول لي: «لقد ماتت باولا». وكنت أركض لتثبيتك إلى الأرض متشبِّثةً بحزام معطفك، ولكنَّك بدأت بالصعود وسحبي معك، ورحنا نطفو بخفَّة صاعدتين معًا في دوائر. كنت أتوسَّل إليك: «سأذهب معك، خذيني معك يا ابنتي». وسمعت صوت جدَّتي يرنّ في البرج من جديد: «لا يمكن لأحد أن يذهب معها، لقد شربت شراب الموت». وواصلنا الصعود والصعود معًا، أنت مجنَّحة، وأنا مصمِّمة على وقف صعودك، لا يمكن لشيء أن يفصلني عنك. وكانت هناك في الأعلى فتحةٌ ضيِّقة تظهر منها سماء زرقاء فيها غيمةٌ بيضاء تامّة مثل لوحة لماغريتي. وأدركت عندئذ، والرعب يملأني، أنَّك تستطيعين المرور، ولكنَّ الكوَّة ضيِّقة بالنسبة إليَّ. حاولت التشبُّث بملابسك، وكنت أناديك وصوتي لا يخرج من حلقي. وكنت تبتسمين ابتسامة غامضة وتهربين ملوِّحة لي بيدك تلويحة الوداع. وبقيتُ، للحظات ثمينة، أراك تبتعدين عاليًا أكثر فأكثر، ثم بدأت أنا بالانحدار داخل البرج وسط زوبعة من الحمائم.

استيقظتُ صارخة باسمك؛ وتأخَّرت عدَّة دقائق قبل أن أتذكَّر

أنّني موجودة في مدريد، وأنّني في غرفة الفندق. ارتديت ملابسي بسرعة من دون أن أُتيح الوقت لأن توقفني أمّي، وانطلقت راكضة إلى المستشفى. وفي الطريق، استطعت الصعود إلى سيّارة أجرة، وكنت بعد قليل أطرق باب قسم العناية المشدَّدة بهستيريَّة. أكَّدت لي إحدى الممرّضات أنَّ شيئًا لم يحدث، وأنَّ كلّ شيء على حاله. ولكنّني لكثرة ما توسَّلت وأظهرت من الغمّ والضّيق، سمحت لي بالدخول لرؤيتك لحظة. تأكَّدتُ من أنَّ الجهاز ما زال ينفث الهواء في رئتيك، وأنَّك غير باردة، فقبّلتك على جبهتك، وخرجت لأنتظر بزوغ الفجر. يُقال إنَّ الأحلام لا تكذب. ومع أوَّل أنوار الصباح جاءت أمّي. كانت تحمل معها ترمس قهوة صنعتها للتوّ، وبضعَ كعكات لا تزال ساخنة اشترتها في الطريق.

قالت لي موضحة:

ـ اهدئي، فليس في الحلم نذيرُ شؤم، وليس لحلمك أيُّ علاقة بباولا. فأنت نفسك جميعُ شخصيّات الحلم. أنت الطفلة ذات الاثنتي عشرة سنة التي ما زالت تستطيع التحليق بحرّيَّة. في تلك السنّ، ودّعتِ البراءة وماتت الطفلة التي كنتِها. لقد تجرّعتِ شراب الموت الذي لا بدَّ لنا نحن النساء جميعًا من شربه عاجلًا أو آجلًا. ألم تلاحظي أنّنا ما إن نصل إلى سنّ البلوغ حتى نفقد همَّة الأمازونيّات التي نحملها منذ المهد، ونتحوَّل إلى كائنات عواقر تملأها الشكوك؟ والمرأة التي علقت في الصومعة هي أنت نفسُك أيضًا، سجينة حياة البلوغ. إنَّ الشرط الأنثويّ نكبة يا ابنتي. إنَّه مثل أحجار مربوطة بالرسغين لا يمكن معها التحليق.

ـ وما معنى الحمائم يا أمّاه؟

ـ إنَّها الروح المشوَّشة على ما أعتقد.

الأحلام تنتظرني كلّ ليلة مترصّدة تحت السرير مع شحنتها من الرؤى الرهيبة، وأبراج الأجراس، والدم، والحسرات الكئيبة، ولكنَّها تحمل معها دائمًا كذلك حصادًا طازجًا من الأخيلة السرِّيَّة والسعيدة. إنَّني أعيش حياتين اثنتين، إحداهما وأنا مستيقظة، والأخرى وأنا نائمة. هنالك في عالم الأحلام مناظرُ وأشخاصٌ صرت أعرفهم. إنَّني أستكشف فيه الجحيم والفردوس. أطير في سماء الكوكب السوداء وأنزل إلى أعماق البحر، حيث يخيِّم الصمت الأخضر، وأجد عشرات الأطفال من كلّ الأجناس، وأجد كذلك حيوانات مستحيلة وأشباحًا رقيقة لأقرب الموتى إلى قلبي. لقد تعلَّمت على مرِّ السنين حلَّ رموز أسفار الأحلام وفهمَ أسرارها، والرسائلُ الآن أشدُّ وضوحًا، وهي تُفيدني في إضاءة المناطق الغامضة في الحياة اليوميَّة وفي الكتابة.

فلنرجعْ إلى أيُّوب الذي فكَّرت فيه كثيرًا هذه الأيَّام. يخطر لي أنَّ مرضك هو امتحان، مثل الامتحان الذي كان على ذلك البائس أن يتحمَّله. إنَّها لعجرفة كبيرة من جانبي أن أتصوَّر أنَّك ترقدين في هذا السرير من أجل أن نفهم، نحن الذين ننتظر في ممرِّ الخطى الضائعة، بعضَ العِبَر. لكن هذا هو ما أتصوَّره في بعض اللحظات في الواقع. ما الذي تريدين تعليمنا إيَّاه، يا باولا؟ لقد تبدَّلتُ كثيرًا في هذه الأسابيع التي لا نهاية لها. جميع من عشنا هذه التجربة تبدَّلنا، وخصوصًا إرنستو الذي يبدو كأنَّه كبر قرنًا من الزمان. كيف يمكنني مواساته إذا كنت أنا نفسي يائسةً؟ إنَّني أتساءل إذا كان في إمكاني

العودةُ إلى الضحك برغبة، أو إلى احتضان قضيَّة، أو الأكل بمتعة، أو كتابة الروايات. «ستستطيعين ذلك بالطبع. فعمّا قريب ستحتفلين مع ابنتك وتنسين هذا الكابوس»، هذا ما تعدني به أمّي، مستندة إلى أقوال الطبيب الاختصاصيّ بأمراض الغيبوبة، والذي يؤكّد أنّه ما إن يجتاز المرضى الأزمة حتى يستردُّوا عافيتهم تمامًا، ولكنّ لديَّ هاجسًا خبيثًا، يا ابنتي. لا أستطيع إنكار ذلك، فقد استمرَّت هذه الحالة طويلًا ولا أراك تتحسَّنين، بل يبدو لي أنَّ حالتك تسوء. جدَّتك لا تستسلم للهزيمة. إنَّها تحافظ على طقوسها الروتينيَّة العاديَّة. لديها الحماسة لقراءة الجريدة، بل للخروج والتبضُّع؛ وتقول هذه المرأة الخاطئة: الشيء الوحيد الذي أندم عليه في حياتي هو ما لم أشتره. إنَّنا هنا منذ زمن طويل، أريد العودة إلى البيت. فمدريد تخبِّئ لي ذكرياتٍ مشؤومةً. لقد عشت فيها أحزان حبّ أُفضِّل نسيانها، ولكنَّني في محنتك هذه تصالحت مع المدينة وساكنيها. تعلَّمت التنقُّل في شوارعها العريضة الفاخرة وأحيائها القديمة ذات الأزقَّة المتعرِّجة. تقبَّلت العادات الإسبانيَّة في التدخين وتناولِ القهوة والمشروبات الروحيَّة بكمِّيَّات كبيرة، والنومِ عند الفجر، والتهامِ كمِّيَّات قاتلة من الدهون، وعدمِ ممارسة أيّ تمارين رياضيَّة، والسخريةِ من الكولسترول. ومع ذلك، فإنَّ الناس يعيشون هنا من السنوات بقدر ما يعيش أهالي كاليفورنيا. والفارق الوحيد أنَّهم هنا أكثرُ سعادة بكثير. إنَّنا نتناول الطعام أحيانًا في مطعم عائليّ في الحيّ، في المطعم نفسه دائمًا لأنَّ أمّي أحبَّت مالكه. إنَّها مغرَمة بالرجال القبيحين، وهذا الرجل يستطيع أن يكسب مسابقة في القبح: إنَّه ضخم وأحدب في نصفه العلويّ، وله ذراعان طويلتان مثل ذراعَي قرد أورنغوتان، وهو في نصفه السفليّ قزم

بساقين نحيلتين. إنَّها تلاحقه بنظرات مفتونة، وقد اعتادت أن تتأمَّله ساهمةً وهي تفتح فمها وترفع ملعقتها في الهواء. لقد عزَّزت خلال سبعين سنة شهرتَها كامرأة مدلَّلة، وقد اعتدنا تجنيبها الانفعالات القويَّةَ، مقدِّرين أنَّها لا تستطيع تحمُّلها، ولكنَّها أظهرت بمناسبة مرضك هذا طباعَ ثور مصارعة.

إنَّنا تافهون بالمقارنة مع أبعاد الكون ومسار التاريخ، وكلّ شيء سيستمرّ على حاله بعد موتنا وكأنَّنا لم نوجد على الإطلاق. ولكنَّك، بمقاسات إنسانيَّتنا الموقَّتة يا باولا، أهمّ بالنسبة إليّ من حياتي نفسها ومن مجمل حيوات الآخرين كلّهم تقريبًا. كلّ يوم يموت نحو سبعين مليون نسمة، ويولد عدد أكبر منهم، ومع ذلك، فإنَّك أنت وحدك التي وُلدت، وأنت وحدك التي قد تموتين. جدَّتك تصلّي من أجلك لربِّها المسيحيّ، وأنا أفعل ذلك أحيانًا لربَّة غامضة وباسمة تسكب الخيرات؛ ربّةٍ لا تعرف العقاب وإنَّما الغفران وحده. أكلّمها آملةً أن تسمعني من أعماق الزمن وتساعدَك. ليس لديَّ، وليس لدى جدَّتك جوابٌ. كلتانا ضائعة في هوّة الصمت هذه. إنَّني أفكّر في أمّ جدَّتي، وفي جدَّتي المتبصِّرة، وفي أمّي، وفيك، وفي حفيدتي التي ستولد في شهر أيَّار. إنَّها سلسلة متماسكة من الإناث تمتدّ حتى المرأة الأولى... حتى «الأمّ الكونيَّة». يجب عليّ أن أحرِّك كلّ هذه القوى الحيويَّة من أجل خلاصك. لست أدري كيف أصل إليك. إنَّني أناديك، لكنَّك لا تسمعينني، ولهذا أكتب إليك. لم أكن أنا التي فكَّرت في كتابة هذه الصفحات، فأنا لم أعد أتَّخذ مبادرات منذ عدَّة أسابيع. لكنَّها وكيلتي، التي ما إن سمعت بمَرضك حتى جاءت لتقف إلى جانبي وتقدِّم إليّ المساندة. وقد كان أوَّل إجراء أقدمتْ عليه هو

أنَّها سحبتني أنا وأمّي إلى مطعم حيث أغوتنا بخنوص مشويّ وزجاجة من نبيذ ريوخا، نزلا إلى معدتينا مثل الصخور، ولكن كانت لها فضيلةُ إعادة الضحكة إلينا، ثم فاجأتنا بعد ذلك في الفندق بعشرات الورود الحمراء، وبحلوى لوز أليكانتي وقطعة سجق ضخمة ـ هي نفسها التي ما زلنا نستخدمها حتى الآن في إعداد حساء العدس ـ، ثم وضعت رزمة أوراق صفراء مسطَّرة على ركبتي، وقالت:

ـ خذي، اكتبي وفرّجي عن نفسك. إذا لم تكتبي فستموتين غمًّا، يا مسكينتي.

ـ لا أستطيع الكتابة يا كارمن، هنالك شيء يقيّدني من الداخل، ربَّما لن أستطيع الكتابة أبدًا بعد الآن.

ـ اكتبي رسالة إلى باولا. سيساعدها ذلك على معرفة ما حدث خلال هذا الوقت الذي أمضته نائمة.

وهكذا، بدأت أُلهي نفسي في لحظات فراغ هذا الكابوس.

هل ستعرفين أنّي أمُّك عندما تستيقظين، يا باولا؟ أفراد الأسرة والأصدقاء لا يتخلُّون عنَّا، ففي الأمسيات يأتي زائرون كثيرون منهم، حتى يُخيَّل إليّ أنَّنا قبيلة من الهنود. بعضهم يأتون من بعيد، يمضون بضعة أيَّام هنا، ثم يعودون إلى حياتهم العاديَّة، بمن فيهم أبوك الذي يشرف على تشييد عمارة انتهى بناء نصفها في تشيلي، ولا بدَّ له من أن يعود إلى عمله. في هذه الأسابيع التي تقاسمنا فيها الألم في ممرّ الخطى الضائعة، استعدت ذكرى اللحظات الطيِّبة في شبابنا. لقد راحت تتلاشى الضغائن الصغيرة، وتعلَّمت كيف أقدِّر ميشيل كصديق

قديم ومخلص، وصرت أشعر تجاهه بتقدير من دون مبالغة في التأثّر، وأجد صعوبة في أن أتصوَّر أنَّني مارست وإيّاه الحبّ يومًا، أو أنَّني توصَّلت إلى مقته في نهاية علاقتنا. جاء صديقان وأخي خوان من الولايات المتَّحدة، والعمّ رامون من تشيلي، وجاء والد إرنستو مباشرة من أدغال الأمازون. أمَّا نيكولاس، فلا يمكنه السفر لأنَّ تأشيرته لا تتيح له العودة لدخول الولايات المتَّحدة، كما أنَّه لا يستطيع أن يترك زوجته سيليا وطفلهما وحدهما، وهذا أفضل في رأيي. فأنا أفضِّل ألَّا يراك أخوك في هذه الحالة التي أنت فيها. وهناك ويللي كذلك، الذي يجتاز العالم كلّ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع كي يمضي معي يومَ أحد نمارس فيه الحبّ كما لو أنَّنا نفعل ذلك لآخر مرَّة. أذهب لانتظاره في المطار حتى لا أضيِّع ولو دقيقةً واحدة معه؛ أراه يصل وهو يجرّ عربة حقائبه، ورأسه أعلى من رؤوس الآخرين، وعيناه الزرقاوان تبحثان عنِّي بلهفة بين الجموع، وابتسامته تشعّ حين يجدني هناك في الأسفل، نركض للقاء، وأحسّ بعناقه الضاغط يرفعني عن الأرض، وبرائحة سترته الجلديَّة، وباحتكاك ذقنه الخشن الذي لم يُحلَق منذ عشرين ساعة، وبشفتيه تسحقان شفتَيّ، ثم نقطع الطريق في سيَّارة أجرة وأنا متكوِّرة تحت ذراعه، وكفُّه ذات الأصابع الطويلة تتعرَّف إليّ، وصوته يهمس في أذني بالإنكليزيَّة: «ربَّاه، كم اشتقت إليك، كم أصبحت نحيلة، ما هذه العظام؟» ثم يتذكَّر فجأة سبب فراقنا، فيسألني بصوت آخر عنك، يا باولا. إنَّنا نعيش معًا منذ أربع سنوات، وما زلت أشعر تجاهه بتلك السيمياء غير المحدودة نفسها التي أحسست بها في اليوم الأوَّل. . . نوع من الجاذبيَّة القاهرة التي لوّنها الزمن بمشاعر أخرى، ولكنَّها ما زالت تشكِّل المادَّة الأوَّليَّة لعلاقتنا. لست أدري ممّا هي

مركَّبة، ولا كيف أحدِّدها، فهي ليست جنسيَّة فحسب، مع أنَّني ظننتها كذلك في أوَّل الأمر. هو يؤكِّد أنَّنا مكافحان يدفعهما نوع واحد من الطاقة، ولدينا حين نكون معًا، قوَّةُ قطار مندفع بأقصى سرعة، نستطيع الوصول إلى أيِّ هدف، ولا سبيل إلى قهرنا ونحن متَّحدان، هذا ما يقوله. كلانا واثق بأنَّ الآخر يحمي ظهره، ولا يخونه، ولا يكذب عليه، ويسانده في لحظات الضعف، ويساعده على تصويب الدقَّة حين يفقد الاتِّجاه. وأعتقد أنَّ ثمَّة مركبًا روحيًّا فيما بيننا أيضًا، ولو كنت أؤمن بتناسخ الأرواح لاعتقدت أنَّ كارمانا (قدرنا) هو أن نعود إلى اللقاء والحبّ في كلِّ حياة نعيشها، ولكنَّني لن أحدِّثك عن هذا الآن أيضًا، يا باولا، لأنِّي قد أشوِّشك. في هذه المقاطع المستعجلة تختلط الرغبة بالحزن، أتشبَّث بجسدك باحثةً عن اللذَّة والعزاء، وهما أمران يُحسن منحَهما هذا الرجلُ الذي عانى الكثير، ولكن صورتك، يا ابنتي، تخترقنا وأنت غارقة في سباتك القاتل، فتتحوَّل القبلات إلى جليد.

ـ لن تبقى باولا مع زوجها لوقت طويل، وربَّما لن تبقى معه أبدًا. إرنستو لم يكمل الثلاثين من عمره، ويمكن لزوجته أن تبقى مشلولة بقيَّة حياتها... لماذا أصابها هذا ولم يُصبني أنا التي عشت وأحببت كفايتي؟

فيقول لي ويللي:

ـ لا تفكِّري في هذه الأشياء. هناك أساليب كثيرة لممارسة الحبّ.

هذا صحيح، فللحبِّ مواردُ لا تنضب. في اللحظات القصيرة

التي في إمكانكما أن تمضياها معًا، يقبّلك إرنستو ويحتضنك على الرَّغم من مجموعة الأنابيب التي تحيط بك، ويتوسَّل إليك: «استيقظي يا باولا، إنَّني أنتظرك، أفتقدك، أحتاج إلى سماع صوتك. إنَّني ممتلئ بحبّك إلى حدِّ الانفجار، أرجوك أن تعودي». أتخيَّله في الليالي، حين يرجع إلى بيته المقفر وينام في ذلك السرير الذي كان ينام فيه معك وما زال يحتفظ بآثار كتفيك وردفيك. لا بدَّ من أنَّه يشعر بوجود ابتسامتك إلى جانبه، وببشرتك حين كان يداعبك، وبالصمت الذي كنتما تتقاسمانه بانسجام، وبالأسرار التي يهمس بها المحبُّون بصوت خافت. يتذكَّر تلك المناسبات التي كنتما تخرجان فيها للرقص حتى تسكرا بالأغنيات، وقد اعتاد كلٌّ منكما على خطوات الآخر حتى تبدوا كأنَّكما جسد واحد. يراك تتحرّكين برشاقة مثل قصبة. شعرك الطويل يلفُّكما معًا على إيقاع الموسيقى، وذراعاك النحيلتان تطوّقان عنقه، وفمك على أذنه. يا لظرافتك، يا باولا! يتذكَّر خفَّة ظلّك؛ انضباطَك الذهنيّ الصارم؛ سماحَتَك؛ دموعَك المضحكة في السينما وبكاءَك الجدّيَّ حين تثير آلامُ الآخرين مشاعرَك. يتذكّرك عندما اختبأت في أمستردام، وركض هو مثل مجنون يناديك صارخًا في سوق الأجبان، أمام نظرات الباعة الهولَّنديين المذهولة. يستيقظ مضمَّخًا بالعرق، يجلس على السرير في الظلام، يحاول الصلاة وتركيز أنفاسه بحثًا عن الطمأنينة، مثلما تعلَّم في مصارعة الإيكيدو اليابانيَّة. ربَّما يُطلّ من الشرفة لينظر إلى النجوم في سماء مدريد، ويكرّر القول لنفسه إنَّه لا يستطيع فقدان الأمل، وإنَّ كلّ شيء سينتهي على ما يرام، وإنَّك ستكونين إلى جانبه عمّا قريب. يشعر بالدم يصفع صدغيه، وبأوردته تخفق بشدَّة، وبالحرارة

في صدره. يختنق، وعندئذ يرتدي بنطاله ويخرج ليركض في الشوارع المقفرة، ولكن ليس هناك ما هو قادر على تسكين قلق الرغبة المحبِطة. إنَّ حبّكما لا يزال حديث العهد. إنَّه الصفحة الأولى في دفتر لا تزال بقيَّة صفحاته بيضاءَ. لقد قلت لي في إحدى المرَّات: إرنستو روح هرمة يا أمَّاه، ولكنَّه لم يفقد البراءة، فهو قادر على اللعب والدهشة، وعلى حبِّي وتقبيلي من دون محاكمات عقلانيَّة، مثلما يفعل الأطفال. هنالك شيء يتفتَّح فيّ مذ بدأت العيش معه. لقد تبدَّلت. إنَّني أرى الدنيا بطريقة أخرى وأحبّ نفسي أكثر من ذي قبل، لأنِّي أراها من خلال عينيه.

أمّا إرنستو، من جهته، فقد اعترف لي، في أشدّ لحظات الرعب، بأنَّه لم يكن يتصوَّر الإحساس بتهيّج الأحشاء الذي يشعر به حين يحتضنك، وأنَّك جزؤه الآخر الذي يكمله بإحكام، وأنَّه يحبّك ويشتهيك حتى أقصى حدود الألم، وأنَّه نادم على كلّ ساعة أمضيتماها بعيدَين، أحدكما عن الآخر. وقال لي وهو يرتعش: «وكيف كنت سأعرف أنَّ الوقت المُتاح لنا قصير إلى هذا الحدّ؟ إنَّني أحلم بها، يا إيزابيل. أحلم، من دون توقُّف، بأن أكون معها من جديد، وبأن نمارس الحبّ حتى فقدان الوعي. لا يمكنني أن أوضح لك هذه الصور التي تداهمني ولا يعرفها أحد سوانا، أنا وهي. غيابها هذا جمرةٌ تحرقني، لا أتوقَّف عن التفكير فيها لحظة واحدة. ذكراها لا تفارقني أبدًا، فباولا هي المرأة الوحيدة في الوجود بالنسبة إليّ. هي رفيقتي التي حلمت بها ووجدتها». كم هي غريبة الحياة، يا ابنتي! فأنا لم أكن بالنسبة إلى إرنستو حتى وقت قريب سوى حماة بعيدة ورسميَّة بعض الشيء، وها نحن اليوم

صديقان حميمان، لا يتورَّع عن البوح لي بأسراره.

المستشفى بناء ضخم تقطعه الممرَّات، ليس فيه ليل ولا تبدُّلٌ في درجات الحرارة على الإطلاق، فالنهار متوقِّف في المصابيح والصيف في المدافئ. يتكرَّر الروتين بدقَّة جنونيَّة. إنَّها مملكة الألم، فالناس يأتون إلى هنا ليتألَّموا. هذا ما ندركه جميعنا. إنَّ بؤس الأمراض يساوي بيننا، فلا وجود فيه لأغنياء أو فقراء. ما إن يجتاز أحدُنا عتباتِه حتى تتلاشى الامتيازات ونتحوَّل جميعنا إلى كائنات ذليلة.

جاء صديقي إيلديمارو في أوَّل رحلة جوِّيَّة سنحت له من كاراكاس خلال إضراب طويل الأمد للطيَّارين، وبقي معي أسبوعًا هنا. لقد كان هذا الرجل الرقيق بالنسبة إليَّ، طوال ما يزيد على عشر سنوات، مثلَ أخ، ودليلًا فكريًّا ورفيقَ درب في الأزمنة التي اعتبرت فيها نفسي منفيَّة. ما إن عانقته حتى راودني يقين عبثيّ. فقد خطر لي أنَّ حضوره سيحرِّكك، وأنَّ سماع صوته سيوقظك. استغلّ وضعه كطبيب ليستفسر من الاختصاصيِّين، ويرى التقارير والتحاليل والصور الشعاعيَّة. فحصك من قدميك حتى رأسك بتلك الدقَّة التي تميِّزه، وبالحنان الخاصّ الذي يشعر به نحوك. ولدى خروجه أمسكني من يدي وقادني للمشي معه حول المستشفى. كان البرد شديدًا.

ـ كيف ترى حال باولا؟

ـ سيِّئة جدًّا.

ـ هكذا هي الغيبوبة. إنَّهم يؤكِّدون لي أنَّها ستستعيد عافيتها تمامًا.

ـ إنَّني أحبّك كثيرًا، بحيث لا يمكنني أن أكذب عليك، يا إيزابيل.

ـ قل لي ما الذي تفكِّر فيه إذن. هل تعتقد أنَّها ستموت؟

وردّ عليّ بعد صمت طويل:

ـ أجل.

ـ أيمكن لها أن تبقى في حالة السبات وقتًا طويلًا؟

ـ آمل ألَّا يطول ذلك، ولكنَّه احتمال وارد أيضًا.

ـ وإذا هي لم تستيقظ أبدًا يا إيلديمارو؟

وبقينا صامتين تحت المطر.

أحاول عدم الوقوع في حالة عاطفيَّة تسبِّب لك الذعر يا ابنتي، ولكن عليك أن تغفري لي إذا ما انكسرتُ فجأة. أتراني أتردّى في الجنون؟ لم أعد أتعرَّف الأيَّام، ولا تهمّني أخبار العالم، فالساعات تمضي بتثاقل مؤلم في انتظار أبديّ. اللحظة التي أراك فيها قصيرةٌ جدًّا، ولكنَّني أُنفق الوقت وأنا أنتظر هذه اللحظة. مرَّتين في اليوم ينفتح باب العناية المشدَّدة وتنادي الممرِّضة المناوبة باسم المريض. عندما تقول «باولا» أدخل مرتجفة، لا مناصَّ من ذلك، فأنا لم أستطع الاعتياد على رؤيتك نائمة طوال الوقت، وعلى سماع غطيط جهاز التنفُّس، ورؤيةِ المجسَّات والإبر على جسدك، وقدميك الملفوفتين بالضمّادات وذراعيك الملطّختين ببقع بنفسجيَّة. وبينما أنا أمشي مسرعة في اتِّجاه سريرك، عبر الممرّ الأبيض الذي يطول إلى ما لانهاية،

أتوسَّل المساندة من ميمي وغراني والتاتا وعدد كبير من الأرواح الصديقة؛ أمشي متوسّلة أن تكوني أحسن حالًا، وألّا تكون حرارتك مرتفعة، وألّا يكون قلبك مضطربًا، وأن يكون تنفُّسك هادئًا، وضغطك عاديًّا. أحيِّي الممرِّضات ودون مانويل الذي تسوء حالته يومًا بعد يوم ولا يكاد يقوى على الكلام. أنحني فوقك وأضغط أحيانًا على أحد الأسلاك من دون قصد فيرنّ جرس الإنذار. أتفحَّصك من قدميك إلى رأسك. أتأمَّل الأرقام والخطوط على الشاشات والملاحظات المدوَّنة في الدفتر المفتوح على المنضدة عند طرف السرير، ولكنَّها أعمال لا طائل منها لأنِّي لا أفهم أيّ شيء. ومع ذلك، فإنَّك من خلال طقوس المراقبة القصيرة هذه تعودين إليّ، مثلما كنت وأنت طفلة حديثة الولادة، وتعتمدين عليّ بالكامل. أضع يدي على رأسك وصدرك وأحاول نقل الصحَّة والطاقة إليك. أتخيَّلك داخل هرم زجاجيّ، معزولة عن السوء في فضاء سحريّ يمكنك الشفاء فيه. أناديك بالألقاب التي أطلقتها عليك على امتداد حياتك وأقول لك ألف مرَّة إنَّني أحبّك يا باولا، أحبّك، وأكرِّر الكلمة مرَّة بعد مرَّة إلى أن يلمس أحدُهم كتفي معلنًا أنَّ الزيارة قد انتهت، ويجب عليّ أن أخرج. وفي الخارج، أجد أمِّي تنتظرني، فأشير إليها بإيماءة تفاؤل برفع إبهامي إلى أعلى، ونجرب كلتانا الابتسام، ولا نستطيع ذلك أحيانًا.

صمت. أبحث عن الصمت. لقد تغلغلت ضجَّة المستشفى والمدينة إلى عظامي. أحنُّ إلى سكينة الطبيعة، إلى هدوء بيتي في كاليفورنيا. المكان الوحيد البعيد عن الضجَّة في المستشفى هو المصلّى، أبحث هناك عن ملجأ للتفكير والقراءة والكتابة. أرافق أمِّي إلى الصلاة، حيث نكون وحدنا في الغالب، ويؤدِّي الكاهن شعائر

الصلاة من أجلنا وحدنا. هنالك مسيح نازف ومتوّج بالأشواك، يتدلّى فوق المذبح مُحاطًا بمرمر أسود، لا يمكنني النظر إلى جسده المعذّب البائس. لست أفهم في الطقوس الدينيّة، ولكنّني لكثرة ما سمعت الكلمات الشعائريّة، بدأت قوّة الأسطورة تهزّني: خبز ونبيذ. ثمر الأرض وثمر جهد الإنسان يتحوّلان إلى جسد المسيح ودمه. المصلّى يقوم وراء صالة العناية المشدّدة، وللذهاب إليه علينا الدوران حول المبنى كلّه. لقد قدّرت أنّ سريرك موجود في الجهة الأخرى من الجدار بالضبط، ويمكنني أن أوجّه أفكاري في خطّ مستقيم نحوك. أمّي تؤكّد أنّك لن تموتي، يا باولا. إنّها تناقش المسألة مع السماء مباشرة، تقول إنّك قد عشت في خدمة الآخرين، وإنّه ما زال في إمكانك القيام بأعمال خير كثيرة في هذه الدنيا، وإنّ موتك سيكون خسارة غير معقولة. إنّ الإيمان هديّة، فالربّ ينظر إلى عينيك وينطق اسمك، هكذا يختارك للإيمان. أمّا أنا، فقد أشار إليّ بإصبعه ليملأني بالشكوك. لقد بدأ قلقلي الروحي مذ كنت في السابعة من عمري، عندما تقدّمت يوم مناولتي الأولى عبر ممرّ الكنيسة وأنا أرتدي ثوبًا أبيض وأضع طرحة على رأسي، وأحمل سبّحة في يدي وشمعة مزيّنة بشريط ملوّن في يدي الأخرى. كنّا خمسين طفلة نمشي في صفّين تحت أنغام الأرغن وتراتيل كورال الراهبات المستجدّات. وكنّا قد تدرّبنا على الطقوس مرّات كثيرة، حتى إنّني كنت أحفظ عن ظهر قلب كلّ حركة عليّ القيام بها، ولكنّني أضعت الهدف من الطقس القدسيّ. كنت أعرف أنّ مضغ خبز القربان يعني الحكم المؤكّد على الفاعل بالغرق في قدور الجحيم، ولكنّني لم أعد أتذكّر لحظتئذ أنّني سأتلقّى جسد المسيح. ما إن دنوت من المذبح حتى انقصفت شمعتي من

منتصفها. انقسمت من دون أيّ سبب، وبقي القسم العلويّ منها متَّصلًا بالشعلة كأنَّه عنق بجعة ميِّتة، فأحسست بأنَّ الربّ في عليائه قد أشار إليّ من بين جميع رفيقاتي ليعاقبني على خطيئة ربَّما أكون قد نسيت الاعتراف بها في اليوم السابق. والحقيقة أنَّني كنت قد رتَّبت قائمة خطايا من الكبائر كي أؤثِّر في الكاهن، فلم أكن أرغب في أن أُضجره بأمور تافهة، كما كنت قد حسبت أيضًا أنَّني إذا ما توصَّلت إلى التكفير عن خطايا كبيرة قاتلة، حتى لو لم أكن قد ارتكبتها، فإنَّني سأنال الغفران بالجملة عن الصغائر العَرَضيَّة. اعترفت عن كلِّ ما يمكن أن يخطر في البال، مع أنَّني لم أكن أعرف معنى بعض تلك الخطايا: القتلِ؛ الفجورِ؛ الكذبِ؛ الزنى؛ ممارساتٍ خبيثة ضدَّ والدي؛ أفكارٍ نجسة؛ هرطقةٍ؛ حسدٍ... استمع إليَّ الكاهن بصمت ذاهل، ثم نهض متعجِّلًا، وأشار بيده إلى راهبة، وتهامس وإيَّاها لبعض الوقت، فأمسكتني من ذراعي وقادتني إلى حجرة المقدّسات. وهناك غسلت جسمي بالصابون وهي تتنهَّد، ثم أمرتني بأن أصلِّي «يا قدِّيسة مريم» ثلاث مرَّات. مصلَّى المستشفى يكاد لا يُضاء عند المساء إلَّا ببعض شموع النذور. يوم أمس، فاجأتُ هناك إرنستو وأباه. رأس كلٍّ منهما بين كفَّيه، وظهراهما العريضان مهزومان، فلم أتجرَّأ على الاقتراب منهما. إنَّهما متشابهان كثيرًا، فكلاهما ضخم وأسمر وراسخ، ولديهما ملامح عربيَّة، وطريقة في الحركة هي مزيج نادر من الرجولة واللباقة. بشرة الأب مدبوغة بالشمس، وشعره الأشهب قصير جدًّا، وفي وجهه تجاعيد عميقة كأنَّها جروح أحدثتها سكاكين، تتحدَّث عن مغامراته في الأدغال، وعن أربعين سنة عاشها مع الطبيعة. إنَّه يبدو صلبًا لا ينكسر، ولهذا تأثَّرت حين رأيته راكعًا على ركبتيه. لقد أصبح يرافق

ابنه مثل ظلِّه، لا يتركه وحده أبدًا، تمامًا مثل أمِّي التي لا تبتعد عنِّي. إنَّه يرافقه إلى دروس رياضة الإيكيدو، ويُخرجه للنزهة في الحقول لساعات طويلة، إلى أن يستنفدا قواهما. ويقوله له: «عليك أن تصرف طاقتك، فهذه هي الطريقة الوحيدة كيلا تنفجر». أمّا أنا، فيأخذني في أيَّام الصحو إلى الحديقة، ويجعلني أجلس ووجهي إلى الشمس ويطلب منِّي أن أغمض عيني وأشعر بالحرارة على بشرتي، وأسمع أصوات الطيور وخرير الماء وحركة المرور البعيدة لعلِّي أهدأ. ما إن علم بمرض كنَّته حتى طار من أعماق الأمازون ليكون إلى جوار ابنه. إنَّه لا يحبّ المدن ولا التجمُّعات الكبيرة، وهو يشعر بالاختناق في المستشفى، ويتضايق من الناس، يمضي ويجيء في ممرٍّ الخطى الضائعة بضجر حزين مثل ضَجَر حيوان حبيس في قفص. «أنتِ أشجع من أيِّ فحل بين الرجال يا إيزابيل»، هذا ما كان يقوله لي، وأنا أعرف أنَّ هذه هي أكبر ملاطفة يمكن أن تخطر في بال هذا الرجل المعتاد على قتل الأفاعي بمنجل.

يأتي أطبَّاء من مستشفيات أخرى لمراقبتك يا ابنتي، فهم لم يشهدوا من قبلُ حالةَ سبات معقَّدة مثل حالتك. لقد تحوَّلتِ إلى مرجع، وأخشى أن تكتسبي شهرة في نصوص المراجع الطبِّيَّة. لقد صفعك المرض، مثل الصاعقة، ولم يبخل في شيء. زوجك هو الشخص الوحيد المطمئنّ. أمّا نحن جميعنا، فيسيطر علينا الذعر، ولكنَّه هو أيضًا يتحدَّث عن الموت وعن احتمالات أخرى أسوأ من الموت.

يقول:

ـ لا معنى لأيّ شيء من دون باولا. ليس هناك ما يستحقّ الذكر. فمنذ أن أغمضت عينيها انزاح الضوء عن الدنيا. لا يمكن للربّ أن ينتزعها منّي، وإلّا فلماذا جمعني وإيّاها؟ ما زالت أمامنا حياة طويلة لنتقاسمها معًا! إنّه امتحان فظيع، ولكنّنا سنتمكّن من تجاوزه. إنّني أعرف نفسي جيّدًا، وأعرف أنّني خُلقت من أجل باولا، وهي خُلقت من أجلي، ولن أتخلّى عنها أبدًا. لن أحبّ سواها أبدًا. سأحميها وأُعنى بها إلى الأبد. ستحدث آلاف الأشياء، وربّما يفصل بيننا جسديًا المرضُ أو الموت، ولكنّنا سنلتقي ونكون معًا في الأبديّة. وأنا قادر على الانتظار.

ـ ستستعيد عافيتها تمامًا يا إرنستو، ولكن مرحلة النقاهة ستكون طويلة جدًّا، فتهيَّأْ لها. ستأخذها معك إلى البيت، وأنا واثقة بذلك. أيمكنك أن تتصوّر كيف سيكون ذلك اليوم؟

ـ هذا ما أفكّر فيه كلّ لحظة. سأصعد الطوابق الثلاثة وأنا أحملها بين ذراعيّ. سأملأ لها الشقّة بالأزهار...

لا شيء يخيفه. إنّه يعتبر نفسه رفيقَ روحك. وباستثناء شؤون الحياة والموت، فإنّه لا يشعر بالهلع لرؤية جسدك المشلول أو ذهنك الغائب. إنّه يقول لنا إنّه على تواصل مع روحك، وإنّك تستطيعين سماعه، وتشعرين به، وتنفعلين معه، وإنّك لست مجرّد نبتة مثلما تؤكّد الأجهزة الموصولة بك. الأطبّاء يهزّون أكتافهم متشكّكين، لكنّ الممرّضات يتأثّرن أمام هذا الحبّ العنيد، فيسمحن له أحيانًا بزيارتك في أوقات محظورة لأنّه ثبت لهنّ أنّه حين يمسك بيدك تتبدّل الإشارات التي تظهر على شاشات الأجهزة. ربّما كان في مقدور هذه الأجهزة

التي ترصد نبضات القلب أن تقيس زخم العواطف أيضًا.

يوم آخر من الانتظار، ويوم ينقص من الأمل. يوم آخر من الصمت، ويوم أقلّ من الحياة. الموت يمضي طليقًا في الممرّات، ومهمَّتي مشاغلته حتى لا يجد الطريق إلى بابك.

ـ كم هي الحياة طويلة ومضطربة، يا أمّاه!

فترد عليّ:

ـ يمكنك على الأقلّ أن تكتبيها كي تحاولي فهمها.

كان لبنان في سنوات الخمسينيّات بلدًا مزدهرًا؛ جسرًا بين أوروبا وإمارات العرب الغنيَّة؛ نقطةَ تقاطع طبيعيَّةً لعدَّة ثقافات؛ برجَ بابل تدور الأحاديث فيه بعشر لغات. كانت تجارة المنطقة كلّها ومضارباتُها المصرفيَّة تدفع ضريبتها لبيروت التي تصل إليها برًّا قوافلُ مثقلة بالبضائع، وتصل إليها جوًّا طائراتٌ من أوروبا تحمل آخر المستجدَّات، وتأتيها عن طريق البحر سفنٌ يتوجَّب عليها أن تنتظر في عرض البحر إلى أن يحين دورها للرسوّ في الميناء. نساء مبرقعات بالسواد يحملن حزمًا كبيرة ويجرّنَّ أبناءهنَّ ويَسرن مسرعات في الشوارع وهنَّ يخفضن أنظارهنَّ على الدوام، بينما الرجال الكسالى يتبادلون الأحاديث في المقاهي. حمير، جمال، حافلات مزدحمة، درّاجات ناريَّة، وسيَّارات تتوقَّف كلّها معًا عند إشارات المرور الضوئيَّة. رعاة يرتدون زيّ أسلافهم التوراتيِّين نفسَه ويجتازون الشوارع العريضة وهم يقودون قطعان أغنامهم إلى المذبح. صوت المؤذّن الحادّ ينطلق عدَّة مرَّات في اليوم من أعلى مآذن المساجد داعيًا إلى الصلاة،

ومشكِّلًا كورالًا مع أجراس الكنائس المسيحيَّة. في محالّ العاصمة التجاريَّة، تُعرَض أفضل بضائع الدنيا ولكنَّنا كنَّا نجد جاذبيَّة أكبر في الذهاب إلى الأسواق التقليديَّة، وهي متاهة من الأزقَّة الضيِّقة التي تحفّ بها متاجرُ لا حصر لعددها، حيث يمكن شراء أيّ شيء، بدءًا من البيض الطازج وحتى اللقى الأثريَّة الفرعونيَّة. آه، يا لرائحة تلك الأسواق! كلّ روائح الكوكب الأرضيّ تمرّ في تلك الشوارع المتعرِّجة: روائحُ المأكولات الرخيصة، والمقالي بدهن الخراف، والحلويات العجينيَّة، والجوز والعسل، والمجاري المكشوفة حيث تطفو القمامة والفضلات، ورائحة عرق الدواب، ودباغة الجلود، وعطور البخُّور والبتشولي النفَّاذة، والقهوة المغليَّة لتوّها مع حَبِّ الهال، وتوابل الشرق: القرفة والكمُّون والفلفل والزعفران... تبدو هذه الأسواق من الخارج تافهةً وبائسة، ولكن كلّ واحد منها يمتدّ إلى الداخل في سلسلة من الأفناء المغلقة، حيث تتلألأ المصابيح والصواني والأباريقُ المصنوعة من معادنَ غنيَّة، والمزيَّنةُ بنقوش خطِّيَّة. تغطِّي السجاجيدُ الأرض في عدَّة طبقات، أو تعلَّق على الجدران، أو تتراكم ملفوفةً في الأركان. وهناك أثاث من الخشب المزخرف والمرصَّع بالصَّدفَ أو العاج أو البرونز يختفي تحت أكداس من الشراشف والمداسات المطرَّزة. يخرج التجَّار للقاء الزبائن ويقودونهم بما يشبه الجَرَّ تقريبًا إلى داخل كهوف علي بابا تلك، المترعةِ بالكنوز، ويضعون تحت تصرُّفهم جفنات لغسل الأصابع بماء الورد، ويقدِّمون إليهم فناجين من القهوة الداكنة المحلّاة؛ أفضل قهوة في العالم. وقد كانت المساومة جزءًا أساسيًّا من عمليَّة الشراء، وهذا ما فهمته أمِّي منذ اليوم الأوَّل. فعند سماعها السعر الافتتاحيّ، كانت تطلق صرخة

ذعر وترفع يديها إلى السماء وتتَّجه نحو المَخرج بخطوات حاسمة، فيمسكها البائع من ذراعها ويسحبها إلى الداخل متعلّلًا بأنَّها عمليّة البيع الأولى هذا النهار، وأنَّها مثل أخته ونجلب له الحظّ، ولهذا فإنَّه مستعدٌّ لسماع رأيها على الرَّغم من أنَّ السلعة فريدة في الحقيقة، وسعرَها أكثرُ من عادل. فتعرض أمّي بهدوء نصف السعر الذي طلبه، بينما نخرج نحن، بقيَّةُ أفراد الأسرة، متدافعين وقد احمرَّت وجوهنا خجلًا. فيضرب صاحب الدكَّان صدغيه بقبضتيه متَّخذًا الله شاهدًا على ما يقول. «أتريدين لي الإفلاس يا أختي؟ لديَّ أولاد، وأنا رجل نزيه مستقيم...» وبعد تناول ثلاثة فناجين قهوة وقضاء نحو ساعة في المساومة، تنتقل السلعة من مالك إلى آخر. ويبتسم التاجر راضيًا، وتنضمّ أمّي إلينا في الشارع وهي واثقة بأنَّها حقَّقت صفقة رابحة. وفي بعض الأحيان، كانت تجد السلعة نفسها تُباع في دكاكين أخرى بسعر أرخص بكثير ممَّا دفعته ثمنًا لها، فكان ذلك يسمّم يومها كلّه، ولكنَّه لا يخلِّصها من إغراءات العودة إلى الشراء. وكان أن ساومتْ بهذه الطريقة نفسها لشراء قماش من أجل فستان زفافي في أثناء إحدى رحلاتنا إلى دمشق. كنت قد أكملت للتوّ أربعة عشر عامًا من عمري، ولم أكن أُقيم أيّ علاقة بشخص من الجنس الآخر، باستثناء علاقتي بأخَوَيَّ وزوج أمّي وصبيٍّ بدين هو ابن تاجر لبنانيّ اعتاد زيارتي بين الحين والآخر تحت مراقبة والديه ووالدَيّ. وقد كان غنيًّا إلى درجة أنَّه يملك درَّاجة ناريَّة وسائقًا لها. ففي أوج حمّى درّاجات الفيسبا الإيطاليَّة، ضايق أباه بإلحاحه، إلى أن جعله يشتري له واحدة، ولكنَّ الأب لم يشأ المجازفة بتعريض ابنه لحادث اصطدام بتلك الآليَّة الانتحاريَّة، فعيَّن له سائقًا يقود الدرَّاجة ويحمله خلفه. وقد كنت

أفكِّر، في أيِّ حال، في الدخول في سلك الراهبات لأداري قناعتي بعدم قدرتي على الحصول على عريس، وهذا ما أوضحته لأمّي ونحن في السوق الدمشقيَّة، ولكنَّها قالت بإصرار: حماقات، فهذه فرصة فريدة للحصول على ثوب زفافك. وخرجنا من السوق ومعنا أمتار من قماش الأرغنزة الأبيض المطرّز بخيوط الحرير، إضافة إلى عدَّة شراشف من أجل جهاز عرسي المستقبلي، وقد بقيت هذه الأشياء طوال ثلاثة عقود، واجتازت ما لا حصر له من الرحلات والمنافي.

لم تكن تلك المشتريات حافزًا كافيًا لجعل أمّي تشعر بالسعادة في لبنان، فقد كانت تعيش بإحساسِ مَن هي سجينة في جلدها نفسه. فالنساء لا يستطعن الخروج وحدهنّ، لأنَّ يدًا رجوليَّة غير محترمة قد تمتدّ للإساءة إليهنَّ في أيِّ مكان مزدحم. وإذا ما حاولن الدفاع عن أنفسهنَّ وجدن في مواجهتهنَّ كورالًا من السخرية العدوانيَّة. على بعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام من البيت، كان يوجد شاطئ فسيح تغطِّيه رمال بيضاء ومياه دافئة تغري بتبريد الجسد في أصائل آب اللاهبة. فكان علينا أن نخرج للسباحة مع الأسرة كلّها، مشكِّلين جماعةً مغلقة كي نحمي أنفسنا من أيدي السبّاحين الآخرين المداعبة. وكان من المستحيل الاستلقاء على الرمال، لأنَّ ذلك يعني استدعاء المصيبة؛ فعلينا أن نهرع بسرعة بعد الخروج من الماء لنحتمي في خيمة نستأجرها لهذا الغرض.

إنَّ الحَرَّ، والاختلافَ الثقافيّ، والجهدَ المبذول للتحدُّث بالفرنسيَّة، والغمغمةَ العربيَّة، وبهلوانيَّاتِ تدبير الميزانيَّة، والابتعادَ عن الأصدقاء والأسرة، كانت تُثقل على أمّي وتضايقها.

كان لبنان قد تدبَّر أموره للعيش بسلام وازدهار على الرَّغم من الصراعات الطائفيَّة التي تمزِّق المنطقة منذ قرون. ومع ذلك، فإنَّ تيَّار القوميَّة العربيَّة الصاعد بعد أزمة قناة السويس أحدث انقسامات عميقة بين السياسيين ولم تعد المصالحة ممكنة. ووقعت اضطرابات عنيفة بلغت ذروتها في حزيران ١٩٥٨ بإرسال الولايات المتَّحدة أسطولها السادس. ونحن الذين كنَّا نقيم بالطابق الثالث من بناء يقع عند ملتقى الحيّ المسيحي والحيَّين الإسلامي والدرزي كنَّا ننعم بموقع ممتاز لمراقبة الاشتباكات. لقد طلب منَّا العمّ رامون أن نوزِّع الأثاث على النوافذ لنتَّقي الرصاص الطائش، وحظَّر علينا التفرُّج من الشرفة، بينما كانت أمِّي تبذل جهودًا مضنية لإبقاء حوض الماء مملوءًا والحصول على أغذية طازجة. ففي أسوأ أسابيع الأزمة، فُرض حظر التجوُّل عند الغروب، ولم يكن يُسمح إلَّا للعسكريِّين وحدهم بالتجوُّل في الشوارع، ولكن هذا الوقت بالذات كان وقت الاسترخاء، إذ تخرج ربَّات البيوت للمساومة على البضائع في السوق، ويقوم الرجال بممارسة أعمالهم. وكنَّا نشاهد من شرفة بيتنا اشتباكات شرسة بالرصاص بين جماعات متناحرة تستمرّ معظمَ النهار، ولكن ما إن يُخيِّم الظلام حتى تتوقَّف الرمايات بما يشبه السحر، وينسلَّ أناس في كنف الليل للمتاجرة مع أعدائهم، وتنتقل حزم بضائع غامضة من يد إلى أخرى. في تلك الأيَّام، رأينا عمليَّات جَلد المعتقلين المقيَّدين بأعمدة خشبيَّة وصدورهم مكشوفة في مركز الدرك، ورأينا جثَّة رجل مذبوح يغطِّيها الذباب، وقد بقيت معروضة في الشارع يومين لإخافة الدروز. وشهدنا أيضًا عمليَّة الثأر، حين تركت امرأتان محجَّبتان في الشارع حمارًا محمَّلًا بالجبن والزيتون. فسارع الجنود كما هو متوقَّع إلى

مصادرة الحمار، ثم سمعنا بعد قليل دويَّ انفجار حوّل زجاج النوافذ إلى فتات، وغُطّيَ فناء الثكنة ببقع من الدم والأشلاء الآدميَّة. وعلى الرَّغم من مظاهر العنف هذه، فقد تولَّد لديَّ انطباعٌ بأنَّ العرب لم يأخذوا الإنزال الأميركي على محمل الجدّ. في الواقع، كان العمّ رامون قد تمكَّن من الحصول على تصريح، وأخذنا جميعًا لرؤية السفن الحربيَّة وهي تدخل الخليج ومدافعها جاهزة لإطلاق النار. كانت هناك حشود من الفضوليِّين على الأرصفة ينتظرون الغزاة للمتاجرة معهم والحصول على تصاريح للصعود إلى حاملات الطائرات. فتحت تلك المسوخ الفولاذيَّة أشداقها وتقيَّأت قواربَ محمَّلة بجنود المارينز المسلَّحين حتى الأسنان، فاستُقبلوا على الشاطئ بعاصفة من التصفيق. وما كاد الجنود المعتدون يطأون اليابسة حتى وجدوا أنفسهم محاطين بجموع مرحة تحاول بيعهم كلّ أنواع البضائع، ابتداء من المظلّات، وحتى الحشيش وواقيات مطّاطيَّة لمنع الحمل من صنع اليابان لها شكل أسماك متعدِّدة الألوان. وأظنّ أنَّه لم يكن يسيرًا على الضبَّاط الحفاظ على أرواح جنودهم المعنويَّة القتاليَّة ومنعهم من التآخي مع العدوّ. وفي اليوم التالي، في حلبة التزلُّج على الجليد الاصطناعيّ، كان اتِّصالي الأوَّل بالقوَّة العسكريَّة الأعظم في العالم. فقد تزلجت طوال فترة بعد الظهر مع مئات الشبَّان ذوي الملابس العسكريَّة والشعور الحليقة، والذين يزيِّنون عضلاتهم بالوشوم، ويشربون البيرة ويتحدَّثون برطانة حلقيَّة تختلف تمامًا عن اللغة التي كانت مس ساينت جون تعلِّمنا إيَّاها في المدرسة البريطانيَّة. لقد استطعت التواصل معهم بعض الشيء، ولكن لم يكن لدينا الكثير لنقوله، حتى ولو كنَّا نتحدَّث اللغة نفسها. في ذلك اليوم المشهود، تلقَّيت القبلة الأولى على فمي، وكان

ذلك كمن يعضّ ضفدعًا تنبعث منه رائحة اللبّان والبيرة والتبغ. لست أذكر من هو الذي قبّلني لأنّي لم أستطع تمييزه من الآخرين، فجميعهم كانوا يبدون لي متشابهين، ولكنّني أتذكّر أنّني قرّرت منذ تلك اللحظة استكشاف مسألة القبلات. وكان عليّ، لسوء الحظّ، أن أنتظر طويلًا قبل أن أوسّع معارفي في هذا الشأن، لأنّه ما إن تبيّن للعمّ رامون أنّ جنود المارينز الطامعين بالفتيات قد اجتاحوا المدينة، حتى ضاعف مراقبته وأبقاني حبيسة البيت مثل زهرة الحريم.

كان من حسن حظّي أنّ مدرستي هي الوحيدة التي لم تغلق أبوابها عند بدء الأزمة. أمّا أخواي، فتوقّفا، في المقابل، عن الذهاب إلى الدروس، وأمضيا شهورًا من الضجر القاتل وهما حبيسا البيت. لقد نظرت مس ساينت جون بازدراء إلى هذه الحرب التي لا يشارك فيها الإنكليز، وفضّلت تجاهلها. كان الشارع المقابل للمدرسة مقسومًا إلى قسمين تفصل بينهما صفوف من أكياس الرمل، يترصّد وراءها الخصوم المتنازعون. كان مظهرهم يبدو مريعًا في الصور التي تنشرها لهم الصحف، وكانت أسلحتهم مرعبة، لكن رؤيتهم من أعلى المبنى وهم وراء متاريسهم تجعلهم يبدون مثل مصطافين يقومون بنزهة. فبينما هم وراء أكياس الرمل، كانوا يستمعون إلى المذياع، ويطبخون طعامهم، ويستقبلون زيارات نسائهم وأطفالهم، ويقتلون الساعات في لعب الورق أو الداما وفي نوم القيلولة. وقد يتّفقون مع عدوّهم في بعض الأحيان للخروج بحثًا عن الماء أو السجائر. وفي أحد الأيّام، اعتمرت مس ساينت جون الباسلة قبّعتها الخضراء التي تستخدمها في المناسبات الكبرى، وخرجت لتتفاوض بعربيّتها غير الواضحة مع أولئك الأشخاص الذين يعرقلون المرور في الشارع، طالبةً منهم أن يسمحوا

للحافلة المدرسيَّة بالمرور، بينما كانت الطالبات القليلات المتبقِّيات والمعلِّمات المذعورات يراقبنها من السطح. لست أدري ما هي الحجج التي استخدمتها، لكنَّ السيَّارة واصلت العمل في مواعيدها الدقيقة إلى أن أصبحت تأتي من دون تلميذات، وكنت أنا الوحيدة التي واظبت على المجيء فيها. كنت أحترس جيِّدًا في البيت من القول إنَّ آباء آخرين قد سحبوا بناتهم من المدرسة، ولم أذكر على الإطلاق المفاوضات اليوميَّة التي يقوم بها السائق مع رجال المتاريس ليسمحوا لنا بالمرور. لقد واظبت على الدروس إلى أن أقفرت المدرسة، واضطرت مس ساينت جون إلى الطلب منِّي ألَّا أعود إلى المدرسة لبضعة أيَّام، ريثما يتمّ التوصُّل إلى حلٍّ لهذا الحادث الفظّ، ويعود الناس إلى رشدهم. في أثناء ذلك، كان الوضع قد أصبح عنيفًا جدًّا، ونصح ناطق باسم الحكومة اللبنانيَّة الدبلوماسيِّين بإخراج أُسرهم من البلاد لأنَّ الحكومة لا تستطيع ضمان سلامتهم. وبعد عدَّة اتِّصالات سرِّيَّة، وضعني العمّ رامون مع أخوَيَّ في واحدة من آخر الرحلات الجوِّيَّة في تلك الأيَّام. كان المطار أشبه بخليَّة تعجّ برجال يصارعون لمغادرة البلاد، وكان بعضهم يحاول أخذ زوجته وأبنائه في الشحن، فهو لا يعتبرهم بشرًا كاملين ولا يستطيع أن يتفهَّم ضرورة شراء تذاكر سفر لهم. وما إن ارتفعت الطائرة عن المدرج حتى استعدّت امرأة متَّشحة بالسواد من رأسها حتى قدميها لطهو الطعام في ممرِّ الطائرة على موقد كيروسين وسط ذعر المضيفات الفرنسيَّات وفزعهنّ.

بقيت أمِّي في بيروت مع العمّ رامون بضعة شهور أخرى إلى أن تمَّ نقلهما إلى تركيا. وفي أثناء ذلك، عاد المارينز الأميركيُّون إلى حاملات طائراتهم من دون أن يخلِّفوا أثرًا، حاملين معهم الدليلَ على

قبلتي الأولى. وهكذا انطلقنا في رحلة العودة إلى الطرف الآخر من العالم، إلى بيت جدّي في سنتياغو.

كان عمري آنذاك خمس عشرة سنة، وكانت تلك هي المرّة الثانية التي أبتعد فيها عن أمّي. أمّا المرّة الأولى، فكانت عند لقائها العمّ رامون في ذلك الموعد السرّيّ في شماليّ تشيلي، حيث كرّسا غراميّاتهما. ولم أدرِ حينئذ أنّنا سنعيش منفصلتين معظم حياتينا. وقد بدأت بكتابة الرسالة الأولى إليها وأنا في الطائرة، وواصلت عمل ذلك كلّ يوم تقريبًا على امتداد سنوات طويلة، وفعلت هي الشيء نفسه. وكانت كلّ واحدة منّا تجمع هذه الرسائل في سفط، وفي نهاية كلّ سنة نربطها بشريط ملوّن ونحفظها في أعلى الخزانة. وقد جمعنا بهذه الطريقة أكوامًا من الصفحات. لم نعد إلى قراءتها قطّ، ولكنّنا نعلم بأنَّ سجلَّيْ حياتينا في منجًى من أمراض الذاكرة.

كان التعليم الذي تلقَّيته حتى ذلك الحين مشوّشًا، فقد تعلَّمت شيئًا من الإنكليزيَّة والفرنسيَّة، وحفظت غيبًا جزءًا لا بأس به من الكتاب المقدَّس، ودروس الدفاع عن النفس التي لقَّنني إيَّاها العمّ رامون، ولكنَّني كنت أجهل أدنى المبادئ اللازمة للعيش في هذا العالم. وعندما وصلت إلى تشيلي، خطر لجدّي أنَّه يمكنني، بقليل من المساعدة، أن أُنهي تعليمي المدرسيّ المتوسّط خلال سنة واحدة، وقرَّر أن يعلِّمني بنفسه مادَّتَيِ التاريخ والجغرافية. ثم اكتشف أنَّني لا أُتقن الحساب، فأرسلني إلى دروس خصوصيَّة في مادَّة الرياضيَّات. كانت المعلِّمة كهلة ذات شعر مصبوغ بلون الكهرمان، تنقصها عدَّة

أسنان، وتسكن بعيدًا في بيت متواضع مزيَّن بهدايا طلَّابها على امتداد خمسين عامًا من العمل التعليميّ، ويعبق برائحة الملفوف المسلوق المستقرَّة. ومن أجل الوصل إلى بيتها، كان لا بدَّ لي من التعلُّق بحافلتين على التوالي. ولكنَّ الذهاب إليها كان يستحقّ العناء، فقد استطاعت تلك المرأة حشوَ رأسي، لاجتياز الامتحان، بما يكفي من الأرقام التي تلاشت من ذاكرتي إلى الأبد بعد الانتهاء منه. إنَّ الصعود إلى حافلة نقل عامّ في سنتياغو يمكن له أن يكون مغامرة خطرة تتطلَّب قوَّة عريكة ورشاقة بهلوان. فالحافلة لم تكن تمرّ في موعد محدَّد على الإطلاق، بل لا بدَّ من انتظارها ساعات، وهي تأتي مزدحمة وتتمايل على الدوام، وعدد من الركَّاب يتعلَّق ببابها. وقد ساعدتني تربيتي الرواقيَّة ومفاصلي الليِّنة على اجتياز تلك المعارك اليوميَّة. كنت أشارك في الدروس مع خمسة طلَّاب آخرين، وكان أحدهم يجلس إلى جانبي دائمًا، ويعيرني دفاتره ويرافقني حتى موقف الحافلة. وبينما كنت أنتظر وإيَّاه تحت الشمس أو المطر، كان يستمع صامتًا إلى حكاياتي المبالَغ فيها عن رحلات إلى أماكن لا يمكنني تحديدها على الخريطة، ولكنَّني كنت أبحث عن أسمائها في الموسوعة البريطانيَّة التي يملكها جدِّي. ولدى وصول الحافلة، كان يساعدني على الصعود بين العنقود البشريّ المتعلِّق بدَرَج الباب وهو يدفعني بكلتا يديه من مؤخّرتي. وفي أحد الأيَّام دعاني إلى السينما. فقلت لجدِّي إنَّني سأتأخَّر عند المعلِّمة، وذهبت مع الفتى العاشق إلى إحدى صالات الأحياء، حيث شاهدنا فيلم رعب. وعندما أطلّ مسخُ البحيرة برأسه المرعب الذي يشبه رأس حرذون معمّر على بعد سنتمترات قليلة من فتاة تسبح ساهية، أطلقتُ صرخة ذعر فاستغلَّ هو الفرصة ليمسك بيدي، وأنا أعني الفتى وليس

الحرذون بالطبع. وقد غامت بقيّة الفيلم أمام ناظرَيّ، لأنّي لم أعد أهتمّ بأنياب الحيوان الزاحف العملاق ولا بمصير الشقراء الحمقاء التي تسبح في تلك المياه، وأصبح اهتمامي مركّزًا في دفء ورطوبة اليد الغريبة التي تداعب يدي بحسّيّة تشبه حسّيّة عضّ أذن حبيبي في لاباز، وأكثر ألف مرّة من حسّيّة القبلة التي سرقها جنديّ أميركيّ في حلبة التزلّج على الجليد في بيروت. وصلت إلى بيت جدّي منتشيةً وواثقة بأنّني قد وجدت رجل حياتي، وبأنّ تشابك اليدين ذاك هو خطوبة رسميّة. لقد سمعت يومًا صديقتي إليزابيث في المدرسة في لبنان تقول إنّه يمكن للفتاة أن تحبل بمجرّد اللعب في بركة المسبح مع شابّ، وقد راودتني الشكوك، بالطبع، في أنّ ساعة من تبادل التعرُّق اليدويّ سيكون لها مفعول مماثل. أمضيت تلك الليلة مسهّدة أتصوّر حياتي القادمة وأنا متزوّجة منه، وأنتظر بجزع درس الرياضيّات القادم. ولكن صديقي لم يحضر إلى بيت المعلّمة في اليوم التالي. وبقيت طوال الدرس أراقب الباب مغمومة، ولكنّه لم يأتِ في ذلك اليوم، ولا طوال ذلك الأسبوع، ولا في أيّ يوم آخر على الإطلاق، فقد تلاشى بكلّ بساطة كأنّه دخان. ومع مرور الوقت، استعدت توازني من أثر ذلك الهجران المذلّ، ولم أعد إلى التفكير في ذلك الشابّ لسنوات طويلة. وقد خُيّل إليّ أنّني عدت إلى رؤيته بعد اثنتي عشرة سنة من ذلك، يوم جرى استدعائي إلى مستودع الجثث للتعرُّف إلى جثّة والدي. لقد تساءلت مرّات ومرّات عن سبب اختفائه المفاجئ. ولكثرة ما فكّرت في الأمر، توصّلت إلى نتيجة قاسية، ولكنّني أفضّل عدم مواصلة التفكير في ذلك، لأنّ العشّاق يكتشفون يومًا أنّهم أخوة في المسلسلات التلفزيونيّة وحدها.

أحد الأسباب التي جعلتني أنسى ذلك الحبّ الخاطف، هو أنّني تعرَّفت إلى شابٍّ آخر. وهنا، يا باولا، يدخل أبوك في القصَّة. لقد كان لميشيل جذورٌ إنكليزيَّة. إنَّه نتاج إحدى عائلات المهاجرين الذين وُلدوا في تشيلي، وعاشوا فيها منذ أجيال، وما زالوا مع ذلك يشيرون إلى إنكلترا باعتبارها home، ويقرأون صحفًا إنكليزيَّة بعد أسابيع من صدورها، ويحافظون على أسلوب في الحياة وعلى قواعد اجتماعيَّة من القرن التاسع عشر، تعود إلى الزمن الذي كانوا فيه مواطني إمبراطوريَّة عظيمة، ولكنَّها أمور لم تعد تُتَّبع حتى في قلب لندن نفسها. لقد كان جدّك لأبيك يعمل في شركة أميركيَّة لاستخراج النحاس، في قرية في شماليّ تشيلي، وهي قرية صغيرة جدًّا وتافهة إلى درجة أنَّها نادرًا ما تثبت في الخرائط. وقد كان مخيَّم الأميركيين يتألَّف من نحو عشرين بيتًا محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة، وكان ساكنوه يحاولون قدر الإمكان العيش وفق أسلوب الحياة في مدنهم الأصليَّة، فيأتون بمكيِّفات الهواء، وبالمياه المعبَّأة في زجاجات، وبتشكيلة واسعة من كاتالوغات البيع ليوصوا على كلِّ شيء من الولايات المتَّحدة، بدءًا من علب الحليب المكثَّف حتى أثاث الشرفات. وكانت كلّ أسرة تزرع حديقة بيتها بإصرار، على الرَّغم من حدّة الشمس والجفاف. وكان الرجال يلعبون الغولف على الأرض الرمليَّة، والنساء يتنافسن في مسابقات تنسيق الأزهار وصنع الحلوى. وفي الجهة الأخرى لسياج الأسلاك الشائكة، كان يعيش العمَّال التشيليُّون في صفوف من الأكواخ، حيث الحمَّامات مشتركة، وحيث لا وجود لأيّ تسلية سوى ميدان للعب كرة القدم مخطَّط بعصًا على أرض الصحراء القاسية، وحانة خارج المعسكر يسكرون فيها في نهاية الأسبوع. ويُقال إنَّه كان

يوجد ماخور كذلك، ولكنّني لم أعثر له على أثر حين ذهبت للبحث عنه، وربّما كان السبب في ذلك أنّني كنت أنتظر أن أجد مصباحًا أحمر على بابه، في حين أنّه كان من دون شكّ كوخًا آخر مثلَ بقيّة الأكواخ. لقد وُلد ميشيل وعاش سنواته الأولى في ذلك المكان، محميًّا من كلّ الشرور، في براءة تضاهي براءة جنّة عدن، إلى أن أرسلوه إلى القسم الداخليّ في مدرسة بريطانيّة وسط البلد. وأظنّ أنّه لم تكن لديه فكرة واضحة عن أنّه موجود في تشيلي إلّا بعد أن بلغ سنّ ارتداء السراويل الطويلة. أمّا أمّه، التي نتذكّرها جميعنا باسم غراني، فكانت ذات عينين زرقاوين وقلب خالٍ من الدناءة. كانت حياتها تدور ما بين المطبخ والحديقة، وتفوح منها رائحة الخبز الطازج، والزبدة، ومربّى الخوخ. وبعد سنوات من ذلك، عندما تخلّت عن أحلامها، أصبحت تنبعث منها رائحة الكحول، ولكنّ قليلين هم الذين أحسّوا بذلك، لأنّها كانت تحتفظ بمسافة حذرة وتغطّي فمها بمنديل عندما تتكلّم، ولأنّكِ أنت، يا باولا أيضًا، وقد كنت في السنة الثامنة أو التاسعة من عمرك، كنت تخبّئين زجاجات الكحول الفارغة كي لا يكتشف سرّها أحدٌ. أمّا والد ميشيل، فكان رجلًا طيّبًا، أسمر البشرة، له مظهر أندلسيّ، ولكن كانت تجري في عروقه دماء ألمانيّة، وكان فخورًا بذلك، وقد ربّى في طباعه فضائلَ يعتبرها توتونيّة، وتمكّن من جعل نفسه نموذجًا للرجل الشريف والمتسلّط والجافّ. لم يكن يلمس زوجته في مكان عام، ولكنّه يدعوها young lady، وتلمع عيناه حين ينظر إليها. وقد أمضى ثلاثين عامًا وهو يعمل في المخيّم الأميركي، وكسب في أثناء ذلك ثروة لا بأس بها من الدولارات، وتقاعد وهو في الثامنة والخمسين وانتقل إلى العاصمة، حيث شيّد بيتًا

إلى جوار ملعب الغولف في أحد النوادي. أمّا ميشيل، فترعرع بين جدران مدرسة للأولاد، مكرِّسًا نفسه للدراسة وألعاب الرياضة الرجوليَّة بعيدًا عن أمّه، وهي الوحيدة التي كان في إمكانها تعليمه كيفيَّة التعبير عن عواطفه. لم يكن يتبادل مع أبيه إلّا عبارات الخُلق الحسن وبعض أدوار الشطرنج في الإجازات. عندما تعرَّفتُ إليه، كان قد أتمَّ للتوّ العشرين من عمره، وكان يدرس في الفصل الأوَّل من السنة الأولى للهندسة المدنيَّة، ويقود درَّاجة ناريَّة، ويعيش في شقَّة مع خادمة نعتني به كولد مدلَّل، ولم يضطرّ يومًا إلى غسل جوربيه أو قلي بيضة. كان فتًى طويل القامة، رشيقًا، شديد النحول، له عينان واسعتان بلون السكَّر المذاب، وكان يبتسم حين يكون عصبيًّا. لقد تعارفنا من خلال إحدى الصديقات، وجاء في أحد الأيّام بحجَّة إعطائي درسًا في الكيمياء، وطلب على الفور الإذن من جدّي رسميًّا ليأخذني إلى الأوبرا. ذهبنا لرؤية أوبرا مدام بَتَر فلاي، وقد كنت أفتقر تمامًا إلى أيّ تربية موسيقيَّة، فظننت أنَّ العمل عرض ساخر، وضحكت مقهقهة حين رأيت وابلًا من الأزهار البلاستيكيَّة يهطل من السقف على سيِّدة بدينة تغنِّي بملء رئتيها بينما هي تشقّ بطنها بسكِّين أمام ابنها، وهو صبيّ مسكين معصوب العينين ويحمل رايتين في كلتا يديه. وهكذا بدأت بيني وبين ميشيل غراميَّاتٌ بطيئة جدًّا وعذبة ستستمرّ سنوات طويلة قبل أن تُستهلَك، لأنَّ ميشيل كان في حاجة آنذاك إلى نحو ستّ سنوات في الجامعة، ولم أكن أنا قد أنهيت المدرسة بعد، وقد انقضت عدَّة شهور قبل أن يمسك أحدنا يد الآخر في حفلة موسيقيَّة من حفلات يوم الأربعاء، ومضى أكثر من سنة قبل أن نتبادل القبلة الأولى.

وقد ضحك جدّي حين أعلنت أخيرًا أنّنا متحابّان، وقال:

ـ وهذا الفتى يُعجبني، لقد جاء لتحسين السلالة.

أمسك بك الموتُ، يومَ الاثنين، يا باولا. حضر وأشار إليك، ولكنّه وجد نفسه وجهًا لوجه مع أمّك وجدّتك فتراجع هذه المرّة. لم يُهزَم، وما زال يطوف حولك مهمهمًا بحفيف أسماله القاتمة وطقطقة عظامه. لقد ذهبتُ إلى الجانب الآخر بضع دقائق، والحقيقة أنّ أحدًا لا يعرف كيف، ولا لماذا رجعت. لم نَرَك قطّ في حالة أسوأ ممّا كنت عليه وقتئذ، فقد كنت تتّقدين بالحمّى، وكانت تخرج من صدرك خرخرة مرعبة، ويطلّ من عينيك بياضٌ يظهر من خلال جفونك نصف المغمضة، ثم انخفض ضغطك فجأة إلى الصفر، وبدأ صفير الإنذار يصدر عن أجهزة المراقبة، وغصّت القاعة بالناس، وكانوا جميعهم يحيطون بك مشغولين، فلم ينتبهوا لوجودنا. وهكذا كنت أنا وجدّتك حاضرتين حين بدأت الروح تغادر جسدك، بينما هم يحقنونك بالعقاقير وينفخون فيك الأوكسجين، ويحاولون إعادة قلبك المجهَد إلى العمل. أحضروا جهازًا وبدأوا يوجّهون إليك صدماتٍ كهربائيّة. شحناتٌ كهربائيّة رهيبة كانت توجّه إلى صدرك فتجعلك تطفرين في السرير. سمعنا نداءات آمرة، وأصواتًا هائجة، وركضًا مضطربًا، وحضر أطبّاء آخرون معهم أجهزة ومحاقن مختلفة. من يدري كم من الدقائق الأبديّة مرّت وبدت مثل ساعات طويلة. لم نكن نستطيع رؤيتك، فقد كانت تحجبك أجساد من يُعنون بك، ولكنّنا استطعنا أن نُدرك غرقك بوضوح وأن نسمع زفرة الموت الظافرة. وحلّت لحظة

تجمَّد فيها الهيجان المحموم فجأة، مثلما تتجمَّد الأشياء في صورة فوتوغرافيَّة. وسمعت عندئذ صوتَ أمّي الهامس يطلب منك أن تناضلي، ويأمر قلبك بأن يواصل الخفقان باسم أرنستو، وباسم السنوات الرائعة التي لا بدَّ من أن تعيشيها، وباسم الخير الذي ما زال في إمكانك أن تزرعيه. لقد توقَّف الزمن في الساعات، وتحوَّلت الانحناءات والقمم الخضراء على شاشات الأجهزة إلى خطوط مستقيمة، وتبدَّل رنين الإنذار إلى أزيز تفجُّع. قال أحدهم: لم يعد ثمَّة ما يمكن عمله. وأضاف صوت آخر: لقد ماتت. انفضّ الناس من حولك. ابتعد بعضهم، واستطعنا رؤيتك خامدة وشاحبة، مثل طفلة من مرمر. أحسستُ عندئذ، بيد أمّي تمسك يدي وتدفعني إلى الأمام. تقدَّمنا بضع خطوات مقتربتين من حافَّة سريرك، وقدَّمنا إليك، من دون أن نذرف دمعة واحدة، كلَّ احتياطيّنا من القوَّة؛ كلَّ صحَّة سلالتنا الغامضة وصلابتها، من ملّاحين باسكيّين وهنود أميركيّين جموحين، واستحضرنا بصمت جميع الآلهة المعروفين والذين سيُعرَفون وأرواح أسلافنا المحسنة وأعظم قوى الحياة، لتهرع جميعها لإنقاذك. لقد كان الابتهال من الزخم إلى حدَّ أنَّ أرنستو الذي كان على بعد خمسين كيلومترًا، استطاع أن يسمع النداء بوضوح كأنَّه ضربة ناقوس. وعرف أنَّك تتدحرجين إلى الهاوية، فانطلق يعدو في اتِّجاه المستشفى. وفي أثناء ذلك، كان الهواء يتجمَّد حول سريرك ويختلط الزمن. وعندما بدأت الساعات تُشير مجدَّدًا إلى الثواني، كانت الفرصة قد ضاعت على الموت. كان الأطبَّاء قد انسحبوا، واستعدّت الممرِّضات لنزع الأنابيب وتغطية جسدك بشرشف، حين أطلقت إحدى الشاشات زفرة مفاجئة، وبدأ الخطّ الأخضر متقلّب

الأطوار يتعرَّج مشيرًا إلى عودتك إلى الحياة. «باولا!» ناديناك أنا وأمّي بصوت واحد، وكرَّرت الممرِّضات الصرخة، وضجَّت القاعة كلّها باسمك.

وصل أرنستو بعد ساعة من ذلك. لقد نهب الأوتوستراد نهبًا، واجتاز المدينة مثلَ نيزك. لم يكن يراوده حتى ذلك الحين أيُّ شكّ في شفائك، ولكنَّه في تلك المناسبة بدا مهزومًا، فقد جثا على ركبتيه في المصلّى، وابتهل ببساطة من أجل وقف هذا العذاب ومن أجل أن تستريحي أخيرًا. ومع ذلك، عندما احتضنك في الزيارة التالية، كانت حدَّةُ الحبِّ والرغبة في الاحتفاظ بك أقوى من الخضوع للقدر. إنَّه يشعر بك في جسده. يستبق التشخيصات الإكلينيكيَّة. يتلقَّى إشارات لا تراها عيون الآخرين، ويبدو أنَّه الشخص الوحيد القادر على التواصل معك. تمسَّكي بالحياة، «عيشي من أجلي. من أجلنا جميعًا يا باولا، فنحن فريق يا صغيرتي. أتوسَّل إليك. سترين أنَّ كلّ شيء على ما يرام. لا تذهبي، سأكون سندك، ملاذَك، صديقك، سأفيك بحبِّي. تذكَّري ذلك الثالث المبارك من كانون الثاني الذي تعارفنا فيه وتغيَّر كلّ شيء إلى الأبد، لا يمكنك أن تتركيني الآن. لقد بدأنا للتوِّ، وما زال أمامنا نصفُ قرن من الحياة». ولست أدري أيّ توسُّلات أخرى وأيّ أسرار وعهود كان يهمسها في أذنك في يوم الاثنين الضبابيّ ذاك، ولست أدري كيف نفخ فيك الرغبةَ في العيش مع كلِّ قبلة، ولكنَّني واثقة بأنَّك تتنفَّسين اليوم بقدرة حنانه العنيد. إنَّ حياتك هي انتصار غامض من انتصارات الحبّ. لقد تجاوزت الجزء الأسوأ من الأزمة، فهم يقدِّمون إليك الآن المضادّ الحيويّ اللازم، ويتحكَّمون في ضغطك، وقد بدأت الحمّى بالتراجع، شيئًا فشيئًا. لقد رجعت إلى

نقطة البدء، ولست أدري ما الذي يعنيه هذا النوع من الانبعاث. مضى عليك أكثر من شهرين في السبات، ولا أريد أن أخدع نفسي، يا ابنتي، فأنا أعرف مدى خطورة حالتك، ولكنَّك تستطيعين الشفاء تمامًا. فالاختصاص بأمراض السبات يؤكِّد أنَّك لم تُصابي بأيِّ تلف دماغيّ، وأنَّ الداء لم يهاجم سوى أعصابك السطحيَّة. إنَّها كلمات، كلمات مباركة أكرِّرها مرَّة بعد أخرى، مثلَ معادلة سحريَّة يمكنها إنقاذك. اليومَ قلبتك على جنبك في السرير. وعلى الرَّغم من المظهر المعذَّب لجسدك البائس، فإنَّ وجهك ما زال على حاله، وتبدين رائعة الجمال مثلَ عروس نائمة، مع ظلال زرقاء تحت رموشك الطويلة. لقد ضمَّختك الممرِّضة بماء الكولونيا، وجمعتْ شعرك في جديلة ثخينة تعلِّقها خارج السرير مثل حبل بحَّارة. ليست هناك علائم من ذكائك، ولكنَّك حيَّة، وروحك ما زالت تسكنك. تنفَّسي يا باولا، يجب عليك أن تتنفَّسي...

ما زالت أمِّي تساوم الربّ، وها هي تعرض عليه الآن حياتها في مقابل حياتك. تقول إنَّ سبعين سنة، في أيِّ حال، هي زمن طويل، وتعب كثير، وأحزان كثيرة. وأنا أيضًا أتمنَّى لو أنَّني مكانك، ولكنْ ليس ثمَّة مجال للأوهام في حدوث مثل هذه المقايضات، فكلّ واحدة منَّا، الجدَّة والأمّ والابنة، عليها أن تنجز قَدَرَها. لسنا وحدنا على الأقلّ، إنَّنا ثلاث. جدَّتك متعبة وتحاول إخفاء ذلك، ولكنَّ السنين تُثقل عليها، وقد تغلغل البرد إلى عظامها خلال هذه الشهور في مدريد. ليست هناك طريقة لتدفئتها، إنَّها تنام تحت جبل من الأغطية، وتتلفَّع في النهار بالمعاطف والشالات، ولكنَّها لا تتوقَّف عن الارتجاف. لقد تحدَّثتُ مطوَّلًا مع العمّ رامون ليساعدني على إقناعها

بأنَّ الوقت قد حان لترجع إلى تشيلي. لم أستطع الكتابة لمدَّة أيَّام، وقد عدت إلى هذه الأوراق بعد أن بدأتِ تخرجين من حالة الاحتضار.

العلاقة الرصينة التي جمعتني بميشيل أزهرت باعتدال، على الطريقة القديمة في صالون بيت الناتا، ما بين فناجين الشاي في الشتاء وكاسات البوظة في الصيف. لقد طرأ تحوّل في شخصيَّتي حين اكتشفت الحبّ وأحسست بسعادة كوني مرغوبًا فيها، فالخجل أفسح المجال لطباع أقرب إلى التفجُّر، وانتهت مراحل الصمت الساخط تلك التي عرفتها في طفولتي ومراهقتي. كنَّا نذهب مرَّة كلّ أسبوع على درَّاجته الناريَّة للاستماع إلى حفلة موسيقيَّة، وأصبحوا يسمحون لي بالذهاب إلى السينما في أيَّام السبت ما دمت حريصة على العودة في وقت مبكِّر، وكان جدِّي يدعو ميشيل في بعض أيَّام الآحاد إلى تناول الغداء مع الأسرة، وكانت وجبات الغداء تلك مبارياتٍ حقيقيَّةً في الصمود. فالوليمة الضخمة، في حدِّ ذاتها، كانت اختبارًا لكسر العظم، فهي تتضمَّن شطائر المحار وفطائر الفلفل الحارّ والدجاج المطبوخ وحلوى الذرة وقالب الحلوى البيضاء، ونبيذًا مع الفواكه، وإبريقًا كبيرًا من شراب بيسكوسور، أشدّ المشروبات التشيليَّة خبثًا. وكان المدعوّون يتنافسون في مأثرة التهام تلك المأدبة، وقد يطلبون قبل تناول الحلوى أحيانًا، على سبيل التحدِّي، بيضًا مقليًا بشحم الخنزير. وكانوا يكسبون بذلك امتياز إظهار جنونهم الخاصّ. وعند تناول القهوة، يكونون قد وصلوا إلى المناقشات الصاخبة. وقبل أن ينتقلوا إلى تناول كؤوس الخمر الحلو، يكونون قد أقسموا بأنَّ يوم

الأحد هذا سيكون آخر يوم يشاركون فيه في وليمة عائليَّة، ولكنَّهم في الأسبوع التالي يكرِّرون العذابات نفسها مع بعض التغييرات الطفيفة، لأنَّ التغيُّب يعني تهاونًا لا يمكن لجدِّي أن يغفره. لقد كنت أخشى هذه الاجتماعات مثل خشيتي من ولائم الغداء في بيت سلڤادور ألليندي، حيث بنات عمومتي ينظرن إليّ بازدراء مُدارًى لأنِّي لا أفهم على أيِّ شياطين يتكلَّمون. لقد كانوا يعيشون في بيت صغير مضياف يعجّ بأعمال فنِّيَّة وكتب ثمينة وصور لو أنَّها ما زالت موجودة لكانت وثائق تاريخيَّة مهمَّة. وكانت السياسة هي موضوع الحديث الوحيد لدى هذه الأُسرة الذكيَّة وواسعة الاطِّلاع. كانت الأحاديث تحلِّق عاليًا لتحيط بالأحداث العالميَّة، وتحطّ بين الحين والآخر على آخر تفاصيل الإشاعات والأقاويل الوطنيَّة، ولكنِّي كنت أهيم في القمر، في أيِّ حال، لأنِّي لم أكن أقرأ في تلك الأزمنة إلَّا روايات الخيال العلمي. وبينما كان آل ألليندي يناقشون بحماسة اشتراكيَّة مسألةَ تحويل البلاد، كنت أطوف في خيالي من كوكب إلى كوكب برفقة كائنات فضائيَّة غامضة.

أخذني ميشيل للتعرُّف إلى أبويه، في أوَّل مناسبة حضرا فيها إلى سنتياغو. كان حمواي المستقبليَّان ينتظرانني لتناول الشاي في الخامسة مساءً، وكان على المنضدة شرشفٌ مُنشًّى، وخزفٌ إنكليزيٌّ ملوَّنٌ، وقِطَعُ خبز صغيرة مصنوعة في البيت. لقد استقبلاني بمودَّة، وأحسست بأنَّهما يتقبَّلانني بامتنان من دون أن يعرفاني بسبب الحبّ الذي كنت أغدقه على ابنهما. لقد غسل الأب يديه نحو عشر مرَّات خلال زيارتي القصيرة، وحين أراد الجلوس إلى المنضدة سحب الكرسيَّ بمرفقيه كيلا يوسخ يديه قبل الطعام. وفي النهاية، سألني إذا كنت قريبة

سلفادور ألليندي، وعندما أجبت بالإيجاب تغيَّرت ملامحه، ولكن تهذّبه الطبيعيّ منعه من التعبير عن أفكاره بهذا الشأن في لقائنا الأوَّل، وستكون هناك فرصة لذلك فيما بعد. لقد فُتنت بأمّ ميشيل منذ البداية، فقد كانت روحًا ساذجة، غيرَ قادرة على مجرَّد التفكير في النيّات الخبيثة. وكانت طِيبةُ قلبها تُطلّ من عينيها اللامعتين بلونهما الزبرجديّ. عانقتني ببساطة كأنَّها تعرفني منذ سنوات، وعقدنا في ذلك المساء حلفًا سرّيًا للمساعدة المتبادلة سيكون عظيم الجدوى في التجارب المؤلمة التي سنشهدها في السنوات التالية. إنَّ والدي ميشيل اللذين كانا يرغبا، من دون شكّ، في فتاة رصينة من الجالية الإنكليزيَّة لابنهما، لم يحتاجا إلى جهد كبير في اكتشاف عيوب طبيعي منذ البداية، ولهذا، فإنَّ احتضانهما إياي بتلك السرعة، كان أمرًا يستحقّ التقدير.

لم أكن قد أكملت السابعة عشرة من عمري عندما بدأت أعمل، وقد واصلت العمل من دون توقُّف منذ ذلك الحين. لقد أنهيت المدرسة ولم أعد أعرف ما الذي سأفعله بمستقبلي. كان يتوجَّب عليَّ أن أطرح على نفسي مسألةَ الذهاب إلى الجامعة، ولكنَّني كنت مشوَّشة، فقد كنت أنشد الاستقلال، وكنت على أيِّ حال أريد الزواج بسرعة وإنجاب أبناء، لأنَّ ذلك هو قَدَر البنات في ذلك الحين. «يجب عليك أن تدرسي المسرح»، هذا ما اقترحته عليّ أمّي التي تعرفني خيرًا من الجميع، ولكنَّ الفكرة بدت لي جنونيَّة تمامًا. في اليوم التالي لانتهائي من المدرسة، أسرعت للبحث عن وظيفة سكرتيرة، لأنّي لم أكن مؤهَّلة لعمل آخر. كنت قد سمعت أنَّهم يدفعون رواتب جيِّدة في الأمم المتَّحدة، فقرَّرت استغلال معرفتي باللغتين الإنكليزيَّة والفرنسيَّة،

ووجدت في مكان بارز في دليل الهاتف كلمة غريبة: «فاو». ومن دون أن تروادني الشكوك فيما تعنيه، ذهبت فورًا إلى هناك، وقد استقبلني شابّ له مظهر باهت.

سألته مباشرة:

ـ مَن هو مالك المحلّ هنا؟

فدمدم بشيء من الحيرة:

ـ لا أدري. أظنّ أنَّ هذا المكان ليس له مالك.

ـ ومَن هو الذي يأمر أكثر من الجميع؟

فقال من دون تردُّد:

ـ إنَّه دون هيرنان سانتا كروث.

ـ أريد التحدُّث إليه.

ـ إنَّه في أوروبا الآن.

ـ ومَن المسؤول عن التوظيف في غيابه؟

قدَّم إليَّ اسم كونت إيطاليّ، فطلبت مقابلته. وعندما مثلت أمام منضدة هذا الوجيه الرومانيّ المهيبة، بادرته بالقول إنَّ السيِّد سانتا كروث قد أرسلني للتحدُّث إليه من أجل أن يقدِّم إليّ عملًا. لم يراود الشكُّ السيِّدَ الأرستقراطيّ في أنّي لا أعرف رئيسه، وأنَّني لم أره في حياتي، ووافق على وضعي في الاختبار لمدَّة شهر بالرَّغم من أنَّني قد قدَّمت أسوأ اختبار في الطباعة على الآلة الكاتبة في تاريخ هذه المنظَّمة. فقد أجلسوني أمام آلة ضخمة من ماركة أندروود، وطلبوا منِّي كتابة رسالة من ثلاث نسخ من دون أن يخبروني بأنَّ الرسالة يجب أن تكون تجاريَّة. كتبتُ رسالة حبّ وغيظ من الصدّ مليئةً بالأخطاء،

لأنَّ مَلامس الآلة الكاتبة كانت لها حياتها الخاصَّة كما يبدو. أضف إلى ذلك أنَّني وضعت ورق الكربون معكوسًا فخرجت نسخ الرسالة مطبوعة على ظهر الورقة. بحثوا عن المكان الذي سأُحْدِث فيه أقلَّ قَدْر من الأضرار، وعيَّنوني، بصورة موقَّتة، سكرتيرةً لدى خبير غابات أرجنتينيّ مهمَّتُه إحصاءُ أشجار الكوكب الأرضيّ. أدركت أنَّني لن أستطيع الاستمرار طويلًا، ووطّدت نفسي على تعلُّم الكتابة على الآلة الكاتبة بصورة صحيحة خلال أربعة أسابيع، والردّ على الهاتف وتقديم القهوة كسكرتيرة محترفة، متمنِّية، في سرِّي، أن يقع حادث مميت لسانتا كروث الرهيب يمنعه من العودة إلى الأبد. لكن أمنيتي لم تُستجَب مع ذلك، فبعد شهر بالضبط عاد مالك «الفاو»، وكان رجلًا ضخمًا له مظهر شيخ عربيّ وصوت كالرعد، وكان الموظَّفون، بصورة عامَّة، والنبيلُ الإيطاليّ، على وجه الخصوص، ينحنون أمامه باحترام إن لم نقل برعب. وقبل أن يعلم بوجودي من مصادر أخرى، مثلت في مكتبه لأقول له إنَّني استخدمت اسمه المقدَّس زُورًا، وإنَّني مستعدَّة لتقبُّل التكفير المناسب عن ذلك. وكان ما تلقَّيته في اضطرابي ذاك هو قهقهة مجلجلة، ثم زمجر أخيرًا بعد أن مسح دموعه:

ـ ألليندي. إلى أيّ ألليندي تنتسبين أنت؟

ـ أظنُّ أنَّ أبي يُدعى توماس.

ـ تظنِّين! ألا تعرفين اسم أبيك؟

فأجبته بوقار:

ـ لا يمكن لأحد أن يكون واثقًا باسم أبيه. يمكن التأكُّد من اسم الأمّ فقط.

ـ توماس ألليندي؟ آه، لقد عرفته! إنَّه رجل ذكيّ جدًّا.

وظلَّ ساهمًا في الفراغ كمن يموت لهفة للبوح بسرٍّ يعرفه ولا يستطيع ذلك.

إنَّ تشيلي بحجم منديل. وقد تبيَّن أنَّ هذا السيِّد، الذي له سلوك سلطان، هو أحد أفضل أصدقاء سلڤادور ألليندي في شبابه، كما أنَّه يعرف أمِّي وزوجها جيِّدًا، ولهذه الأسباب لم يطردني إلى الشارع مثلما كان الكونت الإيطالي يأمل، بل نقلني إلى قسم الإعلام، بحيث يمكن لفتاة لها مثل إمكانيَّاتي التخيّليَّة، كما قال، أن تكون موظَّفة أفضل من كونها ناسخة إحصائيَّات حرجيَّة. لقد تحمَّلوني في «الفاو» طوال عدَّة سنوات، عقدت خلالها صداقات، وتعلَّمت مبادئ العمل الصحافيّ، وحصلت على فرصتي الأولى للعمل في التلفزيون. وفي أوقات الفراغ، كنت أقوم بترجمة روايات رديَّة من اللغة الإنكليزيَّة إلى الإسبانيَّة. كانت قصصًا رومانسيَّة مشحونة بالعشق، وكانت جميعها مفصَّلة على القالب نفسه: شابَّة جميلة وبريئة بلا ثروة تتعرَّف إلى رجل ناضج وقويّ ومقتدر ومفعم بالرجولة، وبسبب خيبة أمله في الحبِّ يعيش منعزلًا في مكان غريب، كجزيرة بولينيزيَّة مثلًا، حيث تعمل هي معلِّمة، ويملك هو إقطاعيَّة. وتكون الشابَّة عذراء دائمًا، حتى وإن كانت أرملة؛ لها نهدان ناعمان، وشفتان ممتلئتان، وعينان ناعستان. أمّا هو، فيكون له صدغان فضِّيَّان، وبشرةٌ ذهبيَّة، وعضلاتٌ فولاذيَّة. ويفوقها الإقطاعيّ دائمًا في كلّ شيء، ولكنَّ المعلِّمة طيِّبة وجميلة. وبعد ستِّين صفحة من العواطف المتأجِّجة والغيرة والمكائد غير المعقولة، يتزوَّجان بالطبع. ويقوم ذلك الرجل المعدنيُّ في مشهد أخير جريء بفضّ بكارة الآنسة البريئة. إنَّ المرء يحتاج إلى صلابة في الطبع

حتى يبقى مخلصًا للنسخة الأصليّة، ولكن صلابة طبعي لم تكن كافية لتحمُّل ذلك كلّه على الرَّغم من الجهود التي بذلْتُها في هذا الشأن مس ساينت جون في لبنان. فقد كنت، من دون أن أنتبه تقريبًا، أُدخل بعض التعديلات الطفيفة لتحسين صورة البطلة، فأبدأ ببعض التغيّرات في الحوار حتى لا تبدو متأخّرة تمامًا، ثم أنساق إلى الإلهام وأغيّر النهايات، بحيث تنتهي البطلة إلى بيع السلاح في الكونغو، أو يسافر الإقطاعيّ إلى كالكوتا لرعاية المجذومين، ولكنّني لم أستمرّ طويلًا في هذا العمل، لأنَّهم طردوني منه بعد بضعة شهور. وفي أثناء ذلك، كان أبوايَ قد رجعا من تركيا وانتقلتُ للعيش معهما في بيت على الطراز الإسباني مشيَّد من اللِّبن والقرميد عند أقدام سلسلة الجبال، حيث كان من الصعب التنقُّل بالحافلة، ومن المستحيل الحصول على هاتف. كان هناك برج وحديقة مساحتها هكتاران مربّعان، وبقرة كئيبة لم تدرَّ حليبًا على الإطلاق، وخنزيرٌ كنَّا نضطر إلى إخراجه بالمكنسة من غرف النوم، ودجاجاتٌ وأرانبُ، ونبتةُ قرع متسلِّقة إلى السقف تسقط ثمارها الضخمة من علٍ، معرِّضةً للخطر مَن يشاء لهم سوء الطالع أن يكونوا تحتها. لقد تحوَّل التعلُّق بالحافلة للذهاب إلى المكتب والعودة منه إلى هاجس متسلِّط على عقلي. فكنت أستيقظ منذ الفجر كي أصل في موعد الدوام صباحًا، وفي المساء تكون الحافلة مزدحمة جدًّا، فأذهب لزيارة جدِّي وأنتظر هناك حتى الليل لأتعلَّق بحافلة فيها عدد أقلّ من الركَّاب. وهكذا، نشأت لديَّ عادة الذهاب يوميًّا لرؤية جدِّي، وأصبحت الزيارة اليوميَّة أمرًا مهمًّا لكلينا، ولم أتخلَّف عنها إلَّا عند ولادة ابني، وخلال الأيَّام الأولى من الانقلاب العسكريّ، وحين أردت في إحدى المرَّات أن أصبغ شعري بلون أشقر فأخطأت المزيِّنة

وجعلته أخضر، فلم أجرؤ على الظهور أمام جدّي، إلى أن حصلت على باروكة لها لون شعري الأصليّ. لقد كان بيتنا في الشتاء سجنًا متجمِّدًا يقطر الماء من سقفه، ولكنَّه يصبح بيتًا ساحرًا في الربيع والصيف بأصصه الفخَّاريَّة الطافحة بأزهار البتونيا، وبأزيز النحل وتغريد الطيور، وبأريج الأزهار والثمار، وتعثُّر الخنزير بين أرجل الزائرين، وهواء الجبال النقيّ. وقد انتقلت ولائم غداء أيَّام الآحاد من بيت التاتا إلى بيت أبَوَيّ، فكانت القبيلة تجتمع هناك لتخرب كلّ شيء في الموعد المحدَّد كلّ أسبوع. وكان ميشيل شاهدًا صامتًا على انفعالات أفراد أسرتي المفرطة، وهو المنحدر من بيت مسالم تسوده أقصى أعراف اللباقة، والذي كيّفته المدرسة على إخفاء انفعالاته في أيّ لحظة، اللهم إلَّا في الملاعب الرياضيَّة، حيث تتوفَّر له الحرِّيَّة للتصرُّف بهمجيَّة.

توفِّي الخال بابلو، في تلك السنة، في حادثة جوِّيَّة غريبة، فقد كان يطير فوق صحراء أتاكاما في طائرة صغيرة انفجرت في الجوّ. لقد رأى بعضُ الأشخاص الانفجارَ وشاهدوا كرة ملتهبة تهوي من السماء، إنَّما لم يبقَ للطائرة أثر. وبعد تمشيط المنطقة بدقَّة، رجعت فرق البحث صِفر الأيدي. لم يكن هناك ما يمكن دفنه، فحُمل تابوت فارغ في الجنازة في نهاية الأمر. لقد كان اختفاء هذا الرجل الذي أحببته كثيرًا موحشًا وكاملًا، حتى إنَّني غرست في نفسي خرافة أنَّه لم يتحوَّل إلى رماد فوق تلك الكثبان المقفرة، وأنَّه ربَّما يكون قد نجا بمعجزة، ولكنَّه أُصيب بصدمة لا شفاء منها، وأنَّه يهيم على وجهه اليوم في أماكن أخرى بطمأنينة شيخوخته وبلا ذاكرة، وأنَّه لم يعد يعرف شيئًا عن زوجته الشابَّة وأطفاله الأربعة الذين خلّفهم وراءه. لقد كان متزوِّجًا

من واحدة من تلك الشخصيّات ذات الأرواح الشفّافة، ممّن يكرّسن أنفسهنّ للتطهُّر عبر الجهد والمعاناة. تلقَّى جدّي الخبر المرير من دون أن يُبدي علامة تأثُّر واحدة، فضغط فمه، ونهض مستندًا إلى عكّازه وخرج يعرج إلى الشارع حتى لا يرى أحد تعبير عينيه. ولم يعد منذ ذلك اليوم إلى الحديث عن ابنه المفضَّل، تمامًا مثلما امتنع من ذكر ميمي بعد وفاتها. فكلَّما كان الجرح أعمق، كان الألم أشدّ خصوصيَّة بالنسبة إلى ذلك الشيخ الشجاع.

كنت قد أمضيت ثلاث سنوات من الغراميّات العفيفة نسبيًّا عندما سمعت من زميلاتي في المكتب عن أعجوبة الحبوب التي تمنع الحمل، وعمّا أحدثته من ثورة في الثقافة في أوروبا والولايات المتَّحدة، وأنّه صار في الإمكان الحصولُ عليها الآن في بعض الصيدليّات المحلِّيَّة. حاولت الاستفسار أكثر، وعلمت بأنّه لا يمكنني شراؤها إلّا بوصفة طبِّيَّة، ولكنّني لم أجرؤ على اللجوء إلى الدكتور بينجامين بيال الذي كان قد تحوّل آنذاك إلى خصم لدود لتنظيم الأُسرة في تشيلي، كما أنّني لم أجد في نفسي ما يكفي من الثقة لأحدّث أمّي في الموضوع. أضف إلى ذلك أنَّه كان لديها ما يكفيها من المشاكل مع ابنيها المراهقين، بحيث لا يمكنها التفكير في الحبوب السحريَّة لابنتها العزباء، فقد كان أخي بانتشو قد هجر البيت ومضى في أثر قدّيس يجنّد المريدين معلنًا أنّه المسيح الجديد. والواقع أنَّ ذلك الشخص كان يملك دكّان خردة في الأرجنتين، وتحوّلت قضيَّته إلى مسألة تدليس دينيّ معقَّدة، ولكنّ الحقيقة لم تظهر إلّا في وقت متأخّر جدًّا، حين كان أخي وشبّان آخرون قد أهدروا سنوات من أعمارهم

في اقتفاء أثر خرافة. لقد بذلت أمّي كلّ ما تستطيعه لانتزاع ابنها من تلك الطائفة الغامضة، وذهبت في الواقع مرَّتين على الأقلّ للبحث عنه عندما لامس قاع خيبة الأمل وطلب مساعدة الأسرة. كانت تُخرجه من حظيرة خنازير، حيث تجده جائعًا ومريضًا ومخذولًا، ولكنَّه ما إن يستعيد قواه حتى يختفي من جديد من دون أن نعرف شيئًا عن مكان وجوده لعدَّة شهور. وكانت تصلنا بين الحين والآخر أخبارٌ عن تنقُّلاته وتعلُّمه فنونَ الجودو في البرازيل، أو عن تلقِّيه التدريبَ في كوبا ليكون ثوريًّا، ولكن أيًّا من هذه الإشاعات لم تستند إلى أساس حقيقيّ، والواقع أنَّنا لم نكن نعرف عنه أيّ شيء. وفي أثناء ذلك، أمضى أخي خوان نحو سنتين غير موفَّقتين في مدرسة الطيران. فبعد وقت قصير من التحاقه بالجيش، أدرك أنَّه لا يملك الكفاءة ولا الصلابة لتحمُّل ذلك المكان، وأنَّه ينفر من المبادئ والطقوس العسكريَّة العبثيَّة، وأنَّ الوطن نفسه لا يهمّه في شيء، وأنَّه إذا لم يخرج من هناك فسيموت عمَّا قريب على أيدي تلاميذ الضبَّاط المتقدِّمين أو أنَّه سينتحر. وفي أحد الأيَّام هرب من الثكنة، ولكنَّ اليأس لم يَقُده بعيدًا، فقد جاء إلى البيت ببدلته العسكريَّة الممزَّقة، وقال متلعثمًا إنَّه قد فرَّ من الجيش وإنَّهم سيحاكمونه أمام محكمة عسكريَّة إذا ما أمسكوا به، وإنَّه إذا نجا من الإعدام رميًا بالرصاص بتهمة خيانة الوطن فإنَّه سيمضي بقيَّة سنوات شبابه في زنزانة. تصرَّفت أمّي بسرعة، فأخفته في غرفة المؤونة، ونذرت نذرًا للعذراء دل كارمن، شفيعة القوّات المسلَّحة التشيليَّة، كي تساعدها في مهمَّتها، ثم ذهبت إلى صالة تجميل، وارتدت أفضل ثوب لديها، وطلبت اللقاء مع مدير مدرسة الطيران. وعندما مثلت أمامه، لم تُتح له الوقت ليفتح فمه، بل انقضّت عليه، وأمسكت بثيابه وصرخت

بأنَّه المسؤول الوحيد عن مصير ابنها، وأنَّه ربَّما لا يعرف بأمر الإذلال والتهذيب اللذين يتعرَّض لهما التلاميذ المستجدُّون، وأنَّه إذا أصاب خوان مكروهٌ، فستتولَّى هي نفسها تمريغ اسم المدرسة في الوحل. وواصلت قصفه بحججها وهزَّه إلى أن انهزم الجنرال أمام عيني اللبوة وغريزة الأمّ المنفلتة من عقالها، ووافق على عودة أخي إلى صفوف جنوده.

ولكنْ، فلنعدْ إلى حبوب منع الحمل. لم أكن أتحدَّث مع ميشيل في مثل هذه التفاصيل المبتذلة، لأنَّ تربيتنا البيوريتانيَّة كانت شديدة الوطأة. وكانت جلسات المداعبة في أحد أركان الحديقة ليلًا تستنفدنا وتسبِّب لي القهر. لقد تأخَّرت كثيرًا في فهم آليَّة الجنس، لأنِّي لم أكن قد رأيت رجلًا عاريًا، اللهمّ إلَّا بعض تماثيل الرخام ذات الزوائد الطفوليَّة. ولم تكن لديَّ فكرة عمَّا يعنيه الانتصاب، وحين كنت أشعر بشيء قاسٍ وأنا أعانق ميشيل، كنت أظنّ أنَّه مفاتيح الدرَّاجة الناريَّة في جيب بنطاله. وكانت قراءاتي السرِّيَّة لحكايات «ألف ليلة وليلة» في لبنان قد ملأت رأسي بالتوريات والمجازات الشاعريَّة. وما كنت أحتاج إليه آنذاك هو مجرَّد مرجع تعليميّ. أمّا فيما بعد، عندما اتَّضحت لي الفوارقُ بين الرجال والنساء وآليَّةُ عمل شيء بسيط مثل العضو الذكريّ، فقد أحسست بالغبن. لم أعد أرى آنذاك، ولست أرى الآن، أيّ فرق أخلاقيّ بين جلسات المداعبة القاصرة وغير المُرضية، وبين استئجار غرفة في فندق وعمل ما تمليه المخيِّلة. ولكن أيًّا منَّا لم يجرؤ على التلميح إلى ذلك. أظنّ أنَّه لم تكن هناك فتيات كثيرات عفيفات في مثل سنِّي، ولكنَّ التحدُّث في هذا الأمر كان «تابو» في أزمنة النفاق الجماعيّ تلك. فكلّ شخص يرتجل الحديث بأفضل ما يستطيع عن أنَّ

تهيُّج الهرمونات يدنِّس الضمير، ويثير المخاوف بالقول إنَّ الشابَّ لن يكتفي بالتواري عن الأنظار بعد الوصول إلى النهاية، وإنَّما سيقوم بنشر أخبار غزواته. لقد كان دور الرجال يتمثَّل في الهجوم، ودورنا هو الدفاع متظاهرات بأنَّ الجنس لا يهمّنا، لأنَّه لم يكن من اللائق أن تظهر الفتاة في مظهر المتماونة في إغواء نفسها. كم كانت الأمور مختلفة بالنسبة إليكِ، يا باولا! فقد كان عمرك سبعة عشر عامًا عندما جئت في صباح أحد الأيَّام لتطلبي منِّي أن آخذك إلى طبيب اختصاصيّ بالشؤون النسائيَّة لأنَّك تريدين الاستفسار عن موانع الحمل. أخرستني الانفعالاتُ ورافقتك إلى الطبيب لأنِّي أدركت أنَّ طفولتك قد انتهت وأنَّك بدأت تفلتين من وصايتي. وقد نصحتني يومذاك قائلة: «من الأفضل ألَّا نتحدَّث في هذا الأمر يا عجوزتي، لأنَّ أحدًا لن يتفهَّم مساعدتك لي في هذا الشأن». عندما كنت في مثل سنّك، يا باولا، كنت أبحر في مياه مضطربة، تُرعبني تحذيرات كارثيَّة: إيَّاك قبول أيّ مشروب يُقدَّم إليك، فقد يكون فيه مخدِّر مسحوق من الذي يعطونه للأبقار لتهييجها للسفاد؛ لا تركبي أيّ سيَّارة لأنَّهم قد يأخذونك إلى أيّ خلاء، وتعلمين بالذي يمكن أن يحدث لك عندئذ. لقد تمرَّدتُ منذ البدء على تلك الازدواجيَّة الأخلاقيَّة التي تبيح لأخوَيّ قضاء الليل خارج البيت والعودةَ عند الفجر ورائحةُ الخمر تفوح منهما من دون أن يغضب أحد من ذلك. فقد كان العمّ رامون يحبس نفسه معهما على انفراد، لأنَّهم يتحدَّثون في «شؤون رجال» لا يحقّ لي ولأمّي إبداءُ الرأي فيها. وكان من الطبيعيّ أن يتسلَّلا ليلًا إلى غرفة الخادمة، وأن يتبادلا بشأن ذلك نكاتًا كانت تسبِّب لي سخطًا مزدوجًا. فإلى جانب تسلُّط الذكر، هناك الاستغلال الطبقيّ. إنِّي أتصوَّر الفضيحة التي كنت

سأثيرها لو أنَّني دعوت البستانيَّ يومًا إلى فراشي. وعلى الرَّغم من تمرُّدي، فإنَّ الخوف من النتائج كان يشلّني، فلا شيء يُبرِّد الاحتدام مثل الخوف من الحَبَل في غير أوانه. ولم أكن قد رأيت من قبل الواقيات الذكريَّة المطّاطيَّة، اللهمَّ إلّا تلك التي لها شكل أسماك مداريَّة، وكان يعرضها التجّار اللبنانيُّون على جنود المارينز في بيروت، ولكنَّني ظننتها يومذاك بالونات لأعياد الميلاد. وكان أوَّل واحد منها يقع في يدي هو الذي أريتني إيَّاه أنت، يا باولا، في كاراكاس، حين كنت تمضين دائمًا وأنت تحملين حقيبة مملوءة بأدوات صغيرة من أجل دورتك التدريبيَّة الجنسيَّة. وقد قلت لي يومها: «من غير المعقول ألّا تعرفي كيف تُستخدم هذه الأشياء وأنت في هذه السنّ»، وكنتُ قد تجاوزت الأربعين من عمري، ونشرتُ روايتي الأولى وبدأت بكتابة الثانية. وأنا الآن مذهولة لمثل هذا الجهل لدى امرأة قرأت كثيرًا مثلي. ثم إنَّ هناك حادثة جرت لي في طفولتي كان يمكنها أن تقدِّم إليّ إضاءة، أو تثير على الأقلّ فضولي، لأتعلَّم عن هذا الأمر، ولكنَّني كنت أحتجز تلك الحادثة في أشدّ أعماق ذاكرتي ظلمةً.

في يوم عيد الميلاد لعام ١٩٥٠، كنت أتنزَّه على الشاطئ الذي يشبه شرفة طويلة مزركشة بالجرانيوم. كان عمري ثمانية أعوام، وكانت بشرتي محروقة بالشمس، وأنفي مسلوخًا ووجهي ممتلئًا بالنمش، وكنت أرتدي مريلة قطنيَّة بيضاء وعقدًا من أصداف منظَّمة في خيط. وكانت أظفاري مطليَّة بطلاء أحمر، وأصابعي تبدو مقرَّحة. وكنت أدفع عربة مجدولة من الخيزران فيها دميتي الجديدة، وهي عبارة عن رضيع مطّاطيّ له فتحة في فمه وأخرى بين ساقيه، يقدّم إليه الماء من الفتحة

العليا ليخرج من السفلى. كان الشاطئ مقفرًا، فسكّان القرية تناولوا عشاءهم متأخّرين في الليلة السابقة، وحضروا قدّاس منتصف الليل، واحتفلوا بالعيد حتى الفجر، ولم يكن أحد منهم قد استيقظ في تلك الساعة. كانت هناك عند طرف رصيف الشاطئ مجموعةٌ من الصخور يصطدم بها المحيط مزمجرًا ومطلقًا الزبدَ والطحالب، وكان الضوء كثيفًا إلى حدّ محو الألوان في بياض الصباح المتوهّج. ونادرًا ما كنت أبتعد إلى هذا الحدّ، ولكنّني غامرت يومذاك في الوصول إلى هناك بحثًا عن مكان أقدّم فيه الماء إلى دميتي وأبدّل لها حفاضها. وفجأة، رأيت رجلًا عند الصخور في الأسفل يخرج من البحر. كان يضع نظّارة غوص وأنبوبًا بلاستيكيًا في فمه انتزعه بحركة مباغتة، وتنفّس ملءَ رئتيه. كان يرتدي بنطالًا مهترئًا جدًّا من قماش أسود، ويُحيط خصره بحَبْل تتدلّى منه حدائدُ ذات رؤوس معقوفة. إنّها عدّته للصيد البحريّ. وكان يحمل ثلاثة قنافذ بحريّة، دسّها في كيس، واستلقى على ظهره فوق الصخور ليستريح. كانت بشرته الناعمة والخالية من الشعر أشبهَ بجلد مدبوغ، وكان شعره أسود ومتجعّدًا. تناول زجاجة ماء وشرب منها جرعات طويلة وهو يستردّ أنفاسه ليغطس مرّة أخرى، ثم أزاح الشعر عن وجهه بظاهر كفّه ومسح عينيه، ورفع عندئذ بصرَه ورآني. ربّما لم ينتبه أوّل الأمر لصِغَر سنّي، فقد لمح هيئة بشريّة تهزّ صرّة، وربّما ظنَّ أنني، في وهج الحادية عشرة صباحًا، أمٌّ وابنُها. دعاني بصفير حادٍّ ورفع يده محيّيًا. نهضتُ واقفة باحتراس وفضول. وكانت عيناه عندئذ قد اعتادتا ضوء الشمس فعرفني، وكرّر التحيّة وصاح طالبًا منّي ألّا أخاف، وألّا أذهب، وأنَّ لديه شيئًا يريد أن يعطيني إيّاه. وأخرج قنفذين بحريّين ونصفَ ليمونة من كيسه وبدأ تسلُّق الصخور.

قال لي: «كم تغيَّرت، لقد كنت تبدين في السنة الماضية مخاطيَّة مثل أخويك». تراجعت خطوتين، ولكنَّني تعرَّفت إليه بعد ذلك أيضًا، وابتسمت لابتسامته وأنا أغطِّي فمي بكفِّي، لأنّي لم أكن قد أكملت تبديل أسناني. لقد كان من عادته المجيءُ في الأمسيات البحريَّة الأخرى بنفسه. «تعالي، اجلسي هنا إلى جانبي، دعيني أشاهد دميتك، يمكنك أخذها للاستحمام إذا كانت من المطّاط حقًّا، هيًّا نضعها في البحر، أنا سأنتبه إليها، لن يحدث لها أيّ شيء، انظري... لديّ هناك في الأسفل كيسٌ مملوء بالقنافذ البحريَّة، وسآخذ بعضها في المساء لجدّك، أتريدين تذوّقها؟» تناول واحدًا بيديه الكبيرتين الخشنتين، غيرَ عابئ بأشواك القنفذ القاسية، وأدخل طرف خطّاف في قمَّة القوقعة حيث يكون لها شكلُ عقد صغير من لؤلؤ منظوم، وفتحها. ظهر تجويف برتقاليّ وأحشاء تطفو في سائل قاتم. قرّب الحيوان البحريَّ من أنفي وطلب منّي أن أشمّه لأنَّ له رائحة أعماق البحر ورائحة النساء عند شبقهنَّ. واستنشقت رائحة اليود والملح تلك بخجل في أوّل الأمر، ثم بتلذُّذ. أوضح لي أنَّه يحبّ أكل القنفذ البحريّ وهو حيٌّ فقط، لأنَّه إذا لم يكن حيًّا فإنَّه يتحوَّل إلى سمٍّ قاتل. عصر بضع قطرات من الليمون في القوقعة وأراني كيف يتحرَّك لسان الحيوان وقد أحرقه الحمض، ثم انتزع قطعة منه بإصبعه، ودفع رأسه إلى الوراء وتركه ينزلق في فمه، بينما كان خطّ من الرحيق الأسود يقطر من بين شفتيه الغليظتين. وافقت على التذوُّق، وكنت قد رأيت جدّي وخالي وهما يُفرغان القواقع في جفنة ويلتهمانها مع البصل والكزبرة. انتزع الصيَّاد قطعة أخرى من الحيوان ووضعها في فمي. كانت زلقة وطريَّة، ولكنَّها خشنة بعض الشيء أيضًا، مثل منشفة مبلَّلة. لم يكن الطعم

والرائحة يشبهان أيّ شيء آخر، وقد بدت لي مقزِّزة في البداية، ولكنَّني ما لبثت أن أحسست بنبض اللحم اللذيذ، وامتلأ فمي بطعوم مختلفة ومتلازمة. أخرج الرجل قطع اللحم الورديّ من الصَّدَفة، واحدةً بعد أخرى، فأكل بعضها وقدَّم إليَّ بعضها الآخر، ثم فتح القنفذ الثاني وأجهزنا عليه أيضًا، ونحن نضحك ونقطر من رحيقه ونمصّ أصابعنا بالتناوب. وحرَّك أخيرًا أصابعه في قاع الصَّدَفة الدامي وأخرج بعض عناكب البحر الصغيرة التي تتغذّى من القوقعة، ولها مذاق مركّز صافٍ. وضع واحدة منها على طرف لسانه وانتظر، فاتحًا فمَه، أن يتقدَّم الحيوان إلى الداخل، ثم سحقه بين لسانه وسقف حلقه، وأراني العنكبوت البحرية المفعوصة قبل أن يبتلعها. أغمضت عيني. أحسست بأصابعه الخشنة تجوب محيط شفتي وقمَّة أنفي وطرف ذقني مداعبةً، ففتحت فمي وأحسست فورًا بأقدام السرطان الصغير تتحرَّك، ولكنَّني لم أستطع كبح غثياني وبصقته. «حمقاء»، قال لي وهو يمسك الحيوان الصغير بين الصخور ويأكله. «لست أصدِّق أنَّ دميتك تبول، هيَّا أريني شقَّها الصغير. هل دميتك صبيّ أم بنت؟ وكيف لا تعرفين! هل لها زمَّارة أم لا؟» وقف حينئذ يتأمَّلني بنظرة لا يمكن فهمها. ثم أمسك يدي فجأة ووضعها فوق عضوه. أحسست بكتلة تحت قماش البنطال المبلَّل؛ بشيء يتحرَّك، مثل قطعة خرطوم غليظ. حاولت سحب يدي، لكنَّه أبقاها بإصرار بينما كان يهمس بصوت مختلف طالبًا منِّي ألَّا أخاف، وأنَّه لن يفعل شيئًا سيِّئًا، وإنَّما أشياء لذيذة فقط. أصبحت الشمسُ أكثرَ حدَّة، والضوءُ أكثرَ شحوبًا، والبحرُ المحيطُ أكثرَ صخبًا، بينما كانت قسوة الضياع تلك تكتسب حيويَّة تحت يدي. وفي تلك اللحظة ناداني صوت ماراغارا من بعيد جدًّا

محطّمًا الفتنةَ، فنهض الرجل مصعوقًا ودفعني ليُبعدني عنه، ثم التقط خطّاف الصيد ووثب قافزًا على الصخور في اتّجاه البحر. وفي منتصف الطريق، توقّف فجأة، واستدار نحوي مشيرًا إلى ما تحت بطنه وقال: «هل تريدين رؤية ما أخبّئه هنا، هل تريدين أن تعرفي ما يفعله بابا وماما؟ إنّهما يفعلان مثل الكلاب، ولكن بصورة أفضل بكثير. انتظريني هنا بعد الظهر، في وقت القيلولة، نحو الساعة الرابعة، وسنذهب إلى الغابة حيث لا يرانا أحد». ثم اختفى بعد لحظة من ذلك بين الأمواج، فوضعت الدمية في العربة ومضيت عائدة إلى البيت، وقد كنت أمشي مرتجفة.

كنّا نتغدّى عادة في فناء الأورتنسيا، تحت الدالية، وحول مائدة كبيرة مغطّاة بشراشف بيضاء. وفي ذلك اليوم، كانت الأُسرة كلّها تحتفل بعيد الميلاد، وكانت هناك أكاليل غار معلّقة، وأغصانُ صنوبر على المنضدة، وأطباقٌ ملأى بالجوز ومربّى الفواكه. قدّموا إلينا عند الغداء ما تبقّى من الديك الروميّ من عشاء الليلة السابقة، وسلطةَ خسّ وبندورة، وذرةً مسلوقة وسمكةَ سلُّور ضخمةً مطبوخة في الفرن مع الزبد والبصل. لقد أحضروا السمكة كاملة مع ذيلها ورأسها بعينيه المتوسّلتين، وجلدِها الذي يشبه قفّازًا فضّيًا ملطّخًا، والذي انتزعته أمّي بحركةَ واحدة كاشفة عن اللحم البرّاق. كان إبريق النبيذ الأبيض ينتقل من يد إلى يد، وكذلك صواني الخبز الذي ما زال ساخنًا. وكان جدّي، بقميصه ذي الكمّين القصيرين وبقبّعة القشّ، الشخصَ الوحيد الساهيَ عن الضجّة والمستغرقَ في مهمّة انتزاع بذور ثمرة فلفل حارّ ليملأها بالملح، ويحصل بعد بضع دقائق على سائل مالح وحارّ يمكنه إحداثُ ثقب في الإسمنت، يشربه بتلذّذ. كنّا نحن الصغار نجلس إلى

أحد طرفي المائدة، وكنّا خمسة أبناء عمومة صاخبين نتخاطف أرغفة الخبز الأكثر ذهبيَّة. وكنت ما أزال أحسّ بطعم القنفذ البحريّ في فمي ولا أفكّر إلّا في أنّ لديَّ موعدًا عند الساعة الرابعة مساءً. أعدَّت الخادماتُ الغرفَ، بتهويتها وتبريدها، وانسحبت الأُسرة بعد الغداء للاستراحة. وكنّا، نحن الصغار الخمسة، نتقاسم بعض الأسرّة الضيِّقة في الغرفة نفسها، ولم يكن من السهل التملُّصُ من القيلولة لأنَّ عينَيْ ماراغارا الرهيبتين كانتا ترصداننا، ولكنَّها ما لبثت أن انسحبت بعد قليل إلى غرفتها منهكةً. انتظرتُ إلى أن غلب النعاسُ بقيَّةَ الصغار وخمدت الحركة في البيت، فنهضت عندئذ بخفَّة ولبست المريلة والصندل، وخبَّأت الدمية تحت السرير وخرجت. كانت الأرض الخشبيَّة تئنّ مع كلِّ خطوة، ولكن ذلك لم يكن مهمًّا لأنَّ كلّ شيء في هذا البيت كان يُصدر صوتًا: الألواح الخشبيَّة، والمواسير، ومحرِّك الثلَّاجة، ومضخَّة الماء، والجرذان، وببَّغاء الجدّ التي تمضي الصيف وهي تطلق الشتائم من فوق مشجبها.

كان الصيَّاد ينتظرني عند نهاية درب الشاطئ، يرتدي بنطالًا قاتمًا وقميصًا أبيض وينتعل حذاء مطَّاطيًّا. عندما اقتربت منه، بدأ المسير قدمًا وتبعته من دون أن أقول كلمة واحدة، كأنَّني منوَّمة. عبرنا الشارع، ودخلنا في درب، ضيِّق، وبدأنا نصعد الرابية في اتِّجاه الغابة. لم تكن هناك بيوت في الأعلى، وإنَّما أشجار صنوبر وأوكالبتوس وشجيرات فقط، وكان الهواء عليلًا وباردًا تقريبًا، والشمسُ لا تكاد تنفذ من القبَّة الخضراء الظليلة. وكانت رائحة الأشجار وأعشاب الزعتر والنعنع البرِّي تختلط بالروائح الأخرى التي تصعد من البحر. وعلى الأرض المغطَّاة بالأوراق المتعفِّنة وإبر

الصنوبر، كانت تركض سحالٍ خضراء بقوائمها القصيرة الرشيقة، وتصدر بين الحين والحين صرخةُ طائر أو حفيفُ أغصان يحرّكها النسيم، وكانت تلك الأصواتَ الوحيدة التي يمكن سماعها. أمسكني الصيَّاد من يدي وقادني نحو عمق الغابة. تقدَّمنا تحيط بنا الخضرة، ففقدتُ القدرة على السير، ولم أعد أسمع صوت البحر، فأحسست بالضياع. لم يعد هناك من يستطيع رؤيتنا. كنت خائفة جدًّا إلى درجة العجز عن النطق، ولم أكن أجرؤ على الإفلات من تلك اليد والركض هاربة، فقد كنت أعرف أنَّه أسرع وأقوى منّي كثيرًا. «لا تكلّمي الغرباء، ولا تدعي أحدًا يلمسك. وإذا ما لمسك أحد بين ساقيك فإنك تقعين في الخطيئة المميتة وتحبلين، ويكبر بطنك مثل بالون.. يكبر ويكبر إلى أن ينفجر وتموتي». كان صوت ماراغارا يمضغ في أذني تحذيراتٍ مرعبةً. كنت أعرف أنَّني أقوم بعمل محرّم، ولكنَّني لم أكن قادرة على التراجع أو الهرب، فقد كنت أسيرة فضولي نفسه؛ أسيرةَ فتنة أقوى من الرعب. لقد أحسست بمثل هذا الدُّوار القاتل نفسه حيال الخطر عدَّة مرَّات أخرى في حياتي، ونادرًا ما كنت أتراجع، لأنّي لم أكن أستطيع مقاومة هاجس المغامرة. وقد قوَّضت هذه الإغراءاتُ حياتي في بعض المناسبات، مثلما حدث في زمن الدكتاتوريَّة العسكريَّة، ولكنَّها أغنت حياتي في مناسبات أخرى، كما هي الحال عندما تعرَّفت إلى ويللي، ودفعني حبّ المغامرة إلى متابعته. وأخيرًا، توقَّف الصيَّاد. «هنا سنكون على ما يرام»، قال ذلك وهو يسوّي بعض الأغصان ليصنع منها فرشة، ثم قال لي: «استلقي هنا وضعي رأسك على ذراعي حتى لا يمتلئ شعرك بأوراق الشجر، هكذا.. ابقي هادئة، سنلعب لعبة البابا والماما». كانت أنفاسه

متقطِّعة، لاهثة، بينما يده الخشنة تداعب وجهي وعنقي، وتنزل تحت صدر المريلة باحثة عن الحلمتين الطفوليَّتين اللتين انكمشتا لدى الملامسة، وداعبني كما لم يداعبني أحد من قبل. ففي أُسرتي لا أحد يلمس الآخر. أحسست بخدر دافئ يذيب عظامي وإرادتي، وداهمني هلع بطنيّ وبدأت أبكي. «ماذا أصابك، أيّتها الصغيرة الحمقاء؟ لن أفعل لك شيئًا سيِّئًا». وغادرت يد الرجل فتحة العنق ونزلت إلى ساقيّ، متحسِّسةً ببطء، ومباعدةً بينهما بثبات، ولكن من دون عنف، وصاعدةً... صاعدةً حتى المركز نفسه. «لا تبكي، دعيني، سألمسك بإصبعي فقط، وهذا ليس سيِّئًا أبدًا. افتحي ساقيك، استرخي، لا تخافي، لن أؤذيك، فلست أحمق، لأنّي إذا فعلت بك أيّ سوء فسيقتلني جدّك، لست أفكِّر في إيذائك، سنلعب قليلًا فقط». فكّ أزرار المريلة وانتزعها، ولكنَّه لم يخلع عنّي سروالي الداخلي، وأظنّ أنَّه كان يشعر بأنفاس جدِّي المتوعِّدة في عنقه. أصبح صوته أجشّ، وكان يهمس من دون توقُّف بخليط من البذاءات والكلمات الرقيقة، ويقبِّل وجهي بقميصه المبلّل، مختنقًا بأنفاسه المتهدِّجة، ويشدّ جسده أكثر فأكثر إلى جسدي. أحسست بأنّني أنسحق وأمتلئ باللعاب وأتهشَّم تحت عظامه وثقله، وأنَّني أُشرق برائحته التي هي مزيج من رائحة العرق والبحر، وبأنفاسه المفعَمة برائحة النبيذ والثوم، بينما كانت أصابعه القويَّة والدافئة تتحرَّك مثل جرادة بحر بين ساقَيَّ وتضغط وتفرك، وكانت تقلب هذا الجزء السرِّي الذي يجب ألَّا يمسه أحد. لم أستطع تحمّله، وأحسست بشيء يتفتَّح في أعماقي، وبأنَّني أتكسر وأنفجر متفتِّتة إلى ألف قطعة، بينما هو يفرك نفسه بي بسرعة أكبر وأكبر، في احتدام غير مفهوم من الشهقات والحشرجات، إلى أن

تهاوى أخيرًا إلى جانبي مطلقًا صرخةً صمّاء لم تخرج منه، وإنّما من أعمق أعماق الأرض. لم أدرك جيِّدًا ما حَدث، ولم أعرف كم من الوقت أمضيت إلى جوار ذلك الرجل وأنا من دون ملابس سوى سروالي الداخليّ القطنيّ الأزرق السماويّ الذي بقي سليمًا. بحثت عن مريلتي ولبستها باضطراب لأنَّ يدَيّ كانتا ترتجفان. وأحكم لي الصيّاد الأزرار الخلفيَّة وداعب شعري قائلًا: «لا تبكي، لم يحدث لك شيء». ثم نهض واقفًا، وأمسك بيدي وراح يركض بي نحو الأسفل، نحو الضوء. «سأنتظرك غدًا في الموعد نفسه، لا تتركيني أنتظر من دون جدوى، ولا تقولي كلمة واحدة ممَّا فعلناه لأحد. إذا عرف جدّك فسيقتلني». قال لي ذلك محذِّرًا عند الوداع، ولكنَّه تخلَّف هو نفسه عن الموعد في اليوم التالي.

أعتقد أنَّ هذه التجربة تركت لي ندبة في مكان ما، لأنَّ هناك في جميع كتبي أطفالًا تتمّ غوايتهم أو يقومون هم أنفسهم بالإغواء، ولكن من دون نيَّات خبيثة على الدوام، باستثناء الطفلة الزنجيَّة التي يغتصبها رجلان بعنف في رواية «الخطَّة اللانهائيَّة». عندما أستعيد ذكرى الصيَّاد، لا أشعر تجاهه بالنفور أو الرعب، بل على العكس من ذلك تمامًا، أشعر بحنين غامض إلى الطفلة التي كنتها وإلى الرجل الذي لم يَعُد. وقد احتفظت بالسرِّ لسنوات طويلة في جزء منفصل من ذهني، فلم أربطه بتفتُّحي الجنسيّ عندما أحببت ميشيل.

اتَّفقت مع طبيب الأعصاب على إخراجك من تحت جهاز التنفُّس مدَّة دقيقة واحدة، يا باولا، ولكنَّنا لم نُخبر بقيَّة أفراد العائلة بذلك، لأنَّهم لم يستعيدوا توازنهم بعدُ منذ يوم الاثنين المشؤوم ذاك، حين كنتِ على وشك مغادرتنا إلى عالم آخر. فأمّي لا تستطيع أن تتذكَّر

ذلك اليوم من دون أن تنفجر في البكاء، وهي تستيقظ في الليل تلاحقها رؤيا الموت منحنيًا فوق سريرك. أظنّ أنَّها، مثل أرنستو، لم تعد تصلّي من أجل شفائك، وإنَّما كي لا تتحمَّلي مزيدًا من الألم. أمّا أنا، فلم أفقد الرغبة في الصراع من أجلك. إنَّ طبيب الأعصاب رجل شهم، يضع نظَّارة تستند إلى طرف أنفه ويرتدي رداءً مجعَّدًا يجعله يبدو كمن نهض لتوّه من قيلولة. إنَّه الطبيب الوحيد في هذه الأنحاء الذي لا يبدو عليه عدمُ الإحساس بالغمّ الذي نكابده نحن مَن نمضي النهار في ممرّ الخطى الضائعة. أمَّا الطبيب الاختصاصيُّ بداء الفرفيرين، فإنَّه أكثر اهتمامًا بأنابيب مخبره، إذ يحلّل كلّ يوم دمك، ولا يزورك إلَّا قليلًا. فصلنا عنك جهاز التنفُّس لأوَّل مرَّة صباحَ هذا اليوم. قام طبيب الأعصاب بفحص ما لديك من علائم الحيويَّة، وقرأ تقرير الليلة السابقة، بينما كنت أنا أستحضر جدَّتي، وجدَّتَك غراني الفاتنة التي رحلت منذ أربعة عشر عامًا، كي تأتيا لمساعدتنا. «جاهزة؟» سألني الطبيب وهو ينظر إليّ من فوق نظَّارته، وأجبت بإيماءة من رأسي لأنَّ صوتي لم يخرج من حلقي. حرَّك القاطعة فتوقَّف فجأة خرير الهواء في الأنبوب الشفَّاف الموصول بعنقك. وتوقَّفت أنا أيضًا عن التنفُّس، بينما الساعة في يدي تُحصي الثواني متوسّلة، داعية إيَّاك إلى التنفُّس، يا باولا، أرجوك. كلّ برهة تركت أثرها فيّ مثل ضربة سَوْط. ثلاثون... أربعون ثانية، لا شيء. خمسُ ثوان أخرى، وبدا أنَّ صدرك يتحرَّك قليلًا، ولكنَّها حركة خفيفة يمكن لها أن تكون وهمًا. خمسون ثانية... ولم يعد في إمكانك تحمُّل المزيد، فقد كنت مستنفَدة وأنا نفسي كنت أختنق. وعاد الجهاز إلى العمل وسرعان ما عاد شيء من اللون إلى وجهك. خبَّأت الساعة وأنا أرتجف، كانت

بشرتي تتوقَّد، وكنت مضمَّخة بالعرق. قدَّم إليَّ الطبيب قطعة شاش قائلًا:

ـ امسحي، هناك دم على شفتيك.

«سنحاول ثانية في المساء، وغدًا مرَّة أخرى، وهكذا قليلًا قليلًا إلى أن تستطيع التنفُّس وحدها»، قلتُ ذلك فور أن استعدت القدرة على الكلام.

ـ ربَّما لن تتمكَّن باولا من التنفُّس.

ـ بل ستستطيع، يا دكتور. سأُخرجها من هذا المكان، ومن الأفضل أن تساعدني هي نفسها.

ابتسم وهو يربت على كتفي بحنان:

ـ أظنُّ أنَّ الأمّهات يعرفن دائمًا أكثرَ منَّا. سنخفض تدريجيًّا جهاز التنفُّس لنجبرها على تمرين رئتيها. لا تقلقي، لن ينقصها الأوكسجين.

خرجتُ وعيناي مخضَّلتان لألتقي مع أمّي، وأظنّ أنَّ طيفَي ميمي وغراني بقيا معك.

جاء ويللي فور علمه بالنوبة الجديدة. استطاع أن يترك مكتبه مدَّةَ خمسة أيَّام هذه المرَّة؛ خمسة أيَّام كاملة سأمضيها معه... كم أنا في حاجة إلى ذلك! فترات الفراق الطويلة هذه خطرة، فالحبّ يتسرَّب في رمال رجراجة. يقول لي: «أخشى فقدانك، أشعر بأنَّك تبتعدين أكثر فأكثر ولا أدري كيف أوقفك، تذكَّري أنَّك زوجتي... روحي». لم أنسَ ذلك، ولكنَّني في الحقيقة أَمضي مبتعدة. فالألم طريق انفراديّ.

هذا الرجل يحمل إليّ نسمة رطبة، فالخُطوب صقلت طبعه وليس هناك ما يقهره. لديه صلابة لا تنضب في مواجهة الصراعات اليوميَّة، وهو قَلِق ومتعجِّل، ولكنَّه يستغرق في سكينة بوذيَّة حينما يتوجَّب عليه تحمُّل المصائب، ولهذا فإنَّه رفيق طيِّب في المصاعب أيضًا. إنَّه يحتلّ كامل مساحة جناحنا الضيِّقة في الفندق، ويقلب الروتين الذي أقمته أنا وأمِّي رأسًا على عقب، ويحرِّكنا مثل راقصتين في جوقة ضيِّقة. إنَّ شخصًا بحجم ويللي وطباعه لا يمكن له أن يمرّ مرور الكرام من دون تأثير، فعندما يأتي يعمّ المكانَ الصخبُ والفوضى، وموقدنا الصغير لا ينطفئ. فالمبنى كلّه يعبق برائحة طبيخه الطيِّب الذي يُعدّه. استأجرنا غرفة أخرى وصرت أتناوب مع أمِّي الذهابَ إلى المستشفى، فهكذا أستطيع البقاء معه على انفراد بضع ساعات. إنَّه يعدّ الفطور في الصباح، ثم يستدعي بعد ذلك حماته التي تأتي بقميص النوم وجورب صوفيّ طويل، متلفِّعة بشالات، وعلى خدِّها أثر الوسادة، مثل جدَّة طيِّبة في حكاية، وتجلس في سريرنا لنبدأ اليوم بخبز محمّص وفناجين من القهوة الشذيَّة التي أحضرها معه من سان فرانسيسكو. لم يعرف ويللي ما هي الأُسرة إلى أن بلغ الخمسين من عمره، ولكنَّه اعتاد بسرعة تقاسم مكانه مع أُسرتي، ولم يعد يُفاجَأ حين يطلع عليه الصباح ونكون نحن الثلاثة في السرير. خرجنا الليلة الماضية لتناول العشاء في أحد مطاعم بلازا مايور حين أنقدنا لإغواء أصحاب مطاعم شعبيَّة متنكِّرين في أزياء مهرِّبين في أو مرا، وقد استضافونا في قاعة من الأحجار لها سقف مقنطر. كان الجميع هناك يدخِّن من دون وجود نافذة واحدة مفتوحة، فقد كنَّا بعيدين جدًّا عن الهَوَس الأميركي بالصحَّة. وأتخمنا باللذائذ القاتلة: حبّارٍ مقليّ مع الفطر والثوم،

وخروفٍ مشويّ في جفنة فخّاريّة حيث اللحمُ الذهبيُّ اللون يطقطق ويقطر دهنًا ويعبق برائحة الأعشاب التقليديّة، وإبريقٍ من شراب السنغريا، هذا النبيذ اللذيذ الممزوج مع الفواكه، والذي يمكن شربه كما الماء، لكنّه يضرب ضربته مثل الهراوة على الرقبة بعد ذلك حين يحاول المرء النهوض. لم نأكل وجبة مثل هذه منذ أسابيع، فأنا وأمّي نتلهّى طوال اليوم بفناجين الشوكولاتة السائلة. لقد أمضيت ليلة مؤثّرة تملأها الرؤى الغائمة لخنازير مسلوخة تبكي مصيرها، وحبّارات حيّةٍ تتسلّق على ساقيّ، فأقسمت صباح هذا اليوم بأن أتحوّل إلى نباتيّة مثل أخي خوان. لا مزيد من خطايا الشراهة. إنّ هذه الأيّام مع ويللي تجعلني أتجدّد، أحسّ من جديد بجسدي الذي نسيته لأسابيع. ألمس نهدَيّ، وأضلاعيَ التي أعرف الآن أنّها بارزة تحت الجلد، وخصريَ، وفخذيَّ الثخينتين، وأتعرّف إلى نفسي. هذه أنا: إنّني امرأة لي اسمٌ. اسمي إيزابيل، لم أتحوّل إلى دخان، ولم أختفِ. أراقب نفسي في مرآة جدّتي الفضّيّة: هذه المرأة ذات العينين الحزينتين هي أنا. لقد عشت نحو نصف قرن، وابنتي تموت، ولكنّني ما زلت مع ذلك راغبةً في ممارسة الحبِّ. أفكّر في حضور ويللي الراسخ، فأشعر بقشعريرة في جلدي، ولا أستطيع سوى الابتسام حيال السلطة العميقة للشهوة التي تهزّني على الرّغم من الحزن، والقادرةِ على دفع الموت إلى التراجع. أُغمض عيني لحظة وأتذكّر بصفاء المرّة الأولى التي نمنا فيها معًا، والقبلةَ الأولى، والعناقَ الأول، والاكتشافَ المذهل لحبٍّ يبرز في وقت لم يكن يخطر في بال، والحنانَ الذي داهمنا فجأة حين اعتقدنا أنّنا في منجًى من مغامرة ليلة واحدة فقط، والحميميّةَ العميقة التي وُلدت بيننا منذ البداية، وكأنّنا كنّا نستعدّ طوال حياتنا كلّها من

أجل هذا اللقاء، والسعادةَ والهدوء والثقة التي مارسنا الحبّ بها، سعادةَ زوجين عتيقين تقاسما معًا ألف ليلة وليلة، وهدوءهما وثقتهما. وبعد إشباع العواطف وتجديد الحبّ في كلٍّ مرَّة، كنَّا ننام متلاصقين تمامًا من دون أن نهتمّ أين يبدأ أحدنا وأين ينتهي الآخر، ولا لمن هذه الأيدي أو تلك الأقدام، بتواطؤ كامل يجعلنا نلتقي في الأحلام ولا نعرف في اليوم التالي مَن الذي حلم بالآخر. وعندما يتحرَّك أحدنا بين الشراشف، يستريح الآخر في الزوايا والانحناءات. وعندما يتنهَّد أحدنا يتنهَّد الآخر. وعندما يستيقظ أحدنا يستيقظ الآخر أيضًا. «تعالي»، يناديني ويللي، فأدنو من هذا الرجل الذي ينتظرني في السرير. وبينما أنا أرتعش من برودة المستشفى والشارع ومن البكاء المكبوح والذي يتحوَّل إلى صقيع في أوردتي، أخلع قميص نومي وأتدثَّر بجسده الضخم، يغطِّيني عناقه إلى أن يبعث الدفء في جسدي. وشيئًا فشيئًا ينتبه كلٌّ منَّا إلى أنفاس الآخر المنهدِّجة، وتصبح المداعبات أكثر أناة وكثافة كلَّما ازداد استسلامنا للذَّة. يقبِّلني، فتفاجئني من جديد رقَّةُ شفتيه ونداوتُهما، مثلما يحدث في كلِّ مرَّة خلال هذه السنوات الأربع. أتشبَّث بكتفيه القويَّتين وعنقه، أداعب ظهره، أقبِّل فجوة أذنيه، والجمجمةَ الرهيبة المرسومة وشمًا على ذراعه اليمنى، وخطَّ الشعر الناعم على بطنه، وأستنشق رائحته السليمة؛ هذه الرائحة التي تستثيرني دائمًا، وأستسلم للحبِّ شاكرة، بينما يسيل من عيني نهرُ دموع لا مفرَّ منها تسقط على صدره. إنَّني أبكي أسفًا عليك يا ابنتي، ولكنَّني أظنّ أنَّني أبكي كذلك من السعادة بهذا الحبِّ المتأخِّرُ والذي جاء ليبدِّل حياتي.

كيف كانت حياتي قبل ويللي؟ كانت حياة جيِّدة أيضًا، مفعمةً

بالانفعالات القويَّة. لقد عشت في الشدائد، وكانت قليلةً الأشياءُ السهلة والناعمة بالنسبة إليَّ، وربَّما كان هذا هو السبب في أنَّ زواجي الأوَّل استمرَّ سنوات طويلة؛ فقد كان واحة هادئة؛ منطقةً لا نزاعات فيها وسط محيط تسوده المعارك. وما سوى ذلك كان مجرَّد جهود أبذلها. أتقدَّم كلّ خطوة والسيف في يدي، من دون لحظة هدنة أو ملل. لقد عشت نجاحات عظيمة وإخفاقات مدوِّية؛ عواطفَ وغراميَّات، ووحدةً وعزلة، وعملًا، وخساراتٍ وخذلانًا. لقد كنت أظنّ، حتى الانقلاب العسكريّ، أنَّ شبابي سيستمرّ إلى الأبد. وكان العالم يبدو لي مكانًا رائعًا، والناس يبدون طيِّبين في جوهرهم، وكنت أعتقد أنَّ الشرّ هو نوع من الحدث الطارئ، وأنَّه خطأ من أخطاء الطبيعة. ولكن هذا كلّه انتهى فجأة يوم ١١ أيلول ١٩٧٣، عندما استيقظت على فظاظة الوجود، ولكنَّني لم أصل بعد إلى تلك الوقائع في هذه الصفحات، فلماذا أشوِّشك بقفزات الذاكرة، يا باولا. لم أبقَ عانسًا، مثلما قلت في تلك الوثائق الدراماتيكيَّة التي ترقد في صندوق خزنة العمّ رامون، بل على العكس من ذلك تمامًا، فقد تزوَّجت في سنٍّ مبكرة. وعلى الرَّغم من العهد الذي قطعه ميشيل لأبيه، فإنَّنا قرَّرنا أن نتزوَّج قبل أن يُنهي دراسة الهندسة، وإلَّا فإنَّه كان عليّ أن أذهب مع أبَوَيّ إلى سويسرا، حيث جرى تعيينهما ممثِّلين لتشيلي لدى الأمم المتَّحدة. لقد كان راتبي يُتيح لي استئجار غرفة والعيش بصعوبة، ولكنّ استقلال فتاة في التاسعة عشرة من عمرها وبقاءَها مع خطيبها من دون رقيب كانا أمرًا غير مقبول في سنتياغو في تلك الحقبة. لقد قلبتُ الاحتمالات لبضعة أسابيع، إلى أن تولَّت أمِّي زمام المبادرة في مفاتحة ميشيل بالأمر ووضعه بين السيف والزواج، تمامًا مثلما فعلت بعد ستَّة

وعشرين عامًا مع زوجي الثاني. أجرينا حساباتنا بورقة وقلم رصاص، وتوصّلنا إلى أنَّ راتبي لا يكاد يكفي لمعيشة شخصين إلّا بشقّ الأنفُس، ولكنَّ المحاولة كانت جديرة بالتجربة. تحمّست أمّي على الفور لإعداد الترتيبات، وكان أوّل إجراء أقدمتْ عليه بيعَ سجّادة المطبخ الفارسيَّة الكبيرة، ثم أعلنت بعد ذلك أنَّ حفلة الزفاف هي فرصة للتخلُّص من كلّ ما في البيت ورميِه من النافذة، وأنَّ بيتي سيكون آية في الروعة. وبدأت تخزِّن المؤن بتكتُّم في غرفة سرِّيَّة كي تجنِّبنا التعرُّض للجوع على الأقلّ، وملأت عدَّة صناديق بالشراشف والمناشف وأدوات المطبخ، واستقصت عن الكيفيَّة التي يمكننا بها الحصول على قرض لبناء بيت. وعندما وضعت الوثائق أمامنا ورأينا حجم الديون، أُصيب ميشيل بانهيار. فهو بلا عمل، وأبوه المنزعج من قرار الزواج المتسرّع لم يكن مستعدًّا لمساعدته، ولكن قدرة أمّي على الإقناع كانت مفحمة، وقد جعلتنا نوقّع الأوراق في النهاية. جرت مراسم الزفاف المدنيّ في يوم ربيعيّ في بيت والدَيّ المُشَيَّد على الطراز الكولونياليّ، وكان احتفالًا حميمًا اقتصر على أفراد الأُسرتين، أي نحو مئة شخص فقط. وقد أصرَّ العمّ رامون على دعوة والدي، لأنَّه يجب ألاَّ يغيب في مثل هذه اللحظة المهمّة من حياتي، ولكنّني رفضت دعوته، فمثَّل أسرة والدي يومذاك سلڤادور ألليندي الذي وقّع في سجلّ الأحوال المدنيَّة بصفة شاهد على زفافي. وقبل مجيء موثّق العقود بقليل، أمسكني جدّي من ذراعي وأخذني جانبًا، وكرَّر عليّ الكلماتِ نفسَها التي كان قد قالها لأمّي قبل عشرين سنة: «ما زال أمامك متَّسع من الوقت للتراجع، أرجوك ألّا تتزوَّجي، فكّري في الأمر جيّدًا. إشارة واحدة منك وسأتولّى تفريق هذا الحشد، ما

رأيك؟» لقد كان يعتبر الزواج صفقة مشؤومة بالنسبة إلى النساء، ولكنّه كان يشجّع أبناءه الذكور، في المقابل، على الزواج من دون تحفُّظ. بعد أسبوع من ذلك، أجرينا طقوس الزفاف وفق الشعائر الكاثوليكيّة بالرَّغم من كوني لا أمارس هذه الديانة عمليًّا، ومن كون ميشيل إنجليكانيًّا، لأنَّ وزن الكنيسة في الوسط الذي ترعرعت فيه كان بثقل حجر الطاحون. دخلت الكنيسة بكبرياء وأنا أمسك بذراع العمّ رامون الذي تخلّى عن اقتراح مبادرات تتعلّق بوالدي إلى ما بعد زمن طويل، حين كان علينا أن نتولّى دفنه. وقد بدونا، ونحن كعروسين، في الصور الفوتوغرافيّة الملتقَطة ذلك اليوم، مثلَ طفلين متنكّرين: هو ببدلة فراك رسميّة على مقاسه، وأنا ملفوفة بأمتار وأمتار من القماش الذي كنّا قد اشتريناه من السوق في دمشق. وعملًا بالتقاليد الإنكليزيّة، أهدتني حماتي رباط أجربة سماويًّا من أجل حسن الطالع. وكنت أضع في نصفي العلويّ حشوات كثيرة من اللدائن تحت ملابسي. وعند معانقة التهنئة الأولى، وأنا لا أزال أمام المذبح، سحق المهنئون صدري وأصبح نهداي مقعَّرين. ثم أُفلت رباط الأجربة عن ساقي وبقي ملقًى في ممرّ الكنيسة، كشاهد طائش على الحفلة. وقد ثُقبت إحدى عجلات السيّارة التي حملتنا إلى الحفلة، وكان على ميشيل أن يخلع سترة الفراك ويساعد السائق على استبدال العجلة المثقوبة. لكنّني لا أعتقد أنَّ جميع هذه التفاصيل كانت نُذُر شؤم.

سافر أبواي إلى جنيف، وبدأنا نحن حياتنا الزوجيّة في ذلك البيت الفسيح، ببدل إيجار عن ستّة شهور كان قد دفعه العمّ رامون، وبالتموين الذي كانت أمّي قد خزّنته مثل أنثى عقعق سخيّة: أكياس حبوب كثيرة، ومأكولات معلّبة، وحتى زجاجات من النبيذ، تكفي

لمواجهة كارثة نهاية العالم. ولكن ذلك الحلّ لم يكن عمليًا تمامًا، لأنَّنا لم نكن نملك أثاثًا لكلِّ تلك الغرف الكثيرة ولا نقودًا للتدفئة والنظافة والحديقة. كما أنَّ البيت كان يبدو مهجورًا حين نخرج منذ الفجر إلى العمل في المكتب وإلى الجامعة. وقد سرق بعضهم البقرة، والخنزيرَ، والدجاجاتِ، وثمارَ الأشجار، ثم كسروا النوافذ وسطوا على هدايا زفافنا وملابسنا، واكتشفوا أخيرًا مدخل مغارة المؤن السرِّيَّة فسرقوا محتوياتها وتركوا لنا على الباب ملاحظة شكر كسخرية أخيرة. هكذا، بدأت سلسلة السرقات التي أضفَتْ على حياتنا متعة كبيرة، وأظنّ أنَّ اللصوص قد دخلوا مختلف البيوت التي سكناها أكثر من سبع عشرة مرَّة، وانتزعوا منَّا كلّ شيء تقريبًا، بما في ذلك ثلاث سيَّارات. والمعجزة هي أنَّ أحدًا لم يمسّ مرآة جدَّتي الفضِّيَّة. لقد فقدتُ أشياء كثيرة جدًّا في البساتين والمنفى والطلاق والرحلات، حتى إنَّني لا أكاد أشتري الآن شيئًا حتى أبدأ بوداعه، لأنّي أعرف أنَّه لن يبقى بين يديّ إلَّا وقتًا قصيرًا. عندما اختفى الصابون من الحمَّام والخبزُ من المطبخ، قرَّرنا ترك ذلك البيت الهرم والفارغ، حيث العناكبُ تنسج الدانتيلّا على السقوف، والجرذانُ تخطر بكبرياء. وكان جدِّي، في أثناء ذلك، قد هجر العمل، وودّع إلى الأبد أغنامه وانتقل إلى بيت الشاطئ الخرب ليمضي بقيَّة شيخوخته بعيدًا عن ضجيج العاصمة منتظرًا الموتَ باطمئنان مع ذكرياته، من دون أن يخطر في باله أنَّه سيبقى في هذا العالم عشرين سنة أخرى. لقد تخلَّى لنا عن بيته في سنتياغو، حيث استقرَّ بنا المقام بين أثاث وقور، ولوحاتٍ من القرن التاسع عشر، وتمثالِ الفتاة الساهمة المرمريّ، ومائدةِ غرفة الطعام البيضاويَّة والتي كانت تنزلق عليها السكَّريَّة بقدرة ميمي

السحريَّة. ولكنَّنا لم نُقم هناك لوقت طويل، لأنَّنا شيَّدنا خلال الشهور التالية، بالجرأة والديون، بيتَنا الصغير الذي سيرى فيه إبناي النورَ.

داهمتني، بعد شهر من الزواج، آلامٌ حادَّة في أسفل البطن، عزوتُها، بسبب الجهل والبلبلة، إلى مرض تناسليّ. لم أكن أعرف حقيقة ذلك المرض، ولكنَّني كنت أفترض أنَّ له علاقة بالجنس والزواج. لم أجرؤ على مفاتحة ميشيل بالأمر، لأنِّي كنت قد تعلَّمت في البيت، وفي المدرسة الإنكليزيَّة، أنَّ الموضوعات المتعلِّقة بالجسد لها وقع سيِّئ؛ ولم يكن في إمكاني كذلك الذهابُ إلى حماتي لطلب نصيحتها؛ كما أنَّ أمِّي كانت بعيدة جدًّا. وهكذا، اضطررت إلى التحمُّل من دون كلمة واحدة إلى أن لم أعد أستطيع المشي إلَّا بمشقّة. وفي أحد الأيَّام، وبينما كنت أدفع عربة مشتريات بمشقَّة في السوق، التقيت والدة خطيبة أخي السابقة، وهي سيِّدة رقيقة ورصينة لم أكن أعرفها إلَّا معرفة عابرة. وكان أخي بانتشو لا يزال آنذاك يقتفي أثر المسيح الجديد، وكانت علاقته الغراميَّة مقطوعة بالفتاة، ولكنَّه بعد سنوات من ذلك سيتزوَّجها مرَّتين ويطلِّقها مرَّتين أيضًا. سألتني السيِّدة الطيِّبة بلطف عن أحوالي، وقبل أن تنتهي من سؤالها تعلَّقت بعنقها وبادرتها من دون مقدِّمات بأنَّني أكاد أموت من السفلس. فأمسكتني من ذراعي بهدوء مدهش وقادتني إلى محلّ حلويات قريب، فطلبت قهوة وقطع حلوى، ثم سألتني عن تفاصيل اعترافي المدوِّي. التهمنا آخر قطعة حلوى، ثم قادتني مباشرة إلى طبيب من معارفها، فشخّص الحالة على أنَّها التهاب في المجاري البوليَّة، ربَّما يكون سببها التيَّارات الهوائيَّة الجليديَّة في البيت الكولونيالي، ووصف لي الراحة في الفراش وبعضَ المضادَّات الحيويَّة، وودَّعني بابتسامة ساخرة، وقال: عندما

تُصابين بالسفلس في المرَّة القادمة لا تتأخَّري كثيرًا، تعالي إليَّ بسرعة. كانت تلك الحادثة بداية صداقة غير مشروطة بتلك السيِّدة. وقد اعتادت كلٌّ منَّا الأخرى لأنَّني كنت في حاجة إلى أمٍّ أخرى، ولأنَّه كان لديها متَّسع في قلبها، وصرت أدعوها الجدَّة هيلدا، وأدَّت منذ ذلك الحين هذا الدور بكلِّ إخلاص.

ابناي هما اللذان تحكَّما في حياتي. فمنذ ولادتهما لم أعد أفكِّر في أبعاد فرديَّة، بل صرت جزءًا من ثلاثيّ لا ينفصم. في إحدى المرَّات، قبل سنوات عديدة، أردت أن أعطي الأولويَّة لعشيق، ولكنَّني لم أستطع ذلك وتخلَّيت عنه أخيرًا لأعود إلى أُسرتي. هذا موضوع سنتحدَّث عنه فيما بعد، يا باولا، ويكفي صمتنا عليه حتى الآن. لم يخطر في بالي على الإطلاق أنَّ الأمومة هي أمر اختياريّ، بل كنت أعتبرها شيئًا لا مفرَّ منه، مثل توالي الفصول. لقد كنت أعرف أنَّني حامل قبل أن يؤكِّد العلم ذلك، فقد ظهرتِ لي في حلم قبل أن أحبَل بك، مثلما ظهر لي فيما بعد أخوك نيكولاس. ولم أفقد هذه المقدرة حتى الآن، فما زلت قادرة على كشف أبناء كنّتي. وقد حلمت بحفيدي أليخاندرو قبل أن يخطر في بال والديه أنَّهما سينجبانه، وأنا أعرف أنَّ المولود الذي سيأتيهما في الربيع سيكون أنثى، وستُسمَّى أندريا، ولكن نيكولاس وسيليا لا يصدِّقان ذلك حتى الآن وهما يخطِّطان لإجراء تصوير بالإيكو، ويضعان قائمة من الأسماء لاختيار اسم للمولود المنتظَر. وعندما حلمت بك أوَّل مرَّة كان عمرك سنتين، وكان اسمك باولا. كنت طفلة نحيلة، ذاتَ شعر قاتم، وعينين سوداوين واسعتين ونظرةٍ خامدة، مثل نظرة الشهداء في منمنمات القرون الوسطى

الزجاجيَّة في بعض الكنائس. وكنت ترتدين معطفًا وقبَّعة من قماش ذي مربَّعات، مثل الزيّ التقليديّ لشارلوك هولمز. وفي الشهور التالية، كبر بطني كثيرًا حتى إنَّني عندما انحنيت في صباح أحد الأيَّام لأنتعل حذائي، سقطتُ على رأسي وأصبحت قدماي إلى أعلى، فقد تدحرجت البطّيخة التي في بطني نحو حنجرتي مغيِّرةً مركزَ توازني، ولم يعد بعد ذلك قطّ إلى موقعه الأصلي، ولهذا ما زلت أمضي في الدنيا متعثِّرة. لقد كان الوقت الذي أمضيتِه في أحشائي زمنَ سعادة كاملة، ولم أعد إلى الشعور برفقة أفضل من تلك. فقد تعلَّمنا التواصلَ معًا في لغة ملغَّزة، وعرفتُ كيف ستكونين طوال حياتك. رأيتك وأنت في السادسة، وفي الخامسة عشرة، وفي العشرين من عمرك. رأيتك بالشعر الطويل والابتسامة السعيدة. رأيتك وأنت ترتدين بلوزات، وفي فستان الزفاف، ولكنَّني لم أرك قطّ مثلما أنت الآن، تتنفَّسين من أنبوب في عنقك، خامدة وغائبة عن الوعي. لقد انقضى ما يزيد على تسعة شهور ولم تكن لديك رغبة في مغادرة المغارة الهادئة التي كنت تستقرّين فيها، فقرَّر الطبيب اتّخاذ إجراء حازم وفتح بطني ليُخرجك إلى الحياة في الثاني والعشرين من تشرين الأوَّل عام ١٩٦٣. الشخص الوحيد الذي كان إلى جانبي في تلك اللحظة هو الجدَّة هيلدا، لأنَّ ميشيل سقط طريح الفراش محمومَ الأعصاب، وأمِّي كانت في سويسرا، ولم أشأ إخبار حَمَوَيَّ قبل أن ينتهي كلّ شيء. لقد كنتِ مخلوقًا مغطًّى بالشعر، وكان فيك شيء من المدرَّع، ولكنَّني لم أكن لأستبدلك بأيِّ طفل آخر، وسرعان ما بدأ ذلك الزغب يسقط عنك لتتكشَّفي عن طفلة رقيقة وجميلة مزيَّنة بلؤلؤتين لامعتين في الأذنين أصرَّت أمِّي على أن تهديك إيَّاهما عملًا بتقليد عائليّ قديم. رجعتُ

إلى العمل بسرعة، ولكن شيئًا لم يعد مثلما كان من قبل، فنصف وقتي واهتمامي ونشاطي صار مكرَّسًا لك، وطوَّرت في نفسي قرونَ استشعار لأحزر احتياجاتك حتى وأنا بعيدة عنك. كنت أذهب إلى العمل وأنا أجرّ قدميّ، وأبحث عن ذريعة للهرب... أصل متأخِّرة، وأخرج مبكرة وأدّعي المرض لأبقى في البيت. فرؤيتك تكبرين وتكتشفين العالم كانت في نظري أهمّ ألف مرَّة من الأمم المتَّحدة وبرامجها الطموحة لتحسين مستقبل الأرض. كنت أحسب الساعات المتبقِّية لحصول ميشيل على شهادة الهندسة وتمكّنه من الإنفاق على الأُسرة حتى أستطيع البقاء معك. وفي أثناء ذلك، انتقل حمواي إلى بيت فسيح يبعد كوادرة واحدة عن البيت الذي كنّا نشيِّده نحن، واستعدّا لقضاء بقيَّة أيَّامهما في تدليلك. وكانت لديهما فكرة ساذجة عن الحياة لأنَّهما لم يغادرا من قبل قطّ الوسطَ الذي كان يوفّر لهما الحماية من الشدائد. وكان المستقبل يبدو لهما حالمًا، مثلما كان يبدو لنا أيضًا. فلا يمكن لأيِّ شرٍّ أن يُصيبنا ما لم نُقْدِم على اقتراف الشرّ. وكنت أعدّ نفسي لأكون زوجة وأمًّا مثاليَّة، مع أنَّني لم أكن أعرف جيِّدًا كيف أفعل ذلك. وكان ميشيل يخطِّط للعثور على عمل جيِّد في مهنته، والعيش حياة مريحة، والسفر بعض الشيء، وأن يرث، بعد زمن طويل، بيتَ أبويه الكبير، حيث سيمضي شيخوخته مُحاطًا بأحفاده وهو يلعب البريدج والغولف مع أصدقائه المعروفين أنفسهم.

لم يتحمَّل جدِّي طويلًا الضجر والوحدة على الشاطئ، فكان عليه أن يتخلَّى عن حمَّاماته البحريَّة لأنَّ الحرارة الجليديَّة لتيَّار هومبولدت جمَّدت عظامه، وأن يتخلَّى كذلك عن خروجه للصيد لأنَّ مصفاة

البترول كان قد قضت على أسماك المياه العذبة والمالحة، على السواء. وكان يزداد عرجًا وشيخوخة يومًا في إثر يوم، ولكنَّه حافظ على وفائه لنظريَّته بأنَّ الأمراض هي عقاب طبيعيّ للبشريَّة، وأنَّ الشعور بالآلام يتضاءل كلَّما تجاهلها أحدنا. وكان يُبقي نفسه منتصبًا على قدميه بفضل شراب الجنّ وأقراص الأسبرين التي استبدلها بأقراص أدوية الطبِّ التجانسيّ حين لم تعد هذه تؤثّر فيه. ولم يكن انعدام مفعولها مستغربًا، فمنذ طفولتنا لم نستطع، أنا وشقيقاتي، مقاومةَ إغراء علبة الأدوية الخشبيَّة القديمة المترعة بزجاجات غريبة، ولم نكن نكتفي بتناول حفنات من أدويته التجانسيَّة، وإنَّما كنَّا نخلط محتويات عبواتها أيضًا. لقد انفرد العجوز بنفسه بضعة أشهر من الصمت في بيت الشاطئ ليراجع ذكرياته ويستخلص أنَّ الحياة مهمَّة جيِّدة، وأنَّه يجب عدم الخوف من مغادرتها. وكان يكرِّر بكثرة: «نحن ننسى أنَّنا نسير في اتِّجاه الموت في أيِّ حال». وقد كان شبح ميمي يضيع في الشعاب الباردة لذلك البيت الذي شُيِّد لمتع الصيف، ولكنَّه لم يكن يصلح على الإطلاق لرياح الشتاء وأمطاره. والأدهى من ذلك كلّه، أنَّ الببغاء أُصيبت بنزلة صدريَّة حادَّة لم تنفع معها الأدوية التجانسيَّة ولا أقراصُ الأسبرين المُذابة في الجِنّ، والتي كان العجوز يسكبها في منقارها بقطَّارة، وقد طلع عليها صباح أحد أيَّام الاثنين وهي متيبِّسة عند قاعدة الحمّالة التي أمضت عليها سنوات طويلة وهي تشتمنا. بعث بها التاتا مغلَّفةً بالثلج إلى محنِّط حيوانات في سنتياغو، فأعادها المحنِّط إليه محنَّطة بعد وقت قصير، بريش جديد ونظرة ذكيَّة لم تكن تتمتَّع بها أبدًا وهي حيَّة. وعندما انتهى من إصلاح آخر أعطال البيت وتعب من الصراع ضدَّ تأكُّل الرابية الذي لا يتوقَّف، وضدَّ

جوائح النمل والصراصير والجرذان، كانت قد انقضت عليه سنة من العزلة أتلفت طباعه. بدأ يتابع مسلسلات التلفزيون كملاج يائس أخير لمواجهة السأم، ولكن هذه الرذيلة أخذت تهيمن عليه من دون أن ينتبه. وبعد وقت قصير، صار يهتمّ بمصير تلك الشخصيَّات الكرتونيَّة أكثر من اهتمامه بمصير أفراد أسرته أنفسهم. وكان يتابع عدَّة مسلسلات تلفزيونيَّة في وقت واحد، فاختلطت عليه القصص وانتهى به الأمر إلى الضياع في متاهة عواطف الآخرين، وأدرك عندئذ أنَّ الوقت قد حان للعودة إلى الحضارة قبل أن يوجّه إليه مخلبُ الشيخوخة ضربتَه الأخيرة ويحوِّله إلى عجوز خرف. رجع إلى العاصمة حين كنَّا نستعدّ للانتقال إلى بيتنا الجديد، وهو كوخ مسبق الصنع شيَّده بضربات المطارق ستَّةُ عمَّال، وتُوِّج بباروكة من القشّ على السقف تُضفي عليه مسحة أفريقيَّة. عدت إلى عادتي القديمة في زيارة جدّي بعد الخروج من العمل. وكنت قد تعلَّمت سياقة السيَّارة التي أتناوب عليها مع ميشيل، وهي سيَّارة بلاستيكيَّة بدائيَّة جدًّا، لها باب واحد في المقدِّمة ما إن ينفتح حتى تتدلَّى لوحة القيادة والمقود. ولأنّي لست سائقة جيِّدة، فقد كانت مواجهة حركة المرور عملًا انتحاريًّا وأنا في تلك البيضة الميكانيكيَّة. لقد وفَّرت لي زياراتي اليوميَّة لجدِّي مادَّة كافية لكلِّ الكتب التي ألَّفتها، وربَّما لتلك التي سأكتبها فيما بعد. فقد كان راويةً بارعًا، يتمتَّع بمرح خادع، يمكّنه أن يروي أشدّ القصص رعبًا وفظاعة وهو يطلق القهقهات. وقد نقل إليَّ من دون تحفُّظ كلَّ النوادر والحكايات وشذوذات أسرتنا والمعارف غير المحدَّدة التي اكتسبها من مطالعاته. كان الموضوعان الوحيدان المحرَّمان في حضوره، الدينَ والمرض؛ فقد كان يرى أنَّ الربّ ليس مادَّة للنقاش، وأنَّ كلّ ما يتعلَّق

بالجسد ووظائفه هو مسألة خاصَّة جدًّا، بل إنَّ النظر إلى المرآة كان في رأيه غرورًا مضحكًا، ولهذا كان يحلق ذقنه عن ظهر قلب. ولم تكن تنقصه المرونة على الرَّغم من طبعه المتسلِّط. فعندما بدأت العمل كصحافيَّة، ووجدت لغة متماسكة لأعبِّر عن إحباطاتي كامرأة وسط هذه الثقافة الذكورية، لم يُبدِ رغبة في الاستماع إلى حججي في أوَّل الأمر، لأنَّها لم تكن في رأيه إلَّا مجرَّدَ ترّهات واعتداء على مرتكزات الأُسرة والمجتمع، ولكنَّه حين انتبه للصمت السائد بيننا في جلسات تناولنا الشاي والبسكويت عصرًا، بدأ يستجوبني بمواربة. وفي أحد الأيَّام، فاجأته وهو يتصفَّح كتابًا بدا لي أنَّني تعرَّفت إلى غلافه، ومع مرور الوقت توصَّل إلى تقبُّل تحرُّر المرأة باعتباره مسألة عدالة أساسيَّة، ولكنَّ الزمن لم يمهله للوصول إلى تغيّرات اجتماعيَّة، فقد كان في شؤون السياسة فرديًّا ومحافظًا، مثلما كان في الشؤون الدينيَّة. لقد طلب منِّي في إحدى المناسبات أن أساعده في مماته، لأنَّ الموت يأتي بطيئًا ومضطربًا في العادة.

فسألته بمرح وأنا أظنّ أنَّه يمزح:

ـ وكيف تريدني أن أساعدك؟

ـ سنرى ذلك عندما يحين الوقت. ولكنَّني أريدكِ الآن أن تعاهديني على ذلك.

ـ إنَّه عمل غير شرعي يا تاتا.

ـ لا تقلقي، أنا سأتحمَّل كامل المسؤوليَّة.

ـ أنت ستكون في القبر وأنا سيرسلونني إلى السجن مباشرة. ثم إنَّ عمل ذلك خطيئة من دون شكّ. ألستَ مسيحيًّا؟

ـ كيف تتجرَّئين على سؤالي مثل هذا السؤال الشخصيّ!

ـ لكن طلبك أن أقتلك هو أكثر شخصيَّة، ألا ترى ذلك؟

ـ إذا أنت لم تفعلي ذلك بالرَّغم من كونك حفيدتي الكبرى والوحيدة والقادرة على مساعدتي، فمن الذي سيفعل؟ من حقّ الإنسان أن يموت بكرامة ووقار!

انتبهت إلى أنَّه جادٌّ في كلامه. فوعدته بتنفيذ رغبته في نهاية المطاف لأنَّني رأيته قويًّا وسليمًا تمامًا على الرَّغم من سنوات عمره الثمانين، وكنت أعتقد أنَّني لن أضطرّ أبدًا في الواقع إلى تنفيذ وعدي. بعد شهرين من ذلك، بدأ يسعل، وكان السعال جافًّا كسعال كلب مريض. استولى عليه الغضب، ولفّ حول صدره حزامَ سرج حصان. وحين كانت نوبة السعال تخنقه، كان يشدّ الحزام بقوَّة وحشيَّة كي يثبِّت رئتيه في مكانهما، مثلما أوضح لي. رفض الاستلقاء في السرير موقنًا بأنَّ ذلك هو بداية النهاية ـ كان يقول: من الفراش إلى القبر ـ، كما أنَّه رفض استدعاء أيّ طبيب لأنَّ بينجامين بيبل كان يجوب آنذاك الولايات المتَّحدة منهمكًا في مسألة موانع الحمل، وكان الأطبَّاء من جيله قد ماتوا أو تقاعدوا، ولم يكن جدِّي يرى في الأطبَّاء الشباب سوى ثرثارين منفوخين بالنظريَّات الحديثة. فكان لا يثق إلَّا بشيخ أعمى يُليِّن له عظامه بشدِّها بقوَّة، وبعلبة أقراص نزواته التجانسيَّة التي كان ينظِّم تناولها بدافع الأمل أكثر من المعرفة. وسرعان ما أخذ يتَّقد بالحمَّى فحاول الشفاء بكؤوس كبيرة من الجنّ وحمَّامات ماء بارد جدًّا، ولكنَّه أحسّ بعد ليلتين بصاعقة تشقّ رأسه وبضجَّة زلزال تصمّ أذنيه. وعندما استعاد أنفاسه وجد نفسه عاجزًا عن الحركة، فقد تحوَّل

نصف جسده إلى كتلة من الغرانيت. لم يتجرّأ أحد على استدعاء سيّارة إسعاف، لأنّه دمدم من بين أسنانه، بنصف فمه الذي ما زال يتحرَّك، بأنَّه سيحرم الميراثَ أوَّلَ من يقدم على نقله من بيته، ولكنَّه لم يستطع الخلاص من استدعاء الطبيب مع ذلك. فقد اتَّصل أحدهم بقسم للإسعاف السريع، وأمام ذهول جميع الحاضرين، جاءت سيِّدة ترتدي الحرير وتلفّ حول عنقها عقدًا لؤلئيًا من ثلاث لفَّات. قالت معتذرة: «آسفة، كنت أستعدّ للخروج إلى حفل، ثم نزعت قفّازيها المصنوعين من جلد الغزال لتفحص المريض. وفكَّر جدِّي في أنَّه أصبح يهذي فضلًا عن إصابته بالشلل، وحاول أن يبعد عن ذهنه هذه السيِّدة التي تريد، بتآلف غير مفهوم، أن تُخلِعه ملابسه وتلمسه في أماكن لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها وهو في كامل وعيه. دافع عن نفسه بالقوة القليلة المتبقِّية لديه وهو يزمجر بيأس، ولكنَّها ما لبثت أن هزمته، بابتسامة من شفتيها المطليَّتين، بعد بضع دقائق من الشدّ والجذب. وحين كشفت عليه، تبيَّن أنَّ هذا العجوز العنيد مُصاب بنزف دماغيّ، إضافة إلى نزلة صدريَّة وتكسّر عدد من أضلاعه، وهي كسور أحدثها بشدّ حزام سرج الحصان على صدره. «التشخيص لا ينبئ بخير»، همست السيِّدة بذلك لأفراد الأُسرة المجتمعين حول السرير من دون أن يدور في خلدها أنَّ المريض يسمعها. «سنرى ذلك»، ردَّ عليها الجدّ بصوت نحيل، مُبديًا استعداده ليُظهر لهذه المرأة أيّ نوع من الرجال هو. وبفضل ردّه هذا، تخلَّصتُ من واجب إنجاز الوعد الذي كنت قد قطعته على نفسي باستخفاف. أمضيت أيَّام المرض الحرجة إلى جوار سريره. كان يُدير إليَّ ظهره وهو بين الشراشف البيضاء على السرير الخالي من الوسائد، شاحبًا، من دون حراك، وبعظام بارزة مثل صورة

ملك سلتي منحوت على رخام أيقونة. كنت أتابع كلّ حركاته وأتوسّل إليه بصمت أن يواصل نضاله وألّا يتذكّر فكرة الموت. وخلال تلك المناوبات الطويلة، كنت أتساءل عن الكيفيّة التي سأنفّذ بها تعهّدي إذا طلب منّي ذلك، وتوصّلت إلى أنّني لن أستطيع، في أيّ حال، تسريعَ موته. وقد أدركت خلال تلك الأسابيع مدى قدرة الجسد على المقاومة، ومدى تشبّثه بالحياة، حتى وهو محطّم تحت وطأة المرض والشيخوخة.

بعد وقت قصير، صار في إمكان جدّي الكلام بطريقة لا بأس بها، وصار يرتدي ملابسه من دون مساعدة، ويجرّ نفسه بمشقّة إلى كرسيّه في الصالة، حيث كان يجلس ممسكًا بكرة من المطّاط ليمرّن عضلات يديه بينما هو يقرأ في الموسوعة الموضوعة على مسند أمامه، ويشرب كؤوسًا كبيرة من الماء في رشفات بطيئة. وقد اكتشفت فيما بعد أنّ ما يشرب ليس ماء، وإنّما هو الجنّ الذي منعته الدكتورة منعًا باتًّا من شربه. ولكنّي حين رأيته يتحسّن بهذا الشراب، أصبحت أنا نفسي أجلبه له. كنت أشتريه من حانة على الناصية اعتادت صاحبتها أن تؤرّق أحلام ذلك الشيخ الشهوانيّ؛ فقد كانت أرملة ناضجة ذات صدر مندفع ومؤخّرة بطوليّة، وكانت تخدمه كزبون مفضّل فتضع الشراب الكحوليّ في زجاجات مياه معدنيّة كي تَحول دون حدوث مشاكل مع بقيّة أفراد الأُسرة. في مساء أحد الأيّام، تحدّث العجوز عن الموت وعن جدّتي، وهو موضوع لم يكن قد تطرّق إليه على الإطلاق من قبل. قال:

ـ إنّها لا تزال حيّة، لأنّي لم أنسَها لحظة واحدة. وقد اعتادت أن تأتي لرؤيتي.

ـ تعني أنَّها تظهر لك، كشبح؟

ـ بل إنَّها تكلِّمني. أشعر بأنفاسها على رقبتي، وبحضورها في حجرتي. وعندما كنت مريضًا كانت تمسك يدي.

ـ أنا التي كنت أمسك يدك يا تاتا...

ـ لا تظنِّي أنِّي خرّفت، أعرف أنَّك كنت تمسكين يدي أحيانًا، ولكنَّها هي التي كانت تمسك يدي في أحيان أخرى.

ـ أنت لن تموت أيضًا يا جدّي لأنَّني سأتذكّرك دائمًا. فأنا لم أنسَ شيئًا ممَّا قلته لي على امتداد كلّ هذه السنوات.

ـ لا يمكنني الثقة بك، فأنت تبدِّلين كلّ شيء. عندما أموت لن يكون هناك من يكبحك، وستروين عنِّي الأكاذيب من دون ريب.

ثم ضحك وهو يغطِّي فمه بمنديل، لأنَّه كان غير قادر بعدُ على التحكُّم جيِّدًا في حركات وجهه.

تمرَّن، خلال الشهور التالية، بجَلَد ومثابرة إلى أن استعاد القدرة على الحركة، واستردَّ عافيته تمامًا، وعاش نحو عشرين سنة بعد ذلك، ليمتدَّ به العمر ويتعرَّف إليك، يا باولا. لقد كنت الحفيدة الوحيدة التي يميِّزها بين حشد الأحفاد وأبناء الأحفاد. ومع أنَّه لم يكن رجلًا حنونًا، إلَّا أنَّ عينيه كانتا تلمعان حين يراك، وكان يقول: «هذه الصغيرة سيكون لها مستقبل خاصّ». ما الذي سيفعله لو رآك وأنت في هذه الحال؟ أظنّه سيطرد بعكَّازه الأطبَّاءَ والممرِّضات، وسينزع بيده الأنابيب والمجسّات ليساعدك على الموت. ولو لم أكن واثقة بأنَّك ستشفين، لفعلت الشيء نفسه من أجلك.

تُوفّي دون مانويل اليوم. أخرجوا جسده على نقّالة من الباب الخلفيّ، وأخذته أُسرته لدفنه في قريته. لقد أمضى ابنه وزوجته أسوأَ فترة من حياتيهما معنا في ممرّ الخطى الضائعة، وعرفا غمّ كلّ زيارة لقاعة العناية المشدَّدة، وصبرَ ساعات الاحتضار وأيّامه وأسابيعه الطويلة. لقد تحوَّلنا بطريقة ما إلى أُسرة واحدة. فقد كانت تحمل معها من الريف جبنًا وخبزًا تتقاسمهما معي ومع أمّي، وكان الإنهاك يجعلها تغفو في بعض الأحيان وهي تضع رأسها على ركبتي وتتمدَّد على صفّ من المقاعد في قاعة الانتظار، بينما أنا أداعب جبهتها برفق. إنَّها امرأة ضئيلة، صلبة وسمراء، وجهها مليء بأخاديد تجعُّدات احتفاليَّة، وهي ترتدي ثيابًا سوداء دائمًا. وما إن تصل إلى المستشفى حتى تخلع حذاءها وتنتعل خفًّا. لقد كان دون مانويل، وهو في الستّينيّات من عمره، رجلًا قويًّا كالحصان، ولكنَّه، بعد ثلاث عمليّات جراحيَّة في المعدة، تعب من تحمُّل الإذلال وتخلّى عن الصراع من أجل الحياة. رأيناه ينطفئ رويدًا رويدًا. وقد استدار في الأيَّام الأخيرة نحو الجدار، رافضًا تلقّي المواساة من الكاهن الذي كان يُكثر من التردُّد على صالة العناية المشدَّدة. لقد مات بين أيدي ذويه، وقد تمكَّنت أنا أيضًا من وداعه، وذكّرته قبل أن يغادر جسده بأن قلت له بما يشبه الهمس: «تذكّرْ أن تطلب العون من أجل باولا في الجانب الآخر». وقالت لي أرملته: «عندما تتحسَّن صغيرتك تعالي لزيارتنا في الريف، لدينا هناك قطعة أرض جميلة، وسيفيد باولا الهواءُ النقيُّ والطعام الصحّيّ». ثم ذهبوا في سيَّارة أجرة وراء السيَّارة الجنائزيَّة. كانت تبدو مستنفدة، وقد مضت من دون دموع، حاملة خفَّها في يدها.

فصلنا عنك جهاز التنفُّس خلال عدَّة أيَّام، وكنَّا نفعل ذلك لوقت

أطول يومًا بعد يوم، وقد أصبحت تتحمّلين حتى عشر دقائق بالقدر القليل من الهواء الذي تتمكّنين من إدخاله في جسدك. إنّها أنفاس بطيئة وقصيرة، فعضلات صدرك تصارع ضدّ الشلل، وقد بدأت تتحرّك برفق. ربّما سنتمكّن خلال أسبوع من إخراجك من قاعة العناية المشدّدة ونقلك إلى قاعة عاديّة. لا توجد في المستشفى غرفة فرديّة، باستثناء الغرفة صفر التي ينتهي إليها المحتضرون. أرغب في نقلك إلى غرفة مشمسة وهادئة، تكون لها نافذة تظهر منها العصافير والأزهار مثلما تحبّين، ولكنّني أخشى أنّنا لن نحصل إلّا على سرير في قاعة مشتركة. آمل أن تتحمّل أمّي حتى ذلك الحين، إنّها تبدو على وشك الانكسار.

أكثر النذر شؤمًا تداهمني في الليل، حين أشعر بمرور الساعات، ساعة بعد أخرى، إلى أن تبدأ ضجّة الفجر قبل وقت طويل من أوّل ومضات الضوء، عندئذ فقط أغفو بعمق وكأنّي ميّتة وأنا أتدثّر بسترة ويللي الكشميريّة الرماديّة. لقد أحضرها لي في زيارته الأولى، كأنّه كان يعرف أنّنا سنمضي وقتًا طويلًا منفصلين. هذه السترة المضمّخة بالذكريات ترمز في نظري إلى المظاهر السحريّة في لقائنا. في الأسابيع الأولى، كنت أتناول أقراصًا زرقاء، وهي وصفة أخرى من الأدوية الغريبة والكثيرة التي تصفها لي أمّي وتُخرجها بسخاء من حقيبتها الكبيرة، حيث تتراكم أدوية متنوّعة منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة. في إحدى المرّات، حقنتني بجرعة مضاعَفة من دواء منشّط لحالات الوهن كانت قد حصلت عليه في تركيا قبل تسعة عشر عامًا، فكادت تقتلني. أمّا الأقراص الزرقاء فكانت تُغرقني في نوم عميق، أستيقظ منه وعيناي

متقاطعتان، وأسعى جاهدة حتى الضحى للتوصُّل إلى بعض الصحو والصفاء الذهنيّ. اكتشفت، بعد ذلك، في أحد الأزقّة الجانبيّة القريبة وجودَ صيدليّة بحجم خزانة تعمل فيها صيدلانيّة طويلة وجافّة، ترتدي سوادًا بسواد مع أزرار تصل حتى ذقنها، فحدَّثتها عن كروبي، وباعتني حشيشة الفاليريانا في قارورة قاتمة. صرت أحلم دائمًا الحلم نفسه مع اختلافات طفيفة. أحلم بأنّني صرت أنتِ يا باولا، وأنَّ لي شعرَك الطويل وعينيك الواسعتين، ويديك ذواتَي الأصابع الرفيعة وخاتم زفافك الذي أستخدمه منذ أن أعطوني إيّاه في المستشفى عند بدء مرضك. لقد وضعته في إصبعي حتى لا أضيِّعه في ضِيق تلك اللحظات، ولم أشأ بعد ذلك خلعه منها. عندما تستعيدين وعيك سأعطيه لأرنستو ليضعه في إصبعك مثلما فعل يوم زفافكما منذ أكثر من سنة بقليل. لقد قلت لك يومذاك: «ألا ترين أنَّ الزواج في الكنيسة مشكلة؟» فنظرت إليّ نظرة صارمة، وقلت لي بتلك النبرة الواعظة التي لا تستخدمينها مطلقًا مع تلاميذك، ولكنّك تستخدمينها معي أحيانًا، بأنَّك أنت وأرنستو مؤمنان وتريدان تكريس زواجكما أمام الناس لأنّكما تزوَّجتما أمام الربّ منذ اليوم الأوَّل الذي نمتما فيه معًا. لقد كنت تبدين في حفلة الزفاف مثل حوريّة ريفيّة. يومذاك، جاء أفراد الأسرة من أماكن بعيدة جدًّا للاحتفال بالحدث في كاراكاس، وسافرت أنا من كاليفورنيا حاملةً ثوبَ زفافك على ذراعي، وكنت أوشك على الاختناق تحت جبل القماش الأبيض. ارتديتِ الثوب في بيت صديقي إيلديمارو الذي كان فخورًا بك كأنَّه أبوك، ورغبتُ في أن يوصلك هو نفسه إلى الكنيسة بسيّارته القديمة التي غسلها ونظَّفها جيِّدًا للمناسبة. «عندما أفكِّر في باولا أراها دائمًا بثوب الزفاف ومتوّجة بالأزهار».

هذا ما قاله لي إيلديمارو متأثّرًا عندما جاء لرؤيتك في مدريد في الأيّام الأولى لمرضك. هناك إضراب لعمّال التنظيفات في المستشفى منذ خمسة أيّام، والمبنى صار يبدو مثل ساحة سوق في أوج العصور الوسطى، وعمّا قريب ستظهر صراصير وفئران توزّع الطاعون على البشر. يجتمع المضربون، عند مدخل المبنى، وحولهم رجال الأمن، ويبتسمون أمام كاميرات التلفزيون. هناك أطبّاء وممرّضون ومرضى بالبيجامات والأخفاف، وآخرون على كراسيّ ذات عجلات. إنّهم ينتهزون الفرصة للتسلية، وتبادل الأحاديث، والتدخين، وشرب القهوة من الآلات، وليس هناك مَن يستعجل حلّ المشكلة، بينما القمامة تتعالى مثل الزبد. تتبعثر على الأرض قفّازاتٌ مطّاطيّة مستعمَلة، وأكوابٌ كرتونيّة، وأكوامٌ من أعقاب السجائر، وبقعٌ مقزّزة. يحاول ذوو المرضى تنظيف القاعات قدر استطاعتهم، فتتجمّع الفضلات في الممرّات حيث تنثرها الأقدام وتُعيدها إلى الغرف نفسها. مستودعات القمامة تطفح، وتتراكم في الأركان أكياسٌ بلاستيكيّة منتفخة تكاد تنفزر. ولا يعود في الإمكان استخدامُ المراحيض المقرفة، فيتمّ إغلاق معظمها، وتنتشر في الجوّ رائحة الحظيرة. استفسرت عمّا إذا كان في إمكاننا نقلُك إلى مستشفى خاصّ، فقالوا إنّ المخاطرة في تحريكك كبيرة، ولكنّني أظنّ أنّ خطر العدوى بمرض آخر هو أسوأ.

قال لي طبيب الأعصاب ناصحًا بحزم:

ـ اهدئي. باولا موجودة في المكان النظيف الوحيد في المستشفى.

ـ ولكنّ الناس ينقلون العدوى بأحذيتهم! إنّهم يدخلون ويخرجون عبر ممرّات متّسخة!

أمسكتني أمّي من ذراعي وقادتني جانبًا، وذكّرتني بفضائل الصبر: هذا مستشفى عام، وليس لدى الدولة ميزانيَّة لحلّ الإضراب، ونحن لن نحصل على شيء بالغضب والعصبيَّة، ثم إنَّ باولا قد ترعرعت على ماء تشيلي، ويمكنها أن تقاوم ببساطة بعضَ الجراثيم المدريديَّة البائسة. فتحت الممرِّضة، في أثناء ذلك، البابَ للسماح للزائرين بدخول قسم العناية المشدَّدة، وكان أن نادت باسمك هذه المرَّة أوَّلًا. إحدى وعشرون خطوة اجتزتها بالمريلة القطنيَّة وبالخفّ البلاستيكيّ فوق الحذاء، وهو لباس العاملين في المستشفى الذين يتنقَّلون من دون حساب فوق الفضلات. ولكن يجب عليّ أن أعترف بأنَّ كلّ شيء في الجهة الأخرى من باب قسم العناية المشدّدة كان يبدو نظيفًا كأنَّه غُسل بالصابون للتوّ. وصلتُ إلى سريرك مضطربة وقلبي يقفز كأنَّه حصان، مثلما يحدث لي دائمًا في لحظة الاقتراب منك. ولكنَّني، في هذه المرَّة، كنت لا أزال غاضبة من الإضراب أيضًا. خرجت للقائي ممرِّضةُ الفترة الصباحيَّة، تلك التي تبكي حين ترى أرنستو يكلّمك على الحبّ، وبادرتني:

ـ أخبار طيِّبة! بدأت باولا تتنفَّس وحدها! لم تعد لديها حرارة، وأصبحت أكثر استجابة. كلِّميها يا امرأة، أظنُّها تسمع الآن...

أخذتك بين ذراعي. أمسكت وجهك بكلتا يدي وقبّلت جبهتك، خدَّيك، رموشك. هززت كتفيك وأنا أناديك: باولا، باولا. وعندئذ، بالله عليك يا ابنتي... عندئذ فتحت عينيك ونظرت إليّ!

أخطرني الطبيب المناوب:

ـ صارت تتمثّل المضادّ الحيويّ جيّدًا. لم تعد تفقد الكثير من

الصوديوم. وبشيء من الحظّ، سيكون في الإمكان إخراجها من هنا بعد بضعة أيّام.

ـ لقد فتحت عينيها!

ـ هذا لا يعني شيئًا، فلا تتعلّقي بالأوهام. مستوى الوعي منعدم، ربّما تسمع قليلًا، ولكنّها لا تفهم ولا تتعرّف إلى أحد. وأظنّ أنّها لا تتألّم.

«فلنذهب لتناول فنجان من الشوكولاتة مع المعجّنات المقليّة احتفالًا بهذا الصباح الرائع»، قالت أمّي، وخرجنا سعيدتين ونحن نخطو فوق أكوام القمامة.

غادرتِ قسم العناية المشدّدة في اليوم نفسه الذي انتهى فيه إضراب عمّال التنظيفات. وبينما كان فريق من أشخاص يرتدون الأحذية والقفّازات المطّاطيّة ويفركون الأرضيّة بفَرَاشٍ ومطهّرات، كنتِ تنتقلين على حمّالة يقودها زوجك إلى قاعة في قسم الأمراض العصبيّة. هناك في القاعة ستّةُ أَسِرّة، جميعها مشغولة، ومغسلةٌ ونافذتان واسعتان تُلمح منهما نهاية الشتاء. سيكون هذا المكان بيتك إلى أن نتمكّن من نقلك إلى منزلك. يمكنني أن أبقى معك الآن طوال الوقت، ولكنّني بعد ثمانٍ وأربعين ساعة متواصلة من السهر إلى جانبك، أدركت أنّ قواي لن تتحمّل الاستمرار في هذا الإيقاع، وأنّ من الأفضل التعاقدَ مع أحد يساعدني. تمكّنت أمّي والراهبات من التعاقدَ مع ممرّضتين للعناية بك. الممرّضة النهاريّة فتاة شابّة، مربوعة وباسمة، تغنّي من دون توقّف. أمّا الممرّضة الليليّة، فهي سيّدة

صموت وقديرة ترتدي مريلة منشّاة. ما زال ذهنك يجول في اللامكان، تفتحين عينيك وتنظرين مذعورة كأنَّك ترين أشباحًا. طبيب الأعصاب قَلِق جدًّا على حالتك، وبعد عطلة أسبوع آلام المسيح سيُجري لك عدَّة فحوص ليرى كيف هي حالة دماغك، فهنالك الآن آلاتٌ عجيبة يمكنها تصوير أقدم الذكريات. أحاول عدم التفكير في الغد، فالمستقبل غير موجود، كما يقول هنود الهضاب الذين لا يرون إلّا الماضي لاستخلاص العِبَر والمعارف. أمّا الحاضر، فهو مجرَّد وميض، لأنَّه يتحوَّل إلى ماضٍ في لحظة واحدة. إنَّك عاجزة عن التحكُّم في جسدك، غير قادرة على الحركة، وتنتابك تشنُّجات عنيفة مثل صعقات الكهرباء، ولكنَّني من جهة أخرى أشعر بالرضى عن حالة البراءة الكاملة التي أنت فيها، لأنَّ الوضع سيكون أسوأ كثيرًا لو كنت تدركين سوء حالتك. ومن خطأ إلى آخر، بدأت أتعلَّم كيف أعتني بك. لقد كنت أشعر بالرعب في أوَّل الأمر من رؤية الثغرة التي في عنقك والأنابيب والمجسَّات، ولكنَّني اعتدت ذلك، وصرت قادرة على تنظيفك واستبدال شراشف سريرك من دون مساعدة أحد. لقد اشتريت رداءً وخفًّا أبيضين كي أذوب بين العاملين في المستشفى وأوفِّر على نفسي تقديم التفسيرات. ليس هناك من سمع عن داء الفرفيرين في هذه الأنحاء، وهم لا يعتقدون هنا بإمكانيَّة شفائك. «كم هي جميلة صغيرتك، يا للمسكينة! ابتهلي إلى الربّ كي يأخذها في أسرع ما يمكن»، هذا ما يقوله لي المرضى الذين ما زال في إمكانهم الكلام. إنَّ جوّ القاعة كئيب جدًّا، والمكان يبدو مثل مستودع مجانين؛ فهناك امرأة ممسوخة حلزونًا تنتحب في سريرها. لقد بدأت تتضاءل وتلتفّ على نفسها منذ نحو سنتين، ومنذ ذلك الحين وتحوّلها يزداد من دون

رحمة. يأتي زوجها بعد انتهاء عمله في المساء، فينظِّفها بخرقة مبلَّلة، ويسرِّح شعرها ويتفحَّص الأربطة التي تثبِّتها بالسرير، ثم يجلس إلى جانبها ويتأمَّلها من دون أن يكلِّم أحدًا. وفي الجهة الأخرى من القاعة، ترفس ألفيرا الهواء بقدميها. إنَّها فلَّاحة صلبة في مثل عمري، وهي صاحية تمامًا، ولكن معاني الكلمات اختلطت عندها وتشوَّشت حركاتها. أفكارها واضحة، ولكنَّها لا تستطيع التعبير عنها. تريد أن تطلب ماء فتلفظ شفتاها كلمة قطار. كما أنَّ قدميها ويديها لا تستجيب لها، وتتحرَّك متأرجحة مثل أطراف دمية تشابكت الخيوط التي تحرِّكها. يقول زوجها إنَّه حين رجع في أحد الأيَّام من عمله وجدها تتلعثم في البيت بكلام غير مفهوم. ظنّ أوّل الأمر أنَّها تتظاهر بالسُّكْر لتسلِّي أحفادها، ولكن عندما مضت ساعات على ذلك وبدأ الأطفال يبكون من الخوف، قرَّر إحضارها إلى مدريد. ومنذ ذلك الحين، لم يستطع أحد تحديد اسم لمرضها. يمرّ كلَّ صباح أساتذةُ كليّات الطبّ وطلابُها ويتفحَّصونها مثل حيوان ويخزونها بالإبر ويوجِّهون إليها أسئلة لا تستطيع الردّ عليها، ثم يهزُّون أكتافهم وينصرفون. أبناؤها وحشود من الأصدقاء والجيران يأتون لزيارتها في نهاية الأسبوع. إنَّه يُمضي النهار وينام الليل هناك، يعتني بها من دون وهن بينما هو يزجرها: «هيَّا، اللعنة. كونيو، تناولي الحساء وإلَّا فسأدلقه على رأسك، اللعنة.. هذه المرأة ستقضي عليّ». ويُرفق هذه الكلمات بحركات لطيفة، وبأكثر النظرات حنانًا. لقد اعترف لي بخجل بأنَّ ألفيرا هي نور حياته، وأنَّه لا يرى شيئًا مهمًّا من دونها. هل تشعرين بما يحيط بك يا باولا؟ لست أدري إذا كنت تسمعين؛ إذا كنت ترين؛ إذا كنت تفهمين شيئًا ممَّا يدور في هذه الحجرة الجنونيَّة؛ أو إذا كنت تعرفينني أنا

بالذات. إنَّك تنظرين إليَّ جهة اليمين فقط بعينين مفتوحتين، وحدقتاك الواسعتان ثابتتان على النافذة حيث تظهر الحمائم. إنَّ تشاؤم الأطبَّاء وبؤس القاعة المشتركة يُحْدِثان فجوة في روحي. ويبدو أنَّ أرنستو قد تعب أيضًا، ولكن أمِّي هي أسوأ الجميع حالًا.

مئة يوم. لقد مضت مئة يوم بالضبط مذ دخلت في الغيبوبة. بدأت قوى أمِّي الأخيرة تنهار. يوم أمس لم تستطع النهوضَ صباحًا، إنَّها منهَكة، وقد وافقت أخيرًا على العودة إلى تشيلي. اشتريت لها التذكرة وذهبت قبل نحو ساعتين لأوصلها إلى الطائرة. لقد حذَّرتها قبل الوداع: «لا تفعليها وتموتي الآن، وتتركيني يتيمة نهائيًّا». وعندما رجعتُ إلى الفندق، وجدت سريري مفتوحًا، ووجدت طنجرة حساء عدس وكتاب صلواتها الذي تركته ليرافقني، وهكذا انتهى شهر عسلنا. لم يُتَح لنا من قبل قطُّ البقاءُ معًا طوال مثل هذا الوقت، ولم أستمتع بمثل هذه الرفقة الحميمة العميقة والطويلة إلَّا مع ابنيَّ بعد ولادتهما. كانت معايشتي للرجال الذين أحببتهم تنطوي دائمًا على عناصر العاطفة والدلال والحياء، أو أنَّها كانت تنحدر إلى غمّ صريح. لم أكن أعرف كم هو مريح تقاسمُ المكان مع امرأة أخرى. سأشتاق إليها، ولكنَّني في حاجة إلى البقاء وحيدة وتجميع طاقتي بصمت، فضجَّة المستشفى ستصيبني بالصمم.

سيغادر والد أرنستو عمَّا قريب وسأفتقده هو أيضًا، فقد أمضيت ساعات طويلة برفقة هذا الرجل الضخم الذي كان يجلس إلى جوار سريرك ليعتني بك، في رقَّة نادرة، وليسلِّيني بالحديث عن مغامرات

حياته. فَقَدَ أباه وأعمامه خلال الحرب الأهليَّة الإسبانيَّة، ولم يبقَ حيًا من أسرته سوى النساء وأصغر الأطفال. لقد جرى إعدام جدّ زوجك عند جدار إحدى الكنائس رميًا بالرصاص. وفي فوضى تلك الأيَّام، هربت زوجته من قرية إلى قرية وهي تحمل أبناءها الثلاثة من دون أن تعرف أنَّها قد صارت أرملة، وقاست في أثناء ذلك الجوعَ والبؤس، ولكنَّها تمكَّنت من إنقاذ أبنائها الذين ترعرعوا في إسبانيا الفرانكويَّة من دون أن تضعف قناعاتهم الجمهوريَّة الراسخة. وفي الثامنة عشرة من عمره، كان أبو أرنستو قد أصبح طالبًا في أوج دكتاتوريَّة الجنرال فرانكو، حين كان القمع في ذروته. وكان مثل أخويه، ينتمي سرًّا إلى الحزب الشيوعيّ. وفي أحد الأيَّام، وقعت إحدى رفيقاته في قبضة الشرطة، وجاء مَن يخبره بذلك على الفور، فودَّع أمّه وأخويه وتمكَّن من الهرب قبل أن تشي الفتاة به. ذهب أوَّل الأمر إلى شماليّ أفريقيا، ولكنّ قدميه قادتاه بعد ذلك إلى العالم الجديد، وانتهى به الأمر إلى اللجوء في فنزويلا، فاشتغل، وتزوَّج، وأنجب أبناء، وبقي هناك أكثر من ثلاثين سنة. وعند موت فرانكو، رجع إلى قريته في قرطبة بحثًا عن ماضيه، وتمكَّن من لقاء بعض رفقائه القدماء. وهكذا، راح يستفسر من واحد إلى آخر عن مصير الفتاة التي كان يفكّر فيها كلّ يوم خلال العقود الثلاثة الماضية. وفي شقَّة بائسة، جدرانها رطبة، كانت تنتظره امرأة تطرّز إلى جوار النافذة. لم يعرفها، أمّا هي، فلم تكن قد نسيته، ومدَّت يديها نحوه شاكرةً زيارتَه المتأخّرة. عندئذ فقط، علم بأنَّها لم تعترف، على الرَّغم من التعذيب الذي تعرَّضت له، وأدرك أنَّ هربه ونفيه الطويل كانا بلا طائل، وأنَّ الشرطة لم تلاحقه قطّ لأنَّ أحدًا لم يشِ به. ولكنَّ الوقت كان قد فات للتفكير في التبديل، فمصير هذا

الرجل كان قد تقرَّر، ولم يعد في إمكانه العودة إلى إسبانيا، فقد دبغت غاباتُ الأمازون روحَه. في الساعات الطويلة التي أمضيناها معًا في المستشفى، كان يحدِّثني عن رحلاته عبر أنهار فسيحة كأنَّها البحار، وعن قمم لم تطأها أقدام بشر من قبل، وعن أودية تبرز قطعُ الماس في أرضها مثلما تظهر البذور، وعن أفاعٍ تقتل برائحة سمّها فقط. وكان يصف لي قبائل أُناس يمضون عراة تحت الأشجار الممرّة، وهنودًا فلّاحين يبيعون نساءهم وأبناءهم كالمواشي، وجنودًا مأجورين لدى تجّار المخدَّرات، وقطّاعَ طرق يغتصبون ويقتلون ويحرقون من دون عقاب. وحدَّثني أنّه كان يمضي في أحد الأيّام في الغابات مع فريق من العمّال وقافلة بغال، وكانوا يشقُّون طريقهم وسط الخضرة الكثيفة بسيوف المتشيتي عندما أخطأ أحد الرجال الضربة وهوى المتشيتي على ساقه مُحدثًا شقًّا عميقًا ومهشّمًا العظم. بدأ الرجل ينزف بغزارة على الرَّغم من استخدام ضاغطة الشرايين وإجراءات الطوارئ الأخرى. وفي أثناء ذلك، تذكَّر أحدُهم الهنديَّ الذي يقود قافلة البغال، وهو عجوز داهية وساحر مشهور، فذهبوا لإحضاره من أقصى الرتل. اقترب الرجل بهدوء وألقى نظرة على ساق المُصاب، ثم أبعد الفضوليِّين وبدأ يدمدم بصلوات الشفاء برصانة من رأى الموت مرَّات ومرَّات. هزَّ قبّعته فوق الجرح ليبعد عنه البعوض، ثم أطلق عليه وابلًا من البصاق ورسم عدَّة صلبان في الهواء، بينما كان يدندن بلغة الغابة. وانتهى أبو أرنستو إلى القول بنبرة عارضة: وهكذا توقَّف النزف. لفُّوا الشقّ الرهيب بخرقة، ووضعوا الجريح على حمّالة مرتجلة، وساروا به ساعات من دون أن ينزف قطرة دم واحدة، إلى أن وصلوا إلى أقرب مركز إسعاف حيث استطاعو خياطة الجرح وجبر العظم بجبيرة. لقد

بقي الرجل أعرج، ولكنَّه احتفظ بساقه. رويت هذه الحكاية للراهبات اللواتي يأتين يوميًا لزيارتك، فلم يبدُ عليهنَّ الاستغرابُ، فهنَّ معتادات على المعجزات، إذا كان في إمكان هنديّ من هنود الأمازون أن يوقف النزف بالبصاق، فما أكثر ما يستطيع العلم تقديمه إليك يا ابنتي. يجب عليَّ أن أحصل على مساعدة. إنَّني الآن وحيدة، النهارات تصبح أطول والليالي أشدّ سوادًا. لديّ فائضٌ من الوقت للكتابة لأنَّني ما إن أنتهي من طقوس العناية بك، حتى لا أجد ما أعمله... سوى التذكُّر.

في بداية الستّينيّات، كان عملي يتقدَّم من الإحصائيّات الحرجيَّة إلى بدايات قَلِقة في الصحافة، قادتني بالصدفة إلى التلفزيون. كان البثّ التلفزيوني في العالم قد أصبح ملوَّنًا آنذاك. أمَّا في تشيلي، الركنِ الأخير من القارَّة الأميركيَّة، فكان التلفزيون يخطو خطواته الأولى ببرامج تجريبيَّة بالأبيض والأسود، والمحظوظون الذين كانوا يملكون جهاز تلفزيون تحوَّلوا إلى أناس مؤثّرين في أحيائهم، فقد كان الجيران يتجمَّعون حول الأجهزة القليلة الموجودة ليراقبوا بذهول رسمًا هندسيًّا ثابتًا على الشاشة ويستمعوا إلى موسيقى مصعد. كانوا يمضون الأمسيات بأفواه مفتوحة وعيون مترصِّدة في انتظار حدوث كشف يبدِّل مسار حياتهم، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن يحدث، ويبقى على الشاشة المربَّع وحده والدائرة واللحن الأحمق نفسه. ثم انتقل البثّ ببطء شديد من ذلك الشكل الهندسيّ إلى ساعات قليلة من البرامج المكرَّسة لشرح آليَّة عمل المحرِّكات أو طبيعة النمل المجدّ، وتقديم دروس في الإسعافات الأوَّليَّة، بحيث يُجرون تنفُّسًا اصطناعيًّا بالفم لدمية شاحبة. وكانوا يقدِّمون إلينا كذلك نشرة أخبار غير مصوَّرة يُلقونها كما في

المذياع، ويعرضون من حين إلى آخر فيلمًا من أفلام السينما الصامتة. وبسبب افتقارهم إلى موضوعات أكثر جاذبيَّة، عرضوا على رئيسي في «الفاو» خمس عشرة دقيقة من البثّ ليطرح مشكلة الجوع في العالم. كنَّا نعيش آنذاك مرحلة النبوءات القياميَّة: فالبشريَّة تتزايد من دون كابح، والمواردُ الغذائيَّة غير كافية، والأرضُ مستنزَفة، والكوكبُ الأرضيُّ سيذوي، وخلال خمسين سنة سينشب الصراع على أرغفة الخبز المتبقِّية بين البشر القليلين الذين سيبقون في قيد الحياة. وفي يوم البرنامج، أُصيب رئيسي في العمل بوعكة صحِّيَّة، وكان عليَّ أن أذهب إلى مبنى القناة التلفزيونيَّة لتقديم الاعتذار. لكنَّ المنتج قال لي بجفاء: آسف، ولكن شخصًا من مكتبكم يجب أن يظهر أمام الكاميرا في الساعة الثالثة مساءً، فقد اتَّفقنا معكم على ذلك ولا يوجد لدينا مادَّة أخرى لملء الفراغ. وتخيَّلت أنَّه إذا كان مشاهدو التلفزيون يتحمَّلون المربَّع والدائرة الثابتين على الشاشة، ويتحمَّلون رؤية تشابلن في وهم الذهب خمس مرَّات كلّ أسبوع، فإنَّ المسألة ليست خطيرة في الواقع. وهكذا، رجعت إليهم ومعي مقاطع من فيلم، مقصوصةٌ كيفما اتَّفق، نظهر فيها بعض الجواميس العجاف وهي تحرث أرضًا شقَّقها الجفاف في ركن ناءٍ من آسيا. كان ذلك الفيلم الوثائقيّ باللغة الهزليَّة، وقرأته بتفخيم لم يترك مجالًا لأحد للتفكير إلَّا في النهاية الحتميَّة القريبة للجواميس والأرزّ والبشريَّة بأسرها. وما إن انتهيت حتى طلب منِّي المنتج، وهو يتنفَّس الصعداء، أن أرجع في يوم الأربعاء من كلّ أسبوع لأقدِّم عظة ضدَّ الجوع، فقد كان ذلك البائس جزءًا لملء ساعات البثّ المقرَّرة. وهكذا، انتهى بي الأمر إلى تولِّي مسؤوليَّة برنامج كان عليّ أن أعدّه بالكامل، ابتداء من السيناريو حتى الرسوم التوضيحيَّة.

كان عملي في القناة التلفزيونيَّة يتلخَّص في الوصول في الموعد المحدَّد بالضبط، والجلوس قبالة ضوء أحمر والتحدُّث إلى الفراغ. ولم أعِ مطلقًا أنَّه كان هناك في الجانب الآخر من ذلك الضوء مليونُ أُذن تنتظر كلماتي، ومليونُ عين ستحكم على تسريحة شعري، ولهذا كنت أستغرب حين أرى أشخاصًا لا أعرفهم يحيُّونني في الشارع. عندما رأيتِني على الشاشة أوَّل مرَّة، يا باولا، كان عمرك سنة ونصف السنة، وقد حبس الذهول أنفاسك من الرعب وأنت ترين رأس أمّك المقطوعَ يطلّ من وراء الزجاج. لقد كان حمواي يملكان جهاز التلفزيون الوحيد في دائرة قطرها كيلومتر، وفي مساء كلّ يوم كانت صالة بيتهم تغصّ بالمشاهدين الذين كانت غراني تعاملهم كضيوف، فقد كانت تمضي الفترة الصباحيَّة في صنع البسكويت وفي تدوير ذراع آلة صنع المثلَّجات، وتمضي الليل في جلي الأطباق وكنس قمامة السيرك التي تنتشر في البيت من دون أن يشكرها أحد على ذلك. لقد تحوَّلتُ إلى الشخصيَّة الأوسع شهرة في الحيّ كلّه، فالجيران يحيُّونني باحترام، والأطفال يشيرون إليّ بالبَنان. وكان يمكن لي أن أواصل العمل في تلك المهنة طوال ما تبقَّى من حياتي، ولكنَّ البلاد سئمت في النهاية من الأبقار الجائعة ومن فساد حقول الأرزّ. وعندما حدث ذلك كنت قد أصبحت واحدة من الأشخاص القلائل الذين لديهم تجربة في العمل التلفزيوني ـ وهي تجربة بدائيَّة جدًّا في الحقيقة ـ فاستطعت اختيار برنامج آخر، ولكن ميشيل كان قد تخرَّج وحصل على شهادة الهندسة، وكانت تنهشنا، نحن الاثنين، حكّةُ المغامرة والرغبة في السفر قبل أن ننجب مزيدًا من الأبناء. وقد حصلنا على منحتين وانطلقنا إلى أوروبا، لنصل إلى سويسرا ونحن نحملك، يا باولا، فقد

كنتِ في السنة الثانية من عمرك، وكنت تبدين مثل امرأة صغيرة.

لم يُلهمني العمّ رامون أيًّا من شخصيّات رواياتي، فهو شخص يتمتَّع بكثير من الوقار والحشمة والرصانة. والروايات تُكتب عن شخصيَّات مجنونة ووغدة وعن أُناس تعذِّبهم أفكار متسلِّطة على عقولهم، وعن ضحايا مسنَّنات تُروس القدر التي لا ترحم. وانطلاقًا من وجهة النظر الروائيَّة، فإنَّ شخصًا ذكيًّا وطيِّب المشاعر، مثل العمّ رامون، لا ينفع في شيء، ولكنَّه شخص مطلق الكمال، في المقابل، عند النظر إليه كجدٍّ، وقد أدركتُ ذلك عندما عرّفته إلى حفيدته الأولى في مطار جنيف ورأيته يُظهر فيضًا سرّيًّا من الرقَّة كان قد أخفاه عنَّا حتى ذلك الحين. فقد حضر إلى المطار وهو يعلِّق في عنقه ميداليَّة بشريط ثلاثيّ الألوان، وسلَّمك مفاتيح المدينة في علبة من المخمل، ورحَّب بك باسم الكانتونات الأربعة والبنوك السويسريَّة والكنيسة الكلفينيَّة. وفي تلك اللحظة، أدركت مدى حبّي في الواقع لزوج أمّي، وانمحت بجرّة قلم الغيرةُ المعذِّبة وسخطُ الماضي. كنت تلبسين في تلك المناسبة قبَّعة ومعطف شرلوك هولمز، اللذين حلمتُ بهما قبل مولدك. وقد صنعتهما لك الجدَّة هيلدا على ماكينة خياطتها بتوجيهات محدَّدة منّي. وكنت تتكلَّمين بتلقائيَّة خاصَّة وتتصرَّفين وفق آداب السلوك لآنسة، مثلما علَّمتك غراني. لقد كنت أعمل لساعات طويلة، ولم تكن لديَّ فكرة عن كيفيَّة تربية الأبناء، وكان من المريح لي أن أعهد بهذه المهمَّة لغيري. وقد أدركت الآن، بالنظر إلى النتائج الباهرة، أنّ حماتي قد قامت بهذه المهمَّة أفضل ممَّا كنت سأفعله بكثير. لقد تولَّت غراني، فضلًا عن أشياء أخرى، مسؤوليَّةَ تخليصك من الحفاضات.

اشترت مبولتين، واحدة صغيرة لك وواحدة كبيرة لها، وكنتما تجلسان عليهما ساعات في الصالة لتلعبا لعبة التزاور، إلى أن تعلّمتِ العمليّة. وقد كان بيتُ جدّيك البيتَ الوحيد المزوّد بهاتف في الحيّ، فكان الجيران يأتون لطلب استخدامه، واعتادوا رؤية تلك السيّدة الإنكليزيّة العذبة وهي تجلس قبالة حفيدتها ومؤخّرتها مكشوفة. أمّا الجدّة هيلدا، فقد اكتشفتْ في المقابل، الطريقةَ التي تقدّم بها الطعام إليك لأنّك كنت ضعيفة الشهيّة مثل البلابل. فقد ارتجلت سرجًا كانت تربطه بظهر كلبها، وهو حيوان أسود ضخم له قوّة حمار، فتمتطيه أنت بينما هي تلحق بك بملعقة الحساء. أمّا في أوروبا، فقد حلّ العمّ رامون محلّ تينك الجدّتين المثاليّتين، وقد أقنعك بأنّه المالك الكونيّ للكوكا كولا، التي لا يمكن لأحد في الكون وفيما وراءه، أن يشربها من دون إذن منه. وتعلّمتِ الاتّصال به تلفونيًا باللغة الفرنسيّة، مقاطِعةً جلسات مجلس الأمم المتّحدة، لتطلبي منه الإذن بتناول زجاجة من المرطّبات. وبالطريقة نفسها، جعلك تعتقدين أنّه صاحب حديقة الحيوان، وصاحب برامج الأطفال في التلفزيون ونافورة الماء الشهيرة في بحيرة جنيف. لقد راقب موعد تدفّق الماء من النافورة، وضبط ساعته عليها واثقًا بالدقّة السويسريّة، وكان يمسك الهاتف ويتظاهر بأنّه يُصدر الأمر إلى رئيس الجمهوريّة كي يفتح الماء، وحينها تتطلّعين من النافذة في اللحظة التي ينطلق الماء من البحيرة مثل عمود مهيب يرتفع نحو السماء. كان يشاطرك ألعابًا غاية في السورياليّة حتى أصبحتُ أخاف على سلامتك الذهنيّة. لقد كان يحتفظ بعلبة فيها ستّ دمًى رجّاليّة يسمّيها «المحكومين بالإعدام»، وكان مصير هذه الدمى الشنق في فجر اليوم التالي. وكنتِ في كلّ ليلة تقفين أمام ذلك الجلّاد المؤكّد طالبةً

منه الرحمةَ، فتحصلين بذلك على تأجيل تنفيذ الحكم لأربع وعشرين ساعة. لقد قال لك إنَّه ينحدر مباشرة من يسوع المسيح. وكي يؤكِّد أنَّ كليهما يحمل الكنية نفسها، رافقك بعد سنوات من ذلك إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة في سنتياغو ليُريك مدفن دون يسوع هودوبرو. وقد أكَّد لك أيضًا أنَّه أمير، وأنَّ الناس في يومِ مولده كانوا يعانقون بعضهم بعضًا بينما كانت تُقرَع أجراس الكنائس معلنة الخبر الجديد: لقد وُلد رامون! لقد وُلد رامون! وكان يعلِّق على صدره الأوسمة التي حصل عليها على امتداد حياته الدبلوماسيَّة، قائلًا لك إنَّها ميداليَّات بطولة أحرزها في المعارك ضدَّ أعداء مملكته. وكنت تصدِّقين ذلك كلَّه، يا ابنتي.

لقد قسَّمنا الوقت في تلك السنة ما بين سويسرا وبلجيكا، حيث كان ميشيل يدرس الهندسة وأنا أدرس التلفزيون. سكنّا في بروكسل في شقَّة صغيرة فوق صالون حلاقة. أمَّا بقيَّة المستأجرين، ففتياتٌ يرتدين تنانير قصيرة، وبلوزات تكشف العنق والكتفين، ويضعن على رؤوسهنَّ باروكات بألوان مستحيلة، ويرافقن كلابًا غزيرة الفرو تُحيط بأعناقها شرائط. وكنَّا نسمع طوال الوقت صوت الموسيقى واللهاث والشجار، بينما يدخل زبائن أولئك الآنسات المتعجِّلون ويخرجون. وكان باب المصعد يؤدِّي مباشرة إلى الغرفة الوحيدة التي تتألَّف منها شقَّتنا، وعندما ننسى إغلاق الباب بالمزلاج، كنَّا نستيقظ في منتصف الليل لنجد شخصًا مجهولًا إلى جوار سريرنا يسأل عن بينكي أو عن سوزان.

كانت منحتي ضمن برنامج لتدريب كونغوليين، ممَّن تدين لهم بلجيكا بسنوات طويلة من الاستعمار الغاشم. وقد كنتُ الاستثناءَ الوحيد: امرأةً ذات بشرة بيضاء بين ثلاثين شابًّا زنجيًّا. وبعد أسبوع

من تحمُّل الإذلال، أدركت أنَّني غير مؤهَّلة لخوض تلك التجربة وتخلَّيت عن الدراسة، على الرَّغم من أنَّنا سنعاني الضيقَ بفقدان نقود منحتي. استدعاني المدير وطلب منّي أن أوضح أمام الصفّ أسبابَ انسحابي المفاجئ، فلم أجد بدًّا من مواجهة تلك الجماعة المتماسكة من الطلّاب، والقول لهم بفرنسيَّتي المحزنة إنَّ الرجال في بلادي لا يدخلون المراحيض المخصَّصة للنساء وهم يفكُّون أزرار سراويلهم، ولا يدفعون السيِّدات ليدخلوا قبلهنَّ من الأبواب، ولا يتزاحمون للجلوس إلى طاولة الطعام أو عند الصعود إلى الحافلة. وإنَّني أشعر بسوء المعاملة وسأنسحب لأنّي غير معتادة على هذه الأساليب. قوبلت خطبتي بصمت جليديّ. وبعد صمت طويل، طلب أحدهم الكلام ليقول إنَّه لا وجود في بلاده لامرأة محترمة تُظهر حاجتها إلى الذهاب إلى المرحاض في مكان عامّ، وهنَّ لا يحاولن كذلك الدخول من الأبواب قبل الرجال، بل يمشين على بعد عدَّة خطوات وراءهم، وإنَّ أمّه وأخواته لا يجلسن معه إلى المائدة، وإنَّما يأكلن فضلات العشاء. وأضاف أنَّهم يشعرون دائمًا بأنَّني أهينهم، وأنَّهم لم يروا من قبل أحدًا سيِّئ التهذيب مثلي. وحيث إنَّني أشكِّل أقلّيَّة ضمن الجماعة، فيجب عليَّ أن أتحمَّل كيفما أستطيع. فأجبته: «صحيح أنَّني أشكِّل أقلّيَّة في هذا الصفّ، ولكنَّكم أقلّيَّة أيضًا في هذه البلاد، وأنا مستعدَّة للتأقلم، ولكن عليكم أنتم أيضًا أن تفعلوا ذلك إذا رغبتم في تجنُّب المشاكل في أوروبا». كان حلًّا سليمانيًّا، وقد اتَّفقنا على بعض قواعد التعايش الأساسيَّة وبقيت في دراستي. لم يعودوا قطّ إلى الجلوس معي إلى الطاولة نفسها أو على مقعد الحافلة، ولكنَّهم توقَّفوا عن مداهمة المرحاض وعن إبعادي بالدفع. وقد تخلَّيت للشيطان عن أنوثتي خلال

تلك السنة، فصرت أمشي بتواضع على بعد مترين من زملائي، ولم أعد أرفع صوتي ولا بصري، وصرت آخر من يدخل من الأبواب. وفي إحدى المرَّات، جاء اثنان منهم إلى شقَّتنا لاستعارة بعض أمالي الدروس. وفي مساء ذلك اليوم بالذات، حضرت مديرة المبنى ونبَّهتنا إلى أنَّ «الناس الملوَّنين» ليسوا موضع ترحيب، وأنَّها قد غضّت النظر واستثنتنا من ذلك لأنَّنا لسنا قاتمين تمامًا على الرَّغم من كوننا من أميركا الجنوبيَّة. إنَّني أحتفظ من مغامرتي البلجيكيَّة ـ الأفريقيَّة بصورة أظهر فيها وسط زملائي؛ فبين ثلاثين وجهًا أبنوسيًّا يضيع وجهي الذي له لون الخبز النيء. لقد كانت منحتنا ضئيلة، ولكنَّني أنا وميشيل كنَّا في السنِّ التي يكون للفقر فيها وقعٌ طيِّب، وقد رجعت بعد سنوات طويلة من ذلك إلى بلجيكا لتلقِّي جائزة أدبيَّة من يد الملك بالدوين. وكنت أنتظر لقاء عملاق يرتدي العباءة ويضع فوق رأسه التاج مثل ذاك الذي يظهر في الصُّور الملكيَّة، ولكنَّني وجدت نفسي قبالة رجل أنيق ضئيل، رقيق ومتعب، وفيه شيء من العرج، فلم أتعرَّف إليه. سألني بلطف إذا كنت أعرف بلاده، فحدَّثته عن مرحلة الدراسة عندما كنَّا نعيش في ظروف ماديَّة محكمة لا نستطيع أن نأكل فيها سوى البطاطا المقليَّة ولحم الخيول. فنظر إليَّ مشوَّشًا، وخشيت أن أكون قد أغضبته. فسألته كي أُصلح الأمور: هل تحبّ حضرتك لحم الخيل؟

جمعنا، بفضل تلك الحمية وتوفيرات أخرى، نقودًا تكفي للتعرُّف إلى أوروبا من الأندلس حتى أوسلو في سيَّارة فولكسفاغن مهترئة حوَّلناها إلى عربة غجر، تذرع الدروب وهي تطلق العطاس، وعلى سطحها كومٌ من الأمتعة. وقد خدمتنا تلك السيَّارة بوفاء جَمَل حتى نهاية الرحلة، وعندما حانت لحظة تركها كانت في حالة سيِّئة إلى حدٍّ

اضطرارنا إلى دفع أجرة نقلها إلى مستودع الخردة. لقد عشنا طوال شهور في خيمة، حتى أصبحتِ تعتقدين، يا باولا، أنَّ لا وجود لطريقة أخرى في العيش، وعندما كنَّا ندخل بناية راسخة، كنت تسألين بذهول كيف يطوون الجدران لوضعها فوق السيَّارة. تفرَّجنا على ما لا حصر له من القلاع والكاتدرائيَّات ونحن نحملك في حقيبة الظهر ونغذِّيك بالكوكا كولا والموز فقط. لم تكن لديك لُعَب، ولكنَّك كنت تلعبين مقلِّدة الأدلَّاء السياحيِّين. ومنذ الثالثة من عمرك كنت تعرفين الفوارق بين رسم جداريّ رومانيّ وآخر من عصر النهضة. تختلط في ذاكرتي الآن آثارُ كلّ تلك المدن وساحاتُها وقصورُها، ولست أعرف جيِّدًا إذا كنت قد ذهبتُ إلى فلورنسا أم أنَّني رأيتها في بطاقة بريديَّة؛ وإذا حضرتُ مصارعة ثيران أم أنَّه كان سباق خيل. ولم أعد أميِّز بين شاطئ كوستا آثول وشاطئ كوستا برافا. وفي اضطراب المنفى، فقدت الصور التي تثبت مروري في تلك الأماكن. وهكذا، فإنَّه يمكن لذلك الجزء من ماضيَّ أن يكون ببساطة مجرَّد حلم مثل غيره من الأحلام الكثيرة التي تلويّ واقعي. وبعض هذه البلبلة يرجع إلى أنَّني حبلت مرَّة أخرى، وكان الحمل في ظروف غير مؤاتية، لأنَّ تخبّط العربة الغجريَّة والجهودَ المبذولة في نصب الخيمة وطهو الطعام وأنا أجلس القرفصاء على الأرض، أدَّت إلى إصابتي بالمرض. وقد تمَّ حملي بنيكولاس في كيس للنوم، خلال واحدة من أُولى بوادر الربيع الباردة، وربَّما كان ذلك في غابات بولونيا، وعلى بعد ثلاثين مترًا من المثليِّين الذين يرتدون ملابس صبايا غير بالغات ويتعهَّرون في مقابل عشرة دولارات، وعلى بعد خطوات قليلة من خيمة مجاورة تصلنا منها رائحة الماريجوانا وصخب موسيقى الجاز. بمثل هذه السوابق كلّها، كان لا

بدَّ لابني الذي أنجبته من أن يكون مغامرًا طائشًا، ولكنَّه تكشّف عن شخص مسالم من هؤلاء الذين يوحون بالثقة منذ النظرة الأولى. ومنذ وجوده في بطني، كان يتأقلم مع الظروف من دون أن يثير المشاكل. لقد كان جزءًا من نسيج جسدي بالذات، وهو الوضع الذي ما زال عليه حتى الآن بطريقة ما. ومع ذلك، فإنَّ الحمل، حتى في أحسن الظروف، وهو نوع رهيب من الغزو، علقة تنمو في أحشاء إحدانا، وتمرّ في مختلف أطوار التطوُّر ـ سمكة، صرصار، ديناصور، قرد ـ حتى تصل إلى الهيئة البشريَّة. خلال تلك الجولة المنهكة في أوروبا، ظلَّ نيكولاس قابعًا في أحشائي بهدوء كامل، ولكن وجوده كان يسبِّب لي الإرهاق الفكريّ على الرَّغم من ذلك كلّه. فقدت الاهتمام بآثار الحضارات الماضية، وسئمت المتاحف، وصرت أدوخ في الدروب ولا أكاد أستطيع المشي. وأعتقد أنَّ هذا هو السبب في أنَّني لم أعد أتذكَّر تفاصيل تلك الرحلة.

وصلنا إلى تشيلي في أوج صعود «الديموقراطيَّة المسيحيَّة»، وهو حزب كان يَعِدُ بأنَّه سيُجري تغيِّرات حاسمة، وقد جرى انتخابه بدعم من القوى اليمينيَّة للحيلولة دون احتمال فوز سلڤادور ألليندي الذي كان الكثيرون يخشونه خشيتَهم من ستالين. وقد طغت على الانتخابات منذ البداية حملةُ تخويف كانت القوى اليمينيَّة تشنّها منذ بداية ذلك العقد، حين انتصرت الثورة الكوبيَّة وأطلقت سيلًا جارفًا من الآمال في كلِّ أرجاء أميركا اللاتينيَّة. كانت هناك ملصقات ضخمة تصوِّر أمَّهاتٍ حواملَ يدافعن عن أبنائهنَّ من براثين الجنود الروس. لا جديد تحت الشمس: فهذا الكلام نفسه قيل قبل ثلاثين سنة، في أيَّام الجبهة

الشعبيَّة، وسيُقال الكلام نفسه فيما بعد على ألليندي في انتخابات ١٩٧٠. أمَّا سياسة المصالحة التي انتهجها الديموقراطيُّون المسيحيُّون في كنف أميركيّي شركات النحاس، فكان مصيرها الفشل لأنَّها لا تلبّي رغبات اليسار ولا اليمين. فمشروعهم الزراعيّ الذي أطلق عليه الناس اسم «إصلاح الأصص»، وزّع قطعًا صغيرة من الأراضي المهجورة أو غير المستغَلّة جيِّدًا، بينما ظلَّت الإقطاعات الكبيرة في أيدي مُلَّاكها المعهودين. اتَّسع نطاق السخط، وبعد سنتين من ذلك بدأ قسم كبير من الأهالي يميل إلى اليسار، واجتمعت الأحزاب السياسيَّة الكثيرة الداعية إلى إصلاحات حقيقيَّة في تآلف واحد. وأمام دهشة العالم كلّه، والولايات المتَّحدة بصورة خاصَّة، أصبح سلفادور ألليندي أوَّل رئيس ماركسيّ في التاريخ يجري اختياره في انتخابات شعبيَّة. ولكن يجب عليّ ألَّا أستبق الأحداث، ففي عام ١٩٦٦ كانت الاحتفالات لا تزال قائمة بالانتصار الذي حقَّقته الديموقراطيَّة المسيحيَّة في الانتخابات البرلمانيَّة للسنة السابقة، وكان الحديث يدور عن أنَّ هذا الحزب سيحكم البلاد طوال السنوات الخمسين القادمة، لأنَّ اليسار تعرَّض لهزيمة ساحقة، تحوَّل ألليندي معها إلى مجرَّد جثَّة سياسيَّة. ولكن ذلك الزمن كان أيضًا زمنَ النساء اللواتي لهنَّ مظهر اليتيمات سيِّئات التغذية ممَّن كنَّ يرتدين ملابس قصيرة جدًّا لا تكاد تُخفي مؤخّراتهنّ. وكان يظهر بعض الهيبّيّن في الأحياء الراقية في العاصمة بملابسهم الهنديَّة وعقودهم وأزهارهم وشُعورهم الطويلة، ولكن هؤلاء الهيبّيّن التشيليّين كانوا يُثيرون الأسى في نظرنا نحن الذين كنَّا في لندن ورأينا الهيبّيّن هناك يتعاطون المخدّرات ويرقصون شبه عراة في ساحة الطرف الأغرّ. كانت حياتي في ذلك الحين تتميَّز بالعمل والمسؤوليَّة، ولم يكن هناك

ما هو أبعد عن طباعي من حياة الكسل الشاعريّ التي يعيشها أبناء الأزهار، ولكنّني تآلفت، مع ذلك، على الفور، مع الرموز الخارجيّة لتلك الثقافة، لأنَّ الملابس الطويلة كانت تناسبني، وخصوصًا في شهور الحمل الأخيرة، حين كنتُ مكوَّرة تمامًا. ولم أكتف بنقش الزهور على ملابسي وحسب، بل رسمت على جدران البيت وعلى السيَّارة أيضًا أزهار عبّاد شمس صفراء ضخمة وأزهارَ داليا متعدِّدة الألوان، على نحو أثار حفيظة حَمَوَيَّ والجيران. ومن حسن الحظّ أنَّ ميشيل لم ينتبه إلى ذلك كما يبدو، لأنَّه كان مشغولًا بالعمل في بناء جديد وفي مباريات طويلة بالشطرنج.

خرج نيكولاس إلى الدنيا في عمليّة توليد مجهدة استمرَّت يومين، وخلّفت لي ذكريات أكثر من كلّ ذكريات السنة التي أمضيتها متجوّلة في أوروبا. أحسست بأنَّني أسقط في هاوية، وأكتسب مزيدًا من الاندفاع والسرعة في كلِّ ثانية، إلى أن حدث دوّيّ نهائيّ انفتحت فيه عظامي، وقامت قوَّة أرضيَّة غامضة بدفع الوليد إلى الخارج. لم أعرف شيئًا مثل هذا عند ولادتك، يا باولا، فقد كانت ولادتك عمليَّة قيصريَّة نظيفة. أمَّا مع أخيك، فلم تكن هناك أيُّ رومانسيَّة، وإنَّما الجهد والألم والوحدة فقط. لم أكن قد سمعت بأنَّه يمكن للآباء أن يشاركوا في هذا الحدث، فضلًا عن أنَّ ميشيل لم يكن بالرجل المثاليّ الذي يستطيع المشاركة في أمر كهذا، فقد كان لونه يشحب لمجرَّد رؤية إبرة أو قطرة دم. لقد كانت عمليَّة الولادة تبدو لي آنذاك مسألة شخصيَّة بحتة، مثلها مثل الموت. ولم يخطر في بالي أنَّه في الوقت الذي كنت أقاسي وحيدة في إحدى غرف المستشفى، كانت هناك نساء أخريات

من جيلي يلدن في بيوتهنّ بمرافقة قابلة وطبيب ومع أصدقائهنّ ومصوّر، وهنّ يدخّنّ الماريجوانا ويستمعن إلى موسيقى البيتلز.

وُلد نيكولاس من دون شعرة واحدة على جسده، وبقرن في جبهته وذراع بنفسجيّة اللون. ولكثرة ما كنت أقرأ قصص الخيال العلميّ، خشيت أن أكون قد جئت إلى الدنيا بمخلوق من كوكب آخر، ولكنّ الطبيب أكّد لي أنّه كائن بشريّ. قرنه الوحيد كان نتيجة استخدامهم أدوات حديديّة لإخراجه في لحظة الولادة، أمّا اللون الأرجوانيّ على الذراع فقد اختفى بعد وقت قصير. أذكر أنّه كان أصلع في طفولته، ولكن خلاياه الشعريّة انتظمت، على ما يبدو، في وقت ما، لأنّ لديه الآن شجرةً كثيفة من الشعر الأسود المجعّد وحاجبين عريضين.

إذا كنتِ قد أحسستِ بالغيرة من أخيك يومًا، يا باولا، فإنّك لم تُظهري ذلك أبدًا، بل كنت أمًّا ثانية له. كنتما تتقاسمان حجرة صغيرة، تزيّن جدرانَها رسومُ شخصيّات من الحكايات، ولها نافذة يطلّ منها ظلُّ تنّين يحرّك في الليل مخالبه المخيفة. فكنتِ تأتين إلى سريري وأنت تجرّين أخاك الرضيع، لأنّك لم تكوني قادرة على حمله بين ذراعيك، ولم يكن في إمكانك، في الوقت نفسه، تركُه تحت رحمة مسخ الحديقة. وعندما تعلّم أسس الخوف فيما بعد، صار ينام وهو يضع مطرقته تحت فراشه كي يدافع عن أخته. كان ذلك التنّين يتحوّل خلال النهار إلى شجرة كرز وارفة تُعلّقان الأراجيح بين أغصانها، وتُعدّان المخابئ وتمرضان في الصيف من الثمار الخضراء الفجّة التي تنازعان العصافير عليها. كانت تلك الحديقة الصغيرة عالمًا آمنًا وساحرًا، ففيها كنتما تنصبان خيمة لتمضيا الليل في لعب لعبة الهنود الحمر، وتدفنان الكنوز وتربّيان الديدان. وفي مسبح غير معقول في طرف الفناء، كنتما

تستحمّان مع أطفال الجيران وكلابهم. وعلى السطح كانت تنمو دالية برّيّة، فكنتما تعصران عنبها لتصنعا نبيذًا كريهًا. أمّا في بيت حَمَوَيّ الذي يبعد كوادرا واحدة عن بيتنا، فكانت توجد علّيّة مترعة بالمفاجآت، وأشجارٌ مثمرة، وأرغفةُ خبز ساخنة تصنعها جدَّة كاملة، وثغرةٌ في السور تمرّان منها زاحفين إلى ملعب الغولف المجاور لتمرحا على هواكما في أملاك الغير. لقد ترعرعتِ أنت ونيكولاس وأنتما تستمعان إلى أغنيات غراني بالإنكليزيّة وإلى حكاياتي. ففي كلّ ليلة عندما أضعكما في سريريكما، تقدّمان إليّ موضوعَ القصّة التي تريدان أو الجملة الأولى منها، وفي أقلّ من ثلاث ثوان أُنتج لكما قصّة على المقاس. لم أعد أتمتّع بذلك الإلهام الفوريّ، ولكنّني آمل ألّا يكون قد مات، وأن يتمكّن أحفادي في المستقبل من بعثه مجدَّدًا.

سمعت مرارًا وتكرارًا مَن يقول إنّنا في تشيلي نعيش في مجتمع أموميّ، حتى كدت أصدّق ذلك؛ بل إنّ سيّدين متسلّطين، على الطريقة الإقطاعيّة، مثل جدّي وزوج أمّي، كانا يؤكّدان ذلك من دون خجل. لست أدري مَن الذي اختلق أسطورة مجتمعنا الأموميّ هذه، ولا كيف شاعت منذ ما يزيد على مئة عام. ربّما إنّ زائرًا من أزمنة أخرى؛ واحدًا من أولئك الجغرافيّين الدانماركيّين أو من تجّار ليڤربول العابرين من شواطئنا، قد انتبه إلى أنّ التشيليّات هنّ أكثر قوّة وتنظيمًا من معظم الرجال، فاستنتج بطيش أنّهنّ يمسكن زمام القيادة. ولكثرة ترديد تلك الرؤية الخادعة، تحوّلت في النهاية إلى عقيدة جامدة. إنّ التشيليّات ملكات أحيانًا ضمن جدران بيوتهنّ. ولكنّ الذكور هم الذين يتحكّمون في السلطتين السياسيّة والاقتصاديّة، وفي الثقافة والعادات، وهم الذين

يشرِّعون القوانين ويطبِّقونها على هواهم. وعندما تعجز الضغوط الاجتماعيَّة والجهاز الشرعيّ عن إخضاع أشدّ النساء تمرُّدًا، يتدخَّل الدين بطابعه الأبويّ البطريركيّ الذي لا يمكن إنكاره. لكن ما لا يمكن غفرانه هو أنَّ الأمَّهات، بالذات، هنَّ اللواتي يعزِّزن النظام ويمنحنه الديمومة بتربيتهنَّ أبناء متعجرفين وبنات مستعبدات. ولو أنَّهنَّ اتَّفقن فيما بينهنَّ على عمل ذلك بطريقة أخرى لاستطعن القضاء على تسلُّط الذكور خلال جيل واحد. لقد اضطرّ الفقرُ الرجالَ منذ قرون إلى أن يجوبوا التراب الوطنيّ النحيل من أقصاه إلى أقصاه بحثًا عن لقمة العيش، فليس من المستغرب أن تجد الرجل الذي كان يكشط أحشاء المناجم في الشمال شتاءً، قد ذهب في الصيف إلى الوادي الأوسط لجني الثمار، أو إلى الجنوب للعمل في مراكب صيد السمك. الرجال يمرُّون ويذهبون، أمَّا النساء فلا يتحرَّكن من أماكنهنَّ. إنَّهنَّ أشجار راسية في الأرض الراسخة، وحولهنَّ يدور أولادهنَّ وأولاد آخرون مقرَّبون، وهنَّ يتولَّين مسؤوليَّة المسنِّين والمرضى ومن لا حامي لهم. إنَّهنَّ محور الجماعة. وفي جميع الطبقات الاجتماعيَّة، باستثناء الطبقة ذات الامتيازات مالكة الأموال، يُعتبر التفاني والعمل أقصى الفضائل الأنثويَّة. فروح التضحية هي مسألة شرف عندهنَّ، وكلَّما عانين أكثر في سبيل الأُسرة شعرن بمزيد من الفخر. إنَّهنَّ يعتدن، منذ وقت مبكّر، النظرَ إلى الزوج باعتباره ابنًا سفيهًا يجب أن يغفرن له عيوبه الكبيرة، ابتداءً من السُّكر وحتى العنف البيتيّ، لأنَّه رجل. تجرَّأت جماعة محدودة من النساء الشابَّات، في سنوات الستِّينيَّات، على طرح التحدِّي، وقد كنّ ممَّن أتاح لهنَّ حسنُ الطالع رؤيةَ العالم فيما وراء سلسلة جبال الأنديز. لم يكن هناك من يهتمّ بالشكاوي ما دامت تأتي

بصورة خجولة ومرتبكة، ولكنَّ الأمر تبدَّل في عام ١٩٦٧ بظهور أوَّل مطبوعة نسائيَّة هزَّت السبات الريفيّ الذي كنَّا مستغرقين فيه. لقد وُلدت تلك المجلَّة كنزوة أخرى من نزوات صاحب أكبر دار للنشر في البلاد، وهو مليونير ضالّ لم يكن هدفه من إصدار المجلَّة إيقاظَ الوعي ولا أيِّ شيء من هذا القبيل، وإنَّما كان يرمي إلى تصوير مراهقات مثيرات لصفحات الأزياء. حجز لنفسه حصريَّة التعامل مع أجمل العارضات، وبحث في وسطه الاجتماعي عمَّن تستطيع إنجاز بقيَّة العمل، فوقع اختياره على ديليا بيرغارا، وهي صحافيَّة متخرِّجة حديثًا تُخفي وراء مظهرها الأرستقراطي إرادةً فولاذيَّة وذهنًا انقلابيًّا، وقد أنتجت هذه المرأة مجلَّة أنيقة لها المظهرُ المغري نفسُه الذي كانت تظهر به مطبوعات كثيرة في ذلك الوقت وهذا الوقت، وتحتوي على التفاهات نفسها أيضًا، ولكنَّها كرَّست جزءًا من المجلّة لنشر أفكارها النسائيَّة. فقد أحاطت نفسها بزميلتين جريئتين، وأبدعن معًا أسلوبًا ولغة لم يُعرَف لهما مثيل في الكتابة المطبوعة في البلاد حتى ذلك الحين. ومنذ العدد الأوَّل، أثارت المجلَّة مناظرات صاخبة؛ فقد استقبلها الشباب بحماسة، بينما انتفضت الجماعات المحافظة للدفاع عن الأخلاق والوطن والتقاليد التي تعرَّضت للخطر المؤكَّد في قضيَّة المساواة بين الجنسين. وفي واحدة من مصادفات القَدَر الغريبة، قرأت ديليا إحدى رسائلي التي أرتها إيَّاها أمِّي في جنيف، وهكذا علمت بوجودي. وقد لفتت نظرَها نبرةُ بعض مقاطع الرسالة، وحين رجعت إلى تشيلي بحثت عنِّي لأُشارك في مشروعها. وعندما التقتني كنت بلا عمل، وكنت على وشك إنجاب ابني، وكان افتقاري إلى أوراق الاعتماد مزريًا، فأنا لم أدرس في الجامعة، وكان عقلي يغصّ بالأوهام، وكانت كتاباتي تعاني

أخطاء قواعديَّة جسيمة بسبب عدم انتظام تعليمي المدرسيّ، ولكنَّها عرضت عليّ، على الرَّغم من ذلك، صفحة في المجلَّة من دون أيّ شرط آخر سوى اللمسة الساخرة، لأنَّ المجلَّة في حاجة إلى شيء خفيف وسط كلّ تلك المقالات النضاليَّة. قبلتُ العرض من دون أن أُدرك مدى صعوبة الكتابة الساخرة للقيام بالواجب المطلوب. فنحن التشيليين نتمتَّع في جلساتنا الخاصَّة بالضحكة السريعة وسهولة النكتة، ولكنَّنا أمام الملأ شعب من البلهاء الخطرين الذين يشلّهم الخوف من الظهور في مظهر مضحك. وقد ساعدني ذلك كثيرًا لأنَّ المنافسة ضئيلة. كنت أعامل الذكور في عمودي الأسبوعيّ على أنَّهم من ساكني الكهوف، وأعتقد لو أنَّ رجلًا تجرَّأ على كتابة مثل هذه الإهانة في حقّ الجنس الآخر، لجرى شنقُه في ساحة عامَّة على أيدي شرذمة من النساء الغاضبات. أمَّا أنا، فلم يكن هناك من يأخذ كلامي على محمل الجدّ. وعندما صدرت الأعداد الأولى من المجلَّة، وفيها تحقيقات عن موانع الحمل والطلاق والإجهاض والانتحار وغيرها من الموضوعات المحرَّمة، ثارت مشكلة واسعة. وأصبحت أسماؤنا، نحن العاملات في المجلَّة، على كلّ شَفَةٍ ولسان. يتحدَّث البعض عنَّا بإعجاب، ولكنَّ الأغلبيَّة تذكر أسماءنا باشمئزاز. لقد تحمَّلنا اعتداءات كثيرة. وباستثنائي أنا المتزوِّجة من إنكليزيّ هجين، انتهى الأمر بجميع الأُخريات إلى الانفصال عن أزواجهنّ المحلّيّين، الذين لم يستطيعوا التسامح مع السمعة النضاليَّة لزوجاتهم.

لقد لمحت الإشارة الأولى إلى دونيَّة جنسي حين كنت طفلة مخاطيَّة في الخامسة من عمري وكانت أمّي تعلِّمني حياكة الصوف في الممرّ في بيت جدّي، بينما كان أخواي يلعبان على شجرة الحور في

الحديقة. كانت أصابعي المضطربة تحاول عقد خيط الصوف على الصِّنّارتين، ولكنّ القُطَبَ تفلت منِّي، وكبّةَ الصوف تتشابك، وأنا أتنهّد جاهدة في التركيز. وفي أثناء ذلك، قالت لي أمّي: ضمّي ساقيك وأنت جالسة مثلما تفعل الآنسات. قذفت حياكة الصوف بعيدًا، وقرَّرت في تلك اللحظة أن أصبح رجلًا، وحافظت على هذا القرار بثبات حتى الحادية عشرة من عمري، عندما خانتني الهرمونات على مرأى من أُذُنَيْ حبّي الأوّل التذكاريَّتين، وبدأ جسدي يتبدَّل بصورة لا يمكن وقفها. وكان لا بدَّ من مرور أربعين سنة قبل أن أتقبَّل وضعي، وأدرك أنَّ في إمكاني التوصُّلَ أحيانًا إلى ما يحصل عليه الرجال إذا أنا بذلت ضعف المجهود ونلت نصف الاعتراف. وإنَّني اليوم غير مستعدَّة لاستبدال شخصيَّتي بأيِّ واحد منهم، ولكنَّ المظالم اليوميَّة كانت تملأ حياتي بالمرارة في شبابي. والأمر ليس مسألة حسد فرويديّ، فليس هناك أيُّ سبب يدفعني إلى حسد تلك الزائدة الذكريَّة الضئيلة والمتقلِّبة الأهواء، ولو كانت لديّ واحدة منها لما عرفت ما الذي سأفعله بها. أعارتني ديليا كمِّيَّة كبيرة من مؤلَّفات الكُتَّاب الأميركيِّين والأوروبِّيين، وأمرتني بقراءتها بحسب التسلسل الأبجديّ، لترى إذا كنت سأتخلّص من غمامات الرومانسيَّة التي سمَّمَت عقلي بسبب الإفراط في قراءة الأدب الخياليّ. وهكذا، رحت أكتشف ببطء طريقة مفضَّلة للتعبير عن السخط الأصمّ الذي رافقني دائمًا. وأصبحت خصمًا قويًّا في مواجهة العمّ رامون الذي كان عليه أن يلجأ إلى أسوأ خدعه الخطابيَّة للوقوف في وجهي، وصرت أنا من أحرِّر وثائق من ثلاث نسخ على ورق مختوم، بينما هو يرفض التوقيع عليها.

دُعينا مع ميشيل، في إحدى الليالي، إلى العشاء في بيت

سياسيّ اشتراكيّ معروف، كوّن لنفسه مكانةً عبر النضال من أجل العدالة والمساواة للشعب. وكان الشعب في نظره مؤلّفًا من الرجال وحدهم، ولم يكن يخطر في باله أنَّ النساء هم جزء من الشعب أيضًا. وكانت زوجته تتولّى مسؤوليّة قياديّة في إحدى المؤسّسات الكبرى، وقد اعتادت الظهور في الصحف باعتبارها أحد النماذج القليلة من النساء المتحرّرات، ولست أدري السبب الذي جعلها تتزوّج من ذلك الفحل النموذجيّ. كان المدعوّون الآخرون من الشخصيّات السياسيّة أو الثقافيّة، وكنّا نحن أصغر من بقيّة المدعوّين بنحو عشر سنوات، ولم يكن هناك ما يجمعنا بذلك الفريق السوفسطائيّ. وقد أطرى أحد الموجودين في المأدبة مقالاتيَ الساخرةَ، وسألني إذا كنت أفكّر في الانتقال إلى الكتابة الجدّيّة، فأجبته، في واحدة من لمحات الإلهام، بأنّني أرغب في إجراء مقابلة مع زوجة خائنة. ونهضت، أخيرًا، سيّدةُ البيت وذهبت إلى المطبخ لإعداد القهوة، فتبعتها بذريعة مساعدتها. وبينما كنّا نضع الفناجين على الصينيّة، قالت لي إنّها مستعدّة لقبول إجراء المقابلة معها إذا أنا وعدتها بكتمان السرّ وعدم الكشف عن هويّتها. وذهبت إلى مكتبها، في اليوم التالي، وأنا أحمل آلة التسجيل. كان المكتب عبارة عن قاعة مشرقة في مبنًى من الزجاج والفولاذ في وسط المدينة، حيث كانت تتحكّم من دون منافسات نسائيّة، في مركز قياديّ، وسط حشد من التكنوقراطيّين ذوي البدلات الرماديّة وربطات العنق المخطّطة. استقبلتني من دون أن يبدو عليها الجزعُ، وكانت نحيلة أنيقة، في تنّورة قصيرة وابتسامة عريضة، وترتدي بدلة من تصميم شانيل وتضع حول عنقها سلسلة ذهبيّة من عدّة لفّات. كانت

مستعدَّة لرواية قصَّتها من دون أيِّ وساوس لها علاقة بالضمير. في شهر تشرين الثاني من تلك السنة، نشرت المجلَّة عشرة أسطر عن اغتيال تشي غيفارا الذي هزَّ العالم، ولكنَّها نشرت على أربع صفحات مقابلتي مع تلك الزوجة الخائنة التي هزّت المجتمع التشيليّ المتواطئ. لقد تضاعفت مبيعات المجلَّة خلال أسبوع، وجرى التعاقد معي لأصبح ضمن هيئة التحرير. وصلتْ إلى مكتب المجلَّة آلافُ الرسائل، كثير منها ورد من منظَّمات دينيَّة ومن شخصيَّات سياسيَّة يمينيَّة معروفة، ممَّن أفزعها النموذج السيِّئ الذي نشرته عديمة الحياء تلك، ولكنَّنا تلقَّينا أيضًا رسائل أخرى من قارئات يعترفن بمغامراتهنَّ الخاصَّة. ومن الصعب أن نتصوَّر اليوم أنَّ أمرًا تافهًا كهذا أثار كلّ ردود الفعل تلك، وخصوصًا أنَّ الخيانة الزوجيَّة في نهاية المطاف قديمة قِدَمَ مؤسَّسة الزواج نفسها. لم يغفر الجميع لبطلة المقابلة قولَها إنَّ دوافعها إلى الزنا هي الدوافع نفسها لدى الرجل: انتهاز الفرصة، الضجر، الحقد، الدلال، التحدِّي، الفضول. لم تكن السيِّدة التي قابلتها متزوِّجةً من سكِّير متوحِّش، ولا من مُقعَد على كرسيّ ذي عجلات، كما أنَّها لم تكن تعاني عذابات حبٍّ مستحيل، ولم تكن ثمَّة مأساة في حياتها، وإنَّما كانت تفتقر، بكلِّ بساطة، إلى مبرِّرات الحفاظ على الوفاء لزوج يخونها بدوره. لقد أبدى الكثيرون ذعرهم من تنظيمها الكامل لخيانتها، فقد كانت تستأجر شقَّة سرِّيَّة مع صديقتين، وكنَّ يحافظن على نظافتها، ويتناوبن الذهابَ إليها خلال أيَّام الأسبوع مع عشَّاقهنَّ، وهكذا لا يتعرَّضن لمضايقة الذهاب إلى الفنادق حيث يمكن التعرُّف إليهنَّ. لم يكن يخطر في بال أحد أنَّه يمكن للنساء أن يتمتَّعن بمثل هذه

التسهيلات، فالشقق الخاصَّة بالمواعيد الغراميَّة هي امتياز للرجال وحدهم، بل كانت هناك تسمية فرنسيَّة تُطلق عليها: garçonnière. لقد كانت تلك الشقق شائعة بين السادة في جيل جدِّي، ولكنَّ قليلين هم الذين في مثل هذا الترف، وكان كلّ واحد يضاجع النساء عمومًا بالطريقة والمكان اللذين تتيحهما له ميزانيَّته. ولم تكن تنعدم في أيِّ حال، الغرفُ التي تؤجَّر للغراميَّات العابرة، والجميع يعرفون أسعارها وأماكن وجودها بدقَّة.

بعد عشرين سنة من ذلك، وفي إحدى جولات سفري الطويل، التقيت في ركن آخر في العالم، بعيدًا جدًّا عن تشيلي، زوجَ تلك السيِّدة ذات بدلة الشانيل. كان الرجل قد تعرَّض للسجن والتعذيب خلال السنوات الأولى من الدكتاتوريَّة العسكريَّة، وكانت آثار القروح تغطِّي جسده وروحه، ويعيش حينذاك في المنفى، بعيدًا عن أُسرته، وبصحَّة معتلّة، لأنَّ برودة السجن قد تغلغلت إلى أعماقه وراحت تفري عظامه، ولكنَّه لم يتخلَّ مع ذلك عن تأنُّقه وغروره الرهيب. وما إن تذكَّرني حتى تبيَّن لي أنَّه لا يميِّزني في ذاكرته إلَّا من خلال تلك المقابلة التي قرأها مفتونًا.

قال لي بنبرة سرِّيَّة:

ـ لقد كنت أرغب دائمًا في التعرُّف إلى تلك المرأة الخائنة. لقد تحدَّثت في المسألة مع جميع أصدقائي. ولم يكن هناك في سنتياغو من يهتمّ بشيء آخر في تلك الأيَّام. كنت مفتونًا بالرغبة في زيارة تلك الشقَّة، وعساني كنت أجدها مع صديقتيها أيضًا. اعذريني لقلَّة تواضعي يا إيزابيل، ولكنَّني أظنّ أنَّ أولئك النساء الثلاث في حاجة إلى لقاء رجل راسخ الرجولة.

ـ كي أكون صريحة معك، أظنّ أنَّ هذا النمط من الرجال لم ينقصهنَّ أبدًا.

ـ لقد مضى وقت طويل على ذلك. ألن تخبريني من هي تلك المرأة؟

ـ لا.

ـ أخبريني إذا كنت أعرفها على الأقلّ!

ـ أجل، أنت تعرفها معرفة توراتيَّة.

كان العمل في المجلَّة ثم التلفزيون فيما بعد بمثابة صمَّام أمان للخلاص من الجنون الموروث عن أسلافي. ولولا ذلك، لكان الضغط المتراكم قد انفجر وأوصلني مباشرة إلى دار للمجانين. فالأجواء الرصينة والأخلاقيَّة، والعقليَّةُ الريفيَّة، وصرامةُ الأعراف الاجتماعيَّة في تشيلي في ذلك الحين، كانت كلُّها تلقي بثقلها الخانق. وسرعان ما اعتاد جدّي حياتي العامَّةَ وتوقَّف عن رمي مقالاتي إلى القمامة. لم يكن يعلِّق على تلك المقالات، ولكنَّه كان يسألني بين الحين والآخر عن رأي ميشيل فيها، ويذكِّرني بأنَّ عليّ أن أشعر بالامتنان لزواجي من رجل بمثل هذا التسامح. لم تكن تعجبه شهرتي كمدافعة عن المرأة، ولا أثوابي الطويلةُ وقبَّعاتي القديمةُ، وأقلّ من ذلك سيَّارتي السيتروين الملوَّنة مثل ستارة الحمَّام، ولكنَّه كان يغفر تصرُّفاتي الشاذَّة تلك لأنّي أنجز في الحياة الواقعيَّة دوري كأمٍّ وزوجة وربَّة بيت. فمن أجل المتعة في إثارة حفيظة الآخرين، كنت مستعدَّة للخروج في مظاهرة إلى الشارع وأنا أرفع حمّالة صدر على عصا مكنسة ـ وحدي بالطبع، لأنَّه

لم يكن هناك مَن هو مستعدّ لمرافقتي ـ ولكنَّني في حياتي الخاصَّة كنت قد سبرت غور الصيغ الكفيلة بتأمين السعادة البيتيَّة الأبديَّة. ففي الصباح، كنت أقدِّم الفطور إلى زوجي في فراشه، وأنتظره بعد الظهر بأجمل ملابسي، وأضع بين أسنانه حبَّة الزيتون التي سيتناولها مع كأس من المارتيني، وأترك له على الكرسيّ في الليل البدلةَ والقميص اللذين سيلبسهما في اليوم التالي، وألمّع حذاءه، وأقصّ شعره وأظفاره، وأشتري له ملابسه من دون أن أحمّله مشقَّة تجربتها، تمامًا مثلما كنت أفعل مع ابنَيّ. ولم يكن ذلك كلّه مجرَّد حماقة من جانبي، وإنَّما إفراط في النشاط.

لقد كنت آخذ من الهيبّيّين المظهرَ الخارجي فقط، ولكنَّني أعيش في الواقع مثل نملة عاملة، وأشتغل اثنتي عشرة ساعة لأدفع النفقات. وفي المرَّة الوحيدة التي جرَّبت فيها الماريجوانا التي قدَّمها إليّ هيبّيّ حقيقيّ، أدركتُ أنَّ هذه العشبة لا تناسبني. دخَّنت ستّ سجائر متتالية منها، ولم يسيطر عليّ الانبساط الذهنيّ الذي لطالما سمعتُ عنه، وإنَّما أُصبت بصداع فقط. فأسلافي الباسكيُّون محصَّنون ضدَّ سعادة المخدّرات السهلة. رجعت إلى العمل في التلفزيون، وكان عملي هذه المرَّة في برنامج نسائيّ ساخر، وكنت أشارك في تحرير مجلَّة الأطفال الوحيدة في البلاد، وانتهى بي الأمر إلى رئاسة تحريرها عندما توفِّي مؤسِّسها في مرض مفاجئ. وقد استمتعت لسنوات في إجراء مقابلات مع قَتَلة ومنجّمين وعاهرات ونابشي قبور، ومشعوذين وقدِّيسي معجزات غامضة، وأطبّاء نفسانيين معتوهين، ومتسوّلات بأعضاء مزيَّفة البتر يستأجرن أطفالًا حديثي الولادة لاستثارة المحسنين. وكنت أكتب وصفات طعام أبتدعها في لحظة إلهام، وأرتجل بين حين وآخر صفحة

الأبراج مسترشدة بأعياد ميلاد أصدقائي. فقد كانت منجّمة المجلّة تعيش في البيرو، وكان البريد يتأخّر ر عادة أو تضيع مراسلاتها في دروب القَدَر الوعرة. ولقد اتّصلت بها هاتفيًا في إحدى المرّات لأخبرها بأنّنا قد تلقّينا صفحة الأبراج الخاصّة بشهر آذار، ولكن صفحة شهر شباط لم تصلنا، فردّت عليّ قائلة إنّه يمكننا نشر ما هو لدينا، وأين هي المشكلة في ذلك، فالتسلسل لا يغيّر النتيجة. ومنذ ذلك الحين، بدأت أفبرك الأبراج، وكانت نسبة الصواب هي نفسها. أمّا أكثر المهمّات مشقّةً، فكانت صفحة «بريد الحبّ»، التي كنت أوقّعها باسم فرنثيسكا رومان. وبسبب افتقاري إلى التجارب الخاصّة في هذا المجال، كنت ألجأ إلى البديهة التي ورثتها عن جدّتي ميمي، وإلى نصائح الجدّة هيلدا التي تتابع كلّ المسلسلات التلفزيونيّة الرائجة، وكانت خبيرة حقيقيّة بشؤون القلب. وكان يمكن لأرشيف فرنثيسكا رومان اليوم أن يساعدني في كتابة عدّة مجلّدات من القصص القصيرة. إلى أين انتهت تلك الأدراج المترعة بالرسائل الميلودراميّة؟ لست أدري كيف كان يتوفّر لي الوقت للعناية بالبيت والأبناء والزوج، ولكنّني كنت أتدبّر الأمر بطريقة أو بأخرى. لقد كنت أستغلّ لحظات الفراغ في خياطة ملابسي، وفي كتابة قصص للأطفال وأعمال للمسرح، وكنت أحافظ على سيل الرسائل المتبادلة مع أمّي. وكان ميشيل يبقى في متناول اليد دائمًا، محتفلًا بهذه السعادة الخالية من الخصام التي استقررنا فيها، يغمرنا اليقين الساذج بأنّ كلّ شيء سيسير على ما يرام إلى الأبد ما دمنا التزمنا بالقواعد المعهودة. كان يبدو مغرَمًا بي وأنا كنت مغرَمة به فعلًا. لقد كان أبًا متساهلًا وغائبًا بعض الشيء، ولكن عقوبات الأولاد ومكافآتهم كانت من اختصاصي، في أيّ حال؛ فقد كان مقتنعًا بأنّ تربية الأبناء هي مسؤوليّة الأمّهات.

ولم تصل نشاطاتي النسائيَّة إلى حدِّ تقاسم الأعمال المنزليَّة، والحقيقة أنَّ هذه الفكرة لم تخطر في بالي، فقد كنت أعتقد أنَّ التحرُّر يتمثَّل في الخروج إلى الدنيا والاضطلاع بمسؤوليَّات الرجال، ولكنَّني لم أفكِّر في أنَّ الحرِّيَّة تتضمَّن كذلك تفويضه بجزء من أعبائي. وكانت النتيجة إرهاقًا كبيرًا، مثلما حدث لملايين النساء من جيلي، ممَّن يناقشن اليوم مسألة الحركات النسائيَّة.

كان أثاث المنزل يختفي فجأة وتظهر مكانه أشياء قديمة مشكوكٌ في أصالتها، ومشتراةٌ من السوق الفارسيَّة، حيث كان تاجر سوريّ يستبدل تفاهات عتيقة ببدلات رجَّاليَّة. وبينما كان ميشيل يفقد ملابسه، كان البيت يمتلئ بمبولات مشقَّقة، وماكينات خياطة ذات دوَّاسات، وبمجلات عربات وفوانيس غاز. وكان حمواي خائفين من بعض الأشخاص الذين يمرُّون ببيتنا، فكانا يقومان بكلِّ ما يستطيعانه لحماية حفيديهما من أخطار كامنة. فقد كان ظهوري في التلفزيون وظهور اسمي في المجلَّة بمثابة دعوة مفتوحة لبعض الأشخاص غريبي الأطوار، مثل موظَّف البريد الذي يتبادل المراسلات بانتظام مع المريخيّين، والفتاة التي تخلَّت عن ابنتها حديثة الولادة فوق طاولة مكتبي. وقد أبقينا الطفلة معنا لبعض الوقت، وحين قرَّرنا أن نتبنَّاها رجعنا إلى البيت في مساء أحد الأيَّام لنكتشف أنَّ جَدَّيِ الطفلة الحقيقيَّين قد استعاداها تحت حماية الشرطة. وهناك عامل منجم من الشمال، يتَّخذ التَنجيمَ مهنةً، وقد فَقَدَ اتِّزانه العقليَّ لكثرة ما تنبَّأ بالكوارث. بقي هذا الرجل ينام على الأريكة في صالة بيتنا طوال أسبوعين، إلى أن توقَّف أحد إضرابات الخدمات الصحِّيَّة الوطنيَّة، فقد

حضر ذلك البائس إلى العاصمة ليتلقّى العلاج في مستشفى الطبّ النفسيّ، وتصادَفَ وصوله مع يوم بدء الإضراب. كان يعاني قلّة النقود ولا يعرف أحدًا في العاصمة، لكن قدراته التنبُّئيَّة كانت سليمة ولم تُمَسّ، وهكذا استطاع الوصول إلى واحد من الأشخاص القلائل الذين يمكنهم أن يوفّروا له المأوى في هذه المدينة المعادية. وقد حذّرتني غراني بعصبيَّة: «هذا الرجل تنقصه بعضُ البراغي في دماغه، ويمكن له إخراج سكّين وذبح الجميع»، وأخذت حفيديها ليناما عندها إلى أن تنتهي زيارة ذلك المنجِّم الذي تكشّفَ عن شخص مسالم تمامًا، بل ربَّما كان قد أنقذ حياتنا بطريقة ما. فقد تنبَّأ بأنَّ بعض جدران المنزل ستنهار بسبب هزَّة أرضيَّة قويَّة، فقام ميشيل بإجراء فحص كامل للبيت، ورمَّم بعض الأماكن الضعيفة، وعندما جاءت الهزَّة لم يسقط سوى جدار الفناء، فهرس تحته أزهار الداليا وأرنب الجيران.

ساعدت غراني والجدَّة هيلدا على رعاية طفلينا، وقدَّم إليهما ميشيل الاستقرارَ والاحتشام، والمدرسة ربَّتهما، وما سوى ذلك اكتسباه بالسرعة والموهبة الطبيعيَّتين. وكنت أنا أحاول تسليتهما على الدوام. لقد كنتِ طفلة حكيمة، يا باولا، منذ صغرك، إذ كانت لك منذ ذلك الحين ميولٌ تربويَّة تجاه أخيك والكلاب والدمى التي قُيِّض لها أن تؤدِّي دور التلاميذ. أمّا أوقات الفراغ، التي تبقى لك بعد نشاطاتك التعليميَّة، فكنت تمضينها في اللعب مع غراني، وفي زيارة ملجأ مجاور للمسنِّين، وفي جلسات تعلُّم الخياطة مع الجدَّة هيلدا. وبالرَّغم من الملابس المطرَّزة الفاخرة التي كانت تشتريها لك أمّي من سويسرا، فإنَّك كنت تبدين مثل يتيمة بالخِرَق سيِّئة الخياطة التي تصنعينها بنفسك. وبينما كان حموي ينفق سنوات تقاعده في محاولة

حلّ مسألة تربيع الدائرة وغيرها من المسائل الرياضيَّة التي لا حصر لها، كانت غراني تمتّع حفيديها في طيش حقيقيّ بالنسبة إلى الجدّة. فقد كانوا يصعدون إلى العلّيَّة ليلعبوا لعبة قطّاع الطرق، أو يتسلّلون خفية إلى النادي المجاور ليسبحوا في مسبحه، أو ينظّمون عروضًا مسرحيَّة محرجة باستخدام قمصان نومي. لقد كنت تمضين الصيف، يا باولا، مع تلك المرأة المعبودة، في صنع البسكويت، وتمضين الشتاء في حياكة الشالات الصوفيَّة المخطَّطة لأصدقائك في نزل المسنِّين. وعندما غادرنا تشيلي، فيما بعد، ظللتِ تكتبين الرسائل إلى كلّ واحد من أولئك الأجداد الهرمين إلى أن توفّي آخرهم من العزلة. لقد كانت تلك السنوات أكثرَ سنوات حياتنا سعادة وأمنًا. وأنت ونيكولاس تكتنزان ذكريات سعيدة مكّنتكما من تحمُّل الأزمنة الصعبة، حين كنتما تبكيان وأنتما تطلبان منّا أن نعود إلى تشيلي، لكنَّ العودة لم تكن ممكنة آنذاك، فالجدَّة غراني كانت ترقد تحت شجيرة ياسمين، وكان زوجها قد تاه في الخرف الشيخوخيّ، والأصدقاء ماتوا أو تشتَّتوا في أنحاء العالم، ولم يكن لنا مكان في تلك البلاد. لم يبقَ سوى البيت، وهو لا يزال على حاله هناك. لقد ذهبت قبل وقت طويل لزيارته، وفوجئت بحجمه الذي يجعله يبدو مثل بيت للدمى مع باروكة نصف صلعاء على سقفه.

لقد عاملني ميشيل بصبر يُمتَدَح عليه، فلم تُخجله الأقاويل والانتقادات التي كنت أستثيرها، ولم يتدخَّل في شؤوني مهما بلغ تشوُّشها، وساندني بإخلاص حتى وأنا على خطأ، ولكن دربينا كانا ينفصلان أكثر فأكثر على الرَّغم من ذلك كلّه. فبينما كنت أتحرَّك مع

المدافعين عن حقوق المرأة والبوهيميين والفنّانين والمثقّفين، كان هو يكرّس نفسه لخرائطه وحساباته وعماراته التي يشيّدها، ولمبارياته في الشطرنج ولعبة البريدج. كان يبقى في مكتبه حتى ساعة متأخّرة جدًّا، لأنَّ المهنيّين التشيليّين ينظرون بعين الرضا إلى العمل من شروق الشمس حتى مغيبها من دون التمتّع بإجازات، وعكس ذلك يُعتبر مؤشّرًا على العقليّة البيروقراطيّة ويؤدّي بالمؤسّسة الخاصّة إلى الإخفاق المحتّم. لقد كان صديقًا طيّبًا وحبيبًا جيّدًا، لكنّني لا أحتفظ بذكريات كثيرة منه. لقد امّحى من ذاكرتي مثلَ صورة خارج البؤرة. لقد ربونا على تقليد مفاده أنَّ الرجل هو الذي يوفّر للبيت حاجاته، بينما تتولّى المرأة شؤون المنزل والأبناء، ولكن حالتنا لم تكن كذلك على الإطلاق. فقد بدأت العمل قبله وتحمّلت مسؤوليّة الجزء الأكبر من نفقاتنا. كان راتبه يُخصّص لدفع أقساط المنزل وللاستثمارات، أمّا راتبي فكان يتبخّر في النفقات اليوميّة. وبقي، في كلّ حال، مخلصًا لنفسه، فهو لم يتبدّل إلّا قليلًا على امتداد حياته، أمّا أنا، فكنت أعرّضه لمفاجآت كثيرة. كنت أتأجّج قلقًا، وأرى الظلم في كلّ مكان، وأسعى إلى تغيير العالم واحتضان قضايا كثيرة أضيّع أنا نفسي عددها، بينما يعيش ابناي في حالة دائمة من عدم الاستقرار. بعد عشر سنوات، وحينما كنّا نستقرّ في فنزويلا، وكانت مُثُلي العليا قد تأثّرت بصروف المنفى، سألت هذين الطفلين ـ اللذين ترعرعا في عصر الهيبيّين والأحلام الاشتراكيّة ـ كيف يحبّان أن يعيشا، وقد ردّا، كلاهما، على السؤال معًا، ومن دون اتّفاق مسبق: نريد العيش كبرجوازيّين ثريّين.

* * *

رجع العمّ رامون وأمّي من سويسرا في السنة نفسها التي مات فيها أبي. كان زوج أمّي قد ارتقى ببطءٍ درجاتِ وظيفته الدبلوماسيَّة ووصل إلى موقع مرموق في الخارجيَّة، فكان يأخذ حفيديه إلى قصر الحكومة قائلًا لهما إنَّه مقرّ إقامته الخاصّ، ويُجلسهما في المطعم المخصَّص للسفراء بين ستائر المخمل وصور أعيان الوطن، حيث يُقدَّم إليهما عصيرَ البرتقال فتيانٌ يضعون قفَّازات بيضاء. في السابعة من عمرك، يا باولا. كان عليك أن تكتبي موضوعًا في التعبير في المدرسة، وكان الموضوع عن الأُسرة، فكتبت أنَّ الشخص الوحيد المهمّ في أسرتك هو العمّ رامون، الأميرُ المنحدر مباشرة من يسوع المسيح، وصاحبُ قصر يرتدي الخدم فيه زيًّا موحَّدًا ويقف على بابه حرَّاسٌ مسلَّحون. وقد أعطتني المعلِّمة اسم طبيب نفسانيّ للأطفال، ولكن سمعتك بقيت نظيفة بعد وقت قصير من ذلك. ففي أحد الأيَّام، كان عليّ أن آخذك إلى طبيب الأسنان، لكنَّني نسيتُ ذلك، فبقيت تنتظرين عدَّة ساعات عند باب المدرسة. وقد حاولت المعلِّمة الاتِّصال بي أو بأبيك من دون جدوى، فاتَّصلت أخيرًا بالعمّ رامون الذي ردَّ عليها: أخبري باولا بألاّ تتحرَّك من مكانها، سأحضر حالًا لآخذها. وقد ظهر بعد نصف ساعة في سيَّارة ليموزين رئاسيَّة يخفق عليها العلم، وبحراسة شرطيَّين على درَّاجتين ناريَّتين، فنزل السائق وهو يحمل القبّعة بيده وفتح باب السيَّارة الخلفيّ ليترجَّل جدُّك وصدره مرصَّع بالأوسمة، وهو يضع على كتفيه عباءة الاحتفالات المهمَّة، والتي مرّ على بيته لإحضارها في واحدة من لمحات الإلهام الشاعريَّة. لقد نسيتِ تأخُّري عن موعدك، يا ابنتي، ولكنَّك احتفظت في ذاكرتك بذلك الموكب الإمبراطوريّ، وبوجه معلِّمتك التي سيطر عليها

الاضطراب فانحنت بتوقير عميق تحيَّةً للعمّ رامون.

مات أبي في نوبة صاعقة. لم يُتح له الوقتُ جَرْدَ حسابات عظمته وبؤسه لأنَّ موجة مفاجئة من الدم أغرقت أعمق تجاويف قلبه وتركته ملقًى في الشارع مثلَ متشرِّد. التقطه الإسعاف العامّ، وجرى نقله إلى مستودع الجثث، حيث تمَّ تشريح جثَّته وتحديدُ سبب الوفاة. وبعد تفتيش جيوب ملابسه وجدوا بعض الأوراق، وبسبب كنيتها اتَّصلوا بي للتعرُّف إلى الجثَّة. عندما سمعت الاسم، لم أتصوَّر أنَّهم يعنون أبي، لأنّي لم أكن أفكِّر فيه منذ سنوات طويلة، ولم تكن هناك أيُّ علامات على مروره في حياتي، ولا حتى الحقد عليه بسبب تخلِّيه عنَّا. ولهذا، فكَّرت في أنَّ الميت هو أخي، وخصوصًا أنَّ اسمه مركّب، والجزءَ الثاني منه هو توماس، وكان لا يزال آنذاك تائهًا مع تلك الطائفة الغامضة للمسيح الأرجنتينيّ. وكنَّا نجهل أخباره منذ شهور، وبسبب هذا القَدَر التراجيديّ الخاصّ بالعائلة، افترضنا أسوأ الاحتمالات. كانت أمّي قد استنفدت الوسائل للتوصُّل إلى مكان وجوده، ولكن من دون طائل، فكانت تميل إلى تصديق الإشاعات القائلة إنَّ ابنها قد ارتبط بالثوريِّين الكوبيِّين، لأنَّ فكرة اقتفائه أثر تشي غيفارا الصريع كانت تبدو لها مقبولة أكثر من انقياده الأعمى وراء قدِّيس مزيَّف. وقبلَ أن أذهب إلى مستودع الجثث، اتَّصلت بالعمّ رامون في مكتبه لأخبره، وأنا أتلعثم، بأنَّ أخي قد مات. وقد وصلت إلى المبنى المشؤوم قبله، وقدَّمت نفسي إلى موظَّف معصوم عن التأثُّر، قادني إلى قاعة باردة فيها نقَّالة عليها حزمة مغطَّاة بشرشف. رفع القماش، فظهر تحته رجلٌ بدين وشاحبٌ وعارٍ، في جسده شقٌّ يمتدّ من العنق حتى الأعضاء التناسليَّة،

مخيَّطٌ كيفما اتَّفق مثل غرز خياطة الفراش، ولكنَّني لم أشعر بأدنى علاقة بذلك الرجل. بعد لحظات من ذلك، جاء العمّ رامون، فرمقه بنظرة سريعة، وقال إنَّه أبي. اقتربت مرَّة أخرى وتأمَّلت تقاطيعه بانتباه لأنَّني لن أحصل أبدًا على فرصة أخرى لرؤيته.

في ذلك اليوم، علمت بوجود أخ غير شقيق أكبر منِّي، هو ابن أبي من حبٍّ آخر، وكان يشبه بشكل ملحوظ ذلك الفتى الذي أحببته في درس الرياضيَّات حين كنت في الخامسة عشرة من عمري. وقد علمت كذلك بوجود ثلاثة أبناء صغار أنجبهم من امرأة ثالثة، وشاءت السخرية أن يمنحهم اسمنا. تولَّى العمّ رامون مسؤوليَّة ترتيب الجنازة وتحرير وثيقة نتخلَّى فيها عن أيِّ ميراث، ونتنازل عنه لمصلحة الأسرة الأخرى، وقد وضعنا أنا ورامون توقيعنا على الوثيقة في الحال، ثم زوَّرنا توقيع أخي بانتشو لنتفادى المماطلات القانونيَّة المتعبة. وفي اليوم التالي، سرنا وراء تابوت ذلك الرجل المجهول عبر أحد دروب المقبرة العامَّة، ولم يحضر تلك الجنازة المتواضعة أحد سوانا، فقد خلّف أبي في هذه الدنيا قلَّة من الأصدقاء. لم أعد إلى الاتِّصال أبدًا بأخوتي غير الأشقَّاء. وعندما أفكِّر في أبي لا أستطيع أن أتصوَّره إلَّا خامدًا في هوَّة عزلة قاعة الجثث الجليديَّة.

لم تكن جثَّة والدي الجثَّةُ الأولى التي رأيتها عن قرب. كنت قد لمحت من بعيد بعض الأجساد الملقاة في الشارع خلال فوضى الحرب التي هزَّت لبنان، وفي معمعة الثورة في بوليفيا، ولكن تلك الأجساد كانت تبدو دمًى أكثر ممَّا هي بشر، أمَّا جدَّتي ميمي فلا أستطيع أن

أتذكَّرها إلَّا حيَّة، وخالي بابلو لم يبقَ منه أثر. أمَّا الميِّت الحقيقيّ والحاضر الوحيد في طفولتي، فقد رأيته عندما كنت في الثامنة من عمري، وجعلته الظروف حدثًا لا يُنسى.

بقيت مستيقظة لساعات، في ليلة الخامس والعشرين من كانون الأوّل ١٩٥٠، وعيناي مفتوحتان في العتمة المسكونة بأصوات بيتنا على الشاطئ. كان إخوتي وأبناء أخوالي يشغلون أسرّة ضيّقة أخرى في الغرفة نفسها. ومن خلال الجدران الكرتونيَّة الرقيقة، كنت أسمع أنفاس النائمين في الغرف الأخرى، وهديرَ الثلّاجات المتقطّع وخطوات الفئران المتكتِّمة. رغبت عدّة مرَّات في النهوض والخروج إلى الفناء لأتبرَّد بالنسمات المالحة الآتية من البحر، فكان يصرفني عن ذلك مرورُ الصراصير العمياء المتواصل. وبينما أنا بين الشراشف الرطبة بندى الشاطئ الأبديّ، كنت ألمس جسدي بذهول ورعب، وتتوالى صور ذلك المساء الكاشفة مثل زخّات أمام انعكاسات القمر الشاحبة في النافذة. كنت لا أزال أشعر بفم الصيَّاد الرطب على عنقي، وبصوته الهامس في مسمعي. وكان يصل إليّ من بعيد صخبُ المحيط الأصمّ؛ وبين حين وآخر تمرّ سيَّارة في الشارع مضيئة لبرهة فجوات أباجور النافذة. كنت أسمع في صدري دويّ أجراس، وأشعر بثقل صفيحة حجريَّة، وبمخلب قويّ يصعد نحو الحنجرة ويخنقني. الشيطان يظهر في الليل على المرايا... لم تكن هناك أيّ مرآة في الغرفة، والمرآة الوحيدة في البيت هي مربّع صدئ في الحمَّام حيث تطلي أمّي شفتيها، وهي مرآة عالية بالنسبة إلى قامتي، ولكنَّ الشرّ لا يسكن المرايا وحدها ـ هكذا كانت تقول لي مارغا ـ، بل إنَّه يتجوَّل في الظلام أيضًا ليتصيَّد الخطايا البشريَّة ويتسلَّل داخل الطفلات

الخبيثات ليلتهم أحشاءهنّ. أضع بدي حيث وضع هو يده وأرفعها على الفور مذعورة، من دون أن أفهم هذا المزيج من الاشمئزاز واللذّة الغامضة. وأشعر مجدَّدًا بأصابع الصيَّاد الخشنة والثابتة تستكشفني، واحتكاكِ خدَّيه سيِّئَي الحلاقة، ورائحتِه وثقله، وبذاءاته في أذني. لا بدَّ من أنَّ علامة الخطيئة قد ظهرت على جبهتي. كيف لم ينتبه أحد لذلك؟ عندما وصلت إلى البيت، لم أتجرَّأ على النظر إلى عيني أمّي ولا إلى جدّي، واختبأت من مارغارا متذرِّعة بألم في بطني لأهرب باكرًا إلى السرير بعد أن وقفت طويلًا تحت الدوش ودلَّكت جسدي كلّه بصابون أزرق لغسل الثياب، ولكن لا يمكن لشيء أن يزيل اللطخات عنّي. قذرة، كنت قذرة إلى الأبد... ومع ذلك لم يخطر في بالي عصيان أمر ذلك الرجل، وسأرجع في اليوم التالي إلى لقائه في درب الجرانيوم، وسأتبعه بقدريَّة محتومة نحو الغابة، حتى لو أدّى ذلك إلى فقداني الحياة. كان قد حذَّرني: «إذا عرف جدّك، فسيقتلني». إنَّ صمتي مقدَّس، وأنا مسؤولة عن حياته. اقتراب هذا الموعد الثاني كان يملأني بالرعب، وبالافتتان أيضًا. ماذا يوجد فيما وراء الخطيئة؟ تمضي الساعات ببطء هائل، بينما أسمع أنفاس أخوَيّ وأبناء أخوالي المنتظمة، وأحسب الوقت المتبقّي لبزوغ الفجر. ما إن تطلّ أوّل أشعَّة الشمس حتى أغادر السرير وأدوس الأرض، لأنَّ الصراصير تختبئ عندئذ في أركانها. كنت جائعة، أفكِّر في علبة الحلوى والبسكويت الذي في المطبخ، وكنت أشعر بالبرد وأغطّي نفسي بالبَّطانيَّات الثقيلة، ولكنَّني بدأت أختنق على الفور بحمّى الذكريات المحرَّمة وهذيان استباق ما سيحدث.

في وقت مبكِّر جدًّا من صباح اليوم التالي، وبينما كانت الأُسرة

لا تزال نائمة، استيقظت من دون جَلَبة، فارتديت ملابسي وخرجت إلى الفناء، ثم قمت بالالتفاف حول البيت ودخلت المطبخ من الباب الخلفيّ. كانت القدور الحديديَّة والنحاسيَّة معلَّقة بخطَّافات على الجدران، وفوق طاولة الغرانيت الرماديَّة كان هناك سطل مملوء بمحارات حيَّة مغمورة بماء من البحر وكيس من خبز اليوم الفائت. لم أستطع فتح علبة الحلوى، ولكنَّني قطعت قطعة من الجبن وشريحة من حلوى السفرجل، وخرجت إلى الطريق لأراقب الشمس التي كانت تطلّ من وراء الرابية مثل برتقالة متوهِّجة. مشيت من دون أن أدري السبب في اتِّجاه مصبّ النهر، مركز قرية الصيَّادين الصغيرة تلك، حيث لم تكن قد بدأت أيّ حركة بعد. تجاوزت الكنيسة، ومركزَ البريد، والمخزنَ؛ تجاوزت حيّ البيوت الجديدة، المتشابهة كلّها بسقوفها التوتيائيَّة وشرفاتها الخشبيَّة المطلّة على البحر؛ تجاوزت الفندق الذي يذهب إليه الشباب في الليل ليرقصوا على إيقاعات قديمة، لأنَّ الألحان الجديدة لم تكن تصل إلى تلك الأنحاء؛ تجاوزت شارع السوق الطويل، حيث تُباع الخضار والفواكه، وحيث الصيدليَّةُ، ودكَّانُ الأقمشة التي يملكها تركيّ، وكشكُ الصحف، والبارُ وصالة الرقص، ولم أرَ أحدًا على الإطلاق. وصلت إلى منطقة الصيَّادين، بأكواخها الخشبيَّة ومحالّها المشوَّشة لبيع السمك والأحياء البحريَّة، وشباكها المعلَّقة لتجفّ مثل نسيج عناكب هائلة، وزوارقها المقلوبة فوق الرمل في انتظار أن يفيق أصحابها من سكرة ليلة الميلاد ليخرجوا إلى عرض البحر. سمعت أصواتًا، ثم جماعة من الناس عند آخر الأكواخ، حيث يضيع النهر في البحر. كانت الشمس قد ارتفعت وبدأت تلدغ كتفي مثل وكر نمل ساخن. ومع أكل آخر لقمة من الجبن

وحلوى السفرجل، وصلت إلى نهاية الشارع. دنوت بحذر من حلقة الناس القليلين وحاولت أن أشقّ طريقي بينهم، ولكنّهم دفعوني إلى الخلف. في تلك الأثناء، جاء دركيّان على درّاجة، فأطلق أحدهما صفّارته، بينما صرخ الآخر بالجمع أن يتفرّقوا. اللعنة، فقد حضر القانون. انفتحت الدائرة برهة وتمكّنتُ من رؤية الصيّاد فوق رمل فرشة النهر الأسود. كان ملقًى على بطنه، وذراعاه كانتا مفتوحتين مثل صليب، ويرتدي البنطال والقميص نفسيهما، وينتعل الخفّ المطّاطيّ نفسه الذي كان ينتعله في اليوم السابق، حين أخذني إلى الغابة. قال أحد الشرطيّين إنّ الفاعلين قد وجّهوا ضربة إلى رأسه، ورأيت عندئذ لطخة الدم اليابسة على الأذن والعنق. انفجر شيء في صدري وداهمني طعم الكريفون الحامض، فانحنيت تهزّني الاختلاجات العنيفة، وهويت على ركبتي وقذفت فوق الرمل خليطًا من الجبن وحلوى السفرجل والإحساس بالذنب. صرخ أحدهم: ما الذي تفعله هنا هذه الصغيرة؟ وحاولت يد أن تمسك بذراعي، ولكنّني نهضت واقفة وانطلقت أجري بيأس. ركضت وركضت وأنا أشعر بألم واخز في خاصرتي وبطعم مُرّ في فمي، ولم أتوقّف إلى أن ظهرت سطوح بيتنا القرميديّة، فانهرت عندئذ على حافّة الطريق مكوّمة بين بعض الشجيرات. مَن الذي رآني في الغابة مع الصيّاد؟ كيف علم جدّي بالأمر؟ لم أعد أستطيع التفكير، والشيء الوحيد المؤكّد هو أنّ ذلك الرجل لن يعود أبدًا إلى دخول البحر ليُخرج منه الأصداف، وأنّه ميّت فوق الرمل ليدفع ثمن جريمتنا نحن الاثنين، وأنّني أصبحت حرّة ولم يعد عليّ الذهاب إلى الموعد، وأنّه لن يأخذني ثانية إلى الغابة. بعد وقت طويل من ذلك، سمعت أصوات البيت المعهودة، فقد كانت الخادمات يهيّئن وجبة الفطور،

وتعالت أصوات أَخَوَيَّ وأبناء أخواتي. مرّ حمار بائع الحليب بقعقعة آنيَّته، وبائع الخبز على درَّاجته ذات العجلات الثلاث، وخرجت ماراغارا للشراء متأفِّفة. تسلَّلتُ حتى فناء شجيرات الأورتنسيا، وغسلت وجهي ويدَيَّ بالماء الذي ينحدر من الرابية، وكان جدِّي قد أصبح آنذاك على كرسيّه، وفي يده الجريدة وأمامه فنجان قهوة بالحليب يتصاعد منه البخار. لماذا ينظر إليّ هكذا؟ لقد حيّاني مبتسمًا.

بعد يومين من ذلك، وعندما سمح الطبيب الشرعي بالدفن، سهروا على الرجل في بيته المتواضع. وجميع من في القرية، بمن في ذلك المصطافون، مرُّوا أمام جثمانه، فنادرًا ما يقع حدث مهمّ في القرية، ولم يكن هناك من يريد أن يضيِّع على نفسه حادثة الاغتيال، وهي الحادثة الوحيدة في هذا الشاطئ منذ زمن الرسَّام المصلوب. وقد أخذتني ماراغارا معها بالرَّغم من أنَّ أمّي كانت تعتبره مشهدًا مشؤومًا، لأنَّ جدِّي ـ الذي تبرَّع بتكاليف الجنازة ـ أعلن أنَّ الموت أمر طبيعيّ، ومن الأفضل الاعتياد عليه مبكرًا.

صعدنا الرابية عند الغروب ووصلنا إلى كوخ من ألواح خشبيَّة مزيَّن بأكاليل أزهار ورقيَّة، وراية تشيليَّة، وباقات أزهار بائسة مقطوفة من حدائق الشاطئ. وكانت أنغام الغيتارات الناشزة قد فترت ساعتئذ، والحضور الذين دوَّخهم النبيذ يغفون على كراسيّ القشّ المصفوفة في دائرة حول النعش، وقد كان ذلك النعش مجرَّد صندوق من خشب الصنوبر القاسي، تضيئه أربع شمعات. وكانت أمُّ الميِّت ترتدي السواد وتدمدم بصوت خافت صلوات مختلطة مع النحيب واللعنات، بينما هي تغذِّي بالحطب نارَ موقد يغلي عليه إبريق شاي سوّده الهباب. وكانت الجارات يجمعن الفناجين ليقدِّمن الشاي، وإخوةُ القتيل الصغار الذين

سُرّحت شعورُهم بزيت مثبّت وانتعلوا أحذية يوم الأحد، يتلاحقون راكضين في الفناء بين الدجاج والكلاب. وعلى طاولة مخلّعة كانت توضع صورة للصيّاد وهو في زيّ الخدمة العسكريّة، يقطعها من جانبها شريط أسود. وسيبقى الأصدقاء والأقرباء يتناوبون على الجثمان طوال الليل قبل دفنه تحت التراب، وسيعزفون في أثناء ذلك على الغيتارات أنغامًا نشازًا، ويأكلون ما تأتي به النساء من مطابخهنّ، ويتذكّرون الميّت بأنصاف ألسنة السكارى الحزينين. تقدّمت ماراغارا تتمتم بكلمات من بين أسنانها وتشدّني من ذراعي، لأنّني كنت قد تخلّفت عنها. وعندما أصبحنا أمام النعش، أجبرتني على الاقتراب وترديد صلاة «أبانا الذي في السماء» لوداع الميّت، لأنّ أرواح المقتولين، كما قالت، لا تعرف الراحة أبدًا، وتأتي في الليل لتُحزن الأحياء. رأيت الرجل الذي داعبني في الغابة قبل ثلاثة أيّام مسجّى فوق شرشف. نظرت إليه في أوّل الأمر بخوف في أحشائي، ثم تأمّلته بعد ذلك بفضول، باحثةً عن التشابه بين هذا الميّت وذلك الصيّاد، ولكنّني لم أجد أيّ شبه. فهذا الوجه لم يكن وجه خطيئتي، بل كان قناعًا شاحبًا ذا شفتين مطليّتين وشعر مفروق في منتصفه ومتيبّس بـ«البرينتين»، وكانت هناك قطعتا قطن في فتحتي الأنف ومنديل مربوط حول الرأس لتثبيت الفكّ السفلي.

بالرَّغم من أنَّ المستشفى يغصّ بالناس في المساء، فإنَّه يبدو مقفرًا يومي السبت والأحد صباحًا. أصل إليه والظلام لا يزال مخيِّمًا، وأفاجئ نفسي، من التعب المتراكم طوال أسبوع، وأنا أجرّ قدمَيّ وحقيبتي على الأرض مستنفَدة القوى. أذرع الدروب الأبديّة المقفرة،

حيث تدوي حتى خفقات قلبي مُحْدِثةً صدًى، وأحسّ كما لو أنَّني أمشي على حزام ناقل يمضي في الاتّجاه المعاكس، فلا أتقدَّم، وأبقى دائمًا في المكان نفسه، ولكنَّني أشعر بإنهاك أشدّ في كلّ مرَّة. أمضي وأنا أردِّد عبارات سحريَّة من اختراعي، وكلَّما اقتربت من المستشفى، من ممرّ الخطى الضائعة الطويل، من قاعتك ومن سريرك، يشتدّ ثقل الكآبة على صدري. لقد تحوَّلتِ إلى رضيع كبير الحجم، يا باولا. فقد خرجتِ منذ أسبوعين من وحدة العناية المشدَّدة، وليس هناك إلّا القليل من التبدُّل. لقد جئتِ إلى القاعة المشتركة وأنت متيبِّسة، وكأنَّك مذعورة، ثم رحت تهدئين شيئًا فشيئًا، ولكن ليست هناك أيّ علامة من علائم الذكاء، فما زلت تثبِّتين نظرك على النافذة، جامدة من دون حراك. لستُ يائسة بعد. وبالرَّغم من التنبُّؤات المشؤومة، فإنَّني أعتقد أنَّك ستعودين إلينا، حتى وإن لم تعودي تلك المرأة اللامعة والظريفة التي كنتها من قبل، وربَّما ستكون لك حياتك شبه الطبيعيَّة، وستكونين سعيدة، وأنا نفسي سأتكفَّل بذلك. لقد تعاظمت النفقات، فأنا أمرّ بالمصرف لأبدِّل النقود التي تتبخَّر من حقيبتي بسرعة لا أنتبه معها لكيفيَّة اختفائها، ولكنَّني أفضِّل عدم إجراء حسابات الآن، فالوقت ليس وقت الحذر. يجب عليّ أن أعثر على مختصّ بالعلاج الفيزيائيّ، لأنَّ خدمات المستشفى تقتصر على الحدود الدنيا. فبين الحين والآخر تأتي فتاتان ساهيتان لتحرِّكا ذراعيك وساقيك بضجر لعشر دقائق، وفقًا لتعليمات مبهمة تتلقَّيانها من شخص نشط ذي شارب، يبدو أنَّه رئيسهما الذي لم يرك سوى مرَّة واحدة. إنَّ عدد المرضى كبير، والوسائل المتوفِّرة قليلة جدًّا، ولهذا أقوم أنا نفسي بإجراء التمرينات لك. أربع مرَّات في اليوم أذرع جسدك لأجبره على الحركة، أبدأ من أصابع

قدميك، واحدة واحدة، وأتابع نحو الأعلى، ببطء وقوّة، لأنّه ليس من السهل فتح يديك وثني ركبتيك ومرفقيك. أُجلسك في السرير وأضرب على ظهرك لأنظّف رئتيك، وأرطّب بقطرات ماء الثغرة الكريهة في حنجرتك لأنَّ جهاز التدفئة يجفِّف الجوّ. وكي أتفادى حدوث تشوُّهات، أضع كتبًا على باطن قدميك وأثبّتها بشرائط، وأفصل كذلك بين أصابع يديك بقطع من المطّاط، وأسعى دائمًا للإبقاء على رأسك مستويًا بطوق الرقبة الذي ارتجلته لك من وسادة سفر ولزوقات طبيَّة. ولكنّ هذه الوسائل المستعجلة تبعث على الأسى، يا باولا. يجب أن أنقلك بسرعة إلى مكان آخر يمكنهم أن يساعدوك فيه، فإعادة التأهيل تصنع المعجزات كما يقولون. يطالبني طبيب الأعصاب بالصبر، ويؤكّد أنَّه ما زال من غير الممكن نقلك إلى أيِّ مكان، فما بالك بعبور العالم بك في طائرة. إنّني أُمضي النهار وشطرًا كبيرًا من الليل في المستشفى. لقد أصبحتُ صديقة للمرضى في قاعتك ولذويهم. فأنا أُجري مسّاجات لإلڤيرا، وأحاول معها ابتداع لغة إشارات للتواصل، لأنَّ الكلمات تخونها. أمّا الآخرون، فأروي لهم قصصًا ويهدونني، بالمقابل، قهوةً وسندويشات جمبون يحضرونها من بيوتهم. لقد نقلوا المرأة ـ الحلزون إلى الحجرة صفر، فنهايتها تقترب. يقول زوج إلڤيرا لي كلّ لحظة: «صغيرتك تتحسَّن أكثر فأكثر»، ولكنّني أستطيع أن أقرأ في عينيه أنَّه لا يعتقد ذلك في الواقع. لقد أريتهم صورًا من حفل زفافك، ورويت لهم قصّة حياتك، فأصبحوا يعرفونك جيّدًا، وبعضهم يبكي مواريًا دموعَه حين يأتي أرنستو لرؤيتك ويهمس في أذنك ويحتضنك. إنَّ زوجك متعَب جدًّا مثلي. هنالك ظلال بنفسجيَّة تحت عينيه، وقد نقص وزنه، وتبدو الثياب معلَّقة عليه.

جاء ويللي مرّة أخرى. إنّه يحاول المجيء بكثرة ليخفّف وطأة هذا الفراق الذي يبدو أبديًا. عندما التقينا منذ أربع سنوات تعاهدنا على عدم الفراق مطلقًا، ولكنّ الحياة تعهّدت بتدمير خططنا. هذا الرجل هو قوّة خالصة، وفيه الكثير من الفضائل مثلما فيه من العيوب. إنّه يبتلع كلّ الهواء فيما حوله ويتركني أرتعش، ولكنّني أشعر بالتحسّن الكبير وأنا معه. فأنا أنام إلى جانبه من دون حبوب منوّمة، مخدّرةً بأمان جسده ودفئه. ويأتيني في الصباح بالقهوة إلى الفراش، ويُجبرني على البقاء ساعة أخرى لأستريح، ويذهب هو إلى المستشفى ليتولّى المناوبة مكان الممرّضة الليليّة. يدخل القاعة المشتركة بثيابه الباهتة الألوان، وحذاء الحطّاب، وسترة الجلد السوداء، وقبّعة بيريه كتلك التي كان يستخدمها جدّي، وقد اشتراها من ساحة بلاثا مايور. وبالرّغم من أبّهة ملابسه، فإنّه يبدو مثل بحّار جَنَوِيّ قديم، وأخشى أن يوقفوه في الشارع ليسألوه عن الطرق البحريّة إلى العالم الجديد. فور دخوله حجرتك في المستشفى يحيّي المرضى برطانة ذات نبرة مكسيكيّة، ويجلس إلى جانب سريرك ليداعب يديك، ويحدّثك عمّا سنفعله عندما نذهب إلى كاليفورنيا، بينما المرضى الآخرون يراقبونه بذهول. ولا يستطيع ويللي إخفاء قلقه بشأنك، فعمله كمحامٍ جعله يرى ما لا يُحصى من الحوادث، وأمله ضعيف في استعادتك عافيتَك، لذا يحاول تهيئتي لما هو أسوأ:

ـ سنتكفّل نحن بها. هناك أُسَر كثيرة تفعل ذلك، ولن نكون الوحيدين، فرعاية باولا وحبّها سيعطيان حياتنا هدفًا آخرَ. وسنتعلّم طريقة مختلفة للسعادة. سنواصل حياتنا ونأخذها معنا إلى كلّ مكان. أين هي المشكلة؟ إنّه يحاول مواساتي بهذه البراغماتيّة الكريمة

والساذجة بعض الشيء التي أغواني بها عندما تعرَّفت إليه.

فأردُّ عليه من دون أن أنتبه إلى أنَّني أصرخ:

ـ لا! لا أريد الاستماع إلى نبوءاتك المشؤومة. باولا ستُشفى!

ـ لقد تسلَّطتْ على عقلك، فأنت لا تتكلَّمين إلَّا عليها، ولا تستطيعين التفكير إلَّا فيها. إنَّك تتدحرجين إلى هاوية باندفاع كبير لا يمكنك وقفه. لا تتركين لي المجال لمساعدتك. لا تريدين سماعي... يجب عليك أن تضعي شيئًا من التباعد الانفعالي بينكما وإلَّا فستصابين بالجنون. من الذي سيعتني بابنتك إذا أنت سقطت مريضة؟ أرجوك، اتركيني أعتنِ بك...

يأتي السحرة في المساء. لست أدري كيف يصلون إلى هنا، وهم يبذلون المساعي لبعث النشاط والصحَّة فيكِ. إنَّهم، في حياتهم اليوميَّة، مستخدَمون وفنِّيُّون وموظَّفون، وأُناس عاديُّون، ولكنَّهم في ساعات فراغهم يدرسون العلوم السرِّيَّة ويحاولون علاج المرضى بقوَّة قناعاتهم. يؤكِّدون لي مقدرتهم على شحن البطَّاريَّات من بدنك العليل، ويقولون إنَّ روحك تنمو متجدِّدة، وإنَّ امرأة مختلفة، ومن نوعيَّة أفضل، ستخرج من شَللك هذا. يقولون لي إنَّه يجب عليّ ألَّا أنظر إليك بعينَيْ أمّ، وإنَّما بعينين من ذهب، وعندئذ سأراك ببعد آخر، طافية من دون عقبات، وبعيدة عن رعب صالة المستشفى هذه وبؤسها، ولكنَّهم ينصحونني كذلك بأن أكون مستعدَّة، لأنَّك إذا كنت قد أكملت قدرك في هذا العالم وأصبحت جاهزة لمواصلة رحلة الروح الطويلة، فإنَّك لن ترجعي. إنَّهم جزء من منظَّمة عالميَّة، وهم يتواصلون مع

مُداوين آخرين ليبعثوا فيك القوى، تمامًا مثلما تتواصل الراهبات مع أَخَوِيّات أخرى للصلاة من أجلك، ويقولون إنَّ شفاءك يعتمد على إرادتك في الحياة، وإنَّ القرار النهائيّ بين يديك. أنا لا أجرؤ على إخبار الأسرة في كاليفورنيا بأيِّ شيء من هذا، فهم لن ينظروا بعين الرضا إلى هؤلاء الأطبّاء الروحانيين. وأرنستو أيضًا لا يوافق على غزو المُداوين هذا، فهو لا يريد لزوجته أن تتحوَّل إلى استعراض عام، ولكنَّني أعتقد أنَّهم لا يسبِّبون لك أيّ ضرر، بل إنَّك لا تشعرين بوجودهم. الراهبات يشاركن أيضًا في هذه الشعائر، فهنَّ يقرعنَ الأجراس التبتيَّة، ويحرقن البخور، ويتضرَّعن إلى ربّهنَّ المسيحيّ وإلى كلِّ البلاط السماويّ، بينما نُزلاء القاعة الآخرون يراقبون أساليب العلاج تلك بشيء من التحفُّظ. لا تفزعي، يا باولا، فهم لا يرقصون والريش يغطِّي أجسادهم، ولا يقطعون رؤوس دِيَكة ليرشّوك بالدم، وإنَّما هم يَهْوُون قليلًا فوقك ليحرّكوا الطاقة السالبة، ثم يضعون أيديهم على جسدك ويُغمضون أعينهم ويركّزون. يطلبون منّي أن أساعدهم؛ أن أتصوَّر شعاع نور يدخل عبر رأسي، ويمرّ عبر جسدي ليخرج من يديَ في اتّجاهك، وأن أتوقَّف عن البكاء وأتخيَّلك معافاة، لأنَّ الحزن يلوِّث الجوّ ويُقلق الروح. لست أدري إذا كان هذا كله يخفِّف عنك، ولكنَّني واثقة بأمر واحد: فحماسة الناس في القاعة قد تبدَّلت، وأصبحنا أكثر مرحًا. لقد اتَّفقنا على التحكُّم في الحزن، فأصبحنا نفتح المذياع على موسيقى إشبيليَّة، ونوزِّع البسكويت فيما بيننا، ونحذِّر الزائرين من المجيء بوجوه كئيبة. وقد أصبح الوقت المخصَّص للحكايات أطول أيضًا، فلم أعد أنا المتحدِّثة الوحيدة، وإنَّما صار الجميع يشاركون. أكثرنا ثرثرة هو زوج إلفيرا بما يملكه من فيض من

النوادر والحكايات. إنَّنا نروي بالتناوب قصص حياتنا، وعندما نستنفد مغامراتنا الشخصيَّة نبدأ باختراع مغامرات جديدة. ولكثرة ما أضفنا إليها من تفاصيل وأطلقنا العنان لمخيِّلتنا صرنا نرويها بكمال، وصار آخرون يحضرون من الغرف المجاورة للاستماع.

في السرير الذي كانت تنام فيه المرأة ـ الحلزون، هناك الآن مريضة جديدة؛ إنَّها صبيَّة سمراء، جسدها مملوء بالخدوش والكدمات، فقد أقدم على اغتصابها، في حديقة، أربعةُ أشخاص لا يعرفون الرحمة. عضوها التناسليّ محاط بدائرة حمراء، والعاملون في المستشفى لا يلمسونها إلّا وهم يضعون القفّازات. أمّا نحن، فقد ضممناها إلى أُسرة القاعة الغربية، فنحن نحمِّمها ونضع لها الطعام في فمها. عندما استيقظت في البدء، ظنَّت أنَّها في ملجأ للمرضى العقليّين، فكانت ترتجف وهي تخفي رأسها تحت الشرشف، ولكنَّها شيئًا فشيئًا، وسط الأجراس التيبتيَّة وأغاني المذياع ومناجيات الجميع، بدأت تكتسب الحماسة وأخذت تبتسم. لقد تصادقت مع الراهبات ومع السَّحرَة، وصارت تطلب منّي أن أقرأ لها بصوت عال ما يُكتب من أقاويل عن العائلات المالكة في أوروا، وعن ممثِّلي السينما، لأنَّها لم تكن تستطيع رفع رأسها. وقبالة إلڤيرا هناك مريضة وصلت حديثًا من قسم الأمراض النفسيَّة تدعى أوريليا، سيستأصلون ورمًا في دماغها لأنَّها تعاني نوبات متواترة من التشنُّجات. في صباح اليوم المحدَّد لإجراء العمليَّة الجراحيَّة، ارتدت ملابسها وتزيَّنت بإتقان، ثم ودّعت كلّ واحد منَّا بعناق مؤثِّر وغادرتنا. وكنَّا نقول لها وهي تبتعد في الممرّ: حظًّا سعيدًا، سنبقى معك بأفكارنا، تشجَّعي. وعندما جاؤوا بالنقّالة لحملها إلى جناح التعذيب لم يجدوها، كانت قد غادرت إلى

الشارع ولم نرجع إلّا بعد يومين من ذلك، حين كانت الشرطة قد تعبت من البحث عنها. جرى تحديد موعد آخر للعمليّة الجراحيّة، ولكنّهم لم يستطيعوا إجراءها هذه المرّة أيضًا لأنّ أوريليا أجهدت نفسها بتناول فخذ خنزير مقدّد أحضرته سرًّا في حقيبتها، وقد قال طبيب التخدير إنّه لا يمكن لأيّ مجنون أن يتعامل معها وهي في تلك الحال. أمّا الآن، فالطبيب الجرّاح نفسه في إجازة أسبوع الفصح، ولا أحد يدري متى سيكون هناك جرّاح جاهز لإجراء العمليّة. وهكذا، فإنّ صديقتنا ما زالت في مأمن في الوقت الراهن. إنّها تعزو سبب مرضها إلى أنّ زوجها عاجز، وأستنتج من إيماءاتها ما الذي تعنيه بكلمة «عاجز». وتتنهّد بصبر وإذعان: عضوه هو الذي لا يعمل ويفتحون دماغي أنا، لو أنّه يقوم بواجبه لكنت في غاية الانبساط، ولما كنت تذكّرت المرض، والدليل هو أنّ النوبات قد بدأت وأنا في شهر العسل، حين كان ذلك الأخرق يهتمّ بسماع مباريات الملاكمة من المذياع أكثر من اهتمامه بقميص نومي المزيّن بريش البجع عند العنق. وأوريليا ترقص وتغنّي الفلامنغو، وتتكلّم بعبارات موزونة ومقفّاة. وإذا ما سهوت قليلًا فإنّها تضمّخك بعطر البنفسج وتطلي شفتيك يا باولا بإصبع صباغ الشفتين. إنّها تسخر من الأطبّاء والسحرة والراهبات على السواء، وتعتبرهم جميعًا عصابة جزّارين. وهي تقول لي: إذا كانت الصغيرة لم تُشفَ حتى الآن بالرّغم من حبِّ أمّها وزوجها، فهذا يعني أنّه لا شفاء لها. وفي أثناء ذلك، أصبحت الشرطة تأتي لتوجيه أسئلة إلى الفتاة المغتصَبة، وهم يعاملونها كأنّها ليست الضحيّة، بل مقترفة الجريمة: «ما الذي كنت تفعلينه وحدك في ذلك الحيّ في الساعة العاشرة ليلًا؟ لماذا لم تصرخي؟ هل كنت قد تعاطيت مخدّرًا؟ هذا حدث لأنّك كنت

تبحثين عن المشاكل يا امرأة، فلماذا تشتكين؟» وكانت أوريليا هي الوحيدة التي تملك الشجاعة لمواجهتهم، فكانت تقف قبالتهم واضعة يديها على خاصرتيها، وتقول لهم زاجرة: «ليس من أجل هذا العمل يدفعون إليكم أجركم، اللعنة، يجب على النساء أن يخرجن خاسرات دائمًا». فيردّ عليها الشرطيُّون ساخطين: «اسكتي أيَّتها السيِّدة، فأنت لا علاقة لك بهذا». أمّا نحن جميعنا، فكنّا نصفِّق لها، لأنَّ أوريليا تتمتَّع بصفاء ذهني مذهل حين لا تكون في إحدى نوباتها. إنَّها تخبِّئ تحت سريرها ثلاث حقائب ملابس، وهي تبدِّل ثيابها عدَّة مرَّات في اليوم، وتطلي وجهها بضربات فرشاة وتضرب شعرها كأنَّها تضرب عجينة تجعيدات مؤكسدة، ولدى أدنى استفزاز تتعرَّى لتعرض لحمها الذي هو كلوحات عصر النهضة وتتحدَّانا بأن نحزر سنَّها وأن نقيس محيط خصرها الذي ما زال على حاله منذ عزوبتها، وأنَّ ذلك متوارَث في الأسرة، وأنَّ أمَّها كذلك كانت آية في الجمال. ثم تُضيف، بشيء من الاستياء، أنَّ ذلك كلّه لا يفيدها في شيء، لأنَّ زوجها خصيّ. وعندما يأتي الرجل لزيارتها، يجلس على كرسيّ متناومًا بضجر بينما هي تشتمه، ونبذل نحن بدورنا جهودًا رهيبة لنتظاهر بأنَّنا لا ننتبه لأيِّ شيء.مكتبة سُر مَن قرأ

ويللي مشغول بالبحث عن مكان ننقلك إليه، يا باولا. إنَّنا نحتاج إلى مزيد من العلم وقدر أقلّ من التعزيم، وأحاول في أثناء ذلك إقناع الأطبَّاء بالسماح لك بالذهاب وإقناع أرنستو بتقبُّل الوضع. إنّه لا يريد الابتعاد عنك، ولكن ليس هناك أيّ سبيل آخر. في الصباح جاءت فتاتا تمرينات إعادة التأهيل، وقرَّرتا للمرَّة الأولى أن تأخذاك إلى صالة

الرياضة في الطابق السفليّ. كنتُ مستعدَّة بزيٍّ الممرِّضات الأبيض، فذهبت معهما أقود المقعد ذا العجلات. هنالك أناس كثيرون في هذا المكان، وهم يرونني أتجوّل في الممرّات منذ زمن طويل، ولهذا لم يكن هناك من يرتاب في كوني ممرِّضة. اكتفى رئيس خدمات إعادة التأهيل بإلقاء نظرة سطحيَّة سريعة ليقرِّر أنَّه لا يستطيع عمل أيّ شيء من أجلك، وقال: «إنَّ درجة الوعي صفر، وهي لا تستجيب لأيِّ نوع من التعليمات، ولديها شقّ مفتوح في الرغامى. لا يمكنني تحمُّل مسؤوليَّة مريضة في مثل هذا الوضع». كلماته تلك جعلتني أقرِّر إخراجك من هذا المستشفى ومن إسانيا في أسرع وقت ممكن، بالرَّغم من أنَّني لا أستطيع تصوُّر الرحلة. فحملك في مصعد عبر طابقين فقط هو عمليَّة شاقَّة تتطلَّب إستراتيجيَّة عسكريّة، أمّا الطيران لعشرين ساعة من مدريد إلى كاليفورنيا فهو أمر لا يمكن التفكير فيه، ولكنَّني سأجد الطريقة المناسبة لتنفيذه. حصلت على مقعد ذي عجلات وأجلستك عليه بمساعدة زوج إلڤيرا، وربطتك بالمسند بشرشف ملفوف لأنَّك كنت تنهارين كأنَّك بلا عظام، وأخذتك إلى المصلّى لبضع دقائق، ثم إلى الشرفة. لقد رافقتني أوريليا وهي متدثِّرة بمعطفها المخمليّ الأزرق الذي يمنحها مظهر طائر الجنَّة، وكانت توجِّه عبارات قاسية إلى الفضوليِّين حين ينظرون إليك طويلًا، والواقع أنَّ مظهرك يدعو إلى الرثاء، يا ابنتي. وضعتك قبالة الحديقة، وسط عشرات الحمائم التي كانت تنقر فتات الخبز. قالت أوريليا: «سأبعث السعادة في باولا قليلًا»، ثم أخذت تغنّي وتدور حول نفسها بعذوبة بالغة، وسرعان ما امتلأ المكان بالمتفرِّجين. وفجأة، فتحت عينيك، بصعوبة في أوَّل الأمر، وقد أثقل عليك ضوء الشمس والهواء النقيّ الذي لم تحصلي

عليه منذ زمن طويل. وعندما استطعت تركيز نظرك، ظهرت أمامك الصورة الوحيدة لهذه السيِّدة الممتلئة ذات الثياب الزرقاء وهي ترقص رقصة إشبيليَّة مؤثِّرة وسط فوضى الحمائم المذعورة. رفعت حاجبيك بتعبير ذاهل، ولست أدري ما الذي خطر في ذهنك عندئذ، يا باولا، فقد بدأت تبكين بحزن هائل، بكاءَ العجز والخوف. احتضنتك، وشرحت لك ما حدث، وأنَّك الآن لا تستطيعين الحركة، ولكنَّك ستستعيدين عافيتك شيئًا فشيئًا، وأنَّك لا تستطيعين الكلام لأنَّ شقًّا في عنقك يمنع وصول الهواء إلى فمك، ولكنَّهم عندما يغلقون الشقّ سنستطيع التحدُّث عن كلِّ شيء، وأنَّ مهمَّتك الوحيدة في هذه المرحلة هي التنفُّس بعمق فقط. قلت لك إنَّني أحبّك كثيرًا، يا ابنتي، وإنَّني لن أتركك وحيدة أبدًا. وأخذت تهدئين قليلًا من دون أن ترفعي عينيك عنِّي. وأظنّ أنَّك تعرَّفت إليّ، أو ربَّما أكون قد تصوَّرت ذلك فقط. وفي تلك اللحظات سقطت أوريليا في إحدى نوباتها التشنُّجيَّة، وهكذا انتهت مغامرتنا الأولى على المقعد ذي العجلات. إنَّ بكاءك، بحسب رأي طبيب الأعصاب، لا يعني أيّ شيء، وهو لا يفهم سبب بقائك في الحالة نفسها، ويخشى أن تكوني مصابة بأضرار في الدماغ. وقد أخبرني بأنَّه سيُجري لك مجموعة من التحاليل ابتداء من الأسبوع القادم. لا أريد مزيدًا من التحاليل والفحوص، كلّ ما أريده هو أن ألفّك في بطَّانيَّة وأخرج راكضة وأنت بين ذراعي إلى الجانب الآخر من الأرض، حيث توجد أُسرة في انتظارك.

إنَّها تجربة سكون غريبة. تُقاس الأيَّام حبَّةً حبَّةً في ساعة رمليَّة صبورة. أيَّام تضيع في التقويم لشدَّة بطئها، ويبدو لي كأنَّني أُقيم منذ الأزل بهذه المدينة الشتائيَّة، بين الكنائس والتماثيل والجادَّات

الإمبراطوريَّة. أساليب السحر أبدت عدم جدواها. إنَّها مثل رسالة نلقي بها إلى البحر في قارورة على أمل العثور عليها في ضفَّة أخرى ليأتي أحد وينقذنا، ولكنَّنا لم نتلقَّ جوابًا حتى الآن. لقد عشتُ تسعًا وأربعين سنة وأنا أركض، في العمل والنضال، وراء أهداف لم أعد أتذكَّرها، ألاحق شيئًا بلا اسم يبقى بعيدًا على الدوام. وأنا الآن مضطرَّة إلى البقاء ساكنة وصامتة، فإذا ركضت فلن أصل إلى أيِّ مكان، وإذا صرخت فلن يسمعني أحد. لقد منحتني الصمت يا باولا لأتأمَّل طريقي الذي قطعته في هذه الدنيا، لأعود إلى الماضي الحقيقيّ والماضي الخياليّ؛ لأستعيد الذكريات التي نسيها آخرون؛ لأتذكَّر ما لم يحدث قطّ وما قد يحدث في المستقبل. وأنت دليلي، أيَّتها الغائبة الخرساء المشلولة. الزمن يمضي بطيئًا جدًّا، أو ربَّما أنَّ الزمن لا يمضي، وإنَّما نحن الذين نمضي في الزمن. لديّ فائض من الأيَّام للتأمُّل، فليس هناك ما أعمله سوى الانتظار ما دمت أنت في الحالة الحشريَّة في شرنقة. وإنَّني أتساءل عن الفراشة التي ستخرج عندما تستيقظين... تمضي الساعات وأنا أكتب إلى جوارك. وزوج إلڤيرا يأتيني بالقهوة ويسألني لماذا أنهمك إلى هذا الحدِّ في كتابة هذه الرسالة اللانهائيَّة التي لا تستطيعين قراءتها. ستقرئينها يومًا، أنا واثقة بذلك، وستسخرين منِّي بذلك المكر الذي تستخدمينه عادة لتقويض ميولي العاطفيَّة. أنظر إلى الوراء مجمل حياتي، وبشيء من الحظّ سأجد مغزى للإنسان الذي أكونه. لقد مضيت طوال حياتي مجذّفة بعكس تيَّار النهر، بجهد وحشيّ؛ وأنا الآن متعَبة، أريد أن ألتفَّ نصف دورة وأترك التيَّار يحملني برفق إلى البحر. لقد كانت جدّتي تكتب دفاترها لتنقذ الفتات الهارب من الأيَّام وتحتال على الذاكرة

الضعيفة، وأنا أحاول إلهاء الموت. تدور أفكاري في دوَّامة لا تكلّ، بينما أنت جامدة في حاضر ساكن، غريبة تمامًا عن خسائر الماضي أو عن نذُر المستقبل. إنّي خائفة. لقد أحسست بخوف كبير في مرّات سابقة، ولكنّي كنت أجد دائمًا مخرجًا للهرب. حتى في رعب الانقلاب العسكريّ، كان هناك منفذ المنفى. أمّا الآن، فأنا في زقاق مسدود، ليست ثمّة أبواب للأمل، ولست أدري ما الذي أفعله بهذا الخوف كلّه.

أتصوَّر أنّك ترغبين في سماع شيء عن أسعد مراحل طفولتك، عندما كانت غراني لا تزال في قيد الحياة، وعندما كان أبواك متحابَّين، وكانت تشيلي لا تزال بلادًا، ولكن هذا الدفتر يصل حتى سنوات السبعينيَّات، حين بدأت الأمور تتغيَّر. لم أنتبه إلى أنَّ التاريخ قد انقلب إلَّا في وقت متأخّر جدًّا. ففي أيلول ١٩٧٠، جرى انتخاب سلڤادور ألليندي رئيسًا للبلاد بفضل تحالف بين الماركسيِّين والاشتراكيِّين والشيوعيِّين وفئات من الطبقة المتوسِّطة التي خابت آمالها، ومن المسيحيِّين الراديكاليِّين وآلاف الرجال والنساء الفقراء الذين اجتمع شملهم تحت راية «الوحدة الشعبيَّة»، فقرَّروا الإبحار في برنامج انتقاليّ إلى الاشتراكيَّة، ولكن من دون تغيير تقاليد البلاد البرجوازيَّة والديموقراطيَّة الطويلة. وبالرَّغم من تناقضات المشروع الجليَّة، فإنَّ موجة أمل غير عقلانيَّة حرّكت قسمًا كبيرًا من المجتمع كان ينتظر عمليَّة خلق «الإنسان الجديد» الذي تدفعه المُثل العليا النبيلة، ويكون أكثر كرمًا ورقَّة وعدالة. وفي لحظة الإعلان عن فوز ألليندي، بدأ خصومه التخريب، ودارت عجلة الحظّ في اتّجاه

مأساويّ. لم أخرج في ليلة الانتخابات إلى الشارع لأشارك أنصاره في احتفالاتهم حتى لا أُثير غضب حميّي وجدّي اللذين كانا يخشيان ظهور ستالين جديد في تشيلي. لقد رشَّح ألليندي نفسه لانتخابات الرئاسة ثلاث مرّات، ثم نجح في المرَّة الرابعة على الرَّغم من الاعتقاد السائد بأنَّه قد أحرق حظّه في حملاته الانتخابيَّة الفاشلة السابقة. بل إنَّ «الوحدة الشعبيَّة» نفسها كانت تشكِّك في إمكان نجاحه، وأوشكت على أن تختار بابلو نيرودا مرشَّحًا يمثِّلها. ولكنَّ الشاعر لم تكن لديه أيُّ طموحات سياسيَّة، فقد كان يشعر بالشيخوخة والتعب، ولم يكن يهمّه أيّ شيء سوى عروسه: «الشعر». ومع ذلك، ولأنَّه عضو منضبط في الحزب الشيوعيّ، فقد كان مستعدًّا لتنفيذ الأوامر. وعندما تمَّ اختيار سلڤادور ألليندي في نهاية المطاف مرشَّحًا رسميًا، بعد مناقشات داخليَّة كثيرة بين الأحزاب، كان بابلو نيرودا هو أوّل من ابتسم متنفِّسًا الصعداء وهرع إلى تهنئة ألليندي. أمّا الجرح العميق الذي قسم البلاد أجزاء لا يمكن المصالحة فيما بينها، فقد بدأ في إبّان الحملة الانتخابيَّة، حين انقسمت الأُسر على نفسها، وانفصل متحابّون وتشاجر أصدقاء.

غطّى حموي جدران بيته بدعاية لليمين؛ وكنّا نتجادل بانفعال، ولكنّنا لم نصل إلى تبادل الشتائم لأنَّ محبَّة كلٍّ منّا لغراني وللطفلين كانت أقوى من اختلافاتنا. كان حموي لا يزال آنذاك رجلًا وجيهًا وسليم البنية، وإن يكن قد بدأ التآكل البطيء الذي سيؤدّي به إلى هوّة النسيان. كان يمضي الصباحات في السرير منهمكًا في رياضيّاته، ويتابع بحماسة ثلاثة مسلسلات تلفزيونيَّة تشغل الجزء الأكبر من فترته المسائيَّة. وكان في بعض الأحيان لا يرتدي ملابسه، بل يمضي اليوم

في المنزل بالبيجاما والخفّ البيتيّ، تخدمه زوجته التي كانت تحمل الطعام إليه في صينيَّة. وأصبح هاجسه في غسل يديه أكثر توتُّرًا، وكان جلده مغطًّى بقروح، وانتهى الأمر بتحوُّل يديه المتأنِّقتين إلى ما يشبه مخالب نسر الكوندور. كان واثقًا تمامًا بأنَّ مرشَّحه سيفوز، ولكنَّه يشعر بوساوس الشكّ أحيانًا. وكلَّما اقترب موعد الانتخابات كان الشتاء يتراجع لتظهر أوَّل براعم الربيع. وكانت غراني منهمكة في المطبخ في صنع أوَّل مربّيات الفصل، وفي اللعب مع حفيديها، فهي لم تكن تشارك في النقاشات السياسيَّة، ولكنَّها تقلق كثيرًا حين تسمع أصواتنا المتحمِّسة. انتبهت، في تلك السنة، إلى أنَّ حماتي تشرب الكحول خفية، ولكنَّها تفعل ذلك بتكتُّم شديد إلى درجة أنَّ أحدًا سواي لم ينتبه لذلك.

وأشدُّ المتفاجئين من الفوز في يوم الانتخابات كانوا الفائزين أنفسَهم، لأنَّهم لم يتوقَّعوا ذلك في أعماقهم. وكان المهزومون يرتجفون هلعًا وراء أبواب بيوتهم ونوافذها المغلقة في الحيّ الراقي، واثقين بأنَّ الاضطرابات ستتصاعد بالحقد الطبقيّ المتراكم منذ قرون، ولكن ذلك لم يحدث، بل كانت هناك مظاهرات سلميَّة للتعبير عن الفرحة الشعبيَّة فحسب. كان هناك حشد من الناس يغنّي «الشعب المتَّحد لن ينهزم أبدًا»، ويهزّ الرايات والأعلام في الشوارع، بينما كان يجري في سفارة الولايات المتَّحدة اجتماع لأعضاء لجنة الطوارئ. كان الأميركيُّون قد بدأوا التآمر قبل سنة من ذلك بتمويل المتطرِّفين اليمينيِّين وإغراء بعض الجنرالات ذوي الميول الانقلابيَّة. وكان العسكريُّون في حالة استنفار في ثكناتهم ينتظرون التعليمات. وكان العمّ رامون وأمّي سعيدين بفوز سلڤادور ألليندي. أمّا جدّي، فقد

اعترف بهزيمته، وذهب بنُبل فروسيّ لتحيَّة ألليندي عندما حضر في تلك الليلة بالذات لزيارة بيت والدي بصورة مفاجئة. في اليوم التالي، ذهبت إلى عملي كالعادة، ووجدت المبنى يفور بالإشاعات المتناقضة، وصاحب دار النشر يحزم أمتعته خفية، ويهيّئ طائرته الخاصَّة ليجتاز الحدود مع أُسرته وجزء كبير من ثروانه، بينما كلَّف حارسًا حراسة سيَّارته السبورت الإيطاليَّة، ومنع الرعاع الذين يزعم أنَّهم يتأجّجون غضبًا من تجريح طلائها. «نحن سنواصل العمل كأنَّ شيئًا لم يحدث»، هكذا قالت لنا ديليا بيرغارا، بالنبرة نفسها التي استخدمتها مسّ ساينت جون قبل سنوات حين قرَّرت تجاهل الحرب التي كانت تدور في لبنان. وقد التزمنا بمواصلة العمل فعلًا طوال السنوات الثلاث التالية. أمَّا حموي فقد كان واحدًا مِن أوائل مَن وقفوا في الدَّور منذ فجر اليوم التالي أمام أبواب المصرف ليسحبوا أموالهم، وكان يخطِّط للهرب إلى الخارج فور إنزال الجيوش الكوبيَّة، أو عندما تبدأ الدكتاتوريَّة السوفياتيَّة بإعدام المواطنين. وكانت غراني تؤكِّد لي، من وراء ظهر زوجها وهي تبكي: «أنا لن أغادر إلى أيِّ مكان، سأبقى هنا مع الأطفال». كان حفيداها قد تحوَّلا إلى مبرِّر وجودها في الحياة. لكن موعد المغادرة تأجَّل، وبقيت التذاكر فوق حافَّة المدفأة، جاهزة دائمًا، ولم يستخدمها أحد لأنَّ أسوأ التنبُّؤات لم تتحقَّق؛ فلم يأت أحد لغزو البلاد والهيمنة عليها، وبقيت الحدود مفتوحة، ولم تحدث أيُّ إعدامات مثلما كان حموي يتصوَّر، واتَّخذت حماتي موقفًا صلبًا لأنَّه لا يمكن لأيِّ ماركسي أن يفرِّق بينها وبين حفيديها، ولاسيَّما إذا كان ذلك الماركسيّ يحمل كنية كنَّتها نفسها.

وبما أنَّ ألليندي لم ينل الأغلبيَّة المطلقة، فقد كان لا بدَّ

للكونغرس الموسَّع من البتّ في أمر نتيجة الانتخابات. لقد جرت العادة دائمًا على احترام الأغلبيَّة البسيطة، وكان يُقال فليفُزْ من ينال صوتًا واحدًا أكثر، أمَّا فوز «الوحدة الشعبيَّة» فقد أيقظ شكوكًا كثيرة. لكن ثقل التقاليد، في أيّ حال، كان أقوى من مخاوف البرلمانيِّين ومن سلطة السفارة الأميركيَّة. فبعد مشاورات طويلة، قرَّر الكونغرس ـ الذي يسيطر عليه الديموقراطيُّون المسيحيُّون ـ تحرير وثيقة تطالب ألليندي باحترام الضمانات الدستوريَّة، فوقَّع عليها وتلقّى بعد شهرين من ذلك الوشاحَ الرئاسيّ في احتفال رسميّ. إنَّها أوَّل مرَّة في التاريخ يجري فيه اختيار رئيس ماركسيّ في انتخابات ديموقراطيَّة، وقد كانت عيون العالم بأسره تتّجه نحو تشيلي. سافر بابلو نيرودا ليكون سفيرًا في باريس، حيث تلقَّى بعد سنتين من ذلك خبرَ فوزه بجائزة نوبل للآداب. وقد سلَّمه ملك السويد المُسِنّ ميداليَّة ذهبيَّة، فقدَّمها الشاعر بدوره إلى جميع التشيليِّين «لأن شِعري هو مُلْكٌ لوطني».

عيَّنَ الرئيسُ ألليندي العمَّ رامون سفيرًا في الأرجنتين، وهكذا تحوَّلت أمِّي إلى مديرة بناء هائل على الرابية الوحيدة في بوينس أيرس، حيث العديد من الصالونات، وقاعة طعام تتَّسع لثمانية وأربعين مدعوًّا، ومكتبتان، وثلاثة وعشرون حمَّامًا، وعدد لا حصر له من السجاجيد والأعمال الفنِّيَّة الموروثة من الحكومة السابقة، وهو بذخ يصعب تفسيره بالنسبة إلى «الوحدة الشعبيَّة» التي تريد أن تعكس صورة تقشُّف وبساطة. لقد كان عدد عمَّال الخدمة كبيرًا جدًّا: سائقين، طهاة، نُدل، خادمات، بستانيّين. حتى إنَّ تنظيم عملهم ونوبات طعامهم كان يتطلَّب إستراتيجيَّة عسكريَّة. كان المطبخ يعمل من دون توقُّف في إعداد

حفلات الكوكتيل، وولائم الغداء، وحفلات الشاي للسيِّدات، والولائم الرسميَّة، ووجبات حِمْية أمِّي التي أُصيبت بمرض في معدتها لكثرة أعمالها. وبالرَّغم من أنَّها لم تكن تتذوَّق لقمة واحدة، فإنَّها ابتدعت وصفات لأطباق أعطت مائدة السفارة شهرةً واسعة. فقد كانت قادرة على تقديم ديك روميّ كامل على مؤخّرته ريش وعيناه مفتوحتان، وما إن تنزع أربعة دبابيس حتى ينزلق الجلد مثل ثوب، كاشفًا عن اللحم الغضّ المحشوّ من الداخل بعصافير محشوَّة بدورها باللوز، وهو طبق يبعد مسافة ألف سنة ضوئيَّة عن قطع الكبد الطافية في الماء، والتي كانت تشكِّل وجبات غدائي المدرسيَّة في لبنان. تعرَّفت، في واحدة من تلك الولائم، إلى أشهر منجِّمة في بوينس أيرس. لقد حدَّقت فيَّ من طرف المائدة المقابل، ولم تتوقَّف عن مراقبتي طوال العشاء. كانت تبدو في نحو الستِّين من عمرها، وتتصرّف بأرستقراطيَّة. ترتدي ثوبًا أسود متواضعًا وقديمًا بعض الشيء. ولدى الخروج من قاعة الطعام، اقتربت منِّي وأعربت عن رغبتها في التحدُّث معي على انفراد. قدَّمتها أمِّي إليّ باسم ماريًّا تيريسا خواريث، ورافقتنا إلى إحدى المكتبتين. جلست المرأة على أريكة من دون أن تقول كلمة واحدة، وأومأت إليَّ للجلوس إلى جانبها، ثم تناولت يدَيّ وأبقتهما بين يديها بضع دقائق بدت لي طويلة جدًّا لأنِّي لم أكن أعرف ما الذي تنويه. وأعلنت لي أخيرًا عن أربع نبوءات سجَّلتها على ورقة ولم أنسَها قطّ: سيحدث حمَّام دم في بلادك؛ ستُصابين بالجمود أو الشلل لوقت طويل؛ سيكون طريقك الوحيد هو الكتابة؛ سيصبح أحد أبنائك معروفًا في أماكن كثيرة من العالم. فسألتها أمِّي: «أي الابنين؟» فطلبت المنجِّمة صورهما، وتأمَّلتهما لبضع ثوان، ثم أشارت إلى صورتك أنت

يا باولا. وبما أنَّ نبوءاتها الثلاث الأولى قد تحقَّقت، فإنَّني أعتقد أنَّ النبوءة الرابعة ستكون حقيقيَّة أيضًا، وهذا يعطيني الأمل بأنَّك لن تموتي يا ابنتي. فما زال عليك تحقيق مصيرك. إنَّني أفكِّر في الاتِّصال بهذه المرأة فور خروجنا من هذا المستشفى لأسألها، إذا كانت لا تزال في قيد الحياة، عن المستقبل الذي ينتظرك.

العمّ رامون المتحمِّس لمهمَّته الدبلوماسيَّة في الأرجنتين، فتح أبواب السفارة للسياسيِّين والمثقَّفين، وللصحافة، وكلّ ما يساهم في تعزيز مشروع سلڤادور ألليندي. وقد حذت حذوَه أمِّي التي أظهرت في تلك السنوات الثلاث مقدرةً كبيرة على الصلابة والتنظيم والشجاعة. سعى العمّ رامون لتطبيع العلاقات الصعبة بين تشيلي والأرجنتين، الجارين اللذين جرت بينهما احتكاكات كثيرة في الماضي، وعليهما الآن أن يتجاوزا الشكوك التي أثارتها التجربة الاشتراكيَّة التشيليَّة. وفي ساعات كان يختلسها من وقت نومه، راجع قوائم ممتلكات السفارة وحساباتها الماليَّة المتعبة ليحول دون انتهاز أحدهم الوفرة والفوضى ليختلس من الأرصدة. لقد كانت إدارة «الوحدة الشعبيَّة» موضوعة تحت الفحص بعدسة مكبِّرة في أيدي خصومها كي يتصيَّدوا أدنى ذريعة للتشهير بها والنيل من سمعتها. وكانت المفاجأة الأولى التي وقع عليها العمّ رامون هي ضخامة الميزانيَّة المخصَّصة لأمن السفارة، فسأل زملاءه في السلك الدبلوماسيّ عن ذلك، واكتشف أنَّ الحرَّاس الشخصيِّين الخاصِّين قد تحوَّلوا إلى مشكلة في بوينس أيرس. لقد بدأوا بتوفير الحماية من الاختطاف والاغتيالات، وسرعان ما تمادوا ولم تعد هناك طريقة للتحكُّم فيهم. وفي تلك الفترة، كان هناك أكثر من ثلاثين ألف حارس شخصي خاصّ، وكان عددهم لا يزال يتزايد.

كانوا يشكّلون جيشًا حقيقيًّا مسلّحًا حتى الأسنان، ومن دون أخلاق أو قادة أو قواعد أو أنظمة، يتولّون بأنفسهم إثارة الإرهاب لتبرير وجودهم. وكانت الشكوك قائمة كذلك في أنّ من السهل جدًّا اختطافَ أيِّ شخص، أو اغتيالَه، إذ يكفي الاتّفاق مع حرّاسه الشخصيِّين ليتولّوا هم بأنفسهم تنفيذ المهمَّة. قرَّر العمّ رامون المجازفة بتسريح حرّاسه الشخصيِّين لأنَّه رأى أنّه لا يمكن لممثِّل حكومة الشعب أن يُحيط نفسه بقَتَلة مأجورين. وبعد وقت قصير من ذلك، انفجرت قنبلة في المبنى، فحوَّلت الثريَّات والنوافذ إلى جبل من الحطام الزجاجيّ، وحطَّمت إلى الأبد أعصابَ كلبة أمِّي السويسريَّة، لكن أحدًا لم يُصَب بجروح. وأُعلمت الصحافة، من أجل تفادي الضجَّة، بأنَّ الحادث كان انفجارًا سببه خلل في تمديدات الغاز. وكان ذلك هو أوَّل هجوم إرهابيّ يتعرَّض له والداي في تلك المدينة، وقد كان عليهما بعد أربع سنوات من ذلك أن يهربا في منتصف الليل لينجوا بحياتيهما. عندما قبلا المنصب، لم يتصوَّرا حجم العمل الذي تحتاج إليه تلك السفارة، الأكثرُ أهمِّيَّة بين سفارات تشيلي بعد السفارة في واشنطن، لكنَّهما أبديا استعدادهما لإنجاز المهمَّة بالخبرة التي تراكمت لديهما خلال سنوات طويلة من العمل الدبلوماسيّ. وقد حقَّقا ذلك بصورة لامعة، فكان عليهما أن يدفعا الثمن، فيما بعد، بقضاء سنوات طويلة في المنفى.

أمَّمت حكومة «الحكومة الشعبية»، فِي السنوات التالية، ثرواتِ البلاد الطبيعيَّةَ ـ النحاسَ، الحديدَ، النترات، الفحمَ ـ والتي كانت دائمًا في أيدي الأجانب، ورفضت أن تدفع ولو دولارًا رمزيًّا واحدًا كتعويض؛ ووسّعت الإصلاح الزراعيّ بصورة دراماتيكيَّة، فوزَّعت على

الفلَّاحين إقطاعيَّات الأسرة العريقة المتنفِّذة، على نحو أطلق العنان لأحقاد لا سابق لها؛ وقضت على الاحتكارات التي كانت تتحكَّم في السوق في التشيلي وتمنع أيّ منافسة، وأجبرتها على البيع بأسعار مناسبة لأغلبيَّة التشيليِّين. وأصبح الأطفال يتلقُّون الحليب في مدارسهم، وأُقيمت عيادات طبِّيَّة في الأحياء الهامشيَّة، وارتفع دخل أشدّ الناس فقرًا إلى مستوًى معقول. وكانت هذه التحوُّلات تجري وسط مظاهر البهجة الشعبيَّة المؤيِّدة للحكومة. ومع ذلك فإنَّ أنصار ألليندي أنفسهم كانوا يرفضون الإقرار بأنَّه لا بدَّ من دفع ثمن في مقابل تلك الإصلاحات، وأنَّ الحلّ ليس في طبع المزيد من الأوراق النقديَّة. وسرعان ما بدأت الفوضى الاقتصاديَّة والعنف السياسي. وكان العالم الخارجي يتابع التجربة بفضول، فالأمر يتعلَّق ببلد أميركيّ لاتينيّ صغير اختار طريق الثورة السلميَّة. وكانت صورة ألليندي في الخارج تمثِّل صورة زعيم تقدُّميّ يسعى لتحسين أوضاع الشغِّيلة، وتجاوز المظالم الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة. أمّا داخل تشيلي، فكان نصف السكَّان يكرهونه، وكانت البلاد مقَسَّمة إلى قوى لا سبيل إلى المصالحة فيما بينها. أمّا الولايات المتَّحدة التي كانت تخشى نجاح أفكاره وانتشارَ الاشتراكيَّة في بقيَّة أنحاء القارَّة بصورة لا تُغتفَر، فقد ألغت القروض، وفرضت حصارًا اقتصاديًا. وأدَّت أعمال التخريب اليمينيَّة وأخطاء «الوحدة الشعبيَّة» إلى نشوء أزمة بأبعاد لم يسبق لها مثيل، فوصل التضخُّم إلى حدود غير معقولة، ولم يعد في الإمكان معها أن تعرف في الصباح السعرَ الذي سيصل إليه لتر الحليب في المساء. وكان هناك فائض من الأوراق النقديَّة في التداول، ولكنَّ الأشياء المتوافرة والتي يمكن ابتياعها قليلةٌ جدًّا، وبدأت تظهر

الصفوف للحصول على الموادِّ الأساسيَّة: الزيتِ، معجونِ الأسنان، السكّرِ، إطارات السيّارات. ولم يعد في الإمكان تفادي ظهور السوق السوداء. وفي عيد ميلادي، أهدتني زميلاتي في العمل لفّافتين من ورق الحمّام وعلبةَ حليب مكثّف، وهي أثمنُ البضائع وأشدّها ندرةً آنذاك. وقد وقعنا، مثلنا مثل الآخرين، ضحيَّةَ عدم الحصول على المؤن، فكنّا نقف في الصفوف أحيانًا كيلا نفقد الفرصة، حتى لو كانت المادَّة التي نحصل عليها بعد الانتظار طلاءَ أحذية أصفرَ اللون. وظهر محترفون يقفون في الصفوف أو يقتنون بضائع بالسعر الرسميّ كي يعيدوا بيعها بسعر مضاعف. وقد تخصَّص نيكولاس بالحصول على سجائر لجدَّته غراني. وكانت أمّي تبعث إليّ من بوينس أيرس، عبر وسائط غامضة، صناديق من الموادّ الغذائيّة، ولكن تعليماتها كانت تتشوَّش، فأتلقَّى في بعض الأحيان غالونًا من صلصة فول الصويا، أو أربعة وعشرين مرطبانًا من البصل المخلَّل. وكنّا نحن، في المقابل، نرسل إليها حفيديها لزيارتها كلّ شهرين أو ثلاثة أشهر، فكان الصغيران يسافران وحدهما، وكلٌّ منهما يعلّق في عنقه لوحة تحمل اسمه والبيانات الخاصَّة به. وقد أقنعهما العمّ رامون بأنَّ مبنى السفارة الفخم هو بيته الصيفيّ. ولو أنَّ شكوكًا كانت تراودهما بشأن منشئه الأميريّ، فقد تلاشت هناك. وكي لا يملّا من الإقامة هناك، كان يقدّم إليهما وظيفة في مكتبه، فكان أوّل راتب تقاضياه، كلاهما، في حياتيهما، هو الذي تلقَّياه من يد ذلك الجدّ الرائع في مقابل خدماتهما كمعاونين لسكرتيرات القنصليَّة. وهناك، أُصيبا أيضًا بالنكاف والحصبة، وكانا يختبئان في الحمَّامات الثلاثة والعشرين كي لا يأخذوا من وجهيهما خزعةً من أجل الفحص الطبّيّ.

كنَّا، نحن التشيليِّين، نفاخر بأنَّ رؤساء الدولة عندنا يتجوّلون من دون حرَّاس شخصيِّين، وأنَّ فناء قصر لامونيدا هو شارع عامّ. لكن هذا الوضع تبدَّل مع وصول سلڤادور أللييندي إلى الرئاسة؛ فقد اشتدَّت الأحقادُ وصار هناك خوف على حياته. كان أعداؤه يراكمون الموادّ التي تتيح لهم مهاجمته. وكان الرئيس الاشتراكي ينتقل مع عشرين رجلًا مسلَّحين في أسطول صغير من السيَّارات الزرقاء المتشابهة والتي لا تحمل أيّ علامات مميَّزة، حتى لا يعرف أحد أيًّا منها يستقلّ الرئيس. وكان الرؤساء، حتى ذلك الحين، يسكنون في بيوتهم الخاصَّة نفسها، لكن بيت أللييندي كان صغيرًا وغير مناسب لمنصبه. ووسط حملة صاخبة من الانتقادات الكريهة، اشترت الحكومة منزلًا في الحيّ الراقي مخصَّصًا لرئاسة الجمهوريَّة، وانتقلت أُسرة الرئيس إليه مع التحف الخزفيَّة ما قبل الكولومبيَّة، واللوحات التي جمعها طوال سنوات، وأعمال فنِّيَّة مهداة إليه من مبدعيها أنفسهم، ونُسخ أولى من كتب تحمل إهداءات مؤلِّفيها، وصور تبيِّن لحظات مهمَّة من حياة أللييندي السياسيَّة. وقد أُتيح لي حضور اجتماعين في المنزل الجديد، بحيث كان موضوع الحديث الوحيد لا يزال هو السياسة. وعندما كان أبواي يأتيان من الأرجنتين، كان الرئيس يدعونا إلى بيت ريفيّ معلَّق على التلال القريبة من العاصمة، حيث اعتاد أن يمضي نهاية الأسبوع. وبعد تناول الغداء، كنَّا نشاهد أفلام رعاة بقر سخيفة، اعتاد على مشاهدتها للاسترخاء. وفي غرف نوم مطلّة على الفناء، كان يعيش حرَّاس متطوّعون يسمّيهم أللييندي «فريق الأصدقاء الشخصيّين»، ويعتبرهم خصومُه مقاتلي حرب عصابات إرهابيِّين وقَتَلَة. وكانوا يتجوَّلون باستمرار حول المنزل، وهم مسلَّحون ومستعدُّون لحمايته بأجسادهم. وفي أحد تلك الأيَّام الريفيَّة، حاول

ألليندي أن يدرِّبنا على إطلاق النار على هدف بالبندقيَّة التي أهداه إيَّاها فيدل كاسترو، وهي البندقيَّة نفسها التي وجدوها إلى جانب جثَّته يوم الانقلاب العسكريّ. لم أكن قد أمسكت سلاحًا في يدي من قبل قطّ، وكنت أؤمن بقول جدّي بأنَّ الأسلحة الناريَّة يحشوها الشيطان، فأمسكت البندقيَّة كأنَّها مظلَّة وحرَّكتها ببلادة خرقاء، فإذا بي أصوِّبها من دون أن أنتبه إلى رأسه، وظهر على الفور في الفضاء أحدُ أولئك الحرَّاس، وانقضّ عليّ وتدحرجنا معًا على الأرض. هذه واحدة من ذكرياتي القليلة معه، والتي أحتفظ بها من سنوات حكمه الثلاث. لقد صرت أراه أقلَّ من السابق، ولم أشارك في العمل السياسي، وواصلت العمل في دار النشر التي كان يعتبرها أسوأَ خصومه، من دون أن أُدرك في الواقع ما كان يحدث في البلاد.

مَن هو سلفادور ألليندي؟ لست أدري، وسيكون ادِّعاءً أجوفَ من جانبي أن أحاول وصفه. إنَّه في حاجة إلى مجلَّدات كثيرة لتقديم فكرة عن شخصيَّته المركَّبة، وعن مهمَّته الصعبة، وعن دوره الذي أدَّاه في التاريخ. لقد كنت أنظر إليه لسنوات على أنَّه عمٌّ آخر في أُسرة كبيرة العدد، والممثِّل الوحيد لوالدي؛ ولكنَّني لم أُدرك بُعده الأسطوريّ إلَّا بعد موته، عندما غادرت تشيلي. لقد كان في حياته الخاصَّة صديقًا طيِّبًا لأصدقائه، ووفيًّا حتى الغفلة، ولم يكن في إمكانه أن يستوعب معنى الخيانة، وقد كلَّفه كثيرًا إدراك أنَّه قد وقع ضحيَّة الخيانة. إنَّني أتذكَّر سرعة بديهته وسخريَّته في الردّ. كان قد هُزم في حملتين انتخابيَّتين، وكان لا يزال شابًّا حين سألته إحدى الصحافيَّات عمَّا يحبّ أن يُكتب على لوحة قبره، فردَّ عليها من فوره: «هنا يرقد رئيس

تشيلي القادم». وأعتقد أنَّ أبرز ملامحه الشخصيَّة كانت تتمثَّل في النزاهة وسرعة البديهة والشجاعة والجاذبيَّة. وكان ينساق وراء هواجسه التي نادرًا ما خذلته، فلا يتراجع أمام المخاطر، وكان قادرًا على إغواء الجماهير، مثل قدرته على إغواء الأفراد. ويُقال إنَّه كان قادرًا على تحويل أيّ وضع لمصلحته، ولهذا السبب لم يتجرَّأ الجنرالات في يوم الانقلاب العسكريّ على مواجهته شخصيًّا، وفضَّلوا الاتِّصال به بواسطة الهاتف أو عبر مراسلين. تولَّى منصب الرئاسة بوقار بدا كأنَّه عجرفة، وكانت له حركاتُ خطيب مفخَّمة، وطريقةٌ في المشي خاصَّة جدًّا، فهو يمضي منتصبًا، دافعًا صدره إلى الأمام، ويخطو على رؤوس أصابعه تقريبًا، كأنَّه ديك صراع. ولا يستريح إلَّا قليلًا في الليل، نحو ثلاث أو أربع ساعات، وكان يُشاهَد عند الفجر وهو يقرأ أو يلعب الشطرنج مع أصدقائه المقرَّبين المخلصين، ولكنَّه يستطيع أن يغفو لبضع دقائق، ويفعل ذلك في السيَّارة عادة، ثم يستيقظ بعدها وهو في كامل نشاطه وحيويَّته. لقد كان رجلًا رفيقًا، محبًّا للكلاب راقية السلالة وللأعمال الفنِّيَّة والملابس المتأنِّقة والنساء القويّات. وكان يعتني بصحَّته كثيرًا، ويتوخَّى الحذر من الإفراط في الطعام والمشروبات الكحوليَّة. كان خصومه يتَّهمونه بالتبذير، فيعرضون حسابات دقيقة لنفقات ذوقه البرجوازيّ ولعلاقاته الغراميَّة وستراته الشمواه وربطات عنقه الحريريَّة. وكان نصف السكَّان يخشون أن يُوصل البلاد إلى دكتاتوريَّة شيوعيَّة، فوقفوا ليمنعوا ذلك بأيّ ثمن، بينما كان النصف الآخر من السكَّان يحتفل بالتجربة الاشتراكيَّة عبر جداريَّات موشّاة بالأزهار والحمائم.

وكنت أهيم على وجهي في القمر، في أثناء ذلك، وأكتب

تفاهات وأقدِّم حماقات في التلفزيون، من دون أن تراودني أيُّ شكوك في أبعاد العنف الذي كان يعتمل في الظلّ، وما لبث أن سقط فوق رؤوسنا. عندما كانت البلاد في ذروة الأزمة، أرسلتني رئيسة تحرير المجلّة لمقابلة سلفادور أللييندي لأسأله كيف يفكّر في عيد ميلاد المسيح. لقد كنّا نُعدّ لعدد شهر كانون الأوّل منذ وقت مبكر جدًّا، ولم يكن من السهل الاقترابُ من الرئيس في شهر تشرين الأوّل، فقد كانت تدور في ذهنه قضايا مستعجلة تخصّ الدولة، لكنّني انتهزت فرصة إحدى زياراته بيت والديّ كي أستجوبه بخجل. فكان جوابه المقتضب: «لا تسأليني في التفاهات يا ابنتي». وهكذا بدأت وانتهت مسيرتي كصحافيَّة سياسيَّة. واصلت الخربشة عن الأبراج من قائمة مألوفة، وعن الديكور، وعن الحديقة وتربية الأبناء، وإجراء مقابلات مع أشخاص غريبي الأطوار، وكتابة بريد الحبّ، وتعليقات عن الأدب والفنّ والرحلات. وكانت ديليا تُبدي عدم ثقتها بي، وتتّهمني باختلاق ريبورتاجات من دون أن أغادر بيتي، وبأنّني أضع آرائي على لسان من أدّعي مقابلتهم. ولهذا السبب لم تكن تكلّفني بموضوعات إلّا نادرًا.

كلّما كانت الأوضاع التموينيّة تزداد سوءًا، كان التوتّر يبلغ حدودًا لا تُطاق، وقد بدأت غراني في أثناء ذلك تشرب المزيد من الخمر. وكانت تخرج مع جاراتها، عملًا بتوجيهات زوجها، كي تحتجّ على ندرة المؤن بأسلوب الطَّرْقِ المعهود على الطناجر الفارغة. وكان الرجال يبقون مختفين بينما تتظاهر النساء وهنَّ يحملن أواني الطبخ والمغارف ويُصدرن ضجيجًا كأنّه نهاية العالم. إنّه ضجيج لا يمكن نسيانه، كان يبدأ مثل ضربة صنج منفردة، ثم ينضمّ إليه صوت المطارق في أفناء البيوت، إلى أن تنتشر عدوى الصخب ويتوزّع مهيّجًا النفوس،

وسرعان ما تخرج النسوة إلى الشارع ويعمّ الجوَّ صخبٌ أصمُّ يحوّل نصف المدينة إلى جحيم. كانت غراني تتمكّن من الوقوف على رأس المظاهرة وتحوّل خطَّ سيرها لتحول دون مرورها قبالة بيتنا، حيث يعرف الجميع أنَّ واحدة من آل ألليندي تعيش هناك. ولكنّنا كنّا، في أيّ حال، نحتفظ بخرطوم الماء جاهزًا على الدوام، للدفاع عن أنفسنا بدفقات الماء البارد إذا ما أقدمت السيّدات العدوانيّات على مهاجمتنا. ولكنَّ الاختلافات الأيديولوجيّة لم تشوّش علاقتي الرفاقيّة بحماتي، فكنّا نتقاسم رعاية الطفلين، ومسؤوليّات الحياة اليوميّة، والخطط والآمال، وكنّا، كلتانا، نفكّر في أعماقنا في أنّه لا يمكن لأيِّ شيء أن يفرّق بيننا. وكي أمنحها بعض الاستقلاليّة، فتحت لها حسابًا في المصرف، ولكنّني اضطررت إلى إغلاقه بعد ثلاثة شهور لأنّها لم تستطع أن تفهم آليّة العمل المصرفيّ على الإطلاق، فكانت تعتقد أنّه ما دام لديها إيصالات في دفتر الشيكات، فإنّه لا بدَّ من أن يكون هناك نقود في حسابها، ولم تكن تسجّل ما تنفقه، وقد استنفدت الرصيد كلّه في أقلِّ من أسبوع لشراء هدايا لحفيديها. ولم تؤثر السياسة أيضًا في العلاقة بيني وبين ميشيل، فقد كنّا متحابّين ورفيقين جيّدين.

في تلك الحقبة بدأ شغفي بالمسرح. فقد جرى تعيين العمّ رامون سفيرًا في الوقت الذي شاعت فيه عمليّات اختطاف الشخصيّات العامّة في أميركا اللاتينيّة. وقد استوحيت عملًا مسرحيًّا من احتمال حدوث ذلك للعمّ رامون: تختطف مجموعة من المقاتلين دبلوماسيًّا لمبادلته بمعتقلين سياسيِّين. كتبت النصّ بسرعة كبيرة، فقد جلست إلى المنضدة ولم أستطع النوم ولا تناولَ الطعام إلى أن وضعت كلمة «النهاية» بعد ثلاثة أيّام من ذلك. وقد وافقت فرقة مسرحيّة مشهورة على تقديم

العمل، وهكذا وجدت نفسي في إحدى الليالي وأنا أقرأ النصّ مع الممثِّلين حول منضدة على منصَّة مسرح عارية، وتحت أضواء خافتة، ووسط هبَّات تيَّارات هوائيَّة، ونحن نرتدي معاطفنا ونتناول أباريق من الشاي. قرأ كلّ ممثِّل الجزء المخصَّص له وحلَّله، كاشفًا النقاب عن الأخطاء المريعة في النصّ. وكلَّما تقدَّمنا في القراءة كنت أغطس في مقعدي إلى أن اختفيت تمامًا تحت المنضدة، ثم جمعت الأوراق أخيرًا بخجل، وذهبت إلى البيت وعكفت على إصلاح النصّ، بدءًا من السطر الأوَّل، فكنت أدرس كلّ شخصيَّة على انفراد لأمنحها التماسك. وكانت النسخة الثانية أفضل بعض الشيء، ولكنَّها كانت تفتقر إلى مزيد من التوتُّر وإلى خاتمة دراميَّة. واظبت على حضور كلّ البروفات، وأضفت معظم التعديلات التي كانوا يقترحونها، وهكذا تعلَّمت بعض الخدع التي أفادتني في كتابة الروايات فيما بعد. وبعد عشر سنوات من ذلك، عندما كتبت «بيت الأرواح»، تذكَّرت تلك الجلسات حول المنضدة في المسرح وسعيت لأن تكون لكلّ شخصيَّة سيرتُها الحياتيَّة الكاملة، وطابعُها المحدَّد وصوتُها الخاصّ، على الرَّغم من أنَّ خوارق التاريخ وعناد الأرواح في عدم الانضباط قد أحبطت نيّاتي. وقد أطلقت على ذلك العمل المسرحيّ الأوَّل، كما هو منطقيّ، اسم «السفير»، وأهديته إلى العمّ رامون الذي لم يستطع مشاهدة العرض لأنَّه كان في بوينس أيرس. لقد جرى الافتتاح وسط حفاوة النقد، ولكنَّني لا أستطيع أن أنسب الفضل إلى نفسي، لأنَّ المخرج والممثِّلين في الواقع هم الذين صنعوا العمل، بحيث لم يبقَ من فكرتي الأصليَّة سوى بعض الخطوط الواهية. وكان يخطر لي أحيانًا أنَّ ذلك العمل المسرحيّ قد أنقذ زوج أمّي من الاختطاف، لأنَّه من

المستحيل، بحسب قانون الاحتمالات، أن يقع له في الحياة الواقعيَّة ما عرضته أنا على خشبة المسرح، ولكنَّه لم يوفِّر الحماية مع ذلك لدبلوماسيّ آخر جرى اختطافه في أروغواي، ونعرَّض للمحن التي تخيَّلتها في بيتي الآمن في سنتياغو. وقد أصبحت أتوخَّى الحذر الآن عندما أكتب، لأنَّني أيقنت أنَّ ما هو غير حقيقيّ اليوم، قد يصبح حقيقيًّا في الغد.

طلبت منِّي فرقة مسرحيَّة أخرى نصًّا جديدًا، وانتهى بي الأمر إلى كتابة عملين من نمط الكوميديا الموسيقيَّة التي نطلق عليها عندنا «كافي ـ كونشيرتو» بسبب عدم وجود تسمية محدَّدة لهذا الجنس المسرحيّ، وجرى عرضهما بنجاح غير منتظر. وكان العمل الثاني منهما تاريخيًّا، لأنَّه كان يتطلَّب مشاركة كورال من السيِّدات البدينات لبعث الحماسة في الاستعراض بأغانيهنَّ ورقصهنَّ.

لم يكن من السهل العثور على نساء سمينات وجذَّابات لديهنَّ استعداد للظهور في مشهد مضحك على خشبة مسرح، وقد وقفت مع المخرج عند ناصية في مركز المدينة حيث يكثر مرور الناس، وكنَّا نوقف كلّ سيِّدة بدينة تمرّ لنسألها إذا كانت ترغب في أن تصبح ممثِّلة. كثيرات منهنَّ كنَّ يوافقن بحماسة، ولكنَّهنَّ ما إن يطّلعن على متطلِّبات العمل حتى ينصرفن غاضبات. وقد احتجنا إلى عدَّة أسابيع للتوصُّل إلى ستّ مرشحات. ولأنَّ المسرح كان مشغولًا بعمل آخر، فقد أجرينا التمرينات في صالة بيتنا الضيِّقة بعد أن أفرغناها من الأثاث. كان لدينا بيانو يُصدر أنغامًا نشازًا، كنت قد طليته باللون الأخضر الليمونيّ في إحدى نوباتي الخياليَّة وزيَّنته برسم مومس مستلقية على أريكة. وكان البيت كلّه يرتجّ كما في هزَّة أرضيَّة حين ترقص جماعة النساء

الضخمات رقصة عذارى المعابد الإغريقيَّة، أو حين يقفزن على أنغام «الروك أند رول»، أو حين يتألَّقن بتنانير الكانكان، أو يقفزن على رؤوس أصابعهنَّ على الأنغام الهادئة جدًّا لموسيقى «بحيرة البجع» التي كانت ستؤدِّي بتشايكوفسكي إلى الإغماء لو أنَّه سمعها. وكان على ميشيل أن يتولَّى تمتين أرضيَّة منصَّة المسرح وأرضيَّة بيتنا أيضًا حتى لا تنهار تحت أقدام أولئك الناطحات ذوات الجلود الرقيقة. لكن أولئك النسوة اللاتي لم يمارسن أيَّ تمرينات بدنيَّة من قبل، بدأن ينحفن. ومن أجل الحيلولة دون ذوبان شحومهنَّ الحسِّيَّة، راحت غراني تغذِّيهنّ بقدور ضخمة من المعكرونة المطبوخة مع القشدة وبكعكات كاملة من حلوى التفَّاح. وعند الافتتاح علَّقنا في بهو المسرح إعلانًا طلبنا فيه من الجمهور أن يرسل إلى الممثِّلات أطباق بيتزا بدلًا من باقات الزهور. وهكذا، استطعنا الحفاظ على التلال اللحميّة المكوَّرة والمنحدَرات العميقة في تضاريس أجسادهنَّ طوال سنتين من العمل القاسي، بما في ذلك القيام بجولة عبر البلاد. وقد تحمَّس ميشيل كثيرًا لهذه المغامرات الفنِّيَّة، فكان يأتي من عمله مباشرة إلى المسرح، وقد شاهد العرض مرَّات ومرَّات حتى حفظه عن ظهر قلب، بل أصبح في إمكانه، في أيِّ حالة طارئة، أن يحلّ مكان أيّ واحد من الممثِّلين، بمن في ذلك عذراوات الكورال البدينات. وأنت أيضًا، يا باولا، حفظتِ وأخاك نيكولاس أغنيات العمل، وكنتما قادرين على تقديمه كاملًا بعد عشر سنوات من ذلك، حين كنت أنا نفسي قد نسيت حتى عنوانه. وقد حضر جدِّي العمل عدَّة مرَّات أيضًا. كان يفعل ذلك أوَّل الأمر بسبب المشاعر العائليَّة، ثم بسبب الإعجاب بعد ذلك. وكان بعد إنزال الستار في كلِّ مرَّة يصفِّق بحماسة، ويصرخ وهو واقف على قدميه

ويرفع عكّازه إلى أعلى. لقد أحبَّ بدينات الكورال، وكان يُلقي عليّ محاضرات مطوّلة عن البدانة باعتبارها أحد مظاهر الجمال، وعن الرعب المناقض للطبيعة الذي يتبدّى في فتيات الموديلات سيّئات التغذية على أغلفة مجلّات الموضة. لقد كان نموذجه المثاليّ في الجمال يتمثّل في بائعة الخمور بصدرها الذي كصدر حوريّات الفالكيريا الجرمانيّات، ومؤخّرتها الملحميّة، واستعدادها الطيّب لبيعه مشروب الجِنّ في زجاجات المياه المعدنيّة. وكان يحلم بها سرًّا كيلا يفاجئه شبح جدّتي ميمي الحارس.

إنَّ رقصات أوريليا، هذه الشاعرة المصروعة في قاعتك، بفرائها الريشيّ المنتوف وأثوابها المنقّطة، تذكّرني بأولئك الراقصات البدينات، وتذكّرني كذلك بمغامرة شخصيّة جرت لي. إنَّ أوريليا تختال بثيابها المزركشة وهي في سنّ النضوج بطريقة أظرف منّي وأنا في سنّ الشباب. ففي أحد الأيّام، ظهر في الصحيفة إعلان عن مسرح معروف بالابتذال والتفاهة يعرض عملًا لفتيات شابّات، طويلات القامة وجميلات. وقد أمرتني مديرة المجلّة بأن أسعى للحصول على العمل، وأن أتغلغل وراء الكواليس لأكتب تحقيقًا صحافيًّا عن أولئك النساء البائسات، كما وصفتهنّ بصرامتها الأُسريّة الشديدة. لقد كنت أبعد ما أكون عن المواصفات التي يطلبها الإعلان، لكنَّ الأمر كان يتعلّق بتحقيق صحافيّ من تلك التحقيقات التي لا يرغب أحد في إجرائها. لم أجرؤ على الذهاب بمفردي، وطلبت من صديقة مقرّبة أن ترافقني. ارتدينا ملابس مبهرجة من التي ترتديها فتيات الشوارع بحسب افتراضنا، وعلّقنا «بروشًا» من الألماس المزيّف على ناصية كلبي، وهو كلب هجين سيّئ الطباع عمّدناه في تلك المناسبة باسم «فيفي». أمّا

اسمه الحقيقي فكان «دراكولا». عندما رآنا ميشيل بتلك الزينة، قرَّر أنَّه لا يمكننا الخروج من البيت من دون حماية. وإذا لم يكن هناك من نعهد إليه بالطفلين، فقد ذهبنا جميعنا معًا. كان المسرح المشهور في مركز المدينة بالضبط، فلم نستطع أن نوقف السيَّارة في مكان قريب، وكان علينا أن نقطع عدَّة كوادرات مشيًا على الأقدام. كنت أمشي في المقدِّمة مع صديقتي وأنا أحمل دراكولا بين ذراعي، بينما يمشي ميشيل خلفنا لحمايتنا وهو يقود الطفلين بكلتا يديه. كان طريقنا أشبه بحفلة مصارعة ثيران، فقد كان الرجال المارُّون ينطحون وهم يصرخون «أولّيه!»؛ وقد منحنا ذلك شيئًا من الثقة بإمكان الحصول على العمل. كان هناك صفٌّ طويل من الناس أمام شبّاك التذاكر، وكانوا جميعًا رجالًا بالطبع، ومعظمهم من المسنِّين، وبينهم بعض المجنَّدين الذين يخرجون في يوم راحتهم، وفريقٌ من المراهقين بالزيّ المدرسيّ شعروا بالخجل طبعًا عند رؤيتهم لنا. قادنا البوّاب الهَرِم، مثل المكان كلّه، عبر درج عتيق يؤدِّي إلى طابق ثانٍ. وكنَّا ننتظر أن نلتقي، كما في الأفلام، رجلَ عصابات بدينًا يضع في إصبعه خاتمًا من الياقوت ويمضغ سيجارًا في فمه، لكنَّنا وجدنا أنفسنا في غرفة علويَّة فسيحة وظليلة، يغطِّيها الغبار ولا وجود لأيِّ أثاث فيها، واستقبلتنا سيِّدة لها مظهر عمَّة ريفيَّة متدثِّرة بمعطف بنِّيّ، وتضع طاقيَّة صوفيَّة قفَّازين مقصوصين مكان الأصابع. وكانت تخيط فستانًا من الخرز البرَّاق تحت ضوء مصباح شاحب، ويتأجَّج عند قدميها موقد فحم، هو مصدر الحرارة الوحيد في المكان، وكان هناك قطّ سمين مسترخٍ على مقعد آخر، لكنَّه ما إن رأى دراكولا حتى انتصب وبره كأنَّه إبر النيص. وفي أحد الأركان، كانت تنتصب مرآة كبيرة من ثلاثة أقسام، وذاتُ إطار

مشقّق، وتتدلّى من السقف ملابس الاستعراض المعلّقة في أكياس بلاستيكيَّة كبيرة، وطيور ذات ريش له ألوان قوس قزح لا يتناسب مع ذلك المكان الكئيب.

قالت صديقتي مغتصبة لهجةَ حيِّ الميناء:

ـ جئنا من أجل الإعلان.

تأمَّلتنا المرأة من أقدامنا حتى رأسينا بنظرة مرتابة، فقد كان ثمَّة شيء لا يتطابق مع تصوُّراتها. سألتنا إذا كانت لدينا تجربة في المهنة، فسارعت صديقتي إلى سرد سيرة مقتضبة لحياتها، مدّعيَّة أنَّ اسمها غلاديس، وأنَّها كانت تعمل مزيِّنة شعر ومغنِّية في الليل، وأنَّها تملك صوتًا جيِّدًا، لكنَّها لا تتقن الرقص، مع أنَّها مستعدَّة لأن تتعلَّم، ومن المؤكَّد أنَّ ذلك ليس صعبًا. وقبل أن أتمكَّن من النطق بكلمة واحدة، أشارت إليّ بإصبعها وواصلت الكلام قائلة إنَّ صديقتها تُدعى سالومي، وإنَّها كانت نجمة متهتّكة ذات تاريخ طويل في البرازيل، حيث كان لها برنامج ناجح جدًّا تظهر فيه عارية على الحلبة، وكان كلبها المدرَّب فيفي يأتي بملابسها قطعة قطعة ويتولّى خلاسيٌّ ضخم إلباسها إيَّاها. وقالت إنَّ ذلك الفنَّان الخلاسيّ لم يحضر معنا لأنَّه موجود في المستشفى لاستئصال الزائدة الدوديَّة. وعندما انتهت صديقتي من كلامها الطويل، كانت المرأة قد توقَّفت عن الخياطة وراحت تتأمَّلنا بفم مفتوح.

وأظنّ أنَّها كانت ترتاب في شيء ما لأنَّها أمرتنا:

ـ تعرَّيا.

نزعت صديقتي ملابسها بتلك الوقاحة التي يتمتَّع بها الأشخاص

النحفاء، ثم انتعلت حذاء مذهَّبًا ذا كعب عالٍ، وعرضت جسدها أمام المرأة ذات المعطف الطحلبيّ. وكان هناك برد جليديّ.

ـ لا بأس... النهدان صغيران، ولكنَّنا هنا نملأ كلّ شيء. ثم أشارت إليّ بسَبَّابتها الحازمة:

ـ والآن دور سالومي.

لم أكن قد فكَّرت مسبقًا في هذا التفصيل، لكنَّني لم أتجرَّأ على الرفض. تعرَّيت وأنا أرتجف، وكانت أسناني تصطك من البرد. وقد اكتشفتُ، برعب، أنَّني أرتدي سروالًا داخليًّا من القطن حاكته لي الجدَّة هيلدا. ومن دون أن أفلت الكلب الذي كان يزمجر للقطّ، وقفت على الحذاء الذهبيّ الذي كان واسعًا جدًّا على قدمَيّ، وبدأت أمشي مجرجرة الحذاء مثل فرخ بطّ جريح.

اتَّجهت عيناي، فجأة، إلى المرآة ورأيت نفسي في هذا المظهر في أقسام المرآة الثلاثة، ومن كلِّ الجهات. ولم أستطع حتى الآن التخلُّص من ذلك الإذلال الذي شعرت به.

«أنتِ ينقصك الطول، ولكنَّك لست سيِّئة، يمكننا أن نضع ريشًا أطول على رأسك، وسترقصين في المقدِّمة، وهكذا لا ينتبه أحد إلى قصر قامتك. أمَّا بالنسبة إلى الكلب والزنجيّ، فلا حاجة إليهما، فلدينا هنا استعراضنا الخاصّ. ولكنَّكما ستحصلان على إكراميَّات جيِّدة إذا كنتما لطيفتين مع الزبائن».

خرجنا سعيدتين للقاء ميشيل والطفلتين في الشارع، ونحن لا نكاد نصدِّق حصولنا على الشرف الفظيع بقبولنا للعمل منذ اللحظة الأولى. لم نكن نعرف أنَّ ثمَّة أزمة دائمة في العثور على مغنِّيات الجوقة، وأنَّ

أصحاب الملاهي كانوا مستعدّين في سعيهم اليائس إلى القبول حتى بشمبانزي. بعد بضعة أيَّام من ذلك، وجدت نفسي أرتدي الزيّ الحقيقي لراقصة ملهًى؛ أي مربَّعًا من الخرز اللامع فوق العانة، وقطعةَ زمرّد على السرَّة، وقبَّعتين صغيرتين برّاقتين على حلمتي النهدين، وخوذةً ثقيلة من ريش النعام كأنَّها كيس إسمنت على الرأس. ولا شيء أبدًا من الخلف. نظرت إلى نفسي في المرآة، وأدركت أنَّ الجمهور سيستقبلني بوابل من البندورة، فالمشاهدون يدفعون من أجل رؤية لحم متماسك وأجساد محترفة، وليس لرؤية جسد ربَّة أسرة لا تملك أيَّ مؤهِّلات طبيعيَّة لتلك المهنة. والأدهى من ذلك أنَّ فريقًا من التلفزيون الوطنيّ قد حضر لتصوير الاستعراض في تلك الليلة، وكان أعضاؤه ينصبون آلات التصوير بينما كان معلّم الرقص يحاول أن يعلّمني كيفيَّة النزول على درج وسط صفَّين من الشبَّان ذوي العضلات والمطليّين بلون ذهبيّ، ويرتدون زيّ المصارعين الرومانيّين، ويحملون مشاعل مضيئة.

ـ ارفعي رأسك؛ أخفضي كتفيك؛ ابتسمي يا امرأة؛ لا تنظري إلى الأرض؛ سيري وأنت تقاطعين ساقيك وتضعين إحداهما أمام الأخرى. أقول لك مرَّة أخرى إنَّ عليك أن تبتسمي! لا تحرّكي ذراعيك كثيرًا لأنَّك ستبدين، في هذا الريش، كأنَّك دجاجة حاضنة. وانتبهي إلى المشاعل كي لا تحرقي الريش، فهذا الريش ثمين جدًّا! هزّي ردفيك، واخفي بطنك إلى الداخل. تنفسي. إذا لم تتنفَّسي فستموتين.

حاولت التقيُّد بأوامره، لكنَّه كان يزفر ويغطّي عينيه بكفِّه النحيلة، بينما كانت المشاعل تُستنفَد بسرعة، والمصارعون الرومانيُّون يتطلَّعون

إلى السقف بسخط. وفي لحظة سهو، نظرت من خلال الستارة وألقيت نظرة على الجمهور، فرأيت كتلة صاخبة من الرجال الذين نفد صبرهم لأنّنا كنّا قد تأخّرنا ربع ساعة عن الموعد المحدَّد لبدء الاستعراض. لم أجد الشجاعة الكافية لمواجهتهم، وقرّرت أنَّ الموت أهون عليّ من ذلك، وانطلقت هاربة نحو المخرج. كانت كاميرا التلفزيون قد صوَّرتني من الأمام في أثناء التدريب وعند نزولي على الدرج المضاء بالمشاعل الأولمبيَّة التي يحملها الرياضيُّون الذهبيُّون، ثم سجَّلت بعد ذلك صورة خلفيَّة لراقصة حقيقيَّة تنزل الدرج نفسه بين الستائر المفتوحة ووسط صرخات الحشد. وقد جرى طبع الفيلم في القناة التلفزيونيَّة وظهرتُ في البرنامج بوجهي وكتفي، ولكن مع الجسد الكامل لنجمة الاستعراض الكبرى في البلاد. اجتازت التقوّلات سلسلة جبال الأنديز ووصلت إلى والدي في بوينس أيريس. وكان على السيّد السفير أن يوضح للصحف الصفراء أنَّ ابنة أخي الرئيس ألليندي لا ترقص عارية في استعراض بورنوغرافيّ، وأنَّ الأمر مجرَّد تشابه مؤسف في الأسماء. وكان حموي ينتظر مسلسله التلفزيونيّ المفضَّل عندما رآني أظهر عارية، فأُصيب بنوبة رعب قطعت الهواء عن رئتيه. وقد احتفل زملائي في المجلَّة بريبورتاجي عن عالم الملاهي. أمَّا مدير دار النشر، وهو كاثوليكيّ محافظ وأب لخمسة أبناء، فقد اعتبر الريبورتاج إهانة خطيرة. فبين نشاطاتي الكثيرة آنذاك، كنت أدير مجلَّة الأطفال الوحيدة في السوق، فكانت تلك الفضيحة مثالًا سيِّئًا يُقدَّم إلى الصغار. استدعاني المدير إلى مكتبه ليسألني كيف أجرؤ على عرض مؤخّرتي عارية عمليًا أمام البلاد بأسرها، وكان عليّ أن أعترف بأنَّ تلك المؤخّرة لم تكن مؤخّرتي للأسف، وأنَّ الأمر مجرَّد خدعة تلفزيونيَّة.

تأمّلني من أعلى إلى أسفل، وصدّقني على الفور. وفيما عدا ذلك، لم تكن للقضيَّة نتائجُ أكبر. فقد ذهبتِ أنت ونيكولاس إلى المدرسة، وقلتما بتحدٍّ لكلٍّ من رغب في الاستماع إليكما، إنَّ السيِّدة ذات الريش هي أمُّكما، وقد أخمد ذلك أيّ تعليقات ساخرة، بل إنَّه كان عليَّ أن أوقِّع بعض الأوتوغرافات. أمَّا ميشيل فقد هزّ كتفيه بكسل ولم يقدِّم أيّ تفسير إلى أصدقائه الذين كانوا يعلِّقون بحسد على جمال جسد زوجته الاستعراضي. وأكثر من واحد منهم، كان يتأمَّلني بنظرة حائرة وهو لا يستطيع أن يتصوَّر كيف أو لماذا أُخفي تحت ثيابي الهيئَّة الطويلة مفاتني الجسديَّة التي عرضتها بسخاء بالغ على الشاشة. وتعمَّدت بدافع الحذر عدم الظهور أمام جدِّي ليومين، إلى أن استدعاني وهو يكاد يموت من الضحك، ليقول لي إنَّ البرنامج بدا له جيِّدًا مثل عروض المصارعة الحرَّة في مسرح كاوبوليكان، وإنَّ التلفزيون أعجوبة تظهر فيه الأشياء أجملَ ممَّا هي عليه في الحياة الواقعيَّة. وعلى العكس من زوجها الذي لم يستطع الخروج إلى الشارع لعدَّة أسابيع، كانت حماتي غراني تفاخر بمأثرتي تلك، وقد اعترفت لي، على انفراد، بأنَّها حين رأتني أنزل ذلك الدرج بين صفَّين من المصارعين المذهَّبين، أحسَّت بأنَّها قد وجدت نفسها تمامًا، لأنَّ عمل ذلك كان حلمها السرِّيَّ الأكبر. في ذلك الحين، كانت حماتي قد بدأت تتغيَّر، فكانت تبدو مهتاجة وتحتضن الطفلين أحيانًا وعيناها ممتلئتان بالدموع، كأنَّها تحدس بأنَّ هناك ظلًّا رهيبًا يهدِّد سعادتها الموقَّتة. كان التوتُّر في البلاد قد بلغ مستويات عنيفة، وكانت هي تتوقَّع حدوث شيء جليل، بحساسيَّتها العميقة التي يتمتَّع بها أكثر الناس براءة. فكانت تشرب الخمر الرخيص وتُخفي الزجاجات في

أماكن إستراتيجيَّة. وأنت، يا باولا، يا من كنت تحبِّينها بعاطفة غير محدودة، كنتِ تكتشفين المخابئ واحدًا واحدًا، وتأخذين الزجاجات الفارغة من دون أن تتفوّهي بكلمة واحدة، وتدفنينها بين شجيرات الداليا في الحديقة.

كانت أمِّي التي استنفدتها الضغوط والعمل في السفارة قد سافرت، في أثناء ذلك، إلى مصحّ في رومانيا، حيث كانت الدكتورة الشهيرة أصلان تحقِّق المعجزات بأقراص لمعالجة أمراض الشيخوخة. أمضت شهرًا في حجرة في دير سابق لتُعالَج من أمراض حقيقيَّة وأخرى متخيَّلة، ولتستعيد في ذاكرتها جروح الماضي القديمة. وكان يشغل الحجرة المجاورة فنزويليّ ساحر تأثَّر بشدّة لدى سماع بكائها، وتجرَّأ في أحد الأيَّام على طَرق باب حجرتها. «ما الذي أصابك أيّتها الفتاة؟ ليس هناك ما لا يمكن الشفاء منه بقليل من الموسيقى وجرعة من الرُّوم»، هكذا بادرها ليقدِّم نفسه. وخلال الأسابيع التالية، كانا، كلاهما، يجلسان على مقاعد الاسترخاء تحت سماء بوخارست الغائمة وهما يرتديان روبَي المصحّ وينتعلان الخفَّين النظاميَّين، مثل عجوزين مبكيين، ويرويان تفاصيل حياتيهما من دون خجل لأنَّهما كانا يعتقدان أنَّهما لن يلتقيا بعد ذلك أبدًا. شاطرته أمِّي تفاصيل ماضيها، واعترف لها هو، في المقابل، بأسراره، وعرضت عليه بعض رسائلي، وعرض عليها صور زوجته وبناته، وهنَّ الحبّ الحقيقيّ الوحيد في حياته. وعند انتهاء العلاج، تقابلا أمام بوَّابة المستشفى للوداع: أمِّي بملابس السفر الأنيقة، وبعينيها الخضراوين واللتين غسلهما البكاءُ وأعاد إليهما الحيويَّةَ والشباب فنُّ الدكتورة أصلان العلاجيُّ العجيب، والجنتلمان

الفنزويليّ ببدلة السفر وابتسامته الواسعة التي تكشف عن أسنان لا تشوبها شائبة، فلم يكد كلٌّ منهما يتعرَّف إلى الآخر. وقد غلبه التأثُّر عندئذ، فحاول أن يقبِّل يد تلك الصديقة التي استمعت إلى اعترافاته، لكنَّه قبل أن يُنهي حركته كانت أمِّي قد عانقته وهي تقول له: لن أنساك أبدًا. فردَّ عليها: إذا ما احتجتِ إليّ يومًا فستجدينني دائمًا رهن إشارتك. كان اسمه ڤالينتين هيرنانديث، وكان سياسيًّا واسعَ النفوذ في بلاده، وقد كان له تأثير حاسم في مستقبل أسرتنا بعد سنوات قليلة من ذلك، حين عصفت بنا رياح العنف وقذفت بنا في أنحاء مختلفة.

حقَّقت لي الريبورتاجات الصحافيَّة في المجلَّة والبرامجُ التلفزيونيَّة، شيئًا من الظهور العامّ. وكثيرًا ما كان الناس في الشارع يهنِّئونني أو يشتمونني، على نحو جعلني أظنّ أنَّني قد توصَّلت إلى نوع من الشهرة. وفي شتاء ١٩٧٣، دعاني بابلو نيرودا إلى زيارته في إيسلانيغرا. كان الشاعر حينذاك مريضًا، وقد غادر منصبه في السفارة في اريس واستقرّ في تشيلي، في بيته على الشاطئ، حيث كان يُمْلي مذكَّراته ويكتب أشعاره الأخيرة متطلِّعًا إلى البحر. قمت باستعدادات كثيرة من أجل هذا اللقاء، فاشتريت آلة تسجيل جديدة، ووضعت قائمة أسئلة، وأعدت قراءة بعض أعماله وسيرتين لحياته، كما أجريت كذلك فحصًا لمحرِّك سيَّارتي السيتروين العتيقة حتى لا تخذلني في تلك المهمَّة الحسَّاسة. كانت الريح تصفر بين أشجار السرو والأوكالبتوس، وكان البحر رماديًّا ورذاذ مطر يهطل على بيوت القرية المغلقة وشوارعها المقفرة. كان الشاعر يعيش في متاهة من الخشب والأحجار، في بناء شيَّدته النزوات، يتألَّف من أبنية ملحقة وترقيعات

إضافيَّة. وكان هناك في الفناء ناقوسٌ بحريٌّ، وتماثيل منحوتة، وكتل خشبيَّة مستخرجة من سفن غارقة في البحر. ومن فوق هاوية صخريَّة يظهر الشاطئ الذي يرتطم به المحيط الهادي من دون كلل. ويضيع النظر في امتدادات المياه القاتمة اللامحدودة قبالة السماء الرصاصيَّة. كان مشهد النقاء الفولاذيّ، الرماديّ فوق الرماديّ، نابضًا. وقد استقبلني بابلو نيرودا من دون شكليَّات، وهو يضع بونتشو على كتفيه، وقبَّعةً على رأسه الكبير، وقال لي إنَّه يستمتع بمقالاتي الساخرة، وإنَّه يسحب أحيانًا صورًا «فوتوكوبي» لتلك المقالات ويرسلها إلى أصدقائه. لقد كان ضعيفًا، لكن قواه مكَّنته من اقتيادي عبر شِعاب تلك المغارة العجيبة المترَعة بكنوز متواضعة، وعرض عليّ مجموعاته من التواقيع والقوارير والدمى والكتب واللوحات. لقد كان مشتريًا لا يكلّ للأشياء: «أُحبّ كلّ الأشياء، ليس الأشياء الكبرى وحدها، وإنَّما أكثرها صغرًا كذلك: الكشتبان، المهماز، الأطباق، الزهريَّات»... وكان يستمتع بالطعام أيضًا. وقد قدَّموا إلينا عند الغداء سلُورًا مطبوخًا في الفرن؛ هذا النوع من السمك ذي اللحم الأبيض المتماسك، ملك البِحار التشيليَّة، مع نبيذ أبيض مزّ ومبرَّد. تحدَّث عن مذكَّراته التي يحاول كتابتها قبل أن يتلقَّفه الموت، وعن مقالاتي الساخرة ـ واقترح عليَّ أن أجمعها في كتاب ـ، وتحدَّث عن كيفيَّة اكتشافه في أماكن مختلفة من العالم تماثيلَ قيدوم السفن، تلك المنحوتات الخشبيَّة الضخمة التي لها وجوه وأثداء حوريَّات بحر، والتي كانت تتقدَّم السفن القديمة. وقال لي: هؤلاء الفتيات الجميلات وُلدن ليعشن بين الأمواج، وهنَّ يشعرن بالتعاسة على الأرض اليابسة، ولهذا أنقذهنَّ وأضعهنَّ قبالة البحر. تحدَّث طويلًا عن الوضع السياسيّ الذي يملأه

بالمرارة، وقد انكسر صوته وهو يتحدَّث عن بلاده المنقسمة إلى أطراف متصارعة بعنف. فقد كانت صحف اليمين تنشر عناوين على ستَّة أعمدة تقول: أيّها التشيليُّون، راكموا الحقد! وتحرِّض العسكريين على الاستيلاء على السلطة، ونطلب من أللبندي أن يتنحَّى عن الرئاسة، أو أن ينتحر مثلما فعل الرئيس بالماسيدا في القرن الماضي لتفادي وقوع حرب أهليَّة.

زفر الشاعر قائلًا:

ـ يجب عليهم أن يزيدوا في حذرهم فيما يطلبونه، فقد يحصلون عليه.

فحاولت طمأنته بالكلشيهات المكرورة.

ـ لا يمكن أن يقع انقلاب عسكريّ في تشيلي يا دون بابلو. فقوَّاتنا المسلَّحة تحترم الديموقراطيَّة.

بدأ المطر يهطل بعد الغداء، وامتلأت الحجرة بالظلال، واستعادت امرأة ضخمة من قيدوم سفينة الحياةَ، وانتزعت نفسها من الخشب لتحيِّينا بهزِّ نهديها العاريين. فأدركت عندئذ أنَّ الشاعر قد تعب، وأنَّه عليّ أن أُسرع، فاقترحت عليه، أنا التي صعدت الخمر إلى رأسي:

ـ يمكننا أن نجري المقابلة الصحافيَّة إذا كان هذا يناسبك...

ـ أيّ مقابلة؟

ـ حسنًا... هذا مبرِّر مجيئي، أليس كذلك؟

ـ مقابلة معي؟ لن أسمح لنفسي أبدًا بالخضوع لمثل هذه التجربة.

ثم ضحك وقال:

ـ لا بدَّ من أنَّك أسوأ صحافيَّة في هذه البلاد يا ابنتي. إنَّك عاجزة عن أن تكوني موضوعيَّة، فأنت تضعين نفسك في وسط كلِّ شيء، ويخامرني الشكّ في أنَّك تكذبين كثيرًا، وعندما لا تجدين خبرًا، تخترعينه بنفسك. لماذا لا تتَّجهين إلى كتابة الرواية؟ إنَّها أفضل لك. فهذه النقائص تتحوَّل إلى فضائل في الأدب.

تستعدّ أوريليا، بينما أنا أروي لك هذا يا باولا، لتلاوة قصيدة نَظَمَتْها خصّيصًا من أجلك. لقد طلبتُ منها ألَّا تفعل ذلك لأنَّ أشعارها تضعف معنويَّاتي، لكنَّها تصرّ على قراءة القصيدة. إنَّها لا تثق بالأطبَّاء، وهي تعتقد أنَّك لن تستعيدي عافيتك.

ـ وهل تعتقدين يا أوريليا أنَّهم جميعًا قد اتّفقوا ليكذبوا عليّ؟

ـ آه، يا لك من امرأة ساذجة! ألا ترين أنَّهم يحمون بعضهم بعضًا؟ لن يعترفوا أبدًا بأنَّهم قد قضوا على صغيرتك، فهم جماعة أوغاد لهم سلطة على الحياة والموت. هذا أقوله لك أنا التي عشت متنقِّلة من مستشفى إلى آخر. لو أنَّك تعرفين الأشياء التي قُيِّض لي أن أراها...

قصيدتها الغريبة تتحدَّث عن عصفور متحجِّر الجناحين. إنَّها تقول إنَّك ميِّتة، وإنَّك تودِّين المغادرة، ولكنَّك لا تستطيعين ذلك لأنَّني أُوقفك، ولأنَّني مثل ثقل مرساة على قدميك.

ـ لا تبذلي مزيدًا من الجهد من أجلها يا إيزابيل، ألا ترين أنَّك تناضلين ضدَّ مشيئتها في الواقع؟ باولا لم تعد هنا، انظري إلى عينيها، إنَّهما مثل ماء أسود. إذا كانت لا تتعرَّف إلى أمِّها فلأنَّها قد غادرت،

عليك أن تتقبَّلي ذلك دفعة واحدة.

ـ اصمتي يا أوريليا. . .

فيتنهَّد زوج إلفيرا:

ـ دعيها تتكلَّم، فالمجانين لا يكذبون.

ماذا هنالك في الجانب الآخر من الحياة؟ أهو ليل صامت ووحدة فقط؟ ما الذي يبقى عندما لا تكون ثمَّة رغبات ولا ذكريات ولا آمال؟ ماذا يوجد في الموت؟ لو أنَّني أستطيع البقاء جامدة من دون كلام، من دون تفكير، من دون توسُّل، يمكنني عندئذ أن أسمعك يا ابنتي.

كانت تشيلي، في أوائل عام ١٩٧٣، تبدو بلدًا في حالة حرب، فالحقد الذي كان ينمو في الظلِّ يومًا في إثر يوم، انفجر فجأة في إضرابات وأعمال تخريب وإرهاب، يتبادل الاتِّهامات في ارتكابها المتطرِّفون من اليسار واليمين. كانت جماعات من «الوحدة الشعبيَّة» تستولي على قطع من الأراضي الخاصَّة، فتُقيم عليها أحياء سكنيَّة، ومصانعَ لتأميمها، ومصارفَ للإشراف على إدارتها، خالقةً بذلك جوًّا من انعدام الأمن، بحيث لم يكن على القوى المعارضة للحكومة أن تُجهد نفسها كثيرًا في زرع الرعب. وقد أتقن خصوم ألليندي أساليبهم في مفاقمة المشاكل الاقتصاديَّة حتى حوَّلوها إلى عِلْم قائم بذاته، فكانوا ينشرون الشائعات المرعبة، داعين الناس إلى سحب أموالهم من المصارف، ويحرقون المحاصيل ويقتلون المواشي، ويُخفون من الأسواق بعضَ الموادّ الأساسيَّة، ابتداءً من إطارات الشاحنات وحتى أصغر قطع غيار الأجهزة الإلكترونيَّة المعقَّدة. لقد أصاب الشللُ

المستشفيات لافتقادها الإبرَ والقطن، ولم تعد المصانع تعمل لعدم توافر قطع الغيار للآلات. وهكذا، أصبح آلاف العمَّال في الشوارع. وردًا على ذلك، نظَّم الشغِّيلة أنفسهم في لجان، وصاروا يطردون رؤساءهم، ويتولُّون القيادة بأنفسهم، ويُقيمون معسكرات عند بوَّابات المصانع لفرض الحراسة ليلًا ونهارًا حتى لا يدمِّر أربابُ العمل معاملَهم. وكان مستخدمو المصارف وموظَّفو الإدارات العامَّة ينظِّمون الحراسة أيضًا حتى لا يقوم زملاؤهم من الفئة المضادَّة بخلط أوراق الملفَّات، أو بإتلاف الوثائق، أو بوضع قنابل في دورات المياه. وكان يجري تبديد ساعات ثمينة في اجتماعات لا تنتهي من أجل التوصُّل إلى قرارات جماعيَّة، لكنَّ الجميع كانوا يتنازعون حقَّ الكلام كي يعرضوا وجهات نظرهم في أمور تافهة، ونادرًا ما كان يتمّ التوصُّل إلى اتِّفاق. وتلك القرارات التي كان المدير يتَّخذها خلال خمس دقائق، أصبح المستخدمون يتَّخذونها بعد أسبوع من المناقشات البيزنطيَّة وعمليَّات التصويت الديموقراطيَّة. وكان الشيء نفسه يحدث على مستوى أعلى في الحكومة، فأحزاب «الوحدة الشعبيَّة» يتقاسمون السلطة وفق نظام الكوتا، ولا بدَّ للقرارات من أن تمرّ عبر مصافٍ كثيرة. وعندما يتمّ إقرار أمر في النهاية يكون القرار بعيدًا جدًّا عن المشروع الأصليّ. ولم يكن ألليندي يتمتَّع بالأغلبيَّة في الكونغرس، فكانت مشاريعه تصطدم بجدار المعارضة التي لا تلين، فتفاقمت الفوضى، وأصبحت الحياة تجري في أجواء من عدم الثبات والعنف المستتر، وتوقَّفت محرّكات آلات الوطن الثقيلة. كان منظر مدينة سنتياغو في الليل أشبه بمنظر مدينة عاثت فيها كارثة، فالشوارع مظلمة وشبه مقفرة لأنَّ أُناسًا قليلين هم الذين يجرؤون على التجوُّل سيرًا على الأقدام. ووسائل النقل

العامَّة لا يتحرَّك إلَّا نصفُها بسبب الإضرابات وتقنين الوقود. وفي مركز المدينة يتعالى لهيب نار المواقد التي يتدفَّأ عليها الرفاق، وهذا هو الاسم الذي أُطلق على أنصار الحكومة، الذين يحرسون المباني والشوارع في الليل. فصائل من الشباب الشيوعيِّين يرسمون لوحات دعائيَّة ضخمة على الجدران، وجماعات من اليمين المتطرِّف تتجوَّل في سيَّارات ذات زجاج قاتم وهي تطلق النار عشوائيًا. وفي الأرياف التي جرى فيها تطبيقُ الإصلاح الزراعي، كان الملَّاكون يخطِّطون للانتقام وقد تزوَّدوا بأسلحة يهرِّبونها إلى البلاد عبر الحدود الطويلة على جبال الأنديز. آلاف رؤوس الماشية نُقلت إلى الأرجنتين عبر الممرَّات الجبليَّة الجنوبيَّة، وآلاف أخرى ذُبحت كيلا يجري توزيعها على الأسواق. كانت الأنهار تصطبغ بالدم أحيانًا ويجرف التيَّار جِيَفًا منتفخة لأبقار حلوب وخنازير مسمَّنة. والفلَّاحون الذين عاشوا أجيالًا وهم ينصاعون للأوامر، اجتمعوا في المزارع للعمل، ولكنَّهم كانوا يفتقدون المبادرة والمعرفة والقروض. كانوا لا يعرفون كيف يستخدمون حرِّيَّتهم، وكثيرون منهم كانوا يتشوَّقون سرًّا إلى عودة ربّ العمل؛ ذلك الأبِ المتسلِّط والمكروه في أحيان كثيرة، ولكنَّه القادر، على الأقلّ، على إصدار أوامر واضحة، وعلى حمايتهم عند الضرورة من مفاجآت المناخ ومن آفات المزروعات وأوبئة المواشي، وهو لديه أصدقاء متنفِّذون، ويستطيع الحصول على ما هو ضروريّ. أمَّا هم، في المقابل، فلا يجرؤون على اجتياز عتبة مصرف، ولا يستطيعون حلَّ رموز حرف صغير من الأوراق التي يقدِّمونها إليهم ليوقِّعوا عليها. ولم يكونوا يفهمون كذلك تلك الأقوال الشيطانيَّة التي يعلكها الخبراء الذين ترسلهم الحكومة، بألسنتهم المعقَّدة وكلماتهم الصعبة، فهم أُناس من

المدينة نظيفو الأظفار، لا يعرفون كيفيَّة استخدام محراث، ولم يسحبوا بأيديهم على الإطلاق عِجْلًا تعسَّرت ولادته بسبب وضعه الخاطئ في أحشاء بقرة. ولم يحتفظ هؤلاء الفلَّاحون بحبوب يبذرونها في الموسم التالي، وأكلوا ثيران التلقيح، وضيَّعوا أكثر شهور الصيف فائدة في المناقشات السياسيَّة، بينما كانت الثمار تسقط من شدَّة نضوجها عن الأشجار، والخضار تجفّ في المساكب. وأخيرًا أعلن سائقو الشاحنات الإضراب، ولم يعد في الإمكان نقل أيّ حمولة في طول البلاد، فبقيت بعض المدن من دون أغذية، بينما كانت الخضار والمنتوجات البحريَّة تتعفَّن في مدن أخرى. لقد بُحَّ صوت سلفادور ألليندي لكثرة ما أدان أعمال التخريب، لكن أحدًا لم يلتفت إليه، ولم يكن يملك أُناسًا ولا سلطةً كافية ليواجه أعداءه بالقوَّة. اتُّهم الأميركيُّون بتمويل الإضراب؛ فكلّ سائق شاحنة يتلقَّى خمسين دولارًا إذا توقَّف عن العمل، ولهذا لم يكن هناك أيّ أمل في حلّ الخلاف. وعندما أمر الجيش بفرض النظام، أكَّدوا أنَّه قد جرى نزع بعض قطع محرّكات الشاحنات وأنَّه لا يمكن تحريك الناقلات الضخمة المتوقِّفة على الطرقات، كما أنَّ الأرض كانت مغطَّاة بمسامير معقوفة مزَّقت إطارات السيَّارات العسكريَّة. وقد عرض التلفزيون صورًا مأخوذة من طائرة هيلوكبتر لكتل الحديد المعطَّلة والصدئة والمنشورة على الدروب. لقد تحوَّل التزوُّد بالمؤن إلى كابوس، ولكن أحدًا لم يصل إلى معاناة الجوع، لأنَّ المقتدرين كانوا يشترون من السوق السوداء، بينما نظَّم الفقراء أنفسهم بحسب الأحياء ليحصلوا على الضروريَّات. كانت الحكومة تطالب بالصبر، ووزارة الزراعة توزِّع نشرات لتعلِّم أهالي المدن زراعةَ الخضراوات على شرفات منازلهم وفي براميل

الحمَّامات. ولخشيتي من نقص الطعام، بدأت بتخزين الموادّ الغذائيَّة التي أحصل عليها بدهاء المهرّبين. لقد كنت أسخر من حماتي في أوَّل الأمر، قائلة إنَّه إذا لم يتوافر الدجاج نأكل المعكرونة، وإذا فُقد السكَّر فإنَّ ذلك سيكون أفضل لأنَّنا سنخفِّف وزننا قليلًا، ولكنَّني تخلَّصت من هواجسي وألقيت بها إلى الجحيم في آخر الأمر. لقد كنت أقف من قبل في الصفّ لأشتري كيلوغرامًا من «شخت اللحم» المشكوك في مصدره، أمَّا الآن فأصبح محترفو إعادة البيع يأتون إلى بيتي بأفضل أنواع اللحم، ولكن هذا كان يكلِّف في الواقع عشرة أضعاف السعر الرسميّ. ولم يستمرّ هذا الحلّ وقتًا طويلًا، لأنَّه كان لا بدَّ لي من قَدْر كبير من عدم المبالاة كي أعظ ابنَيَّ بشأن الأخلاق الاشتراكيَّة، بينما أنا أقدِّم إليهما شرحات مشتراة من السوق السوداء للعشاء.

على الرَّغم من الصعوبات الحرجة في تلك الفترة، فإنَّ الشعب كان يواصل الاحتفال بانتصاره. وعندما جرت الانتخابات البرلمانيَّة في شهر آذار، ارتفعت نسبة الأصوات التي حصلت عليها «الوحدة الشعبيَّة». أدركت القوى اليمينيَّة عندئذ أنَّه لا يمكن لحفنة من المسامير المعقوفة، أو لغياب لحم الدجاج من الأسواق، أن يهزما الحكومة الاشتراكيَّة، فقرَّرت الدخول في مرحلة التآمر الأخيرة. ومنذ تلك اللحظة، بدأت تنتشر الإشاعات عن احتمال وقوع انقلاب عسكريّ. كان معظمنا يعرف ما الذي يعنيه الانقلاب العسكريّ، ذلك بأنَّنا كنَّا قد سمعنا بأنَّ العسكريِّين في بلدان أخرى من القارَّة قد استولوا على السلطة بصورة مثيرة للسخط، وكنَّا نتبجّح بأنَّ مثل ذلك لا يمكن حدوثه في تشيلي أبدًا، فنحن لدينا ديموقراطيَّة مترسِّخة، ولسنا واحدة من جمهوريَّات الموز في أميركا الوسطى، ولسنا كذلك مثل الأرجنتين

التي أسقطت التمرُّدات العسكريَّة فيها جميعَ الحكومات المدنيَّة منذ خمسين سنة. لقد كنَّا نعتبر أنفسنا سويسريِّي القارَّة. وكان قائد القوَّات المسلَّحة، الجنرال براتس، من أنصار الدستور والسماح لألليندي بإنهاء فترة رئاسته بسلام، ولكن وحدة من الجيش تمرَّدت على الرَّغم من ذلك، ونزلت إلى الشوارع بالدبَّابات في شهر حزيران. وقد استطاع الجنرال براتس فرض الانضباط على تلك الوحدة، لكنَّ الفوضى كانت قد انفلتت، فقد أعلن البرلمان عدم شرعيَّة حكومة الوحدة الشعبيَّة، وطالب الجنرالات باستقالة قائدهم الأعلى، ولكنَّهم لم يواجهوه مباشرة، بل أرسلوا نساءهم للتظاهر أمام بيت الجنرال براتس في مشهد عامّ صاخب. وجد الجنرال نفسه مضطرًّا إلى الاستقالة، فعيَّن الرئيس مكانه أغوسطو بينوشيه، وهو رجل عسكريّ غامض لم يكن أحد قد سمع به من قبل، وصديق للجنرال براتس، وقد أقسم أن يبقى مخلصًا للديموقراطيَّة. كانت البلاد تبدو كأنَّها خارج السيطرة، وأعلن الرئيس سلفادور ألليندي عن استفتاء كي يقرِّر الشعب إذا كان يريده أن يواصل الحكم أو أن يستقيل ويدعو إلى إجراء انتخابات جديدة. وكان موعد الاستفتاء هو يوم الحادي عشر من أيلول. وسرعان ما جرى تقليد نموذج زوجات العسكريِّين اللواتي عملن بدلًا من أزواجهنّ. فعمد حموي، مثل كثيرين غيره، إلى إرسال غراني إلى الكلِّيَّة العسكريَّة لرشق تلاميذ الضبَّاط بالذرة كي يتخلُّوا عن التصرُّف كالدجاج ويخرجوا من ثكناتهم للدفاع عن الوطن كما يجب. لقد كان حموي متحمِّسًا لإمكان إلحاق الهزيمة بالاشتراكيَّة إلى الأبد، حتى إنَّه كان يقرع الطناجر في فناء بيته تأييدًا للجارات اللواتي يتظاهرن في الشارع. كان يفكِّر في أن العسكريين هم من أنصار الشرعيَّة مثل أغلبيَّة التشيليِّين،

وسيكتفون بإقصاء ألليندي عن كرسيّ الرئاسة وإعادة النظام، وتنظيف البلاد من اليساريِّين ومثيري الاضطراب، ثم يدعون بعد ذلك فورًا إلى انتخابات جديدة. وإذا سار كلّ شيء على ما يرام، فإنَّ مسار البندول سيتحوَّل عندئذ ويأتي رئيس محافظ جديد. «لا تتوهَّم، ففي أفضل الحالات سيكون لدينا رئيس ديموقراطيّ ـ مسيحيّ»، قلت له ذلك محذِّرة، وأنا أعرف أنَّ عداءه للحزب الديموقراطيّ المسيحيّ يفوق حقده على الشيوعيِّين. إنَّ فكرة بقاء العسكريِّين في الحكم لم تكن تخطر في بال أحد، حتى ولا في بال حميي. والوحيدون الذين كانوا يعرفون ذلك هم المطَّلعون على أسرار المؤامرة فقط.

توسّل سيليا ونيكولاوس إليّ أن أرجع إلى كاليفورنيا في شهر أيَّار كي أشهد ولادة طفلهما. لقد وجَّها إليّ الدعوة إلى المشاركة في عمليَّة ولادة حفيدي، وقالا إنَّه بعد كلّ تلك الشهور في مواجهة الموت والألم والوداع والدموع، سيكون من المفرح استقبال هذا المولود عندما يطلّ برأسه على الحياة. فإذا تحقَّقت الرؤى التي جاءتني في الأحلام، مثلما جرى في مناسبات أخرى، فسيكون هذا المولود طفلة سمراء ولطيفة ذات طبع قوي. عليك أن تتحسَّني بسرعة يا باولا كي تذهبي معي إلى البيت وتكوني إشبينة الوليدة أندريا. لماذا أحدِّثك هكذا يا ابنتي؟ فأنت لن تستطيعي عمل شيء لوقت طويل. هناك في انتظارنا سنوات من الصبر والجهد والتنظيم، وسيكون الجزء الصعب من نصيبك، لكنَّني سأكون إلى جانبك لأساعدك. لن ينقصك أيّ شيء. ستكونين محاطة بالأمان ووسائل الراحة، وسنساعدك على الشفاء. لقد قيل لي إنَّ إعادة التأهيل ستكون بطيئة جدًّا، ربَّما

استغرقت كلّ ما تبقّى من حياتك، ولكن يمكن لإعادة التأهيل أن تحقّق الأعاجيب. ويؤكّد الطبيب المختصّ بداء الفرفيرين أنّك ستُشفين تمامًا، لكن طبيب الأعصاب طلب مجموعة من الفحوص والتحاليل، وقد بدأوا بإجرائها أمس. لقد أجروا لك فحصًا مؤلمًا جدًّا للتأكُّد من حالة الأعصاب السطحيَّة. قدتك على نقَّالة عبر متاهة المستشفى حتى وصلت بك إلى بناء آخر، وقاموا هناك بوخز ذراعيك وساقيك بالإبر، ثم عرّضوك لصعقات كهربائيَّة لقياس استجابتك. لقد تحمَّلنا ذلك كلّه معًا: أنت في ضباب اللاوعي، وأنا مفكّرة في كلّ الرجال والنساء والأطفال الذين تعرَّضوا للتعذيب بأساليب مماثلة في تشيلي، بوخزهم بمجسّات كهربائيَّة. وكلَّما سرى التيَّار في جسدك كنت أشعر به في جسدي وقد زاده الرعب هولًا. حاولت أن أسترخي وأتنفَّس معك، بإيقاع أنفاسك نفسه، مقلِّدةً ما تفعله سيليا ونيكولاس معًا في دورات التدريب على الولادة الطبيعيَّة؛ الألم أمر لا مفرّ منه لمن يمرّ في هذه الحياة، ولكنَّهم يقولون إنَّه يصبح غير محتمل إذا لم يواجَه بصمود وإذا لم يُضَف إليه الخوفُ والغمّ.

لقد أنجبت سيليا وليدها الأوَّل في كاراكاس وهي مغيَّبة بأدوية التخدير، ووحيدة لأنَّهم لم يسمحوا لزوجها بالدخول إلى جناح التوليد. ولم تكن هي ولا مولودها بطلي الحدث، بل كان البطل هو الطبيب، فذلك الكاهن المتسربل بالبياض والملثَّم، هو الذي حدَّد طريقة الحدث وموعده، وقد أَتَمَّ الولادة في اليوم المناسب في رزنامته، لأنَّه كان يرغب في الذهاب إلى شاطئ البحر في نهاية الأسبوع، وهذا جرى أيضًا عندما وضعتُ ابني منذ أكثر من عشرين عامًا. لقد تبدَّل الأسلوب قليلًا كما رأيت. منذ بضعة شهور أخذتُ

كنّتي للتنزُّه في غابة، وبين أشجار السرو الشامخة وخرير الماء، ألقيت عليها موعظة عن فنِّ القابلات القديم، وعن الولادة الطبيعيَّة، وعن الحقّ في عيش هذه التجربة بكلِّ تفاصيلها، بحيث تجسِّد الأمّ السلطة الأنثويَّة في الكون. استمعتْ إلى خطبتي الطويلة من دون تأثُّر، وكانت تنظر إليّ من حين إلى آخر نظرة بليغة بطرف عينها. لقد كانت تحكم عليّ من الملابس الطويلة التي أرتديها، ومن مخدَّة التأمُّل التي أحملها معي في السيَّارة، وتعتقد أنَّني قد تحوَّلت إلى مبشِّرة للعصر الجديد. فقبل أن تتعرَّف إلى نيكولاس، كانت تنتمي إلى منظَّمة كاثوليكيَّة يمينيَّة متطرِّفة، ولم يكن التدخين أو ارتداء البنطال مسموحًا لها، وكانت تقرأ كتبًا وترى أفلامًا سينمائيَّة مراقَبة، وكان اتِّصالها بالجنس الآخر يقتصر على الحدود الدنيا، وكلّ لحظة من حياتها كانت مبرمَجة. لقد كان على الرجال في تلك الطائفة أن يناموا مرَّة كلّ أسبوع على لوح خشبيّ كي يكبحوا شهوات الجسد. أمّا النساء، فكنّ يفعلن ذلك كلّ ليلة لأنَّ طبيعتهنَّ، بحسب افتراض الطائفة، أكثرُ مجونًا. وقد تعلَّمت سيليا استخدام سَوْط وحزام ذي أشواك معدنيَّة من صنع راهبات الكانديلاريا، كي تتدرَّب على نظام محبَّة الخالق وتصفِّي حساب ذنوبها وذنوب الآخرين. ولم يكن يجمعني معها، قبل ثلاث سنوات، إلّا القليل، فقد نشأتْ على مفاهيم ازدراء اليساريِّين والشاذِّين جنسيًّا والفنَّانين والناس الذين ينتمون إلى أجناس وظروف اجتماعيَّة مختلفة، وقد أنقذنا تعاطف متبادل، إلى أن تجاوزت الحواجز في نهاية المطاف، ثم تولَّى القدِّيس فرانثيسكو إكمال الباقي، وراحت أحكامها المسبقة تتهاوى واحدًا فواحدًا، فتحوَّل الحزام والسوط إلى مادَّة للتندُّر في الأُسرة، وبذلت جهدها لتقرأ في السياسة والتاريخ، وانقلبت

أفكارها في أثناء ذلك، ثم تعرَّفت إلى شاذِّين جنسيًّا، ولاحظت أنَّهم ليسوا تجسيدًا للشياطين كما قيل لها، وانتهى بها الأمر كذلك إلى تقبُّل أصدقائي الفنَّانين، بالرَّغم من أنَّ بعضهم كانوا يتزيَّنون بأقراط تتدلَّى من أنوفهم وبعرف من الشعر الأخضر في منتصف رؤوسهم الحليقة. أمَّا العنصريَّة فتخلَّصت منها قبل انقضاء أسبوع حين علمت بأنَّنا لا نُعتبر من البيض في الولايات المتَّحدة، وإنَّما نحن «هيسبانيُّون» هناك، ونحتلّ أدنى مرتبة في السلّم الاجتماعي. لم أحاول قطّ فرض أفكاري عليها، لأنَّها لبؤة متوحِّشة لا تطيق ذلك، ولا تتبع إلَّا الدروب التي تشير إليها غريزتها وذكاؤها، ولكنَّني لم أستطع تجنُّب ذلك يومئذ في الغابة، ومارست معها أفضل خِدَع الخطابة التي تعلَّمتها من العمِّ رامون لأقنعها بالبحث عن طرائق أخرى لوضع مولودها، تكون أقلّ سريريَّة وأكثر إنسانيَّة. ولدى عودتنا إلى البيت، وجدنا نيكولاس ينتظر عند الباب. «اطلب من أمّك أن توضح لك أمر «الموسيقى الكونيَّة» هذا»، هكذا همست إلى زوجها هذه الكنَّةُ قليلة الوقار. ومنذ ذلك الحين صرنا نشير إلى ولادة أندريا بعبارة «الموسيقى الكونيَّة». وعلى الرَّغم من الارتياب الأوَّليّ، فإنَّهما وافقا على اقتراحي، وهما يخطِّطان الآن لإنجاب الطفلة مثل الهنود. وسيكون عليّ أن أقنعك فيما بعد بأن تفعلي الشيء نفسه، يا باولا. إنَّك بطلة هذا الداء، وعليك أن تخرجي إلى النور صحَّتَك نفسها، من دون خوف، وبقوَّة. ربَّما تكون هذه فرصة خلَّاقة، مثل وضع سيليا لمولودها. ستتمكَّنين من الولادة لحياة أخرى عبر الألم، وستجتازين العتبة، وتترعرعين.

كنت أنا وأرنستو وحدنا، يوم أمس، في مصعد المستشفى عندما

صعدت معنا امرأة لا يمكن وصفها. إنَّها واحدة من تلك المخلوقات التي لا تملك أيَّ ملامح مميَّزة، بلا سِنّ وبلا مظهر محدَّد؛ مجرَّد ظلّ. ولاحظتُ، بعد ثوان قليلة، أنَّ صهري قد فَقَدَ لونه. كان يتنفَّس بشراهة وهو مغمض العينين ويستند إلى الجدار كي لا يسقط على الأرض. تقدَّمتُ خطوة في اتِّجاهه لمساعدته، وفي هذه اللحظة توقَّف المصعد وغادرته المرأة. كان علينا نحن أيضًا أن نغادر المصعد، لكن أرنستو شدَّني من ذراعي وأوقفني، ثم أغلق باب المصعد وبقينا داخله. تنبَّهت عندئذ إلى رائحة العطر، يا باولا. كانت الرائحة واضحة ومفاجئة مثل صرخة، وأدركت معنى ردَّة فعل زوجك. ضغط زرّ إيقاف المصعد وبقينا نحن بين طابقين نتنشَّق آخر آثار رائحتك تلك التي نعرفها جيِّدًا، بينما كان يسيل على وجهه نهرٌ من الدموع. لست أدري كم من الوقت بقينا في تلك الحال، إلى أن بدأت تُسمَع طرقات وصرخات من الخارج، ضغطت عندئذ زرًّا آخر وبدأنا بالنزول. خرجنا متعثِّرين، وكان يترنَّح، وكنت أسنده أمام نظرات الناس المرتابة في الممرّ. اقتدته إلى كافيتيريا وجلسنا مرتعشين قبالة فنجان من الشوكولاتة.

قال لي:

ـ أصبحتُ شبه مجنون. لا أستطيع التركيز في عملي. أرى أرقامًا على شاشة الحاسوب فأظنّها كتابة صينيَّة، يحدِّثونني فلا أردّ، وأعيش ساهيًا بطريقة لا أدري معها كيف يتحمَّلونني في المكتب، وأقترف أخطاء مريعة. إنَّني أشعر بأنَّ باولا بعيدة جدًّا! لو تدرين كم أحبّها وأحتاج إليها... لقد فقدتْ حياتي اللونَ من دونها وأصبح كلّ شيء رماديًّا. إنَّني أنتظر دائمًا أن يرنّ الهاتف، وأن تكوني أنت على الجانب الآخر من الخطّ لتخبريني بصوت صاخب بأنَّ باولا قد

استيقظت وطلبت الاتّصال بي. عندما تأتي هذه اللحظة سأشعر بسعادة عظيمة كتلك التي شعرت بها يوم تعرَّفت إليها وأحبَّ كلٌّ منّا الآخر من النظرة الأولى.

ـ إنَّكَ في حاجة إلى أن تشغل نفسك بشيء يا أرنستو، فهذا الذي تعيشه عذاب لا يُطاق. عليك أن تحرق شيئًا من طاقتك.

ـ إنَّني أركض، وأحمل الأثقال، وأمارس التايكواندو. ولكن، ليس هناك ما يخفِّف عنِّي. هذا الحبّ مثل الثلج والنار.

ـ اعذرني لكوني صريحة جدًّا... ألم تفكِّر في أنَّه يمكنك الخروج مع فتاة ما.

ـ مَن يصدِّق أنَّك حماتي يا إيزابيل! لا، لا يمكنني لمس أيّ امرأة أخرى. لست أرغب في أحد سواها. لا أجد أيّ معنى لحياتي من دون باولا. ما الذي يريده الربُّ منّي؟ لماذا يعذِّبني بهذه الطريقة؟ لقد وضعت وإيَّاها خططًا كثيرة. تحدَّثنا عن أنَّنا سنشيخ معًا، وسنواصل ممارسة الحبِّ حتى سنِّ التسعين، وتحدَّثنا عن الأماكن التي سنزورها، وكيف سنصبح الحلقةَ المركزيَّة في عائلة كبيرة جدًّا ونمتلك بيتًا مفتوحًا للأصدقاء على الدوام. أتعلمين بأنَّ باولا كانت تفكِّر في إنشاء ملجأ للمسنِّين الفقراء؟ كانت تريد أن تقدِّم إلى مسنِّين آخرين الرعاية التي لم تستطع تقديمها إلى غراني.

ـ هذه أصعب محنة في حياتيكما، لكنَّكما ستتجاوزانها يا أرنستو.

ـ إنَّني متعب جدًّا...



لقد مرّ من حجرتك للتوّ أستاذ في الطبّ مع جماعة من الطلّاب. إنَّه لا يعرفني، وتمكَّنتُ، بفضل الرداء والخفّ الأبيضين، من البقاء بينما هم يفحصونك. وقد احتجت إلى كلّ هدوء الأعصاب الذي اكتسبته بقسوة في المدرسة في لبنان كي أحافظ على مظهر عدم المبالاة، بينما كانوا يقلّبونك من دون احترام، كما لو كنتِ مجرَّد جثَّة، ويتكلَّمون على حالتك كأنَّك لا تستطيعين سماعهم. قالوا إنَّ الشفاء يحدث عادة في الشهور الستَّة الأولى، وإنَّه قد مضى عليك أربعة شهور، وإنَّك لن تتحسَّني كثيرًا، وقد تبقين لسنوات على هذه الحال، ولا يمكن تخصيص سرير في المستشفى لمريض لا أمل في شفائه، وإنَّهم سيرسلونك إلى إحدى المؤسَّسات، وأعتقد أنَّهم يعنون بذلك مأوًى أو ملجأً للحالات الميؤوس منها. لا تصدِّقي شيئًا ممَّا قالوه، يا باولا. إذا كنت تفهمين ما تسمعينه، فأرجوك أن تنسي كلّ ما قالوه. لن أتخلَّى عنك أبدًا، ستخرجين من هنا إلى مصحّ لإعادة التأهيل، وبعد ذلك إلى البيت. لن أسمح بأن يواصلوا تعذيبك بإبر كهربائيَّة وبتشخيصات كالنقش على الأحجار. كفى. ليس صحيحًا أيضًا أنَّه لم يطرأ أيّ تغيّر على حالتك. إنَّهم لا يلحظون ذلك، لأنَّهم نادرًا ما يأتون إلى غرفتك. أمّا نحن الذين نبقى إلى جانبك دومًا، فيمكننا أن نتأكَّد من تحسُّن حالتك. إنَّ أرنستو يؤكِّد أنَّك تتعرَّفين إليه، إنَّه يجلس إلى جوارك، ويبحث عن عينيك، ويحدِّثك بصوت خافت، فأرى كيف تتبدَّل ملامحك. تهدئين، وتبدين أحيانًا منفعلة، تترقرق دموع في عينيك، وتتحرَّك شفتاك كأنَّك تريدين قول شيء، أو ترفعين يدك قليلًا جدًّا كأنَّك تريدين مداعبته. الأطبَّاء لا يصدِّقون ذلك، وليس لديهم الوقت أيضًا لمراقبتك، إنَّهم لا يرون سوى مريضة مشلولة

ومتشنِّجة لا تحرِّك حتى رموشها عندما يصرخون باسمها.

وعلى الرَّغم من البطء المريع في تحسُّن حالتك، فإنَّني أعرف أنَّك تخرجين خطوة خطوة من الهوَّة التي كنت ضائعة فيها منذ شهور عديدة، ولا بدَّ من أنَّك ستصلين إلى الحاضر في يوم قريب. إنَّني أكرِّر ذلك مرَّة بعد أخرى، ولكنَّ الآمال تخذلني في بعض الأحيان. لقد فاجأني أرنستو وأنا ساهية على الشرفة:

ـ فكِّري قليلًا، ما هو أسوأ ما يمكن أن يحدث؟

ـ ليس الموت هو الأسوأ يا أرنستو، وإنَّما بقاء باولا على ما هي عليه.

ـ وهل تظنِّين أنَّنا سنحبّها أقلّ من أجل ذلك؟

وزوجك على حقّ كالعادة. لن يكون حبّنا لك أقلّ، وإنَّما أكثر بكثير. وسوف ننظِّم أنفسنا. سنُقيم مستشفًى في البيت، وعندما أغيب أنا سيتولَّى رعايتك زوجك أو أخوك أو أحفادي. سنرتِّب ذلك، فلا تقلقي يا ابنتي.

أصل إلى الفندق كلّ ليلة وأغرق في الصمت الهادئ الذي لا بدَّ منه كي أستردّ قواي التي تبدَّدت في جلبة المستشفى. أناس كثيرون يزورون صالتك كلّ مساء. هنالك حرّ وفوضى، ودائمًا هناك من يتجرَّأ على التدخين، بينما المرضى يختنقون. لقد تحوَّلت غرفتي في الفندق إلى ملجأ مقدَّس يمكنني فيه أن أرتِّب أفكاري وأكتب. يتَّصل ويللي وسيليا بي هاتفيًّا كلّ يوم من كاليفورنيا، وتكتب أمِّي إليّ باستمرَّار. إنَّني أنعم برفقة طيِّبة. لو أنَّني أستطيع الاستراحة فسأشعر بقوَّة أكبر، ولكنَّني أنام نومًا متقطِّعًا، وكثيرًا ما تكون الأحلام المزعجة أكثر حياة

من الواقع. إنَّني أستيقظ ألف مرَّة كلّ ليلة تحت وطأة الكوابيس والذكريات.

تمرَّدت البحريَّة، في الحادي عشر من أيلول ١٩٧٣، ثم تبعها بعد ذلك على الفور تقريبًا سلاحُ الطيران، وأخيرًا قوَّاتُ الدرك، وهي الشرطة التشيليَّة. جرى تحذير الرئيس سلڤادور ألليندي فورًا، فارتدى ملابسه على عَجَل، وودَّع زوجته، ومضى إلى مكتبه مصمِّمًا على تنفيذ ما كان يقوله دائمًا: لا يمكنهم أن يُخرجوني حيًّا من قصر لامونيدا. وقد سارعت ابنتاه، إيزابيل وناتي التي كانت حبلى آنذاك، إلى الخروج مع أبيهما. وما إن انتشر الخبر المشؤوم حتى هرع إلى قصر الرئاسة وزراء وأمناء وموظَّفون وأطبَّاء موثوقون، وبعض الصحافيِّين والأصدقاء. حشد صغير كان يتنقَّل في صالات القصر على غير هدًى من دون أن يعرف ما الذي يجب عمله، فقد كانوا يرتجلون تكتيكات للمعركة، ويعزِّزون أقفال الأبواب بوضع قطع الأثاث وراءها بحسب تعليمات حرَّاس الرئيس المشوَّشة. وتعالت أصوات مقترحة أنَّ الساعة قد أزفت لدعوة الشعب إلى مظاهرة حاشدة للدفاع عن الحكومة، لكنَّ ألليندي قدَّر أنَّ ذلك سيؤدِّي إلى مقتل الآلاف. وكان، في أثناء ذلك، يحاول إقناع المتمرِّدين عبر المراسلين والمكالمات الهاتفيَّة، لأنَّ أيًّا من الجنرالات العصاة لم يتجرَّأ على مقابلته وجهًا لوجه. وتلقَّى حرَّاس القصر الأوامر من قادتهم بالانسحاب لأنَّ قوَّات الدرك كانت قد انضمَّت كذلك إلى الانقلاب، فتركهم الرئيس يذهبون، لكنَّه طلب منهم تسليم أسلحتهم. بقي القصر من دون حماية، وأبوابه الخشبيَّة الضخمة المرصَّعة بدوائر حديديَّة أُغلقت من الداخل. أدرك ألليندي

بعد الساعة التاسعة صباحًا بقليل أنَّ كلّ براعته السياسيَّة لن تتمكَّن من تحويل المسار التراجيدي لذلك اليوم. والحقيقة أنَّ الرجال المحبوسين في المبنى الكولونياليّ القديم كانوا وحيدين، ولن يذهب أحد لإنقاذهم، فالشعب أعزل وبلا قادة يوجِّهونه. أمر النساء بالخروج، ووزَّع حرَّاسه الأسلحة على الرجال، ولكنّ قليلين منهم كانوا يعرفون كيفيَّة استخدامها. وكانت الأخبار قد وصلت إلى العمّ رامون في سفارته في بوينس أيريس، وتمكَّن من التحدُّث بالهاتف إلى الرئيس، وقد ودَّع ألليندي صديقه المقرَّب طوال سنوات بالقول: «لن أستقيل، لن أخرج من قصر لامونيدا إلَّا عندما تنتهي فترة رئاستي، أو عندما يطلب منّي الشعب ذلك، أو ميِّتًا». كانت الوحدات العسكريَّة، في أثناء ذلك، تسقط في أيدي الانقلابيّين، واحدة بعد الأخرى، وبدأت في الثكنات عمليَّاتُ التطهير ضدَّ أولئك الذين حافظوا على ولائهم للدستور، وكان أوَّل من جرى إعدامهم رميًا بالرصاص في ذلك اليوم هم من ذوي الزيّ العسكريّ. كان القصر محاصَرًا بالجنود والدبَّابات، وسُمعت أصوات طلقات ناريَّة متفرِّقة، ثم دويٌّ قذيفة اخترقت الجدران القديمة السميكة وأحدثت حريقًا في الأثاث والستائر في الطابق الأوَّل. خرج ألليندي إلى الشرفة وهو يضع خوذة ويحمل بندقيَّة، وأطلق نحو زخَّتين من الرصاص، ولكن سرعان ما أقنعه أحدهم بأنَّ ما يفعله هو الجنون، وأجبره على الدخول. تمَّ الاتفاق على هدنة قصيرة من أجل إخراج النساء، وطلب الرئيس من جميع من كانوا معه أن يستسلموا، ولكنّ قليلين هم الذين فعلوا ذلك، واتَّخذ معظمهم مواقع قتاليَّة في صالونات الطابق الثاني، بينما كان الرئيس يودِّع النساء الستّ اللواتي ما زلن إلى جواره. لم تشأ ابنتاه المغادرة، ولكنَّ النهاية كانت قد

أصبحت واضحة في تلك اللحظة، فجرى إخراجهما بالقوَّة بأمر من أبيهما. خرجتا وسط تلك الفوضى إلى الشارع وسارتا من دون أن يعتقلهما أحد، إلى أن أخذتهما سيَّارة وأوصلتهما إلى مكان آمن. لم تستطع تاتي التخلُّص من آلام ذلك الوداع ومصرع أبيها، أكثر رجل أحبَّته في حياتها. وبعد ثلاث سنوات من ذلك، وهي في منفاها في كوبا، عهدت بأبنائها إلى إحدى صديقاتها وقتلت نفسها برصاصة من دون أن تودِّع أحدًا. الجنرالات الذين لم يتصوَّروا مثل ذلك الصمود، لم يعودوا يعرفون كيف يتصرَّفون، ولم يكونوا يرغبون في الوقت نفسه في تحويل ألليندي إلى بطل، فعرضوا عليه طائرة تحمله مع أسرته إلى المنفى. فكان ردّه على ذلك: لقد أخطأتم بالرجل أيُّها الخَوَنة. أخبروه عندئذ بأنَّهم سيبدأون القصف الجوِّي. لم يبقَ أمامه إلَّا قليل جدًّا من الوقت. توجَّه الرئيس للمرَّة الأخيرة إلى الشعب من جديد من خلال محطَّة البثّ الإذاعي الوحيدة التي لم تكن قد سقطت بعد في أيدي العسكريين المتمرِّدين. كان صوته هادئًا وثابتًا، وكلماته حازمة جدًّا، حتى إنَّ ذلك الوداع لم يكن يبدو كأنَّه النَّفَس الأخير لرجل ذاهب إلى الموت، وإنَّما تحيَّة جديرة بمن سيدخل التاريخ إلى الأبد: «من المؤكَّد أنَّه سيتمّ إسكات إذاعة ماغبيانس، ولن يصل معدن صوتي الهادئ إليكم. ليس مهمًّا. ستواصلون سماعه، لأنَّني سأكون معكم دائمًا. ستكون ذكراي على الأقلّ ذكرى رجل جدير، كان وفيًّا لوفاء الشغِّيلة... إنَّهم يملكون القوَّة ويستطيعون قهرنا، ولكنَّ التحوُّلات الاجتماعيَّة لا يمكن وقفها بالجريمة ولا بالقوَّة. فالتاريخ لنا والشعوب هي التي تصنعه... يا عمَّالَ وطني، إنَّني مؤمن بتشيلي وقدَرها. سيتجاوز أُناس آخرون هذه اللحظةَ الرماديَّة والمريرة، حيث الخيانةُ

تسعى لفرض نفسها. فاعلموا جميعكم بأنَّه عاجلًا وليس آجلًا ستتفتَّح دروب فسيحة تحفّ بها أشجار الحَوْر ليعبر منها الرجال الأحرار من أجل بناء مجتمع أفضل. تحيا تشيلي! يحيا الشعب! يحيا الشغِّيلة!».

حامت القاذفات مثل طيور مشؤومة فوق قصر لامونيدا، ملقيةً حمولتها بدقَّة كبيرة أدخلت معها القنابل المتفجِّرة من النوافذ، وخلال أقلّ من عشر دقائق كان جناح كامل من المبنى يحترق، بينما كانت الدبَّابات تقذف من الشارع قنابل الغاز المسيل للدموع. وفي الوقت نفسه، كانت طائرات ودبَّابات أخرى تهاجم المنزل الرئاسيّ في الحيّ العُلويّ. أحاطت النيران والدخَّان بالطابق الأوَّل من القصر، وبدأت تصل إلى صالات الطابق الثاني حيث ما زال يتمترس سلفادور ألليندي مع عدد محدود من أتباعه. كانت هناك أجساد ملقاة في كلّ مكان، وجرحى ينزفون بسرعة. ومن بقوا على قيد الحياة كانوا يختنقون من الدخان والغازات، ولم يعودوا قادرين على إسماع أصواتهم وسط أزيز الرصاص وهدير الطائرات ودويّ القنابل. دخلت قوَّات الاقتحام العسكريَّة من الثغرات التي فتحتها النيران، واحتلَّت الطابق الأرضيّ المشتعل، وأمرت بمكبِّرات الصوت الموجودين بالنزول على سلّم حجريّ خارجيّ يؤدّي إلى الشارع. أدرك ألليندي أنَّ أيّ مقاومة ستنتهي بمجزرة فأمر بالاستسلام، لأنَّهم سيكونون أكثر جدوى للشعب وهم أحياء ممَّا سيكونونه بموتهم. ودَّع كلّ واحد منهم بالضغط بشدَّة على يده، وهو ينظر إلى عيونهم. وخرجوا في صفّ واحد وهم يرفعون أيديهم. استقبلهم الجنود بأعقاب البنادق والركلات، ودحرجوهم من أعلى الدرج ثم أفقدوهم الوعي في الأسفل من الضرب قبل أن يسحبوهم إلى الشارع، وهناك طرحوهم على بطونهم فوق الرصيف،

بينما كان أحد الضبَّاط يصرخ متوعِّدًا بهستيريَّة بأنَّهم سيجعلون الدبَّابات تمشي فوقهم. بقي الرئيس حاملًا البندقيَّة إلى جانب العلم التشيليّ الممزَّق والملطَّخ بالدم في الصالة الحمراء المحطَّمة. اندفع الجنود إليه بأسلحتهم الجاهزة لإطلاق النار، وتقول الرواية الرسميَّة إنَّه وضع سبطانة السلاح تحت ذقنه وأطلق النار فهشَّمت الرصاصة رأسه.

في يوم الثلاثاء ذاك، الذي لا يُنسى، خرجتُ من بيتي إلى المكتب كعادتي كلَّ صباح، وقد خرج ميشيل أيضًا، وأظنّ أنَّ الطفلين قد ذهبا بعد ذلك بقليل سيرًا على الأقدام إلى المدرسة وهما يحملان حقيبتيهما على ظهريهما، من دون أن يدريا أنَّ الدراسة قد توقَّفت. لاحظت، بعد كوادرات قليلة، أنَّ الشوارع تكاد تكون مقفرة. كانت هناك بعض ربّات البيوت الحائرات يقفن أمام المخابز المغلقة، وبعضُ العمَّال الذين يمشون حاملين زوَّادة غدائهم تحت آباطهم لأنَّ الحافلات لا تمرّ، وكانت السيَّارات العسكريَّة وحدها هي التي تجوب الشوارع، وتبدو سيَّارتي المزركشة برسوم أزهار وأُناس مسالمين أشبهَ بسخرية وسط تلك السيَّارات العسكريَّة. لم يوقفني أحد. ولم يكن لديَّ مذياع لسماع الأخبار، وحتى لو كان لديَّ مذياع فما كنت سأعرف شيئًا، لأنَّ كلّ الأخبار كانت تخضع للرقابة آنذاك. فكَّرتُ في المرور ببيت جدّي لتحيَّته، ولربَّما كان يعرف أيَّ أمور شيطانيَّة تحدث، لكنَّني لم أشأ إزعاجه في ذلك الوقت المبكر. واصلت طريقي نحو المكتب يراودني إحساس بأنَّني ضائعة بين صفحات إحدى روايات الخيال العلميّ التي كانت تستهويني كثيرًا في مراهقتي، وكانت المدينة تبدو متجمِّدة في كارثة كوكب آخر. وجدت بوَّابة دار النشر مقفلة بسلسلة وقفل، ومن

خلال الزجاج أشار إليَّ البوَّاب بأن أنصرف. لقد كان رجلًا مكروهًا يتجسَّس على العاملين لمحاسبتهم على أدنى هفوة. وفكَّرت: هذا انقلاب عسكريّ، إذًا. واستدرت راجعة لأذهب وأتناول فنجان قهوة مع الجدَّة هيلدا، وأتحدَّث معها عن الأحداث. وفي هذه الأثناء، سمعتُ هدير طائرات الهليكوبتر، وبعدها بقليل صوت هدير أولى الطائرات العسكريَّة التي مرَّت مزمجرة على ارتفاع منخفض.

كانت الجدَّة هيلدا تقف عند باب بيتها وتنظر إلى الشارع بمزاج مغموم، وما كادت ترى اقتراب سيَّارتي المزركشة التي تعرفها جيِّدًا، حتى هرعت للقائي بالأخبار السيِّئة. كانت خائفة على زوجها، أستاذ اللغة الفرنسيَّة المتفاني، والذي خرج في وقت مبكر جدًّا إلى عمله ولم تعد تعرف شيئًا عنه. تناولنا قهوة مع خبز محمَّص، ونحن نحاول الاتِّصال به، لكن أحدًا لم يكن يردّ على الهاتف. تحدَّثتُ مع غرانيَ التي لم تكن تعرف شيئًا، ومع الطفلين اللذين كانا يلعبان باطمئنان، ولم يبدُ لي الوضع مثيرًا للمخاوف، وخطر في بالي أنَّه يمكنني قضاء فترة ما قبل الظهر في الخياطة مع الجدَّة هيلدا، ولكنَّها كانت قلقة جدًّا. فالمدرسة التي يُعلِّم فيها زوجها في وسط المدينة، على بعد كوادرات قليلة من قصر لامونيدا. وكانت قد علمت، من خلال محطَّة الإذاعة الوحيدة التي ما زالت تبثّ الأخبار، بأنَّ الانقلابيين قد احتلُّوا ذلك القطاع من المدينة. وكانت الجدَّة هيلدا تتلعثم قائلة: «هناك إطلاق نار، إنَّهم يقتلون الناس. يُقال إنَّه يجب عدم الخروج إلى الشارع بسبب الرصاص الطائش. لقد اتَّصلت بي صديقة تعيش في مركز المدينة، وقالت إنَّهم يرون قتلى وجرحى وشاحنات مزدحمة بالمعتقلين، يبدو أنَّ هناك حظرًا للتجوُّل. أتعرفين ما الذي يعنيه هذا؟»

فأجبت: «لا، لست أعرف». وبالرَّغم من أنَّ قلقها بدا لي مبالغًا فيه، ومن أنَّني كنت قد تجوَّلت من دون أن يتعرَّض لي أحد بأيِّ إزعاج، فإنَّني عرضت عليها أن أذهب للبحث عن زوجها. وبعد أربعين دقيقة كنت أوقف سيَّارتي أمام المدرسة، ودخلت من الباب الموارب، ولم أجد هناك أحدًا أيضًا. كان الصمت يُخيِّم على الباحة وقاعات الدرس. خرج بوّاب عجوز يجرّ قدميه، وأشار لي إلى المكان الذي فيه صديقي. غير ممكن، لقد تمرَّد العسكريُّون! هذا ما كان يردِّده غير مصدِّق. وفي إحدى قاعات الدرس، وجدت الأستاذ جالسًا أمام السبّورة، وعلى الطاولة رزمة من الأوراق ومذياع مفتوح، وكان يضع وجهه بين كفَّيه ويبكي. قال لي: «اسمعي». وهكذا سمعت آخر كلمات الرئيس ألليندي، ثم صعدنا إلى أعلى طابق في المبنى، حيث كانت تظهر لنا أسطح قصر لامونيدا، وانتظرنا هناك من دون أن نعرف ما الذي ننتظره، لأنَّه لم يعد ثمَّة أخبار، فجميع محطَّات البثّ الإذاعي كانت تبثّ موسيقًى عسكريَّة. وعندما رأينا مرور الطائرات على ارتفاع منخفض، وسمعنا دويَّ القنابل وشاهدنا ارتفاع عمود دخانيّ نحو السماء، خُيِّل إلينا أنَّنا في حلم مشؤوم. لم نستطع أن نصدِّق أنَّهم سيتجرَّؤون على قصف قصر لامونيدا، قلب الديموقراطيَّة التشيليَّة. وتساءل صديقي بصوت مكسور: «ماذا حلّ بالرفيق ألليندي؟» فقلت: «لن يستسلم أبدًا». وأدركنا أخيرًا عندئذ حجمَ المأساة وحجم الخطر اللذين يواجهاننا، فودَّعنا البوّاب الذي رفض مغادرة موقعه، واستقللنا سيَّارتي، وانطلقنا في اتِّجاه الحيّ العالي عبر شوارع جانبيَّة، متفادين الجنود. ولست أفهم كيف استطعنا الوصول من دون مصاعب حتى بيته، ولا كيف قطعت الطريق بعد ذلك إلى بيتي، حيث وجدت ميشيل

قلقًا جدًّا والصغيرين سعيدين بهذه العطلة المدرسيَّة غير المنتظرة.

وعند الأصيل، علمت من خلال مكالمة سرِّيَّة، بأنَّ سلفادور أللبندي قد مات.

كانت خطوط الهاتف مشغولة جدًّا، وكانت الاتِّصالات الدوليَّة شبه مقطوعة، ولكنَّني تمكَّنت مع ذلك من الاتِّصال بأبوَيّ في بوينس أيريس لأُطلعهما على الخبر الرهيب. لكنَّهما كانا يعرفان بالأمر، فالرقابة المفروضة في تشيلي لم تكن تسري على بقيَّة أنحاء العالم. أنزل العمّ رامون في ذلك اليوم العَلَم عن السفارة إلى منتصف السارية، إشارة إلى الحداد، وقدَّم إلى المجلس العسكريّ على الفور استقالته التي لا رجعة عنها. وقام مع أمِّي بتنظيم قائمة دقيقة وصارمة بالممتلكات العامَّة في مقرّ إقامتهما، ثم سلَّما السفارة بعد يومين من ذلك. وهكذا انتهت بالنسبة إليهما تسعٌ وثلاثون سنة من الحياة الدبلوماسيَّة. لم يكونا مستعدِّين للتعاون مع المجلس العسكريّ، وفضلًا على ذلك حياة القلق والمجهول. كان العمّ رامون آنذاك في السابعة والخمسين، وكانت أمِّي أصغر منه بخمس سنوات، وكلاهما كان يشعر بقلبه يتحطَّم، فبلدهما قد سقط في هوَّة جنون العنف، وأسرتهما مشتَّتة، وأبناؤهما بعيدون، وأصدقاؤهما ميِّتون أو منفيُّون. وهما، يومذاك، بلا عمل وبموارد قليلة في مدينة أجنبيَّة، بدأت تظهر فيها كذلك مظاهرُ رعب الدكتاتوريَّة وبداية ما سيعرف فيما بعد بـ «الحرب القذرة». ودَّعا العاملين في السفارة الذين أظهروا لهما المحبَّة والاحترام حتى اللحظة الأخيرة، وأمسك كلٌّ منهما بيد الآخر

وخرجا مرفوعيَ الرأس. كان هناك حشد من الناس في الحديقة يردِّد شعارات «الوحدة الشعبيَّة»، وآلافُ الشباب والشيوخ، والرجال والنساء والأطفال يبكون موت سلفادور ألليندي وموت أحلامهم في العدالة والحرِّيَّة. لقد تحوَّلت تشيلي إلى رمز.

* * *

انفلت الرعب من عقاله في يوم الثلاثاء ذاك بالذات عند الفجر، ولكنَّ البعض لم يعلموا بذلك إلَّا بعد عدَّة أيَّام، واحتاج غيرهم إلى وقت أطول بكثير كي يقرُّوا بذلك. وعلى الرَّغم من جلاء الأمور، فإنَّ حفنة من ذوي الامتيازات استطاعت أن تتجاهل وجود الرعب طوال سبعة عشر عامًا، وما زالت تنكره حتى يومنا هذا. ظهر أربعة جنرالات من القوَّات المسلَّحة والدرك على شاشة التلفزيون ليوضحوا أسباب التحرُّك العسكريّ، وهو الاسم الذي أطلقوه على الانقلاب. وكانت، في أثناء ذلك، عشراتُ الجثث تطفو في نهر موبوتشو الذي يخترق المدينة، ومئاتُ المعتقلين يُحشَرون في الثكنات والسجون ومعسكرات الاعتقال الجديدة التي أُقيمت خلال أيَّام قليلة على امتداد البلد كلِّه. كان يبدو أنَّ أكثرَ جنرالات المجلس عنفًا هو قائد الطيران، وأقلَّهم قيمة هو قائد الدرك، وأكثرَهم رماديَّة هو المدعو أوغسطو بينوشيه الذي لا يُعرف عنه إلَّا القليل. ولم يخطر لأحد عند ظهوره العلنيّ الأوَّل، أنَّ ذلك الرجل الذي له مظهر طيِّب جدًّا، سيتحوَّل إلى تلك الشخصيَّة المشؤومة ذات النظَّارةِ السوداء والصدرِ المرصَّع بالأوسمة والعباءةِ الإمبراطوريَّة البروسيَّة التي جابت العالم في صور فوتوغرافيَّة شديدة الإيحاء. فرض المجلس العسكريّ حظر التجوُّل ساعات طويلة، وكان في إمكان رجال القوَّات المسلَّحة وحدهم التجوُّل في الشوارع، وفتَّشوا

في أثناء ذلك المباني الحكوميَّة، والإداراتِ العامَّةَ، والمصارفَ، والجامعات، والمصانع، والقرى الفلَّاحيَّة، والأحياء السكنيَّة كلّها، بحثًا عن أنصار «الوحدة الشعبيَّة». وجرى على الفور اعتقالُ سياسيّين وصحافيّين ومثقَّفين وفنَّانين يساريّين، وتمَّ إعدام قادة عمَّاليِّين من دون أيِّ محاكمات. ولم تعد السجون تتَّسع لكلِّ المعتقلين، فحوَّلوا المدارس وملاعب كرة القدم إلى معتقلات. كنَّا محرومين من الأخبار، فالتلفزيون يبثّ أفلام رسوم متحرِّكة، والإذاعات تعزف المارشات العسكريَّة، وفي كلِّ لحظة يُصدرون بلاغات جديدة تتضمَّن أوامر اليوم، ثم يعود إلى الظهور على الشاشة الجنرالاتُ الأربعة الانقلابيّون، مع شعار الوطن ورايته على ستارة خلفيَّة. أوضحوا للمواطنين «الخطَّة زد»، والتي تقول إنَّه كان لدى الحكومة البائدة قائمةٌ سوداء لا حصر لها تضمّ آلاف المعارضين، وإنّها كانت تفكِّر في ذبحهم في الأيَّام التالية في مجزرة إبادة لا مثيل لها، ولكنَّهم استبقوا الأحداث للحيلولة دون ذلك. قالوا إنَّ الوطن كان بين أيدي قَتَلَة سوفيات ورجال حرب عصابات كوبيّين، وإنَّ ألليندي، المخمور، قد انتحر خجلًا، ليس بسبب إخفاق مساعيه فقط، وإنَّما لأنَّ القوَّات المسلَّحة الشريفة، بصورة خاصَّة، قد كشفت النقاب عن مستودعات أسلحته الروسيَّة، وغرفة مؤونته الممتلئة بالفراريج، وفساده، وسرقاته، ومجونه، وهو ما تثبته مجموعة صور بورنوغرافيَّة يمنع الحياء عرضها. وهدَّدوا مئات الأشخاص عبر الصحف والإذاعة والتلفزيون بتسليم أنفسهم إلى وزارة الدفاع، وقد استجاب بعض عديمي الحذر بطيب نيَّة ودفعوا الثمن غاليًا جدًّا. كان أخي بانتشو بين المطلوبين، لكنَّه نجا لأنَّه كان في مهمَّة دبلوماسيَّة في موسكو، حيث بقي محتجزًا هناك مع

أسرته لعدَّة سنوات. تمَّ احتلال بيت الرئيس بهجوم عسكريّ بعد قصفه، ولم تنجُ حتى ملابس الأسرة من النهب. واستولى بعض الجيران والجنود على الأشياء الشخصيَّة والوثائق الحميمة والأعمال الفنِّيَّة التي جمعها آل ألليندي طوال حياتهم، وأخذوها كتذكار. كان القمع شديد الوطأة في الأحياء العمَّاليَّة، وكان هناك في كلِّ أنحاء البلاد إعداماتٌ سريعة، ومعتقلون، وأُناسٌ تختفي آثارهم أو يخضعون للتعذيب، ولم يكن ثمَّة متَّسع لإخفاء كلّ ذلك العدد الكبير من الملاحَقين، ولا طريقةٌ لتأمين الطعام لآلاف الأُسر التي صارت من دون عمل. كيف ظهر فجأة كلّ ذلك العدد من الوشاة والمتعاونين والجلَّادين والقتلة؟ ربَّما كانوا موجودين دائمًا، ولم نستطع رؤيتهم. كما لا يمكننا أن نفسِّر الحقد الشرس الذي أظهرته الوحدات العسكريَّة المنحدرة من أدنى القطاعات الاجتماعيَّة وهي تعذّب الآن إخوتها الطبقيِّين.

لجأت أرملة ألليندي وبناته وبعض معاونيه المقرَّبين إلى سفارة المكسيك. وفي اليوم التالي للانقلاب العسكريّ، خرجت تينتشا بتصريح، وذهبت تحت حراسة عسكريَّة لتدفن زوجها سرًّا في قبر مجهول. لم يسمحوا لها برؤية جثَّته. وبعد وقت قصير، غادرت مع بناتها إلى المنفى في المكسيك، حيث استقبلهنَّ الرئيس المكسيكي بتشريف، وحماهنَّ بكرم الشعب المكسيكيّ كلّه. أمَّا الجنرال المعزول براتس، الذي رفض دعم الانقلابيِّين، فجرى إخراجه من تشيلي ونقله إلى الأرجنتين بعد منتصف الليل، لأنَّه كان يتمتَّع بسمعة راسخة في صفوف الجيش، وكانوا يخشون أن يقود انقلابًا محتملًا في القوَّات المسلَّحة، لكن هذه الفكرة لم تخطر في باله قطّ. وقد عاش في بوينس

أبريس حياة عزلة متواضعة، وكان له عدد محدود من الأصدقاء، منهم أبواي، وكان بعيدًا عن بناته ويخشى على حياته. وقد اعتصم في شقَّته، وبدأ يكتب بصمت مذكَّراته المريرة عن المرحلة الأخيرة.

صدر بلاغ عسكريّ، في اليوم التالي للانقلاب، بأمر برفع العَلَم على كلّ السطوح احتفالًا بانتصار الجنود الشجعان. الذين دافعوا ببطولة عن الحضارة المسيحيَّة ـ الغربيَّة في مواجهة المؤامرة الشيوعيَّة. توقَّفت سيَّارة جيب أمام بيتنا لمعرفة سبب عدم تنفيذنا الأمر. وقد أوضحنا أنا وميشيل للضابط صلة القرابة التي تربطني بالرئيس ألليندي، وقلنا له إنَّنا في حالة حِداد، وإنَّه يمكننا، إذا هو أراد، أن نعلِّق العلم منكَّسًا ونربطه بشريطة سوداء. وقف الضابط مفكِّرًا لحظة، وإذ إنَّه لم تكن لديه تعليمات بهذا الشأن، فقد انصرف من دون أيّ تعليق يستحقّ الذكر. كانت الوشايات قد بدأت، وكنَّا ننتظر الاستدعاء في أيّ لحظة لاتِّهامنا بجرائم لا نعرف عنها شيئًا، لكن ذلك لم يحدث، وربَّما كانت روح المحبَّة التي تبعثها غراني بين سكَّان الحيّ هي التي حالت دون ذلك. لقد علم ميشيل بأنَّ هناك عمَّالًا محتجزين في إحدى العمارات التي يشرف على بنائها، لم يستطيعوا الخروج في الصباح، ثم لم يتمكَّنوا من ذلك بسبب حظر التجوُّل فيما بعد، وقد كانوا معزولين هناك وبلا طعام. أخبرنا غراني بذلك، فتدبَّرت أمر اجتيازها الشارع وجاءت مع حفيديها، فأخرجنا بعض الأطعمة من مستودعنا، وخرجنا في السيَّارة ببطء سلحفاة، بحسب الأوامر التي يبثّها المذياع للخروج في الحالات الطارئة، وكنَّا نرفع منديلًا أبيض مثبَّتًا بعصًا من نافذة السيَّارة المفتوحة. أوقفونا خمس مرَّات، وكانوا في كلّ مرَّة يطلبون من ميشيل النزول، ويفتِّشون سيَّارة السيتروين المخلَّعة بفظاظة، ثم يسمحون لنا بمواصلة

المسير. لم يسألوني خلال تلك التوقُّفات شيئًا، بل إنَّهم لم يروني، وفكَّرت في أنَّ روح جدَّتي ميمي الحامية قد أخفتني عن عيونهم بعباءة الإخفاء، ولكنَّني أدركت بعد ذلك أنَّ النساء في الفطرة العسكريَّة لا يدخلن في الحسبان، اللَّهمَّ إلَّا كغنائم حرب. ولو أنَّهم تفحَّصوا وثائقي ورأوا كنيتي، لما استطعنا في الغالب أن نوصل سلَّة الطعام مطلقًا إلى العمَّال. لم نشعر في ذلك اليوم بالخوف لأنَّنا كنَّا لا نزال نجهل آليَّة القمع، وكنَّا نظنّ أنَّه يكفي أن نوضح أنَّنا لا ننتمي إلى أيّ حزب سياسيّ حتى نكون في منجًى من الخطر، لكنَّ الحقيقة انكشفت لنا بسرعة عندما رُفع حظر التجوُّل واستطعنا الاتِّصال بالآخرين.

لقد سرَّحوا من العمل في دار النشر على الفور كلَّ من كانت لهم مساهمة نشطة في «الوحدة الشعبيَّة»؛ وبقيت أنا تحت المراقبة. وديليا بيرغارا، الشاحبة إنَّما الحازمة، أعلنت ما كانت قد أعلنته قبل ثلاث سنوات: نحن سنواصل العمل كالمعتاد. لكنَّ الأمر كان مختلفًا مع ذلك هذه المرَّة، فقد اختفى عدد من معاوناتها، وكانت أفضل صحافيَّة في «الرفيق» تحاول بجنون أن تؤمِّن مخبأً لأخيها. وكان عليها هي نفسها أن تطلب اللجوء بعد ثلاثة أشهر من ذلك لتنتهي لاجئةً في فرنسا، حيث عاشت أكثر من عشرين سنة. وجمعت السلطات العسكريَّة مسؤولي الصحافة لإبلاغهم بأنظمة الرقابة الصارمة التي يتوجَّب عليهم العمل في ظلِّها. ولم تكن هناك موضوعات محظورة فحسب، وإنَّما كذلك كلماتٌ خطرة، مثل كلمة «رفيق» التي جرى محوها من اللغة المتداولة، وكلمات أخرى يجب استخدامها بأقصى درجات الحذر، مثل: الشعب؛ النقابة؛ التعاونيَّة الزراعيَّة؛ العدالة؛ العامل، وكلمات كثيرة أخرى مرتبطة بلغة اليسار. فكلمة ديموقراطيَّة

مثلًا لا يمكن استخدامها إلّا مضافة إلى صفة: الديموقراطيَّة المشروطة، أو التسلُّطيَّة، أو حتى الشموليَّة. وكان اتِّصالي المباشر الأوَّل مع الرقابة بعد أسبوع واحد من الانقلاب، عندما ظهرت في الأكشاك المجلَّةُ الشبابيَّة التي أرأس تحريرها، وعلى غلافها صورة لأربع غوريلات شرسة، وفي داخلها ريبورتاج مطوَّل عن هذه الحيوانات. فقد اعتبرت القوَّات المسلَّحة تلك الصورة تلميحًا مباشرًا إلى جنرالات المجلس العسكريّ الأربعة. لقد كنَّا نُحضِّر الصفحات الملوَّنة في العادة قبل شهرين من صدور العدد، أي أنَّ تلك الصور كانت جاهزة عندما كان مجرَّد التفكير في الانقلاب العسكريّ أمرًا بعيدًا جدًّا، وقد كانت صدفة غريبة أن ظهرت صورة الغوريلات على غلاف المجلَّة في ذلك الوقت بالذات. فما كان من صاحب المجلَّة الذي كان قد رجع إلى البلد بطائرته الخاصّة بعد وقت قصير من انقضاء فوضى الأيَّام الأولى، إلّا أن طردني من العمل، وعيَّن رئيس تحرير آخر، وهو الرجل نفسه الذي تمكَّن بعد قليل من إقناع المجلس العسكريّ بتغيير الخرائط، وذلك بقلب القارَّات رأسًا على عقب كي يظهر الوطن الفاضل في رأس الصفحة ولبس في مؤخّرتها، بوضع الجنوب في الأعلى وتوسيع المياه الإقليميَّة حتى آسيا. لقد فقدتُ عملي كرئيسة تحرير، وسرعان ما فقدت كذلك عملي في المجلَّة النسائيَّة، وهو ما لحق ببقيَّة أعضاء فريق المجلَّة، لأنَّ الدفاع عن المرأة في عيون العسكريِّين لا يقلّ خطرًا عن الماركسيَّة في زعزعة النظام. كان الجنود يقصُّون بالمقصَّات سراويل النساء في الشارع، لأنَّ الرجال وحدهم ـ بحسب رأيهم ـ هم الذين يحقّ لهم لبس البنطال، واعتُبرت شُعور الرجال الطويلة علامة على التخنُّث، وجرى حلق

اللحى خوفًا من أن تخفي وراءها شيوعيِّين. لقد رجعنا إلى أزمنة السلطة الذكوريَّة التي لا تقبل النقاش. وتحت إدارة جديدة، حدثت انعطافة حاسمة في المجلَّة حوّلتها إلى نسخة مكرورة عن عشرات المطبوعات النسائيَّة التافهة الأخرى. وعاد صاحب المؤسَّسة إلى تصوير مراهقاته الجميلات.

وضع المجلس العسكريّ، بمقتضى مرسوم خاصّ، حدًّا للاضطرابات والاحتجاجات، وأعاد الأرض إلى مالكيها السابقين، والمناجمَ إلى الأميركيِّين الشماليِّين، وفتح البلاد أمام الصفقات التجاريَّة ورأس المال الأجنبيّ، وباع الأحراج الوطنيَّة الألفيَّة والثروة الحيوانيَّة البحريَّة لشركات يابانيَّة، وأقرَّ نظام العمولات والفساد كأسلوب حكوميّ. وبرزت سلالة جديدة من الشباب الإداريِّين والتنفيذيِّين الذين تربُّوا على مبادئ الرأسماليَّة المحض، ممَّن يتجوَّلون على درَّاجات ناريَّة ملوَّنة، ويتصرَّفون بمصير الوطن ببرودة أعصاب قاسية. وباسم الجدوى الاقتصاديَّة، جمّد الجنرالات التاريخَ ووضعوه في ثلَّاجة، وقاوموا الديموقراطيَّة باعتبارها «أيديولوجيَّة غريبة»، واستبدلوها بعقيدة «القانون والنظام». ولم تكن تشيلي حالة معزولة، إذ سرعان ما امتدَّ ليل الشموليَّة ليغطّي أميركا اللاتينيَّة كلّها.

القسم الثاني

أيّار ـ كانون الأوّل ١٩٩٢

أنا لا أكتب الآن من أجل ألّا تجد ابنتي نفسها ضائعة عندما تستيقظ، لأنّها لن تستيقظ. ليس لهذه الصفحات من تُوَجّه إليه، فباولا لن تستطيع قراءتها أبدًا...

لا! لماذا أردّد ما يقوله الآخرون إذا كنت غير مقتنعة به في الحقيقة؟ لقد استبعدوها من بين الحالات التي يمكن لها الشفاء. هم يقولون لي: إنّها مصابة بتَلَفٍ دماغيّ... قادني طبيب الأعصاب إلى مكتبه، بعد الفحوص الأخيرة، وعرض عليّ، بكلّ الرقّة الممكنة، الصورَ الشعاعيّة قبالة الضوء. هناك مربّعان أسودان كبيران، حيث تقلّص ذكاء ابنتي الاستثنائيّ إلى بقعة سوداء لا نفع فيها. ويُشير الطبيب بقلمه إلى دروب الدماغ المتشابكة، وهو يشرح النتائج الرهيبة لتلك الظلال وتلك الخطوط:

ـ لقد أُصيبت باولا بأذًى شديد، وليس هناك ما يمكن عمله لأنّ دماغها قد تلف. لسنا ندري متى ولا كيف حدث ذلك، ربّما كان

السبب فقدانَ الصوديوم أو نقصَ الأوكسجين أو زيادةً في المسكِّنات، ومن الممكن أن يكون السبب أيضًا سيرورةَ المرض المدمِّرة نفسها.

ـ أتعني أنَّها قد تبقى متخلِّفة ذهنيًّا؟

ـ إنَّه تنبُّؤ سيِّئ جدًّا، لكنَّها قد تصل في أحسن الحالات إلى مستوًى من التطوُّر الطفوليّ.

ـ ما الذي يعنيه هذا؟

ـ لا يمكنني أن أقول لك شيئًا في المرحلة الراهنة، فكلّ حالة تختلف عن سواها.

ـ هل ستستطيع الكلام؟

«لا أظنّ ذلك. ومن المحتمل ألَّا تستطيع المشي أيضًا. ستكون مقعَدة إلى الأبد»، قال ذلك وهو ينظر إليَّ بيأس من فوق نظَّارته.

ـ لا بدَّ من أنَّ ثمَّة خطأً. يجب إعادة هذه الفحوص.

ـ أخشى أن يكون هذا هو الواقع، يا إيزابيل.

ـ أنت لا تعرف ما الذي تقوله! فأنت لم ترَ باولا قطُّ وهي سليمة، ولا يمكنك أن تتصوَّر كيف هي ابنتي! إنَّها لامعة؛ إنَّها أذكى أفراد الأُسرة، وهي الأولى دائمًا في كلِّ أمر تسعى إليه. إنَّها ذات روح جامحة. هل تظنّها ستستسلم؟ هذا غير ممكن على الإطلاق!

«إنَّني آسف جدًّا»... دمدم وهو يمسك يدي، ولكنَّني لم أعد أسمعه. كان صوته يأتي من بعيد جدًّا بينما كان ماضي باولا بكامله يبرز أمامي في صُوَر سريعة متلاحقة. رأيتها في كلِّ مراحل عمرها: حديثة الولادة، عارية وعيناها مفتوحتان وهي تنظر إليّ النظرة المتيقِّظة

نفسَها، التي حافظت عليها حتى اللحظة الأخيرة من حياتها الواعية؛ ثم رأيتها وهي تخطو الخطوات الأولى بجدّيَّةِ معلّمةٍ صغيرة؛ ثم وهي تخبّئ خفيةً زجاجاتِ الجدَّة الحزينة؛ ثم في العاشرة من عمرها، وهي ترقص مثل دمية مجنونة على إيقاع موسيقى التلفزيون؛ ثم في الخامسة عشرة، وهي تستقبلني بعناق اضطراريّ وعينين قاسيتين عندما عدت إلى البيت بعد مغامرة فاشلة مع عشيق لا أستطيع أن أتذكّر اسمه؛ ثم بشعرها الذي يصل حتى خصرها في الحفلة المدرسيَّة الأخيرة؛ ثم وهي في ثوب التخرُّج من الجامعة وقلنسوته. رأيتها مثل حوريَّة، في ثوبها الدانتيلّا الأبيض الناصع، وهي عروس، وفي بلوزتها القطنيَّة الخضراء وخفّها المهترئ والمصنوع من فراء الأرانب، وهي متكوِّرة على نفسها من الألم ورأسها على ركبتي حين أنشب المرضُ مخالبه فيها. في مساء ذلك اليوم، منذ أربعة أشهر وعشرين يومًا بالضبط، كنَّا لا نزال نتحدَّث عن إصابة بالإنفلونزا، ونناقش مع أرنستو مَيْلَ باولا إلى المبالغة في أمراضها لتشدّ اهتمامنا إليها. ورأيتها مثلما كانت في ذلك الفجر المنهك، حين بدأت تموت بين يدَيَّ وهي تتقيّأ دمًا. ظهرتْ في هذه الرؤى مثل صور فوتوغرافيَّة مختلطة ومفروضة ببطء وإلحاح شديدين، بحيث نتحرَّك جميعنا بتثاقل، كما لو أنَّنا في قاع البحر، عاجزين عن القفز في وثبة نمرٍ لنوقف دفعةً واحدة عجلةَ القدر التي تدور مسرعة في اتّجاه الموت. لقد عشتُ نحو خمسين سنة وأنا أصارع العنف والألم، واثقة بالحماية التي توفّرها لي شمسُ حُسْنِ الطالع الموجودة على ظهري، ولكنَّني كنت متشكّكة في أعماقي في أنَّ مخلب المصيبة سينقضّ عليّ يومًا. ومع ذلك، لم أتصوَّر أنَّني سأتلقَّى الضربة في أحد أبنائي. وسمعت صوت طبيب الأعصاب مجدَّدًا:

ـ إنَّها لا تشعر بشيء، صدِّقيني. ابنتك لا تتألَّم.

ـ بل إنَّها تتألَّم، وهي خائفة. سآخذها إلى بيتي في كاليفورنيا في أسرع ما يمكن.

ـ إنَّها هنا في كنف الضمان الاجتماعيّ. أمَّا في الولايات المتَّحدة، فالطبّ نوع من السرقة. ثم إنَّ الرحلة تنطوي على مخاطرة كبيرة، فالصوديوم ما زال غير متناسب لدى باولا، وضغطها وحرارتها لا ضابط لهما، ولديها صعوبات في التنفُّس. ليس من المناسب تحريكها في هذه المرحلة، فقد لا تستطيع تحمُّل الرحلة. يوجد في إسبانيا مركزان على الأقلّ يمكنهما تقديم رعاية جيِّدة لها، وهي لن تشتاق إلى أحد، فهي لا تتعرَّف إلى أحد، بل إنَّها لا تعرف أين هي.

ـ ألا تفهم أنَّني لا أستطيع تركها أبدًا؟ ساعدني يا دكتور، يجب أن آخذها مهما كلَّف الأمر...

عندما أتطلَّع إلى الوراء متأمِّلة مسيرةَ حياتي الطويلة، يراودني الاعتقاد بأنَّ الانقلاب العسكريّ في تشيلي كان إحدى النقاط الدراماتيكيَّة الفاصلة التي غيَّرت مساري. وربَّما سأتذكَّر أحداث يوم أمس بعد مرور بضع سنوات على أنَّها مأساة أخرى أثَّرت في حياتي. لا شيء سيعود مثلما كان سابقًا بالنسبة إليّ. إنَّهم يؤكِّدون لي أنَّه لا يوجد علاج لحالة باولا، ولكنَّني لا أصدِّق ذلك. سأنقلها إلى الولايات المتَّحدة، وهناك سيجدون طريقة لمساعدتنا. لقد استطاع ويللي أن يحجز لها في أحد المشافي، والشيء المتبقِّي هو إقناع أرنستو بأن يسمح لها بالذهاب، فهو لا يستطيع رعايتها، ولن نسمح أبدًا بوضعها في ملجأ. سأجد طريقة للسفر مع باولا، فهي ليست

المريضة الوحيدة التي يجري نقلها وهي في حالة خطرة. سآخذها معي حتى لو استدعى ذلك أن أختطف طائرة.

لم يكن خليج سان فرانسيسكو في مثل هذه الروعة من قبل قطّ، فقد كان يُبحر فيه آلاف الزوارق، ناشرةً أشرعتَها الملوّنة احتفالًا ببدء الربيع، وكان الناس يتراكضون في سراويلهم القصيرة على جسر غولدن غيت، والجبال مكسوّة بالخضرة لأنَّ المطر قد هطل بعد ستّ سنوات من الجفاف. لم أرَ مثل تلك الأشجار الوارفة ولا مثلَ زرقة تلك السماء منذ زمن طويل. كان المنظر الطبيعيّ يستقبلنا بثوب احتفاليّ كأنَّه يحيّينا. لقد انتهى شتاء مدريد الطويل. قبل أن نغادر المستشفى، أخذتُ باولا إلى المصلّى الذي كان مقفرًا وشبه معتم، مثلما هو دائمًا تقريبًا، ولكنّه ممتلئ بالزنابق المقدَّمة إلى العذراء بمناسبة عيد الأمّ. أوقفت الكرسيّ ذا العجلات قبالة ذلك التمثال الخشبيّ الذي ذرفت أمّي أمامه الكثير من الدموع خلال الأيّام الكابوسيّة المئة، وأشعلتُ شمعة احتفاءً بالحياة. وطلبت أمّي من العذراء أن تلفّ باولا بعباءتها وتحميها من الألم. وطلبتُ أنا بدوري من الآلهة أن تساعدنا على الوصول إلى كاليفورنيا سالمين، وأن تحيطنا بحمايتها في المرحلة الثانية التي ستبدأ، وأن تمنحنا القوّة لاجتيازها. أمّا باولا، التي كانت تحني رأسها وتصوّب ناظريها إلى الأرض، فأخذت تبكي، وتساقطت دموعها قطرةً قطرة مثل نغمات تمرين على البيانو. ما الذي تفهمه ابنتي؟ إنّني أفكّر أحيانًا في أنّها تريد أن تقول لي شيئًا. أظنّ أنّها تريد أن تقول لي: وداعًا...

ذهبت مع أرنستو لنعدّ لها حقيبتها. دخلتُ تلك الشقَّةَ النظيفة والمرتّبة، حيث عاشا سعيدَين وقتًا قصيرًا جدًّا، وصدمتني ـ كالعادة ـ البساطةُ الفرنسيسكانيَّة التي عاشا فيها. ففي ثمانية وعشرين عامًا من عمرها في هذا العالم، توصَّلت باولا إلى نضوج لا يمكن لآخرين أن يبلغوه أبدًا. لقد أدركتْ أنَّ الحياة فانية وسريعة الزوال، فتخلَّصت من كلِّ ما هو مادِّيّ تقريبًا، وكانت أكثر اهتمامًا بمشاغل الروح. «إنَّنا نذهب إلى القبر ملفوفين بشرشف فحسب، فلماذا تُجهدين نفسك هكذا؟» هذا ما قالته لي يومًا في أحد محالِّ بيع الملابس حين أردت أن أشتري لها ثلاث بلوزات. لقد راحت تتخلَّص من كلّ شيء حتى آخر نسالة من الزهوّ. لم تكن ترغب في أيِّ زينة، ولا في أيّ شيء لا لزوم له أو زائد عن الحاجة. ولم يكن ثمَّة مجال ولا صبر في ذهنها إلَّا بشأن ما هو جوهريّ. وقد قالت لي قبل وقت قصير من غيبوبتها: «إنَّني أبحث جاهدة عن الربّ ولا أجده». دسّ أرنستو بعض الملابس في حقيبة صغيرة، ووضع معها عددًا من صُوَر شهر عسلهما في إسكتلندا، وخفَّها العتيق المصنوع من فرو أرنب، والسكَّريَّةَ الفضِّيَّة التي ورثتها عن غراني، والدميةَ القماشيَّة ـ وقد فقدت شعرها الصوفيَّ وأصبحت شبه عوراء ـ والتي كنت قد صنعتها لها بُعيد ولادتها وكانت تحملها معها مثل لقية منخورة. وبقيت الرسائل التي كتبتها إليها خلال هذه السنوات في سلَّة، حيث تحتفظ بها مرتَّبة بحسب تواريخ وصولها، مثلما تفعل أمّي. اقترحتُ إتلاف تلك الرسائل دفعة واحدة، لكنَّ صهري قال إنَّها ستطلبها يومًا. لقد بقيت الشقَّة مكنوسة بريح كئيبة؛ فقد غادرتها باولا إلى المستشفى في السادس من كانون الأوَّل، ولم ترجع إليها بعد ذلك. كانت روحها حاضرة حين كنَّا نتخلَّص من

أشيائها القليلة وندسّ أيدينا في حميميَّة مخدعها. وفجأة، انهار أرنستو جاثيًا واحتضن خاصرتي وهو يهتزّ بالنحيب الذي كبحه خلال الشهور الطويلة. أظنّ أنَّه أدرك تمامًا، في تلك اللحظة، حجمَ مأساته، وعرف أنَّ زوجته لن ترجع مطلقًا إلى هذه الشقَّة في مدريد، وأنَّها انطلقت إلى أبعاد أخرى تاركةً له فقط، ذكرى الجمال والظُّرف اللذين أحبَّهما.

ـ أنكون أنا وباولا قد أحببنا كثيرًا، واستنفدنا بشراهة السعادةَ المخصَّصة لنا؟ أنكون قد التهمنا الحياة؟ إنَّني ما زلت أحتفظ بحبٍّ غير محدود لها، ولكنَّها لم تعد تحتاج إليه كما يبدو.

ـ بل إنَّها تحتاج إليه أكثر من أيّ وقت، يا أرنستو. لكنَّها تحتاج إليَّ الآن أكثر، لأنَّك لن تستطيع العناية بها.

ـ ليس من العدل أن تتحمّلي وحدك هذه المسؤوليَّة الرهيبة، فهي زوجتي...

ـ لن أكون وحيدة، فأُسرتي إلى جانبي. وأنت أيضًا يمكنك المجيء، فبيتي هو بيتك.

ـ وماذا سيحدث إذا لم أجد عملًا في كاليفورنيا؟ لا يمكنني أن أعيش عاطلًا في كنفك، ولكنَّني لا أريد الابتعاد عنها أيضًا...

ـ لقد أخبرتني باولا في إحدى رسائلها بأنَّ كلّ شيء قد تغيَّر عندما ظهرتَ أنت في حياتها، وبأنَّها أحسَّت بالكمال. وقالت لي إنَّكما عندما تكونان بين أُناس آخرين أحيانًا، وتكونان شبه مشوَّشين بصخب الأحاديث المتبادَلة، تكفيكما نظرة واحدة ليقول كلٌّ منكما للآخر كلَّ ما يريده. فالزمن يتجمَّد ويستتبُّ فراغ سحريّ لا وجود فيه لأحد سواكما. وربَّما هكذا ستكون الحال من الآن فصاعدًا، فحبّكما

سيحيا سليمًا على الرَّغم من البعاد؛ سيبقى فيما وراء الحياة والموت.

وفي اللحظة الأخيرة، قبل إغلاق الباب نهائيًا، سلَّمني مغلَّفًا مختومًا بالشمع. كان مكتوبًا عليه بخطّ ابنتي الذي لا أُخطئه: يُفتَح بعد موتي.

قال لي:

ـ قبل بضعة شهور، وفي ذروة شهر العسل، استيقظت باولا في إحدى الليالي صارخة. لست أدري بماذا كانت تحلم، ولكنَّه حلم مثير للقلق من دون ريب، لأنَّها لم تشأ العودة إلى النوم، وكتبت هذه الرسالة وسلَّمتني إيَّاها. هل تعتقدين أنَّه يجب علينا فتحها؟

ـ لكنّ باولا لم تمت يا أرنستو...

ـ احتفظي بها، إذًا. فكلَّما أرى هذا المغلَّف أشعر كأنَّ مخلبًا ينغرس في صدري.

وداعًا يا مدريد... لقد خلّفت ورائي ممرّ الخطى الضائعة، حيث دُرتُ حول العالم عدَّةَ مرَّات. وخلّفت الفندق ووجبات حساء العدس. وعانقت للمرَّة الأخيرة إلفيرا وأوريليا وأصدقاء المستشفى الآخرين الذين بكوا عند الوداع، والراهباتِ اللواتي قدَّمن إليَّ مسبحة باركها البابا نفسه، والمُداوينَ الذين هرعوا للمرَّة الأخيرة كي يطبِّقوا عليها فنون الأجراس التيبتيَّة، وطبيبَ الأعصاب، وهو الطبيب الوحيد الذي بقي إلى جانبي حتى النهاية، بحيث كان يهيِّئ باولا للسفر ويتابع التواقيع والمعاملات والتصاريح كي توافق شركة الطيران على نقلها. حجزتُ عدَّة مقاعد في الدرجة الأولى، ووضعت فيها نقَّالة إسعاف وأوكسجينًا وأجهزةً ضروريَّة أخرى، وتعاقدت مع ممرِّضة متخصِّصة،

وحملت ابنتي في سيَّارة إسعاف إلى المطار، حيث كانوا في انتظارنا لاقتيادنا إلى الطائرة مباشرة. كانت باولا نائمة بفعل قطرات منوِّم قدَّمها إليّ الطبيب في اللحظة الأخيرة. سرّحتُ شعرها وعقدته بمنديل من منتصفه، مثلما كانت تحبّ ربطه، وألبستها، بمساعدة أرنستو، ثيابًا للمرَّة الأولى خلال هذه الشهور الطويلة. ألبسناها إحدى تنانيري وسترة أرنستو، لأنَّنا حين بحثنا في خزانتها لم نجد سوى بنطالي جينز وبضع بلوزات وسترة لا يمكن إدخال جسدها المتيبِّس فيها.

كانت الرحلة من مدريد إلى سان فرانسيسكو أشبهَ برحلة سفاري استمرَّت أكثر من عشرين ساعة، كنَّا نغذّي المريضة خلالها قطرةً قطرة. نرصد علائم الحياة فيها ونُغرقها في إغفاءة رحيمة بقطرات سحريَّة عندما تضطرب. لقد حدث ذلك قبل أقلّ من أسبوع، ولكنَّني نسيت التفاصيل، ولا أكاد أذكر الآن إلَّا أنَّنا بقينا نحو ساعتين في واشنطن، حيث كان في انتظارنا موظَّفٌ من السفارة التشيليَّة لتسهيل إجراءات دخول الولايات المتَّحدة. تولَّى أرنستو والممرِّضة أمر باولا، بينما رحت أركض في المطار بالأمتعة وجوازات السفر والتصاريح، وكان الموظَّفون يختمون أوراقنا من دون توجيه أسئلة وهم يرون الفتاة المقعَدة والمغمى عليها في النقَّالة. وفي سان فرانسيسكو، استقبلنا ويللي ومعه سيَّارة إسعاف، وبعد ساعة من ذلك وصلنا إلى مشفًى لإعادة التأهيل، حيث وجدنا طاقمًا من الأطبَّاء في انتظار باولا التي انخفض ضغطها كثيرًا وكانت مبلَّلةً بعرق بارد. كانت سيليا ونيكولاس وحفيدي أليخاندرو ينتظروننا عند الباب، فهرع أليخاندرو للقائي وهو يتعثَّر بساقيه الصغيرتين المتثاقلتين ويمدّ ذراعيه نحوي، ولكنَّه أحسّ من دون ريب بالفاجعة الرهيبة التي تخيِّم على الجوّ، فتوقَّف في منتصف

الطريق وتراجع مذعورًا. وكان نيكولاس قد تابع تفاصيل المرض بصورة يوميَّة عبر الهاتف، ولكنَّه لم يكن مستعدًّا لمواجهة المشهد الذي رآه، فقد انحنى على أخته وقبّل جبهتها، ففتحت عينيها وبدا أنَّها تركِّز نظرها فيه للحظة. «باولا، باولا!» دمدم بذلك بينما كانت الدموع تسيل على وجهه. أمَّا سيليا، الصامتة والمذعورة والتي كانت تحمي بذراعيها الجنينَ الذي في بطنها، فقد توارت وراء أحد الأعمدة، في أقلِّ أركان القاعة إضاءةً.

بقي أرنستو في المستشفى في تلك الليلة، وذهبت أنا إلى البيت مع ويللي. لقد أمضيت شهورًا طويلة خارج هذا البيت، فأحسست فيه بالغربة، وكأنَّني لم أجتز هذه العتبة قطّ من قبل، ولم أرَ هذا الأثاث أو هذه الأشياء التي اشتريتها يومًا بحماسة. كان كلّ شيء على حاله، وكان زوجي قد قطف أفضل وروده ليملأ بها المزهريَّات. رأيت سريرنا ومظلَّته المصنوعة من قماش قطنيّ أبيض شفَّاف، والوسائدَ الكبيرة المطرَّزة، واللوحاتِ التي رافقتني لسنوات، وملابسي المرتَّبةَ بحسب ألوانها في الخزانة. بدا لي كلّ شيء جميلًا، ولكنَّه غريب عنِّي تمامًا، فبيتي ما زال قاعةَ الانتظار في المستشفى، وغرفةَ الفندق، وشقَّةَ باولا الصغيرة العارية. أحسست بأنِّي لم أكن مطلقًا في هذا البيت، وأنَّ روحي قد بقيت هائمة في ممرِّ الخطى الضائعة، وأنَّني سأتأخَّر طويلًا في العثور عليها. ولكنَّ ويللي احتضنني بقوَّة حينئذ، ووصلتني حرارته ورائحته عبر قماش القميص، وأحاطت بي قوَّةُ إخلاصه التي لا لَبْس فيها، فأدركت أنَّ ما هو أسوأ قد انقضى، وأنَّني لم أعد وحيدة من الآن فصاعدًا، وأنَّ لديّ الشجاعةَ وأنا إلى جانبه لتحمُّل أسوأ المفاجآت.

استطاع أرنستو البقاء في كاليفورنيا أربعة أيَّام فقط، كان عليه بعدها أن يعود إلى عمله. إنَّه يسعى للحصول على نقل إلى الولايات المتَّحدة ليبقى قريبًا من زوجته.

قال لها وهو يقبِّلها قبل ذهابه:

ـ انتظريني يا حبّي، سأعود سريعًا ولن نفترق بعدها أبدًا... إنَّني أعاهدك. تشجَّعي؛ لا تستسلمي.

إنَّهم يُجرون لباولا تمرينات في الصباح، ويُخضعونها لاختبارات معقَّدة، ولكن هناك متَّسعًا من الوقت للبقاء معها في المساء. يبدو أنّ الأطبَّاء مذهولون من حالة جسدها الرائعة، فبشرتها سليمة، ومفاصلها لم تتشوَّه ولم تفقد مرونتها على الرَّغم من الشلل. إنَّ الحركات المرتجَلة التي كنتُ أجريها لها هي الحركاتُ نفسها التي يطبِّقونها عليها الآن. تشغل باولا غرفة خاصَّة يغمرها الضوء، لها نافذة تطلّ على فناء ينمو فيه الجرانيوم، وقد علّقنا صورًا للأُسرة على الجدران، ووضعنا جهازًا يُرسل موسيقًى هادئة. وهناك في الغرفة تلفاز نعرض لها فيه مناظر ماء وغابات مريحة، وقد أحضر أصدقائي مستحضرات غسل عطرة، ونحن ندلِّكها بزيت إكليل الجبل في الصباح لتنشيطها، وبالخزامى في المساء لتنويمها، وبالورد والبابونج لتبريدها. ويأتي كلّ يوم رجلٌ له يدا مشعوذ طويلتان ليُجري لها مسَّاجات يابانيَّة، ويتناوب على العناية بها نحو ستَّة معالجين، يعمل بعضهم معها في صالة التمرينات الرياضيَّة ويحاول آخرون التواصل معها بأن يعرضوا عليها بطاقات كرتونيَّة عليها حروفٌ ورسوم، أو يعزفوا على آلات موسيقيَّة، أو يضعوا في فمها ليمونًا أو عسلًا ليروا إذا كانت تستجيب للطعوم.

وجاء كذلك طبيب مختصّ بداء الفرفيرين، وهو واحد من أطبّاء قليلين في هذا الاختصاص، فهذا المرض نادر لا يهمّ الكثيرين، وقد يعرفه بعضهم بالاسم فقط لأنَّه كان هناك في إنكلترا، كما يُقال، ملكٌ مشهور بالجنون، والواقع أنَّه كان مُصابًا بداء الفرفيرين. قرأ الطبيب تقارير المستشفى الإسباني، ثم فحص باولا، وقال بحسم إنَّ الضرر الدماغيّ لم يُنتج المرض، وإنَّه ربَّما كان هناك حادثٌ أو خطأٌ في العلاج.

أجلسنا باولا اليوم على مقعد ذي عجلات، مستندةً إلى وسائد وراء ظهرها، وأخرجناها للتنزُّه في حدائق المشفى. هناك درب متعرِّج ما بين شجيرات ياسمين برِّيَّة ذات رائحة نفَّاذة مثل عطور باولا. إنّ هذه الأزهار تذكِّرني بغراني، وإنَّها لصدفة كبيرة أن تكون باولا محاطة بها. وضعنا لها قبَّعة عريضة الحوافّ ونظَّارة قاتمة لحمايتها من الشمس، فبدت طبيعيَّة تقريبًا. كان نيكولاس يدفع الكرسيَّ، بينما سيليا التي أصبحت ثقيلة جدًّا بحملها، وأنا مع أليخاندرو بين ذراعَيّ، نراقبهما من بعيد. لقد قطف نيكولاس بعض أزهار الياسمين ووضعها في يد أخته، وكان يكلِّمها كأنَّها قادرة على الردِّ عليه. ماذا يقول لها؟ أنا أيضًا أكلِّمها طوال الوقت، فربَّما تمرّ في لحظات صحو وتتمكَّن من التواصل خلال هذه اللحظات الخاطفة. إنَّني أكرِّر القول لها كلّ صباح إنَّها في صيف كاليفورنيا إلى جانب أُسرتها، وأخبرها بتاريخ اليوم كيلا تطفو تائهة خارج الزمان والمكان. وفي الليل، أخبرها بأنَّ يومًا آخر قد انتهى، وأنَّ وقت النوم قد حان، وأهمس في أذنها بالإنكليزيَّة إحدى عبارات غراني العذبة التي ترعرعت على سماعها. وأشرح لها ما أصابها، وأنَّني أمّها، وأنَّني غير خائفة لأنِّي واثقة بأنَّها

ستخرج بكلِّ تأكيد من هذه المحنة أشدَّ صلابة، وأنَّه في أشدّ لحظات اليأس، حين تُوصَد الأبواب ونجد أنفسنا محشورين في زقاق مسدود، تنفتح دائمًا فُرجة بمكنتنا الإطلال منها. أذكّرها بأشدِّ الأزمنة رعبًا في تشيلي وأشدِّها عزلة في المنفى، وبأنَّها كانت أكثر الأزمنة أهمِّيَّة في حياتنا، لأنَّها منحتنا الدافع والقوَّة.

كثيرًا ما سألت نفسي، مثلَ آلاف التشيليين الآخرين، عمَّا إذا كنت قد أحسنت صنعًا بالهرب من البلاد في أثناء الدكتاتوريَّة، وعمَّا إذا كنتُ محقَّة في المجازفة بمستقبل ابنَيَ وجرّ زوجي إلى مصير غامض في بلد أجنبيّ، أو إذا كان من الأفضل البقاءُ والعيش من دون مبالاة. ولكن ليس لديَّ أجوبة عن هذه الأسئلة. لقد جرت الأمور بطريقة حتميَّة، كما في المآسي الإغريقيَّة، وكانت الفاجعة ماثلة أمام عينَيّ، ولكنِّي لم أستطع وقف الخطى التي تقود إليها.

في الثالث والعشرين من أيلول ١٩٧٣، وبعد اثني عشر يومًا من الانقلاب العسكريّ، توفي بابلو نيرودا. لقد كان مريضًا، وجاءت أحداث تلك الأيَّام الحزينة لتقضي على رغبته في الحياة. احتضر في فراشه في إيسلا نيغرا وهو ينظر إلى البحر الذي يلاطم الصخور تحت نافذته من دون أن يراه. كانت زوجته ماتيلدي قد فرضت دائرة محكَمة من التكتُّم عليه حتى لا تدخل إليه أخبار ما يحدث في البلاد، لكنَّ الشاعر علم، بطريقة ما، بأمر آلاف المعتَقَلين والمعذَّبين والمقتولين. لقد هشَّموا يدي المغنِّي فيكتور خارا، فكان ذلك كمن يقتل العندليب. ويُقال إنَّه ظلّ يغنِّي ويواصل الغناء، فكان ذلك يستفزّهم أكثر. ما الذي

يحدث، لقد أُصيب الجميع بالجنون، هكذا كان الشاعر يدمدم ونظرانه تزوغ. بدأ يختنق وحملوه في سيَّارة إسعاف إلى مستشفى في سنتياغو، وفي أثناء ذلك كانت مئات البرقيَّات تتوارد من حكومات عديدة في العالم عارضةً اللجوءَ السياسيَّ على الشاعر الحائز جائزةَ نوبل. وذهب بعض السفراء إليه ليُقنعوه بأنفسهم بالمغادرة، ولكنَّه لم يشأ الابتعاد عن أرضه في تلك الأوقات الكارثيَّة. «لا يمكنني مغادرة شعبي، لا يمكنني الهرب، عاهديني على أنَّك لن تغادري أيضًا»؛ طلب ذلك من زوجته فعاهدته. وكانت آخر كلمات قالها هذا الرجل الذي غنَّى للحياة: «سيرمونهم بالرصاص، سيرمونهم بالرصاص»، فأعطته الممرِّضة مهدِّئًا، ونام بعمق ولم يعد إلى الاستيقاظ. لقد ترك الموتُ على شفتيه ابتسامتَه الساخرة التي كانت له في أفضل أيَّامه، حين كان يتنكَّر ليسلِّي أصدقاءه. في تلك اللحظة بالذات، وفي إحدى زنازين الاستاد الوطنيّ، كانوا يعذِّبون سائقه بوحشيَّة لينتزعوا منه اعترافات غير مُجدية، لا يعرف أحد كنهها، عن ذلك الشاعر الشيخ المسالم. تمَّ السهر على جثمانه في بيته الأزرق على رابية سان كريستوبال، والذي كانت فتَّشته وحدةٌ عسكريَّة وخلَّفته خرابًا. لقد كان ينتشر في كلِّ مكان فتاتٌ من مقتنياته الخزفيَّة ومجموعاته من القوارير والدمى والساعات واللوحات، فقد حطَّموا وأحرقوا كلّ ما لم يستطيعوا حمله. كان الماء والوحل يسيلان على الأرض المكسوَّة بفتات الزجاج المكسَّر، والذي يُصدر لدى المشي عليه صوتًا كطقطقة العظام. أمضت ماتيلدي الليل وسط الخراب جالسة على كرسيٍّ إلى جانب تابوت الرجل الذي نَظَم لها أجمل أشعار الحبِّ، وكان برفقتها عددٌ قليل من الأصدقاء الذين تجرَّأوا على اجتياز الحصار البوليسيّ حول البيت وتحدِّي حظر التجوُّل. وجرى دفنه في اليوم التالي

في ضريح مستعار، وبجنازة مدجَّجة برشَّاشات بالشوارع التي مرّ فيها الموكب الهزيل. قليلون هم الذين استطاعوا مرافقته في طريقه الأخير، فقد كان أصدقاؤه معتَقَلين أو متوارين عن الأنظار، وكان غيرهم يخشى العقوبات الانتقاميَّة. وقد مشيت مع زميلاتي في المجلَّة ببطء ونحن نحمل قرنفلات حُمرًا في أيدينا ونهتف: «بابلو نيرودا!! حاضر، الآن وإلى الأبد!» أمام نظرات الجنود المتهيِّجَة، والذين كانوا متشابهين جميعهم بخوذهم الميدانيَّة، وبوجوهم المطليَّة حتى لا يتعرَّف إليهم أحد، وببنادقهم التي ترتجف في أيديهم. وفي منتصف الطريق، صرخ أحد المشيِّعين: «الرفيق سلڤادور أللبندي!»، وردَّدنا جميعنا بصوت واحد: «حاضر، الآن وإلى الأبد!» وهكذا، كانت جنازة الشاعر أيضًا مناسبة لتكريم موت الرئيس الذي كان جثمانه يرقد في قبر مجهول في مقبرة مدينة أخرى. «الموتى لا يرقدون براحة في قبور لا تحمل أسماءهم»، قال لي ذلك شيخ مسنٌّ كان يمشي إلى جانبي. وعندما عدت إلى البيت، كتبت رسالتي اليوميَّة إلي أمّي، ووصفت فيها الجنازة، وقد ظلَّت محفوظة مع رسائل أخرى ثماني سنوات بعد ذلك، وحين سلَّمتني إيَّاها أمّي ضمَّنتُها كاملةً تقريبًا في روايتي الأولى. ورويت ما جرى في الجنازة أيضًا لجدّي الذي استمع إليّ حتى النهاية وهو يصرُّ أسنانه، ثم أمسكني من ذراعي بعد ذلك بيدين حديديَّتين، وصرخ بي متسائلًا: من أجل أيِّ شياطين ذهبتُ إلى المقبرة، وهل أنا غير منتبهة لما يحدث في تشيلي، وأنَّه عليّ أن أكون حذرة حبًّا بطفلَيّ واحترامًا لشيخوخته لأنَّه لم يعد قادرًا على تحمُّل مثل هذه الكُروب. ألم يكن كافيًا ظهوري في التلفزيون بكنيتي؟ فلماذا أعرِّض نفسي للخطر؟ وانتهى قائلًا إنَّ هذه الأمور غير ملائمة لي.

ـ لقد انفلت الشرّ من عقاله، يا جدّي.

ـ على أيّ شرٍّ تتكلّمين! إنّها أشياء من نسج خيالك، فالعالم كان هكذا على الدوام.

ـ أننكر وجود الشرّ لأنّنا غير مقتنعين بقوّة الخير؟

ـ عاهديني على أن تبقي هادئة في بيتك!

ـ لا يمكنني أن أعاهدك على ذلك يا تاتا.

والحقيقة أنّني لم أكن قادرة على ذلك، لأنّ الوقت كان قد فات على مثل هذه العهود. فبعد يومين من الانقلاب العسكريّ، وما كاد حظر التجوُّل يُرفَع في بعض ساعات الصباح الأولى، حتى وجدت نفسي من دون أن أدري كيف، ضمن تلك الشبكة التي تشكّلت فورًا لمساعدة الملاحَقين. عرفت بأمر شابٍّ يساريٍّ متطرِّف يحتاج إلى ملجأ، وعلمت بأنّه هرب من كمين نُصب له بعد إصابته بطلق ناريّ في ساقه، وأنّ مطارديه يتعقّبونه عن قرب. وقد تمكّن من الاختباء في مرأب صديق له، حيث جاءه طبيب حسن النيّة في منتصف الليل، فأخرج الرصاصة من ساقه وأجرى له الإسعافات الأوّليّة. لقد كان محمومًا وحرارته مرتفعة جدًّا على الرَّغم من المضادّات الحيويّة، ولم يكن ممكنًا الإبقاء عليه لمزيد من الوقت في ذلك المكان، كما أنّه لم يكن في الإمكان نقله إلى مستشفًى، حيث سيجري اعتقاله من دون شكّ. ولم يكن قادرًا في تلك الظروف على القيام برحلة مُجهِدة لاجتياز الحدود عبر ممرّات سلسلة الجبال الجنوبيّة مثلما كان يفعل البعض. وكان الاحتمال الوحيد أمامه اللجوء السياسيّ، لكنّ دخول السفارات الأجنبيّة من أبوابها الواسعة لم يكن متاحًا إلّا لذوي

العلاقات الجيِّدة ـ شخصيَّاتٍ سياسيَّة، صحافيِّين، مثقَّفين وفنَّانين معروفين ـ. أمَّا البائسون من أمثاله وأمثال الآلاف غيره، فكانوا مخذولين وبلا حماية. لم أكن أعرف جيِّدًا معنى اللجوء، لأنِّي لم أسمع هذه الكلمة إلَّا في النشيد الوطني الذي أصبحت له رنَّةٌ تهكُّميَّة الآن: «الوطن للأحرار، أو أنَّه الملجأ ضدَّ الظلم»، ولكنَّ الحالة بدت لي أشبه برواية. وتطوَّعت لمساعدة ذلك الشابّ من دون تروٍّ ومن دون تقدير للمجازفة، لأنَّ أحدًا لم يكن يعرف آنذاك كيف كان الرعب يعمل، فقد كنَّا لا نزال محكومين بوهم مبادئ الأحوال العاديَّة. قرَّرت تجنُّب اللفّ والدوران والتوجُّه مباشرة إلى سفارة الأرجنتين. ركنت سيَّارتي أقرب ما يمكن من السفارة ومشيت في اتّجاه المدخل بقلب هَلِع، لكنْ بخطوات ثابتة. كانت تظهر من خلال قضبان السور نوافذُ المبنى وعليها ملابسُ معلَّقة يطلّ منها أُناس يصرخون. وكان الشارع يزدحم بالجنود، وكانت هناك دبَّابة وأعشاش رشَّاشات قبالة المدخل. وما كدت أقترب حتى صُوِّبت نحوي بندقيَّتان، فسألتُ: ما الذي يجب عمله من أجل اللجوء هنا؟ فنبح الجنود معًا: وثائقك! قدَّمت إليهم هويَّتي الشخصيَّة، فأمسكوني من ذراعي واقتادوني إلى كشك للحراسة عند البوَّابة، حيث وجدت ضابطًا كرَّرتُ عليه سؤالي محاوِلةً إخفاءَ ارتعاشة صوتي. تطلَّع الرجل إليَّ بنظرة مذهولة جعلتنا نبتسم أنا وإياه، وردّ عليَّ قائلًا وهو يدرس كنيتي في بطاقة الهويَّة: إنِّني موجود هنا بالضبط لأمنع أيًّا كان من اللجوء. وبعد تأمُّل خلته أبديًّا، أمر الآخرين بأن يخرجوا ويتركونا وحدنا في الكشك الصغير، ثم قال: «لقد رأيتك في التلفزيون... ولا شكَّ في أنَّك تفعلين هذا من أجل ريبورتاج». كان لطيفًا، ولكنْ حاسمًا في الوقت نفسه: ما دام موجودًا على رأس

عمله فلن يستطيع أحد اللجوء إلى هذه السفارة، فالأمر هنا ليس مثلما يجري في سفارة المكسيك، حيث يستطيع الدخولَ كلُّ راغب متى شاء، والمسألة كلّها هناك تتوقَّف على التحدّث مع مدير مبنى السفارة. وقد فهمتُ معنى كلامه. أعاد إليّ أوراقي، فصافحته مودِّعة، وحذَّرني من التورُّط في مشاكل، وذهبتُ مباشرة إلى سفارة المكسيك التي كان قد دخلها مئات اللاجئين، ولكنّ كرم الضيافة الأزتيكي كان قادرًا على تقبُّل لاجئة أخرى.

سرعان ما علمت بأنَّ الجيش يحاصر بعض الأحياء الهامشيَّة، وأنَّ حظر التجوُّل يستمرّ في مناطق أخرى نصف النهار، وأنَّ أُناسًا كثيرين يعانون الجوع. كان الجنود يقتحمون الأحياء بالدبَّابات، ويحاصرون البيوت ويُجبرون الجميع على الخروج، فيقتادون الرجال ممَّن هم في سنّ الرابعة عشرة فما فوق إلى باحة المدرسة أو ملعب كرة القدم الذي يكون في الغالب مجرَّد أرض خلاء مُحاطةٍ بخطّ من الكلس. وبعد ضربهم بصورة منهجيَّة على مرأى من النساء والأطفال، يختارون عددًا منهم ويأخذونهم. ويعود بعض هؤلاء فيما بعد ليتحدَّثوا عن كوابيس مرعبة ويعرضوا آثار التعذيب. أمّا أجساد الآخرين الممزَّقة، فكانت تُلقى ليلًا في مقالب القمامة، كي يعرف الناس المصيرَ الذي ينتظر العصاة. في أحد الأحياء المجاورة اختفى معظم الرجال، وأصبحت الأُسر من دون حماية. وقد تعيَّن عليَّ أن أجمع الأغذية والنقود من أجل قدور الطعام الجماعيَّة التي نظَّمتها الكنيسة لتقديم طبق طعام ساخن إلى أصغر الأطفال سنًّا. إنَّ مشهد أخوة أولئك الأطفال الأكبر سنًّا بقليل وهم ينتظرون في الشارع بأمعائهم الخاوية، آملين أن تتبقَّى بعض قطع الخبز، سيبقى محفورًا في ذاكرتي

إلى الأبد. اكتسبت الجرأة على طلب الصَّدَقات، فكان أصدقائي يرفضون تقديمها إليَّ عندما أطلبها على الهاتف، وأظنّ أنَّهم كانوا يختبئون عندما يرونني. وكان جدِّي يُقدِّم إليّ ما أطلبه بصمت، ولكنَّه لم يكن يرغب في أن يعرف ما الذي أفعله بنقوده. لقد جعله الخوف يتمركز قبالة التلفزيون بين جدران منزله، ولكنَّ الأخبار السيِّئة كانت تدخل من النوافذ، وتبرز مثل الطحالب من الأركان. لقد كان من المستحيل تجنُّبُها. لست أدري إذا كان التاتا يخاف إلى ذلك الحدِّ لكونه يعرف أكثر ممَّا يعلنه، أم لأنَّ ثمانين عامًا من التجارب في الحياة علَّمته الإمكانيَّات غير المتناهية للشرّ البشريّ. أمّا أنا، فقد فوجئت باكتشاف عنف العالم وشراسته، وبأنّه محكوم بقانون الأقوى الذي لا يرحم. إنَّ اصطفاء الأنواع لم يُجْدِ نفعًا في تفتُّح الذكاء وتطوُّر الروح، لأنَّنا لا نتورَّع عند أوَّل فرصة عن تمزيق بعضنا بعضًا مثل فئران حبيسة في صندوق ضيّق.

اتَّصلت بقطاع من الكنيسة الكاثوليكيَّة صالحني بطريقة ما مع الدِّين الذي كنت قد ابتعدت عنه منذ نحو خمس عشرة سنة. وما كنت أعرفه عن الدِّين حتى ذلك الحين هو بعض العقائد الجامدة والشعائر، ومفهوم الذَّنب والخطيئة، والفاتيكانُ الذي يتحكَّم في مصائر ملايين المؤمنين في العالم، والكنيسةُ الرسميَّة التي تناصر الأقوياء دائمًا، على الرَّغم من المنشورات البابويَّة الاجتماعيَّة. كنت قد سمعت أشياء غامضة عن «لاهوت التحرُّر» وحركات الرهبان العمَّال، ولكنَّني لم أكن أعرف الكنيسة المناضلة، وآلاف آلاف المسيحيين الذين كرَّسوا أنفسهم لخدمة أشدّ أبناء الإنسانيَّة حاجةً إلى المساعدة، في السرِّ. لقد شكَّلوا المنظَّمة الوحيدة القادرة على مساعدة الملاحَقين عبر مكتب النائب

الرسوليّ للتضامن، وكان الكاردينال قد أسّسه لهذا الغرض منذ الأيّام الأولى للدكتاتوريّة. وكان على أفراد جماعة كبيرة من الأساقفة والراهبات أن يجازفوا بحيواتهم طوال ستّ عشرة سنة لينقذوا حيوات أناس آخرين ويفضحوا الجرائم. وكان أحد الرهبان هو الذي دلّني على أكثر الطرائق أمانًا من أجل اللجوء السياسي. لقد انتهى الأمر ببعض الأشخاص الذين ساعدتهم في القفز عن جدار، إلى الوصول إلى فرنسا أو ألمانيا أو سويسرا أو كندا أو إلى البلدان الإسكندنافيّة التي استقبلت مئات اللاجئين التشيليّين. وما إن انطلقتُ في ذلك الطريق حتى أصبح التراجع مستحيلًا، لأنَّ كلّ قضيّة كانت تؤدّي إلى أخرى ثم إلى أخرى، وهكذا وجدت نفسي ملتزمة بالنشاطات السرّيّة، أخبّئ الناس أو أنقلهم، وأشارك في نقل المعلومات التي يحصل عليها آخرون عن التعذيب أو عن المعتقلين لتصل أخيرًا إلى ألمانيا، حيث يجري نشرها؛ أو أقوم بتسجيل مقابلات مع الضحايا للحصول على تسجيل موثّق لما يحدث في تشيلي، وهي التي ساهم فيها عدد من الصحافيّين آنذاك. ولم يكن يخطر في بالي عندئذ أنّني سأستخدم تلك الموادّ في كتابة روايتين. لم أكن أقدّر الأخطار في أوّل الأمر، وكنت أعمل في وضح النهار في وسط سنتياغو الصاخب طوال فصل صيف قائظ وخريف ذهبيّ، ولم أنتبه للمخاطر إلّا في منتصف عام ١٩٧٤. كانت معرفتي بآليّة الرعب محدودة جدًّا، وقد تأخّرت طويلًا في البدء بالإدراك المسبق للأعراض المبكرة، إذ لم يكن هناك ما يشير إلى وجود عالم مُوازٍ آخر في الظلّ، وبُعدٍ قاسٍ آخر للواقع. كنت أشعر بأنّني معصومة عن الضرر. ولم تكن دوافعي بطوليّة أو أيّ شيء من هذا القبيل، وإنّما إحساسي بالشفقة على أولئك الناس اليائسين، ولا

بدَّ لي من الاعتراف كذلك بانجذابي الذي لا يقاوَم إلى المغامرة. وفي أشدِّ اللحظات خطرًا، كنت أتذكَّر نصيحة العمّ رامون في ليلة حفلتي الأولى: «تذكَّري أنَّ الآخرين يشعرون بالخوف أكثر منك»...

في مرحلة التردُّد والقلق تلك، انكشف الوجه الحقيقيُّ لكلِّ شخص: فالقادة السياسيُّون الأكثر نضاليَّة كانوا أوَّل من توارى بصمت أو هرب من البلد، بينما أظهر أُناس آخرون كانوا يعيشون من دون صخب شجاعةً منقطعة النظير. كان لي صديق نفسانيّ لا يجد عملًا في مهنته ويكسب عيشه في العمل مصوِّرًا في المجلَّة. لقد كان رجلًا رقيقًا فيه شيء من السذاجة، وكنَّا ندعوه إلى مشاطرتنا بعض أيَّام الأحد العائليَّة مع الأطفال، ولم أسمعه يتحدَّث في السياسة مطلقًا. كنت أدعوه فرانثيسكو، مع أنَّه كان يحمل اسمًا اخر، وقد استخدمته بعد تسع سنوات من ذلك نموذجًا لبطل روايتي «عن الحبِّ والظلال». لقد كان على علاقة بجماعة من رجال الدين لأنّ أخاه كان أُسقفًا ـ عاملًا، وقد علم من خلاله بأعمال التعسُّف التي تُقترَف في البلد، وعرض تقديم خدماته في عدَّة مناسبات لمساعدة الآخرين. وفي نزهاتنا السرِّيَّة إلى رابية سان كريستوبال، حيث كنَّا نظنّ أنَّ أحدًا لا يستطيع سماع ما نقوله هناك، كان يُطلعني على الأخبار، وقد تعاونت معه في بعض المرَّات، بينما كان عليّ أن أعمل منفردة في أحيان أخرى. لقد صمَّمت طريقة فيها شيءٌ من البلاهة للقاء الأوَّل الذي يكون اللقاء الأخير عمومًا: نتَّفق على ساعة محدَّدة، فأمرّ ببطء في ساحة إيطاليا بسيَّارتي المميَّزة، ألتقط كلمة سرٍّ مقتضبةً، فأوقف السيَّارة برهة ليصعد أحدهم إليها بسرعة. لم أعرف قطّ أسماء أصحاب تلك الوجوه الشاحبة والأيدي المرتعشة، ولا القصصَ التي يخبِّئونها، لأنَّ

شعار العمل كان يتمثّل في تبادل أقلّ ما يمكن من الكلمات، ثم أبقى بقبلة على وجنتي وكلمات شكر مهموسة ولا أعود أعرف أيّ شيء بعدها عن ذلك الشخص. وعندما يكون هناك أطفال تكون المهمّة أشدّ صعوبة. لقد سمعت عن طفل رضيع أدخلوه سفارة أجنبيّة ليجمعوا شمله بأبويه، فقد أُعطي شرابًا منوّمًا وخُبّئ في قاع سلّة خسّ لمغافلة الحرّاس عند المدخل.

كان ميشيل يعرف بأمر نشاطاتي ولم يعترض عليها قطّ، حتى ولو وصل الأمر إلى إخفاء أحدهم في بيتنا. كان يحذّرني بجدّيّة من الأخطار، ويستغرب بعض الشيء وقوعَ كلّ تلك الأشياء بين يدَيّ بينما هو لا يعلم بشيء إلّا نادرًا. لست أدري السبب، ولكنّني أعتقد أنّ عملي كصحافيّة له علاقة بذلك، فقد كنت أمضي في الشارع وأتحدّث إلى الناس، بينما كان هو يتجوّل بين رجال الأعمال؛ الطائفةِ التي أفادتني أكثر من سواها خلال الدكتاتوريّة. لقد ذهبت في إحدى المرّات إلى المطعم الذي يتناول فيه يوميًّا وجبةَ الغداء مع شركائه في شركة المقاولات، فقلت لهم إنّهم ينفقون في وجبة واحدة ما يكفي لإطعام عشرين طفلًا لمدّة شهر في مطعم الرهبان، وطلبت منهم أن يأكلوا مرّة كلّ أسبوع السندوتشات في المكتب، ويقدّموا إليّ النقود التي يوفّرونها. قوبلت كلماتي بذهول جليديّ، وحتى النادل نفسه وقف متجمّدًا والصينيّة في يده، والتفتت كلّ العيون إلى ميشيل متسائلة، على ما أعتقد: أيُّ صنف من الرجال هو هذا الذي يعجز عن التحكّم في إساءات زوجته. نزع مدير الشركة نظّارته، ونظّفها على مهل بمنديله ثم كتب لي شيكًّا بمبلغ يزيد عشر مرّات عمّا طلبته. لم يعد ميشيل إلى الغداء معهم، وقد أراد بهذا التصرُّف أن يوضح موقفه. لقد كان من

الصعب عليه، هو الذي نرعرع في صرامة أشدّ المشاعر نبلًا، أن يصدِّق قصص الرعب التي كنت أرويها له، أو أن يتصوَّر أنَّه يمكن لنا أن نموت جميعنا، بمن في ذلك الطفلان، إذا جرى اعتقال أحد هؤلاء البؤساء الذين مرُّوا في حياتنا، واعترف تحت التعذيب بأنَّه قد اختبأ تحت سقف بيتنا. لقد كانت تصلنا إشاعات مروِّعة تقشعرُّ لها الأبدان، ولكنَّه عبر آليَّة ذهنيَّة غريبة كان يرفض أحيانًا رؤية ما هو جليّ، وكنَّا نعتبر تلك الإشاعات من قبيل المبالغات، إلى أن لم يعد إنكارها ممكنًا. كنَّا نستيقظ في الليل ونحن نتعرَّق بغزارة لأنَّ سيَّارة توقَّفت في الشارع خلال ساعات منع التجوُّل، أو لأنَّ الهاتف يرنّ ولا يردّ أحد علينا حين نرفع السمَّاعة، ولكنَّ الشمس كانت تطلع في صباح اليوم التالي، ويأتي الطفلان والكلب إلى سريرنا، ونعدّ القهوة وتبدأ الحياة مسيرتها من جديد كأنَّ كلّ شيء عاديّ. لقد انقضت شهور قبل أن يصبح ذلك كلُّه حقائقَ مؤكَّدة لا يمكن دحضها، وصار الخوف يشلُّنا. كيف أمكن لكلِّ شيء أن يتبدَّل فجأة، وبالكامل هكذا؟ كيف أمكن تشويه الواقع بهذه الصورة؟ جميعنا كنَّا متواطئين. لقد أُصيب المجتمع كلّه بالجنون. الشيطان في المرآة... أحيانًا، عندما كنت أذهب وحدي إلى مكان سرّيّ في رابية سان كريستوبال ويكون لديَّ متَّسعٌ من الوقت للتفكير، كنت أستعيد رؤية الماء الأسود على مرآة طفولتي حيث يظهر الشيطان ليلًا، وعندما كنت أنحني على الزجاج يتأكَّد لي أنَّ الشرَّ له وجهي نفسُه. لم أكن نظيفة ولم يكن هناك أحد نظيفًا، ففي داخل كلِّ واحد منَّا يوجد مسخٌ كامن. جميعنا لدينا جانب قاتم وشرِّير. هل بمكنني أنا أيضًا أن أعذِّب وأقتل إذا توفَّرت لي الظروف؟ لِنَقُلْ، مثلًا، إذا ألحق أحدهم أذًى بابنَيَّ... فما مدى القسوة التي أستطيع إظهارها

في مثل هذه الحالة؟ لقد هربت الشياطين من المرايا وفرَّت طليقة في العالم.

عندما تمَّ إخضاع البلد تمامًا، في أواخر السنة التالية، بدأت ممارسة نظام رأسماليّ محض يُعطي الأفضليَّة أوَّلًا لأصحاب المصانع، لأنَّ العمَّال كانوا قد فقدوا حقوقهم، ولم يكن في الإمكان فرضُ هذا النظام إلَّا باستخدام القوَّة. لم يكن الأمر يتعلَّق بمجرَّد قانون العرض والطلب، كما كان يقول أيديولوجيو اليمين الشباب، ذلك بأنَّ القوى العاملة كانت مقهورة وتحت رحمة أرباب العمل.

انتهت المكاسب الاجتماعيَّة التي توصَّل إليها الشعب منذ عقود سابقة، وأُلغيَ حقُّ الاجتماع والإضراب، وكان القادة العمَّاليُّون يختفون أو يجري اغتيالهم. أمَّا المؤسَّسات التي انطلقت في سباق المنافسة في تسريح عمَّالها، فكانت تطالب هؤلاء العمَّال بأقصى قَدْر من الإنتاجيَّة في مقابل حدٍّ أدنى من الأجور. وكان هناك أُناس كثيرون عاطلين عن العمل يقفون صفوفًا أمام أبواب المصانع ليطلبوا العمل، بحيث أصبح في الإمكان الحصولُ على يد عاملة بمستوى العبوديَّة. ولم يكن هناك من يتجرَّأ على الاعتراض لأنَّه سيفقد عمله في أفضل الحالات، ولكنَّه قد يتعرَّض كذلك للاتِّهام بالشيوعيَّة أو التمرُّد، وينتهي به الأمر في زنازين التعذيب لدى الشرطة السياسيَّة. لقد خُلقت معجزة اقتصاديَّة ظاهريَّة بكلفة اجتماعيَّة باهظة، فلم تشهد تشيلي من قبل مثلَ ذلك الاستعراض المخزي للثروات، ولا مثلَ ذلك العدد الكبير من الناس الذين يعيشون في أدنى درجات الفقر. وكان على ميشيل، بحكم

عمله كمدير إداريّ، أن يسرِّح مئات العمَّال من الخدمة. كان يستدعيهم إلى مكتبه وفق قوائم جاهزة ليخبرهم بأنَّ عليهم عدمَ الحضور إلى العمل ابتداءً من اليوم التالي، ويشرح لهم أنَّهم، وفقًا للأنظمة الجديدة، فقدوا حقّ الحصول على تعويض. كان يعرف أنَّ كلّ واحد من أولئك الرجال لديه أُسرة، وأنَّه سيكون من المستحيل عليهم الحصولُ على عمل آخر، وأنَّ هذا التسريح من العمل يعني الحكم عليهم بالبؤس المؤكَّد، فكان يرجع إلى البيت محبَطًا وحزينًا. وخلال شهور قليلة، انكمشت كتفاه وامتلأ رأسه بالشيب. وفي أحد الأيَّام، جمع الشركاءَ في المؤسَّسة ليقول لهم إنَّ الأمور بدأت تصل إلى حدود فاحشة، وإنَّ رؤساء الورش من العمَّال لا يكادون يكسبون ما يكفي لشراء ثلاثة لترات حليب يوميًّا. فردُّوا عليه ضاحكين بأنَّ ذلك غير مهمّ لأنَّ «هؤلاء الناس لا يشربون الحليب في أيّ حال». في أثناء ذلك، كنت قد فقدت عملي في المجلَّتين اللتين كنت أعمل فيهما، وكان عليّ أن أسجِّل برنامجي التلفزيونيّ تحت حراسة شرطيّ مسلَّح ببندقيَّة رشَّاشة في الاستوديو. لم تكن الرقابة وحدها هي التي تمنعني من العمل، فسرعان ما أدركت أنَّ الدكتاتوريَّة يناسبها وجود شخص من أُسرة ألليندي في برنامج تلفزيونيّ ساخر، لأنَّ ذلك هو أفضل دليل على أنَّ الحياة تجري بصورة طبيعيَّة في البلد. عندئذ استقلت. كنت أشعر بأنَّني مراقَبة، وكان الخوف يؤرِّقني في الليل، وغطَّت بشرتي قروحٌ كنت أحكّها حتى يسيل منها الدم. لقد غادر عدد كبير من أصدقائي إلى الخارج، واختفى بعضهم ولم يعد أحد يذكرهم، كأنَّه لم يكن لهم وجود على الإطلاق. زارني في مساء أحد الأيَّام رسَّامٌ لم أكن قد رأيته منذ شهور، وبينما نحن معًا على انفراد خلع قميصه

ليُريني الجروح التي ما زالت تنزف في جسده. لقد رسموا على ظهره بالسكّين الحرفَ الأوّل من اسم أالليندي. كانت أمّي تتّصل بي من الأرجنتين متوسّلة إليّ أن أكون حذرة وألّا أتدخّل في مشاكل حتى لا أتسبَّب بحدوث مصيبة. لم تكن تستطيع نسيان نبوءة المنجّمة ماريّا تيرسيا خواريث، فقد كانت تفكّر في أنّه مثلما تحقّقت نبوءتها بحمّام الدم، يمكن أن تتحقّق كذلك الإصابة بالجمود أو الشلل التي تنبّأت بها لي. ألا يكون تفسيرُ النبوءة قضاءَ سنوات في السجن؟ وهكذا بدأت أفكّر في إمكانيّة مغادرتي تشيلي، ولكنّني لم أجرؤ على إعلان ذلك بصوت عالٍ، لأنّه كان يُخيَّل إليّ أنّني إذا ما صغت فكرتي في كلمات، فستبدأ بالتحرّك مسنّناتُ آلةِ موت ودمار لا يمكن وقفها. كنت أُكثر من الذهاب للتسكُّع في دروب رابية سان كريستوبال، وهي الدروب نفسها التي كنت أجوبها قبل سنوات طويلة في نزهاتنا العائليّة، فأختبئ بين الأشجار لأصرخ بألم مغروس في صدري، وأحمل في أيّام أخرى بعضَ الطعامِ وزجاجة نبيذ في سلّة وأصعد إلى الرابية مع فرانثيسكو الذي كان يسعى، من دون جدوى، لمساعدتي بمعارفه النفسيّة. إنّه الشخص الوحيد الذي كنت أستطيع التحدُّث إليه عن نشاطاتي السرّيّة، وعن مخاوفي، وعن رغباتي الدفينة في الهرب من البلد. وكان يقول لي: «أنت مجنونة. أيّ شيء قد يحدث سيكون خيرًا من المنفى. كيف ستتركين بيتك وأصدقاءك ووطنك؟»

كان ابناي وغراني هم أوّل من لاحظ حالتي المعنويّة. فباولا التي كانت آنذاك طفلةً حكيمة في الحادية عشرة، ونيكولاس الذي يصغرها بثلاث سنوات، أدركا أنَّ الخوف والفقر يُحيطان بهما مثلَ ساقية لا

يمكن كبحها. لقد تحوّلا إلى طفلين صامتين وحذرين، وعلما بأنَّ زوج إحدى معلّماتهما في المدرسة، وهو نحّات صنع قبل الانقلاب العسكريّ تمثالًا نصفيًّا لسلفادور ألليندي، كان قد جرى اعتقاله على أيدي ثلاثة رجال مجهولين دخلوا مشغله فحطّموا كلّ شيء ومزّقوه، ثم أخذوه معهم. كان مكان اعتقاله مجهولًا، ولم تكن زوجته تتجرّأ على الحديث عن نكبتها كي لا تفقد وظيفتها، فقد كان التفكير، الذي لا يزال شائعًا آنذاك، هو أنَّ أيّ شخص يختفي لا بدَّ من أن يكون مذنبًا. لست أدري كيف عرف ابناي بالأمر وأخبراني به في تلك الليلة. كانا قد ذهبا لزيارة المعلّمة التي تسكن على مقربة من بيتنا، فوجداها متدثّرة بعدّة شالات في بيتها الغارق في الظلام، لأنَّها لم تستطع أن تدفع فاتورة الكهرباء أو تشتري وقودًا للمدفأة، فراتبها لا يكاد يكفي لإطعام أبنائها الثلاثة الذين أخرجتهم من المدرسة. قالت لي باولا: نريد أن نعطيهم درّاجتينا لأنّهم لا يملكون نقودًا يدفعونها للحافلة. وكان هذا ما فعلاه، وبدأت عمليّاتهما التهريبيّة السرّيّة تتزايد منذ ذلك اليوم. فلم تعد باولا تكتفي بإخفاء زجاجات خمر جدّتها وأخذ هدايا إلى المسنّين في ملجأ العجزة، بل أصبحت تحمل في حقيبتها معلّبات محفوظة وأكياس أرزّ للمعلّمة. بعد شهور من ذلك، حين رجع النحّات إلى بيته بعد أن اجتاز حيًّا التعذيبَ والسجن، صنع من الحديد والبرونز مسيحًا على الصليب وأهداه إلى الطفلين. ومنذ ذلك الحين ونيكولاس يحتفظ به معلّقًا على الجدار فوق سريره.

لم يكن ابناي يكرّران شيئًا من الكلام الذي يُقال في البيت، ولم يكونا يذكران شيئًا كذلك عن المجهولين الذين يأتون إلى بيتنا أحيانًا. صار نيكولاس يبلّل فراشه ليلًا، ويستيقظ خَجِلًا ويأتي إلى حجرتي

ليعانقني وهو يرتجف. كان علينا أن نُغدق عليه الحنان أكثر من أيِّ وقت مضى، ولكنّ ميشيل كان مثقَلًا بمشاكل عمَّاله، وكنت أعيش راكضة من عمل إلى آخر، فأزور الضواحي الفقيرة، وأخبِّئ الناس المطارَدين بأعصاب متوقِّدة كالجمر. وأظنّ أنَّ أيًّا منَّا، نحن الاثنين، لم يستطع أن يقدِّم إلى الصغيرين الأمانَ والعزاء اللذين يحتاجان إلى كلٍّ منهما. وفي أثناء ذلك، كانت تتنازع غراني قوى متناقضةٌ، فمن ناحية كان زوجها يحتفل بصلف الدكتاتوريَّة، ومن ناحية أخرى كنَّا نحن نروي لها أخبار القمع، فتحوَّل قلقها إلى رعب هستيريّ، وكان عالمها الصغير مهدَّدًا بقوًى إعصاريَّة. «كوني حذرة»، هذا ما كانت تقوله لي في كلِّ لحظة من دون أن تعرف هي نفسها ما الذي تعنيه بذلك، لأنَّ عقلها كان يرفض تقبُّل الأخطار التي يحذِّرها منها قلبها كجدَّة. لقد كانت حياتها كلّها تدور حول حفيديها. وعندما تشير إلى الإشاعات المشؤومة التي تلوِّث الهواء، يقول لها حموي: أكاذيب، إنَّها أكاذيب شيوعيَّة سوفياتيَّة للحطّ من سمعة تشيلي. ومثلما فعل ابناي، اعتادت هي أيضًا طمسَ شكوكها وتفادي التعليقات التي يمكن لها أن تجلب المصائب.

قامت الطغمة العسكريَّة، بعد سنة من الانقلاب، باغتيال الجنرال براتس في بوينس أيريس لأنَّها ظنَّت أنَّ القائد السابق للقوَّات المسلَّحة يمكنه من هناك أن يقود تمرُّدًا للضبَّاط الديموقراطيِّين. كما أنَّهم كانوا يخشون أن ينشر الجنرال براتس مذكَّراته ويكشف النقاب عن خيانة الجنرالات؛ فقد كانت تنتشر حتى ذلك الحين الروايةُ الرسميَّة عن أحداث الحادي عشر من أيلول، مبرِّرةً الأحداث ومبرزة بينوشيه إلى حدِّ البطولة. كان الجنرال براتس قد تلقَّى مكالمات هاتفيَّة ورسائل

مغفلة تحذِّره من أنَّ حياته في خطر. كما أنَّ العمّ رامون، الذي كان يُعتقد أنَّه يحتفظ بنسخة من مذكَّرات الجنرال براتس، تلقَّى تهديدات مماثلة في تلك الأيَّام نفسها، لكنَّه لم يأخذها على محمل الجدّ. أمّا براتس، فكان يعرف، في المقابل، جيِّدًا أساليبَ زملائه، ويعرف كذلك أنَّ فِرَق الموت التي بدأت تنشط في الأرجنتين تُقيم مع الدكتاتوريَّة التشيليَّة علاقةً وطيدة تقوم على تبادل الجثث والمعتقلين ووثائق التعريف بالمختفين. حاول، من دون جدوى، الحصول على جواز سفر لمغادرة ذلك البلد والذهاب إلى أوروبا، وقد تحدَّث العمّ رامون مع سفير تشيلي، وهو موظَّف قديم كان صديقًا له لسنوات طويلة، راجيًا منه تقديمَ المساعدة إلى الجنرال المنفيّ، ولكنَّهم أغرقوه بوعود لم تنفَّذ قطّ. وقبل منتصف ليل التاسع والعشرين من أيلول ١٩٧٤، انفجرت قنبلة في سيَّارة آل براتس لدى وصولهم إلى البيت بعد تناول العشاء مع والدي. لقد قذفت قوَّة الانفجار ببعض قطع الحديد الملتهب إلى مسافة مئة متر، ومزَّقت الجنرال إربًا، وقتلت زوجته في محرقة جهنَّميَّة. واجتمع، بعد لحظات من ذلك، في موقع المأساة، صحافيُّون تشيليُّون هرعوا إلى المكان قبل الشرطة الأرجنتينيَّة، وكأنَّهم كانوا ينتظرون حدوث عمليَّة الاغتيال عند الناصية.

اتَّصل بي العمّ رامون في الساعة الثانية فجرًا طالبًا منّي أن أُخبر بنات آل براتس، وأعلمني بأنَّه قد غادر بيته مع أمّي وأنَّه موجود في مكان سرِّيّ. وفي اليوم التالي، ركبت الطائرة متوجِّهة إلى بوينس أيريس في مهمَّة غريبة وعشوائيَّة، لأنَّني لم أكن أعرف أين سأجد أبوَيَّ. خرج للقائي في المطار رجل طويل جدًّا، أمسكني من ذراعي وقادني جرًّا تقريبًا إلى سيَّارة سوداء كانت تنتظر عند الباب. «لا

تخافي، أنا صديق»، قال لي ذلك بإسبانيَّة تشوبها لكنة ألمانيَّة قويَّة، وقد كانت في عينيه الزرقاوين طيبةٌ كبيرة، فصدَّقته. لقد كان تشيكوسلوفاكيًّا يعمل مع الأمم المتَّحدة، وكان يقوم بالإجراءات لنقل أبوَيَّ إلى بلد أكثر أمنًا، حيث لا يمكن لذراع الرعب الطويلة أن تصل. أخذني لرؤيتهما في شقَّة في وسط المدينة، حيث وجدتهما واجمَين ينظِّمان أمورهما للهرب. «انظري ما الذي يمكن لهؤلاء القَتَلَة أن يفعلوه، يا ابنتي، عليك أن تغادري تشيلي»، هكذا قالت لي أمِّي راجيةً مرَّة أخرى. لم يكن لدينا وقت طويل نُمضيه معًا، فما كادا ينتهيان من رواية ما حدث والإعراب عن استعدادهما لمساعدتي، حتى تمكَّن الصديق التشيكيّ في ذلك اليوم بالذات من إخراجهما من الأرجنتين. ودّعتهما بعناق يائس من دون أن ندري إذا كنَّا سنلتقي مجدَّدًا عمَّا قريب. وقالت لي أمِّي في اللحظة الأخيرة: واصلي الكتابة لي كلّ يوم، واحتفظي بالرسائل إلى أن يصير لي عنوان يمكنك إرسال الرسائل إليه. وبحماية الرجل الطويل ذي العينين الطيِّبتين، بقيتُ في تلك المدينة وأنا أحزم أثاثًا وأمتعة، وأدفع ديونًا وفواتير متأخِّرة، وأُعيد الشقَّة التي كان أبواي قد استأجراها، وأستصدر التصاريح اللازمة كي آخذ معي الكلبة السويسريَّة التي أصبحت نصف مجنونة بفعل القنبلة التي كانت قد انفجرت في السفارة. وقد أصبح هذا الحيوانُ الرفيقَ الوحيد لغرابتي عندما اضطررنا جميعنا إلى مغادرتها.

بعد أيَّام قليلة من ذلك، وفي منزل القائد الأعلى للجيش في سنتياغو حيث عاش آل براتس إلى أن اضطرُّوا إلى التخلِّي عن المنصب، رأت امرأة بينوشيه الجنرالَ براتس في وضح النهار جالسًا إلى طاولة المطبخ وظهره إلى النافذة، تضيئه شمس ربيعيَّة خجولة.

وبعد انقضاء هول الوهلة الأولى، أدركتْ أنَّها مجرَّد رؤيا من ضميرها الخبيث، ولم تُعطِ الأمرَ أهمِّيَّةً كبيرة. ولكنَّ شبح الصديق المغدور بدأ يظهر مرَّات كثيرة في الأسابيع التالية. كانت تراه بكامل قامته في الصالونات، أو نازلًا بخطوات ثابتة على الدرج، أو مطلًّا من الأبواب، إلى أن أصبح حضوره الملحُّ لا يُطاق. فأمر بينوشيه بتشييد منزل عملاق مُحاط بسور حصين يمكنه حمايته من أعدائه الأحياء والأموات، ولكنَّ المسؤولين عن أمنه اكتشفوا أنَّ ذلك البيت هدف سهل للقصف من الجوِّ. عندئذ أمر بتعزيز الجدران وتصفيح نوافذ البيت المسحور، وضاعف الحراسة المسلَّحة، وأقام متاريس رشَّاشات فيما حوله، وأغلق الشارع حتى لا يتمكَّن أحد من الاقتراب. ولست أدري كيف كان الجنرال براتس يرتِّب أموره ليتجاوز كلّ تلك الحراسة...

كان القمع قد وصل إلى الكمال، في أواسط عام ١٩٧٥، فسقطتُ ضحيَّة رعبي الشخصيّ بالذات. كنت أخشى استخدام الهاتف، وأراقب الرسائل التي أكتبها إلى أمّي خشيةَ أن يفتحوها في البريد، وأنتبه لتعليقاتي حتى وأنا وسط العائلة. حذَّرني بعض الأصدقاء، الذين لهم علاقة بالعسكريّين، من أنَّ اسمي وارد في القوائم السوداء، وتلقَّينا بعد وقت قصير من ذلك تهديدين بالقتل عبر الهاتف. كنت أعرف أنَّ هناك أُناسًا يحترفون إزعاج الآخرين لمجرَّد المتعة بزرع الرعب، وربَّما لم أكن لأهتمّ بمثل هذه المكالمات المجهولة. ولكنْ، بعد الذي حدث للزوجين براتس وهروب والدي بأعجوبة، لم أعد أشعر بالأمان. في مساء أحد الأيَّام، ذهبت مع

ميشيل والطفلين إلى المطار لوداع بعض الأصدقاء الذين اختاروا المغادرة مثل كثيرين غيرهم. لقد علموا بأنَّهم يقدِّمون في أستراليا أرضًا إلى المهاجرين الجدد، فقرَّروا أن يجرِّبوا حظَّهم كمزارعين. وبينما نحن ننظر إلى الطائرة التي تنطلق، اقتربت منِّي امرأة مجهولة وسألتني إذا كنت أنا التي تظهر في التلفزيون، وألحَّت عليّ أن أرافقها لأنَّها تريد أن تُخبرني بشيء على انفراد. ومن دون أن تُتيح لي الوقت للتفكير، أمسكت بذراعي وقادتني نحو دورة المياه، وحين أصبحنا وحدنا أخرجت من حقيبتها مغلَّفًا ووضعته بين يدي قائلة:

ـ أوصلي هذا المغلَّف، إنَّها مسألة حياة أو موت. يجب أن أغادر في الطائرة التالية والرسول لم يأتِ، وليس في إمكاني الانتظار وقتًا أطول.

جعلتني أكرِّر العنوان مرَّتين لتتأكَّد من أنَّني حفظته، ثم مضت راكضة.

وحين رآني ميشيل أخرج من دورة المياه، سألني:

ـ من تكون؟

ـ ليست لديّ أيّ فكرة. طلبت منِّي أن أوصل هذا المغلَّف، وقالت إنَّه مهمّ جدًّا.

ـ وما هذا المغلَّف؟ لماذا قبلت أخذه منها؟ قد يكون فخًّا...

كلّ هذه الأسئلة وغيرها كثير قد خطرت لنا فيما بعد وأرّقتنا لوقت طويل من الليل. لم نشأ فتح المغلَّف لأنَّ من الأفضل عدمَ معرفة مضمونه، ولم نتجرَّأ على إيصاله إلى العنوان الذي أشارت إليه المرأة،

ولم نستطع إتلافه كذلك. وأعتقد أنَّ ميشيل قد اقتنع في تلك الساعات بأنَّني لا أبحث عن المشاكل، وإنَّما المشاكل هي التي تخرج لمواجهتي. وقد استطعنا أن نرى أخيرًا مدى تشوُّه الواقع في كون مسألة بسيطة، مثل تسليم رسالة، قد تكلِّفنا حياتنا، وفي أنَّ موضوع التعذيب والموت صار جزءًا من الحديث اليوميّ كأمر مقبول تمامًا. عند الفجر، فردنا خريطة للعالم على طاولة غرفة الطعام لنرى أين يمكننا الذهاب. في ذلك الحين، كان نصف سكَّان أميركا اللاتينيّة يعيشون في ظلِّ دكتاتوريَّات عسكريَّة؛ فبحجَّة مكافحة الشيوعيَّة تحوّلت القوَّات المسلَّحة في بلدان عديدة إلى مرتزقة للطبقات ذات الامتيازات، وإلى أداة لقمع أكثر الطبقات فقرًا. وفي العقد التالي، خاض العسكريُّون حربًا لا هوادة فيها ضدَّ شعوبهم بالذات، فمات ملايين الأشخاص واختفوا وخرجوا إلى المنافي، ولم تشهد القارَّة من قبلُ مثلَ تلك الحشود البشريَّة الواسعة تجتاز الحدود. اكتشفت أنا وميشيل، في فجر ذلك اليوم، أنَّه لم يبق إلَّا ديموقراطيَّات قليلة يمكن البحث عن ملجأ فيها، وأنَّ عددًا منها، مثل المكسيك وكوستاريكا وكولومبيا، لم تعد تمنح سمات دخول للتشيليّين، لأنَّ كثيرين منهم قد هاجروا إليها خلال فترة السنة ونصف السنة السابقة. وما إن رُفع منع التجوُّل في ذلك الصباح حتى تركنا الطفلين مع غراني وأعطيناهم بعض التعليمات في حالة عدم عودتنا، وذهبنا لتسليم المغلَّف في العنوان المنشود. قرعنا جرس بيت قديم في أحد شوارع مركز المدينة، ففتح لنا الباب رجل يرتدي ملابس الجينز، وقد شعرنا بالاطمئنان عندما رأينا ياقة أسقف حول عنقه. وتعرَّفنا فورًا إلى لكنته البلجيكيَّة لأنَّنا كنَّا قد عشنا فترة في تلك البلاد.

بعد أن هرب العمّ رامون وأمّي من الأرجنتين، وجدا نفسيهما بلا مكان يستقرّان فيه، وكان عليهما أن يتقبّلا، طوال شهور، الإقامةَ في ضيافة أصدقاء لهما في الخارج، من دون أن يجدا مكانًا يستطيعان فيه فتح حقائبهما بصورة نهائيّة. وتذكّرت أمّي، في أثناء ذلك، صديقَها الفنزويليّ الذي تعرّفت إليه في مستشفى أمراض الشيخوخة في رومانيا. وفي استجابة لهاجس قلبيّ، بحثت عن بطاقته التي احتفظت بها خلال كلّ تلك السنوات واتّصلت به في كاراكاس لتخبره، بكلمات قليلة، بكلِّ ما جرى لها. فكان ردّ ڤالينتين هيرنانديث الفوري: «تعالي يا امرأة، يوجد هنا متّسع للجميع». وقد وفّر لنا ذلك فكرة الإقامة بفنزويلا، وعرفنا أنّه بلد أخضر وكريم، حيث يوجد لنا صديق ويمكننا البقاء هناك لبعض الوقت ريثما تتبدّل الأوضاع في تشيلي. بدأت أخطّط للرحلة مع ميشيل: علينا أن نؤجّر البيت، وأن نبيع الأثاث ونحصل على عمل، ولكن كلّ شيء تسارع في أقلّ من أسبوع. ففي يوم الأربعاء ذاك، رجع الطفلان من المدرسة مذعورين، فقد اعتدى عليهما مجهولون في الشارع، وبعد أن هدّدوهما أعطوهما رسالة ليوصلاها إليّ: قولا لأمّكما القحبة إنّ أيّامها أصبحت معدودة.

رأيت، في اليوم التالي، جدّي للمرّة الأخيرة. إنّني أتذكّره دائمًا جالسًا على الكرسيّ الذي اشتريته له قبل سنوات طويلة من مزاد علنيّ، بشعره الطويل الأبيض وعكّاز الفلّاح الذي يمسكه بيده. لا بدّ من أنّه كان طويل القامة في شبابه، لأنّ ذلك كان يبدو عليه حتى وهو جالس، ولكن مع تقدُّمه في السنّ بدأت مرتكزات جسده تتشوّه، وتحطّم مثلَ بناء خذلته أساساته. لم أستطع وداعه. لم أملك الجرأة على القول له إنّني ذاهبة، ولكنّني أظنّه حدس بذلك.

ـ هنالك أمر يؤرِّقي منذ زمن طويل يا تاتا... هل أقدمتَ على قتل رجل في أحد الأيَّام؟

ـ ولماذا توجِّهين إليَّ مثل هذا السؤال الذي لا أساس له؟

«لأنَّك متهوِّر الطباع»، قلت له ذلك وأنا أفكِّر في جسد الصيَّاد الممدَّد على الرمل، في أزمنة الثامنة من عمري البعيدة.

فقال العجوز:

ـ أنت لم تريني أحمل سلاحًا قطّ، أليس كذلك؟ لديَّ أسباب كثيرة لعدم الثقة بالأسلحة. عندما كنت شابًا، استيقظت في فجر أحد الأيَّام على صوت طَرَقات على نافذة غرفتي. قفزت من سريري، وتناولت مسدَّسي وأنا لا أزال نصف نائم، ثم تطلَّعت من النافذة وضغطت على الزناد. أيقظني دويّ الرصاصة تمامًا، وعندئذ تنبَّهت مذعورًا إلى أنَّني أطلق النار على بعض الطلّاب العائدين من حفلة. وكان أحدهم قد لمس أباجور النافذة بمظلَّته. الحمد لله أنَّني لم أقتله، لقد نجوت بأعجوبة من قتل إنسان بريء. ومنذ ذلك الحين أحتفظ بأسلحة الصيد في الكراج. إنَّني لم أستخدمها منذ سنوات طويلة.

كان ذلك صحيحًا. فقد كان يعلِّق على إحدى قوائم سريره «بوليادورا»، مثلَ تلك التي يستخدمها «الغاوتشو» الأرجنتينيُّون، وهي عبارة عن كرتين حجريَّتين متَّصلتين بحبل جلديّ طويل، وكان يحتفظ بها في متناول يده ليستخدمها إذا دخل أحد ليسرقه.

ـ ألم تستخدم البوليادورا أو هراوة لقتل أحد؟ شخص ما أغضبك أو ألحق الأذى بأحد أفراد أُسرتك؟

ـ لست أدري على أيِّ شياطين تتكلَّمين يا ابنتي. هذا البلد يغصّ بالقتلة، ولكنَّني لست واحدًا منهم.

كانت تلك هي المرَّة الأولى التي يُشير فيها إلى الوضع الذي نعيشه في تشيلي، فقد كان يقتصر حتى ذلك الحين على الاستماع بصمت، وبشفتين مزمومتين، إلى القصص التي كنت أرويها له. نهض واقفًا بجلبة عظام ولعنات، وكان يتكلَّف مشقَّة كبيرة في المشي، ولكنّ أحدًا لم يكن يتجرَّأ على الحديث في حضوره عن إمكانيَّة استخدام كرسيٍّ ذي عجلات، وأشار إليّ بأن أتبعه. لم يكن قد تبدَّل أيّ شيء في تلك الغرفة منذ وفاة جدَّتي، فقطع الأثاث السوداء ما زالت في مواقعها، وكذلك الساعةُ ذات البرج، ورائحةُ الصابون الإنكليزيّ المحفوظ في الخزانة. فتح درج منضدته بمفتاح يحتفظ به دائمًا في أحد الصناديق، فأخرج منه علبة بسكويت قديمة وأعطاني إيَّاها.

قال بصوت منكسر:

ـ كان هذا لجدَّتك وهو الآن لك.

ـ أريد الاعتراف لك بشيء يا تاتا...

ـ ستقولين إنَّك قد سرقت مرآة ميمي الفضِّيَّة...

ـ وكيف عرفت أنَّني أنا؟

ـ لأنَّني رأيتك. نومي خفيف. وبما أنَّ المرآة لديك، يمكنك الاحتفاظ بالأشياء الأخرى. هذا كلّ ما هو موجود من ميمي، ولكنَّني لا أحتاج إلى هذه الأشياء كي أتذكَّرها، وأفضِّل أن تبقى بين يديك، لأنَّني لا أريد أن يرموا بها إلى القمامة بعد موتي.

ـ لا تفكِّر في الموت يا تاتا.

ـ في مثل سنّي لا يمكن التفكير في شيء آخر. من المؤكَّد أنّي سأموت وحيدًا، مثل كلب.

ـ أنا سأكون معك.

ـ عسى ألّا تكوني قد نسيت وعدك لي. فإذا كنت تفكّرين في الذهاب إلى مكان ما، فتذكّري أنَّ عليك أنْ تساعديني على الموت بوقار حين تحين اللحظة.

ـ موافقة يا تاتا، لا تقلقْ.

سافرت في اليوم التالي وحدي متوجّهة إلى فنزويلا. لم أكن أعرف أنّني لن أعود إلى رؤية جدّي. أنجزت معاملات المطار وأنا أضمّ بقايا جدَّتي إلى صدري. كانت علبة البسكويت تضمّ بقايا إكليل أزهار من الشمع، وقفّازين طفوليَّين من جلد الغزال لهما لون الزمن، وكتاب صلوات قديمًا بغلاف من الصدف. وكنت أحمل معي كذلك حفنة من تراب حديقتنا في كيس بلاستيكيّ، كي أزرع فيه نبتة «لاتنسيني» في مكان آخر. الموظَّف الذي تفحَّص جواز سفري رأى كثرة أختام الدخول إلى الأرجنتين والخروج منها، ورأى بطاقتي الصحافيَّة، وأعتقد أنَّه لم يجد اسمي في قائمته، فتركني أخرج. ارتفعت الطائرة فوق فرشة من الغيوم، وبعد دقائق كانت تجتاز قمم سلسلة جبال الأنديز المكلَّلة بالثلوج. تلك القمم البيضاء البارزة فوق الغيوم الشتائيَّة كانت الصورةَ الأخيرة التي احتفظت بها من وطني. وكنت أردِّد كما في صلاة: سأعود، سأعود.

وُلدت حفيدتي أندريا في غرفة التلفزيون، في واحد من أوَّل أيَّام الربيع الدافئة. تقع شقَّة سيليا ونيكولاس في الطابق الثالث من مبنًى بلا مصعد؛ وهو وضع غير عمليّ في حالات الطوارئ، ولهذا اخترنا الطابق الأرضيَّ من بيتنا لإخراج الطفلة إلى الدنيا. إنَّها حجرة واسعة لها نوافذ تطلّ على شرفات، وفيها نعيش حياتنا اليوميَّة. في الأيَّام الصافية، يمكن رؤية ثلاثة جسور على الخليج، وفي الليالي الضبابيَّة نرى منها أضواء بيركلي على الجانب الآخر من الماء. لقد تآلفت سيليا مع أسلوب الحياة في كاليفورنيا كثيرًا، حتى إنَّها قرَّرت تطبيق طريقة «الموسيقى الكونيَّة» حتى النهاية، متجاوزةً المستشفى والأطبَّاء، كي تضع مولودتها وسط الأُسرة. بدأ أوَّل الأعراض بالظهور عند منتصف الليل، وعند الفجر وجدت سيليا نفسها فجأة مبلَّلة بماء كيس الجنين، فانتقلت بعد ذلك بقليل هي وزوجها إلى بيتنا. رأيتهما يظهران مبهورين مثل ضحايا الكوارث الطبيعيَّة. كانا ينتعلان خفَّين بيتيَّيْن، ومعهما حقيبةٌ سوداء مهترئة تضمّ لوازمهما، ويحملان ابنهما أليخاندرو الذي لا يزال شبه نائم وهو في البيجاما. لم يكن الصغير يتصوَّر أنَّه سيكون عليه بعد ساعات قليلة أن يتقاسم المكان مع أخت جديدة، وأنَّ مملكته الشموليَّة، كابن وحيد وحفيد وحيد، ستنتهي إلى الأبد. بعد ساعات قليلة جاءت القابلة، وهي امرأة شابَّة مستعدّة للمجازفة بالعمل في البيوت. كانت تقود شاحنة صغيرة محمَّلة بأجهزة مهنتها، وترتدي ملابس عاديَّة مع بنطال قصير وحذاء رياضيّ. وقد اندمجت جيِّدًا مع روتين الأُسرة، حتى إنَّها دخلت المطبخ بعد قليل من مجيئها لتعدَّ وجبة الفطور لويللي. وكانت سيليا، في أثناء ذلك، تتمشَّى مستندة إلى نيكولاس من دون أن تفقد الهدوء. كانت تأخذ أنفاسًا قصيرة حين

يهاجمها الألم، وتستريح حين يمنحها الجنين في بطنها بعض الهدنة. تحمل كنَّتي في عروقها أغنيات سرِّيَّة تُعْلِم بإيقاع خطواتها عندما تمشي، وخلال تشنُّجات المخاض تلهث وتهتزّ كأنَّها تسمع في داخلها قرع طبول فنزويليَّة. بدا لي عندما اقتربت النهاية أنَّها تشدّ على يديها في بعض اللحظات وتنعكس لمحة خوف في عينيها، لكن سرعان ما كان زوجها يشدّ بصرها إليه ويهمس إليها شيئًا من الشيفرة الخاصَّة بالأزواج، فتسترخي من توتُّرها. وهكذا انقضى الوقت، عاصفًا بالنسبة إليَّ وبطيئًا جدًّا بالنسبة إليها، هي التي تحمَّلت هذه التجربة من دون أيّ شكوى ومن دون مهدِّئ أو مخدِّر. لقد كان نيكولاس يمنحها القوَّة. أمَّا مشاركتي البائسة، فقد اقتصرت على أن أقدِّم إليها الثلجَ المبشور وعصيرَ التفَّاح، واقتصرت مشاركة ويللي على إلهاء أليخاندرو الصغير. وبينما كانت القابلة تتابع الأحداث من مسافة حذرة من دون أن تتدخَّل، كنت أتذكَّر تجربتي المختلفة تمامًا عندما أنجبت نيكولاس. فمنذ اللحظة التي اجتزتُ فيها عتبة المستشفى فقدت إحساسي بهويَّتي وتحوَّلت إلى مريضة بلا اسم؛ إلى مجرَّد رقم. عرُّوني من ملابسي وقدَّموا إليَّ رداءً مفتوحًا من الخلف، وقادوني إلى مكان معزول، حيث تمَّ إخضاعي لأعمال إذلال إضافيَّة، ثم تُركت وحدي. وبين الحين والآخر، كان أحدهم يأتي ليستكشف ما بين ساقَيَّ. كان جسدي بكامله قد تحوَّل إلى مغارة واحدة نابضة وموجوعة. أمضيت نهارًا، ثم ليلة، وجزءًا لا بأس به من اليوم التالي، في هذه المهمَّة المنهكة، وكنت متعبة وشبه ميِّتة من الخوف. وأخبروني أخيرًا بأنَّ عمليَّة الانفصال قد أوشكت، وأخذوني إلى أحد أجنحة المستشفى. مدَّدوني على ظهري فوق طاولة معدنيَّة، حيث كانت عظامي تنسحق

وتبهر عيونيَ الأضواءُ الساطعة، واستسلمت هناك للألم. لم يكن هنالك ما يعتمد عليّ، فالجنين يحرّك ذراعيه كي يخرج، وعظام حوضي تنفتح لمساعدته من دون أيّ تدخُّل من إرادتي. كلّ ما كنت قد تعلَّمته من الكتب والدورات المكثَّفة لم يُفِدْني في شيء. هنالك لحظات لا يمكن فيها وقف الرحلة التي بدأناها، إذ نتدحرج نحو حدّ ما، ونمرّ عبر بوّابة غامضة لنجد أنفسنا في الجانب الآخر... في حياة أخرى. يدخل الطفل الدنيا وتدخل الأمّ حالة أخرى من الوعي، ولا يمكن لأيٍّ منهما أن يعود إلى الوضع الذي كان عليه من قبل. مع ولادة نيكولاس، دخلتُ العالم الأنثويّ، فالعمليّة القيصريّة في ولادتي السابقة حرمتني طقسًا فريدًا لا تشارك فيه إلّا إناث الثدييات. إنّ العمليَّة البهيجة في الحَبَل بطفل، والصبرَ بحمله، والقوَّةَ في إخراجه إلى الحياة، والشعورَ العميق بالدهشة الذي تنتهي به تلك العمليّة، لا يمكن مقارنتها كلها إلّا بإبداع كتاب. إنَّ الأولاد، مثل الكتب، هم رحلة إلى أعماق النفس حيث الجسد والعقل والروح، يبدِّلون اتّجاههم، ويتحوَّلون إلى مركز الوجود نفسه.

جوُّ الطمأنينة السعيدة الذي خيَّم على بيتنا عند ولادة أندريا لا يشبه في شيء كَربي في جناح التوليد ذاك قبل خمسة وعشرين عامًا. قامت سيليا عند الأصيل بإعطاء إشارة، فساعدها نيكولاس في الصعود إلى السرير، وفي أقلّ من دقيقة كانت قد انتصبت في الغرفة الأجهزةُ والأدواتُ التي أحضرتها القابلة من شاحنتها. بدا على هذه الفتاة ذات البنطال القصير كأنَّها قد هرمت فجأة، فقد تبدَّلت نبرة صوتها، وانعكست على وجهها ذي النَّمَش آلافُ السنين من الخبرة النسائيَّة. غمزتني قائلة: اغسلي يديك واستعدّي، فهناك الآن عمل لك. عانقت

سيليا زوجها، ثم صرّت على أسنانها ودفعت. وعندئذ، وسط دفقة من الدم، برز رأسٌ مغطًّى بشعر أسود ووجهٌ صغير مسطّح وأرجوانيّ، فأسندته بإحدى يدَيَّ كأنَّه كُمّ زهرة، بينما رحت أفكّ بحركة سريعة الحبلَ المائل إلى الزرقة والذي كان ملتفًّا على العنق. وبدفعة قويَّة أخرى من الأمّ، برز بقيَّة جسد حفيدتي، حزمة دامية وهشَّة، أكثر الهدايا روعة. وبانتحاب سحيق، أحسست في أعماقي بالذات بتجربة الإنجاب المقدَّسة، بالجهد، وبالألم، وبالفزع، وشكرت بإعجاب شجاعةَ كنَّتي البطوليَّة وإعجازَ جسدها القويِّ وروحها النبيلة المخلوقة من أجل الأمومة. بدا لي أنَّني أرى نيكولاس من خلال حجاب رقيق يتناول الوليدة من يدَيّ بانفعال ليضعها في حضن أمّها. فتململت الأمّ بين الوسائد لاهثة، مبلَّلةً بالعرق، ومتحوّلةً بنور داخليّ، وغير عابئة تمامًا ببقيَّة جسدها الذي ما زال ينبض وينزف، وأطبقت بذراعيها بحنان على طفلتها ومالت عليها مرحِّبة بها بشلَّال من الكلمات العذبة بلغة ابتدعتها لتوِّها، وهي تقبِّلها وتشمّها مثلما تفعل جميع الإناث، ثم وضعتها على ثديها، في أقدم حركة عرفتها الإنسانيَّة. تجمَّد الزمن في الحجرة، وتوقَّفت الشمس فوق ورود الشرفة، فقد حبس العالم أنفاسه احتفالًا بأعجوبة هذه الحياة الجديدة. قدَّمت إليَّ القابلة مقصًا، فقطعت به الحبل السرِّي وبدأت أندريا حياتها منفصلة عن أمّها. من أين أتت هذه الصغيرة؟ أين كانت قبل أن تنبت في بطن سيليا؟ لديَّ ألفُ سؤال أوجّهه إليها، ولكنَّني أخشى أنَّها حين ستتمكَّن من الردِّ على أسئلتي ستكون قد نسيت كيف كانت السماء... صمت ما قبل الولادة، وصمت ما بعد الموت، والحياة هي مجرَّد صخب بين صمتين لا قرار لهما.

أمضت باولا شهرًا في مصحّ إعادة التأهيل، وقد انتهوا في أثناء ذلك من فحصها وقياسها من الداخل والخارج، ثم سلّموا إلينا تقريرًا محبِطًا. جاء ميشيل من تشيلي، وكان أرنستو موجودًا هنا أيضًا في إجازة خاصّة من عمله. لقد تمكّن من نقل وظيفته إلى نيويورك. أصبحنا على الأقلّ في بلد واحد، على بعد ساعات في حالة الطوارئ، وفي متناول الهاتف كلّما هزمنا الحزنُ. لم يكن قد رأى زوجته منذ أحضرناها من مدريد في تلك الرحلة الكابوسيَّة. وعلى الرَّغم من أنَّني أُطلعه دائمًا على كلِّ التفاصيل، فإنَّه انبهر لرؤيتها في ذلك الجمال وذلك الغياب عن الوعي. هذا الرجل مثل بعض الأشجار التي تصمد في وجه رياح إعصاريَّة عاتية، بالانحناء، ولكنَّها لا تنكسر. جاء حاملًا معه هدايا إلى باولا. دخل مستعجلًا غرفتها، واحتضنها بذراعيه وقبَّلها هامسًا بمدى شوقه إليها، وبكم أصبحت جميلة، بينما هي تنظر بثبات إلى الأمام بعينيها اللتين فقدتا البريق، مثلَ دمية. استلقى بعد ذلك إلى جانبها ليُريها صورًا من شهر عسلهما، ويذكِّرها بالأيَّام السعيدة في السنة الماضية. وأخيرًا، ناما، كلاهما، مثلَ زوجين عاديَّين في ساعة القيلولة. أرجو له أن يجد امرأة سليمة، ذاتَ روح طيِّبة، مثل باولا، وأن يكون سعيدًا بعيدًا عن هنا. يجب ألَّا يبقى مقيَّدًا بأمرأة مريضة بقيَّةَ حياته، ولكنَّني لا أستطيع حتى الآن أن أحدِّثه، فما زال الوقت مبكّرًا والأطبَّاء والمعالجون الذين يشرفون على باولا جمعوا أفراد الأُسرة وأطلعوهم على حُكمهم: مستوى وعيها معدوم، ولا وجود لعلائم تبدُّل خلال هذه الأسابيع الأربعة. لم يستطيعوا إقامة أيِّ نوع من التواصل معها، والأمر الأكثر واقعيَّة هو أنَّها ستمضي نحو الأسوأ.

لن تستعيد القدرة على الكلام أو البلع، ولن تتمكّن مطلقًا من الحركة وفق إرادتها، ومن الصعب أن تتوصّل إلى التعرُّف إلى أحد، وأكّدوا أنَّ إعادة تأهيلها مستحيلة، لكنَّ التمرينات ضروريَّة للحفاظ على مرونتها. ونصحوا أخيرًا بوضعها في مؤسَّسة لأمراض من هذا النوع، لأنَّها في حاجة إلى عناية دائمة ولا يمكن تركها وحدها دقيقة واحدة. تلا كلماتِ التقرير الأخير صمتٌ طويل. وفي الجهة المقابلة من الطاولة، كان يجلس نيكولاس وسيليا وطفلاهما بين ذراعي أمّه حينًا ومع أبيه حينًا، وأرنستو الذي يضع رأسه بين راحتيه.

«من المهمّ أن تقرّروا ما يجب عمله في حالة إصابتها بذات الرئة أو أيّ التهاب خَطِر. هل تختارون العلاج الخشن؟» سأل ذلك أحدُ الأطبَّاء.

ولكن أيًّا منَّا لم يفهم معنى كلماته، فأوضح قائلًا:

ـ إذا قُدِّمت إليها جرعات مكثّفة من المضادَّات الحيويَّة، أو إذا وُضعت في العناية المشدَّدة كلَّما تعرَّضت لشيء من ذلك، فقد تعيش لسنوات طويلة. أمَّا إذا لم تتلقَّ علاجًا فسوف تموت في وقت أسرع.

رفع أرنستو وجهه والتقت عيناي عينيه، ثم نظرت إلى نيكولاس وسيليا، فأومأ إليّ الثلاثة من دون اتّفاق مسبق. فقلت بصوت حازم لا يمكن التعرُّف إلى أنّه صوتي:

ـ لن ترجع باولا إلى وحدة العناية المشدَّدة، ولن نعذّبها كذلك بعمليَّات نقل دم جديدة ولا بمخدّرات أو فحوصات مؤلمة. وإذا كانت حالتها خطرة، فسنكون إلى جانبها لنساعدها على الموت.

خرج ميشيل من القاعة مشوَّشًا ثم رجع بعد بضعة أيَّام إلى تشيلي.

أصبح واضحًا في تلك اللحظة أنَّ ابنتي سترجع إلى حضني، وأنَّني وحدي مَن سأكون مسؤولة عن حياتها ومَن سأتَّخذ القرار في لحظة موتها. أنا وهي وحدنا معًا، مثلما كنَّا يوم ولادتها. أحسست بدفق من القوَّة يهزّ جسدي مثلَ تيَّار كهربائيّ، وأدركت أنَّ كلّ محن طريق حياتي الطويل لم تكن إلَّا إعدادًا قاسيًا من أجل هذه التجربة. لست مهزومة. ما زال أمامي الكثير لأعمله، فالطبُّ الغربيّ ليس الخيار الوحيد لمثل هذه الحالات. سأطرق أبوابًا أخرى وألجأ إلى أساليب مختلفة، بما في ذلك أكثرُها غرابة، كي أنقذ ابنتي. لقد فكَّرت منذ البداية في نقلها إلى البيت، ولهذا السبب كنت خلال الشهر الذي أمضته في مصحّ إعادة التأهيل أتدرَّب على العناية بها وعلى استخدام أجهزة المعالجة الفيزيائيَّة. وخلال أقلّ من ثلاثة أيَّام، حصلت على المعدَّات اللازمة، ابتداءً من سرير كهربائيّ وحتى رافعة لتحريكها، وتعاقدت مع أربع نساء من أميركا الوسطى لمساعدتي في ورديَّات نهاريَّة وليليَّة. قابلت خمس عشرة متقدِّمة واخترت مَن بَدَت لي منهنَّ أكثرَ عاطفةً، لأنَّ مرحلة الكفاءة العلميَّة قد انقضت، ودخلنا مرحلة الحبّ. جميعهنَّ كنَّ مشحونات بماضٍ مأساويّ، ولكنَّهنَّ يحتفظن مع ذلك بنداوة ابتسامة أموميَّة. تحمل إحداهنَّ آثار جروح بالسكاكين في ساقيها وذراعيها؛ لقد قتلوا زوجها في السلفادور، وتركوها، معتقدين أنَّها ميّتة، وسط بركة من الدم مع صغارها الثلاثة. وتمكَّنت بطريقة أو بأخرى من الزحف إلى أن وجدت من يساعدها، ثم هربت بعد ذلك بقليل من بلدها، تاركةً أطفالها مع جدَّتهم. وواحدة أخرى منهنَّ قادمةٌ من نيكاراغوا، ولم تكن قد رأت أبناءها الخمسة منذ سنوات عديدة، ولكنَّها تفكِّر في إحضارهم واحدًا واحدًا. إنَّها تعمل وتوفِّر السنت الأخير كي تجتمع معهم يومًا. تحوَّل

الطابق الأوَّل من البيت إلى مملكة لباولا، لكنَّه بقي كذلك غرفةَ جلوس الأُسرة، مثلما كان في السابق، حيث التلفزيون والموسيقى ولُعَبُ الأطفال. وُلدت أندريا منذ أسبوع، في هذه الحجرة نفسها، وفيها ستعيش عمَّتها طوال الوقت الذي ترغب في أن تبقاه في هذا العالم. كانت تظهر من النوافذ أزهارُ الجرانيوم الصيفيَّةُ والورودُ المغروسة في براميل، وهي الصديق الوفيُّ في فترات المحن الكثيرة. طلى نيكولاس الجدران بالأبيض، وأحطنا السرير بصورة فوتوغرافيَّة من سنوات سعادتها، وصورٍ للأقرباء والأصدقاء، ووضعنا على رفٍّ دميتَها القماشيَّة. كان من المستحيل إخفاءُ الأجهزة الضخمة التي تحتاج إليها، ولكنَّ الغرفة كانت مع ذلك أكثر راحةً من غرف المستشفى الذي عاشت فيه الشهورَ الأخيرة. في ذلك الصباح المشمس الذي وصلت فيه ابنتي في سيَّارة إسعاف، بدا البيت كأنَّه قد انفتح بسعادة لاستقبالها. عمّ النشاط والصخب والحماسة، خلال النصف الأوّل من الساعة الأولى، ولكنَّ العمل انتهى فجأة، فقد وُضعت في سريرها وبدأت الحياة الروتينيَّة، وانصرفت الأُسرة إلى أعمالها اليوميَّة، وبقيت أنا وإيَّاها وحدنا. تنبَّهتُ عندئذ لصمت البيت الساكن وهدوئه، فجلست إلى جوارها وأمسكت يديها. كان الوقت يزحف ببطء شديد. مضت الساعات ورأيت تبدُّل لون الخليج، ثم غابت الشمس وبدأ يخيِّم ظلام حزيران المتأخِّر. دخلت من النافذة المفتوحة قطَّةٌ كبيرة ذاتُ بقع رماديَّة لم أكن قد رأيتها من قبل، وقامت بجولة في الغرفة للتعرُّف إلى المكان، ثم صعدت إلى السرير بقفزة واحدة واستلقت عند قدمي باولا. لقد انتهى سباق الحياة المتسارع بالنسبة إليّ، ودخلت إيقاع باولا، حيث الزمنُ راكد في الساعات.

ليس هناك ما أفعله. لديَّ أيَّام وأسابيع وسنوات أُمضيها إلى جوار سرير ابنتي، أعدّ الساعات من دون أن أعرف ما الذي أنتظره. أعرف أنَّها لن تعود كما كانت من قبل، فعقلها قد ذهب إلى حيث لا يعرف أحد، ولكن جسدها وروحها ما زالا هنا. لقد كان الذكاء أبرز ملامحها المُبهرة، وكانت طِيبةُ قلبها تُكتَشف من النظرة الثانية، ولست أستطيع أن أصدِّق أنَّ دماغها المتميِّز قد تحوَّل إلى مجرَّد لطخة سوداء في الصور الشعاعيَّة، وأنَّ ميلها إلى الدراسة ومزاجَها المرح وذاكرتَها في حفظ أدقّ التفاصيل قد تلاشت كلّها إلى الأبد. إنَّها الآن مثل نبتة، هكذا قال الأطبَّاء. يمكن للقطَّة أن تغويني كي أقدِّم إليها طعامًا وأتركها تنام على السرير، أمّا ابنتي فلا تتعرَّف إليّ، ولا يمكنها حتى أن تشدّ على يدي لتشير إلى شيء ما. لقد حاولت تعليمها أن ترمش. مرَّةٌ واحدة تعني نعم، ومرَّتان تعنيان لا، ولكن من دون جدوى. إنَّها موجودة معي هنا على الأقلّ، في هذا البيت، تحت حمايتنا جميعًا. لن يعود أحد إلى مهاجمتها بعد اليوم بالإبر والمجسّات، ولن تتلقَّى من الآن فصاعدًا إلَّا المداعبات الحانية والموسيقى والأزهار. مهمَّتي هي الحفاظ على سلامة جسدها وحمايتها من الآلام، وهكذا تنال روحُها الأمان لإنجاز ما تبقَّى من مهمَّتها على الأرض. صمت. هنالك فائض من الساعات من أجل عمل لا شيء. أتوصَّل إلى وعي ماهيَّة جسدي؛ تنفُّسي؛ الطريقةِ التي يتوزَّع فيها ثقلي على الكرسيّ. العمود الفقريّ يسندني والعضلات تستجيب لرغباتي. أقرِّر أنَّني أريد أن أشرب ماءً، فترتفع ذراعي وتمسك يدي الكأس بالقوَّة والإرادة اللازمتين تمامًا. أشرب وأشعر بحركات اللسان والشفتين، وبالمذاق البارد في فمي، وبالسائل البارد ينزلق عبر الحلق. لا يمكن لابنتي المسكينة أن

تفعل شيئًا من هذا كلّه. إذا رغبت في تناول الماء فلا يمكنها طلبه، عليها أن تنتظر إلى أن يحزر أحد حاجتها إليه ويأتي ليسكب لها الماء بحقنة عبر الأنبوب المغروس في معدتها. إنَّها لا تشعر بلذَّة إطفاء الظمأ. شفتاها جافَّتان دائمًا، لا أكاد أستطيع ترطيبهما إلَّا قليلًا، لأنَّني إذا بلَّلتهما يمكن للماء أن ينزلق إلى الرئتين. محتجزتان، كلتانا، في هذه المعترضة الفظَّة. صديقاتي نصحنني باللجوء إلى الدكتورة شيري فورستر، الخبيرةِ بالتعامل مع المرضى الميؤوس منهم، والمشهورة بأنَّها رحيمة. اتَّصلت بها وفوجئت بأنَّها قد قرأت كتبي وأنَّها مستعدَّة لرؤية باولا في البيت. إنّها امرأة شابَّة لها عينان سوداوان وملامح حادَّة. حيَّتني معانقة، واستمعت بقلب مفتوح إلى قصَّة ما جرى، ثم سألتني أخيرًا:

ـ ما الذي تريدينه منِّي؟

ـ المساعدة للإبقاء على باولا سليمة ومرتاحة، والمساعدة من أجل لحظة موتها، والمساعدة للبحث عن أساليب أخرى. أعرف أنَّ الأطبَّاء لا يستطيعون عمل شيء من أجلها. سأحاول من خلال الطبّ البديل؛ الأولياءِ الصالحين؛ الأعشابِ؛ الطبِّ التجانسيّ، وكلّ ما يمكن الحصول عليه.مكتبة سُر مَن قرأ

ـ وهذا ما كنت سأفعله لو أنَّها ابنتي، ولكن لا بدّ من أن يكون ثمَّة حدٌّ لهذه التجارب. لا يمكنك العيش على الأوهام، وهذه الأشياء ليست مجَّانيَّة هنا. يمكن لباولا أن تبقى في هذه الحالة لسنوات طويلة، وعليك أن تقنِّني قواك ومواردك جيِّدًا.

ـ ما هو الوقت المناسب، في رأيك؟

ـ فلنقل ثلاثة أشهر. إذا كانت هناك نتائج معقولة خلال هذه الفترة، فيمكنك الاطمئنان.

ـ موافقة.

عرّفتني إلى الدكتور ميكي شيما، وهو اختصاصيٌ وخز بالإبر يابانيٌ طريف، وأنا أحتفظ به ليكون شخصيّة في إحدى رواياتي، إذا عدت إلى كتابة الروايات. انتشر الخبر، وسرعان ما بدأ استعراض مُداوين يعرضون عليّ خدماتهم: أحدهم يبيع فرشات نوم مغناطيسيّة من أجل النشاط، ومنوّم مغناطيسيّ يسجّل حكايات مقلوبة ويُسمعها لباولا بواسطة سمّاعات أذنين، وقدّيسةٌ من الهند تجسّد «الأمّ الكونيّة»، وأبانشي يمزج بين حكمة أسلافه وسلطة الزجاج، ومنجّمٌ يكشف المستقبل، ولكنّ رؤاه مضطربة إلى حدٍّ يمكن معه تفسيرها بطرائق متناقضة. كنت أستمع إليهم جميعًا محاوِلة عدم التأثير في راحة باولا. كما قمت بالحجّ إلى نفسانيّ مشهور في أوريغون؛ رجلٍ مصبوغ الشعر، في مكتب يغصّ بحيوانات كثيفة الفراء، وقد استطاع، من دون أن يتحرّك من بيته، أن يفحص المريضة بعينه الثالثة. أوصانا بخليط معقّد التركيب من مساحيق وقطرات سائلة، ولكنّ نيكولاس المتشكّك جدًّا في هذه الأمور، قارن الوصفة مع محتويات قارورة «سينتروم»، وهي مجموعة ڤيتامينات شائعة الاستخدام، فوجد أنّ التطابق كامل تقريبًا. لم يتعهّد أيّ من هؤلاء الدكاترة الغريبين بإعادة الصحّة إلى ابنتي، ولكن ربّما كان في إمكانهم تحسينُ نوعيّة أيّامها والتوصّل إلى شكل من التواصل معها. كما أنّ النساء الأربع المسؤولات عن العناية بها قدّمن إليها صلواتهنّ وبعضَ الأدوية الطبيعيّة؛ فقد حصلت إحداهنّ على قارورة مياه مباركة من عين مقدّسة في المكسيك، وكانت تقدّم

إليها منها جرعاتٍ صغيرة بإيمان عميق، لعلّ معجزةً تحدث. يأتي الدكتور شيما كلّ أسبوع ويرفع معنويَّاتنا. إنَّه يفحصها بدقَّة، ويضع إبره الدقيقة جدًّا في أذنيها وقدميها، ويصف لها علاجًا تجانسيًّا. وفي بعض الأحيان يداعب شعرها كأنَّها ابنته، وتمتلئ عيناه بالدموع وهو يقول: «كم هي جميلة! لو أنَّنا نستطيع الحفاظ عليها سليمة، فلربَّما يتوصَّل الطبّ إلى اكتشاف طريقة لتجديد الخلايا المعطوبة، أو ربَّما لعمليَّة زرع دماغ، ولِمَ لا؟» فأردّ عليه: «ولا في الأحلام يا دكتور. لن أسمح لأحد بإجراء تجارب فرانكشتاين على باولا». لقد أحضر لي بعضَ الأعشاب الشرقيَّة التي يمكن ترجمة اسمها بالضبط كما يلي: «من أجل الأحزان التي يسبِّبها الحداد أو فقدان الحبيب». وأظنّ أنَّ الفضل يرجع إلى تلك الأعشاب في أنّني ما زلت أعمل بطبيعيَّة نسبيَّة. كانت الدكتورة فورستر تراقب ذلك كلّه من دون أن تُبدي رأيها، وتعدّ الأيَّام على التقويم، وتذكِّرني في كلّ زيارة بـ: أنّها ثلاثة شهور فحسب. ويبدو أنَّها هي أيضًا كانت قلقة على صحَّتي، وترى أنّني مكتئبة ومرهَقة، وقد وصفت لي أقراصًا للنوم، وحذَّرتني من تناول أكثر من قرص واحد لأنَّها قد تكون قاتلة.

الكتابة تريحني، بالرَّغم من أنَّها تكلِّفني الكثير، لأنَّ كلّ كلمة هي أشبه بجمرة حارقة. فهذه الصفحات هي رحلة لا رجعة عنها في نفق طويل لا أرى له مخرجًا، ولكنَّني أعلم بأنَّه موجود. من المستحيل الرجوع إلى الوراء، فالمسألة كلّها تتمثَّل في مواصلة التقدُّم خطوة خطوة حتى النهاية. إنَّني أكتب بحثًا عن إشارة، آملةً أن تكسر باولا صمتها المطبق وتردّ عليّ من دون صوت في هذه الأوراق الصفراء، أو ربَّما إنَّني أكتب كي أتجاوز الرعب وأثبت الصور الشاردة من الذاكرة

الضعيفة. المشي أيضًا يريحني. على بعد نصف ساعة من البيت هنالك هضاب، وغابات ملتفَّة، حيث أذهب لأتنفَّس عميقًا عندما تخنقني الكآبة أو يثقل عليّ التعب. إنَّ المشهد الأخضر والرطب والمظلم بعض الشيء، يشبه منظر جنوبيّ تشيلي. فالأشجار الهَرِمة نفسها، وكذلك الأريجُ العابق بقوة للأوكاليبتوس والصنوبر والنعنع البرّي، والجداولُ الصغيرة التي تتحوَّل في الشتاء إلى شلّالات صاخبة، وصرخاتُ الطيور وصريرُ الزيزان. لقد اكتشفت مكانًا تشكِّل فيه قممُ الأشجار قبَّةً كاتدرائيَّة قوطيَّة عالية وخيطًا مائيًا ينساب بين الأحجار في موسيقًى خاصَّة. إنَّني أجلس هناك مصغية إلى صوت خرير الماء وإلى إيقاع تدفُّق الدم في عروقي، محاوِلةً التنفُّسَ بهدوء والعودةَ إلى حدود جلدي، ولكنَّني لا أجد الأمان، فالهواجس والذكريات تتصادم في ذهني. لقد كنت في أقسى اللحظات أمضي لأبحث أيضًا عن الوحدة في إحدى الغابات.

منذ اللحظة التي اجتزت فيها سلسلةَ الجبال التي تشكِّل حدود تشيلي، بدأ كلّ شيء يسوء، ثم ازداد الوضع سوءًا في السنوات التالية. لم أكن أُدرك ذلك بعد، ولكن نبوءة المنجّمة الأرجنتينيَّة كانت قد بدأت تتحقَّق: ستكون أمامي سنواتٌ طويلة من الجمود والشلل. لن يكون ذلك بين جدران زنزانة ولا على كرسيّ ذي عجلات، مثلما تصوَّرتُ أنا وأمّي، وإنَّما ستتحقَّق النبوءة في عزلة المنفى. لقد ذوتِ الجذورُ بضربة فأس واحدة، وسأحتاج إلى ستّ سنوات قبل أن أربّي جذورًا في الذاكرة وفي الكتب التي سأكتبها. وسيكون الإحباط والصمت سجنيَ خلال هذا الزمن الطويل. في ليلتي الأولى في كاراكاس، وأنا جالسة على سرير غريب في غرفة بلا أيِّ زينة، بينما

كان صخب الشوارع الذي لا يخمد يتغلغل من نافذة ضيّقة، أجريت جَرْدًا لما فقدته وحدست بأنَّ أمامي طريقًا طويلًا من العقبات والعزلة. لقد كانت صدمة الوصول أشبه بسقوطي على كوكب آخر. كنت قادمة من الشتاء، ومن نظام الدكتاتوريَّة المرعب والفقر العامّ، ووصلت إلى بلاد حارَّة وفوضويَّة تعيش ذروة الوفرة البتروليَّة. مجتمع سعوديّ يصل الإسراف والتبذير فيه إلى حدود غير معقولة: فحتى الخبز والبيض كانا يُستورَدان يومًا بيوم من ميامي لأنَّ ذلك أكثر راحة من إنتاجهما. ومن خلال أوَّل صحيفة وقعت في يدي، علمت بأخبار حفلة عيد ميلاد، بمشاركة فرقة أوركسترا وكثير من الشمانيا، تُقام لكلب مدلَّل تملكه سيِّدة من المجتمع الراقي، وقد حضر تلك الحفلة كلاب أخرى مع أسيادها الذين يرتدون ثياب المراسم الاحتفاليّة.

كان من الصعب بالنسبة إليَّ، أنا التي ترعرعت على القناعة في بيت جدِّي، أن أصدِّق مثل ذلك التهالك على المظاهر، ولكنَّني لم أعتد ذلك فحسب مع مرور الوقت، بل بدأت أمارس تلك الاحتفالات أيضًا. إنَّ الاستعداد الاحتفاليّ الدائم، والشعورَ بالحاضر وحده، ونظرةَ الفنزويليّين التفاؤليَّة التي كانت تسبِّب لي الذعر في أوَّل الأمر، أصبحت فيما بعد أفضلَ الدروس التي استوعبتها في تلك المرحلة. لقد احتجت إلى سنوات عديدة كي أفهم أنظمة ذلك المجتمع وأكتشف طريقة التسلُّل إلى أرض المنفى الرجراجة من دون احتكاك شديد، ولكنَّني عندما توصَّلت إلى ذلك أخيرًا أحسست بالتحرُّر من الشحنات التي كنت أحملها على كاهلي من بلدي. لقد فقدت الخوف من أن أبدو مضحكة، ومن التوافقات الاجتماعيَّة، ومن «انخفاض المستوى»، كما كانت جدَّتي تُسمِّي الفقر، ومن دمائي الحارّة نفسها. ولم تعد

الحسِّيَّة مجرَّدَ نقيصة يتطلَّب عرف التعفُّف أن أُخفيها، بل تقبَّلتها باعتبارها جزءًا أساسيًّا من طبيعتي، ثم من كتابتي فيما بعد. لقد شُفيت في فنزويلا من بعض الجروح القديمة والأحقاد الجديدة. خلعتُ جلدي ومضيت مكشوفةَ اللحم إلى أن ظهر لي جلدٌ آخرُ أكثرُ صلابة، وهنالك علّمت ابني، وحصلت على كنَّة وعلى صهر، وألَّفت ثلاثة كتب وأنهيت حياتي الزوجيَّة. عندما أفكِّر في السنوات الثلاث عشرة التي أمضيتها في كاراكاس، أشعر بمزيج من السعادة وعدم القدرة على التصديق. بعد خمسة أسابيع من وصولي، وعندما أصبح واضحًا أنَّ العودة إلى تشيلي ستكون مستحيلة في المدى القصير، سافر ميشيل مع الطفلين تاركًا البيتَ مقفَلًا وممتلكاتنا في داخله لأنَّه لم يستطع تأجيره. فقد كان أناس كثيرون يغادرون البلد في ذلك الوقت، وكان شراء بيت بسعر بخس أفضل من دفع إيجار شهريّ. أضف إلى ذلك أنَّ بيتنا كان مجرَّد كوخ بدائيّ لا قيمة له سوى القيمة العاطفيَّة. وفي أثناء بقائه شاغرًا، حطَّموا نوافذه وسرقوا محتوياته، ولكنَّنا لم نعلم بذلك إلَّا بعد سنة من حدوثه، وكنَّا قد فقدنا الاهتمام بالأمر حينذاك.

كانت تلك الأسابيع الخمسة التي أمضيتها بعيدًا عن ابنَيّ كابوسًا فظيعًا، وما زلت أذكر بوضوح فوتوغرافيّ وجهَي باولا ونيكولاس حين هبطا من الطائرة وهما يمسكان بيدَي والدهما واستقبلهما الهواء الحارّ والرطب لذلك الصيف الأبديّ. جاءا بملابس صوفيَّة، وكانت باولا تحمل دميتها القماشيَّة تحت إبطها، ونيكولاس يحمل المسيح الحديديّ الثقيل الذي أهدته إياه معلِّمته. بدا لي أصغرَ سنًّا وأشدَّ نحولًا، وقد علمت بعد ذلك بأنَّه كان يرفض تناول الطعام في غيابي. وبعد شهور قليلة من ذلك، استطاعت الأُسرة كلّها أن تجتمع بفضل سمات

الدخول التي تمَّ الحصول عليها بمساعدة ڤالينتين هيرنانديث الذي لم ينسَ الوعد الذي قطعه لأمّي في المستشفى في رومانيا. أقام أبواي فوقنا بطابقين في المبنى نفسه الذي نُقيم به، وبعد إجراءات ومعاملات مرهقة استطاع أخي بانتشو الخروج مع أُسرته من موسكو إلى فنزويلا. كما جاء خوان، وهو ينوي البقاء، ولكنَّه لم يستطع تحمُّل الحرّ والصخب، وتدبَّر أموره للسفر إلى الولايات المتَّحدة في منحة دراسيَّة. وبقيت غراني في تشيلي تحت وطأة الوحدة والحزن؛ فبين عشيَّة وضحاها، فقدت حفيديها اللذين ربَّتهما، ووجدت نفسها تعيش حياة مقفرة، ترعى شيخًا يمضي أيَّامه في السرير في مقابل التلفزيون والكلبة السويسريَّة المختلَّة والموروثة عن أمّي. وبدأت تشرب أكثر فأكثر، ولم تعد تهتمّ بإخفاء الأمر بسبب ذهاب الطفلين اللذين كان لا بدَّ من الحفاظ على المظاهر أمامهما. بدأت الزجاجات الفارغة تتراكم في الزوايا، بينما كان زوجها يتظاهر بعدم رؤيتها، وتوقَّفت عمليًّا عن تناول الطعام والنوم، وكانت تمضي الليالي ساهرة وفي يدها كأس، متأرجحة من دون عزاء على الكرسيّ الهزَّاز حيث كان حفيداها ينامان على ذراعيها لسنوات.

بدأت ديدان الحزن تنخرها من الداخل، وفقدت عيناها لونَهما الأزرق الصافي، وبدأ شعرها يتساقط في خصلات، وأصبحت بشرتها سميكة ومشقَّقة مثلَ جلد سلحفاة، ولم تعد تستحمّ أو تبدِّل ملابسها، فكانت تبقى في الرداء البيتيّ وبالخفّ في قدميها، تمسح دموعها بكمَّيها. وبعد سنتين من ذلك، أخذت أخت ميشيل أبويها للعيش معها في الأروغواي، ولكنَّ الوقت كان قد فات من أجل إنقاذ حياة غراني.

كانت كاراكاس في عام ١٩٧٥ سعيدة وفوضويَّة، وإحدى أكثر مدن العالم غلاءً. كانت تبرز في كلِّ مكان فيها عماراتٌ جديدة وأوتوسترادات عريضة ومتاجرُ تعرض إسرافًا في الترف، وكانت هناك في كلِّ ناصية باراتٌ ومصارف ومطاعم وفنادق للغراميَّات السرِّيَّة، وكانت الشوارع مزدحمة باستمرار بملايين السيَّارات من أحدث الموديلات، تمنعها فوضى المرور من الحركة، فلم يكن هنالك مَن يحترم إشارات المرور، ولكنَّهم كانوا يتوقَّفون على طُرق الأوتوستراد السريعة كي يمرّ عابر سبيل شارد الذهن. كان يبدو كأنَّ المال ينمو على الأشجار، فحزم الأوراق النقديَّة تنتقل من يد إلى يد أخرى بسرعة كبيرة لا يتَّسع الوقت معها لعدِّها، والرجال يحتفظون بعدَّة عشيقات، والنساء يذهبن للشراء من ميامي في نهاية الأسبوع، والأطفال يعتبرون الرحلة السنويَّة إلى ديزني وورلد حقًّا طبيعيًّا لهم. لا يمكن عمل أيّ شيء من دون مال، وهو ما تأكَّدت منه عندما ذهبت إلى المصرف لاستبدال الدولارات التي اشتريتها من السوق السوداء في تشيلي، فاكتشفت مذعورة أنَّ نصفها مزيَّف. كانت هناك أحياء هامشيَّة حيث يعيش الناس حياة بائسة، ومناطق ما زالت المياه الملوَّثة فيها تفتك بالناس كما في العصر الاستعماريّ، ولكن أحدًا لم يكن يتذكَّر ذلك كلّه في فورة المال السهل. كانت السلطة السياسيَّة تُوزَّعُ على الأصدقاء في الحزبين الكبيرين، أمَّا اليسار فقد أُلغي تمامًا، وتمَّت هزيمة قوَّات حرب العصابات التي كانت في الستِّينيَّات إحدى القوَّات الأكثر تنظيمًا في القارَّة. وقد كان مريحًا للقادم من تشيلي أن يلاحظ أنَّه ليس هناك مَن يتكلَّم في السياسة أو عن الأمراض. وكان الرجال المتفاخرون بالسلطة والرجولة يتباهون بسلاسل وخواتم ذهبيَّة، ويتكلَّمون بصخب

ويمزحون، وعيونهم دائمًا على النساء. وكان التشيليُّون إلى جانبهم يبدون ضعفاء يبعثون على الرثاء بأصواتهم الرفيعة ولغتهم المختزلة. وكانت أكثرُ النساء جمالًا على الكوكب الأرضيّ، النتاج الرائع لتآلف أجناس بشريَّة عديدة، يتحرَّكن بإيقاع موسيقى السلسا في أردافهنَّ عارضات أجسادًا خصيبة وحاصدات كلَّ جوائز مسابقات الجمال الدوليَّة. وكان الهواء رنَّانًا، وأيّ سبب كان مناسبًا للغناء، فأجهزة الراديو تصدح في الأحياء، وفي السيَّارات. وفي كلِّ مكان طبولٌ، وكواتراتٌ[1]، وغيتارات، وغناء ورقص. لقد كان البلد بأسره غارقًا في حفلة البترول. مهاجرون من أربع جهات الأرض يتوافدون على هذا البلد بحثًا عن الثروة، وأكثر هؤلاء هم من الكولومبيّين الذين يجتازون الحدود بالملايين ليكسبوا لقمة العيش في أعمال لا يرغب فيها سواهم. كان الأجانب يُقابَلون بالإعراض في أوَّل الأمر، ولكن سرعان ما فتح لهم كَرَمُ هذا الشعب الطبيعيّ الأبوابَ. وأكثر المكروهين كانوا سكَّان المخروط الجنوبيّ، وهي التسمية التي يطلقونها على الأرجنتينيّين والأورغوانيّين والتشيليّين، لأنَّ معظمهم لاجئون سياسيُّون ومثقَّفون وتقنيُّون ومهنيُّون ينافسون القيادات الوسطى الفنزويليَّة. وسرعان ما أدركتُ أنَّ المرء حين يهاجر يفقد العكاكيز التي كان يستند إليها حتى ذلك الحين. ويتوجَّب عليه أن يبدأ من الصفر، لأنَّ الماضي يمَّحي في جرَّة قلم، وليس هناك من يهتمّ بمنشأ المُهاجر أو بما كان يعمله من قبل. لقد تعرَّفت إلى أُناس كانوا نوابغ حقيقيّين في بلادهم ولم يتمكَّنوا من معادلة شهاداتهم المهنيَّة، وانتهى بهم الأمر

(١) كواترو: آلة موسيقيَّة فنزويليَّة تُشبه الغيتار، لكنَّها بأربعة أوتار فقط.

إلى بيع بوالص التأمين متنقّلين من باب إلى باب. كما تعرَّفت إلى جَهَلة اخترعوا لأنفسهم شهادات ومراتب، وتوصَّلوا بطريقة ما إلى احتلال مناصب عالية، فكلّ شيء كان رهنًا بالجرأة والارتباطات الجيِّدة. كلّ شيء كان يمكن الحصول عليه من خلال صديق أو بدفع تعرفة الفساد. ولم يكن في إمكان أيّ مهنيّ أجنبيّ الحصول على عقد إلَّا من خلال شريك فنزويليّ يقدِّم إليه اسمه أو يكون عرَّابه، ومن دون ذلك لن تُتاح له أيُّ فرصة. وكان السعر المتعارف عليه خمسين في المئة: أحدهما يقوم بالعمل والآخر يضع توقيعه ويقبض حصَّته أوَّلًا، فور تلقِّي الدفعات الأولى. بعد أسبوع من وصول ميشيل، برز له عمل شرقيّ البلاد، في منطقة حارَّة بدأت بالتطوُّر بفضل كنز باطن الأرض الذي لا ينضب. لقد كانت فنزويلا بأسرها تربض فوق بحر من الذهب الأسود، فحيثما ضربوا فأسًا خرج لهم دفق غزير من البترول. الثروة الطبيعيَّة فردوسيَّة. هنالك مناطق يوجد فيها التبر الذهبيّ وقطع الألماس الخام فوق سطح الأرض مثل البذور. وكلّ شيء ينمو في ذلك المناخ. فعلى طول الطرق السريعة العامَّة، تنتشر شجيرات الموز والأناناس البرِّيَّة، ويكفي أن تُلقي بذرة مانغا في الأرض كي تنبت منها شجرة بعد أيَّام قليلة. بل إنَّ نبتة ذات زهور نبتت على هوائيّ تلفزيوننا الفولاذيّ. الطبيعة ما زالت في عصر البراءة: شواطئُ دافئة ذات رمال بيضاء وأشجار نخيل متشابكة؛ جبالٌ مغطَّاة ذراها بالثلج، حيث ما زالت تهيم على وجوهها أشباحُ الغزاة الإسبان الأوائل؛ بطاحٌ قمريَّة فسيحة تتخلَّلها تيبويس عجيبة؛ أعمدةٌ أسطوانيَّة عالية جدًّا من الصخر يبدو كأنَّ مردة من كوكب آخر قد صفُّوها فوق بعضها البعض؛ غاباتٌ لا يمكن التوغُّل فيها، تقطنها قبائلُ قديمة ما زالت تجهل استخدام

المعادن. كلّ شيء يعطي بسخاء، وأيدٍ مفتوحة في تلك المنطقة المسحورة. وكان نصيب ميشيل العملَ في المشروع الضخم لإقامة أكبر السدود في العالم في منطقة خضراء متشابكة النباتات تعجّ بالأفاعي والعَرَق والجرائم. كان الرجال يقيمون بمعسكرات موقّتة، تاركين أُسرَهم في المدن القريبة، ولكن إمكانيّات عثوري على عمل في تلك الأنحاء وتعليم الطفلين في مدارس جيّدة كانت معدومة، وهكذا بقينا في العاصمة، وصار ميشيل يأتي لزيارتنا كلّ ستّة أو سبعة أسابيع. كنّا نعيش في شقّة في أكثر أحياء المدينة صخبًا وكثافة. وبالنسبة إلى الطفلين المعتادين الذهابَ سيرًا على الأقدام إلى المدرسة، والتنزّه على الدرّاجة، واللعب في الحديقة، وزيارة غراني، كان ذلك المكان الجحيمَ بعينه، فهما لا يستطيعان الخروج وحدهما بسبب ازدحام حركة المرور والعنف في الشارع، فكانا يملّان من الحبس بين أربعة جدران ومشاهدة التلفزيون، ويتوسّلان إليّ كلّ يوم أن نرجع إلى تشيلي. لم أساعدهما على تحمّل كَرب تلك السنوات الأولى، بل كان مزاجي، على العكس من ذلك، يخلخل الهواء الذي يتنفّسانه. لم أستطع العثور على وظيفة في أيٍّ من الأعمال التي أعرفها، ولم تفدني الخبرة التي اكتسبتها في شيء، فقد كانت جميع الأبواب موصَدة. بعثت مئات الطلبات، وتقدّمت إلى ما لا حصر له من الإعلانات المنشورة في الصحف، وملأت جبلًا من الاستمارات، ولكنّني لم أتلقَّ أيّ ردّ، وكلّ شيء كان يبقى معلّقًا في الهواء في انتظار ردٍّ لا يأتي مطلقًا. لم أنتبه إلى أنَّ كلمة «لا» هناك تُعتبر نوعًا من قلّة الأدب. وعندما كانوا يشيرون إليّ بأن أعود في الغد، كانت آمالي تتجدّد، من دون أن أُدرك أنَّ التأجيل عندهم هو الطريقةُ المهذّبة للرفض. ومن الشهرة الصغيرة

التي نعمت بها في تشيلي من التلفزيون ومن مقالاتي النسويَّة، انتقلت لأن أكون مغمورة، ولأعاني الإذلالَ اليوميَّ للباحثين عن عمل. وبفضل مساعي صديق تشيليّ استطعت أن أنشر عمودًا أسبوعيًا ساخرًا في صحيفة، وواظبت على ذلك لسنوات طويلة كي أحقِّق مكانًا في الصحافة، ولكنَّني كنت أفعل ذلك حبًا بالفنّ، فالمكافأة التي كانوا يدفعونها إليَّ تساوي أجرة التاكسي للذهاب من أجل تسليم المقال. وقمت ببعض الترجمات، وكتبت مسلسلات تلفزيونيَّة، بل كتبت عملًا مسرحيًا أيضًا؛ وقد دفعوا إليَّ في مقابل بعض تلك الأعمال بسعر الذهب، ولكنَّها لم ترَ النور أبدًا، بينما استُخدم بعضها الآخر ولم يُدفع إليَّ في مقابله أيُّ شيء على الإطلاق. فوق شقَّتنا بطابقين كان العمّ رامون يلبس كلّ يوم بدلاته كسفير، ويخرج للبحث عن عمل أيضًا، ولكنَّه على العكس منِّي تمامًا، لم يكن يشكو مطلقًا. لقد كان سقوطه محزنًا أكثر منِّي، لأنَّه سقط من مكانة أعلى منِّي بكثير، وفَقَدَ أكثر بكثير، وكان أكبر منِّي سنًّا بخمس وعشرين سنة، ولا بدَّ من أنَّ الوقار كان أثقل وطأة عليه منِّي بمرَّتين، ولكنَّني مع ذلك لم أره مغمومًا قطّ. ففي نهاية الأسبوع، كان ينظِّم نزهات إلى الشاطئ مع الطفلين؛ رحلات سَفاري حقيقيَّة يواجهها بتصميم وهو وراء مقود السيَّارة متعرِّقًا، ومع موسيقى كاريبيَّة تصدح من المذياع، والنكتة حاضرة على شفتيه وهو يحكّ لسع البعوض، ويذكِّرني بأنَّنا «واسعو الثراء»، إلى أن نتمكَّن أخيرًا من بَلّ أجسادنا في ذلك البحر الدافئ ذي اللون اللازورديّ، متزاحمين مع مئات الكائنات البشريَّة الأخرى التي خطرت لها الفكرةُ نفسها. في بعض أيَّام الثلاثاء المباركة، كنت أتمكَّن من الهرب إلى الساحل، وأستطيع عندئذ الاستمتاع بالشاطئ النظيف

والمقفر، ولكنَّ تلك الرحلات الانفراديَّة كانت محفوفة بالمخاطر. في أزمنة الوحدة والعوز تلك، كنت أحتاج أكثر من أيِّ وقت آخر إلى التواصل مع الطبيعة، مع سلام إحدى الغابات، أو صمت أحد الجبال أو هدير البحر، ولكنَّ النساء لا يستطعن الذهاب بمفردهنَّ حتى إلى السينما، فما بالك بالأماكن الخلويَّة، حيث يمكن وقوع أيّ مصيبة. كنت أشعر بأنَّني أسيرة بيتي وجلدي نفسه مثلما كان ابناي يشعران، ولكنَّنا كنَّا، على الأقلّ، في منجًى من عنف الدكتاتوريَّة، في أحضان فنزويلا الفسيحة المترامية، حيث كنت قد وجدت مكانًا آمنًا أضع فيه حفنات التراب التي أحضرتها من حديقتي، وأزرع فيها نبتة «لاتنسيني»، ولكنَّني لم أكن أعرف ذلك بعد.

كنت أنتظر زيارات ميشيل المتباعدة بفارغ الصبر، ولكنَّني حين أجده أخيرًا بين ذراعَيَّ أشعر بخيبة أمل لا تفسير لها. كان يأتي متعَبًا من العمل ومن الحياة في المعسكر. لم يكن الرجل الذي أبتدعه في ليالي كاراكاس الخانقة. وفي الشهور والسنوات التالية، نفدت الكلمات فيما بيننا، وأصبحنا لا نكاد نتوصَّل إلى الشروع في محادثات محايدة تتخلَّلها أماكن مشتركة وعبارات مجاملة. كنت أشعر برغبة في إمساكه من قميصه وهزّه صارخة، ولكن كان يكبحني إحساسي الصارم بالعدالة الذي تعلَّمته في المدارس الإنكليزيَّة، وأنتهي إلى الترحيب به برقَّة، تخرج منِّي بتلقائيَّة حين أراه يصل، لكنّ ذلك يختفي بعد دقائق قليلة. لقد أمضى هذا الرجل أسابيع في الغابات من أجل أن يكسب قُوْت العائلة، وكان قد ترك تشيلي وأصدقاءه وعمله المضمون كي يتبعني في مغامرة غير مضمونة، وليس لي الحقّ في إزعاجه بضجر قلبي. «من الأفضل لكما أن تعتصما بالصبر مثلنا»، هكذا كانت

تنصحني أمّي وكذلك العمّ رامون، وهما الشخصان اللذان كنت أأتمنهما على أسراري في تلك الحقبة، ولكنْ كان من المستحيل مواجهة ذلك الزوج الذي لا يُبدي أيّ مقاومة. فكلّ عدوانيَّة كانت تنهار وتغرق حتى تتلاشى متحوِّلة إلى ضجر في نسيج علاقتنا المقطّن. حاولت أن أقنع نفسي بأنَّ شيئًا لم يتبدَّل فيما بيننا في الجوهر بالرَّغم من الظروف القاسية. لم أتمكَّن من ذلك، ولكنَّني في هذه المحاولة كنت أخدع ميشيل. فلو أنَّنا تحدَّثنا بوضوح، فلربَّما كنَّا سنتمكَّن من تفادي الإخفاق النهائيّ، ولكنَّني لم أمتلك الشجاعة لعمل ذلك. كنت أتأجَّج برغبات وهموم غير مشبَعة، وكانت تلك مرحلة بضع علاقات غراميَّة لاستبعاد العزلة. لم يكن هناك مَن يعرفني ولم يكن عليّ أن أقدّم توضيحًا إلى أحد. كنت أبحث عن الراحة حيث لا يمكن العثور عليها، لأنَّني في الواقع لا أنفع للشؤون السرِّيَّة، فأنا خرقاء جدًّا في التشابكات الإستراتيجيَّة للكذب، وأترك آثارًا تدلّ عليّ في كلِّ مكان، ولكن لباقة ميشيل وتهذيبه كانا يمنعانه من تصوّر زيف الآخرين. كنت أجادل نفسي سرًّا وأغلي من الشعور بالذنب موزَّعة ما بين الاستياء والغضب من نفسي بالذات والحقد على هذا الزوج النائي والذي يطفو بثقة في ضباب الجهل، واللطيفِ والرصين دائمًا في اتِّزانه الثابت، والذي لا يطلب شيئًا ويقدّم الخدمات من تلقاء نفسه بمزاج ناءٍ وامتنان غامض. كنت في حاجة إلى ذريعة كي أحطّم هذا الزواج مرَّة وإلى الأبد، ولكن لم تُتَحْ لي مثل تلك الذريعة قطّ، بل على العكس من ذلك، فقد ازدادت في تلك السنوات شهرتُه كقدِّيس في عيون الآخرين. أعتقد أنَّه كان مستغرقًا تمامًا في عمله، وكان في حاجة ماسَّة إلى الأُسرة، ولهذا كان يفضِّل عدم التحقُّق من مشاعري أو

نشاطاتي. كان ثمَّة هوَّة تتَّسع تحت أقدامنا، لكنَّه لم يشأ رؤية ما هو جليٌّ، وواصلَ التشبُّث بأوهامه حتى اللحظة الأخيرة، حين انهار كلّ شيء بدويّ عظيم. وإذا كان قد ارتاب في شيء، فربَّما نَسَبَه إلى أزمة وجوديَّة ورأى أنَّها ستمرُّ تلقائيًّا، مثل حمَّى ليوم واحد. لم أُدرك إلَّا بعد سنوات طويلة أنَّ تلك الطريقة في إغماض عينيه أمام الواقع هي أقوى ملامح شخصيَّته، وكنت أحمّل نفسي دائمًا المسؤوليَّة الكاملة في إخفاق الحبّ: فأنا غير قادرة على محبَّته مثلما يحبّني هو ظاهريًّا. لم أسأل نفسي إذا كان هذا الرجل يستحقّ مزيدًا من تكريس النفس له، بل كنت أتساءل دائمًا عن السبب في عدم قدرتي على منحه ذلك. كان طريقانا يفترقان، وكنت أتبدَّل وأبتعد من دون أن أستطيع تفادي ذلك. وبينما هو يعمل في الخضرة الخصبة والرطوبة الحارّة لمنطقة وحشيَّة، كنت أصطدم، مثلَ فأرة أصابها الجنون، بجدران بيتي الإسمنتيَّة في كاراكاس، وأنا أتطلَّع دائمًا إلى الجنوب، وأعدّ الأيام المتبقِّية للعودة إلى تشيلي. لم يخطر في بالي قطّ أنَّ الدكتاتوريَّة ستستمرّ سبعة عشر عامًا.

الرجل الذي وقعت في حبّه سنة ١٩٧٨ كان موسيقيًّا. إنَّه لاجئ سياسيّ آخر بين آلاف اللاجئين القادمين من الجنوب ليستقرُّوا في كاراكاس السبعينيَّات. كان قد هرب من ملاحقة فِرَق الموت تاركًا وراءه في بوينس آيريس زوجةً وابنين، وبينما هو يبحث عن مكان يستقرّ ويعمل فيه، كانت أوراق اعتماده الوحيدة غيتارًا ونايًا. وأظنّ أنَّ الحبّ الذي تقاسمناه قد وقع عليه صدفة، حين لم يكن راغبًا في ذلك، ولم يكن الحبّ مناسبًا له، مثلما كان الأمر بالنسبة إليَّ بالضبط.

لقد حطَّ منتج مسرحيّ رحاله في كاراكاس باحثًا عن الثروة، مثل كثيرين غيره ممَّن اجتذبهم الرخاء البتروليّ، واتَّصل بي طالبًا منّي أن أكتب له نصًّا كوميديًّا بموضوع محلّيّ. وكانت فرصة لا يمكنني تركها تفلت منّي، فقد كنت بلا عمل ويائسة جدًّا لأنَّ مدَّخراتي قد نفدت. وكان ذلك العمل في حاجة إلى مؤلّف موسيقيّ له خبرة بمثل هذا النوع من الاستعراضات كي يؤلّف الأغنيات، ولست أدري لماذا كان المنتج يفضّل موسيقيًّا من الجنوب، بدلًا من التعاقد مع أيّ واحد من الموسيقيّين الفنزويليّين الرائعين. وهكذا تعرَّفت، إلى جوار بيانو ضخم، إلى مَن سيصبح عشيقي. لست أذكر إلَّا الشيء القليل عن ذلك اليوم الأوَّل، لأنَّني لم أشعر بالراحة مع ذلك الأرجنتينيّ المتعجرف ذي الطبع الفظّ، ولكنَّني انبهرت بموهبته؛ فقد كان قادرًا، من دون جهد يُذكَر، على نظم أفكاري الغامضة في عبارات موسيقيَّة دقيقة، وعلى العزف على أيّ آلة موسيقيَّة سماعيًّا. وقد بدا الرجل عبقريًّا في نظري، أنا التي لا يمكنني أن أغنّي «عيد ميلاد سعيد».

كان نحيلًا ومتوتّرًا مثلَ مصارع ثيران، وله لحية ساحر مشذَّبة جيّدًا، وكان ساخرًا وعدوانيًّا. يشعر بالوحدة والضياع في كاراكاس مثلي، وأعتقد أنَّ تلك الظروف هي التي وطَّدت علاقتنا. ذهبنا بعد بضعة أيَّام لمراجعة أغانيه في إحدى الحدائق بعيدًا عن الآذان غير الكاتمة للأسرار، فحمل هو غيتاره وحملت أنا دفترًا وسلّةَ طعام الرحلات. تلك الجلسة وغيرها من الجلسات الموسيقيَّة الطويلة كانت بلا جدوى، لأنَّ المنتج اختفى بين ليلة وضحاها تاركًا المسرحَ المستأجَرَ وتسعةَ أشخاص تورَّطوا معه من دون أن يدفع إليهم شيئًا على الإطلاق. بعضهم أنفق وقته وجهده، وآخرون وظَّفوا أموالًا

اختفت من دون أن يبقى لها أثر. أمّا أنا، فقد بقيتْ لي على الأقلّ مغامرةٌ لا تُنسى. في ذلك الغداء الأوّل في الهواء الطلق، روى كلٌّ منّا ماضيَه للآخر: حدَّثته عن الانقلاب العسكريّ، وأطلعني هو على آخر فظائع «الحرب القذرة»، وعلى الأسباب التي دفعته إلى الخروج من بلده، ووجدت نفسي في نهاية المطاف أدافع عن فنزويلا من هجماته التي كنت أردِّدها أنا نفسي في اليوم السابق. قلت له بعاطفة غير متَّزنة: «إذا كان هذا البلد لا يعجبك، فلماذا لا تغادره. أنا ممتنَّة للعيش مع أُسرتي في هذه الديموقراطيّة، فهم على الأقلّ هنا لا يقتلون الناس مثلما يحدث في تشيلي والأرجنتين». فانفجر ضاحكًا، وتناول الغيتار وبدأ يدندن أغنية تانغو ساخرة، فأحسست بأنَّني أَشبه بامرأة ريفيَّة. وكان هذا الشعور يراودني بكثرة خلال فترة علاقتنا. لقد كان واحدًا من أولئك المثقَّفين الليليّين في بوينس آيرس، وزبونًا في المطاعم والكافيتريات القديمة، وصديقًا لمسرحيّين وموسيقيّين وكتّاب، وقارئًا نَهِمًا، ورجلًا مقاتلًا وذا إجابات سريعة. كان قد رأى العالم وتعرَّف إلى أُناس مشهورين، وكان خصمًا شرسًا أغواني بقصصه وذكائه. وأشكّ، في المقابل، في أنَّني أثَّرت فيه كثيرًا. فقد كنت في نظره مجرَّد مهاجرة تشيليَّة في الخامسة والثلاثين، ترتدي ملابس هيبيَّة وتتصرَّف بسلوك برجوازيّ. والمرَّة الوحيدة التي استطعت إبهاره فيها كانت عندما أخبرته بأنَّ تشي غيفارا كان قد تعشَّى يومًا في بيت أبوَيَّ في جنيف. ومنذ تلك اللحظة، أبدى اهتمامًا حقيقيًّا بي. وقد اكتشفت على امتداد سنوات حياتي أنَّ ذلك العشاء مع محارب الثورة الكوبيَّة البطل هو عنصرُ إثارة جنسيَّة لا يُقاوَم بالنسبة إلى معظم الرجال. بدأ، بعد أسبوع من ذلك، موسمُ الأمطار الصيفيَّة، فتحوَّلت اللقاءات

الرعويَّة في الحديقة إلى جلسات عمل في بيتي، حيث كانت الخصوصيَّات محدودة جدًّا. وفي أحد الأيَّام دعاني إلى الشقَّة التي يعيش فيها، وهي واحدة من تلك الغرف البائسة والصاخبة التي تؤجَّر أسبوعيًّا. تناولنا القهوة، وأراني صور أُسرته، وانتقلنا بعد ذلك من أغنية إلى أُخرى، ثمَّ إلى أُخرى، حتى انتهى بنا الأمر إلى عزف الناي في السرير. وليس في هذه العبارة تورية بذيئة من تلك التي تستشيط منها أمِّي، وإنَّما هي إشارة حقيقيَّة إلى معزوفة قدَّمها إليَّ على تلك الآلة. ووقعت في الحبِّ مثل مراهقة. وبعد شهر من ذلك، أصبحنا في حالة لا يمكن الدفاع عنها، فقد أخبرني بأنَّه يريد أن يطلِّق زوجته، وضغط عليّ لأتخلَّى عن كلِّ شيء وأذهب معه إلى إسبانيا، حيث استقرَّ بنجاح عددٌ من الفنَّانين الأرجنتينيّين، وحيث يمكنه العثور على أصدقاء وعمل. السرعة التي اتَّخذ فيها هذا القرار بدت لي دليلًا لا يمكن دحضه على حبِّه لي، ولكنَّني اكتشفت بعد ذلك أنَّه «جوزاء» يفتقر إلى شيء من الاستقرار، وأنَّه بالسرعة نفسها التي أبدى فيها استعداده للهرب معي إلى قارَّة أخرى، يمكنه أن يبدِّل رأيه ويعود إلى نقطة الانطلاق. ولو أنَّني كنت أتمتَّع بشيء من المَكر، أو لو أنَّني درست علم التنجيم على الأقلّ عندما كنت أرتجل أبراج الحظّ في المجلَّة في تشيلي، لكنت انتبهت لطباعه وتصرَّفت بقدر أكبر من الحذر، ولكنَّ الأمور سارت على نحو وقعت فيه على رأسي في ميلودراما مبتذَلة كادت تكلِّفني ابنَيَّ، وربَّما حياتي أيضًا. صرت أتصرَّف بعصبيَّة تؤدِّي بي إلى الاصطدام بسيَّارة في كلّ لحظة. وفي إحدى المرَّات، تجاوزت إشارة حمراء واصطدمت بثلاث سيَّارات سائرة، فأفقدتني الصدمة وعيي لبضع دقائق. وعندما استيقظت كنت

مضعضعة ومحاطة بتوابيت من كلِّ الجهات، فقد كانت أيادٍ رحيمة نقلتني إلى أقرب محلّ، فكان ذلك المكان وكالةً لدفن الموتى. لقد كان هناك في كاراكاس نظامٌ غير مكتوب يسود محلَّ قوانين السير: فلدى الوصول إلى تقاطع شوارع يتبادل السائقون النظرات خلال جزء من الثانية يتقرَّر خلالها مَن الذي سيمرّ أوَّلًا. لقد كان نظامًا مضبوطًا يعمل أفضل من الإشارات الضوئيَّة ـ لست أدري إذ كان قد تبدَّل، ولكنَّني أظنّ أنَّه لا يزال قائمًا ـ ولكنّ ذلك النظام يتطلَّب الانتباه الدائم والقدرة على ترجمة تعابير وجوه الآخرين. غير أنَّ تلك الإشارات وغيرها من إشارات المرور في العالم كانت تختلط في ذهني وأنا في الحالة الانفعاليَّة التي كنتُ أمرّ فيها آنذاك. وكانت أجواء بيتي، في أثناء ذلك، تبدو مكهرَبة، فقد كان الطفلان يشعران بأنَّ الأرض تتحرَّك تحت أقدامهما، وبدآ بإثارة المشاكل للمرّة الأولى في حياتيهما. فابنتي باولا، التي كانت على الدوام طفلةً ناضجة بالنسبة إلى سنّها، بدأت تنتابها نوباتُ الارتعاش العصبيَّة الوحيدة التي تعرَّضت لها في حياتها، فقد كانت تَصْفُق الأبواب وتحبس نفسها لتبكي لساعات. وأصبح نيكولاس يتصرَّف كقاطع طريق في المدرسة، وصارت علاماته الدراسيَّة كارثيَّة، وكان يعيش مليئًا بالقمل، ويقع ويجرح نفسه، ويشجّ رأسه ويكسّر عظامه بكثرة مثيرة للريبة. واكتشف في تلك الفترة نفسِها متعةَ إطلاق البيض بمقلاع على الشقق القريبة أو على المارَّة في الشارع. وقد رفضتُ تقبُّل شكاوى الجيران بالرَّغم من أنَّنا أصبحنا نستهلك تسعين بيضة أسبوعيًّا، وبالرَّغم من أنَّ جدران المبنى المقابل كانت مغطَّاة بأقراص عجَّة ضخمة تطهوها شمس المنطقة التروبيكاليَّة، وبقيتُ على تلك الحال إلى أن سقطت إحدى

تلك القذائف يومًا على رأس أحد سيناتورات الجمهوريَّة الذي كان يمرّ تحت نافذتنا. ولولا تدخُّلُ العمّ رامون بمواهبه الدبلوماسيَّة، فلربَّما كانوا سيلغون تصاريح إقامتنا ويطردوننا من البلاد. أمَّا أبواي اللذان كانا يرتابان من خروجي ليلًا ومن غيابي الطويل، فقد راحا يستجوبانني إلى أن اعترفت لهما بغرامياتي غير الشرعيَّة. أخذتني أمّي جانبًا لتذكّرني بأنَّ لديَّ طفلين يجب عليّ السهر عليهما، ولتنبّهني للمخاطر التي أعرّض نفسي لها، ولتقول لي إنَّه يمكنني، على الرَّغم من ذلك كلّه، أن أعتمد على مساندتها في حالة الضرورة. وقد أخذني العمّ رامون جانبًا أيضًا لينصحني بأن أكون أكثر تكتُّمًا ـ فليس من الضروريّ الزواجُ من العشّاق ـ وأنَّه سيكون إلى جانبي مهما يكن قراري. «إمَّا أن تسافري معي إلى إسبانيا الآن، وإمّا فلن يرى أحدنا الآخر منذ اليوم»، هكذا هدَّدني عازف الناي ما بين معزوفتين موسيقيَّتين عاطفيَّتين. ولأنَّني لم أتمكَّن من حسم أمري، فقد شحن أدواته الموسيقيَّة ومضى. وبعد أربع وعشرين ساعة بدأت اتّصالاته الهاتفيَّة المستعجلة من مدريد، فكانت تُبقيني على الجمر في النهار ومؤرِّقةً معظمَ الليل. وما بين مشاكل الطفلين، وإصلاحات السيَّارة والمطالب الغراميَّة الحازمة، فقدت حساب الأيَّام وفوجئت عندما جاء ميشيل في زيارة.

حاولت في تلك الليلة أن أتحدَّث مع زوجي لأوضح له ما الذي يحدث، ولكنَّني قبل أن أصل إلى الحديث في الأمر أخبرني بأنَّ لديه رحلةَ عمل إلى أوروبا، ودعاني إلى مرافقته فيها، وقال إنَّه يمكن لوالدَيَّ أن يعتنيا بالطفلين مدَّة أسبوع. ونصحتني أمّي قائلة: «يجب الحفاظ على الأُسرة، فالعشّاق عابرون وهم يمضون من دون أن

يخلِّفوا جروحًا. اذهبي مع ميشيل إلى أوروبا، فمن المفيد أن تكونا وحدكما». وقد حذَّرني العمّ رامون: «يجب عدم الاعتراف بالخيانة الزوجيَّة أبدًا، حتى لو فاجأوكِ في سرير واحد مع شخص آخر، لأنَّ الزوج لن يغفر لك أبدًا».

ذهبنا إلى باريس، وبينما كان ميشيل يقوم بأعماله كنت أجلس في مقاهي الشانزليزيه على الرَّغم من المسلسل التلفزيونيّ الذي كنت أعيشه، معذَّبة ما بين ذكريات تلك الأمسيات التروبيكاليَّة الماطرة الحارَّة وأنا أستمع إلى الناي، ووخزاتِ الإحساس الطبيعيَّة بالذنب، متمنِّيةً سقوطَ صاعقة من السماء تضع حدًّا صارمًا لشكوكي. كان وجها باولا ونيكولاس يبدوَان لي في وجه كلّ طفل يمرّ أمامي، وقد كنت واثقة بشيء واحد على الأقلّ: لا يمكنني الانفصال عن ابنَيَّ. فيقول لي صوت العشيق المقنع الذي تحرَّى عن الفندق الذي أُقيم به وبدأ يتَّصل بي من مدريد: «لست أطلب منك أن تهجري ابنيك، أَحضريهما معك». وتوصَّلت إلى أنَّني لن أسامح نفسي أبدًا إذا لم أمنح الحبَّ فرصة، وربَّما تكون الفرصة الأخيرة في حياتي، لأنَّني كنت أظنّ، وأنا في السادسة والثلاثين، أنَّني قد وصلت إلى حافَّة الهرم. وهكذا رجع ميشيل إلى فنزويلا، وتذرَّعت أنا بحاجتي إلى البقاء وحيدةً بضعة أيَّام، وذهبت في القطار إلى إسبانيا.

استمرَّ شهر العسل السرّيّ ذاك ثلاثةَ أيَّام، كنَّا نتمشَّى خلالها وذراعانا متشابكتان في الشوارع المبلَّطة بالأحجار، ونتعشَّى على ضوء قنديل في مطاعم قديمة، وننام متعانقين ومحتفلين بحسن حظِّنا الذي لا يُصدَّق بعثورنا على هذا الحبّ الوحيد في العالم. وبعد ثلاثة أيَّام بالضبط، جاء ميشيل بحثًا عنّي. رأيته يصل شاحبًا ومشوَّشًا، عانقني

فسقطت سنواتُ حياتنا المشتركة الطويلة على كتفي مثلَ عباءة لا يمكن تجنُّبها. أدركت أنَّني أشعر بعاطفة كبيرة تجاه هذا الرَّجل الرصين الذي يعرض عليّ حبًّا مخلصًا يمثِّل الاستقرار والأُسرة.

كانت حياتنا تخلو من العاطفة، ولكنَّها كانت منسجمة وآمنة، ولم تكن لديَّ القوَّةُ لمواجهة الطلاق وإثارة مزيد من المشاكل لابنَيَّ اللذين كان لديهما ما يكفي في وضعهما كمهاجرين. ودّعت ذلك الحبَّ المحظور ما بين أشجار حديقة الريتيرو التي كانت تستيقظ بعد شتاء طويل، وركبت الطائرة إلى كاراكاس. «ليس مهمًّا ما جرى، فكلُّ شيء يمكن إصلاحه، لن نعود إلى الحديث في هذا الأمر»، كان هذا ما قاله لي ميشيل وقد وفى بكلامه. أردت، خلال الشهور التالية، أن أفاتحه في الموضوع عدَّة مرَّات، ولكنّ ذلك لم يكن ممكنًا، فقد كنَّا ننتهي في آخر الأمر إلى تجنُّب الحديث فيه. لقد بقيت خيانتي الزوجيَّة من دون حلّ، مثلَ حلم لا يمكن الاعتراف به، مسلَّط مثل سحابة فوق رأسينا، ولو لم يكن السبب هو المكالمات اللجوجة من مدريد لكنت نسبت الأمر إلى بدعة أخرى من مخيِّلتي الهائجة. كان ميشيل يبحث عن الأمن والراحة في زياراته البيتَ. كان يحتاج، بيأس، إلى الاقتناع بأنَّ شيئًا لم يتغيَّر في حياته الهادئة، وأنَّ زوجته قد تجاوزت تمامًا فصل الجنون ذاك. فذهنه لم يكن يتَّسع للخيانة، ولم يكن في إمكانه فهمُ جوهر ما حدث، وظنَّ أنَّني إذا كنت رجعت معه فلأنِّي لا أحبَّ الآخر، واعتقد أنَّنا سنعود مثلما كنَّا في السابق، وأنَّ الصمت يكفل التئام الجروح. ومع ذلك، لم يعد أيّ شيء مثلما كان في السابق، فقد انكسر شيء ولن يكون في إمكاننا إصلاحُه أبدًا. كنت أحبس نفسي في الحمَّام وأبكي صارخة بينما هو في غرفة النوم يتظاهر بأنَّه يقرأ الجريدة

حتى لا يستفسر عن سبب بكائي. وجرى لي حادث جدِّيّ آخر في السيَّارة، ولكنَّني تنبَّهت، في هذه المرَّة قبل جزء من الثانية من وقوع الاصطدام، إلى أنَّني كنت أضغط دوّاسة السرعة إلى أقصى حدٍّ بدلًا من دوَّاسة المكابح.

بدأت غراني تموت منذ اليوم الذي ودَّعت فيه حفيديها، وقد استمرَّ احتضارها ثلاث سنوات طويلة. عزا الأطبَّاء موتها إلى الكحول. قالوا إنَّه فتَّت كبدها، وكانت متورِّمة، وبشرتُها بلون ترابيّ، ولكنَّها في الحقيقة ماتت حزنًا. لقد حانت لحظة فقدت فيها معنى الزمان والمكان، وصار يبدو لها أنَّ النهارات تدوم ساعتين فقط، وأنَّ الليالي لا وجود لها، وكانت تبقى إلى جانب الباب في انتظار الطفلين ولا تنام لأنَّها تسمع صوتيهما يناديانها. أهملت البيت، وأغلقت مطبخها، فلم يعد الحيُّ يعبق بشذى بسكويتها الممزوج بالقرفة، وتوقَّفت عن تنظيف الغرف وسقاية حديقتها، فذبلت أزهار الداليا، وتعفّنت أشجار الخوخ المثقَلة بالثمار المريضة التي لا يقطفها أحد. وكلبة أمّي السويسريَّة، التي أصبحت تعيش مع غراني، استلقت كذلك في أحد الأركان لتموت بعد قليل، مثل سيِّدتها الجديدة. أمضى حموي ذلك الشتاء في السرير مصابًا بزكام وهميّ، لأنَّه لم يستطع مواجهة رعب بقائه من دون زوجته، وكان يظنّ أنَّ تجاهله الأوضاعَ الجليَّة يمكن أن يغيِّر الواقع. والجيران الذين كانوا يرون في غراني حوريَّةَ الحيّ الحافظةَ، أخذوا يتناوبون في أوَّل الأمر على البقاء معها وتسليتها، ولكنَّهم بدأوا يتجنَّبونها بعد ذلك. هذه السيِّدة ذات العينين السماويَّتين والتي لا تشوب ملابسَها القطنيَّة المزركشة أيُّ شائبة،

والمنهمكةُ على الدوام في لذائذ مطبخها، والتي كانت تُبقي أبواب بيتها مفتوحةً لأطفال الجيران، تحوَّلت بسرعة إلى عجوز متساقطة الشعر، تتحدَّث كلامًا غير متماسك، وتسأل الجميع عمَّا إذا كانوا قد رأوا حفيديها. وعندما لم يعد في إمكانها تحديدُ مكانها داخل بيتها بالذات، وصارت تنظر إلى زوجها كأنَّها لا تعرفه، قرَّرت شقيقة ميشيل أن تتدخَّل. ذهبت لزيارة والديها فوجدتهما يعيشان في زريبة خنازير، إذ لم يكن هناك من ينظِّف البيت منذ شهور، وكان هناك ركام من الزبالة والزجاجات الفارغة، وكان الخراب قد حلَّ في البيت بصورة نهائيَّة وامتدَّ إلى روحي ساكنيه. فأدركت شقيقة ميشيل مذعورة أنَّ الوضع قد تجاوز حدَّه، ولم يعد الأمر يتطلَّب تنظيف الأرض بالصابون وترتيب البيت والتعاقد مع شخص يرعى العجوزين مثلما فكَّرت في البدء، بل صار من الضروريّ أخذهما معها. باعت بعض الأثاث، وحشرت ما تبقَّى منه في الصالة ثم أقفلت البيت وطارت مع أبويها إلى مونتيفيديو. وفي فوضى الساعة الأخيرة، خرجت الكلبة من البيت بحذر، ولم يَرَها أحد بعد ذلك. قبل أسبوع من موت غراني، اتَّصلوا بنا في كاراكاس ليخبرونا بأنَّها قد استنفدت قواها الأخيرة، وأصبحت عاجزة عن النهوض، وأنَّها أُدخلت أحدَ المستشفيات. كان ميشيل يمرُّ في لحظة عصيبة في عمله، فقد كانت الغابة تزحف على المنشآت التي يشرف على بنائها، وكانت الأمطار الغزيرة والأنهار قد جرفت الحواجز، فكانوا يجدون في الصباح تماسيح تسبح في الحفر التي حفروها للركائز. تركت الطفلين مع والدَيَّ مرَّة أخرى وسافرت لأودِّع غراني.

كانت الأورغواي في ذلك الحين بلدًا معروضًا للبيع، بحجَّة

القضاء على حرب العصابات. كانت الدكتاتوريَّة العسكريَّة قد فرضت الزنازين والتعذيب والإعدامات السريعة أسلوبًا في الحكم، فاختفى آلاف الأشخاص ومات الآلاف غيرهم، وهاجر ثلث سكَّان البلد تقريبًا هربًا من هول تلك الأيَّام، بينما كان العسكريُّون وحفنة من المتعاونين معهم يجمعون الثروات من الغنائم. فالمغادرون لا يأخذون الكثير معهم، ويضطرُّون إلى بيع ممتلكاتهم، فكانت إعلانات البيع والمزادات معلَّقةً في كلِّ مكان، وكان من الممكن في تلك السنوات شراءُ البيوت والأثاث والسيَّارات والأعمال الفنِّيَّة بأسعار رمزيَّة. وكان جامعو التحف الفنِّيَّة في بقيَّة أنحاء القارَّة يهرعون مثل الضواري إلى تلك البلاد بحثًا عن التحف القديمة. نقلتني سيَّارة الأجرة من المطار إلى المستشفى في فجر يوم كئيب من شهر آب، ذروةِ فصل الشتاء في جنوبيّ العالم، حيث اجتزت شوارعَ مقفرةً نصفُ بيوتها بلا سكَّان. تركت حقيبتي عند البوَّابة وصعدت طابقين فالتقيت ممرّضًا ساهرًا قادني إلى الغرفة التي توجد فيها غراني. لم أتعرَّف إليها. كانت قد تحوَّلت خلال تلك السنوات الثلاث إلى ما يشبه السحلية الصغيرة، لكنَّها فتحت عينيها عندئذ، ولمحتُ من خلال الغلالة الضبابيَّة بريقَ اللون الفيروزيّ، فهويت على ركبتَيَّ عند سريرها. قالت متلعثمة: «مرحبًا يا ابنتي، كيف حال صغيرَيّ؟» ولكنَّها لم تتمكَّن من سماع إجابتي، لأنَّ دفقة من الدم أغرقتها في غيبوبة لن تستيقظ بعدها. بقيت إلى جوارها أنتظر طلوع النهار وأنا أسمع خرخرة الأنابيب التي تمتصّ ما في معدتها وتدفع الهواء إلى رئتيها، وكنت أسترجع في أثناء ذلك السنواتِ السعيدةَ والسنواتِ المأساويَّةَ التي أمضيناها معًا، وأشكرها على محبَّتها غير المشروطة. وبينما كنت أداعب يديها وأقبِّل جبهتها المحمومة،

رحت أقول لها متوسّلة: «غادري يا غراني، لا تواصلي الصراع والألم، أرجوك أن تذهبي بسرعة». وعندما طلعت الشمس تذكّرت ميشيل، فاتّصلت به لأطلب منه أن يأتي في أوّل طائرة ليكون إلى جانب أبيه وأخته، إذ لا يمكن له أن يتغيّب عنهما في تلك اللحظات الحَرِجة.

تحمّلتْ غراني اللطيفةُ آلامَها بصبر حتى اليوم التالي، كي يتمكّن ابنها من رؤيتها حيّةً لبضع دقائق. كنّا نقف معًا إلى جوار سريرها عندما توقّفت عن التنفُّس. فخرج ميشيل ليواسي أخته وبقيت أنا لأساعد الممرّضة في غسل حماتي، عساني أردّ إليها، وهي ميّتة، رعايتَها اللانهائيَّةَ التي أسبغَتْها على ابنَيَّ في حياتها. وبينما أنا أمسح جسمها بإسفنجة مبلّلة وأسرّح الشعرات الأربعَ المتبقّيةَ في رأسها وأرشّها بالكولونيا وأُلبسها قميص نوم مستعارًا من ابنتها، كنت أُحدّثها عن باولا ونيكولاس، وعن حياتنا في كاراكاس، وعن مدى شوقي وحاجتي إليها في تلك المرحلة التعيسة من حياتي، إذ تعصف ببيتنا رياحُ المحنة. دفنّا، في اليوم التالي، غراني في مقبرة إنكليزيّة، تحت شجيرة ياسمين، في المكان الذي كانت هي نفسها ستختاره لترقد فيه. ذهبت لوداعها للمرّة الأخيرة مع أفراد أُسرة ميشيل، ففوجئت برؤيتهم من دون دموع أو تأثُّر، متمسّكين بقناعة الأنغلوسكسونيين الدقيقة في دفن موتاهم. قرأ أحدهم العبارات الطقوسيّة، ولكنّني لم أسمعها، لأنّني كنت أسمع صوت غراني وحدها تترنّم بأغنيات الجدّات. وضع كلٌّ واحد منّا زهرة وحفنة تراب على التابوت، ثم تعانقنا وانسحبنا ببطء. وبقيت هي وحدها تحلم في تلك الحديقة. وكلّما شممتُ رائحة الياسمين منذ ذلك اليوم، تأتي غراني لتحيّيني.

عندما رجعنا إلى البيت، ذهب حموي ليغسل يديه بينما كانت ابنته تصنع الشاي. وبعد قليل، دخل الصالة ببدلته السوداء وشعره المسرَّح بمادَّة مثبِّتة والوردة المثبَّتة على ياقة سترته. إنَّه لا يزال شابًّا. سحب الكرسيَّ بمرفقيه كي لا يلمسه بأصابعه وجلس، ثم سأل مستغربًا عدمَ رؤية زوجته:

ـ أين هي my young lady؟

فقالت ابنته بينما جميعنا نتبادل النظرات مذعورين:

ـ لم تعد موجودة معنا يا بابا.

ـ أخبريها بأنَّ الشاي جاهز، وأنّنا في انتظارها.

أدركنا عندئذ أنَّ الزمن قد تجمَّد بالنسبة إليه، وأنَّه ما زال لا يعرف أنَّ زوجته قد توفِّيت. وسيواصل تجاهل ذلك طوال ما تبقّى من حياته. لقد حضر الجنازة ساهيًا كأنَّها مراسم دفن أحد الأقرباء الأبعدين، وحبس نفسه منذ تلك اللحظة في ذكرياته. أنزل أمام عينيه ستارة جنون شيخوخيّ ولم يعد يطأ الواقع. المرأة الوحيدة التي أحبَّها بقيت إلى جانبه إلى الأبد شابَّةً وجميلة، ونسي أنَّه قد خرج من تشيلي وَفَقَدَ كلَّ ممتلكاته. وخلال السنوات العشر التالية، إلى أن توفِّي بعد أن تحوَّل إلى حجم طفل صغير في ملجأ للمسنِّين المعتوهين، بقي مقتنعًا بأنَّه ما زال في بيته قبالة ملعب الغولف، وأنَّ غراني موجودة في المطبخ تصنع مربّى الخوخ، وأنَّهما سيناما معًا تلك الليلة مثلما يفعلان كلّ ليلة منذ سبعة وأربعين عامًا.

كان الوقت قد حان للتحدُّث مع ميشيل عن تلك الأمور التي

سكتنا عنها طويلًا، إذ لم يعد في إمكاني مواصلةُ البقاء مرتاحةً وسط وَهْم، مثلما هي حال أبيه. في مساء يوم كان يهطل فيه رذاذ خفيف من المطر، خرجنا للمشي على الشاطئ وكلٌّ منّا يتدثّر ببونتشو صوفيّ ولفاع عنق. لست أذكر اللحظة التي تقبّلتُ فيها أخيرًا فكرةَ الانفصال عنه. ربّما حدث ذلك إلى جوار سرير غراني ونحن نراها تموت، أو عندما انسحبنا من المقبرة وتركناها بين الياسمين، أو ربّما أنّني كنت قد قرّرت ذلك قبل عدّة أسابيع. ولست أذكر كذلك الطريقةَ التي أخبرته بها بأنّني لن أرجع معه إلى كاراكاس، وأنّني سأذهب إلى إسبانيا لتلمّس حظّي، وأنّني أنوي أخذ الطفلين. قلت له إنّني أعرف مدى صعوبة هذا الأمر بالنسبة إليهما، ويؤسفني أنّني لا أستطيع تجنيبهما هذه التجربةَ الجديدة، ولكنَّ الأبناء يجب أن يعيشوا مصير أمّهم. تكلّمت بحذر، وكنت أزن الكلمات كي لا أجرح مشاعره قَدْر الإمكان، وكنت مثقلة بالإحساس بالذنب وبالشفقة اللذين يثيرهما في نفسي. ففي ساعات قليلة، فَقَدَ هذا الرجل أمّه وأباه وامرأته. وردّ عليَّ بأنّني لست في كامل قواي العقليّة، وأنّني غير قادرة على اتّخاذ قرارات حاسمة، ولهذا فإنّه سيتولّى اتّخاذ القرارات بدلًا منّي، كي يحميني ويحمي ابنينا، وأنّه يمكنني الذهاب إلى إسبانيا إذا كنت راغبة في ذلك، ولكنّه لن يذهب لإحضاري هذه المرّة، ولن يفعل كذلك أيَّ شيء لمنعي، ولكنّه لن يسلّمني الطفلين أبدًا، ولن يكون في إمكاني كذلك أخذُ جزء من مدّخراتنا، لأنّني بمغادرتي المنزل أفقدُ كلَّ حقوقي. رجاني أن أتروّى، ووعدني بأن ينسى كلَّ شيء إذا أنا تخلّيت عن هذه الفكرة المربكة، وأن نمسح ما مضى ونبدأ صفحة جديدة. أدركت عندئذ أنّني قد عملت مدّة عشرين سنة، وأنّني عند جَرْد

الحساب وجدت نفسي خاليةَ الوفاض، فقد تبخَّرت جهودي في النفقات اليوميّة، بينما كان ميشيل يستثمر حصّته بحكمة، ووجدت أنَّ الممتلكات التي لدينا مسجّلة باسمه. وانتبهت إلى أنَّني لا أستطيع أخذ الطفلين إذا كنت لا أملك نقودًا لإعالتهما، حتى لو سمح لي أبوهما بذلك. كانت المناقشة هادئة، من دون رفع الصوت، ولم تدم أكثر من عشرين دقيقة، وانتهت بعناق مخلص ووداع. وطلبت منه:

ـ لا تتحدَّث عنّي بالسوء أمام باولا ونيكولاس.

ـ لن أكلِّمهما بالسوء عليك أبدًا. تذكَّري دائمًا أنَّنا نحن الثلاثة نحبُّك كثيرًا وسنبقى في انتظارك.

ـ سآتي لآخذهما فور عثوري على عمل.

ـ لن أسلِّمك إيَّاهما. يمكنك رؤيتهما عندما تشائين، ولكنَّك إذا ذهبت الآن فستفقدينهما إلى الأبد.

ـ سنبحث هذا فيما بعد...

لم أكن قلقة في أعماقي، فقد كنت أرى أنَّه لا بدَّ لميشيل من التراجع، فهو لا يتصوَّر ما الذي تعنيه تربية الأولاد، لأنَّه كان يقوم بدوره كأب حتى ذلك الحين من مسافة مريحة. كما أنَّ طبيعة عمله لن تسهِّل عليه الأمور، فهو لا يستطيع أخذ الطفلين إلى الوسط شبه الوحشيّ الذي يمضي فيه معظم وقته، ولا يمكنه كذلك أن يتركهما وحدهما في كاراكاس. وكنت واثقة بأنَّه سيتوسَّل إليَّ قبل انقضاء شهر واحد كي أتولَّى مسؤوليَّتهما.

خرجت من شتاء مونتيفيديو الكئيب وهبطت في اليوم التالي في

آب مدريد اللّاهب، وأنا مستعدَّة لأن أعيش الحبَّ حتّى النهاية. ومن الوهم الرومنسيّ الذي اخترعته من لقاءات سرِّيَّة ورسائل متعجِّلة، سقطتُ في واقع الفقر المدقع الذي لا يمكن للعناق المتواصل ليلًا ونهارًا أن يخفِّف منه. استأجرنا بيتًا صغيرًا من دون إنارة في منطقة عمَّاليَّة خارج المدينة، بين عشرات المباني المشيَّدة بالآجرّ الأحمر والمتشابهة تمامًا. لم يكن هناك أيُّ شيء أخضر، فلا وجود لشجرة واحدة تنمو في تلك الأنحاء، وليس هناك أيُّ شيء إلَّا أفنية ترابيَّة، وفراغات لملاعب رياضيَّة، وإسمنت، وأسفلت وآجرّ. أحسست بهذا القبح مثلَ صفعة. «أنت برجوازيَّة مدلَّلة»، هكذا كان العشيق يسخر منِّي ضاحكًا بين قبلة وأخرى، ولكنّ تأنيبه في العمق كان جدِّيًّا. اشترينا من سوق البراغيث سريرًا وطاولة وثلاثة كراسيّ وعددًا من الأطباق والقدور، وحمّلها رجل ضئيل معكَّر المزاج في شاحنته المخلَّعة. وفي نزوة لا كابح لها، اشتريت كذلك زهريَّة، ولكنَّني لم أجد فائضًا من المال قطّ لأضع فيها أزهارًا. كنَّا نخرج كلَّ صباح للبحث عن عمل، ونرجع في المساء مستنفَدَين وبأيدٍ خاوية. كان أصدقاؤه يتجنّبوننا، وتحوَّلت الوعود إلى ملحٍ وماء، وكانت الأبواب تُغلَق في وجوهنا ولا أحد يردّ على طلباتنا، بينما النقود تتناقص بسرعة. وفي وجه كلِّ طفل يلعب في الشارع كان يتراءى لي أنَّني أرى طفلَيّ. كان انفصالي عنهما يسبِّب لي ألمًا جسديًّا، ولكنَّني كنت أفكِّر في أنَّ تلك الحرقة الدائمة في المعدة هي قرحة أو سرطان. مررت بأيَّام كان عليّ أن أختار فيها بين شراء الخبز أو الطوابع لبعث رسالة إلى أمِّي. وأمضيت أيَّامًا صائمةً. حاولت أن أكتب معه عملًا موسيقيًّا، ولكنَّنا كنَّا قد استنفدنا التوافق اللطيف الذي كان بيننا في وجباتنا في

الحديقة، أو في الأمسيات التي كنّا نمضيها إلى جانب البيانو المعفّر بالغبار في المسرح في كاراكاس. لقد كان الغمّ يفرّق بيننا، وصارت الاختلافات أكثرَ وضوحًا، وأخذت عيوب كلّ واحد منّا تتضخّم في نظر الآخر. صرنا نفضّل عدم التحدُّث عن الأبناء، لأنّنا كلّما أتينا على ذكرهم تتّسع الهوّة بيننا أكثر. كنت أعيش حزينة وكان هو متوحّدًا ونَفورًا. وكانت أكثر القضايا سطحيَّة تتحوَّل إلى مبرِّر للشجار، وصارت المصالحات مبارزاتِ شغفٍ عاطفيّ حقيقيَّة تخلّفنا شبه غائبين عن الوعي. وهكذا مضت ثلاثة شهور. ولم أجد خلال هذا الوقت عملًا ولا أصدقاء، ونفدت آخر مدّخراتي، واستنفدت عاطفتي لرجل يستحقّ بكلّ تأكيد مصيرًا أفضل. ولا بدّ من أنّه عاش جحيمًا وهو يتحمَّل قلقي على الطفلين الغائبين، وذهابي اليوميّ إلى البريد، ورحلاتي الليليَّة إلى المطار حيث كان يوجد تشيليّ عبقريّ يصل أسلاكًا بأجهزة الهاتف من أجل إجراء مكالمات هاتفيّة دوليَّة من دون دفع الثمن. ومن وراء ظهر الشرطة، كنّا نجتمع هناك، نحن اللاجئين البؤساء من أميركا اللاتينيَّة ـ أو «السوداكاس» كما كانوا يسمُّوننا باحتقار ـ، لنتحدَّث عبر الهاتف مع ذوينا في الجانب الآخر من العالم. ومن خلال تلك الاتّصالات، علمت بأنَّ ميشيل قد رجع إلى عمله، وأنَّ الطفلين وحيدان، يرعاهما والداي من شقّتهما على ارتفاع طابقين إضافيَّين. وعلمت بأنَّ باولا قد تولّت مهمَّات البيت والعناية بأخيها بصرامة رقيب عسكريّ، وأنَّ نيكولاس قد كسر ذراعه وأنّه ينحل ويذوي بصورة ظاهرة للعيان لأنّه يرفض تناول الطعام. وفي أثناء ذلك، كان حبّي يتحلّل متحوِّلًا إلى نسالة مهترئة تحكمه نكبات البؤس والحنين. وسرعان ما اكتشفت أنَّ عشيقي ينهار بسهولة أمام المشاكل

البوميَّة ويسقط في حالات هبوط معنويّ أو في نوبات سخرية جنونيَّة. ولم أعد أستطيع تصوُّر حياة ابنَيّ مع زوج أمّ كهذا. وفي أثناء ذلك، رضخ ميشيل أخيرًا وتقبَّل عدم قدرته على رعايتهما، وأبدى استعداده لإرسالهما إليَّ، وعندئذ أدركت أنَّني قد لمست القاع ولم يعد في إمكاني مواصلةُ خداع نفسي بحكايات الجنّيّات. لقد تبعت عازف الناي في لحظة غيبوبة وأنا منوَّمة مثل فئران هاملن، إنَّما لم يكن في إمكاني أن أجرّ أُسرتي إلى المصير نفسه. في تلك الليلة، تفحَّصت بوضوح أخطائيَ الكثيرةَ في السنوات الأخيرة، ابتداءً من المجازفات العبثيَّة التي غامرت بدخولها في أوج الدكتاتوريَّة واضطرَّتني إلى مغادرة تشيلي، وحتى الصمت المهذَّب الذي أدَّى إلى انفصالي عن ميشيل، والطريقة غير اللائقة التي هربت بها من بيتي من دون تقديم أيّ تفسير ومن دون مواجهة مظاهر الطلاق الأساسيَّة. في تلك الليلة، انتهت مرحلة شبابي ودخلت مرحلة أخرى في الحياة. قلت لنفسي: كفى. وفي الخامسة فجرًا، ذهبت إلى المطار وتمكَّنت من إجراء مكالمة مجَّانيَّة، فتكلَّمت مع العمّ رامون كي يرسل إليَّ نقودًا لشراء بطاقة الطائرة. قلت وداعًا للعشيق وأنا جازمة بأنَّني لن أعود إلى اللقاء به، وبعد إحدى عشرة ساعة من ذلك هبطت في فنزويلا مهزومةً، من دون حقائب ومن دون أيّ مخطَّطات أخرى سوى معانقة ابنَيَّ وعدم التخلّي عنهما مرَّة أخرى على الإطلاق. كان ميشيل في انتظاري في المطار، وقد استقبلني بقبلة عفيفة على جبهتي وبعينين مغرورقتين بالدموع. قال، بانفعال، إنَّه المسؤول عمَّا حدث لأنَّه لم يهتمّ بي بصورة أفضل، وطلب منّي أن أعطيه فرصة أخرى ونبدأ من جديد احترامًا للسنوات التي تقاسمناها معًا ولمحبَّة الأُسرة. فأجبت متضايقة من نبله وساخطةً

من دون أن أدري السبب: إنَّني في حاجة إلى الوقت. قاد السيَّارة بصمت صاعدًا الجبلَ نحو كاراكاس، ولدى وصولنا إلى البيت قال إنَّه سيمنحني كلّ الوقت الذي أريده، وإنَّه سيذهب إلى عمله في الغابة، وستكون المناسبات التي نلتقي فيها قليلة.

اليوم هو عيد ميلادي، وسأُكمل نصف قرن، ربَّما سيأتي أصدقاء لزيارتنا في المساء، فالناس يأتون إلى هذا البيت من دون إشعار مسبق. إنَّه بيت مفتوح يَمضي فيه الأحياء والأموات متشابكي الأيدي. لقد اشتريناه منذ بضع سنوات، عندما أدركنا أنا وويللي أنَّ حبَّنا من النظرة الأولى لا تظهر عليه علائم التراجع، وأنَّنا في حاجة إلى بيت أكبر من بيته. وحين رأينا هذا البيت، بدا لنا أنَّه كان في انتظارنا، أو بكلمة أدقّ، كان ينادينا. لقد كان يبدو متعَبًا، أخشابه منخورة، ويحتاج إلى إصلاحات كثيرة، وكان مظلمًا من الداخل، ولكنّ منظره من الخليج يبدو مهيبًا وروحه مرحِّبة. قيل لنا إنَّ مالكته القديمة قد ماتت فيه منذ أشهر قليلة، وفكَّرنا في أنَّها كانت سعيدة بين هذه الجدران لأنَّ الغُرف ما زالت تحتفظ بذكراها. اشتريناه خلال نصف ساعة من دون مساومة، وتحوَّل في السنوات التالية إلى ملجأ لقبيلة حقيقيَّة من الأنغلو ـ لاتينيين، إذ ترن كلمات بالإسبانيَّة والإنكليزيَّة، وتغلي في المطبخ قُدور طبخ حارّ، ويجلس إلى المائدة عددٌ كبير من المدعوِّين. الغرف تتمدَّد وتتكاثر لتوفِّر مكانًا لكلِّ من يأتي: أجداد ويللي وأحفاده وأبنائه، والآن باولا، هذه الطفلة الآخذة في التحوُّل شيئًا فشيئًا إلى ملاك. هنالك في أساساته مستوطنة ثعالب صغيرة، وتظهر فيه كلَّ مساء القطَّةُ البنِّيَّة الغامضة التي اتَّخذتنا أهلًا لها كما

يبدو. لقد حملت منذ أيَّام إلى سرير ابنتي عصفورًا أزرق الجناحين اصطادته لتوِّها، كان لا يزال ينزف، وأظنّ أنَّها أرادت بذلك مكافأتنا على اهتمامنا بها. لقد طرأ تحوُّل على البيت في السنوات الأربع الماضية بفتح مناور واسعة لتدخل منها أشعَّة الشمس والنجوم، وبفرشه بالسجَّاد وتبييض جدرانه وتزيينه بالبلاط المكسيكيّ وحديقة صغيرة. تعاقدنا مع أشخاص صينيّين يشكِّلون فريق عمل لإقامة غرفة مستودع، ولكنَّهم كانوا لا يفهمون الإنكليزيَّة، واختلطت عليهم التعليمات. وعندما انتبهنا إلى ما يفعلونه كانوا قد أضافوا إلى الطابق الأرضيّ غرفتين وحمَّامًا وفناءً غريب الشكل انتهى ليكون مشغل نجارة لويللي. أخفيت في القبو مفاجآت مرعبة لأحفادي: هيكلًا عظميًا من الجصّ؛ خرائطَ لمخابئ كنوز؛ صناديقَ تضمّ ملابس قراصنة ومجوهرات مزيَّفة. وأنا آمل في أنَّه يمكن لقبو مشؤوم أن يكون محرِّضًا جيّدًا للمخيِّلة، فهذا ما كانه بالنسبة إليّ على الأقلّ قبوُ بيت جدّي. وهذا البيت يهتزّ في الليل ويئنّ ويتثاءب، ويخطر لي أنَّ ذكريات ساكنيه تتجوَّل في الغرف، وأيضًا الشخصيَّاتِ الهاربةَ من الكتب والأحلام، وشبحَ مالكته القديمة الرقيق، وروحَ باولا التي تتحرَّر أحيانًا من قيود الجسد المؤلمة. إنَّ البيوت في حاجة إلى ولادات ووفيَّات لتتحوَّل إلى منازل.

هذا اليوم هو يوم احتفاليّ. ستكون لدينا كعكةُ عيد ميلاد وسيرجع ويللي من المكتب محمَّلًا بأكياس من السوق ومستعدًّا لتخصيص فترة ما بعد الظهر لإعادة غرس وروده في الأرض. هذه هي هديَّته إليّ. إنَّ نبتات الورد المسكينةَ هذه والمزروعةَ في براميل، هي رمزٌ لحياة الترحال التي عاشها صاحبها، والذي يترك أحد الأبواب مفتوحًا على الدوام كي يخرج هاربًا إذا اتَّخذت الأمور لون النملة. هذا ما حدث له

سابقًا في كلِّ علاقاته، فقد كانت تأتي لحظة يحزم فيها ملابسه ويحمل براميله إلى مصير آخر. «أظنّ أنّنا سنبقى هنا وقتًا طويلًا، وقد حان الوقت لأغرس ورودي في الحديقة»، هذا ما قاله لي بالأمس. يعجبني هذا الرجل الذي من سلالة أخرى، والذي يمشي بخطوات واثقة وواسعة، ويضحك بقوّة، ويتكلّم بصخب، ويقطع خبز العشاء بالساطور ويطبخ من دون تأثُّر، وهو مختلف تمامًا عن رجال آخرين أحببتهم. أتكلّم باحتفاليّة على مظاهر نشاطه الرجوليّ لأنّه يعوّضها باحتياطيّ لا ينضب من اللطف الذي يمكنني الأخذ منه دائمًا. لقد استطاع الخروج حيًّا من محن كبيرة من دون السقوط في الاستهتار، وهو يستطيع اليوم الاستسلام من دون قيود لهذا الحبّ المتأخّر ولهذه القبيلة اللاتينيّة التي يحتلّ فيها اليومَ مكانَ الصدارة. سيأتي فيما بعد بقيّةُ أفراد الأُسرة: يأتي نيكولاس وسيليا ليجلسا ويشاهدا التلفزيون، بينما تغفو باولا على كرسيّها، وسنملأ حوض المسبح البلاستيكيّ على الشرفة ليلعب فيه أليخاندرو الذي اعتاد عمّتَه الصامتة. أعتقد أنّ هذا اليوم سيكون يوم أحد خاصًّا آخر.

عمري خمسون عامًا، لقد دخلت النصف الأخير من حياتي، ولكنّني أشعر بالقوّة نفسها التي كانت لي وأنا في العشرين. وجسدي ما زال لا يخذلني. أيّتها العجوز... هكذا تناديني باولا تحبّبًا. هذه الكلمة تخيفني الآن قليلًا، إنّها توحي بامرأة مسترجِلة ذات ثآليل ودوالٍ. النساء المسنّات في ثقافات أخرى يرتدين الأسود، ويعقدن منديلًا على رؤوسهنّ، ويتركن شواربهنّ ظاهرة للعيان، ويعتزلن جَلَبَة الحياة الدنيويّة ليكرّسنَ أنفسهنّ لطقوس التديُّن والوَرَع، والتحسُّر على أمواتهنّ والعناية بأحفادهنّ. أمّا المسنّات في أميركا الشماليّة، فيبذلنَ

جهودًا مضحكة كي يَبدينَ دائمًا سليمات وسعيدات. هنالك مروحة من التجاعيد الخفيفة حول عينَيّ؛ إنَّها مثل قروح باهتة لضحك الماضي وبكائه. إنَّني أبدو مثل صورة جدَّتي المتبصِّرة. لديَّ تعابير الزخم المصبوغة بالكآبة نفسها. إنَّني أفقد خصلات من الشعر في الصدغين. وفي الأسبوع الذي سقطت فيه باولا مريضةً، ظهرت دوائر من دون شعر بحجم قطع النقود. يقولون إنَّ ذلك من تأثير الحزن، وإنَّ الشعر يعود إلى النموّ ثانية، لكنَّني غير مهتمَّة بذلك في الواقع. لقد كان عليّ أن أقصّ شعر باولا الطويل، وقد أصبح لها الآن رأسُ صبيٍّ، وتبدو أكثر شبابًا بكثير. لقد رجعتْ إلى الطفولة. إنَّني أتساءل كم من الوقت سأعيش، ولماذا؟ إنَّ السنِّ والظروف قد وضعتني قبالة هذا الكرسيّ ذي العجلات لأسهر وأعتني بابنتي. إنَّني حارستها وحارسة أُسرتي... ولقد بدأت أتعلَّم بأقصى سرعة فوائدَ السخاء. هل سأعود إلى الكتابة؟ كلّ مرحلة من مراحل الطريق تختلف عن سواها، وربَّما تكون مرحلة الكتابة قد اكتملت. سأعرف ذلك خلال بضعة شهور، في الثامن من كانون الثاني تحديدًا، عندما سأجلس أمام آلة الكتابة لأبدأ رواية أخرى، وأتأكَّد من وجود الأرواح أو صمتِها. لقد راح الخواء يتملَّكني في هذه الشهور، ونضب الإلهامُ لديّ، ولكنْ من الممكن كذلك أن تكون القصص مخلوقات لها حياتها الخاصَّة، وأنَّها موجودة في ظلال بُعد سحريّ. وفي هذه الحالة ستكون القضيَّة كلّها مجرَّد عودتي إلى الانفتاح من جديد لأسمح لها بالدخول إليّ، وأن تنظِّم نفسها على هواها وتخرج منِّي متحوِّلة إلى كلمات. إنَّها ليست مُلكي، وليست من إبداعي، ولكنَّني إذا تمكَّنت من تحطيم جدران الكرب التي أحبس نفسي داخلها، فربَّما سأتمكَّن عندئذ من العودة لأكون وسيطًا لها. أمَّا

إذا لم يحدث ذلك، فسيكون عليّ أن أستبدل مهنتي. منذ مرضت باولا، هناك غلالةٌ تُخفي العالم السحريَّ الذي كنت أتجوَّل فيه بحرِّيَّة من قبل. لقد أصبح الواقع لا يرحم. إنَّ تجارب اليوم هي ذكريات الغد، ولم تكن تنقصني من قبلُ الأحداثُ القاسية لتغذية الذاكرة، ومنها وُلدت جميع قصصي. في نهاية كتابي الثالث، تقول إيفالونا: «عندما أكتب، أروي عن الحياة مثلما أحبّها أن تكون... مثل رواية». لست أدري إذا كان طريقي استثنائيًا، أم أنَّني كتبت هذه الكتب استنادًا إلى حياة مبتذَلة وتافهة، ولكنّ ذاكرتي لا تضمّ سوى المغامرات والغراميَّات والأفراح والآلام. أمَّا أحداث المشاغل اليوميَّة التافهة، فتختفي من ذاكرتي. عندما أنظر إلى الوراء يبدو لي كأنَّني بطلة قصَّة ميلودراميَّة. أمَّا الآن، فقد توقَّف، في المقابل، كلُّ شيء. لم يعد هناك ما أرويه، فالحاضر له حِدَّةُ المأساة الفظَّة. أُغمض عيني فتظهر أمامي صورة ابنتي المؤلمة على كرسيِّها ذي العجلات، وبصرها المثبَّت على البحر، ناظرة إلى ما رواء الأفق، إلى حيث يبدأ الموت.

ما الذي سيحدث لهذا الفراغ العظيم الذي هو أنا الآن؟ بماذا سأملأ نفسي عندما لا تبقى قشَّة واحدة من الطموح، وعندما لا يبقى أيُّ مشروع ولا أيّ شيء منِّي؟ ستختزلني قوَّة الامتصاص إلى حفرة سوداء وسأختفي. الموت... مغادرة الجسد هي فكرة فاتنة. لا أريد البقاء حيَّةً وأنا ميِّتةٌ من الداخل. وإذا كنت سأستمرُّ في هذا العالم فلا بدَّ لي من أن أنظِّم السنوات المتبقِّية. ربَّما تكون الشيخوخة بدايةً أخرى، ربَّما يمكن العودة إلى زمن الطفولة السحريّ؛ ذلك الزمن السابق للتفكير المنتظم والأحكام المسبقة، حين كنت أدرك العالم بحواسَّ مجنونة هائجة، وكنت حرَّة في تصديق ما لا يمكن تصديقه،

وفي اكتشاف عوالم اختفت وتلاشت فيما بعد، في مرحلة العقل. لم يكن لديّ كثيرٌ أخسره، وليس لديّ ما أدافع عنه. أتكون هذه هي الحرِّيَّة؟ يخطر لي أنَّه يجب أن يكون لنا، نحن الجدَّات، دورُ الساحرات الحاميات. علينا أن نسهر على النساء الأكثر شبابًا، وعلى الأطفال والمجتمع. ولماذا لا يكون سهرنا كذلك على هذا الكوكب المتلَف، ضحيَّةِ كلّ هذا العنف. أحبّ أن أطير ممتطيةً مكنسةً وأن أرقص مع ساحرات وثنيّات أُخريات في الغابة على ضوء القمر، لنستحضر قوى الأرض ونُبعد عنها الشياطين. أريد التحوُّل إلى عجوز حكيمة، أتعلَّم أعمال السحر القديمة وأسرار المداواة. ليس قليلًا ما أصبو إليه. إنَّ المشعوذات، مثل القدِّيسين، هنّ نجوم متفرِّدة تلمع بضوئها الخاصّ، لا يعتمدن على أحد أو على شيء، ولهذا لا يعرفن الخوف ويمكنهنَّ إلقاء أنفسهنَّ من دون تبصُّر في الهوَّة وهنَّ موقنات بأنَّهنَّ لن ينسحقن، وإنَّما سيخرجن طائرات. يمكنهنَّ التحوُّل إلى عصافير ليَرينَ العالم من فوق، أو إلى ديدان ليَرينه من الداخل، ويمكنهنَّ أن يسكنَّ في أقيانوس لانهائيّ من الوعي والمعرفة.

عندما تخلَّيت نهائيًّا عن العاطفة الجسديَّة تجاه موسيقيّ أرجنتينيّ غامض، امتدَّت أمام عينَيَّ صحراءُ فسيحة من النفور والوحدة. كنت في السابعة والثلاثين من عمري، وكنت أخلط بين الحبّ بصورة عامَّة والحبيب بصورة خاصَّة، فقرَّرت أن أشفي نفسي تمامًا من رذيلة الحبّ، ولكنَّني لم أجلب لنفسي في نهاية المطاف إلَّا التعقيدات. ومن حسن حظّي أنَّني لم أتمكَّن من تحقيق ذلك بالكامل، وبقي الميل إلى الحبّ نابضًا، مثلَ بذرة مدفونة تحت أمتار من الثلج القطبيّ لا تلبث

أن تنبت بعناد عند أوّل هبّة نسيم دافئة. بعد أن رجعت إلى كاراكاس مع زوجي، واصل العشيق إلحاحه لبعض الوقت، ويبدو لي أنّه فعل ذلك رفعًا للعتب وليس لأيّ سبب آخر. كان الهاتف يرنّ، وما إن أسمع «تك» التي تميّز المخابرات الدوليّة، حتى أُعيد السمّاعة من دون أن أردّ. وكنت أمزّق، بالإصرار نفسه، رسائلَه من دون أن أفتحها، إلى أن وضع عازف الناي حدًا لمحاولاته الاتّصالَ بي. لقد مضت خمس عشرة سنة، ولو قيل لي آنذاك إنّني سأتوصّل إلى نسيانه لَما كنت صدّقت ذلك أبدًا، لأنّي كنت واثقة بأنّني تقاسمت واحدة من تلك الغراميّات البطوليّة النادرة ذات النهاية المأساويّة، والتي تشكّل مادّة للأوبرا. أمّا الآن، فلديّ رؤية أكثر تواضعًا، وآمل، على الأقلّ، التعرُّفَ إليه إذا ما التقيته صدفة في أحد منعطفات الطريق. لقد كانت تلك العلاقة الخائبة جرحًا مفتوحًا لأكثر من سنتين. كنت مريضة بالحبّ بكلّ معنى الكلمة، ولكنّ أحدًا لم يعرف ذلك، ولا حتى أمّي التي كانت تراقبني عن كثب. لم أكن أملك القدرة على النهوض من السرير في بعض الصباحات، مهزومةً بالخيبة. وفي بعض الليالي كانت تداهمني الذكريات والرغبات المتأجّجة، فأقاومها بحمّامات ماء بارد جدًّا، مثلما كان يفعل جدّي. وفي حمّى كَنْس الماضي كلّه مزّقتُ نوتاتِ أغنياته ونصّ عملي المسرحيّ، وهو ما ندمت عليه في إحدى المناسبات لأنّني فكّرت في أنّها لم تكن سيّئة تمامًا. عالجت نفسي من الحبّ بالدواء الحمّاري الذي اقترحه ميشيل: فقد دفنت الحبّ في رمال الصمت. لم أتحدّث في الأمر لسنوات عديدة، إلى أنْ لم يعد يؤلمني. وكنت صارمة جدًّا في مسعى تصفية ذكرى أفضل المداعبات، حتى إنّني تماديت ومضيت بعيدًا، فظهرت فجوة مثيرة الذعر في

ذاكرتي. لم أكتف بإغراق نكباتي يومذاك فيها، بل أغرقت جزءًا كبيرًا من أفراحي كذلك.

لقد ذكَّرتني تلك المغامرة بالدرس الأوَّل الذي تعلَّمته في طفولتي، ولست أدري كيف كنت قد نسيته: لا حرِّيَّة من دون استقلال اقتصاديّ. فخلال سنوات زواجي، وجدت نفسي أقع، من دون أن أدري، في الوضع الحسَّاس نفسه الذي عاشته أمِّي حين كانت تعتمد على إحسان جدِّي. ومنذ طفولتي، عاهدت نفسي على ألَّا أسمح بحدوث ذلك لي. كنت مصمِّمة على أن أكون قويَّة ومنتجة مثل بطريرك الأُسرة حتى لا أضطرّ إلى طلب شيء من أحد، وقد أنجزت الشقَّ الأوَّل، ولكنَّني بدلًا من أن أُدير بنفسي ما أجنيه من عملي، وضعته بكسل بين يدي زوج اعتبرت أنَّ سمعته كقدِّيس هي ضمانةٌ كافية. ذلك الرجل الرصينُ والعمليّ، والذي يتحكَّم تمامًا في انفعالاته، وغيرُ القادر في الظاهر على اقتراف أيِّ عمل جائر أو قليل النزاهة، بدا لي أكثرَ كفاءة منِّي للسهر على مصالحي. لست أدري كيف خرجتُ بهذه الفكرة. وفي خضمّ الحياة المشتركة وميلي إلى التبذير، خسرت كلّ شيء. وعندما رجعت إلى العيش إلى جانبه، قرَّرت أنَّ الخطوة الأولى للمرحلة التي بدأت هي الحصولُ على ضمان مضمون، وادِّخارُ أقصى ما يمكن، وتغييرُ أنظمة الاقتصاد المنزليّ كي يتحوَّل دخله إلى النفقات اليوميَّة ودخلي إلى استثمار. لم أكن أنوي جمع المال من أجل الطلاق، ولم تكن هناك حاجة إلى أيِّ إستراتيجيَّات كلبيَّة، لأنَّه مع اختفاء موسيقيّ التروبادور الجوَّال من الأفق تجاوز الزوج غضبه، وكان مستعدًّا من دون شكٍّ للتفاوض على انفصال بشروط أكثر عدالة من تلك التي طرحها في ذلك الشاطئ الشتائيّ في مونتيفيديو. بقيت معه

تسع سنوات في معاملة كاملة من النيّات الحسنة، معتقدةً أنّنا بشيء من الحظّ وكثير من الجهد نستطيع الوفاء بعهد الزواج الأبديّ الذي تعاهدنا عليه أمام مذبح الكنيسة. ومع ذلك، فقد انقطع خيط زواجنا لأسباب ليس لها علاقةٌ كبيرة بخيانتي الزوجيّة، ولها علاقة كبيرة بحسابات أقدم عهدًا مثلما اكتشفتُ فيما بعد. ففي عودتنا تلك إلى اللقاء، رجَّحت كفَّةَ الابنين ونصفِ الحياة التي أنفقناها في علاقتنا والحنانِ الهادئ والمصالح المشتركة التي جمعت بيننا. لم آخذ في عين الاعتبار عواطفي التي تبيَّن في النهاية أنّها أقوى من تلك الأهداف الرصينة. لقد شعرت لسنوات طويلة بعاطفة صادقة تجاه ذلك الرجل، ويؤسفني أنَّ سوء نوعيَّة الأزمنة الأخيرة قد استهلك ذكريات الشباب الطيِّبة.

ذهب ميشيل إلى الإقليم النائي حيث كانت التماسيح تظهر صباحًا في حُفر ركائز البناء، وكان مستعدًا لإنجاز ذلك المشروع والبحث عن عمل آخر يتطلَّب تضحيات أقلَّ، وبقيت أنا مع الابنين اللذين تبدَّلا كثيرًا في غيابي، فقد أصبحا يبدوان كأنَّهما استقرَّا نهائيًّا في البلد الجديد، ولم يعودا يتكلَّمان على العودة إلى تشيلي. في تلك الشهور الثلاثة، خلّفت باولا الطفولة وراءها وتحوَّلت إلى شابَّة جميلة يستنفدها هاجس التعلُّم: كانت تحصل على أفضل النتائج في صفِّها، وتدرس العزف على الغيتار من دون أن تكون لديها أيُّ قابليَّة لذلك. وبعد أن أتقنت اللغة الإنكليزيَّة، بدأت تتعلَّم الفرنسيَّة والإيطاليَّة باستخدام الأسطوانات والمعاجم. وفي أثناء ذلك، كان نيكولاس قد كبر شبرًا، وظهر ذات يوم بالبنطال مرفوعًا إلى منتصف ساقيه والقميصِ إلى منتصف ذراعيه، وفي هيئة جدِّه وأبيه نفسها. وكانت هناك خياطة لجرح في رأسه، وعددٌ من آثار الجروح الأخرى، وطموحٌ سرّيّ بأن يتسلَّق

من دون حبال أعلى ناطحة سحاب في المدينة. كنت أراه وهو يسحب عُلَبًا معدنيَّة كبيرة ليخزِّن فيها براز كائنات بشريَّة وعدَّة أنواع من الحيوانات، كواجب غير سارّ في دروس العلوم الطبيعيَّة. كان يريد أن يثبت أنَّ الغاز الناتج من تلك التعفُّنات يمكن أن يُستخدم كوقود، وأنَّ من الممكن، عبر عمليَّة تكرير، استخدامَ البراز في الطبخ بدلًا من نقله في المجارير إلى المحيط. وكانت باولا التي تعلَّمت السياقة تأخذه بالسيَّارة إلى الإسطبلات والمداجن وزرائب الخنازير وحمَّامات الأصدقاء ليحصل على موادَّ أوَّليَّة لتجاربه ويحفظها في البيت بالرَّغم من خطر انفجار تلك الغازات من الحرِّ، وغمرِ الحيّ كلّه بالبراز. وتحوَّلت صداقتهما الطفوليَّة إلى تواطؤ راسخ، وهو التواطؤ نفسه الذي جمع بينهما حتى اليوم الأخير من حياة باولا الواعية. وقد أدرك جامعا الفضلات هذان، بصمت، نيَّتي في دفن ذلك الفصل المؤلم من حياتنا. وأعتقد أنَّه قد خلّف فيهما جروحًا خطيرة ومقدارًا لا يعرفه أحد من الحقد نحوي لأنِّي خنتهما، ولكنّ أيًّا منهما لم يأتِ على ذكر ما حدث إلَّا بعد تسع سنوات من ذلك، عندما استطعنا أن نجلس أخيرًا، نحن الثلاثة معًا، لنناقش الأمر، وقد اكتشفنا عندئذ، بمرح، أنَّ أيًّا منَّا لم يعد يتذكَّر تفاصيل ما جرى، وأنَّنا جميعنا قد نسينا اسم ذلك العشيق الذي كان على وشك أن يتحوَّل إلى زوج أمّهما.

مثلما يحدث دائمًا تقريبًا عندما ينظِّم المرء الطريق المرسوم له في كتاب القَدَر، ساعدتني مجموعة من المصادفات على وضع خططي موضعَ التنفيذ. فأنا لم أستطع، خلال ثلاث سنوات، إقامةَ صداقات أو الحصولَ على عمل في فنزويلا، ولكنَّني ما كدت أركِّز كلّ طاقاتي

في مهمَّة التأقلم والعيش، حتى توفَّر لي ذلك في أقلّ من أسبوع. فأوراق اللَّعب التي كانت أمّي ترى فيها الحظّ وتنبَّأت من قبلُ بتدخُّل رجل أسمر ذي شارب في حياتي ـ أظن أنَّها إشارة إلى عازف الناي ـ عادت لتعلن هذه المرء عن امرأة شقراء. وبالفعل، فبعد أيَّام قليلة من عودتي إلى كاراكاس، ظهرت في حياتي ماريلينا، وهي أستاذة ذات شعر ذهبيّ عرضت عليَّ عملًا. لقد كانت تملك معهدًا لتعليم الفنّ وتُعطي فيه دروسًا لأطفال لديهم مشاكل في التعلُّم. وبينما كانت أمُّها، وهي سيِّدة إسبانيَّة نشطة، تشرف على إدارة المدرسة من خلال دورها كسكرتيرة، كانت ماريلينا تُعلّم عشر ساعات في اليوم وتخصِّص عشر ساعات أخرى من وقتها لإجراء بحوث عن مناهج طموحة تنوي من خلالها تبديلَ نظام التعليم في فنزويلا، بل في العالم بأسره. وكان عملي يتلخَّص في مساعدتها على الإشراف على عمل المعلّمين وتنظيمِ الدروس، واجتذابِ تلاميذ عبر حَمْلة دعائيَّة، وإقامةِ علاقات جيِّدة بأولياء الأمور. وقد أصبحنا صديقتين حميمتين. لقد كانت امرأة صافية مثل شعرها الذهبيّ، برغماتيَّةً ومباشِرةً، وكانت تُجبرني على تقبُّل الواقع الفظّ حين أهيم على وجهي في اضطرابات عاطفيَّة أو مشاعر حنين وطنيَّة، وتدفعني إلى تصفية جذور أيّ محاولة للرأفة بنفسي. تقاسمت معها أسرارًا، وتعلَّمت مهنة أخرى، ونفضت عنّي الغمَّ الذي شلَّني لوقت طويل. لقد أطلعتني على الرموز والمفاتيح الدقيقة لمجتمع كاراكاس الذي لم أكن قد توصَّلت إلى فهمه حتى ذلك الحين لأنّي كنت أحلّله بحسب نظرتي التشيليَّة. وبعد سنتين من ذلك، كنت قد تأقلمت جيِّدًا، ولم يعد ينقصني إلَّا التكلُّمُ بلهجة أهل الكاريبي. وفي أحد تلك الأيَّام، وجدت في قاع حقيبتي كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا فيه

حفنة من تراب، فتذكَّرت أنَّني كنت قد أحضرته معي من تشيلي كي أزرع في ذلك التراب أفضل بذور الذاكرة، ولكنَّني لم أفعل لأنِّي لم أكن أنوي الاستقرار، فقد كنت أعيش معلَّقة بأخبار الجنوب، وأنتظر سقوط الدكتاتوريَّة كي أرجع إلى بلدي. قرَّرت عندئذ أنَّني انتظرت ما فيه الكفاية، وقمت، في طقس سرِّيٍّ حميم، بمزج تراب حديقتي القديمة بتراب فنزويليّ، ووضعت الخليط في أصيص فيه بذور أزهار اللاتنسيني، فخرجت نبتة ضعيفة غير مناسبة لذلك المناخ، ثم ما لبثت أن ذوت وماتت محروقة بحرارة الشمس. ومع مرور الوقت، استبدلتها بنبتة تروبيكاليَّة مخصَّبة نمت بشراهة أخطبوطيَّة.

تكيَّف ابناي أيضًا في فنزويلا. فأحبَّت باولا شابًا من أصل صِقليّ، مهاجر من الجيل الأوَّل مثلها، ولا يزال مخلصًا لتقاليد وطنه. وكان أبوه، الذي جنى ثروة من موادّ البناء، ينتظر انتهاء باولا من المدرسة ـ لأنْ تلك هي رغبتها ـ ومن تعلُّم الطبخ، كي يقيم لهما حفلة الزفاف. عارضتُ ذلك بشراسة قاسية، بالرَّغم من أنَّني كنت أشعر بتعاطف لا يمكن تجنُّبه نحو ذلك الفتى الطيِّب وذويه اللطفاء، فهم أسرة كبيرة العدد ومرحة بلا تعقيدات ميتافيزيقيَّة أو ثقافيَّة، يجتمعون يوميًّا للاحتفال بالحياة في ولائم أشهى لذائذ المطبخ الإيطاليّ. لقد كان الخطيب الابنَ والحفيد الأكبر؛ شابًا طويلًا، أشقرَ ذا مزاج بولينيزيّ، يُمضي وقته في تسليات هادئة في يخته الخاصّ، وفي بيت ذويه على الشاطئ، وفي مجموعة سيَّاراته، وفي حفلات بريئة. وكان اعتراضي الوحيد هو أنَّ صهري القويّ لا يملك عملًا ولا دراسة، وأنَّ أباه يدفع إليه تقاعدًا سخيًّا، وقد وعده ببيت مفروش عندما يتزوَّج من باولا. واجهني شاحبًا ومرتعشًا في أحد الأيَّام، إنَّما

بصوت ثابت، ليقول لي إنَّ علينا أن نتخلَّى عن التلميحات ونتكلَّم بوضوح، وإنَّه قد تعب من أسئلتي المواربة. وشرح لي أن العمل في نظره ليس فضيلة، وإنَّما هو حاجة، فإذا كان قادرًا على أن يأكل من دون عمل، فإنَّه لن يعمل لأنَّ من يفعل ذلك هو الأحمق وحده. لم يكن يفهم إصرارنا على التضحية والجهد، ويفكِّر في أنَّه إذا كنَّا «واسعي الثراء»، كما يعلن العمّ رامون، فلماذا نستيقظ في الفجر ونمضي اثنتي عشرة ساعة في العمل يوميًّا، قائلين إنَّ العمل في نظرنا هو المقياس الوحيد للنزاهة. أعترف بأنَّه قد بلبل سلّم القيم الرواقيَّة الموروثة عن جدِّي، وأصبحت منذ ذلك الحين أواجه العمل بروح فيها قَدْر أكبر من المرح. تمَّ تأجيل الزواج لأنَّ باولا أعلنت حين أنهت المدرسة، أنَّها ما زالت غير جاهزة للتفرُّغ لقُدور الطبخ، وأنَّها تفكِّر، في المقابل، في دراسة علم النفس. وقد انتهى العريس إلى الموافقة على ذلك، لأنَّها لم تستشره في الأمر، ولأنَّ هذه المهنة ستفيدها في توفير تربية أفضل لنصف دزّينة الأولاد الذين تفكِّر في إنجابهم. ولكنَّه مع ذلك لم يستطع أن يهضم فكرة تسجيلها في دورة للأبحاث الجنسيَّة، وحملها في حقيبتها أشياء مخجلة لقياس الأعضاء التناسليَّة أو التهيُّج الجنسيّ. وحتّى أنا نفسي لم أستحسن الفكرة، فنحن في أحسن الأحوال لسنا في السويد، والناس حولنا لن يعجبهم بالتأكيد هذا الاختصاص، ولكنَّني لم أعلن رأيي لأنَّ باولا كانت ستفنِّده بحجج الدفاع عن المرأة نفسها التي غرستُها فيها منذ طفولتها المبكرة. ولكنَّني تجرَّأت على الطلب إليها أن تكون متكتِّمة ورصينة، لأنَّها إذا عُرفت كمتخصِّصة بالجنس، فلن يمتلك أحد الشجاعة للتقرُّب منها ومغازلتها، لأنَّ الرجال يخشون المقارنات، ولكنَّها صعقتني بنظرة

محترفة، وتوقَّف النقاش عند ذلك الحدّ. وقُبَيل انتهائها من دورة الأبحاث، كان عليَّ أن أقوم برحلة إلى هولندا، فأوصتني بأن أحضر لها موادَّ تعليميَّة لا يمكن الحصول عليها في فنزويلا. وهكذا، وجدت نفسي في إحدى الليالي في أحد أقذر أحياء أمستردام، أبحث في متاجر غير محتشمة عن الموادّ المذكورة في قائمتها: خذروفات مجهريَّة من المطَّاط؛ دمًى ذات ثقوب؛ أشرطة ڤيديو خياليَّة لخليط نساء في جهود تبعث الشلل أو مع كلاب شبقة. ولم يكن خجلي عند شرائها أكبر من ذاك الذي شعرت به في مطار كاراكاس حين فتحوا حقائبي، وتناقلت أيدي أفراد السلطات الجمركيَّة تلك الأشياء المثيرة للفضول أمام نظرات المسافرين الآخرين الساخرة، وكان عليَّ أن أوضح أنَّني لا أحملها لاستخدامي الشخصي، وإنَّما من أجل ابنتي. وقد كان ذلك هو نهاية خطوبة باولا وذلك الفتى الصقليّ المهذَّب. ومع مرور الوقت، عاد ذلك الشابّ إلى رشده فأنهى المدرسة، وبدأ العمل في شركة أبيه، وتزوَّج وأنجب أبناء، ولكنَّه لم ينسَ حبَّه الأوَّل. ومنذ أن علم بأنَّ باولا مريضة، صار يتَّصل بي عارضًا عليَّ المساندة، مثلما يفعل نصف دزِّينة من الرجال الآخرين الذين يبكون حين أُطلعهم على الخبر المشؤوم. أجهل من هم أولئك الرجال، وأيّ دور كان لهم في حياة ابنتي. كما أنَّني أجهل أيَّ آثار عميقة خلَّفتها هي في أرواحهم، ولكنَّني رأيت الثمار في شهور الاحتضار الطويلة هذه. ففي كلّ مكان ذهبت إليه، لها أصدقاء ومحبُّون؛ أناسٌ من مختلف الأعمار والأوساط يتَّصلون بي ليسألوا عنها، ولا يستطيعون أن يصدِّقوا أنَّ نكبة بهذا الحجم قد حلَّت بها.

كان نيكولاس، في أثناء ذلك، يتسلَّق أكثر القمم وعورةً في جبال

الأنديز، ويستكشف كهوفًا في أعماق البحر ليصوِّر أسماك القرش، ويكسر عظامه بوتيرة عالية، حتى إنَّني كنت أرتعش خوفًا كلَّما رنّ جرس الهاتف. فإذا لم تكن هناك أسباب واقعيَّة لقلقي، كان هو يتولَّى اختراعها بالعبقريَّة نفسها التي يستخدمها في تجارب الغازات الطبيعيَّة. رجعت في أحد الأيَّام مساءً فوجدت البيت مظلمًا ومقفرًا في الظاهر. لمحت نورًا في نهاية الممرّ، فاتَّجهت إلى هناك منادية وأنا شبه ساهية، وعند عتبة الحمَّام اصطدمت فجأة بابني معلَّقًا بحبل حول عنقه. وتمكَّنت من تمييز تعابير المشنوق على وجهه بلسانه المتدلِّي وعينيه البيضاوين قبل أن أنهار على الأرض مثل صخرة. لم أفقد الوعي، ولكنِّي كنت عاجزة عن الحركة، فقد تحوّلتُ إلى كتلة جليد. وحين رأى نيكولاس ردَّة فعلي، فكّ الرسن الذي كان يتعلَّق به بإحكام وركض لنجدتي، وراح يقبِّلني نادمًا ويقسم بأنّه لن يسبِّب لي مثل هذا الفزع أبدًا. لكن نيَّاته الطيِّبة لم تكن تستمرّ أكثر من أسبوعين، إلى أن يكتشف طريقة للغطس في حوض الحمَّام والتنفُّس بأنبوب زجاجيّ رفيع كي أحسبه غارقًا، أو يظهر أمامي بجبيرة على ذراعه وعِصابة على إحدى عينيه. وبحسب مراجع باولا في علم النفس، فإنَّ تلك الحوادث تكشف عن ميل ضمنيّ إلى الانتحار، وسعيه الدائم لتعذيبي بمزاجه هو تلبية لحقد دفين، ولكنَّنا من أجل طمأنة الجميع كنَّا ننتهي إلى القول إنَّ المراجع تخطئ في العادة. لقد كان نيكولاس فتًى نصفَ جلف، ولكنَّه لم يكن مهووسًا بالانتحار، ومحبَّته لي كانت واضحة جدًّا، حتى إنَّ أمّي شخَّصت ذلك على أنَّه عقدة أوديب. وقد أثبت الزمن صحَّة نظريَّتنا، ففي السابعة عشرة من عمره، استيقظ ابني في صباح أحد الأيَّام وقد تحوَّل إلى رجل، فجمع علب تجاربه، ومنصَّاتِ إعدامه،

وحبالَ تسلُّق الجبال، وحرابَ قتل أسماك القرش، وحقيبةَ إسعافاته الأوَّليَّة، ووضع ذلك كلّه في صندوق في المرأب، وأعلن أنَّه يفكِّر في التفرُّغ لعلوم الكومبيوتر. وعندما أراه الآن يأتي، في مظهره الجدِّيّ كمثقَّف حاملًا على كلِّ ذراع أحد طفليه، أتساءل عمَّا إذا كانت رؤيتي لنيكولاس معلَّقًا من مشنقة بيتيَّة ليست إلَّا مجرَّد حلم من أحلامي.

أنهى ميشيل في تلك السنوات مشروعَ البناء في الغابة، وانتقل إلى العاصمة مفكِّرًا في إنشاء شركة مقاولات خاصَّة به. ومضينا بحذر في ترقيع نسيج علاقتنا الممزَّقِ شيئًا فشيئًا، إلى أن أصبحت علاقة لطيفة ومنسجمة تجعلنا نبدو عاشقين في عيون الآخرين. كان عملي يوفِّر لنا المعيشة لبعض الوقت، بينما هو يبحث عن عقود في كاراكاس المتفجِّرة تلك، حيث يجري كلّ يوم قطعُ أشجار وإزاحةُ تلال وهدمُ بيوت لتشييد ناطحات سحاب وأوتوسترادات جديدة في مثل لمح البصر. ولم يكن عمل أكاديميَّة صديقتي الشقراء مستقرًّا تمامًا، فكان علينا في بعض الأحيان أن نلجأ إلى معاش أمّها أو إلى مدّخراتنا لنغطِّي النفقات حتى نهاية الشهر. كان التلاميذ يأتون متزاحمين قبيل الامتحانات النهائيَّة، حين تراود آباءهم الشكوكُ في أنَّهم لن يجتازوا العامَ الدراسيَّ بنجاح، ويتمكَّنون عن طريق الدروس الخصوصيَّة من ترميم وضعهم. ولكنَّهم بدلًا من مواصلة الدراسة كي يحلّوا أسباب المشكلة، كانوا يختفون فور انتهاء الامتحانات. وكان الدخل متقلِّبًا لبضعة شهور، بحيث يستمرُّ المعهد في الوجود بمشقَّة، ثم نواجه شهر كانون الثاني ونحن في ضائقة شديدة، إذ يكون علينا حينئذ أن نسجِّل عددًا من الأطفال يكفي للإبقاء على ذلك الشراع الضعيف مبحرًا. وفي شهر كانون الأوَّل من ذلك العام، كان الوضع حرجًا، وكنت أنا

ووالدة ماريلينا نتولّى مسؤوليّة الجانب الإداريّ، فكنّا نراجع سجلّ الحسابات مرّة بعد أخرى في محاولة غير مُجدية لموازنة الأرقام السلبيّة. وبينما نحن منهمكتان في ذلك، مرّت قبالة طاولتنا عاملةُ التنظيفات، وهي امرأة كولومبيّة حنون اعتادت أن تكرمنا بحلوى لذيذة تصنعها بيديها. وعندما رأتنا نُجري حسابات يائسةً، سألتنا باهتمام قلبيّ عن المشكلة فأخبرناها بمصاعبنا.

قالت:

ـ أنا أعمل مساء في وكالة لدفن الموتى، وعندما تضعف حركة الزبائن، نشطف المحلّ بـ «كيتالابابا».

ـ وكيف هذا؟

ـ إنّه نوع من التعزيم. يجب إجراء تنظيف جيّد. فأوّلًا، يجب شطف الأرض من أقصاها حتى المدخل من أجل إخراج سوء الطالع، ثم التنظيف بعد ذلك من الباب في اتّجاه الداخل لاستدعاء أرواح النور والرضى.

ـ وبعدها؟

ـ وبعدها يبدأ الموتى بالمجيء.

ـ ولكنّنا لا نحتاج هنا إلى موتى، وإنّما إلى أطفال.

ـ إنّه الشيء نفسه، «كيتالابابا» ينفع من أجل تحسين كلّ الأعمال.

أعطيناها بعض النقود، فأحضرت في اليوم التالي صفيحةً مملوءة بسائل كريه الرائحة له مظهر مريب: تترسّب في القاع مادّةٌ حليبيّة مائلة

إلى الصُّفرة، وفوقها طبقة مرق فيه فقّاعات، ثم طبقةٌ أخرى من زيت مائل إلى الاخضرار. وكان علينا أن نخفق السائل قبل استخدامه وأن نغطّي أنوفنا بمنديل لأنَّه يمكن للرائحة أن تُفقدنا الوعي. «يجب ألَّا تعلم ابنتي بهذا الأمر غير المعقول»، هكذا تنهَّدت قائلةً أمُّ مارِيلينا التي كانت تقترب من السبعين، ولكنَّها لم تكن قد فقدت شيئًا من حيويَّتها وطِيب مزاجها الذي دفعها إلى هجر مسقط رأسها في بلنسية قبل ثلاثين عامًا لتلحق بزوج غير وفيّ إلى العالم الجديد، ولتواجهه وهو يعيش مع عشيقة وتطلب منه الطلاق، ثم تنساه بعد ذلك تمامًا. فُتنت بهذا البلد الخصب والذي أحسَّت فيه بالحرِّيَّة لأوَّل مرَّة في حياتها، فبقيت مع ابنتها، وشقّتا طريقهما معًا بعناد وذكاء. جلست أنا وهذه السيِّدة الطيِّبة القرفصاء ومسحنا الأرض بممسحتين ونحن نتمتم بالكلمات الطقوسيَّة ونكبح ضحكنا، لأنَّنا إذا سخرنا من الأمر علنًا فسينهار كلُّ شيء ويمضي إلى الجحيم، لأنَّ مفعول السحر لا يتحقَّق إلَّا بالجدِّيَّة والإيمان. أمضينا نحو يومين في هذا العمل، انحنى بعدها ظهرانا وتسلَّخت ركبنا ولم نستطع، على الرَّغم من التهوية، أن نُبعد الرائحة الكريهة، ولكنَّ العمل كان يستحقّ العناء؛ ففي الأسبوع الأوَّل من كانون الثاني كان يقف أمام الباب صفٌّ طويل من الآباء وهم يمسكون بأيدي أبنائهم. وبالنظر إلى تلك النتائج الباهرة، خطر لي أن أستخدم ما تبقَّى من السائل في الصفيحة لتحسين حظّ ميشيل، فذهبت خلسة إلى مكتبه ليلًا لأمسحه من أوَّله إلى آخره مثلما فعلت في المعهد. لم أحصل على أيِّ معلومات خلال بضعة أيَّام، اللهمَّ إلَّا بعض التعليقات عن رائحة غريبة تفوح من المكتب. استشرتُ عاملة النظافة في الأمر فأكَّدت لي أنَّ «المنحوس» هو زوجي، وأنَّ كلَّ شيء

يمكن حلّه بأخذه إلى «الجبل المقدَّس» لعرضه على عرّاف محترف، ولكن تحقيق هذه النصيحة كان بعيدًا جدًّا عن إمكانيَّاتي. فرجل مثله، هو نتاجٌ صافٍ للتربية البريطانيَّة ودراسة الهندسة وعادة لعب الشطرنج، لا يمكن له أن يتقبَّل الطقوس السحريَّة على الإطلاق، ولكنَّني بقيت أفكِّر في منطق السحر، وتوصَّلت إلى أنَّه إذا كان ذلك السائل العجيب ينفع في مسح الأرض، فليس هناك ما يمنع من استخدامه لبلِّ كائن بشريّ. وفي صباح اليوم التالي، وبينما كان ميشيل في الحمَّام، دنوتُ من ورائه ودلقت عليه بقايا الصفيحة. أطلق زعقة مفاجئة ثم تحوَّل لون جلده بعد قليل إلى لون السلطعون وتساقطت بعض خصل شعره، ولكنَّه بعد أسبوعين من ذلك بالضبط، وجد شريكًا فنزويليًّا وحصل على عَقْد عمل مُغْرٍ.

لم تعرف صديقتي ماريلينا سبب الرخاء الاستثنائيّ في تلك السنة، ولكنَّها لم تؤمن بإمكانيَّة ديمومته. لقد كانت متعَبة من النضال من أجل تأمين الميزانيَّة، وبدأت تفكِّر في إمكانيَّة تغيير الاتّجاه. وبينما نحن نناقش المسألة، برزت فكرة ـ مستوحاة من أبخرة التعزيم التي ما زالت عالقة في شقوق الأرضيَّة ـ لتحويل المعهد إلى مدرسة يمكن فيها تطبيق نظريَّاتها التربويَّة الرائعة من أجل حلّ جدِّيّ لمشاكل التعلُّم، ووضع حدّ في الوقت نفسه لمفاجآت سجلَّات المحاسبة. وكانت تلك بداية مشروع متماسك تحوَّل خلال سنوات قليلة إلى المدرسة الأكثر احترامًا في المدينة.

لديَّ وقت طويل للتأمُّل في هذا الخريف الكاليفورنيّ. يجب عليَّ

أن أعتاد ابنتي وألّا أتذكّرها على أنّها الشابّة اللطيفة والسعيدة التي كانتها من قبل، ويجب عليّ في الوقت نفسه ألّا أضيع في رؤى متشائمة للمستقبل، وإنّما أن أتقبّل كلّ يوم ما يأتي به، من دون انتظار معجزات. إنّ باولا تعتمد عليّ في بقائها، فقد عادت إلى الانتماء إليّ، وهي بين يدَيّ من جديد مثلما كانت عند ولادتها. لقد انتهت بالنسبة إليها احتفالاتُ الحياة وجهودُها. إنّني أضعها على الشرفة مُدَثَّرةً بشالات، قبالة خليج سان فرانسيسكو وشجيرات ورد ويللي المحمَّلة بالأزهار منذ خروجها من البراميل وضرب جذورها في الأرض اليابسة. أحيانًا تفتح ابنتي عينيها، وتنظر بثبات إلى سطح الماء الملوَّن بألوان قوس قزح، فأقف في خطّ نظرها، ولكنّها لا تراني، فحدقتا عينيها تزورانني في الأحلام. إنّني أنام قَلِقة، وكثيرًا ما أستيقظ وأنا موقنة بأنّها تناديني، فأنهض بسرعة وأركض إلى حجرتها حيث أجد أنّ ثمّة خللًا على الدوام تقريبًا: فإمّا أن يكون قد اختلّ نبضها أو درجةُ حرارتها، أو أنّها متعرِّقة أو باردةٌ، أو أنّها في وضع غير مريح ومصابةٌ بتشنُّجات. فالمرأة التي تعتني بها ليلًا تنام عادة بعد انتهاء برامج التلفزيون باللغة الإسبانيّة. عندئذ أستلقي في السرير مع باولا وأشدُّها إلى صدري في أفضل وضع ممكن، لأنّها أطول منّي قامة. وبينما أنا أطلب السلام لها، أطلب أن تستريح في صفو المتصوِّفين، وأن تسكن جنّة انسجام وصمت، وأن تجد ذاك الربَّ الذي لطالما بحثتْ عنه في طريق حياتها القصير. أطلب إلهامًا كي أحزر حاجاتها، ومساعدةً لإبقائها مرتاحةً، فهكذا يمكن لروحها أن ترحل من دون مضايقات إلى مكان اللقاء. ما الذي تشعر به؟ إنّها تبدو عادة مرتعبةً، مرتجفة، وعيناها زائغتان كأنّها ترى رؤى جهنّميّة، ولكنّها في أحيان أخرى تبدو

غائبة وجامدة كأنَّها قد نأت عن كلِّ شيء. إنَّ الحياة معجزة، وقد انتهت بالنسبة إليها فجأة، من دون أن تمنحها الوقت للوداع أو لإجراء الحساب، بينما كانت لا تزال تقذف بنفسها إلى الأمام في دوَّامة الشباب. لقد انقطع لديها الدافعُ في الوقت الذي بدأت تتساءل فيه عن معنى الأشياء، وتركت لي مهمَّة العثور على الأجوبة. إنَّني أمضي الليل متجوِّلة في البيت، مثل ثعالب القبو المريبة التي كانت تصعد لتأكل طعام القطَّة، أو مثل شبح جدَّتي التي كانت تهرب من مرآتها لتتحدَّث معي. وعندما تنام ابنتي أعود إلى سريري وأحتضن ظهر ويللي بينما عيناي ثابتتان على أرقام الساعة الخضراء، والساعات التي تمرّ من دون توقُّف، مستهلكةً الحاضرَ، فتحوّله إلى ماضٍ. يجب عليَّ أن أتناول أقراص الدكتورة فورستر، ولست أدري لماذا أجمعها مثل كنز، مخبَّأة في سلَّةِ رسائلَ أمِّي. أرى في بعض الأيّام الشروقَ من نوافذ حجرة باولا الواسعة. في كلِّ صباح يُخلَق العالم من جديد، وتصطبغ السماء بلون برتقاليٍّ، ويرتفع فوق الماء بخارُ الليل مطوِّقًا المشهدَ بغلالة ضبابيَّة، مثل رسم يابانيّ دقيق. إنَّني طوف يُبحر من دون اتِّجاه في بحر الأحزان. لقد رحت أتقشَّر خلال هذه الشهور الطويلة مثل بصلة، قشرةً بعد قشرة، وكنت أتبدَّل، فأنا لم أعد المرأةَ نفسها، لقد منحتني ابنتي فرصة النظر إلى أعماقي واكتشافِ هذه الفضاءات الداخليَّة الفارغة والقاتمة والساكنة بصورة غريبة، والتي لم يخطر في بالي استكشافُها قطُّ من قبلُ. إنَّها أماكن مقدَّسة، ولا بدَّ من أجل الوصول إليها من اجتياز طريق ضيِّق ومليء بالعقبات، والتغلُّب على ضواري المخيِّلة التي تخرج لاعتراضي. عندما يشلّني الرعب، أُغمض عيني وأغادر ذاتي بإحساس من يغرق في مياه متقلِّبة، وسط تلاطم الأمواج

الغاضب. وللحظات تبدو أبديَّة في الواقع، أشعر بأنَّني أموت، ولكنَّني أُدرك شيئًا فشيئًا أنَّني ما زلت حيَّة على الرَّغم من كلِّ شيء، لأنَّ هنالك فجوةً سرِّيَّة وسط الدوَّامة الشرسة تسمح لي بالتنفُّس. أترك نفسي تنقاد من دون أيِّ مقاومة، وشيئًا فشيئًا يأخذ الخوف بالتراجع. أدخل طافيةً مغارةً في الأعماق البحريَّة وأبقى هناك مستكينة للحظة، في منجًى من تنِّينات المصائب. أبكي من دون صوت، ممزَّقة من الداخل، مثلما تبكي الحيوانات ربَّما، ولكنَّ الشمس تطلع عندئذ، وتأتي القطَّة لتطلب فطورها، وأسمع خطوات ويللي في المطبخ، وتداهم البيتَ رائحةُ القهوة. ويبدأ نهار آخر، مثل كلِّ يوم.

رأس السنة الجديدة عام ١٩٨١. توصَّلت، في ذلك اليوم، إلى أنَّني في شهر آب التالي سأكمل أربعين سنة من عمري من دون أن أحقِّق حتى ذلك الحين شيئًا مهمًّا حقًّا. أربعون سنة! إنَّها بداية الهرم ولا يكلِّفني كثيرًا أن أتصوَّر نفسي جالسةً على كرسيٍّ هزَّاز أرفو الجوارب. عندما كنت طفلة متوحِّدة وعنيفة في بيت جدِّي، كنت أحلم بمآثر بطوليَّة: سأكون ممثِّلة مشهورة. وبدلًا من أن أشتري فراء ومجوهرات سأقدِّم كلّ أموالي إلى ملجأ للأيتام؛ سأكتشف لقاحًا ضدَّ كسور العظام؛ سأسدّ بإصبع واحدة ثغرة في السدِّ وأُنقذ ضيعة هولنديَّة أخرى. كنت أريد أن أكون توم سوير، أو القرصان الأسود، أو ساندوخان. وبعد أن قرأت شكسبير وأدخلت التراجيديا إلى قائمتي، أردت أن أكون مثل تلك الشخصيَّات الرائعة التي تموت في الفصل الأخير بعد أن تعيش حياة مبالَغًا فيها. أمَّا فكرة تحوُّلي إلى راهبة مجهولة، فقد خطرت لي في وقت متأخِّر جدًّا. ففي تلك الفترة، كنت

أشعر بأنّي مختلفة عن أَخَوَيَّ وغيرهما من الأطفال، ولا أستطيع رؤية العالم مثلما يراه الآخرون. وكان يُخيَّل إليَّ أنَّ الأشياء والناس يصبحون عادة شفّافين، وأنَّ قصص الكتب والأحلام صحيحة أكثر من الواقع. وكانت تداهمني في بعض الأحيان لحظاتُ تجلٍّ مرعبة فأظنّ أنّني أحدس المستقبل أو الماضي البعيد، ما قبل مولدي بكثير، وكأنَّ الأزمنة كلّها قد التقت عفويًا في المكان نفسه. وفجأة، ومن خلال فجوة تنفتح لجزء من الثانية، كنت أعبر إلى زمن آخر. وفي سنوات المراهقة، كنت مستعدَّة لأن أقدِّم كلّ ما أملكه في مقابل الانضمام إلى عصبة الصبيان الصاخبين والذين يرقصون الروك أند رول ويدخِّنون خفية، ولكنَّني لم أحاول ذلك لأنّي كنت مقتنعة بأنّي لست «واحدًا» منهم. وإحساسي بالعزلة الذي حملته منذ طفولتي أصبح أكثر حدَّة، ولكنَّني كنت أجد العزاء في أمل غامض بأنّني مكرَّسة لمستقبل خاصّ سينكشف لي يومًا. ثم دخلت فيما بعد بزخم في روتين الحياة الزوجيَّة والأمومة، حيث تلاشت عثرات الشباب الأوَّل وعزلاته، ونسيت خطط العظمة تلك. وقد انشغلت بالعمل الصحافيّ والمسرح والتلفزيون، ولم أعد أفكِّر في المستقبل، إلى أن وضعني الانقلاب العسكريّ بفظاظة في مواجهة الواقع وأجبرني على تغيير الاتّجاه. أمّا سنوات النفي الطوعيّ التي عشتها في فنزويلا فيمكن اختصارها بكلمة واحدة لها في نظري ثقل الإدانة: الوسطيَّة. وفي الأربعين، كان الوقت قد أصبح متأخِّرًا من أجل المفاجآت، وكان زمني يتناقص بسرعة، والشيء المؤكَّد الوحيد كان نوعيَّة حياتي السيِّئة والمللَ الذي أعيشه، ولكنَّ الكبرياء تمنعني من الاعتراف بذلك. كنت أؤكِّد لأمّي ـ وهي الشخص الوحيد الذي يهمُّه أمري ـ أنَّ كلّ شيء على ما يرام في حياتي الجديدة المهذَّبة، فقد

شُفيت من الحبِّ بانضباط رواقيّ، ولديَّ عمل مضمون، وكنت أدَّخر نقودًا لأوَّل مرَّة في حياتي، ويبدو أنَّني أصبحت أرتدي ملابس معلِّمة مسالمة، فماذا يمكنني أن أطلب أكثر من ذلك؟ فمن الشالات ذات الأهداب والتنانير الطويلة والأزهار في الشعر لم يبقَ أيّ شيء، ولكنَّني مع ذلك كنت أُخرج تلك الملابس خفيةً من قاع إحدى الحقائب لأظهر بها أمام المرآة لدقائق. كنت أختنق في دوري كبرجوازيَّة رصينة وتُستهلَك رغباتي الشبابيَّة نفسها، إنَّما لم يكن لديّ أيّ حقٍّ في الشكوى، فقد غامرت مرَّة في كلِّ شيء وخسرت الرهان، وقد منحتني الحياة فرصة أخرى، فليس أمامي سوى أن أشكر حسن حظِّي. وقالت لي أمّي، في أحد الأيَّام، وهي تطلق زفرة لم تكن زفرة راحة، وبلهجة بدت لي ساخرة: «إنَّها لمعجزة يا ابنتي أنَّك تمكَّنت من تحقيق هذا، فأنا لم أفكِّر مطلقًا في أنَّك ستتمكَّنين من إعادة جمع فتات حياتك الزوجيَّة ووجودك». ربَّما كانت هي الوحيدة التي تعرف محتويات صندوق باندورا الذي لديّ، ولكنَّها لم تكن تجرؤ على فتحه. في عيد رأس السنة ١٩٨١ ذاك، وبينما كان الآخرون يحتفلون رافعين كؤوسَ الشمبانيا وتنفجر في الخارج المفرقعات والألعاب الناريَّة معلنةً بدءَ السنة الجديدة، قرَّرت بيني وبين نفسي أن أتغلَّب على الملل وأن أخضع في ذُلٍّ لحياة لا بريق فيها، مثلما هي حال كلِّ الناس تقريبًا. صمَّمت على أنَّه ليس من الصعب جدًّا التخلِّي عن الحبِّ إذا كان لديَّ بديل يتمثَّل في علاقة صداقة نبيلة مع زوجي، وأنَّ عملي المستقرّ في المدرسة هو أفضل من مغامرات الصحافة والمسرح غير المضمونة، وأنَّ عليّ أن أستقرّ نهائيًّا في فنزويلا بدلًا من مواصلة إطلاق الزفرات على وطن مثاليّ في أقصى أقاصي الكوكب. لقد كانت أفكارًا

عقلانيَّة، ويمكنني بعد عشرين سنة أو ثلاثين سنة، حين تجفّ عواطفي، ولا يبقى لديَّ أيُّ ذكرى للحبّ المحبط أو الملل، أن أتقاعد مطمئنَّة وأعيش من بيع أسهمي التي أشتريها في مؤسَّسة ماريلينا. وفي الثامن من كانون الثاني، جاءنا اتِّصال هاتفيّ من سنتياغو معلنًا أنَّ جدِّي مريض جدًّا، فألغى هذا الخبر كلّ وعودي بالسلوك الحسن وألقى بي في اتّجاه غير منتظر. كان عمر الجدّ يقترب من المئة سنة، وكان يتحوَّل إلى هيكل عظميّ لعصفور، شبه مشلول وحزين، ولكنَّه كان واعيًا تمامًا. عندما انتهى من قراءة الأنسيكلوبيديا البريطانيَّة وحفظ معجم الأكاديميَّة المَلَكيّة، وحين فَقَدَ كلّ اهتمام بنكبات الآخرين في المسلسلات التلفزيونيّة، أدرك أنَّ الوقت قد حان ليموت وأراد أن يفعل ذلك بوَقار. جلس على كرسيّه مرتديًا بدلةً سوداء بالية وواضعًا عكَّازه بين ركبتيه، مستحضرًا شبح جدّتي لتساعده في هذه اللحظة الحرجة، لأنَّ حفيدته قد خَلَفَت وعدها بطريقة سيّئة جدًّا. لقد بقينا خلال تلك السنوات على اتِّصال من خلال رسائلي اللجوجة وردوده المتباعدة. قرَّرت أن أكتب إليه لآخر مرَّة كي أقول له إنَّه يمكنه الذهاب بسلام لأنّي لن أنساه أبدًا، وإنَّني سأنقل ذكراه إلى ابنَيَّ وأبناء ابنَيَّ. وكي أثبت ذلك، بدأت الرسالة بقصَّة عن أخت جدَّتي روسا، خطيبته الأولى، وهي شابَّة ذات جمال يتجاوز المعقول، ماتت في ظروف غامضة قبل زواجها بقليل متسمِّمة بطريق الخطأ أو بمكيدة خبيثة، وقد بقيت صورتها ذات اللون الأسود الفاتح موضوعةً دائمًا فوق البيانو في البيت. وهي تبتسم في تلك الصورة بجمالها الذي لا يتبدَّل. بعد سنوات من موتها، تزوَّج التاتا من أخت روسا الصغرى، أيْ جدَّتي. ومنذ السطور الأولى سيطرت على الرسالة إرادات أخرى

وقادتني بعيدًا عن قصَّة الأُسر غير المؤكَّدة كي أرتاد عالم الخيال المؤكَّد. وفي أثناء الرحلة، اختلطت عليّ الأسباب وامّحت الحدود بين الحقيقة والاختلاق، واكتسبت الشخصيَّات حياة وأصبحت أكثر تطلُّبًا من ابنَيَّ نفسيهما. وبينما أفكاري تهيم في اللمبو، كنت أواظب على دوام مزدوج في المدرسة، منذ السابعة صباحًا حتى السابعة مساءً، مقترفةً أخطاءً كارثيَّة في عملي الإداري. لست أدري كيف نَجَوْنا من الإفلاس في تلك السنة، فقد كنت أراقب سجلَّات المحاسبة والمعلِّمين والتلاميذ والدروس بطرف عيني، بينما اهتمامي كلّه منصبّ على كيس من المشمَّع أحمل فيه الصفحات التي أخربشها في الليل. كان جسدي ينفّذ وظائفي مثل آلة، بينما كان دماغي ضائعًا في ذلك العالم الذي يولد كلمة بعد كلمة. كنت أصل إلى البيت مع بداية حلول الظلام، فأتعشَّى مع الأُسرة، وأستحمّ تحت الدوش ثم أجلس في المطبخ أو في غرفة الطعام أمام آلة كاتبة صغيرة نقَّالة، وأبقى إلى أن يُجبرني الإرهاق على الذهاب إلى السرير. كنت أكتب من دون بذل أيّ جهد؛ من دون تفكير، لأنَّ جدَّتي المتبصِّرة كانت تُمْلي عليّ ما أكتبه. كان عليَّ أن أستيقظ في السادسة صباحًا كي أذهب إلى العمل، لكن ساعات النوم القليلة تلك كانت كافية. كنت أعيش في غيبوبة، وكانت لديَّ طاقة فائضة، كأنَّ في أعماقي مصباحًا مشتعلًا. كانت الأُسرة تسمع طرقات الآلة الكاتبة وتراني تائهة في السحاب، ولكنّ أحدًا من أفرادها لم يوجِّه إليَّ أيَّ أسئلة. ربَّما كانوا يُدركون أنَّني لا أملك إجابة، والحقيقة أنَّني لم أكن أعرف معرفة يقينيَّة ما الذي أفعله، لأنَّ نيَّة إرسال رسالة إلى جدِّي تلاشت بسرعة، ولم أتقبَّل فكرة أنَّني قد بدأت بكتابة رواية، لأنَّ هذه الفكرة كانت تبدو لي ضربًا من العجرفة.

لقد أمضيت أكثر من عشرين عامًا على هوامش الأدب ـ صحافة، قصص قصيرة، مسرح، سيناريوهات تلفزيونيَّة ومئات الرسائل ـ من دون أن أعترف بميولي الحقيقيَّة. وكنت في حاجة إلى نشر ثلاث روايات بعدَّة لغات قبل أن أسجِّل كلمة «كاتبة» كمهنة عند ملء استمارة. كنت أحمل أوراقي أينما ذهبت خوفًا من ضياعها أو من احتراق الولادة. وفي أحد الأيَّام، عندما أصبحت الحقيبة ثقيلة جدًّا، عددت خمسمئة صفحة مصحَّحة جيِّدًا ومعادةَ التصحيح بسائل أبيض، حتى إنَّ بعضها أصبح بسماكة الكرتون، وكان بعضها الآخر ملطَّخًا بالحساء أو أُضيفت إليه قصاصاتٌ ملصَقة بشريط لاصق تُطوى مثل الخرائط. فليتبارك الكمبيوتر الذي سمح لي بأن أصحِّح دائمًا بنظافة. لم يكن هناك من أُرسل إليه تلك الرسالة المطوَّلة، فجدِّي لم يعد موجودًا في هذا العالم. عندما تلقَّينا خبر موته أحسست بنوع من السعادة، فهذا ما كان يتمنَّاه منذ سنوات، وواصلت الكتابة بثقة أكبر، لأنَّ ذلك الشيخ الرائع قد التقى أخيرًا جدَّتي ميمي، وكلاهما يقرأ من فوق كتفَيَّ ما أكتبه. كانت تعليقات جدَّتي الرائعة وضحكاتُ جدِّي الماكرةُ ترافقني كلّ ليلة. وكانت الخاتمة هي أصعب ما في الأمر. لقد كتبتها عدَّة مرَّات من دون أن أجد الإيقاع المناسب، فقد كنت أجدها عاطفيَّة، أو أشبه بموعظة أو بمنشور سياسيّ. كنت أعرف ما أريد قوله، ولكنَّني لم أعرف كيف أعبِّر عنه، إلى أن جاءت الأشباح مرَّة أخرى لمساعدتي. حلمت في إحدى الليالي بأنَّ جدِّي يستلقي في السرير مديرًا ظهره وهو مغمض العينين، مثلما كان في فجر ذلك اليوم في طفولتي حين دخلت حجرته لأسرق المرآة الفضِّيَّة. وقد دفعتُ ـ في الحلم ـ الشرشفَ عنه، فرأيته يرتدي ملابس الحداد، مع ربطة العنق

والحذاء، فأدركت أنَّه ميِّت. وعندئذ جلست إلى جانبه وسط أثاث غرفته الأسود، لأقرأ له الكتاب الذي انتهيت من تأليفه. وكلَّما كان صوتي يروي القصَّة كانت المفروشات تتحوَّل إلى خشب نقيّ، والسريرُ يمتلئ بشُعور زرقاء، وتدخل أشعَّة الشمس من النافذة. استيقظت مفزوعة، في الثالثة فجرًا، وقد وجدت الحلّ: الحفيدة آلبا تكتب قصَّة الأُسرة وهي إلى جانب جثَّة جدّها إستيبان ترويبا، بينما هي تنتظر الصباح لتدفنه. ذهبت إلى المطبخ وجلست أمام الآلة الكاتبة، وفي أقلِّ من ساعتين كتبت صفحات الخاتمة العشر من دون تردُّد. يقولون إنَّ الكتب لا تنتهي أبدًا، وإنَّ المؤلِّف هو الذي يعلن هزيمته ببساطة. ويبدو في حالة كتابي ذاك أنَّ أجدادي الذين ربَّما ضايقتهم رؤية ذكرياتهم تتعرَّض للخيانة بتلك الصورة، هم الذين أجبروني على كتابة كلمة «النهاية». بهذا كنت قد كتبت كتابي الأوَّل. لم أكن أعرف أنَّ تلك الصفحات ستبدِّل مسار حياتي، ولكنَّني أحسست بأنِّي قد وضعت حدًّا لزمن طويل من الشلل والصمت.

ربطت حزمة الأوراق بالشريط نفسه الذي استخدمته طوال سنة، وقدَّمتها بخجل إلى أمِّي التي جاءت بعد أيَّام قليلة لتسألني، وعلى وجهها تعابيرُ الرعب، كيف أجرؤ على كشف الأسرار العائليَّة وعلى وصف والدي كإنسان منحطّ، مستخدمةً فوق ذلك اسمَه الحقيقي. لقد كنت قد أدخلت في تلك الصفحات شخصيَّة كونت فرنسيّ باسم اخترته صدفة: بيلباير. وأظنّ أنِّي قد سمعت هذا الاسم يومًا، وحفظته في مقصورة منسيَّة في الذاكرة، ولدى خلق تلك الشخصيَّة أطلقت عليها الاسم من دون أن أعي أنَّني أستخدم كنية أبي المأخوذة من أمِّه. ومن خلال ردَّة فعل أمِّي تولَّدت لديَّ بعضُ الشكوك التي كانت تعذِّب

طفولتي بشأن أبي. وقرَّرت، من أجل إرضائها، تغيِّيرَ الاسم. ووجدت، بعد بحث طويل، كلمةً فرنسيَّة عدد حروفها يقلّ حرفًا عن تلك كي تحلّ براحة في الفراغ نفسه، واستطعت أن أمحو كلمة بيلباير بسائل التصحيح وكتبت فوقها. سأتغنَّى في المخطوطة ـ وقد تطلّبت منِّي هذه المهمَّةُ عدَّةَ أيَّام من المراجعة صفحةً صفحة، وإدخال كلّ صفحة في عجلة الآلة الكاتبة معزِّية نفسي في أثناء هذا العمل الحرفيّ ـ بأنَّ سيرفانتس قد كتب الكيخوته بريشة طائر، وعلى ضوء شمعة في السجن، وباليد الوحيدة التي كانت قد بقيت له. ومنذ إجراء ذلك التعديل، دخلت أمِّي بحماسة في اللعبة الروائيَّة، وشاركت في اختيار العنوان «بيت الأرواح»، وساهمت بأفكار رائعة، بعضها عن ذلك الكونت موضوع الجدال. فقد خطر لها، هي التي تملك مخيِّلة مَرَضيَّة، أنَّ بين الصور الفوتوغرافيَّة الفظَّة التي يجمعها ذلك الشخص كانت هناك صورة «حيوان لاما محنَّط يمتطي خادمة عرجاء». ومنذ ذلك الحين أصبحت أمِّي هي وكيلتي في النشر، والشخصَ الوحيد الذي يصحِّح كتبي، لأنَّ من لديه القدرة على إبداع شيء بمثل هذه البلاغة هو شخص جدير بثقتي الكاملة. وكانت هي أيضًا التي أصرَّت على نشر الكتاب، فاتَّصلت بناشرين أرجنتينيِّين وتشيليِّين وفنزويليِّين، وبعثت رسائل إلى كلِّ الأنحاء من دون أن تفقد الأمل، على الرَّغم من أنَّ أحدًا لم يكلِّف نفسه مشقَّة قراءة المخطوط أو الردّ علينا. وفي أحد الأيَّام، حصلنا على اسم شخص يمكنه مساعدتنا في إسبانيا. لم أكن أعلم حتى ذلك الحين بوجود وكلاء أدبيِّين، ولم أكن قد قرأت كذلك ـ مثل معظم البشر الطبيعيِّين ـ أيَّ شيء من النقد، ولم أكن أعرف أنَّه تجري دراسة الكتب وتحليلها في الجامعات بالجدِّيَّة نفسها التي تتمُّ

فيها دراسة كواكب القبّة السماويّة. ولو أنّني علمت بذلك لما كنت تجرّأت على نشر تلك الكومة من الأوراق الملطّخة بالحساء وسائل التصحيح، والتي تولّى البريد نقلها إلى مكتب كارمن بالثيس في برشلونة. هذه الكتلونيّة العظيمة، والأمّ اللطيفة لجميع كتّاب أميركا اللاتينيّة تقريبًا في العقود الأخيرة، كلّفت نفسها مشقّة قراءة كتابي واتّصلت بي بعد أسابيع قليلة لتُخبرني بأنّها مستعدّة لأن تكون وكيلتي، ولتنبّهني إلى أنّه إذا كانت روايتي هذه ليست سيّئة، فإنّ هذا لا يعني أيّ شيء، إذ يمكن لأيّ شخص أن يُصيب نجاحًا في كتابه الأوّل، وأنّ الكتاب الثاني وحده القادر على تأكيد أنّني كاتبة. بعد ستّة شهور من ذلك، دُعيت إلى إسبانيا من أجل نشر الرواية. وفي اليوم الذي سبق سفري، أقامت أمّي وليمة عشاء للأُسرة احتفالًا بالحدث. وعند تقديم الحلوى، سلّمني العمّ رامون علبة ما إن فتحتها حتى ظهرت أمام عيني المذهولتين النسخةُ الأولى من الرواية التي خرجت من المطبعة لتوّها، وقد تمكّن من الحصول عليها ببهلوانيّات تاجر قديم، متوسّلًا إلى الناشرين، ومعبّئًا سفراء قارّتين، ومستخدمًا الحقيبة الدبلوماسيّة كي يصلني الكتاب في الوقت المناسب. من المستحيل وصف انفعالات تلك اللحظة، يكفي أن أقول إنّني لم أعد إلى مثل ذلك الشعور أبدًا في كتبي الأخرى أو في الترجمات إلى لغات كنت أظنّها قد بادت، أو في الاقتباسات السينمائيّة أو المسرحيّة. لقد مسّت أعماقَ قلبي تلك النسخةُ من «بيت الأرواح»، ذاتُ الشريط الورديّ ورسم المرأة ذات الشعر الأخضر. سافرت إلى مدريد وأنا أضع الكتاب في حضني، معروضًا جيّدًا لعيون كلّ من يريد أن ينظر، وكان يرافقني ميشيل الفخور بمأثرتي مثل أمّي، فكانا يدخلان المكتبات ويسألان أصحابها

إذا كان لديهم كتابي، ويثيران ضجَّةً إذا قيل لهما لا، وضجَّةً أخرى إذا قيل لهما نعم، لأنَّ ذلك يعني أنَّهم لم يبيعوه بعد. استقبلتنا كارمن بالثيس في المطار وهي ترتدي معطف فرو بنفسجيًا وتضع حول عنقها لفاعًا من الحرير خبَّازيَّ اللون يصل حتى الأرض مثلَ ذيل مذنَّب خائر القوى. فتحت لي ذراعيها وأصبحت منذ ذلك اليوم ملاكيَ الحارس. أقامت حفلة لتقدِّمني إلى المثقَّفين الإسبان، ولكنَّني كنت خائفة إلى درجة أنَّني أمضيت جزءًا لا بأس به من وقت الحفلة مختبئةً في الحمَّام. في تلك الليلة، رأيت في بيتها للمرَّة الأولى والوحيدة كيلو من الكافيار الإيرانيّ مع ملاعق حساء تحت تصرُّف ضيوفها. لقد كان ذلك شذوًا فرعونيًا لا مبرِّر له، لأنَّني لم أكن، في أيِّ حال، سوى برغوث، ولم تكن هي تعرف حينئذ المسارَ المحظوظ الذي ستسلكه تلك الرواية، ولكنَّها تأثَّرت من دون ريب بكنيتي المشهورة ومظهري الريفيّ. وما زلت أذكر حتى الآن السؤال الافتتاحيّ الذي وجَّهه إليَّ أشهر ناقد أدبيّ في تلك اللحظة: أيمكنك أن توضحي لنا البنية الدوريَّة لروايتك؟ ولا بدَّ من أنَّني نظرت إليه نظرة بقريَّة لأنِّي لم أكن أعرف عن أيِّ شياطين يحدِّثني، وكنت أعتقد حتى ذلك الحين أنَّ العمارات وحدها هي التي لها بنية، والشيءَ الدوريّ الوحيد في قائمتي هو دورة القمر ودورة الحيض الشهريَّة. بعد ذلك بقليل، اشترى أفضل الناشرين في أوروبا، ابتداء من فنلندا وحتى اليونان، حقوقَ الترجمة. وهكذا انطلق الكتاب في سباق نيزكيّ. لقد حدثت واحدة من هذه المعجزات النادرة التي يحلم بها كلّ مؤلِّف، أمَّا أنا فلم أنتبه إلى ذلك النجاح الفضائحيّ إلَّا بعد مرور سنة ونصف سنة، عندما كنت على وشك الانتهاء من روايتي الثانية كي أثبت لكارمن بالثيس فقط أنَّني كاتبة

وأُريها أنَّ كيلو الكافيار لم يكن خسارة محضة.

واصلت العمل اثنتي عشرة ساعة يوميًّا في المدرسة من دون أن أجرؤ على الاستقالة، لأنَّ عقد الصفقة المليونيريَّة الذي وقَّعه ميشيل، والذي تمَّ الحصول عليه جزئيًّا بفضل سائل التعزيم المقدَّم من عاملة التنظيف، قد تحوَّل إلى دخان. ففي واحدة من تلك المصادفات الدقيقة، والتي تبدو مثل الصور المجازيَّة، انهار عمله في اليوم الذي كنت أقدِّم فيه كتابي في مدريد. ولدى نزولنا من الطائرة في مطار كاراكاس، خرج شريكه للقائنا بالخبر المشؤوم، فتلاشت ابتسامة انتصاري وحلَّت محلَّها سحابةُ نكبته السوداء. فشكاوى عن الفساد والرشوة في المصرف الذي يموِّل مشروعه اضطرَّت العدالة إلى التدخُّل، فتمَّ تجميد الدفعات الماليَّة وأُصيب مشروع البناء بالشلل. كان التبصُّر يقتضي إغلاق المكتب فورًا ومحاولة تصفية أكبر ما يمكن تصفيته، ولكنَّه كان يعتقد أنَّ المصرف قويّ جدًّا، وأنَّ هنالك في القضيَّة الكثيرَ من المصالح السياسيَّة بحيث لا يمكن للخلاف أن يستمرّ إلى الأبد، واستنتج أنَّه إذا تمكَّن من البقاء طافيًا لبعض الوقت فإنَّ كلّ شيء سيتدبَّر وسيعود العقد إلى يديه. وفي أثناء ذلك، اختفى شريكه الذي يتقن قواعد اللعبة أكثر منه حاملًا معه حصَّتَه من المال ليتركه من دون عمل وغارقًا في هوَّة متعاظمة من الديون. استنزفت الهموم ميشيل، ولكنَّه رفض الاعتراف بإخفاقه وبكربه إلى أن سقط مغميًّا عليه في أحد الأيَّام. حملته باولا مع نيكولاس إلى السرير وحاولتُ أنا إيقاظه بالماء والصفعات، مثلما كنت قد رأيت في الأفلام. وقد شخَّص الطبيب بعد ذلك وجود سُكَّر في الدم، وعلَّق ممازحًا بأنَّ الداء

السكَّريّ لا يُشفى بدلاء من الماء البارد. ثم أصبحت حالات الإغماء تتكرَّر بشيء من الكَثْرة إلى أن اعتدنا جميعًا ذلك. لم نكن قد سمعنا بكلمة الفرفيرين، ولم يخطر في بال أحد أن ينسب الأعراض إلى ذلك الاختلال الغريب في العمليَّات الاستقلابيَّة، وكان لا بدَّ من انقضاء ثلاث سنوات قبل أن تسقط ابنة أخت ميشيل مُصابةً بمرض خطير. وبعد فحوصات مستفيضة وشاملة، شخَّص أطبَّاء أحد المستشفيات الأميركيَّة المرض؛ وكان لا بدَّ من فحص الأُسرة كلّها، وهكذا اكتشفنا أنَّ ميشيل وباولا ونيكولاس مُصابون بهذا الداء. كانت حياتنا الزوجيَّة قد تحوَّلت، في أثناء ذلك، إلى فقاعة من الزجاج يجب التعامل معها بحذر شديد كي لا تتفتَّت، فكنَّا نتعامل بمراسم تهذيب احتفاليَّة، ونبذل جهودًا مضنية لنستمرّ معًا بالرَّغم من أنَّ طريقينا كانا ينفصلان أكثر يومًا بعد يوم. كنَّا نتبادل الاحترام والتعاطف، ولكنّ تلك العلاقة كانت تُثقل كاهلي مثل كيس إسمنت، وكنت أرى نفسي في كوابيس وأنا أجرّ عربة في الصحراء، وفي كلّ خطوة كانت قدماي وعجلات العربة تنغرس في الرمال أكثر فأكثر. وجدت، في ذلك الزمن الخالي من الحبّ، مهربًا في الكتابة. وبينما كان كتابي الأوَّل يشقّ طريقه في أوروبا، واصلت الكتابة ليلًا في مطبخ بيتنا في كاراكاس، ولكنَّني كنت قد تطوَّرت، فقد أصبحت أستخدم الآن آلة كاتبة كهربائيَّة. بدأت بكتابة «عن الحبّ والظلال» في الثامن من كانون الثاني ١٩٨٣، لأنَّ هذا اليوم جلب لي الحظّ في رواية «بيت الأرواح»، وهكذا، دخلتُ تقليدًا ما زلت أحافظ عليه وأخشى تغييره، فدائمًا أكتب الأسطر الأولى من كتبي في هذا التاريخ. أحاول في هذا اليوم أن أكون وحدي في مكان يُخيِّم عليه الصمت لساعات طويلة. إنَّني أحتاج إلى زمن طويل كي

أنتزع من رأسي ضجَّة الشارع وأنظِّف ذاكرتي من فوضى الحياة، ثمّ أُشعل شموعًا لأستدعي ربّات الإلهام والأرواح الحافظة، وأضع زهورًا فوق منضدتي لأُبعد الملل، وأعمالَ بابلو نيرودا الكاملة تحت الكمبيوتر على أمل أن تلهمني بالتناضح، فإذا كانت آلات الكمبيوتر هذه تُصاب بعدوى الفيروسات فليس هناك من سبب يحول دون أن ترطِّبها نفحة شعريَّة. كنت أهيِّئ ذهني وروحي من خلال طقس سرِّيّ لتلقي الجملة الأولى وأنا في غيبوبة، وهكذا ينفتح باب أرى من خلاله وميض الجانب الآخر وألمح الإطار الغائم للقصَّة التي تنتظرني، ثمّ أجتاز في الشهور التالية العتبةَ لأستكشف تلك الفضاءات، وتبدأ الشخصيَّات شيئًا فشيئًا، إذا ما حالفني الحظّ، باكتساب الحياة، وتصبح أكثر وضوحًا وواقعيَّة، وتأخذ الحكاية بالتطوُّر. أجهل كيف ولماذا أكتب، فكتبي لا تولد في الذهن، بل تنمو في بطني، فهي مخلوقات ذات نزوات لها حياتها الخاصَّة، ومستعدَّة دائمًا للغدر بي. لست أنا التي أحدِّد الموضوع، وإنَّما الموضوع هو الذي يختارني، ويتلخَّص عملي ببساطة في تكريس وقت كافٍ وعزلة وانضباط، كي أكتب فحسب. وهذا ما حدث في روايتي الثانية. ففي عام ١٩٧٨، اكتشفت في تشيلي، في منطقة لونكين على بُعد بضعة كيلومترات من سنتياغو، جثثَ خمسة عشر فلّاحًا اغتالتهم الدكتاتوريَّة وأُخفيت أجسادهم في أفران كلس مهجورة. الكنيسة الكاثوليكيَّة فضحت الأمرَ وكشفته، وانفجرت الفضيحة قبل أن تتمكَّن السلطات من طمسها. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي تظهر فيها آثار بعض المختفين، ولم تجد العدالة التشيليَّة بُدًّا من أن تمدّ إصبع الاتِّهام المرتعش إلى القوَّات المسلَّحة. وجِّهت التّهمة إلى عدد من رجال الدرك، وأُرسلوا إلى

المحاكمة وتمَّت إدانتهم بجريمة الإبادة الجماعيَّة من الدرجة الأولى، وعلى الفور أفرج عنهم الجنرالُ بينوشيه بمرسوم عفو. وقد نُشر الخبر في صحف العالم، وهكذا علمت به وأنا في كاراكاس. في تلك الأثناء، كان يختفي أثر آلاف الأشخاص في أماكن عديدة من القارَّة، فتشيلي لم تكن استثناءً. كانت أمَّهات المختفين في الأرجنتين يتظاهرنَ في ساحة مايو وهنَّ يحملن صور أبنائهنَّ وأحفادهنَّ الغائبين. وفي أورغواي كان هناك فائض كبير من أسماء المعتقلين ونقص مريع في الأجساد. لقد كانت حادثة لونكين أشبه بضربة خنجر على فم المعدة، ولم يفارقني الألم طوال سنوات. خمسة أفراد من أسرة واحدة، من آل ماوريبرا، قُتلوا على أيدي أولئك الدركيّين. بينما أقود سيَّارتي أحيانًا في أحد الطُّرق السريعة كانت تباغتني الرؤية المؤثّرة لنساء آل ماوريبرا وهنَّ يبحثن لسنوات عن رجالهنَّ، ويسألن من دون جدوى في السجون ومعسكرات الاعتقال والمستشفيات والثكنات، مثلَ آلاف وآلاف غيرهنَّ يبحثنَ أيضًا عن ذويهنّ. لقد كنَّ أفضل حظًّا من سواهنّ، فقد عرفن على الأقلّ أنَّ رجالهنَّ قد ماتوا واستطعن البكاء عليهم والصلاة من أجلهم، مع أنَّهنَّ لم يتمكَّنَّ من دفنهم لأنَّ العسكريين انتشلوا رفاتهم بنسف أفران الكلس تلك ليحَوِّلوا دون تحويلها إلى مكان للحجِّ والتعبُّد. لقد مرَّت أولئك النسوة يومًا على امتداد أكواخ بدائيَّة متفحِّصاتٍ البقايا، فحملت بعضهنَّ مشطًا أو قطعة من سترة زرقاء، أو جزازة من الشعر أو بضعة أسنان وقلن: هذا هو زوجي، وهذا هو أخي، وهذا هو ابني. كلَّما فكَّرت فيهنَّ أستعيد بوضوح كامل ذكرى ذلك الزمن الذي عشته في تشيلي: العباءة الثقيلة للرعب والرقابة والرقابة الذاتيَّة والوشاية وحظر التجوُّل، والجنود ذوي الوجوه المطليَّة

كي لا يتعرَّف إليهم أحد، وسيَّارات الشرطة السياسيَّة ذات الزجاج القاتم، والاعتقالات في الشارع وفي البيوت وفي المكاتب، وركضي لتأمين ملجأ للمطارَدين في السفارات، والليالي التي كنت أُمضيها ساهرةً لأنَّ لدينا شخصًا مختبئًا تحت سقفنا، والإستراتيجيَّات غير المتقَنة لإخراج معلومات خفيَّة إلى الخارج أو إدخال نقود لمساعدة أُسر المعتقلين. لم يكن عليَّ أن أفكِّر في موضوع لروايتي الثانية، فنساء أُسرة ماوريبرا وأمَّهات ساحة مايو وملايين الضحايا النساء الأخريات حاصرنني ليُجبرنني على الكتابة. لقد كان لقصَّة قتلى لونكين جذورٌ في قلبي منذ عام ١٩٧٨، فمنذ ذلك الحين كنت أؤرشف كلّ قصاصات الصحف التي تقع في يدي من دون أن أدري لماذا أفعل ذلك، لأنَّني لم أكن أفكِّر آنذاك في أنَّ خطواتي ستقودني إلى الأدب. وفي عام ١٩٨٣، كانت لديَّ حقيبة مُترَعة بالمعلومات، وكنت أعرف أين أبحث عن مزيد من التفاصيل، وكان عملي يتلخَّص في جَدْل هذه الخيوط في حبل واحد فحسب. كنت أضع في اعتباري صديقي فرانشيسكو في تشيلي الذي فكَّرت في استخدامه نموذجًا للبطل، وفي أفراد أُسرة لاجئين جمهوريِّين إسبان ليكونوا آل ليال وبعض زميلاتي في المجلَّة النسائيَّة حيث كنت أعمل سابقًا، واللواتي أوحين إليَّ بشخصيَّة إيرين. وأخذت شخصيَّة غوستافو مورانتي، خطيب إيرين، من ضابط في الجيش التشيليّ لحق بي إلى رابية سان كريستوبال في ظهيرة يوم خريفيّ من عام ١٩٧٤. كنت جالسة يومذاك تحت شجرة أتأمَّل سنتياغو من علٍ ومعي كلبة أمِّي السويسريَّة التي اعتدت أخذها للتنفُّس في الهواء الطلق، عندما توقَّفت سيَّارة على بعد أمتار قليلة منِّي، نزل منها رجل يرتدي الزيَّ العسكريّ واتَّجه نحوي. شلَّني الرعب، وفكَّرت

للحظة في الركض هاربة، ولكنَّني أدركت على الفور عدم جدوى أيّ محاولة للهرب، وواجهته وأنا أرتجف فاقدةً الصوت. وكانت المفاجأة أنَّ الضابط لم ينبح عليَّ آمرًا، بل نزع قبّعته واعتذر للإزعاج الذي يسبّبه، وسألني إذا كان في إمكانه الجلوسُ معي. لم أكن قادرة على النطق بكلمة بعد، ولكنَّني أحسست بالطمأنينة وأنا أراه وحيدًا، فالاعتقالات يقوم بها عديدون دائمًا. كان رجلًا في نحو الثلاثين من عمره، طويلًا ومربوعًا، وله وجه فيه شيء من السذاجة من دون خطوط معبِّرة. لاحظت ضِيقه فور بدئه بالكلام. قال لي إنَّه يعرف مَن أكون، وإنَّه قد قرأ بعض مقالاتي وأعجبته، ولكنَّه يستمتع ببرامجي التلفزيونيَّة، ورآني أصعد الرابية بكثرة وقد لحق بي يومها لأنَّ لديه شيئًا يودّ أن يرويه لي. قال إنَّه ينحدر من أسرة متديّنة جدًّا، وإنَّه كاثوليكيّ ملتزم كان قد فكَّر في شبابه في إمكانيَّة الانضمام إلى مدرسة إكليركيَّة، ولكنَّه انضمَّ إلى المدرسة العسكريَّة ليُرضي أباه. وسرعان ما اكتشف أنَّ هذه المهنة تروقه وأصبح الجيش هو بيته. وقال: إنَّني مستعدٌّ للموت في سبيل وطني، ولكنَّني لم أكن أعرف مدى صعوبة القتل من أجله. عندئذ، وبعد صمت طويل جدًّا، وصف لي أوَّل عمليَّة رمي بالرصاص نفَّذها. لقد كان عليه أن ينفِّذ حكم الإعدام يومذاك بسجين سياسيّ منهَك من التعذيب، بحيث لا يمكنه الوقوف على قدميه، فكان عليهم أن يقيّدوه إلى كرسيّ، وأخبرني كيف أصدر الأمر بإطلاق النار في ذلك الفناء المغطَّى بالصقيع في الخامسة فجرًا، وكيف أنَّه انتبه حين دوَّت الطلقات إلى أنَّ الرجل لا يزال حيًّا وينظر إليه وفي عينيه هدوء، لأنَّه كان قد تجاوز حدود الخوف.

ـ كان عليَّ أن أقترب من السجين، وأضع المسدَّس على صدغه

وأضغط الزناد. تطاير الدم ملطِّخًا بدلتي العسكريَّة... لا أستطيع انتزاعه من روحي. لا أستطيع النوم، فهذه الذكرى تلاحقني.

سألته:

ـ ولماذا تخبرني أنا بذلك؟

ـ «لأنّي لم أكتفِ بإطلاع كاهن الاعتراف على الأمر، أريد أن يشاطرني إيَّاه أحد ربَّما يمكنه استخدامه. فنحن العسكريِّين لسنا جميعنا قَتَلة، كما يُشاع. فكثيرون منَّا أُناس ذوو ضمير.

ونهض واقفًا وحيَّاني بانحناءة خفيفة، واعتمر قبَّعته ومضى في سيَّارته.

بعد شهور من ذلك، جاءني رجل آخر، وكان بالزيّ المدني هذه المرَّة، وروى لي شيئًا مماثلًا. كان الجنود يطلقون النار على أرجل المحكومين كي يُجبرون ضبَّاطهم على إطلاق رصاصة الرحمة والتلوُّث بالدم أيضًا، هذا ما قاله لي. وقد احتفظتُ بهذه القصص معي تسع سنوات، في قاع صندوق، مسجَّلة على قصاصة ورق، إلى أن استخدمتها في رواية «عن الحبّ والظلال». لقد اعتبر بعض النقَّاد هذا الكتاب عاطفيًّا وسياسيًّا جدًّا، ولكنَّه بالنسبة إليَّ مليء بالسحر لأنَّه كشف لي قوى الخيال الغريبة. في سياق عمليَّة الكتابة الطويلة والصامتة، أدخل في حالة تجلٍّ وأستطيع خلالها أحيانًا إزاحة بعض الحُجُب ورؤية ما هو غير مرئيّ، تمامًا مثلما كانت تفعل جدَّتي بطاولتها ذات القوائم الثلاث. ليس هناك متَّسع للحديث عن كلِّ النُّذر والمصادفات في هذه الصفحات، ولكنَّني سأكتفي بواحدة. صحيح أنَّني كنت أملك معلومات وافرة، ولكن كانت هناك فجوات كبيرة في

القصَّة لأنَّ معظم المحاكمات العسكريَّة ظلَّت طيَّ الكتمان، وكلّ ما نُشر كان مشوَّهًا بسبب الرقابة. كما أنَّني كنت بعيدة ولم يكن في إمكاني الذهاب إلى تشيلي لاستجواب الأشخاص المتورِّطين، مثلما فعلت في ظروف أخرى. لقد علَّمتني سنوات عملي الصحافيّ أنَّ هذه المقابلات الشخصيَّة تقدِّم المفاتيح والمبرِّرات والانفعالات للقصَّة، إذ لا يمكن لأيِّ بحث مكتبيّ أن يعوِّض عن المعلومات المباشرة التي يتمّ الحصول عليها من مقابلات تجري وجهًا لوجه. كتبت الرواية في ليالي كاراكاس الحارَّة تلك، مستفيدة من المعلومات المتجمِّعة في حقيبتي، ومن كتابين تقريبًا وبعض تسجيلات منظَمة العفو الدوليَّة ومن الأصوات المصمّمة لنساء المختفين التي اجتازت المسافات والأزمان لتأتي لمساعدتي. وبالرَّغم من ذلك كلِّه، كان عليّ أن ألجأ إلى المخيِّلة لأملأ بعض الفجوات. وعندما قرأت أمّي المخطوط الأصليّ اعترضت على جزء بدا لها غير محتمل على الإطلاق: البطلان يذهبان ليلًا على درَّاجة ناريَّة، خلال ساعات منع التجوّل، إلى منجم أغلقه العسكريُّون، يجتازان الطَّوق المضروب ويدخلان مكانًا محظورًا، ويفتحان المنجم برفش ومعول، ويجدان بقايا أجساد المقتولين، فيلتقطان صورًا ويرجعان بالأدلَّة ويسلِّمانها إلى الكاردينال الذي يأمر أخيرًا بفتح القبر الجماعيّ. قالت: هذا غير ممكن، لا أحد يستطيع خوض مثل هذه المجازفة في أوج الدكتاتوريَّة. فأجبتها: لا تخطر لي طريقة أخرى لحلِّ العقدة، فلنعتبر الأمر حلًّا أدبيًّا. نُشر الكتاب عام ١٩٨٤. وبعد أربع سنوات من ذلك، أُلغيت قائمة المنفيِّين الذين لا يمكنهم العودة إلى تشيلي، ووجدت نفسي حرَّة في العودة إلى وطني للمرَّة الأولى كي أصوِّت في استفتاء عام أُمكن له أخيرًا أن يُسقط بينوشيه. وفي إحدى

الليالي، رنَّ الجرس في بيت أمّي في سنتياغو، وكان هناك رجل أصرَّ على التحدُّث إليّ على انفراد. في ركن على الشرفة أخبرني بأنَّه أسقف، وأنَّه كان قد اطَّلع من سرِّ الاعتراف على أمر الجثث المدفونة في لونكين، وأنَّه ذهب على درَّاجته الناريَّة، وفتح المنجم المحظور برفش ومعول، وصوَّر رفات القتلى، وحمل الأدلَّة إلى الكاردينال الذي بعث بجماعة من الأساقفة والصحافيّين والدبلوماسيين لفتح القبر السرّي.

ـ لم يكن هناك من يعلم بالأمر إلَّا أنا والكاردينال. ولو انكشف أمر مشاركتي في هذه القضيَّة، لما كنت أحدِّثك هنا الآن بكلِّ تأكيد، بل كنت أنا نفسي سأختفي حتمًا. فكيف علمتِ أنت بذلك؟

فأجبته:

ـ لقد أخبرني القتلى بالأمر.

ولكنَّه لم يصدِّقني.

وقد اجتذب هذا الكتاب أيضًا ويللي إلى حياتي، ولهذا فإنَّني ممتنَّة له.

تأخَّرت روايتايَ الأُوليان طويلًا في اجتياز الأطلسي، ولكنَّهما وصلتا أخيرًا إلى مكتبات كاراكاس، فقرأهما بعض الناس، ونُشرت دراستان نقديَّتان إيجابيَّتان، فغيَّر ذلك نوعيَّة حياتي. فُتحت أمامي أوساط لم أكن قادرة على دخولها، وتعرَّفت إلى أُناس مهمِّين، وطلبتْ منّي بعضُ وسائل الصحافة التعاون معها، واتَّصل بي منتجون تلفزيونيُّون وعرضوا عليّ الدخول من أوسع الأبواب، ولكنَّني، في

ذلك الحين، كنت قد عرفت مدى عدم مضمونيَّة تلك الوعود، ولم أشأ التخلّي عن عملي المضمون في المدرسة. وفي أحد الأيَّام، اقترب منّي في المسرح رجل ذو صوت رقيق ونُطْق دقيق لتهنئتي على روايتي الأولى، وقال إنَّه تأثَّر بعمق لأسباب كثيرة، منها أنَّه عاش في تشيلي مع أسرته خلال حكومة سلڤادور ألليندي، وكان هناك عند وقوع الانقلاب العسكريّ. وقد علمت، فيما بعد، بأنَّه كان معتقَلًا أيضًا خلال تلك الأيَّام الأولى من الفظاظة العشوائيَّة، لأنَّ الجيران الذين أخطأوا بلكنته، ظنُّوه عميلًا كوبيًّا ووشوا به. وهكذا، بدأت صداقتي مع إيلديمارو، وهي الأكثر مغزًى في حياتي: مزيج من المزاج الرائق والدروس الصارمة. لقد تعلَّمت الكثير إلى جواره، فقد كان يوجِّه قراءاتي، ويراجع بعض كتاباتي ونناقش معًا الأمور السياسيَّة، وعندما أفكِّر فيه يُخيَّل إليَّ أنَّني أراه يشير إليَّ بإصبعه بينما هو يثقِّفني بشأن أعمال ماريو بينيديتي، أو يزيح الضباب عن دماغي بعظة اشتراكيَّة متضلِّعة، ولكنَّ هذه ليست صورته الوحيدة، بل إنَّني أتذكَّره أيضًا وهو يكاد يموت من الضحك، أو وهو متورِّد من الخجل حين نقوِّض وقاره بالمزاج. لقد ضمَّنا إلى أسرته، وعدنا نشعر بدفء القبيلة للمرَّة الأولى بعد سنوات طويلة، فتجدَّدت ولائم الغداء أيَّامَ الأحد، وصار أبناؤه وابناي يعتبرون بعضهم البعض أبناء عمومة، وكلٌّ واحد منهم يملك مفاتيح البيتين. إيلديمارو، وهو طبيب ولكنَّه أشدّ ميلًا إلى الثقافة، كان يزوِّدنا ببطاقات دخول إلى ما لا حصر له من الاحتفالات التي كنَّا نذهب إليها كي لا نُغضبه. كانت باولا في البداية هي التي امتلكت شجاعة كافية لتضحك بحضوره من أبقار الفنِّ المقدَّسة، وسرعان ما حذونا جميعنا حذوها، إلى أن انتهى بنا الأمر إلى تشكيل فرقة مسرحيَّة

بيتيَّة بهدف التقليد الهزليّ للاحتفالات الثقافيَّة ولمواعظ صديقنا الفكريَّة، ولكنَّه سرعان ما وجد كذلك طريقةً خبيثة لإحباط خططنا: فقد تحوَّل إلى أشدّ أعضاء الفرقة حماسة. وتحت إشرافه نظَّمنا بعض العروض التي تجاوزت حدود حلقة الأصدقاء المعذّبة، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى محاضرة عن الغيرة قدَّمنا فيها آلة من اختراعنا لقياس «مستوى الغيرة» لدى ضحايا هذه الآفة الخطيرة. وقد أخذتنا على محمل الجدّ إحدى جمعيَّات علماء النفس ـ لست أذكر إذا كان أفرادها يونغيين أم لاكانيين ـ، ودُعينا إلى تقديم عرض، وهكذا وجدنا أنفسنا في إحدى الليالي في مقرّ الجمعيَّة لتقديم حديثنا الذي لا أساس له. كانت آلة الغيرة تتألَّف من صندوق أسود فيه مصابيح موزَّعة من دون انتظام تشتعل وتنطفئ، وعقاربُ غير منضبطة تشير إلى أرقام، وكان ذلك الصندوق موصولًا من خلال أسلاك ببطاريَّة وخوذة تُوضَع على رأس باولا التي كانت تؤدِّي بكلّ جرأة دور أرنب التجارب، بينما كان نيكولاس ينهمك في إدارة ذراع تدوير. كان علماء النفس يصغون باهتمام ويسجِّلون الملاحظات، ويبدو على بعضهم شيء من الحيرة، ولكنَّهم كانوا راضين على العموم، وظهرت في اليوم التالي نبذة علميَّة متعمّقة عن المحاضرة في الجريدة. لقد حافظت باولا على آلة الغيرة وأحبَّت إيلديمارو كثيرًا حتى جعلته محطّ أكثر أسرارها حميميَّة. وكي تُرضيه، كانت توافق على أداء الدور النجوميّ في كلّ ما تُنتجه الفرقة. إنَّ إيلديمارو يتَّصل بي الآن بكثرة ليستفسر عنها، ويستمع إلى التفاصيل بصمت، ويحاول أن يبثَّ فيَّ الحماسة، ولكن ليس الأمل، لأنَّه هو نفسه لم يعد لديه أمل في شفائها. في ذلك الحين، لم يكن هناك ما يشير إلى أنَّ مصير ابنتي سيتعرَّض لمثل هذا الضرر، فقد كانت آنذاك

طالبة جميلة في العشرين من عمرها، متألِّقةً وسعيدة، لا يهمّها أن تبدو مُضحكة فوق منصَّة إذا كان إيلديمارو هو الذي يطلب منها ذلك. أمَّا الجدَّة هيلدا، التي خرجت من تشيلي مقتفية أثر الأُسرة إلى المنفى، وتعيش نصف حياتها في بيتنا، فقد فتحت مشغل خياطة دائم العمل في غرفة الطعام في منزلنا، حيث كانت تصنع الأزياء التنكُّريَّة والمناظر. وكان ميشيل يشارك أيضًا، بمرح، على الرَّغم من تداعي صحَّته وحماسته. أمَّا نيكولاس، الذي كان يعاني خوف الظهور على المنصَّة والخجل من الآخرين، فتولَّى مهمَّة تنفيذ الأعمال الفنِّيَّة: الإضاءة، الصوت، والمؤثِّرات الخاصَّة. وهكذا كان يبقى مختبئًا وراء الستائر. وشيئًا فشيئًا، راح معظم أصدقائنا ينضمُّون إلى المسرح، ولم يبقَ هناك أحد يشكِّل الجمهور، ولكن إعداد الأعمال كان مسلّيًا للممثِّلين والموسيقيِّين، ولم يكن ثمَّة غضاضة في تقديم العرض أمام صالة فارغة. امتلأ بيتنا بالناس والصخب والضحك، وأصبح لدينا أخيرًا أسرة واسعة، وأحسسنا بالراحة والسعادة في هذا الوطن الجديد.

لكنَّ الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى أبويّ. فالعمّ رامون كان يرى اقترابه من سنِّ السبعين، ويتمنَّى أن يرجع ليموت في تشيلي، مثلما أوضح لنا بشيء من المأساويَّة، الأمر الذي جعلنا ننفجر مقهقهين نحن الذين نعرف أنَّه شخص خالد. وبعد نحو شهرين من ذلك رأيناه يُعِدّ حقائبه، ثم ما لبث أن سافر مع أمّي عائدًا إلى البلد الذي لم تطأه قدماه منذ سنوات طويلة، وحيث كان لا يزال يحكم الجنرال نفسه. أحسست بأنَّني يتيمة، وخفت عليهما، وكنت أشعر بأنَّنا لن نعود إلى العيش معًا في مدينة واحدة، وهيَّأت نفسي للبدء مجدَّدًا بروتين الرسائل اليوميَّة القديم. من أجل وداعهما، أقمنا

مأدبة قدَّمنا فيها المأكولات والنبيذ التشيليّ، وأدّينا العمل المسرحيّ الأخير للفرقة. فمن خلال أغنيات ورقصات وممثّلين ودمًى متحرّكة، روينا سيرة حياة أمّي والعمّ رامون الصاخبة وغرامياتهما غير الشرعيَّة، وقد مثَّل دوريهما كلٌّ من باولا وإيلديمارو الذي وضع حاجبين مستعارين شيطانيَّيْن. وقد كان لدينا جمهور في ذلك اليوم؛ إذ حضر جميع الأصدقاء الطيّبين الذين احتضنونا في ذلك البلد الحارّ، وكان في مكانة الشرف ڤالينتين هيرنانديث الذي فتحت لنا تأشيراته الأبواب. وكانت تلك هي المرَّة الأخيرة التي رأيناه فيها، فقد مات بعد ذلك بقليل بمرض مفاجئ، تاركًا زوجته وأبناءه من دون عزاء. كان واحدًا من أولئك البطاركة المحبّين، والحرَّاس الذين يظلّلون تحت عباءاتهم جميعَ ذويهم. لقد مات بمشقَّة لأنَّه لم يشأ الذهاب وترك أفراد أُسرته معرَّضين لعواصف هذه الأزمنة الحديثة المرعبة، وربَّما كان يحلم، في أعماق قلبه، بأخذهم معه. بعد سنة من ذلك، جمعت زوجته بناتها وأصهارها وأحفادها لإحياء ذكرى موت زوجها بطريقة سعيدة ومرحة، وهي الطريقة التي ستعجبه، وأخذت الجميع في رحلة إلى فلوريدا. لكنَّ الطائرة تحطَّمت في الجوّ ولم يبق أحد من هذه الأسرة ليبكي الغائبين أو لتلقّي التعازي.

في شهر أيلول ١٩٨٧، نُشرت في إسبانيا روايتي الثالثة: «إيڤالونا»، التي كتبتها في وضح النهار، مستخدمة الكمبيوتر، في المكتب الفسيح في بيتي الجديد. كتاباي الأوَّلان أقنعا وكيلتي بأنّني أفكّر بجدّيَّة في امتهان الأدب، وأقنعاني بأنَّ ترك عملي

والتفرُّغ للكتابة أمرٌ يستحقّ المجازفة. وبالرَّغم من أنَّ زوجي كان يواصل الانحدار في إفلاسه ولم نكن قد سدَّدنا كلّ ديوننا، فإنَّني بعت أسهمي في المدرسة واشترينا بيتًا معلَّقًا على الجبل. صحيح أنَّه كان مهترئًا بعض الشيء، ولكن ميشيل جدَّده وحوَّله إلى ملجأ مشمس، حيث يتَّسع المجال للزائرين والأقرباء والأصدقاء، وحيث يمكن للجدَّة هيلدا أن تُقيم مشغل خياطتها براحة، وأُقيم أنا مكتبي. عند منتصف الجبل، كان للبيت قبو بين ركائزه يصل إليه الضوء والهواء النقيّ، وكان قبوًا كبيرًا جدًّا زرعنا في وسط حديقته التروبيكاليَّة تلك النبتةَ التي حلَّت محلّ نبتة أشواقي «اللاتنسيني». كانت الجدران مغطَّاة بخزائن ملأى بالكتب، وقطعة الأثاث الوحيدة كانت طاولة ضخمة في منتصف الحجرة. كان ذاك زمن التغيّرات الكبيرة. فباولا ونيكولاس تحوَّلا إلى شابَّين مستقلَّين وطموحين، يذهبان إلى الجامعة، ويسافران وحدهما، وكان واضحًا أنَّهما ما عادا في حاجة إليَّ، ولكنَّ التواطؤ بيننا نحن الثلاثة بقي على حاله. بعد أن أنهت باولا غراميَّاتها مع الشابّ الصقليّ، تعمَّقت في دراسة علم النفس والجنس. كان شعرها الكستنائيّ يصل حتى خصرها، ولم تكن تستخدم أيّ نوع من المكياج، وكانت تُبرز مظهرها العذريّ بتنانير قطنيَّة بيضاء وصنادل. وتقوم بأعمال تطوُّعيَّة في أكثر الأحياء هامشيَّة، هناك حيث لا تغامر الشرطة نفسها في الدخول بعد غياب الشمس. في تلك الأثناء، كانت الجريمة قد انفلتت في كاراكاس، وكان بيتنا قد تعرَّض للسطو عدَّة مرَّات، وتدور إشاعات مرعبة عن أطفال يجري اختطافهم في المراكز التجاريَّة لنزع قرنيَّات أعينهم وبيعها لبنوك

العيون، وعن نساء يجري اغتصابهنَّ في مواقف السيَّارات، وعن أُناس تمَّ اغتيالهم لسلبهم ساعاتهم فحسب. كانت باولا تذهب في سيَّارتها الصغيرة وهي تحمل حقيبة كُتبٍ على ظهرها، وأبقى أنا أرتجف خوفًا عليها. لقد توسَّلت إليها ألف مرَّة كيلا تذهب إلى تلك المجاهل، ولكنَّها لم تستمع إليّ، فقد كانت تملك ذهنًا صافيًا، ولكنَّها تحتفظ بمستوًى انفعاليٍّ لصبيَّة صغيرة؛ إنَّها المرأة نفسها التي كانت تحفظ وهي في الطائرة خريطةَ مدينة لم تطأها قدماها من قبل، وتستأجر سيَّارة فور وصولها إلى المطار لتقودها من دون تردُّد حتى الفندق، أو التي كان في إمكانها أن تُحضِّر لي خلال ربع ساعة محاضرةً عن الأدب كي ألفت أنا الأنظار في إحدى الجامعات، ولكنَّها كانت تُصاب بالإغماء إذا أرادوا حقنها بلقاح، وترتجف برعب وهي تشاهد فيلمًا عن مصَّاصي الدماء. كانت تمارس اختباراتها في علم النفس على نيكولاس وعليّ، وهكذا توصَّلت إلى أنَّ مستوى الذكاء لدى أخيها يقترب من النبوغ، بينما أمّها تعاني تخلُّفًا ذهنيًا عميقًا. لقد أجرت اختباراتها عليّ مرَّة بعد أخرى، ولكنَّ النتائج لم تتغيَّر، وكانت تُظهر قصورًا ذهنيًّا مريعًا. ومن حسن الحظِّ أنَّها لم تحاول أن تجرِّب علينا أجهزتها لقياس الأحاسيس الجنسيَّة.

بصدور رواية «إيفالونا»، أدركتُ أخيرًا، أنَّ الأدب هو طريقي، وتجرَّأت على القول أوَّل مرَّة: أنا كاتبة. عندما جلست أمام آلة الكتابة لأبدأ بتأليف هذا الكتاب، لم أفعل ذلك وأنا ممتلئة بالوساوس والشكوك، بل تصرَّفت بكامل إرادتي وبجرعة كبيرة من الكبرياء. فقد قلت بصوت عالٍ: سأبدأ بكتابة رواية. ثم أدرتُ

الكمبيوتر من دون أيِّ تردُّد، وبدأت بالجملة الأولى: اسمي إيڤا، وهذا يعني حياة...

جاءت أمّي لزيارتي في كاليفورنيا. كدت ألّا أتعرَّف إليها في المطار، فقد بدت كأنَّها جدَّة من البورسلين؛ امرأةٌ مسنَّةٌ جدًّا ترتدي الأسود، وصوتها يرتعش، ووجهها مُتلَف من الحزن والتعب بعد رحلة عشرين ساعة من سنتياغو. انفجرتْ بالبكاء عندما عانقتني وواصلتِ البكاء طوال الطريق، لكنَّها عندما وصلت إلى البيت، اتَّجهت إلى الحمَّام، فاستحمّت وارتدت ملابس ذات ألوان فَرِحَة، ونزلت مبتسمة لتحيِّي باولا. استغربت حين رأتها. ومع أنَّها كانت تنتظر أن تجدها أسوأ حالًا، فقد كانت لا تزال تحتفظ في ذاكرتها بصورة حفيدتها المفضَّلة مثلما كانت من قبل. حاولت إحدى المشرفات أن تواسيها: الصغيرة في الليمبو يا سيِّدتي، مع الأطفال الذين ماتوا من دون تعميد، والأرواح الأخرى الناجية من المرور بالمطهر. وكانت أمّي تدمدم بكثرة: يا للخسارة يا ربَّاه، يا للخسارة! ولكنَّها لم تكن تقول ذلك أمام باولا، لأنَّها تفكِّر في أنَّها قد تسمعها. وكان الدكتور شيما يحذِّرها: لا تَعْرضي كروبك ورغباتك عليها يا سيِّدتي، فحياة حفيدتك السابقة قد انتهت، وهي تعيش الآن في حالة وعي أخرى. ومثلما هو متوقَّع، فُتنت أمّي بالدكتور شيما. إنَّه رجل من دون سنٍّ محدَّدة، له جسد مستنفَد، بينما ينعم وجهه ويداه بالشباب، وعلى رأسه شجيرة شعر قاتم، ويستخدم حمَّالات مطَّاطيَّة لبنطاله الذي يصل حتى إبطيه، ويمشي بمرج خفيف، ويضحك بتعبير خبيث مثل طفل نجح في الغشّ.

كلاهما يُصلّي من أجل باولا: أمّي بإيمانها المسيحيّ، وهو بإيمانه البوذيّ. والأمر بالنسبة إلى أمّي هو الرغبة في انتصار الأمل على التجربة، لأنَّها كانت قد أمضت سبع عشرة سنة وهي تتوسَّل إلى الله أن يأخذ الجنرال بينوشيه إلى الحياة الأفضل، ولكنَّه لم يبقَ مع ذلك حيًّا وفي أوج صحَّته فقط، بل ما زال يمسك كذلك بالأعنَّة في تشيلي. وكانت أمّي تقول حين تتذكَّر ذلك: الربُّ يُمهل ولا يُهمل، وأؤكّد لك أن بينوشيه ماضٍ إلى القبر. ولكنَّنا جميعنا نمضي نحو القبر منذ ولادتنا، ونموت بعد قليل. كانت هذه الجدَّة المتهكّمة تجلس في المساء إلى جانب حفيدتها لتحوك الصوف وتحدِّثها من دون أن تهتمّ بالصمت الفلكيّ الذي تسقط فيه كلماتها: تحدِّثها عن الماضي، وتردِّد إشاعات آخر ساعة، وتتحدَّث عن حياتها نفسها، وتغنّي لها بتحدٍّ أحيانًا نشيدًا عن ماريًّا، وهي الأغنية الوحيدة التي تتذكَّرها كاملة. تعتقد أنَّها تحقِّق لنا وهي في فراشها معجزات دقيقة، فتجبرنا على النموّ وتعرِّفنا إلى دروب الرحمة والحكمة. إنَّها تتألَّم من أجلها ومن أجلي... آلَمان لا يمكنها تفاديهما.

ـ أين كانت باولا قبل أن تأتي إلى الدنيا من خلالي؟ وأين ستذهب عندما تموت؟

فتردّ عليَّ أمّي:

ـ باولا أصبحت الآن مع الربّ. والربُّ هو مَن يجمع ويوحِّد، وهو مَن يحافظ على نسيج الحياة؛ إنَّه الشيء نفسه الذي تسمِّينه أنت الحبّ.

جاء أرنستو إلينا منتهزًا فرصةَ حصوله على إجازة لمدَّة أسبوع.

إنَّه لا يزال يحتفظ بوهم أنَّ امرأته ستستعيد عافيتها إلى الحدِّ الذي يكفي لعيش حياته معها، حتى لو كانت حياة محدودة جدًّا. يتصوَّر أنَّ معجزة ستحدث، وستستيقظ بتثاؤب طويل، وستبحث باللمس عن يده، وستسأل ما الذي حدث بصوت مرتعش من قلَّة استخدامها النطق. قال لي: الأطبَّاء يُخطئون كثيرًا، وما هو معروف عن الدماغ قليل جدًّا. ومع ذلك، لم يعد يدخل مندفعًا لرؤيتها، بل دخل بحذر، كأنَّه خائف. كنَّا قد سرَّحنا شعرها جيِّدًا وألبسناها ثيابًا كان قد أحضرها لها في زيارة سابقة. عانقها برقَّة هائلة بينما هربت المشرفة إلى المطبخ متأثِّرة، وبحثت أنا وأمِّي عن ملجأ في الشرفة. لقد أمضى ساعات وساعات في الأيَّام الأولى متفحِّصًا حركات باولا الانعكاسيَّة، وباحثًا فيها عن بارقة ذكاء، ولكنَّه راح يتخلَّى عن ذلك شيئًا فشيئًا. رأيته يُنفِّس، وينكمش، إلى أن تحوَّلت هالة التفاؤل التي جاء بها إلى سحابة قاتمة غطَّتنا جميعنا. ألمحتُ إليه بأنَّ باولا لم تعد زوجته وإنما شقيقته الروحيَّة، وبأنَّه يجب عليه عدم تقييد نفسه بها، ولكنَّه نظر إليَّ كأنَّه يسمع تدنيسًا للمقدَّسات. في الليلة الأخيرة، انكسر وأدرك أخيرًا أنَّه لن تحدث أيُّ معجزة يمكنها أن تُعيد إليه عروسه الأبديَّة، وأنَّه مهما بحث فلن يجد شيئًا في الهوَّة الفظيعة لعينيها الخاويتين. استيقظ فَزِعًا من حلم خبيث، وجاء في الظلام إلى غرفتي، مرتعشًا ومبلَّلًا بالعرق والدموع، ليروي لي حلمه:

ـ حلمت بأنَّ باولا تصعد على سلَّم تلسكوبيٍّ طويل، وحين وصلت إلى أعلاه قذفت بنفسها إلى الفراغ قبل أن أتمكَّن من الإمساك بها، وتركتني يائسًا. ثم رأيتها بعد ذلك ميْتةً فوق منضدة،

وقد بقيت بكامل جسدها لوقت طويل، بينما كانت الحياة تفوتني. ثم بدأت تفقد وزنها شيئًا فشيئًا، وأخذ شعرها يتساقط، إلى أن نهضت فجأة وحاولت أن تقول لي شيئًا، ولكنّني قاطعتها لأؤنّبها لأنّها هجرتني. عادت إلى النوم على المنضدة، وكان جسدها يتلف أكثر فأكثر من دون أن تموت نهائيًّا. وأخيرًا أدركتُ أنَّ الطريقة الوحيدة لمساعدتها هي في تدمير جسدها، فحملتها بين ذراعي ووضعتها فوق النار. تحوّلت إلى رماد كنت آخذ منه حفنات أنثرها في حديقة. وعندئذ ظهر طيفها ليودّع الأُسرة، واتّجهت أخيرًا نحوي لتقول لي إنَّها تحبّني ثم راحت تتلاشى...

قلت له متوسّلة:

ـ دعها تذهب يا أرنستو.

فردَّ عليَّ:

ـ إذا كنت قادرة على وداعها فإنّني سأقدر على ذلك.

عندئذ فكّرت في أنَّ النساء، منذ عصور لا ترقى إليها الذاكرة، يفقدن أبناءهنَّ، إنَّه أقدم آلام البشريّة وأكثرها حتميَّة. لست الأمَّ الوحيدة، فجميع الأمّهات تقريبًا يمررن بهذه التجربة؛ تتحطَّم قلوبهنَّ، ولكنّهنَّ يواصلن الحياة لأنَّ عليهنَّ مواصلة حماية الأبناء المتبقّين وحبِّهم. هنالك فقط جماعة من النساء ذوات الامتيازات في العصر الراهن وفي بلدان متقدّمة، حيث الصحّة في متناول مَن يستطيع أن يدفع، يمكنهنَّ أن يكنَّ واثقات بأنَّ جميع أبنائهنَّ سيعيشون ويصلون إلى سنّ البلوغ. إنَّ الموت يقف مترصّدًا على الدوام. ذهبت مع أرنستو إلى حُجرة باولا، أغلقنا الباب ورحنا

نرتجل وحدنا طقوس وداع قصير. قلنا لها إنَّها ستبقى في ذاكرتنا إلى الأبد. وعاهدناها على البقاء إلى جانبها حتى اللحظة الأخيرة في هذه الدنيا، وأنَّنا سنلتقيها ثانية في العالم الآخر، لأنَّه ليس هناك انفصال في الواقع. «مُوتي يا حبيبتي»؛ توسَّل إليها أرنستو وهو جاثٍ إلى جوار سريرها. «مُوتي يا ابنتي»؛ أضفت أنا بصمت، ولكنَّ صوتي لم يخرج من حلقي.

ويللي يؤكِّد أنَّني أتكلَّم وأمشي وأنا نائمة، لكنَّ الأمر ليس كذلك. أطوف في أرجاء البيت ليلًا وأنا حافية وصامتة، كي لا أزعج الأرواح والثعالب التي تلتمّ بصمت لتلتهم طعام القطَّة. أقابلها أحيانًا وجهًا لوجه، فترفع أذيالها البديعة المخطَّطة، كأنَّها طواويس ذات فراء، وتنظر إليَّ بوجوه مرتجفة، ولكنْ لا بدَّ من أنَّها قد اعتادت حضوري، لأنَّها لم تطلق حتى الآن بولها المشؤوم داخل البيت، وإنَّما في القبو فقط. لست أمشي وأنا نائمة، وإنَّما أمشي وأنا حزينة فقط. يتوسَّل إليَّ ويللي المنهَك: خذي قرصًا وحاولي النوم بضع ساعات؛ عليك الذهاب إلى طبيب نفسانيّ؛ إنَّك مسكونة بالهواجس من كثرة تفكيرك في باولا وستنتهين إلى رؤية رؤًى. ويقول لي مكرِّرًا إنَّ ابنتي لا تأتي إلى غرفتنا ليلًا، لأنَّ ذلك مستحيل، فهي لا تستطيع الحركة، وما ذلك كله إلَّا كوابيس تتراءى لي، مثل غيرها من الرؤى التي أظنّها أكثر صحَّة من الواقع. مَن يدري. ربَّما هناك سُبُل أخرى للتواصل الروحيّ، وليس الأحلام وحدها، وربَّما توصَّلت باولا في شللها الرهيب إلى اكتشاف طريقة للتواصل معي والتحدُّث إليّ. لقد أصبحت حواسِّي أشدَّ رهافة كي

أُدرك ما هو غير مرئيّ، ولكنّني لست مجنونة. صار الدكتور شيما يُكثر من المجيء، وهو يؤكّد أنَّ باولا قد أصبحت دليله. لقد انتهت فترة الشهور الثلاثة من المجيء، واختفى معها النفسانيُّون والمنوِّمون المغناطيسيُّون والمبصِّرون والوسطاء الروحانيُّون، ولم يعد يعتني بها الآن سوى الدكتورة فورستر والدكتور شيما. وهو يكتفي في بعض الأحيان بالتأمُّل وحده بضع دقائق إلى جانبها، وفي أحيان أخرى، بفحصها بدقَّة، ويحقنها بإبرٍ ليريح عظامها، ويقدِّم إليها أدوية صينيَّة، ثم يشرب معي فنجانًا من الشاي، ونستطيع عندئذ أن نتبادل الحديث من دون حياء، لأنَّه ليس هناك من يسمعنا. لقد تجرَّأت وقلت له إنَّ باولا تزورني في الليل فلم يستغرب ذلك، وقال إنَّها تحدِّثه هو أيضًا.

ـ كيف تحدِّثك يا دكتور؟

ـ أستيقظ في الفجر على صوتها.

ـ وكيف تعرف أنَّه صوتها؟ فأنت لم تسمعه من قبل...

ـ أحيانًا أراها بوضوح. تشير إليَّ إلى أماكن الوجع، تدعوني إلى تبديل الأدوية، وتطلب منِّي أن أساعد أمّها في هذه المحنة، إنَّها تعرف مدى معاناتك. باولا متعَبة جدًّا وتريد الذهاب، ولكن طبيعتها قويَّة ويمكنها أن تعيش لزمن طويل.

ـ كم من الوقت يمكنها أن تبقى يا دكتور شيما.

أَخرج حينها من حقيبته السحريَّة كيسًا من المخمل فيه عيدان آي تشنغ، وركَّز تفكيره في ترتيلاته السرِّيَّة، وخلط العيدان لحظة، ثم ألقى بها فوق المنضدة.

ـ سبعة. . .

ـ ماذا تعني بسبعة؟

ـ سبعة شهور، سبعة أسابيع، لست أدري. الآي تشنغ غامض جدًّا. . .

وقبل أن ينصرف، قدَّم إليَّ أعشابًا سحريَّة، فهو يعتقد أنَّ الغمّ يقوِّض دفاعات الجسم والذهن، وأنَّ هناك علاقة مباشرة بين السرطان والحزن. وقد وصفت لي الدكتورة فورستر أيضًا شيئًا مضادًّا للاكتئاب، وأنا أحتفظ بالعلبة مغلَقةً في سلَّة رسائل أمّي، ومخبَّأة مع أقراص النوم، فقد قرَّرت عدم التخفيف عن نفسي بواسطة المهدِّئات، فهذا الطريق يتوجَّب عليَّ أن أقطعه وأنا أنزف. كثيرًا ما أستعيد صورة ولادة سيليا، وأراها تتعرَّق، ممزَّقةً من الجهد الذي تبذله، تعضّ شفتيها، وتتقدَّم خطوة خطوة في تلك التجربة من دون مهدِّئات، مطمئنَّةً وواعية بأنَّها تساعد ابنتها على الخروج إلى الدنيا. أراها في ذلك الجهد النهائيّ، مفتوحةً مثل جرح عند خروج رأس أندريا. أسمع صرختها الظافرة وبكاء نيكولاس، وأعود إلى الإحساس بسعادة الجميع في الهدوء المقدَّس لهذه الحُجرة نفسها التي تنام فيها الآن باولا، ربَّما كان داء ابنتي الغريب مثل تلك الولادة ويجب عليَّ أن أضغط أسناني وأقاوم بشجاعة، مدركةً أنَّ هذا العذاب لا يمكن أن يكون أبديًّا، ولا بدَّ له من أن ينتهي يومًا. كيف؟ لا يمكن أن ينتهي إلَّا بالموت وحده. . . عسى أن يطول صبر ويللي لينتظرني، فقد يكون الطريق طويلًا، وربَّما يستمرّ فترة سبع سنوات التي تنبَّأت بها عيدان الآي تشنغ. من الصعب بقاء الحبّ

سليمًا في هذه الظروف، فكلُّ شيء يتآمر ضدَّ علاقتنا الحميمة، فأنا أَمضي بجسد متعَب وروح غائبة، وويللي لا يعرف كيف يخفِّف عنّي، وأنا لا أعرف كذلك ما الذي أطلبه منه. إنَّه لا يتجرَّأ على الاقتراب أكثر خوفًا من إزعاجي، ولكنَّه لا يرغب، في الوقت نفسه، في أن يتركني وحيدة. إنَّ الحلَّ الأمثل، بحسب عقليَّته البراغماتيَّة، هو وضع باولا في مستشفى ومحاولة استمرارنا في حياتنا، ولكنَّه لا يأتي على ذكر هذا الاحتمال أمامي لأنَّه يعرف أنَّ ذلك سيؤدِّي إلى انفصالنا الحتميّ والذي لا رجعة فيه. إنَّه يقول لي بيأس: أودّ لو أرفع عنك هذا الثقل لأحمله أنا، فكتفاي أكبر من كتفيك. ولكن هو نفسه لديه ما يكفي من المصائب. فابنتي تنحدر بنعومة بين ذراعَيَّ، أمَّا ابنته فتنتحر بالمخدِّرات في أشدِّ الأحياء قذارة على الضفَّة الأخرى للخليج، وربَّما ستموت قبل ابنتي بفعل جرعة زائدة فوق طاقتها، أو بطعنة سكِّين، أو بالأيدز. وابنه الأكبر يهيم على وجهه مثل متسوِّل في الشوارع مقترفًا أعمال النشل أو التهريب القبيحة. إذا رنَّ الهاتف ليلًا، يقفز ويللي من السرير وفي ذهنه هاجس أنَّ جثَّة ابنته ترقد في أحد مجاري الميناء، أو أنَّ صوت شرطيّ سيبلغه بجريمة أخرى اقترفها ابنه. إنَّ ظلال الماضي ترصَّده دائمًا، وكثيرًا ما توجِّه إليه ضربة من مخالبها، حتى إنَّ أشدَّ الأخبار سوءًا لم تعد قادرة على كسره. إنَّه يهوي على ركبتيه، ولكنَّه يعود إلى النهوض في اليوم التالي. كثيرًا ما أسأل نفسي كيف جئت أنا إلى وسط هذه الميلودراما. أمِّي تعزو ذلك إلى إعجابي بقصص القسوة، وتظنّ أنَّ هذا هو العنصر الأساسيّ الذي جذب إليّ ويللي، فأيّ امرأة أخرى أكثر عقلانيَّة كانت ستهرب بعيدًا حين ترى كلّ

ذلك الإحباط في حياته. عندما تعرَّفتُ إليه لم يحاول أن يُخفي عنِّي أنَّ حياته كانت ركامًا من الفوضى، وقد عرفت منذ البداية أنَّ ابنيه منحرفان، وعرفت بأمر ديونه وتشابك ماضيه، ولكنَّني مدفوعة بكبرياء اندفاع الحبّ المكتَشَف للتوّ، قرَّرت أنَّه لن تكون هناك عوائق يمكنها هزيمتنا.

من الصعب تخيُّل رجلين أكثر تباعدًا من ميشيل وويللي. في أواسط عام ١٩٨٧، لم يعد في إمكان حياتي الزوجيَّة أن تستمرّ، فقد استوطن الملل نهائيًا بيننا، وكيلا نجد نفسينا نستيقظ في الوقت نفسه ونحن متدثِّران بالشرشف نفسه، رجعت إلى عادتي القديمة في الكتابة ليلًا. وكان ميشيل مغمومًا، ويمرّ في مرحلة سيِّئة، وهو بلا عمل وحبيس البيت. وكي أتجنَّب حضوره الدائم، كنت أهرب إلى الشارع أحيانًا وأضيع في شبكة أوتوستردات كاراكاس المتشابكة. وبينما كنت أناضل ضمن حركة المرور، توصَّلت إلى حلول لكثير من مشاهد «إيڤالونا»، وخطرت لي قصص أخرى. وفي أحد اختناقات حركة السير التاريخيَّة، إذ بقيت محتجَزة في سيَّارتي مدَّة ساعتين تحت شمس من الرصاص المصهور، كتبت قصَّة «كلمتان» دفعة واحدة على ظهر شيكاتي، والقصَّة هي نوع من المجاز بشأن القدرة الهذيانيَّة للقَصّ واللغة، وقد أفادتني فيما بعد لتكون مفتاحًا لمجموعة قصصيَّة. وبالرَّغم من أنَّني كنت أشعر للمرَّة الأولى بالثقة بمهنة الكتابة الغريبة ـ في الكتابين الأوَّلين كان لديَّ انطباع بأنِّي قد هبطت بالصدفة في أرض وُحول منزلقة ـ، فإنَّ «إيڤالونا» كانت تُكتب تلقائيًّا، وعلى الرَّغم من أنفي تقريبًا. لم تكن لديَّ القدرة على التحكُّم في تلك القصَّة المشعَّثة، ولم أكن أعرف إلى أين تتَّجه

ولا كيف سأُنهيها، وكنت على وشك قتل جميع الشخصيَّات في تبادل لإطلاق النار للخروج من الورطة والتخلُّص منها.

والأدهى من ذلك، أنَّني بقيت في منتصف الطريق من دون البطل الرجل. كنت قد خطَّطت كي يجمع الحبّ بين إيڤا وهومبرتو نارانخو، وهما طفلان يتيمان فقيران، عاشا في الشارع وترعرعا في طريقين متوازيين. وفي منتصف الكتاب، حدث اللقاء المنتظَر، ولكنَّهما عندما تعانقا أخيرًا، تبيَّن أنَّه لا يهتمّ إلَّا بنشاطاته الثوريَّة، وأنَّه أخرق تمامًا كعاشق. إنَّ إيڤا تستحقّ أكثر من ذلك؛ هذا ما أطلعتني عليه، ولم تكن هناك وسيلة لإقناعها بعكس ذلك. وجدت نفسي في زقاق مسدود، فالبطلة تنتظر ضَجِرة، بينما يجلس البطل عند طرف السرير مشغولًا بتنظيف بندقيَّته. في تلك الأيَّام، كان عليَّ أن أسافر إلى ألمانيا للقيام بجولة دعائيَّة. هبطت في فرانكفورت، وواصلت السفر من هناك إلى بقيَّة أرجاء البلاد في السيَّارة مع سائق نافد الصبر يسابق الرِّيح على الأوتوستْرادات المتجمِّدة بسرعة انتحاريَّة. وفي إحدى الليالي، في مدينة شماليَّة، اقترب منِّي رجل لدى انتهاء الحديث مع الجمهور، ودعاني إلى تناول زجاجة بيرة لأنَّ لديه قصَّة من أجلي، بحسب قوله. جلسنا في مقهى لا يكاد أحد يرى وجه الآخر فيه بسبب ضعف الإنارة ودخان السجائر، بينما كان المطر يهطل في الخارج، وراح ذلك الشخص المجهول يكشف لي ماضيه. لقد كان أبوه ضابطًا في الجيش النازيّ؛ رجلًا قاسيًا يعذِّب زوجته وأبناءه، وقد منحته الحرب فرصة لإشباع أكثر غرائزه وحشيَّة. حدَّثني عن أخته الصغيرة المتخلِّفة ذهنيًّا، وكيف أنَّ أباه المتشرِّب بالتفوُّق العرقيّ، رفض الاعتراف بها، وأجبرها على

العيش كقطّة وبصمت تحت إحدى الطاولات، مغطّاة بشرشف أبيض كي لا يراها. سجّلتُ على منديل ورقيّ كلّ ذلك وأكثر منه بكثير ممّا أهداني إيّاه في تلك الليلة. وقبل أن نفترق، سألته إذا كنت أستطيع استخدام ذلك في رواية، فأجابني بأنّه قد رواه لي كي أستخدمه. وعندما وصلت إلى كاراكاس، أدخلت المنديل الورقيّ في الكمبيوتر، فظهر رولف كارليه في كامل قامته أمام عينيّ؛ المصوِّر النمساويّ الذي تحوَّل إلى بطل الرواية، وحلَّ محلّ هومبرتو نارانخو في قلب «إيفالونا».

في أحد تلك الصباحات الحزيرانيّة الحارَّة في كاراكاس، وبينما كانت العاصمة تتجمّع منذ الصباح الباكر فوق الجبال، نزل ميشيل إلى مكتبي في القبو يحمل إليّ البريد، وكنت آنذاك أَمضي تائهة في الأدغال الأمازونيَّة مع «إيفالونا» ورولف كارليه ورفاقهما في المغامرة. لدى سماعي حركة الباب، رفعت بصري ورأيت هيئة مجهولة تجتاز اتّساع الغرفة العارية. كان رجلًا طويلًا، نحيلًا، له لحية رماديَّة ويضع نظّارة، وكتفاه متهدّلتان، وتحيط به هالة شاحبة من الضعف والكآبة. تأخّرت بضع ثوان في التعرُّف إلى زوجي، وأدركت عندئذ كم أصبحنا غريبين، أحدنا عن الآخر، وبحثت في الذاكرة عن جذوة الحبّ الناجح حين كنّا في العشرينيّات، فلم أجد سوى الرماد، وثقل عدم الرضا والضجر وحده. وتراءى لي المستقبل القاحل الذي أهرم فيه يومًا بعد يوم إلى جانب هذا الرجل الذي لم يعد لديه تقدير ولا رغبة، وأحسست بهدير تمرُّد ينبثق من مركز طبيعتي نفسِه. في تلك اللحظة، خرجت الكلمات المحبوسة منذ سنوات بالانضباط الحديديّ في صوت لم أتعرَّف فيه إلى أنَّه صوتي:

«لم أعد أتحمَّل المزيد، أريد أن ننفصل»، قلت ذلك من دون أن أجرؤ على النظر إلى عينيه. وما إن نطقت تلك الكلمات حتى اختفى ذلك الألم الغامض؛ ألم الجاموس المتعَب الذي كنت أحمله منذ سنوات على كاهلي.

ـ منذ زمن لاحظت أنَّك تبدَّلت. أعتقد أنَّك لم تعودي تحبِّينني، وعلينا أن نفكِّر في الانفصال.

ـ ليس هناك الكثير للتفكير فيه يا ميشيل، ومن الأفضل عمل ذلك اليوم بالذات.

وهذا ما حدث. استدعينا الابنين، وشرحنا لهما أنَّنا لم نعد نحبّ أحدنا الآخر كزوجين، مع أنَّ صداقتنا ستبقى قائمة. وطلبنا منهما المساعدة في التفاصيل العمليَّة لتفكيك البيت المشترك. احمرَّ وجه نيكولاس مثلما يحدث له كلَّما حاول كبح انفعال قويّ جدًّا، وانفجرت باولا بالبكاء إشفاقًا على أبيها الذي كانت تحميه دائمًا. وقد علمت فيما بعد بأنَّ الأمر لم يكن مفاجأة بالنسبة إليهما، فقد كانا ينتظران حدوثه منذ زمن. بدا ميشيل كأنَّه مُصاب بالشلل. أمَّا أنا، فقد نزلت عليّ حمَّى النشاط، فبدأت بإخراج فناجين وأطباق من المطبخ، وملابسَ من الخزائن، وكُتبٍ من على الرفوف، ثم خرجت لشراء قُدور وغلَّايات قهوة، وستائر للحمَّام، ومصابيح ومأكولات، بل نباتات زينة كذلك لتستقرّ في مكان آخر. وبالنشاط الفائض لديَّ، جلست في غرفة الخياطة لأصل قطع قماش صغيرة بعضها ببعض، وأصنع منها غطاء للسرير، ما زلت أحتفظ به حتى الآن كذكرًى لتلك الساعات الجنونيَّة التي حسمت أمر القسم الثاني

من حياتي. قسّم ابنانا ممتلكاتنا وحرّرا اتّفاقًا بسيطًا على ورقة واحدة مهرناها نحن الأربعة بتواقيعنا من دون مراسم ومن دون شهود، ثم وجدت باولا شقّة لأبيها ووجد نيكولاس شاحنة لنقل نصف الممتلكات. وفي ساعات قليلة أنهينا تسعًا وعشرين سنة من الحبّ وخمسًا وعشرين سنة من الحياة الزوجيّة، من دون صفق أبواب ومن دون مهاترات أو محامين، وإنّما ببعض الدموع التي لا بدَّ منها فقط؛ فقد كان لدى كلّ منّا عاطفةٌ تجاه الآخر على الرَّغم من كلِّ شيء، وأظنّ أنَّها ما زالت لدينا بطريقة ما. في الليل، بدأت العاصفة التي كانت تتجمَّع طوال النهار، وانهمر وابل من ذلك المطر التروبيكاليّ الفضائحيّ مع الرعود والبروق التي تحوّل كاراكاس عادة إلى منطقة كوارث، حيث تنسدّ مجاري الصرف وتغرق الشوارع، وتتحوَّل حركة المرور إلى حيَّات عملاقة من السيَّارات المتوقِّفة، ويجرف الوحل الأحياء الفقيرة على التلال. عندما ابتعدت أخيرًا شاحنةُ الطلاق، تتبعها سيَّارة ابنَيَّ الذاهبين لإسكان أبيهما في بيته الجديد، وبقيت وحدي في البيت، فتحت الأبواب والنوافذ لتدخل الريح والمياه وتكنس الماضي وتغسله، ورحت أرقص وأدور مثل درويش أصابه الجنون. كنت أبكي حزنًا على كلِّ ما فقدته، وأضحك راحةً لكلِّ ما كسبته، بينما كانت الزيزان والضفادع تغنّي في الخارج، ووابل المطر يسيل على الأرض في الداخل، والريح العاصفة تذرو الأوراق الميّتة وريشَ العصافير في زوبعة وداع وحرِّيَّة.

كان عمري أربعًا وأربعين سنة، وقد عرفت أنَّ مصيري منذ تلك

اللحظة فصاعدًا هو الشيخوخة فقط، وكنت آمل أن أفعل ذلك بوقار. اتَّصلت بالعمّ رامون لأطلب منه إنهاء معاملة إلغاء الزواج في تشيلي، وهي معاملة إجرائيَّة بسيطة إذا كان الزوجان متَّفقين على ذلك، وإذا دُفع أجر مناسب لمحامٍ ووُجد صديقان مستعدَّان لشهادة الزور. وللهروب من تقديم التفسيرات وكي أُداري إحساسي بالذنب، وافقت على إلقاء مجموعة محاضرات قادتني من أيسلاندا حتى بويرتو ريكو، مرورًا بنحو عشر مدن أميركيَّة. ونظرًا إلى تنوُّع مناخات المناطق التي سأذهب إليها، كان عليّ أن أحمل معي ملابسي، ولكنِّي قرَّرت ألَّا أحمل معي إلَّا ما هو ضروريّ، فالتبرُّج أصبح بعيدًا عن رغباتي، وكنت أشعر بأنَّني قد استقررت في نضوج من دون عواطف، بصورة لا تقبل الاستئناف. ولهذا، فقد كانت مفاجأة لطيفة أن أتأكَّد من أنَّ هناك دائمًا عاشقين لأيِّ امرأة جاهزة. كتبت وثيقة من ثلاث نُسَخ أتراجع فيها عن الوثيقة التي كنت قد وقَّعتها في بوليفيا، واتَّهمت فيها العمّ رامون بأنَّه سيكون السبب في أنَّني لن أتعرَّف إلى رجال، وأرسلت الوثيقة إلى تشيلي بالبريد المسجَّل. في بعض الأحيان، يكون من اللازم السماح بثني الذراع... خلال تلك الرحلة التي استمرَّت شهرين، استمتعت بعناق دبّ قطبيّ لشاعر في ريكافيك، وبرفقة شابّ خلاسيّ في ليالي مدينة سان خوان الحارَّة، وبلقاءات أخرى تاريخيَّة. حاولت اختراع طقوس وحشيَّة للغراميَّات كي أزيِّن ذكرياتي، مثلما يفعل آخرون على ما أظنّ، ولكنَّني أحاول أن أكون نزيهة في هذه الصفحات. في بعض اللحظات، توصَّلت إلى الاعتقاد أنِّي قد لمست روح العشيق، ووصل بي الأمر إلى حدِّ الحلم بإمكان إقامة علاقة عميقة، ولكنَّني

كنت أركب طائرة أخرى في اليوم التالي ويذوب الهياج الذي عرفته في الليل. وكنت في الأسبوع الأخير قد تعبت من القبلات العابرة، وقرّرت التركيز في عملي وحده، وهناك في نهاية المطاف أُناس كثيرون يعيشون في العفّة. لم أكن أتصوّر أنّ ويللي ينتظرني في نهاية تلك الرحلة المتهوّرة، وأنّ حياتي ستتّخذ اتّجاهًا جديدًا، فقد خذلتني الهواجس تمامًا.

في مدينة في شمال كاليفورنيا، حيث ذهبت لأقدّم محاضرتي قبل الأخيرة، عشت واحدة من تلك الملاقات الغراميّة الرومنسيّة المتكلّفة التي تشكّل مادّة الروايات الورديّة التي كنت أترجمها في شبابي. كان ويللي قد قرأ «عن الحبّ والظلال»، ويتألّم لحال الشخصيّات، ويعتقد أنّه اكتشف في ذلك الكتاب نوعَ الحبّ الذي يرغب فيه، ولكنّه لم يتوصّل إليه حتى ذلك الحين. وأظنّ أنّه لم يكن يعرف أين يبحث عنه، فقد كان ينشر في تلك الفترة إعلانات شخصيّة في الصحف ليجد نصفه الآخر، مثلما روى لي بسذاجة في لقائنا الغراميّ الأوّل. وما زالت بعض الرسائل الجوابيّة تتجوّل في الصناديق، ومن بينها صورة مذهلة لسيّدة عارية ملفوفة بحيّة بوا معمّرة من دون أيّ تعليق آخر سوى رقم هاتف في أسفل الصورة. وبالرّغم من الأفعى ـ أو ربّما بسببها ـ، فإنّ ويللي لم يُزعجه أن يقود سيّارته مدّة ساعتين كي يتعرّف إليّ. وقد عرّفتني إليه أستاذة من إحدى الجامعات التي دعتني، وقدّمته على أنّه مشتهي الجنس الآخر الأعزب في سان فرنسيسكو. وأخيرًا، تعشّيت مع جماعة مدعوّين حول مائدة مستديرة في مطعم إيطالي، وكان هو يجلس قبالتي صامتًا وفي يده كأس من النبيذ الأبيض. أعترف بأنّي شعرت بالفضول

أيضًا تجاه هذا المحامي الأميركي، في مظهره الأرستقراطيّ وربطة عنقه الحريريَّة، والذي يتكلَّم الإسبانيَّة بلهجة قاطع طريق مكسيكيّ، ويحمل وشمًا على يده اليسرى. كانت ليلة مكتملة القمر، وكان صوت فرانك سيناترا المخمليّ يغنّي Strangers in the Night بينما كانوا يقدّمون إلينا المعكرونة، وهذا النوع من التفاصيل محرَّم في الأدب، فليس هنا من يجرؤ على الجمع بين القمر المكتمل وفرانك سيناترا في كتاب واحد. فالمشكلة هي أنَّه لا بدَّ للخيال الروائي من أن يكون مقنعًا، بينما نادرًا ما يكون الواقع كذلك. لست أدري ما الذي اجتذب ويللي إليّ وهو ذو الماضي المليء بنساء طويلات وشقراوات. أمَّا ما اجتذبني إليه فهو قصَّته. وقد اجتذبني إليه كذلك، ولماذا لا أعترف، مزيجٌ من التهذيب والخشونة فيه، وقوَّة شخصيَّته، ورقة حميميَّة حدستها بفضل هوسي في مراقبة الناس لاستخدامهم في كتاباتي فيما بعد. لم يتكلَّم كثيرًا في البدء، واكتفى بالنظر إليَّ عبر الطاولة بملامح لا يمكن تفسيرها. وبعد تناول السلَطة، طلبت منه أن يروي لي قصَّة حياته، وهي حيلة توفّر عليَّ مشقَّة الدخول في محادثة، فيُسهب محدِّثي في الكلام، بينما ذهني يجول في عوالم أخرى. ولكنَّني، في ذلك اليوم، لم أكن مضطرَّة إلى تصنُّع الاهتمام، فما إن بدأ بالحديث حتى أدركت أنَّني قد التقيت إحدى تلك الدُّرر النادرة التي يقدِّرها الروائيُّون كثيرًا: فقد كانت حياة ذلك الرجل رواية متكاملة. والأدلّة التي قدَّمها إليّ خلال تينك الساعتين أيقظت مطامعي، فلم أستطع النوم تلك الليلة في الفندق... كنت أشعر بأنَّني في حاجة إلى معرفة المزيد، وقد حالفني الحظّ لأنَّ ويللي استطاع العثور عليَّ في اليوم التالي في

سان فرنسيسكو؛ المحطَّةِ الأخيرة في جولتي، ودعاني إلى مشاهدة الخليج من فوق الجبل، وتناولِ الطعام في بيته. تخيَّلت موعدًا رومنسيًّا في شقَّة حديثة تطلّ على جسر غولدن غيت، ونبتةَ صبَّار عند الباب، وشمبانيا وسلمون مدخَّنًا، ولكنَّني لم أجد شيئًا من ذلك، فبيته وحياته يبدوان أشبه ببقايا سفينة غارقة. حملني في واحدة من هذه السيَّارات الرياضيَّة التي لا تكاد تتَّسع لشخصين، ويركبها المرء وركبتاه تلامسان أذنيه ومؤخّرته تحتكّ بالأسفلت، وكانت السيَّارة متَّسخة بوبر حيوان وعلب مرطّبات مسحوقة وبطاطا مقليَّة متحجِّرة وأسلحة للعب الأطفال. لقد تأثَّرت بالرحلة إلى قمَّة الجبل، وبمنظر الخليج، ولكنَّني فكَّرت في أنَّني لن أتذكَّر أيّ شيء من ذلك بعد قليل؛ فقد رأيت مناظر طبيعيَّة كثيرة، وليس في نيَّتي العودة مرَّة أخرى إلى غرب الولايات المتَّحدة. هبطنا عبر طريق كثير المنعطفات والأشجار الضخمة ونحن نستمع إلى كونشوتو من المذياع، فأحسست كما لو أنَّني عشت هذه اللحظة من قبل، وبأنَّني كنت في المكان مرّات كثيرة، وأنَّني أنتمي إليه. وقد عرفت السبب فيما بعد: شمال كاليفورنيا يشبه تشيلي، فالشواطئ الوعرة نفسُها، والخضرةُ والطيور نفسُها، وتوزُّعُ الغيوم في السماء نفسُه.

بيته مؤلَّف من طابق ذي لون رماديّ حائل، وسقوف مسطَّحة، ومجاور للماء. والشيء الوحيد الفاتن فيه هو مرسًى مخرَّب فيه زورق متحوِّل إلى عشّ للنوارس. خرج للقائنا ابنُه هارلي، وهو طفل في العاشرة من عمره مفرط النشاط إلى حدٍّ يبدو فيه كأنَّه معتوه، وقد أخرج لسانه بينما كان يركل الأبواب بقدميه، ويُطلق قذائف مطَّاطيَّة من بندقيَّة. وشاهدت على أحد الرفوف تحفًا من الزجاج

والسيرامبك، ولكن لم يكن ثمَّة أثاث تقريبًا، باستثناء أثاث غرفة الطعام. أوضحوا لي أنَّ شجرة عيد الميلاد كانت قد احترقت واحترق معها الأثاث، عندئذ انتبهت إلى وجود بعض كرات زينة عيد الميلاد التي لا تزال معلَّقة بالسقف وعليها خيوط عنكبوت متراكمة منذ عشرة أشهر. عرضت على مضيفي أن أساعده في إعداد الطعام، ولكنَّني شعرت بالضياع في ذلك المطبخ المترَع بالأجهزة واللُّعَب. قدَّمني ويللي إلى ساكني البيت الآخرين: ابنه الأكبر الذي وُلد في صدفة غريبة في اليوم نفسه من السنة نفسها التي وُلدت فيها باولا، وكان مدمنًا على المخدَّرات، بحيث لا يستطيع رفع رأسه إلَّا بصعوبة، وترافقه فتاة في الحالة نفسها؛ وكان هناك منفيّ بلغاريّ مع ابنته الصغيرة، وقد جاءا يطلبان المبيت ليلة واحدة، ولكنَّهما استقرّا في حياة مريحة؛ ثم جاسون ابن زوجة ويللي الذي استبقاه معه بعد أن طلَّق أمّه، وهو الشخص الوحيد الذي استطعت أن أُقيم معه علاقة إنسانيَّة. وقد علمت، فيما بعد، بوجود ابنة تائهة في الهروين والدعارة لم أرَها بعد ذلك إلَّا في السجن أو في المستشفى، حيث كانت تستقرّ عظامها في أحيان كثيرة. وهناك ثلاثة جرذان رماديَّة ذيولها مقروضة ودامية، كانت تهزل وتخمد في قفص، وعدَّة أسماك خائرة تطفو في حوض مياهُه معكّرة. وكان ثمَّة كلب كذلك، تبوَّل في الصالة ثم مضى سعيدًا بعد ذلك لينزل في البحر، ثم ليعود ونحن نتناول الحلوى حاملًا معه جثَّةَ طائر متيبِّس. كنت على وشك الهروب عائدة إلى الفندق، ولكنّ الفضول كان أقوى من الرعب، وبقيت، بينما كان البلغاريّ يشاهد مباراة بكرة القدم عبر التلفزيون وطفلته نائمة على ركبتيه، ومدمنا المخدّرات يشخران في فردوسهما

الخاصّ. كان ويللي يقوم بكلِّ الأعمال: يطهو الطعام، ويدسّ أكوامًا من الثياب في الغسَّالة، ويُطعم الحيوانات الكثيرة، ويستمع بصبر إلى قصَّة سورياليَّة انتهى جاسون من كتابتها وراح يقرأها لنا بصوت عالٍ، ويحضِّر الحمّام لابنه الأصغر الذي لم يكن قادرًا على الاستحمام بمفرده على الرَّغم من بلوغه العاشرة. لم أكن قد رأيت من قبل أبًا يقوم بمهمَّات الأمّ، وقد تأثَّرت بذلك أكثر ممَّا أردت؛ لقد أحسست بنفسي منقسمة ما بين الرفض الصحِّيّ لهذه الأُسرة المفكَّكة، وبين الافتتانِ الخَطِر بهذا الرجل ذي الميول الأموميَّة. وربَّما بدأت منذ تلك الليلة بكتابة رواية «الخطَّة اللانهائيَّة» ذهنيًّا. في اليوم التالي اتَّصل بي ثانية، وكان الإعجاب المتبادلَ واضحًا لا ريب فيه، ولكنَّنا كنَّا مدركين أنَّه ليس ثمَّة مستقبل لتلك المشاعر، لأنَّه إضافة إلى العقبات الظاهرة ـ الأبناءِ، اللغةِ، الاختلافِ الثقافيّ وأسلوبِ الحياة ـ كانت تفصل بيننا عشر ساعات في الطائرة، ولكنَّني قرَّرت، في أيِّ حال، أن أؤخِّر نيَّتي في التزام العفَّة لنُمضي معًا ليلة واحدة، شريطة أن نفترق في اليوم التالي إلى الأبد، مثلما يحدث في الأفلام السيِّئة. ولم يكن في الإمكان تنفيذ هذه الخطَّة في حميميَّة فندقي، وإنَّما كان لا بدَّ من الذهاب إلى بيته، لأنَّه لا يستطيع ترك ابنه الأصغر بين يدي البلغاريّ أو مدمنَي المخدّرات أو الشابّ المثقَّف. وصلت مع حقيبتي إلى ذلك المسكن الغريب، حيث تختلط روائح الحيوانات بهواء البحر المالح وشذى سبع عشرة شجيرة ورد مزروعة في براميل، وكنت أفكّر في أنَّني سأُمضي ليلة لا تُنسى، وأنَّه ليس لديّ، في أيِّ حال، ما أخسره. حذَّرني ويللي قائلًا: لا تستغربي إذا أُصيب هارلي بنوبة غيرة، فأنا لا أدعو عادة

صديقات إلى هذا البيت. وقد تنفَّست الصعداء لأنَّني لن أجد على الأقلِّ الأفعى المعمِّرة ملتفَّة ما بين مناشف الحمَّام، ولكنَّ الطفل تقبَّلني من دون أن يوليني أكثر من نظرة واحدة. فلدى سماعه لكنتي ظنَّ أنِّي واحدة أخرى من الخادمات اللاتينيَّات الكثيرات اللواتي لا يلبثن أن يختفين إلى الأبد مذعورات بعد قيامهنَّ بعمليَّة التنظيف الأولى. وعندما اكتشف أنَّني سأقاسم والده السرير كان الوقت قد فات، فقد كنت آتية لأبقى. في تلك الليلة، مارست أنا وويللي الحبّ على الرَّغم من الركلات اليائسة التي كان الصبيّ يوجِّهها إلى الباب، ومن نباح الكلب وشجار الصِّبْية الآخرين. لقد كانت حجرته هي الملجأ الوحيد في ذلك البيت؛ كانت تظهر من خلال النافذة السماء وفضلات المركب في المَرسى، خالقةً وهمًا من الأمان. وإلى جوار سرير كبير رأيت صندوقًا خشبيًّا، ومصباحًا وساعة، وشاهدت في جهة أخرى جهازًا للموسيقى. وكانت تتدلَّى في الخزانة قمصان وبدلات جيِّدة الصنع، ووجدت في الحمَّام ـ الذي لا تشوبه شائبة ـ الصابونَ الإنكليزيّ نفسه الذي كان جدِّي يستخدمه. حملته إلى أنفي غير مصدِّقة، فلم أكن قد استنشقت هذه الرائحة المنظِّفة والمعقِّمة منذ عشرين سنة، فابتسمت لي في المرآة صورةُ ذلك الشيخ الماكر الذي لا يُنسى. كم هو فاتن رصدُ أشياء الرجل الذي تبدأ إحدانا بحبِّه، وكشفُ عاداته وأسراره. رفعت غطاء السرير ولمست الشراشف البيضاء واللحاف الأسبارطيّ، ونظرت إلى عناوين الكتب الموضوعة بعضها فوق بعض على الأرض، وتحرَّكت بين قوارير صيدليَّته ووجدت دواءً مضادًّا للحساسيَّة، وأقراصًا من أجل ديدان الكلب، ولم أجد أيّ أدوية أخرى. شممت رائحة ثيابه

التي ليس فيها أيّ أثر للتبغ أو العطور، وصرت أعرف خلال دقائق قليلة الشيءَ الكثير عنه. أحسست بأنّي دخيلة على عالمه الذي لا وجود فيه لأيِّ أثر نسائيّ، فكلّ شيء بسيط وعمليّ ورجوليّ. وقد شعرت بالثقة أيضًا. فهذه الحجرة المتقشِّفة تدعوني إلى بداية جديدة ونظيفة بعيدًا عن ميشيل، وعن فنزويلا، وعن الماضي؛ لقد كان ويللي يمثِّل بالنسبة إليّ قَدَرًا آخر بلغة أخرى في بلد مختلف؛ كان شيئًا أشبه بالولادة من جديد، وكان في إمكاني أن أخترع نسخة طازجة من نفسي لهذا الرجل خصّيصًا. جلست في طرف السرير هادئة، مثل حيوان متحفِّز، وبقرنَيِ استشعار مصوَّبين إلى كلِّ الأنحاء، أتفحَّص، بحواسّي الخمس وغرائزي، كلَّ هذا المجال الغريب، مسجِّلة أدقَّ التفاصيل: المعلومات المنمنمة التي تحملها الجدران، والأثاث، والأشياء الأخرى. وكان يُخيَّل إليّ أنَّ هذه الحجرة النظيفة تُلغي الانطباع الرهيب الذي خلَّفته بقيَّة البيت في نفسي، وأدركت أنَّ هناك شَطْرًا في روح ويللي يتشوَّق إلى النظام والترتيب. الآن، وبعد أن تقاسمنا الحياة معًا لسنوات، أصبح كلّ شيء يحمل لمستي، ولكنَّني لم أنسَ مَن كان هو في ذلك الحين. إنَّني أغمض عينَيَّ أحيانًا وأركِّز تفكيري، فأجد نفسي ثانية في هذه الحجرة وأرى ويللي قبل مجيئي إليه. أحبّ أن أتذكَّر رائحة جسده قبل أن ألمسه؛ قبل أن نختلط ونتشاطر الرائحة نفسها. هذا الوقت القصير الذي أمضيته وحدي في حجرة نومه، بينما هو يتصارع مع هارلي، كان وقتًا حاسمًا؛ ففي تلك الدقائق قرَّرت أن أستسلم من دون تحفُّظ لتجربة حبّ جديد. لقد تبدَّل شيء جوهريّ فيّ وإن كنت لا أعرف ماهيَّته حتى ذلك الحين. فمنذ تسع سنوات، منذ أزمنة

مدريد المضطربة، وأنا أتوخَّى الحذر من العواطف. فالإخفاق مع موسيقيّ التروبادور ذي الناي السحريّ علَّمني دروسًا أساسيَّة في الحذر. صحيح أنَّ الغراميّات لم تنقصني، ولكنَّني، حتى تلك الليلة في بيت ويللي، لم أكن قد تفتَّحت للعطاء والتلقِّي من دون تحفُّظ؛ فقد كان هناك شطر منّي يراقب الأجزاء الأخرى التي أوحت إليَّ بالمشاهد الغراميَّة في رواياتي، وكانت المراقبة دائمة حتى في أكثر اللقاءات حميميَّة وخصوصيَّة؛ فقد كنت أحتفظ بقلبي محميًّا. قبل أن يغلق ويللي الباب ونصبح وحدنا ونتعانق، بحذر في أوَّل الأمر ثم بعاطفة غريبة هزَّتنا كصاعقة، كنت قد هجست بأنَّ هذا اللقاء هو مغامرة عابرة. في تلك الليلة مارسنا الحبَّ بجدِّيَّة وتمهُّل، وكنَّا نتمعَّن في الخرائط والدروب، وكان لدينا كلّ الوقت المتوفِّر في الدنيا من أجل هذه الرحلة. كنَّا نتحدَّث بصوت خافت بذلك الخليط المستحيل من الإنكليزيَّة والإسبانيَّة، والذي كان لغة الإسبرانتو الخاصَّة بنا منذ الأزل. وروى كلٌّ منَّا للآخر ومضات من ماضيه، ما بين المداعبات، متجاهلَين تمامًا الطَّرْقَ على الباب ونباحَ الكلب. لقد ساد الصمت في بعض اللحظات، لأنَّني أتذكَّر بوضوح تامّ دمدمات الحبّ، وكلَّ كلمة، وكلَّ زفرة. وكان ينفذ من النافذة بريقٌ خفيف من أضواء الخليج البعيدة. ولأنَّني كنت معتادة على حرّ فنزويلا، فقد رحت أرتجف من البرد في تلك الغرفة التي كانت بلا تدفئة، بالرَّغم من أنَّني ارتديت سترة ويللي التي أحاطت بي حتى الركبتين، مثل عناقه ومثل رائحة الصابون الإنكليزيّ. لقد اكتسبنا على امتداد حياتينا وراكمنا الخبرات التي ربَّما أفادتنا في التعارف وفي تطوير الغريزة اللازمة ليحرِّر كلٌّ منَّا رغبات الآخر، ولكنَّنا حتى

لو كنَّا قد تصرَّفنا بخراقة الجراء، فإنَّني أظنُّ أنَّ تلك الليلة ستبقى ذات أهمِّيَّة حاسمة، في أيِّ حال، بالنسبة إلى كلينا. ما الشيء الجديد في تلك الليلة بالنسبة إليه وإليّ؟ لست أدري، ولكنَّني أحبّ أن أتصوَّر أنَّنا كنَّا مكرَّسين للقاء والتعارف والحبِّ. وربَّما كانت المفارقة أنَّنا كنَّا نُبحر ما بين تيَّارين قويّين بالحدِّ ذاته من العاطفة والحنان. لم أفكِّر في رغبتي الخاصَّة، فقد كان جسدي يتحرَّك من دون جَزَع، ومن دون بحث عن اللذَّة الجنسيَّة، وإنَّما بثقة مطمئنَّة إلى أنَّ كلّ شيء يجري على ما يرام. كنت أرغب في البقاء إلى جانبه، ولم يُخفني ابناي، ولم يُخفني كذلك تركُ عالمي وتبديل بلدي. أحسست بأنَّه سيكون في مقدور هذا الحبّ أن يحدّدنا، وأن يُعيد إلينا شيئًا من البراءة، ويغسلَ الماضي، ويُضيءَ بعض المظاهر القاتمة في حياتنا. بعد ذلك نمنا في عقدة متشابكة من الأذرع والسيقان؛ نمنا بعمق كأنَّنا كنَّا معًا منذ الأزل، مثلما واصلنا عمل ذلك كلّ ليلة منذ ذلك الحين.

كانت طائرتي المتوجِّهة إلى كاراكاس تغادر في وقت مبكّر جدًّا، فكان الظلام لا يزال مخيِّمًا عندما أيقظنا منبِّه الساعة. وبينما كنت أستحمّ وأنا أشعر بدُوار من التعب والانطباعات التي لا تُنسى، أعدَّ ويللي قهوة قويَّة استطاعت إعادتي إلى الواقع. ودّعت تلك الحجرة التي كانت معبدًا لي لساعات، وساورني إحساس غريب بأنَّني سأعود إلى رؤيتها عمَّا قريب. وفي الطريق إلى المطار، عندما بدأت الشمس بالشروق، ألمحَ إليَّ بخجل لا يمكن تفسيره بأنَّني أُعجبه.

ـ هذا لا يعني الكثير. أريد أن أعرف إذا كان ما حدث في

الليل هو من ابتداع ذهني الأعمى، أم أنَّك تحبّني حقًّا، وهناك فيما بيننا نوع من الالتزام.

وكانت مفاجأته كبيرة إلى درجة أنَّه خرج عن الأوتوستراد وركن السيَّارة؛ فقد كنت أجهل أنَّه لا يمكن التلفُّظ بكلمة «التزام» أمام أميركيّ أعزب:

ـ لقد تعرَّفنا لتوّنا، وأنت تعيشين في قارَّة أخرى!

ـ وهل البُعد هو الذي يُقلقك؟

ـ سأذهب لزيارتك في فنزويلا في شهر كانون الأوَّل، وعندئذ يمكننا أن نتكلَّم في الموضوع.

ـ نحن في تشرين الأوَّل، ومن الآن حتى كانون الأوَّل قد أموت.

ـ هل أنت مريضة؟

ـ لا، ولكنْ من يدري ما سيحدث... انظر يا ويللي، ليس لي من العمر ما يسمح بالانتظار. قل لي الآن إذا كان في الإمكان منحُ فرصة لهذا الحبِّ، أم أنَّه من الأفضل أن أنسى القضيَّة كلَّها.

أصابه الشحوب. أعاد تشغيل محرِّك السيَّارة وقطعنا بقيَّة الطريق صامتَين. وعند الوداع، قبَّلني بحذر، وأكَّد لي ثانية أنَّه سيأتي لرؤيتي في إجازة نهاية السنة. وما إن أقلعت الطائرة حتى حاولت نسيانه بجدِّيَّة، ولكنَّ المؤكَّد أنَّني لم أستطع ذلك، لأنَّني ما كدت أنزل في كاراكاس حتى لاحظ نيكولاس الأمر:

ـ ماذا أصابك يا أمَّاه؟ أراك غريبة.

ـ إنَّني متعبَة يا بُني، فأنا أسافر منذ شهرين. يجب أن أستريح، وأبدِّلَ ملابسي وأقصَّ شعري.

ـ أظنّ أنَّ هناك شيئًا أكبر.

ـ إنَّني عاشقة، إذن. . .

فسألني وهو يقهقه:

ـ وأنت في هذه السنّ؟ من يكون؟

لم أكن متأكِّدة من كنية ويللي، ولكنَّني أملك رقم هاتفه وعنوانه. واستجابة لاقتراح ابني الذي رأى أن أُمضي أسبوعًا في كاليفورنيا لأُخرج ذلك الغرينغو من دماغي، أرسلت إليه في بريد خاصّ عقدًا مؤلَّفًا من عمودين، أحدهما عددت فيه مطالبي بالتفصيل، وفي العمود الآخر عددت ما أنا مستعدّة لتقديمه لعلاقتنا. وقد كان العمود الأوَّل أطول كثيرًا من الثاني، ويتضمَّن بعض النقاط المفصليَّة، مثل الإخلاص الكامل، لأنَّ التجربة علَّمتني أنَّ عكس ذلك يدمِّر الحبّ ويسبِّب متاعب كثيرة. وكانت هناك نقاط أخرى طريفة، مثل احتفاظي بحقّ وضع ديكور بيتنا، بحسب ذوقي. وكان العقد يستند إلى طِيب النيَّة: لن يجرح أحدنا مشاعر الآخر متعمِّدًا، فإذا حدث ذلك يجب عزوه إلى الخطأ، لا إلى الخبث. وقد استظرف ويللي العقد، ونسي حذره كمحام، ووقَّع الورقة بحماسة من يودّ مواصلة المزحة وأرسلها إليّ. عندئذ حشوت حقيبة صغيرة بعض الملابس وبعض التعاويذ التي ترافقني دائمًا، وطلبت من ابني أن يوصلني إلى المطار. وقد قال لي وهو يودِّعني ساخرًا: «سأراك قريبًا يا أمّاه، فبعد أيّام ستعودين وذيلك بين ساقيك». ومن

ڤيرجينيا، حيث كانت تعدّ للماجستير، أعربت باولا هاتفيًّا عن شكوكها في هذه المغامرة:

ـ أنا أعرفك أيَّتها العجوز، ستُوقِعين نفسك في مشكلة عويصة. لن يفارقك الوهم بعد أسبوع مثلما يظنّ نيكولاس. إذا كنت ذاهبة لزيارة هذا الرجل فلأنَّك مستعدَّة للبقاء معه، ولكن عليك أن تتذكَّري أنَّك إذا فعلت ذلك فسوف تندمين، لأنَّك ستحملين على كاهلك كلّ مشاكله.

ولكنّ وقت التحذيرات العقلانيَّة كان قد فات.

كانت الفترة الأولى كابوسًا. فحتى ذلك الحين كنت أعتبر الولايات المتَّحدة عدوّي الشخصيّ بسبب سياستها الخارجيَّة الكارثيَّة في أميركا اللاتينيَّة، ومشاركتها في الانقلاب العسكري في تشيلي. كان لا بدَّ من العيش في هذه الإمبراطوريَّة والتجوُّل فيها من أقصاها إلى أقصاها لفهم تعقيداتها، ومعرفتها وحبّها. لم أكن قد استخدمت إنكليزيَّتي منذ أكثر من عشرين سنة، فكنت أكاد لا أستطيع حلّ رموز قائمة الطعام في المطعم، ولا أفهم الأخبار في التلفزيون، ولا الطرائفَ والنكات. وأقلّ من ذلك كان فهمي للغة أبناء ويللي. في المرَّة الأولى التي ذهبنا فيها إلى السينما، وجدت نفسي جالسة في الظلام إلى جانب عشيق يرتدي قميصًا مزيَّنًا بمربَّعات وحذاء راعي بقر، ويضع على ركبتيه صفيحة من بوشار الذرة ولترًا من الصودا، بينما هناك على الشاشة معتوه يمزِّق نهدَي فتاة بخطاف لتكسير الثلج. ظننت أنَّني قد وصلت إلى أقصى حدود طاقتي على التحمُّل.

في تلك الليلة، تحدَّثت مع باولا مثلما كنت أفعل بكثرة. وبدلًا من أن تكرِّر تحذيرها السابق، ذكَّرتني بالمشاعر العميقة التي شدَّتني إلى ويللي منذ البداية، ونصحتني بعدم تبديد الطاقة في الصغائر، والتركيز في المشاكل الحقيقيَّة. والواقع أنَّه كانت هناك مسائل أشدّ خطورة من حذاء راعي بقر، أو من دلو بوشار، ابتداءً من الصراع مع الأشخاص ذوي العادات الغريبَّة الذين يحتلُّون البيت، وحتى تكيُّفي مع أسلوب ويللي وإيقاعه كونه يعيش منذ ثمانية أعوام حياة عزوبيَّة، وأنَّ آخر ما يرغب فيه هو امرأة تتحكَّم في مصيره. بدأت بشراء شراشف جديدة وإحراق شراشفه في محرقة أقمتها في الفناء، كطقس رمزيّ أردت أن أثبت به في ذهنه فكرةَ الزواج الأحاديّ. ما الذي تفعله هذه المرأة؟ تساءل جاسون وهو يكاد يختنق من رائحة الدخان، فردّ عليه هارلي: لا تقلق، لا بدَّ من أنَّها عادات السكَّان الأصليّين في بلدها. وانطلقتُ على الفور في ترتيب البيت وتنظيفه، في حماسة كبيرة، ألقيت معها في لحظة سهو كلّ أدوات العُدَّة إلى القمامة. كاد ويللي ينفجر في غضب بركانيّ، ولكنَّه تذكَّر البند الأساسيّ في علاقتنا: ليس في الأمر خبث من جانبي، وإنَّما هو مجرَّد خطأ. وحملت المكنسةُ معها كذلك زيناتِ عيد الميلاد المعتَّقة، ومجموعةَ الأشكال الزجاجيَّة، وصورَ العشيقات ذوات السيقان الطويلة، وأربعةَ صناديق من لُعَب المسدَّسات والرشَّاشات والبازوكا والمدافع الخاصَّة بهارلي، والتي استبدلتها بكتب ولُعَب تعليميَّة. ومضت الأسماك المحتضرة عبر المجاري، وأُطلِق سراح الجرذان من قفصها. كانت الحيوانات تعيش في أيّ حال، حياةً بائسة، ولم يكن لها هدف سوى قرض ذيول بعضها بعضًا.

أوضحت للطفل أنَّ القوارض التعيسة ستجد لها في الحدائق المجاورة نشاطات أكثر جدارة. ولكنّنا بعد ثلاثة أيَّام من ذلك سمعنا صوت خمش خفيف على الباب، وعندما فتحناه وجدنا أحد الجرذان مكشوف الأحشاء ينظر إلينا بعينين محمومتين متوسِّلًا الدخول بخرخرة احتضاريَّة. حمل ويللي الجرذ، ورحنا ننام معه لأسابيع في الغرفة نفسها، ونعالجه بلزقات للجروح ومضادّات حيويَّة إلى أن استردّ عافيته. وعندما رأى البلغاريّ كلّ تلك التحوُّلات، انصرف بحثًا عن مكان أكثر استقرارًا، ثم اختفى كذلك ابن ويللي الكبير مع خطيبته بعد أن سرقا سيَّارة أبيه. أمَّا جاسون، الذي كان قد أمضى السنة الأخيرة وهو يستريح نهارًا ويحتفل ليلًا، فلم يبقَ أمامه مفرٌّ من الاستيقاظ مبكّرًا والاستحمام، وترتيب غرفته والانطلاق مزمجرًا إلى مدرسته. وكان هارلي هو الوحيد الذي تقبَّل وجودي وتحمَّل الأنظمة الجديدة بمزاج طيِّب، لأنَّه أحسَّ، للمرَّة الأولى، بالأمان وبأنَّ هناك من يرافقه. وقد كان سعيدًا إلى درجة أنَّه غفر، مع مرور الوقت، الاختفاءَ الغامض لتمائمه وترسانته الحربيَّة. لم يكن قد أُوقفَ حتى ذلك الحين عندَ أيِّ نوع من الحدود، فكان يتصرَّف كمتوحِّش صغير يمكنه كسر الزجاج بقبضته في أيِّ نوبة غضب. لقد كانت الفجوة في قلبه عميقة جدًّا. وفي مقابل حنان كافٍ ومزاح لملء تلك الفجوة، أبدى استعدادًا لتقبُّل زوجة الأب الأجنبيَّة هذه التي جاءت لتقلب بيته وتنتزع منه جزءًا كبيرًا من اهتمام أبيه. إنَّ خبرة أكثر من أربع سنوات في التعامل مع أولاد صعبي المراس في مدرسة كاراكاس، قد أفادتني كثيرًا في التعامل مع هارلي الذي كانت مشاكله تفوق قدرات أكبر الخبراء،

وسعيُه إلى الإزعاج يثير حفيظة أشدّ الصابرين. ولكنّنا، لحسن الحظّ، تقاسمنا نوعًا من التعاطف الاستهزائيّ، وهو شيء يشبه المودّة إلى حدٍّ بعيد، وقد ساعدنا ذلك في تحمّل كلٌّ منّا للآخر.

«لست مضطرًّا إلى حبّك»، قال لي ذلك بتكشيرة متحدّية منذ الأسبوع الأوّل لتعارفنا، عندما أصبح واضحًا لديه أنَّه لن يستطيع التخلّص منّي بسهولة.

ـ وأنا أيضًا لست مضطرَّة إلى ذلك. ولكنّنا نستطيع أن نبذل جهدًا ليحاول كلٌّ منّا محبّة الآخر، أو كي نتعايش على الأقلّ بتهذّب. ماذا تفضّل؟

ـ فلنحاول أن نحبّ أحدنا الآخر.

ـ حسنًا، وإذا لم نستطع فسيبقى لدينا الاحترام المتبادل.

وقد وفى الصبيّ بوعده. لقد وضع أعصابي في الاختبار لسنوات بإصرار لا يقبل التراجع، ولكنَّه كان أيضًا يندسّ في فراشي لنقرأ الحكايات، وكان يهديني أفضل رسومه، بل إنَّه لم ينسَ أن يضع اتّفاق الاحترام المتبادل في اعتباره حتى في أسوأ نوبات غضبه. لقد دخل حياتي كأنَّه ابنٌ آخرُ لي، وهو ما فعله جاسون. وهما الآن رجلان صغيران، أحدهما في الجامعة والآخر يوشك أن يُنهي المدرسة بعد أن تجاوز صدمات طفولته. ومع أنَّني ما زلت أتشاجر معهما كي يُخرجا القمامة أو يرتّبا سريريهما، إلّا أنّنا أصبحنا أصدقاء جيّدين، ويمكننا أن نضحك معًا من اشتباكات الماضي الرهيبة. في بعض المناسبات، كان الخوف يهزمني قبل أن تبدأ المواجهة، وفي أحيان أخرى كنت أشعر بأنّني متعَبة جدًّا، حتى

إنَّني كنت أبحث عن مبرِّر لعدم العودة إلى البيت. وفي تلك اللحظات أتذكَّر عبارة العمّ رامون: تذكَّري أنَّ الآخرين يكونون خائفين أكثر منك، فأعود إلى الهجوم. لقد خسرت كلّ المعارك معهما، ولكنَّني كسبت الحرب بمعجزة.

لم أكن قد استقررت بعد، حين حصلت على عقد عمل في جامعة كاليفورنيا لتدريس مادَّة السرد الروائيّ لجماعة شبّان يتطلَّعون إلى أن يصبحوا كُتّابًا. كيف يمكن تعليمهم كيفيَّة رواية قصَّة؟ أعطتني باولا المفتاحَ السرِّيَّ في مكالمة هاتفيَّة: اطلبي منهم أن يكتبوا رواية سيِّئة، هذا أمر سهل. أيّ شخص يستطيع عمل ذلك. هذا ما نصحتني به ساخرة. وكان ذلك ما فعلته، فنسي كلٌّ واحد من أولئك الطلّاب طموحه في كتابة أعظم رواية أميركيَّة، وراح يكتب من دون خوف. وفي أثناء ذلك، كنَّا نصحِّح ونرتِّب ونحذف ونهذِّب. وبعد مناقشات وضحكات كثيرة تقدَّموا في مشروعاتهم، وقد نُشر أحد تلك المشاريع بعد وقت قصير وسط ضجّة وصخب، وصدر عن إحدى دُور النشر الكبرى في نيويورك. منذ ذلك الحين، كلَّما دخلت مرحلة من الشكوك، أكرِّر بيني وبين نفسي أنَّني سأبدأ بكتابة رواية سيِّئة، وهكذا أتخلَّص من الرعب. نقلت طاولة إلى غرفة ويللي، ورحت أكتب هناك إلى جوار النافذة، على ورق دفتر مسطَّر بسطور صفراء؛ مثل هذا الورق الذي أستخدمه الآن لتثبيت هذه الذكريات. وفي أوقات الفراغ التي تبقى لي بعد الدروس ووظائف الطلّاب، والذهابِ إلى الجامعة في بيركلي، والأعمالِ المنزليَّة، ومشاكلِ هارلي، ومن دون أن أشعر تقريبًا، خرجتْ في تلك السنة من الحياة

المنوتِّرة في الولايات المتَّحدة عدَّةُ قصص لها طعم الكاريبي، وقد نُشرت بعد ذلك بقليل تحت عنوان «حكايات إيڤالونا». لقد كانت تلك القصص هدايا مُرسَلة من بُعد آخر، فقد تلقَّيت كلَّ قصَّة منها وهي مكتملة تمامًا من الجملة الأولى حتى الجملة الأخيرة مثلما أتلقَّى تفَّاحة، ومثلما تلقَّيت من قبلُ قصَّةَ «كلمتان» في أثناء اختناقي في حركة المرور في كاراكاس. إنَّ الرواية مشروع طويل النَّفَس، ولا بدَّ من أن يتمتَّع الكاتب بالصبر والانضباط، بصورة خاصَّة، فكتابة الرواية أشبه بنسج سجّادة معقَّدة من خيوط متعدِّدة الألوان، بحيث يتمّ العمل بالمقلوب، بصبر، غرزةً بعد غرزة، مع الانتباه إلى التفاصيل حتى لا تبقى أيّ عقدة ظاهرة، وكلّ ذلك وفق تصميم غامض لا يمكن تقديره إلَّا في النهاية، عند وضع الخيط الأخير وقلب السجَّادة على وجهها لرؤية الرسم مكتملًا. وبقليل من الحظّ، يحجب سحر العمل بمجمله العيوبَ والنواقص. أمّا في القصَّة القصيرة، فكلّ شيء مرئيّ: يجب ألَّا يكون هناك أيُّ زيادة أو نقصان، فالمجال مضبوط تمامًا والوقت قليل، وإذا أُجريت فيها تصحيحاتٌ كثيرة تفقد تلك النفحة من الهواء البارد التي يحتاج إليها القارئ ليحلّق. إنَّ كتابة القصَّة القصيرة مثل إطلاق سهم، بحيث لا بدَّ من توفُّر غريزة رامي القوس الجيِّد، وممارسته ودقّته، والقوّةِ اللازمة للإطلاق، والعينِ القادرة على قياس المسافة، والسرعةِ في الرمي، والحظِّ الطيِّب لإصابة الهدف. الرواية تُصنَع بالعمل، والقصَّة القصيرة بالإلهام. إنَّها بالنسبة إليّ جنسٌ صعب مثل الشِّعْر، ولست أظنّ أنَّني سأعود إلى محاولة كتابتها، أللهمّ إلَّا إذا سقطت عليَّ من السماء مثلما حدث في «حكايات إيڤالونا». لقد تأكّد لي

مرَّة أخرى أنَّ الوقت الذي أُمضيه على انفراد مع الكتابة هو وقتي السحريّ، وقتُ الشعوذات، وهو الشيء الوحيد الذي ينقذني عندما يبدأ كلّ ما هو حولي بالانهيار. القصَّة الأخيرة في هذه المجموعة، «من طين خُلقنا»، تستند إلى مأساة حدثت في كولومبيا سنة ١٩٨٥، عندما أحدث انفجار بركان نيفادور دل رويث المفاجئُ انهيارَ جليد ذائب انزلق عن الجبل وغطَّى قرية بكاملها. آلاف الناس لقوا حتفهم في ذلك اليوم، ولكنّ العالم يتذكَّر الكارثة من خلال أومايرا سانتشيث، الطفلة ذات الثلاثة عشر عامًا، والتي علقت في الوحل. لقد احتضرت طوال ثلاثة أيَّام ببطء مرعب أمام المصوِّرين والصحافيين ومصوِّري التلفزيون الذين جاءوا بطائرات الهليكوبتر. لقد تألَّمتُ منذ ذلك الحين الذي رأيت فيه عينيها على شاشة التلفزيون. وما زلت أضع صورتها على مكتبي. لقد تأمَّلتها مطوَّلًا، مرَّة بعد أخرى، في محاولة لفهم معنى عذابها. بعد ثلاث سنوات من ذلك، حاولت أن أزيح عنِّي ذلك الكابوس وأنا في كاليفورنيا برواية القصَّة. أردت أن أصف عذاب تلك الطفلة المسكينة المدفونة في الحياة، ولكنَّني كلَّما تقدَّمت في الكتابة كنت أنتبه إلى أنَّ ما أكتبه ليس جوهر القصَّة. قلبت الموضوع لأرى إن كان في إمكاني روايةُ الوقائع من خلال مشاعر الرجل الذي رافق الطفلة خلال تلك الأيَّام الثلاثة، ولكنَّني عندما انتهيت من روايتها بهذه الطريقة أدركت أنَّني لم أصل إلى ما أريده. القصَّة الحقيقيَّة هي قصَّة امرأة ـ وهذه المرأة هي أنا ـ تراقب على شاشة التلفزيون الرجلَ الذي يساند الطفلة. إنَّ القصَّة عن مشاعري وعن التبدُّلات الحتميَّة التي عانيتها وأنا أشهد احتضار الطفلة. بعد نشر القصَّة في مجموعة قصصيَّة

ظننت أنّي قد قمت بواجبي تجاه أومايرا، ولكنّي سرعان ما أدركت أنَّ الأمر ليس كذلك، فهي ملاك متسلّط على عقلي، ولن تسمح لي بنسيانها. عندما سقطت باولا في حالة السبات ورأيتها أسيرة السرير، خامدة، تموت شيئًا فشيئًا أمام نظراتنا العاجزة كلّنا، ورد وجه أومايرا سانتشيث إلى ذهني. لقد أصبحت ابنتي أسيرة جسدها نفسه مثلما كانت تلك الطفلة أسيرة الطين. عندئذ فقط أدركت السببَ الذي جعلني أعيش وأنا أفكّر فيها كلّ تلك السنوات، واستطعت أخيرًا أن أحلّ رموز رسالة عينيها السوداوين: الصبر؛ الجرأة؛ الخضوع للقَدَر؛ الكبرياء أمام الموت. إذا كتبت شيئًا أخشى أن يحدث، وإذا أحببت أحدًا أخشى أن أفقده، ولكنّني لا أستطيع، مع ذلك، أن أتخلّى عن الكتابة، ولا عن الحبّ...

وبما أنَّ غضب مكنستي الجارف لم يستطع التوغّل فعلًا في فوضى ذلك البيت، فقد أقنعت ويللي بأنَّ الانتقال إلى بيت آخر أسهل من تنظيفه. وهكذا انتهى بنا المطاف إلى الاستقرار في «بيت الأرواح» هذا. في تلك السنة، تعرَّفت باولا إلى أرنستو وأقاما معًا بعض الوقت في ڤيرجينيا، بينما بقي نيكولاس بمفرده في بيت كاراكاس الكبير، وكان يتّهمنا بأنّنا قد تخلّينا عنه. لكنَّ سيليا ما لبثت أن ظهرت في حياته لتكشف له الأسرار. وفي عذوبة الحبّ المكتشَف حديثًا، انتقلت أخته وأمّه إلى مكانة ثانويّة. كنّا نتحدّث معًا عبر اتّصالات هاتفيّة ثلاثيّة معقّدة لنتبادل رواية آخر المغامرات ونعلّق بانشراح على المصادفة الرهيبة في وقوعنا نحن الثلاثة بالحبّ، في وقت واحد. كانت باولا تنتظر انتهاء دراستها لتسافر مع أرنستو إلى إسبانيا، حيث سيبدآن المرحلة الثانية من حياتهما

معًا. وقد أوضح لنا نيكولاس أنَّ خطيبته تنتمي إلى الطائفة الأكثر رجعيَّة في الكنيسة الكاثوليكيَّة، ولم تكن المسألة هي النوم تحت سقف واحد، وإنَّما الزواج، ولهذا كان يفكِّر في عمل ذلك في أسرع وقت ممكن. من الصعب فهمُ ما يجمعه بفتاة أفكارها مختلفة إلى هذا الحدِّ عن أفكاره، ولكنَّه ردّ على ذلك، برصانة بالغة، بالقول إنَّ سيليا حسِّيَّة في كلِّ شيء ما عدا الشأن الدينيّ، وإنَّه واثق بأنَّها ستتخلَّى عن تعصُّبها الدينيّ إذا نحن لم نضغط عليها. وقد أظهر مرور الوقت أنَّه كان على حقٍّ مرَّة أخرى. إنَّ إستراتيجيَّة ابني، التي لا تُقاوَم، هي البقاء بثبات على موقفه، وإفلات الأعنَّة والانتظار، متفاديًا المواجهات غير المجدية. وهو ينتصر، في المدى البعيد، بفعل التعب. وأذكر، عندما طلبت منه وهو في الرابعة من عمره أن يرتِّب سريره، أنَّه ردّ بنصف لسانه آنذاك بأنَّه مستعدّ للقيام بأيِّ عمل منزليّ آخر باستثناء هذا العمل. ولم تكن هناك جدوى من محاولة إجباره، فقد رشا باولا في أوَّل الأمر، ثم توسَّل إلى غراني بعد ذلك، فكانت تدخل خفية من النافذة لتساعده، إلى أن فاجأتها في أحد الأيَّام، ووقع بيني وبينها الشجارُ الوحيد في حياتنا. فكَّرتُ في أنَّ عناد نيكولاس لن يستمرّ إلى الأبد، ولكنَّه بلغ الثانية والعشرين من عمره وهو ملقًى على الأرض مع الكلاب مثل متسوِّل. أمّا وقد أصبحت لديه خطيبة بعد ذلك، فقد خرج الأمر من يدي. عندما بدأ حبّه لسيليا كان يدرس علوم الكمبيوتر في الجامعة، ويتدرَّب على الكونغ ـ فو للدفاع عن نفسه عند الضرورة، لأنَّ عصابات أوغاد كاراكاس كانت قد علمت بمكان بيته، وصارت تدخل لسرقته في وضح النهار، وربَّما بتواطؤ مع الشرطة. أمّا أمّي،

فكانت مطَّلعة على تفاصيل مغامرتي في الولايات المتَّحدة من خلال مراسلاتنا التي لا تتوقَّف، ولكنَّها فوجئت عندما جاءت لزيارة منزلي الجديد. ومن أجل أن أبعث في نفسها أثرًا طيِّبًا، قمت بكيِّ الشراشف بالنشاء، وأخفيت البقع التي خلَّفها الكلب في أصص النباتات، وجعلت هارلي يقسم بأنَّه سيتصرَّف أمامها مثل كائن بشريّ، وجعلت أباه يقسم كذلك بأنَّه لن ينطق أمامها بكلمات بذيئة بالإسبانيَّة. ولم يكتفِ ويللي بتهذيب مفرداته، بل تخلَّص كذلك من جزمة راعي البقر، وذهب إلى طبيب أمراض جلديَّة ليمحو له الوشم عن يديه بأشعَّة الليزر، ولكنَّه ترك الوشم الآخر الذي على ذراعه لأنَّ أحدًا سواي لا يراه. كانت أمِّي هي أوَّل من نطق بكلمة الزواج، تمامًا مثلما فعلت مع ميشيل قبل سنوات طويلة. لقد سألتْ بتلك النبرة التي أعرفها جيِّدًا: إلى متى تفكِّرين في البقاء عشيقةً له؟ إذا كنت تريدين العيش في هذه الكارثة فعليك أن تتزوَّجي على الأقلّ، فهكذا تُوقفين تمتمات الناس وتحصلين على تصريح إقامة محترم، أم أنَّك تفكِّرين في البقاء في هذا الوضع غير الشرعيّ إلى الأبد؟ أثار الاقتراح نوبة حماسة لدى هارلي الذي كان قد اعتاد وجودي، ونوبة رعب لدى ويللي الذي كان قد خلَّف وراءه حالتَي طلاق وسبحةً طويلة من الغراميّات الفاشلة. طلب منِّي أن أمنحه وقتًا ليفكِّر، وقد بدا لي طلبًا عقلانيًّا، فمنحته مهلة أربع وعشرين ساعة وإلَّا فسأرجع إلى فنزويلا. وقد تزوَّجنا.

في أثناء ذلك، كان أبواي يستعدَّان في تشيلي للتصويت في الاستفتاء الذي سيقرِّر مصير الدكتاتوريَّة. فأحد بنود الدستور الذي

أبدعه بينوشيه ليُضفي الشرعيَّة على نفسه كرئيس، كان يشترط استشارة الشعب في عام ١٩٨٨ للبتّ بأمر استمرار حكومته، وفي حال رفض الشعب تلك الحكومة، تتمّ الدعوة إلى انتخابات ديموقراطيَّة في السنة التالية. لم يكن الجنرال يتصوَّر أنَّه سيُهزم في لعبته التي ابتدعها بنفسه. والعسكريُّون المستعدُّون للبقاء إلى الأبد في السلطة، لم يُدركوا أنَّ السخط كان يتنامى في تلك السنوات بالرَّغم من التحديث والتقدُّم الاقتصاديَّين، وأنَّ الشعب قد تعلَّم دروسًا قاسية وتنظَّم. قاد بينوشيه حملة دعائيَّة واسعة، ولم تحصل المعارضة في المقابل إلَّا على خمس عشرة دقيقة من البثّ التلفزيوني يوميًّا في الساعة الحادية عشرة ليلًا، حين يكون جميع الناس نائمين. ولكن، قبل لحظات من الساعة الموعودة، كانت ملايين منبِّهات الساعات ترنّ وينفض التشيليُّون النعاس ليشاهدوا ربع الساعة الخرافيّ ذاك الذي وصل فيه الذكاء الشعبي إلى مستويات عالية من النبوغ. كانت السخرية والشباب وروح المصالحة والأمل هي السمات المميَّزة لحملة «لا». أمّا حملة «نعم»، فكانت مسخًا من الأناشيد العسكريَّة، والتهديدات، وخطب الجنرال محاطًا بالشعارات الوطنيَّة، ومقاطعَ من أفلام وثائقيَّة قديمة تُظهر الشعب وهو يقف صفوفًا أمام المحالّ التجاريَّة في زمن الوحدة الشعبيَّة. وإذا كان هنالك مَن لا يزال يراوده التردُّد، فإنَّ شرارة «لا» هزمت جعجعة «نعم» الحمقاء الثقيلة، وخسر بينوشيه الاستفتاء. في تلك السنة بالذات، هبطتُ مع ويللي في سنتياغو بعد ثلاثة عشر عامًا من الغياب، وكان ذلك في يوم ربيعيّ مجيد. وفور وصولي، أحاطت بي كوكبة من رجال الدرك، فتوصَّلت إلى الإحساس مجدَّدًا بلسعة

الرعب، ولكنَّني سرعان ما فهمت، وأنا مذهولة، أنَّهم لم يأتوا لاقتيادي إلى السجن، وإنَّما لحمايتي من مضايقة حشد صغير من أشخاص كانوا يحاولون مصافحتي وهم ينادونني باسمي. ظننت أنَّهم يحسبونني ابنة عمِّي إيزابيل، ابنة سلفادور ألليندي، ولكن عددًا من الأشخاص تقدَّموا منِّي وهم يحملون كتبي ويريدون أن أوقِّع عليها. كانت روايتي الأولى قد تحدَّت الرقابة وراحت تنتقل من يد إلى يد بنُسَخ مصوَّرة بالفوتوكوبي إلى أن تمكَّنتْ من الدخول عبر أوسع الأبواب إلى المكتبات، مجتذبة بذلك قراء كرماء ربَّما قرأوها بروح الإحساس بالمعارضة فحسب. وقد علمت، فيما بعد، بأنَّ صديقًا صحافيًّا كان قد أعلن عن وصولي عبر الإذاعة، وتحوَّلت الزيارة المتكتِّمة التي خطَّطت لها إلى خبر معلَن. وكي يمزح معي، أعلن أيضًا أنَّني تزوَّجت مليونيرًا من تكساس يملك آبار نفط، وهكذا حصلت على شهرة من المستحيل إحرازها من خلال الأدب.
لا أستطيع أن أصف التأثير الذي أحسست به وأنا أجتاز قمم سلسلة جبال الأنديز المَهيبة وأطأ أرض بلدي من جديد، وأتنفَّس هواء الوادي، وأسمع لهجتنا، وأتلقَّى في مكتب الهجرة تلك التحيَّةَ ذات النبرة الوقورة، والتي تشبه التحذير، وهي سمة تقليديَّة لدى موظَّفينا العامِّين. أحسست بركبتي تخوران فأسندني ويللي بينما نحن نجتاز نطاق الرقابة، ثم رأيت أبوَيَّ والجدَّة هيلدا يمدُّون إليّ أذرعهم. إنَّ هذه العودة إلى وطني هي بالنسبة إليَّ تشبيه مجازيّ كامل لوجودي، فقد خرجت هاربة وخائفة ووحيدة في غروب شتائيّ غائم، ورجعت ظافرة وأنا أمسك بيد زوجي في صباح صيفيّ رائع. إنَّ حياتي مكوَّنة من متناقضات، وقد تعلَّمت أن أرى وجهَيِ العملة. ففي لحظات

أكبر النجاحات، يبقى ماثلًا في ذهني أنَّ لحظات ألم كبيرة أخرى تنتظرني في الطريق. وعندما أكون غارقة في المصيبة، أنتظرُ الشمس التي ستشرق بعد قليل. قوبلت في زيارتي الأولى بحرارة، ولكن بشيء من الخوف في الوقت ذاته، لأنَّ الدكتاتوريَّة كانت لا تزال تُحكم قبضتها. ذهبت إلى إيسلانيغرا لزيارة بيت بابلو نيرودا المهجور منذ سنوات طويلة، حيث ما زال شبح الشاعر العجوز يجلس قبالة البحر ليكتب أشعارًا خالدة، وحيث الريح تقرع الناقوس البحريّ الضخم لتدعو النوارس. على سياج الألواح الخشبيَّة المحيط بالعقار، رأيت آلاف الرسائل، وعددٌ كبير منها مكتوب بقلم الرصاص فوق ظلال باهتة لرسائل أخرى ممحوَّة بفعل نزوات المناخ، وكتابات أخرى محفورة بالسكاكين على الخشب المنخور بملح البحر. إنَّها ملاحظات أمل موجَّهة إلى الشاعر العرّاف الذي ما زال حيًّا في قلوب أبناء شعبه. التقيت صديقاتي، ورأيت فرنثيسكو الذي كان قد تبدَّل قليلًا خلال تلك السنوات الثلاث عشرة. ذهبنا معًا إلى رابية سان كريستوبال لنرى العالم من علٍ، ونتذكَّر الوقت الذي كنَّا نلجأ فيه إلى ذلك المكان هربًا من قسوة الحياة اليوميَّة، ونتقاسم حبًّا بلغ من العفاف حدًّا لم نجرؤ معه على إعلانه ولو بكلمات. وزرت ميشيل الذي تزوَّج وأصبح جدًّا لأُسرة أخرى، وقد استقرَّ في البيت الذي شيَّده أبواه، حيث يعيش الحياة التي خطَّط لها في شبابه بالضبط، وكأنَّ الخسائر والخيانات والمنفى والنكبات الأخرى لم تكن سوى مجرَّد عارض طفيف في نظام مصيره المحكم. استقبلني بلطف، ونمشَّينا معًا في شوارع حيِّنا القديم، وقرعنا جرس البيت الذي ترعرعت فيه باولا ونيكولاس؛ إنَّه بيت

تافه بباروكة القشّ التي فوقه وشجرة الخوخ المجاورة للنافذة. فتحت لنا الباب سيِّدة باسمة أصغت إلى دوافعنا العاطفيَّة بأريحيَّة، وسمحت لنا بدخول البيت والتجوُّل فيه كلِّه. كانت على الأرض دُمًى لأطفال آخرين، وعلى الجدران صورٌ لوجوه أخرى، ولكنّ ذكرياتنا كانت لا تزال موجودة في الجوّ. ودَّعت ميشيل في الشارع، وما كاد يغيب عن بصري حتى انفجرت بالبكاء من دون عزاء. كنت أبكي أزمنة شبابنا الأوَّل المضبوطة تلك، حين كان كلٌّ منَّا يحبّ الآخر بإخلاص، وكنَّا نظنّ أنَّ ذلك الحبّ سيدوم إلى الأبد، حين كان ابنانا صغيرين وكنَّا نظنّ أنَّنا قادران على حمايتهما من كلّ سوء. ماذا جرى لنا؟ ربَّما نحن في هذه الدنيا للبحث عن الحبّ والعثور عليه، ثم فقدانه مرَّة بعد أخرى. ومع كلّ حبٍّ نولد من جديد، ومع كلّ حبٍّ ينتهي ينفتح فينا جرح، وأنا ممتلئة بآثار جروح متكبِّرة.

بعد سنة من ذلك رجعت لأصوِّت في أوَّل انتخابات منذ الانقلاب العسكريّ. فبعد أن خسر بينوشيه الاستفتاء ووقع في حبائل دستوره بالذات، صار يتوجَّب عليه أن يدعو إلى انتخابات عامَّة. لقد تقدَّم بعجرفة المنتصر، من دون أن يتصوَّر مطلقًا أنَّه يمكن للمعارضة أن نهزمه، لأنَّه كان يستند إلى وحدة القوّات المسلَّحة في كتلة واحدة، وإلى دعم القطاعات الاقتصاديَّة الجبّارة، وإلى حملة دعائيَّة مليونيريَّة، وإلى الخوف من الحرِّيَّة الذي كان يشعر به الكثيرون. وكان هناك لمصلحته أيضًا طريقُ الشقاق العميق الذي كان قائمًا بين الأحزاب السياسيَّة، وماضٍ من الأحقاد الكثيرة والحسابات التي تحتاج إلى التصفية، بحيث بدا من المستحيل

التوصُّلُ إلى اتّفاق بين الأحزاب. ولكنّ رفض الشعب للدكتاتوريَّة، مع ذلك، كان أقوى من الخلافات الأيديولوجيَّة، فتشكَّل ائتلاف من الأحزاب المعارِضة للحكومة، وتمكَّن مرشّحها من الفوز في الانتخابات عام ١٩٨٩ ليكون أوَّل رئيس شرعيّ بعد سلفادور ألليندي. وكان على بينوشيه أن يسلِّم وشاح الرئاسة وكرسيَّها ويتراجع إلى الخلف، ولكنَّه لم ينسحب تمامًا، فما زال سيفه مُصْلتًا على رقاب التشيليّين. لقد استيقظ البلد من سبات استمرَّ ستَّة عشر عامًا وخطا خطواته الأولى في ديموقراطيَّة انتقاليَّة، بحيث ما زال الجنرال بينوشيه قائدًا عامًّا للقوَّات المسلَّحة لمدَّة ثمانية أعوام أخرى، وقد تولَّى هو نفسه تعيين جزء من أعضاء الكونغرس وجميع أعضاء المحكمة العليا. كما أنَّ البنى العسكريَّة والاقتصاديَّة ما زالت على حالها. لن تنظر العدالة في الجرائم المقترفة، فهناك قانون عفو يحمي من اقترفوها، وقد سنُّوا هم أنفسُهم ذلك القانونَ لمصلحتهم. لقد هدَّد بينوشيه نفسه: لن أسمح لأحد بمسّ شعرة واحدة من جنودي، وامتثل البلد لذلك كلّه بصمت خوفًا من وقوع انقلاب آخر. أمَّا ضحايا القمع، آل ماوريرا وآلافٌ غيرهم. فقد كان عليهم أن يمدِّدوا حِدادهم ويواصلوا الانتظار. ربَّما كان إحقاق العدالة والحقيقة سيساعد على التئام جروح تشيلي العميقة، لكنّ عجرفة العسكريّين حالت دون ذلك. وما على الديموقراطيَّة إلَّا أن تواصل تقدُّمها بخطوات بطيئة وملتوية كخطوات السرطان البحريّ.

جاءتني باولا مرَّة أخرى في الليل، أحسست بها تدخل غرفتي بخطواتها الخفيفة وظرافتها المؤثّرة، مثلما كانت قبل إهانات

المرض، وكانت بقميص النوم والخفّ. صعدت إلى سريري وجلست عند قدمَيّ وكلَّمتني باللهجة التي نتبادل فيها النجوى: اسمعي يا ماما، استيقظي، لا أريدك أن تظنّي أنَّك تحلمين. جئت أطلب منك المساعدة... أريد أن أموت ولا أستطيع. إنَّني أرى أمامي طريقًا مشعًّا، ولكنَّني لا أستطيع أن أخطو الخطوة الحاسمة. إنَّني مقيَّدة. في سريري، لا يوجد إلَّا جسدي المتألِّمُ الذي يتحلَّل يومًا بعد يوم. إنَّني أجفُّ من العطش وأهتف طالبةً السلامَ، ولكنّ أحدًا لا يسمعني. إنَّني متعَبة جدًّا. لماذا كلّ هذا؟ أنت يا من تعيشين وتتحدَّثين إلى الأرواح الصديقة، اسألي هذه الأرواح عن مهمَّتي التي يجب عليّ إنجازها. أعتقد أنَّه ليس هناك ما يخيف، فالموت هو مجرَّد عتبة، مثل الولادة؛ يؤسفني أنَّني لن أستطيع الاحتفاظ بذاكرتي، ولكنَّني في أيِّ حال، بدأت التخلُّصَ منها منذ فترة. وعندما أغادر، سأكون عارية منها تمامًا. الذكرى الوحيدة التي سأحملها معي هي الحبّ الذي أخلّفه ورائي، وسأبقى متّحدة بك بطريقة ما. هل تذكرين آخر شيء استطعت أن أتمتم به قبل أن أسقط في هذا الليل الطويل؟ أحبّك يا ماما. كان هذا ما قلتُه لك، وأكرِّره الآن، وسأبقى أقوله لك في أحلامك كلَّ ليلة من ليالي حياتك. الشيء الوحيد الذي يكبحني قليلًا هو أنَّني سأذهب وحدي. سيكون العبور إلى الجانب الآخر معك وأنا أمسك بيدك أسهلَ، فوحدة الموت اللانهائيَّة تختفي. ساعديني مرَّة أخرى، يا أمَّاه. لقد ناضلتِ مثل لبؤة لإنقاذي، ولكنّ الواقع بدأ يهزمك، كلّ شيء بلا جدوى، استسلمي، دعك من الأطبَّاء والمشعوذين والصلوات، لأنَّ شيئًا من هذا كلّه لن يُعيد إليّ صحَّتي. لن تحدث

أيُّ معجزة، لا أحد يمكنه تغيير مسار قدري ولست راغبة في ذلك أيضًا. فقد أكملت زمني، وحان وقت الوداع. الجميع في الأُسرة يفهمون هذا باستثنائك أنت، إنَّهم ينتظرون الساعات لرؤيتي طليقة، وأنت وحدك التي ما زلت لا تتقبَّلين فكرة أنَّني لن أعود مثلما كنت من قبل. انظري إلى جسدي المعطَّل. فكِّري في روحي المتعطِّشة إلى الهرب، وفي العُقَد الفظيعة التي تقيِّدني. آه، يا عجوزي، هذا شاقٌّ جدًّا بالنسبة إليَّ، وأعرف أنَّه شاقٌّ بالنسبة إليك أيضًا. ما الذي نستطيع عمله؟ أجدادي في تشيلي يصلُّون من أجلي، وأبي يتشبَّث بالذكرى الشاعريَّة لابنة طيفيَّة، بينما أرنستو في الجانب الآخر من هذا البلد يطفو في بحر من الغموض من دون أن يفهم حتى الآن أنَّه قد فقدني إلى الأبد. إنَّه أرمل في الحقيقة، ولكنَّه لا يستطيع أن يبكيني أو أن يحبّ امرأة أخرى ما دام جسدي يتنفَّس في بيتك. الوقت القصير الذي أمضيناه معًا كنَّا فيه سعيدين جدًّا، وقد تركت له ذكريات طيِّبة كثيرة لن تكفي السنوات لاستنفادها. قولي له إنَّني لن أتخلَّى عنه، لن يكون وحده مطلقًا، سأكون ملاكه الحامي، مثلما سأكون بالنسبة إليك أيضًا. لقد كانت السنوات الثماني والعشرون التي أمضيتها معك سعيدةً جدًّا أيضًا. لا تعذِّبي نفسك في التفكير فيما كان يمكن أن يكون، ولم يكن، أو فيما كان يجب أن تفعليه بطريقة أخرى، أو في الهفوات والأخطاء... انزعي هذا كلَّه من رأسك! بعد موتي، سنبقى على اتِّصال، مثلما أنت على اتِّصال مع أجدادك ومع غراني. ستحملينني في داخلك كحضور دائم، أهرع إليك عندما تستدعينني، وسيكون الاتِّصال أسهل عندما يختفي من أمامك بؤسُ جسدي المريض، ويمكنك أن تريني من جديد في

الهيئة التي كنت عليها في أفضل اللحظات. أتذكرين عندما رقصنا معًا رقصة باسودوبلي في شوارع طليطلة ونحن نقفز فوق برك الماء ضاحكتين تحت المطر ومحتميتين بمظلّة سوداء؟ أتذكرين وجوه السيّاح اليابانيين المذعورة وهم يلتقطون لنا الصور يومذاك؟ هكذا أريدك أن تريني من الآن فصاعدًا، كصديقتين حميمتين؛ امرأتين سعيدتين تتحدّيان المطر. أجل... لقد عشت حياة طيّبة... كم هو صعب الانفصال عن العالم! ولكنّني لا أستطيع تحمُّل وجودٍ بائس في الحياة لمدَّة سبع سنوات أخرى مثلما يظنّ الدكتور شيما. شقيقي يعرف ذلك، وهو وحده الذي يملك الجرأة الكافية لتحريري، ولو كنتُ مكانه لفعلت الشيء نفسه من أجله. لم ينسَ نيكولاس تواطؤنا القديم، فأفكاره شفّافة وقلبه هادئ. أتذكرين عندما كان يحميني من تنّين النافذة؟ لا يمكنك أن تتصوّري كم من الأخطاء كنّا نتستّر عليها، ولا كم كنّا نخدعك ليحمي كلّ منّا الآخر، ولا عدد المرّات التي كنت تعاقبين فيها أحدنا على ذنب اقترفه الآخر من دون أن نتبادل التهم فيما بيننا. لست أطلب منك أن تساعديني على الموت، فلا أحد يمكنه أن يطلب منك ذلك، ولكن لا تكبّليني لمزيد من الوقت. أعطي فرصة لنيكولاس. كيف يمكنه أن يساعدني إذا كنت لا تتركينني وحدي أبدًا؟ أرجوك ألّا تحزني يا أمّاه...

استيقظي، إنَّك تبكين وأنت نائمة! أسمع صوت ويللي يأتيني من بعيد جدًّا فأغرق أكثر في الظلام من دون أن أفتح عيني حتى لا تختفي باولا، فربّما تكون هذه هي زيارتها الأخيرة، وربّما لا أعود إلى سماع صوتها إلى الأبد. استيقظي، إنّه كابوس... يهزّني زوجي وهو يقول ذلك، فأصرخ: انتظريني، أريد الذهاب معك!

وعندئذ يشعل النور ويحاول احتضاني بين ذراعيه، ولكنّني أُبعده بفظاظة لأنَّ باولا تبتسم لي عند الباب وتلوّح بيدها مودِّعة قبل أن تبتعد في الممرِّ بقميص نومها الأبيض الذي يطفو مثل جناحين وقدميها الحافيتين اللتين لا تكادان تلسمان السجّاد. ويبقى إلى جوار سريري خفُّها المصنوع من فرو الأرنب.

جاء خوان الذي حضر للمشاركة في ندوة لاهوتيَّة. وكان يمضي قلقًا جدًّا وهو يحلِّل موجبات الربّ، ولكنَّه رتَّب أموره لقضاء ساعات طويلة معي ومع باولا. فمنذ تخلِّيه عن قناعاته الماركسيَّة وتحوُّله إلى الدراسة اللاهوتيَّة، حدث تغيير لا أستطيع تحديده في مظهره، فقد أصبح رأسه منحنيًا قليلًا، وحركاتُه أكثر بطئًا، ونظراتُه أشدّ شفقة، ومفرداتُه أكثر حذرًا، فلم يعد يُنهي كلّ جملة بكلمة بذيئة مثلما كان يفعل من قبل. إنَّني أفكِّر في أن أخلع عنه خلال هذه الأيَّام مسحة الوقار التي تلفُّه، لأنَّ أكبر الدواهي ستكون في أن يقتل الدين مزاجه الساخر. إنَّ أخي يصف نفسه في وثيقته ككاهن بأنَّه «وكيل الآلام»، وهو يمضي الساعات في محاولة تقديم العون إلى فاقدي الرجاء، موزِّعًا موارده الضئيلة على المحتضرين ومدمني المخدّرات والعاهرات والأطفال المهجورين وغيرهم من تعساء بلاط المعجزات الفسيح الذي تشكِّله الإنسانيَّة، وقلبه لا يكفي لاتِّساع كلّ تلك الآلام. وبما أنَّه يعيش في أشدّ مناطق الولايات المتَّحدة محافظة، فقد بدت له كاليفورنيا أرض مخبولين. لقد اتَّفق له أن شاهد مسيرة للمثليّين، وكرنفالًا هائلًا للخَمر، وشهد في بيركلي مظاهرات مؤيِّدة وأخرى معارضة للإجهاض، ومشادّات سياسيَّة في

المدينة الجامعيَّة، ومؤتمرًا للواعظين الجوّالين في الشوارع وهم يعلنون بصخب عن مذاهبهم بين المتسوّلين والهيبيّين المسنّين، آخر بقايا سنوات الستّينيّات، والذين ما زالوا يتزيّنون بعقود من الخَرَز وبأزهار مرسومة على خدودهم. وقد ذُعر خوان حين رأى في الندوة أنَّهم يقدِّمون محاضرات عن لاهوت الهولا ـ هوب، وكيف يمكن كسب لقمة العيش من الاستهزاء بالكتاب المقدَّس. كلَّما حضر هذا الأخ الحبيب جدًّا لزيارتي، نتأسَّف معًا على المصير الذي وصلت إليه باولا، وننزوي في أقصى ركن في البيت حتى لا يرانا أحد، ولكنَّنا نضحك كذلك مثلما كنَّا نضحك في شبابنا، حين كنَّا نكتشف الدنيا من حولنا ونعتقد أنَّنا لا نُقهَر. إنَّني أستطيع أن أتحدّث معه في أعمق الأسرار، وأتلقَّى نصائحه بينما أنا أقلِّب القدور في المطبخ لأقدِّم إليه وجبات من الأطعمة النباتيَّة، ولكنَّه جهد بلا طائل، فهو يكاد لا يأكل إلَّا بعض الفُتات. إنَّه يتغذَّى بالأفكار والكتب. وهو يمضي أوقاتًا طويلة على انفراد مع باولا، أظنُّه يصلِّي إلى جوارها. لم يعد يراهن على شفائها، ويقول إنَّ لروحها حضورًا قويًّا في البيت، وإنَّها تفتح لنا دروبًا روحيَّة وتكنس الصغائر من حياتنا، مخلِّفةً ما هو جوهريّ فقط. إنَّها في كرسيّها ذي العجلات، بعينيها الخاويتين، وجمودها وشحوبها، مثلُ ملاك يفتح لنا الأبواب الإلٰهيَّة لنطلّ على اتّساعها غير المحدود.

ـ إنّ باولا تودِّع الدنيا، إنَّها مستنفَدة يا خوان.

ـ وماذا تفكِّرين في أن تفعلي؟

ـ أن أساعدها على الموت، ليتني أعرف كيف أفعل ذلك.

ـ إيَّاك أن تفعلي! ستحملين عبئًا من الخطيئة طوال ما تبقَّى من حياتك.

ـ ولكنَّني أشعر بأنَّني مذنبة أكثر حين أتركها في هذا العذاب... ما الذي سيحدث لها إذا متُّ أنا قبلها؟

ـ لم تصل هذه اللحظة بعد، ولن تكسبي شيئًا بتقريبها. فللحياة والموت عتبتاهما. والربّ لا يبعث إلينا عذابًا من دون أن يبعث القدرة على تحمُّله.

ـ إنَّك توجِّه إليَّ المواعظ ككاهن يا خوان...

ـ باولا ليست ملكك. ليس عليك أن تطيلي حياتها بصورة اصطناعيَّة، ولكنَّك لا تملكين الحقّ كذلك في تقصيرها.

ـ وما هو الحدُّ الاصطناعي؟ أرأيت المستشفى الذي أقمته في الغرفة السفليَّة؟ إنَّني أرصد كلّ وظيفة في جسدها، أقيس بالقطّارة حتى مقدار الماء الذي تتناوله، هناك عشرات القناني والحقن فوق الطاولة. إذا توقَّفت عن تغذيتها عبر الأنبوب الذي يصل إلى معدتها، فستموت جوعًا خلال أسبوع، فهي عاجزة حتى عن الابتلاع وحدها.

ـ وهل تجدين في نفسك القدرة على حرمانها الطعامَ.

ـ لا، أبدًا، ولكنَّني لو كنت أعرف كيف أعجِّل موتها من دون ألم، فأظنّ أنَّني سأفعل. وإذا لم أفعل أنا ذلك، فسيفعله نيكولاس عاجلًا أو آجلًا، وليس من العدل أن يتحمَّل هو المسؤوليَّة. لديَّ حفنة من الحبوب المنوِّمة أحتفظ بها منذ شهور، ولكنَّني لا أعرف

إذا كان ذلك كافيًا.

ـ إيه، إيه، يا أختاه... كيف تتعذّبين كلَّ هذا العذاب؟

ـ لست أدري. لو أنّني أستطيع منحها حياتي والموت بدلًا منها! إنّني ضائعة، لا أعرف من أكون، أحاول أن أتذكّر من كنت من قبل، ولكنّني لا أجد سوى أقنعة ووجوه مستعارة، وصور مختلطة لامرأة لا أعرفها. هل أنا المناضلة النسائيّة التي كنت أودّ أن أكونها، أم أنا تلك الشابّة المتحمّسة التي ظهرت في التلفزيون وعلى مؤخّرتها ريش نعام؟ هل أنا الأمّ المهووسة، أم الزوجة الخائنة، أم المغامرة، أم تلك المرأة الجبانة؟ هل أنا من كانت تبحث عن ملجأ للمطارَدين السياسيّين، أم من هربت لأنّها لم تستطع تحمُّل الخوف؟ تناقضات كبيرة...

ـ أنت هذا كلّه، وأنت أيضًا الساموراي الذي يناضل الآن ضدَّ الموت.

ـ كنت أناضل يا خوان. أمّا الآن، فأنا مهزومة.

إنّها أزمنة شديدة القسوة. لقد مرّت أسابيع مترَعة بالهموم حتى إنّني لم أعد أرغب في رؤية أحد. إنّني لا أكاد أتكلّم ولا آكل ولا أنام، بل أكتب فقط طوال ساعات لا حصر لها. ما زلت أفقد من وزني. لقد كنت مشغولة حتى الآن بالنضال ضدَّ المرض إلى درجة أنّني خدعت نفسي وتصوّرت أنّني قادرة على كسب معركة الجبابرة هذه، ولكنّني أعرف الآن أنَّ باولا ستمضي، وأنَّ جهودي كلّها عبثيّة، فهي مستنفَدة، وهذا ما تكرّره لي في الأحلام ليلًا، وكذلك

حين أذهب لأتمشّى في الغابة ويحمل النسيم إليّ كلماتها. كلّ شيء يبدو في الظاهر على ما هو عليه تقريبًا، باستثناء هذه الرسائل المستعجلة، فصوتها يصبح في كلّ مرّة أشدّ ضعفًا وهو يطلب المساعدة. ولست الوحيدة التي تسمعه، فالنساء اللواتي يرعينها بدأن بتوديعها. فتاة المسّاج قرّرت أنّه لم يعد هناك جدوى من مواصلة الجلسات لأنّ الصغيرة لا تستجيب في أيّ حال، بحسب قولها. والمعالج الفيزيائيّ اتّصل هاتفيًا وتكلّم متلعثمًا باعتذارات متشابكة إلى أن انتهى إلى الاعتراف بأنّ هذا المرض الذي لا علاج له يؤثّر في نشاطه. جاءت طبيبة أسنان، وهي شابّة في مثل عمر باولا، ولها مثل شعرها الطويل وحاجبيها الثخينين، إنّهما متشابهتان في الحقيقة حتى يمكن الظنّ أنّهما أختان. إنّها تنظّف لها أسنانها كلّ خمسة عشر يومًا بعناية كبيرة حتى لا تسبّب لها أيّ ألم، ثم تنصرف بعد ذلك مسرعة من دون أن تُريني وجهها، محاولةً إخفاءَ تأثُّرها. إنّها ترفض تقاضي أجرها، ولم أجد طريقة حتى الآن لجعلها تقدّم إليّ فاتورة حسابها. إنّنا نعمل معًا، لأنّ باولا تتيبّس عندما يحاول أحد لمس وجهها. أنا وحدي من أستطيع فتح فمها وتنظيفه بالفرشاة. وقد لاحظتُ هذه المرّةَ أنّ طبيبة الأسنان قَلِقة، فعلى الرّغم من الجهد الذي أبذله في التنظيف يوميًا، فإنّ هناك مشاكل ظهرت في اللثة. والدكتور شيما يتردّد علينا بكثرة وهو عائد من عمله، ويحمل لي ملاحظات من عيدان الآي تشينغ. نجلس معًا إلى جانب السرير ونتحدّث عن الروح وعن تقبّل الموت. ويقول: عندما تغادرنا، سأشعر بفراغ كبير، لقد اعتدت باولا، وقد أصبحت مهمّة جدًّا في حياتي. والدكتورة فورستر تبدو قلقة كذلك، فبعد الفحص

الأخير بقيت صامتة طويلًا وهي تفكِّر في تشخيصها، ثم قالت أخيرًا إنَّه من وجهة النظر السريريَّة ليس هناك إلّا تبدُّل طفيف، ولكن باولا تبدو مع ذلك أكثر غيابًا في كلِّ مرَّة. إنَّها تنام أكثر من اللازم، وقد أصبحت نظرتها زجاجيَّة، ولم تعد تفزع من الضجّة، ووظائفها الدماغيَّة تقلَّصت. وبالرَّغم من ذلك كلّه فإنَّها أصبحت أكثر جمالًا؛ فيداها أشدّ نعومة، وعنقها أكثر طولًا، وخدَّاها شاحبان تبرز منهما رموشها السوداء الطويلة بصورة دراماتيكيَّة، ولوجهها ملامحُ ملائكيَّة كأنَّها قد كفَّرت عن شكوكها أخيرًا ووجدت الينبوع الإلهي الذي لطالما بحثت عنه. كم هي مختلفة عنِّي! لست أجد شيئًا منِّي فيها. وليس هناك أيّ شيء من أمِّي أو من جدَّتي فيها، اللهمَّ سوى عينيها الكبيرتين السوداوين والكئيبتين قليلًا. مَن تكون ابنتي هذه؟ أيّ نوع من الكروموسومات أبحرت من جيل إلى آخر في أشدِّ مجاهل الدم والأمل خفيةً لتشكِّل هذه المرأة؟

نيكولاس وسيليا يرافقاننا، ونحن نمضي معًا معظم النهار في حجرة باولا المغلَقة الآن. في الصيف، نحمِّم الطفلين على الشرفة في حوض بلاستيكيّ كبير يطفو على سطحه بعوضٌ ميِّت وفتات من البسكويت المبلَّل، بينما تستريح المريضة تحت مظلَّة. أمّا الآن، وقد انقضى الخريف وبدأ الشتاء، فقد انكمش البيت وأصبحنا نجلس في غرفتها. إنَّ سيليا حليفة غير مشروطة العطاء. إنَّها كريمة وصلبة، وهي تخدمني كسكرتيرة منذ بضعة شهور؛ إنَّني أفتقد الحماسة لإنجاز عملي، ومن دونها سأموت مسحوقة تحت ركام من الأوراق. إنَّها تحمل الطفلين دائمًا بين ذراعيها أو على ركبيها، وتبقى بلوزتها مفتوحة الأزرار على الدوام، جاهزة لإرضاع أندريا.

وحفيدتي الصغيرة هذه سعيدة دومًا، تلعب وحدها وتنام ملقاةً على الأرض وهي تمصُّ طرف قماطها. إنَّها هادئة إلى درجة أنَّنا ننسى أين وضعناها ويمكن لنا أن ندوس عليها في لحظة سهو. عندما أعتاد الحزن سأبدأ مهمّاتي كجدَّة؛ سأبتدع قصصًا للأطفال، وسأُحضر البسكويت، وسأصنع الدمى والملابس التنكُّريَّة لأملأ صندوق المسرح. إنَّني في حاجة إلى غراني. لو إنَّها ما زالت على قيد الحياة لكان عمرها الآن نحو ثمانين سنة، ولكانت عجوزًا خَرِفة لها أربع شعرات على جمجمتها، ونصف مخبولة، ولكنَّها كانت ستحافظ على موهبتها كاملة في تربية أحفادها.

لقد انقضت هذه السنة ببطء شديد، ولكنَّني لا أعرف أين أفلتت منِّي الساعات والأيَّام. إنَّني في حاجة إلى الوقت؛ وقت لإزاحة البلبلة، ولشفاء الجروح والتجدُّد. كيف سأصبح عندما أبلغ الستِّين؟ المرأة التي أصبحتها الآن ليس فيها خليَّة واحدة من الطفلة التي كنتها، اللهمَّ إلَّا الذاكرة التي تبقى وتُحفَظ. كم من الوقت سأحتاج إليه لاجتياز هذا النفق المظلم؟ وكم من الوقت أحتاج إليه للنهوض واقفةً من جديد؟

إنَّني أحتفظ بالرسالة التي تركتها باولا مختومة في علبة الصفيح نفسها التي أخبِّئ فيها مخلَّفات جدَّتي ميمي. كثيرًا ما أخرجتها بوقار، مثل شيء مقدَّس، متصوِّرةً أنَّها تتضمَّن التفسير الذي أتلهَّف إليه، ومتشوِّقة إلى قراءتها، ولكن خوفًا خرافيًّا كان يشلّني. إنَّني أتساءل عمَّا يدفع امرأة شابَّة وسليمة وعاشقة إلى أن تكتب وهي في

أوج شهر العسل رسالة تُفتَح بعد موتها، ما الذي رأته في كوابيسها؟ ما الأسرار التي تخفيها حياة ابنتي؟ وبينما أنا أرتِّب الصور القديمة، أجدها بإشراقها وحيويَّتها وهي تعانق على الدوام زوجها أو أخاها أو أصدقاءها؛ إنَّها كذلك في كلِّ الصور، باستثناء صور زفافها، بحيث تظهر في بنطال جينز وبلوزة بسيطة، وبشعرها المربوط بمنديل ومن دون أيّ زينة. هكذا عليّ أن أتذكَّرها، ولكنَّ هذه الصبيَّة الحالمة استُبدلت مع ذلك بصورة كئيبة غارقة في العزلة والصمت.
«فلنفتح الرسالة»؛ استعجلتني سيليا للمرَّة الألف. لم أعد أستطيع في الأيَّام الأخيرة التواصل مع باولا، فهي لم تعد تزورني. ما إن كنتُ أدخل حجرتها في السابق حتى أدرك عطشها، أو تشنُّجها، أو اضطراب نبضها وحرارتها، ولكنَّني لم أعد قادرة على الإحساس المسبق بحاجاتها. «لا بأس، فلنفتح الرسالة» وافقتُ أخيرًا. بحثت عن العلبة، ومزَّقتُ المغلَّف وأنا أرتعش، ثم أخرجت صفحتين مكتوبتين بخطِّها الدقيق وقرأتُ بصوت عالٍ. كانت كلماتها الواضحة تأتينا من زمن آخر:

لا أريد أن أبقى مقيَّدة بجسدي. بتحريري منه سأتمكَّن من مرافقة مَن أحبّهم عن قرب، حتى لو كانوا في أربعة أطراف الأرض. من الصعب وصف الحبّ الذي خلَّفته، وعمق المشاعر التي تربطني بأرنستو؛ بأبويَّ؛ بأخي؛ بأجدادي. أعرف أنَّكم ستتذكَّرونني وأنَّني سأكون في أثناء ذلك معكم. أريد أن يُحرَق جسدي وأن يُنثر رمادي في الطبيعة. لست أرغب في لوحة حجريَّة تحمل اسمي في أيّ مكان، أفضِّل أن أبقى في قلوب ذويَّ وأن أعود إلى التراب. لديّ حساب في صندوق التوفير، استخدموه في

مُنَحٍ تعليميَّة لأطفال يحتاجون إلى التعلُّم أو الطعام. وزِّعوا أشيائي الشخصيَّة على من يرغبون في الاحتفاظ بتذكار منّي. ليس هناك الكثير في الحقيقة. أرجوكم ألَّا تحزنوا، سأبقى معكم، ولكنَّني سأكون أقرب إليكم ممَّا كنته من قبل. وبعد زمن سنجتمع معًا بأرواحنا، أمّا الآن فسنبقى معًا ما دمتم تذكَّرتموني. أرنستو.. لقد أحببتكَ بعمق وما زلت أحبّكَ؛ إنَّك رجل استثنائيّ، ولست أشكّ كذلك في أنَّك قادر على أن تكون سعيدًا عندما أمضي. ماما، بابا، نيكو، أجدادي: أنتم أفضل من كان يمكن لي أن أختارهم كأُسرة. لا تنسوني و... فلتبتسمْ هذه الوجوه! تذكَّروا أنَّنا نحن الأرواح نساعد، ونرافق ونحمي من هم سعداء أكثر من سواهم. أحبِّكم كثيرًا. باولا.

لقد عاد الشتاء. المطر لا يتوقَّف عن الهطول، والطقس بارد، وأنت تنحدرين يومًا في إثر يوم. اعذريني لأنِّي جعلتك تنتظرين طويلًا يا ابنتي... لقد تأخَّرت، ولكن لم تعد لديّ شكوك، فرسالتك موحية جدًّا. اعتمدي عليّ. أعدك بأنِّي سأساعدك؛ امنحيني فقط بعض الوقت. إنَّني أجلس إلى جانبك في سكون غرفتك في هذا الشتاء الذي سيكون أبديًّا بالنسبة إليّ. أنا وأنت وحدنا، مثلما كنَّا مرّات كثيرة في هذه الشهور، وأمنح نفسي للألم من دون أيّ مقاومة. أضع رأسي في حضنك وأشعر بنبضات قلبك غير المنتظمة؛ بدفء بشرتك؛ بإيقاع الهواء البطيء في صدرك، فأغمض عينَيّ وأتصوَّر لبرهة أنَّك نائمة فقط. ولكنَّ الحزن يتفجَّر في داخلي بدويّ عاصفة ويبتلّ قميص نومك بدموعي، بينما عواء

أحشائي يولد في أعماق الأرض ويصعد في جسدي مثل حربة، ثم يملأ فمي. إنَّهم يؤكِّدون لي أنَّك لا تتألَّمين. كيف يعرفون ذلك؟ ربَّما تكونين قد اعتدت دروع الشلل الفولاذيَّة، ولم تعودي تتذكَّرين كيف هو طعم الدرَّاقن أو مجرّد متعة تمرير الأصابع بين خصلات الشعر، ولكنّ روحك مقيَّدة وتريد الانطلاق. هذا الهاجس لا يمنحني لحظة هدنة واحدة، وأُدرك أنَّني قد أخفقتُ في أهمّ تحدٍّ في حياتي. كفى! انظري النفاية التي بقيت منك يا ابنتي، بالله عليك... هذا هو ما رأيتِهِ في شهر عسلكِ، ولهذا السبب كتبتِ رسالتك. وتقول لي إينيس، الراعية السلڤادوريَّة ذات ندب الجروح المندملة، والتي تدلِّلك كأنَّك طفلة رضيعة: «باولا تحوَّلت إلى قدِّيسة، إنَّها في السماء، لقد طهَّرها الأمل من كلِّ الخطايا». كم نعتني بك! إنَّك لا تبقين وحدك في الليل أو النهار، وكلَّ نصف ساعة نحرِّكك للحفاظ على المرونة القليلة المتبقِّية لديك. نراقب كلّ قطرة ماء وكلَّ غرامٍ من غذائك. تتلقّين الأدوية في مواعيدها المحدَّدة بالضبط، وقبل تبديل ثيابك نحمّمك وندلِّكك بمراهم من أجل تقوية الجلد. تقول الدكتورة فورستر: «ما حقَّقتموه لا يُصدَّق، لا يمكن أن تلقى مثل هذه العناية في أيِّ مستشفى». ويتنبّأ الدكتور شيما: «ستستمرّ سبع سنوات». ولماذا كلّ هذا الجهد؟ أنت مثل حكاية الحسناء النائمة في صندوقها الزجاجيّ، والفارق الوحيد هو أنَّه لا يمكن لقبلة أيّ أمير أن توقظك من هذه الإغفاءة النهائيَّة. مَخرجك الوحيد هو الموت، يا ابنتي. إنَّني أتجرَّأ الآن على التفكير في ذلك، وعلى قوله وكتابته في دفتري الأصفر. أنادي جدِّي القويّ وجدَّتي البصيرة ليساعداك على اجتياز العتبة والولادة في الجانب

الآخر، وأنادي بصورة خاصَّة، غراني، جدَّتك ذات العينين الشفَّافتين، والتي ماتت حزنًا عندما ابتعدت أنت عنها؛ أناديها لتأتي بمقصّها الذهبيّ وتقصّ هذا الخيط المتين الذي يُبقيك مقيَّدة بجسدك. صورتك ـ وأنت شابَّة بابتسامة لا تكاد تُلمَح ونظرة سائلة ـ موضوعةٌ قرب السرير، مثلما هي صورة الأرواح الأخرى الوصيَّة عليك. تعالي يا غراني، تعالي وخذي حفيدتك، أتوسَّل إليك، ولكنَّني أخشى ألَّا تأتي هي أو أيّ شبح آخر ليخفِّف عنِّي هذه الكأس المُرَّة. سأكون وحدي معك لآخذك من يدك حتى عتبة الموت نفسها، وسأجتازها معك إذا كان ذلك ممكنًا.

هل يمكنني أن أعيش من أجلك؟ أن أحملك في جسدي لتستمرّي في الوجود طوال السنوات الخمسين أو الستِّين التي سُرقت منك؟ ليس تذكُّرك هو ما أطلبه، وإنَّما أن أعيش حياتك؛ أن أكون أنت؛ أن تحبِّي، وتشعري وتنبضي فيّ؛ أن تكون كلّ حركة منِّي هي حركة منك؛ أن يكون صوتي هو صوتك؛ أن أمَّحي، وأختفي لتأخذي مكاني يا ابنتي؛ أن تحلّ طيبتك الفَرِحة والتي لا تكلّ بكاملها محلَّ مخاوفي المعتَّقة وطموحاتي البائسةَ وغروري المستنفَد. أريد أن أعانيَ هذا الحداد صارخة حتى النَّفَس الأخير، ممزِّقةً ثيابي، منتزعةً شعري في قبضات، مغطِّيةً نفسي بالرماد، ولكنَّني منذ نصف قرن وأنا أمارس قواعد السلوك الجيِّد، إنَّني خبيرة بإنكار الغيظ وتحمُّل الألم، وليس لديَّ صوت لأصرخ. ربَّما أخطأ الأطبَّاء وكذبت الآلات ولست غائبة عن الوعي تمامًا وتلاحظين حالتي المعنويَّة. يجب ألَّا أُثقل عليك ببكائي. إنَّني أختنق بالحزن المكبوت. أخرج إلى الشرفة فلا يكفيني الهواء لكلِّ هذا البكاء، ولا يكفيني المطر لكلِّ هذه الدموع. أستقلّ

عندئذ السيَّارة وأبتعد عن البلدة في اتِّجاه الجبال، وأصل من دون تبصُّر تقريبًا إلى غابة نزهاتي، حيث التجأت مرَّات كثيرة لأفكِّر على انفراد. أتوغَّل مشيًا على قدمَيَّ عبر الدروب التي جعلها الشتاء غير نافعة، أركض مصطدمة بأغصان وأحجار، أشقّ طريقي في الرطوبة الخضراء لهذا الفضاء النباتيّ الفسيح الذي يشبه غابات طفولتي؛ تلك التي اجتزتها على متن بغلة مقتفية خُطى جدِّي. أمضي بقدمين موحلتين وملابس مبلَّلة وروح نازفة، وعندما تظلم الدنيا ولا أعود قادرة على المزيد لكثرة ما مشيت وتعثَّرت وانزلقت وعدت إلى النهوض، أسقط أخيرًا على ركبتيّ، فأشدُّ بلوزتي فتتطاير الأزرار، وبذراعَيّ المفتوحتين صليبًا وصدري العاري، أصرخ باسمك، يا ابنتي. المطر دثار من زجاج قاتم، والغيوم المكفهرّة تطلّ من قمم الأشجار السوداء، والريح تلسع ثديَيَّ، وتتغلغل إلى عظامي وتنظِّفني من الداخل بليفها الجليديّ. أغرس يدي في الوحل، وأحمل حفنات من الطين وأرفعها إلى وجهي، إلى فمي، وأمضغ خثارات مالحة من الوحل. أتنشَّق ملءَ فمي رائحةَ الدُّبال الحمضيَّة وعبق الأوكالبتوس الطبِّيّ. أيَّتها الأرض، احتضني ابنتي، استقبليها، غطِّيها أيَّتها الربَّة الأمّ الأرض، ساعدينا. أطلب منها وأواصل التأوُّه في الليل الذي ينسدل عليّ، وأناديك، أناديك. وهناك في البعيد يمرّ سرب من البطّ البرِّيّ، حاملًا اسمَك في اتِّجاه الجنوب: باولا، باولا...

خاتمة

عيد الميلاد ١٩٩٢

فجر يوم الأحد، السادس من كانون الأوّل، في ليلة عجيبة انزاحت فيها الحجب التي تخفي الواقع، ماتت باولا. كانت الساعة الرابعة فجرًا. توقّفت حياتها من دون صراع ومن دون جزع أو ألم، ولم يكن هناك عندئذ سوى السلام والمحبّة المطلقة من كلٍّ من كانوا يحيطون بها. ماتت فوق حضني، مُحاطة بأفراد أسرتها، وبأفكار الغائبين وأرواح أسلافها الذين هرعوا لمساعدتها. ماتت بالظرافة الكاملة التي كانت تتبدّى في كلٍّ حركة من حركاتها وهي حيّة.

لقد بدأتُ أشعر باقتراب النهاية منذ بعض الوقت؛ لقد عرفت ذلك اليقين الحتميّ نفسه الذي شعرت به حين استيقظت في أحد أيّام عام ١٩٦٣ وأنا واثقة بأنّ ابنة قد بدأت تتشكّل في أحشائي منذ

بضع ساعات فقط. لقد جاء الموت بخطوات خفيفة. فحواسّ باولا بدأت بالانغلاق، واحدة بعد أخرى، في الأسابيع السابقة. أظنّ أنَّها لم تعد تسمع. كانت عيناها مغمضتين على الدوام تقريبًا، ولم تعد تأتي بأيِّ ردَّة فعل عندما نلمسها أو نحرّكها. كانت تنأى بصورة حتميَّة. كتبتُ رسالة إلى شقيقي أصف فيها الأعراض التي لا يلمحها الآخرون، ولكنَّها واضحة تمامًا بالنسبة إليّ، مستبقةً الحدث بمزيج غريب من الغمّ والراحة. لقد كان انفصالي عن باولا عذابًا لا يُطاق، ولكنَّ الأسوأ منه رؤيتُها تحتضر ببطء طوال سبع سنوات تنبَّأت بها عيدان الآي تشنغ. في يوم السبت ذاك جاءت إينيس مبكرة وأعددنا معًا دلاء الماء لتحميمها وغسل شعرها. وجئنا كذلك بثيابها لذلك اليوم، وبشراشف السرير النظيفة، مثلما نفعل كلّ صباح. وعندما كنَّا نتهيَّأ لنزع ثيابها عنها لاحظنا أنَّها غارقة في سبات غير طبيعيّ، حالة أشبه بالإغماء، وكانت تشعّ بتعابير طفوليَّة، كما لو أنَّها عادت إلى سنّ البراءة التي كانت تقطف فيها الزهور من حديقة غراني. عندئذ أدركتُ أنَّها أصبحت مستعدَّة لمغامراتها الأخيرة، وفي لحظة مباركة تلاشت اضطرابات تلك السنة ومخاوفها، وحلَّت محلَّها طمأنينة شفَّافة. «اخرجي يا إينيس، أريد البقاء معها وحدي»؛ طلبت منها ذلك، فألقت المرأة بنفسها على باولا تقبِّلها وتقول متوسِّلة: خذي خطاياي معك وحاولي الحصول لي على الغفران عنها هناك في الأعلى. ولم تشأ الخروج إلى أن أكَّدت لها أنَّ باولا قد سمعتها وأنَّها مستعدَّة لتكون حاملة بريدها. ذهبت لتخبر أمّي التي ارتدت ملابسها على عجل ونزلت إلى حجرة باولا. وهكذا، بقينا نحن النساء الثلاث وحدنا، ترافقنا القطَّة

الرابضة في الركن تنتظر، وعيناها العنبريَّتان ثابتتان على السرير. كان ويللي قد خرج إلى السوق من أجل المشتريات، أمَّا سيليا ونيكولاس فلا يأتيان أيّام السبت، لأنَّهما ينظِّفان بيتهما في هذا اليوم، وهكذا قدَّرتُ أنَّه سيكون لدينا ساعات طويلة للوداع من دون أن يقاطعنا أحد. ومع ذلك، فقد استيقظت كنَّتي في ذلك الصباح وهاجس غريب يؤرِّقها، فتركت زوجها يتولَّى الأعمال المنزليَّة من دون أن تنطق بكلمة واحدة، وأخذت الطفلين وجاءت لرؤيتنا. وجدت أمِّي تجلس على أحد جانِبَي السرير وأنا في الجانب الآخر ونحن نداعب باولا بصمت. وتقول إنَّها ما إن دخلت الحجرة حتى أحسَّت بسكون الهواء والضوء الخافت الذي يُحيط بنا، وأدركت أنَّ اللحظة المرهوبة والمرغوبة في الوقت نفسه قد أزفَّت، جلست معنا بينما كان أليخاندرو يلعب بسيَّارته الصغيرة على الكرسيّ ذي العجلات وأندريا تغفو على السجَّادة وهي متشبِّثة بأقمطتها. بعد نحو ساعتين من ذلك، جاء ويللي ونيكولاس، ولم يكونا هما أيضًا في حاجة إلى شروح. أشعلا النار في المدفأة، ووضعا موسيقى باولا المفضَّلة: كونشيرتو لموزارت وفيفالدي، وناكتورن لشوبان. كان علينا أن نتَّصل بأرنستو، وقرَّر الجميع ذلك، ولكن أحدًا لم يكن يردّ على هاتفه في نيويورك، وقدَّرنا أنَّه ما زال في الطائرة التي تقلُّه من الصين وسيكون من المستحيل الاتِّصال به. بدأت وريقات آخر ورود ويللي تتساقط على الكوميدينو بين زجاجات الدواء والحقن. خرج نيكولاس لشراء أزهار وعاد بعد قليل ومعه ملء ذراعيه من الأزهار البرِّيَّة التي اختارتها باولا لحفل زفافها؛ وانتشر شذى الناردين والزنبق بنعومة في أرجاء البيت كلِّه، بينما كان الوقت يتشابك في

الساعات ويصبح بطيئًا أكثر فأكثر.

في المساء جاءت الدكتورة فورستر وأكّدت أنَّ ثمة شيئًا قد تبدَّل في حالة المريضة. لم تلحظ وجود حرارة ولا علائم ألم، وكانت الرئتان نظيفتين، ولم يكن الأمر يتعلَّق كذلك بنوبة أخرى من نوبات الفرفيرين، ولكن آليَّة جسمها المعقَّدة كانت تعمل بصعوبة. «يبدو أنَّه نزيف دماغي» قالت ذلك، واقترحت استدعاء ممرِّضة والحصول على أوكسجين، نظرًا إلى أنَّنا كنَّا قد اتَّفقنا منذ البداية على عدم نقلها إلى المستشفى، ولكنَّني رفضت ذلك. ولم تكن ثمَّة حاجة إلى الجدال، فجميع أفراد الأسرة كانوا متَّفقين على عدم إطالة احتضارها، وإنَّما التخفيف عنها فقط. جلست الدكتورة إلى جوار المدفأة تنتظر، وقد تملَّكها سحر هذه الليلة الفريدة. كم هي بسيطة الحياة في نهاية المطاف... في سنة العذاب هذه، رحت أتخلَّى قليلًا قليلًا عن كلّ شيء، فودَّعت أوَّلًا ذكاء باولا، ثم حيويَّتها وصحبتها، وعليّ أن أودع في النهاية جسدها. لقد فقدت كلّ شيء، وها هي ابنتي تمضي، ولكن بقي لي في الحقيقة ما هو جوهريّ: الحبّ. فالشيء الوحيد الذي أملكه في النهاية هو الحبّ الذي أمنحها إيَّاه.

رأيت السماء تظلم من خلال النوافذ الواسعة. في مثل هذه الساعة يكون المنظر رائعًا من الجبل الذي نعيش فيه، فمياه الخليج تصبح ذات لون فولاذيٍّ لامع، ويكتسب المشهد نتوءات من الظلال والأضواء. حين خيَّم الليل نام الطفلان المستنفَدان على الأرض متدثِّرين ببطَّانيَّة وانشغل ويللي في المطبخ ليعدّ شيئًا للعشاء، عندئذ فقط انتبهنا إلى أنَّنا لم نأكل شيئًا طوال النهار. رجع بعد قليل وهو يحمل صينيَّة وزجاجة شمانيا نحتفظ بها منذ نحو سنة من أجل اللحظة

التي ستستيقظ فيها باولا في هذا العالم. لم أستطع أن آكل لقمة واحدة، ولكنَّني شربت نخب ابنتي، حتى تستيقظ سعيدة في حياة أخرى. أشعلنا شموعًا، وتناولت سيليا الغيتار وغنَّت أغنيات باولا. إنَّ لها صوتًا عميقًا ودافئًا يبدو كأنَّه يخرج من الأرض بالذات، وقد كان دائمًا يهزّ مشاعر أخت زوجها. لقد كانت تطلب منها أحيانًا: «غنِّي لي وحدي، غنِّي لي بصوت خافت». صحوٌ مجيدٌ أتاح لي أن أعيش هذه الساعة بكلِّ مداها، بالحدس المجرَّد والحواسّ الخمس وحواسّ أخرى متيقِّظة كنت أجهل وجودها. كان ضوء الشموع الدافئ يُنير طفلتي: بشرتها الحريريَّة؛ عظامها البلُّوريَّة؛ ظلال رموشها وهي تنام إلى الأبد. مثقلاتٍ بزخم الحبِّ نحوها وبالرفاقيَّة الحلوة للنساء في طقوس الحياة الأساسيَّة، ارتجلنا، أنا وأمِّي وسيليا، الطقوسَ الأخيرة لها. غسلنا جسدها بإسفنجة، ودلَّكناه بالكولونيا. وألبسناها ثيابًا سميكة كي لا تشعر بالبرد، ووضعنا في قدميها خفَّيها المصنوعين من فراء أرنب، وسرَّحنا شعرها. ووضعت لها سيليا بين يديها صورة فوتوغرافيَّة لأليخاندرو وأندريا، وقالت لها: اعتني بابنَي أخيك. كتبتُ أسماءنا جميعًا على ورقة، وأحضرت إكليل زفاف جدَّتي وملعقة فضِّيَّة كانت لغراني ووضعتها كلّها فوق صدرها، كي تأخذها معها كتذكار إلى جانب مرآة جدَّتي الفضِّيَّة، لأنَّني فكَّرت في أنَّه إذا كانت هذه المرآة قد حمتني طوال خمسين سنة، فإنَّها قادرة بكلِّ تأكيد على حمايتها في هذا المشوار الأخير. تحوّلت باولا إلى الشفافيَّة كحجر الأوبال، شفَّافة. . . كم هي باردة! برودة الموت تأتي من الأحشاء، مثل محرقة جليديَّة تتأجَّج في الداخل؛ حين قبَّلتها بقي الجليد على شفتي مثل حُرق. اجتمعنا حول السرير، وتأمَّلنا معًا صورًا فوتوغرافيَّة قديمة

واسترجعنا ذكريات الماضي السعيد، منذ الحلم الأوَّل الذي كشف لي عن مجيء باولا قبل ولادتها بكثير حتى نوبة غضبها الكوميديَّة عند زفاف سيليا ونيكولاس؛ احتفلنا بالهبات التي قدَّمتها إلينا في حياتها، وودَّعها كلّ واحد منَّا وصلَّى على طريقته. وكلَّما كانت الساعات تمرّ، كان هناك شيء مهيب وقدسيّ يملأ الجوّ، تمامًا مثلما حدث عندما وُلدت أندريا في هذه الحجرة نفسها؛ اللحظتان، كلتاهما، تتشابهان كثيرًا، فالولادة والموت مصنوعان من المادَّة نفسها. أصبح الهواء أكثر فأكثر سكونًا، وصرنا نتحرَّك ببطء حتى لا نهيِّج سكون قلوبنا، وكنَّا نشعر بأنَّنا مفعَمون بروح باولا، كأنَّنا واحد، لا انفصال بيننا، فالحياة والموت قد وحَّدانا. وعرفنا لبضع ساعات واقع الروح من دون زمان ولا مكان.

دسست نفسي في السرير إلى جوار ابنتي وشددتها إلى صدري مثلما كنت أفعل حين كانت صغيرة. وأبعدت سيليا القطَّة ووضعت مكانها الطفلين النائمين ليدفِّئا بجسديهما قدمَيْ عمَّتهما. وأمسك نيكولاس أخته من يدها، وجلس ويللي وأمّي إلى جانبي السرير تحيط بهما كائنات سرمديَّة، وهمساتٌ وروائحُ خفيفة من الماضي، وجنٌّ ورؤًى، وأصدقاء وأقرباء أحياء وأموات. انتظرنا طوال الليل على مهل ونحن نتذكَّر اللحظات القاسية، وأكثر منها اللحظات السعيدة، ونروي القصص، ونبكي قليلًا ونبتسم كثيرًا، ونكرِّم نور باولا الذي يُضيء علينا، بينما هي تغرق أكثر فأكثر في السبات النهائي، وقلبها لا يكاد يتوصَّل إلَّا إلى خفقات أشدّ خفوتًا في كلِّ مرَّة. لقد كانت مهمَّتها في الدنيا أن تجمع شمل من مرُّوا في حياتها، وقد أحسسنا جميعنا، هذه الليلة، بأنَّنا نلتمّ في كنف جناحيها الكوكبيَّين، ونغرق في هذا الصمت

النقيّ الذي ربَّما تُخيِّم عليه الملائكة. تحوَّلت الأصوات إلى همسات وبدأ محيط الأشياء ووجوه أفراد الأسرة بالتلاشي، وراحت الظلال تختلط وتتداخل، وفجأة انتبهت إلى أنَّنا أكثر عددًا، فقد كانت هناك غراني بثوبها القطني الرقيق، ومريولها الملطَّخ بالمربَّى، ورائحتها العابقة بالخوخ، وعينيها اللتين بلون النيلة الصافية؛ وكان هناك التاتا بقبَّعته الباسكيَّة وعكَّازه الخشن جالسًا على كرسيٍّ قرب السرير؛ ورأيت إلى جواره امرأة صغيرة ونحيلة ذات ملامح غجريَّة تبتسم لي كلَّما تقاطعت نظراتنا، أظنّ أنَّها ميمي، ولكنَّني لم أجرؤ على التحدُّث إليها حتى لا تتلاشى مثل سراب خجول. وخُيِّل إليَّ أنَّني أرى الجدَّة هيلدا في أركان الحجرة ومنسوجاتها بين يديها، وأخي خوان يرتِّل مع راهبات مدرسة مدريد وأطفالها، وحماي الذي لا يزال شابًّا، وجوقةً من الشيوخ الرقيقين من نزلاء ملجأ المسنِّين الذي اعتادت باولا زيارته في طفولتها. وبعد قليل أحسست بيد العمّ رامون التي لا يمكن أن أخطئها تحطّ على كتفي، وسمعت بوضوح كامل صوت ميثيل، ورأيت إلى يميني إيلديمارو ينظر إلى باولا برقَّة خاصَّة يحتفظ بها لها. أحسست بحضور أرنستو يتجسَّد من خلال زجاج النافذة، وكان حافيًا بملابس التايكواندو؛ إنَّه صورة بيضاء متماسكة دخلت بخفَّة وانحنت على السرير ليقبِّل زوجته من شفتيها. «إلى اللقاء قريبًا يا حبيبتي الجميلة، انتظريني في الجانب الآخر»، قال لها ذلك، ونزع الصليب الذي يعلِّقه دائمًا ووضعه حول عنقها. عندئذ أعطيته خاتم الزفاف الذي كنت أحمله منذ سنة بالتمام، فوضعه في إصبعه مثلما فعل يوم تزوَّجا. وعدت أرى نفسي من جديد في الصومعة التي لها شكل برج الحمائم، تلك التي تبدَّت لي في الحلم في إسبانيا، ولكن ابنتي لم تعد في

الثامنة عشرة من عمرها، وإنَّما في الثامنة والعشرين، ولم تكن ترتدي معطفها الكاروهات وإنَّما عباءة بيضاء، ولم يكن شعرها معقودًا كذيل وإنَّما كان مفلتًا على ظهرها. بدأت ترتفع، وصعدت أنا أيضًا معلَّقةً بأذيال ثوبها. وسمعت صوت ميمي من جديد: لا يمكنك الذهاب معها، لقد شربتْ كأس الموت... ولكنَّني اندفعت بقواي الأخيرة واستطعت التشبُّث بيدها، مستعدَّة على ألَّا أفلتها، ولدى وصولي إلى أعلى رأيت السقف ينفتح وخرجنا معًا. كان الفجر يطلع في الخارج، وكانت السماء مطليَّة بلطخات ذهبيَّة، وكان المشهد الممتدّ تحت أقدامنا يلمع وقد غسله المطر للتوّ. طرنا فوق وديان وجبال، ونزلنا أخيرًا إلى قلب غابة أشجار السيكويا الهرمة، حيث الهواء يصفر بين الأغصان، وحيث عصفور جريء يتحدَّى الشتاء بتغريده المنفرد. أشارت باولا إلى الجدول، فرأيت أزهارًا نديَّة منثورة على الضفَّة، ورمادًا أبيض لعظام متكلِّسة في القمر وسمعت موسيقى آلاف الأصوات تهمس ما بين الأشجار. أحسست بأنَّني أغطس في تلك المياه الباردة، وعرفتُ أنَّ الرحلة عبر الألم تنتهي بفراغ مطلق. ولدى ذوباني انكشف لي أنَّ ذلك الفراغ مملوء بكلّ ما يتضمَّنه الكون. إنَّه لا شيء وكلّ شيء في الوقت ذاته. نور قدسيّ وظلال بلا قرار. أنا الفراغ، وأنا كلّ ما هو موجود؛ إنَّني في كلّ ورقة من أوراق الغابة؛ في كلّ قطرة طَلّ، في كلّ ذرَّة رماد يجرفها الماء. إنَّني باولا وإنَّني أنا نفسي أيضًا. أنا لا شيء وكلّ شيء في هذه الحياة وكلّ الحيوات الأخرى. أنا خالدة.

وداعًا يا باولا المرأة،

أهلًا يا باولا الروح.



تصميم الغلاف: نجاح طاهر

عندما دخلتْ پاولا في حالة سبات، بدأتْ والدتُها، الكاتبة التشيليَّة الكبيرة إيزابيل ألليندي، تدوِّن على صفحات دفترٍ قصَّةَ أُسرتِها، وقصَّتها هي نفسها، لتقدِّمها هديَّةً إلى ابنتها بعد تجاوز المحنة المأساويَّة. ولكنَّ المرض امتدَّ لشهور طويلة، وتحوَّلتْ ملاحظاتُ الكاتبة إلى هذا الكتاب المؤثِّر والكاشف عن شخصيَّتها.

تمارس إيزابيل الليندي هنا موهبتَها الروائيَّةَ المذهلة لتستعيد معايشاتِها الحياتيَّة، ولتُمسكَ بزمامها كامرأة وكاتبة؛ كما أنَّها تستعيد معايشاتِ أسرتها وتاريخ وطنها القريب.

إنَّها صورة ذاتيَّة فريدة في تأثيرها العاطفيّ، وهي في الوقت نفسه إعادةُ إبداعٍ ممتعةٌ لرهافة النساء في عصرنا.

«پاولا» كتاب سيبقى مرتبطًا في ذهن القارئ بزخم تجربةٍ مؤثِّرةٍ لا تُنسى.


ISBN: 978-9953-89-595-6


دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف:1795135- 1861633 (961+)